
الدار العربية للعلوم ـ ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

VILLARD

«أكثر تشويقاً من الخيال»
– فرانك دبليو أباغنايل،
مؤلف رواية «اقبض علي إن استطعت»

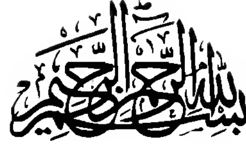
إعترافات لِصٍّ مُجَوهَراتٍ مُحتَرِف

الرواية الحقيقية المذهلة لمغامرات لص ماهر أربك الشرطة والمجتمع المخملي

رواية حصرية لمنتدى سور الأزبكية

بيل ماسون
بالاشتراك مع لي جرونفيلد

اعترافات
لص مجوهرات محترف



يضم هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
Confessions of a Master Jewel Thief
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
VILLARD
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم

اعترافات
لص مجوهرات محترف

تأليـــف

بيل ماسون ولي جرونفيلد

ترجمــــة

رشا جمال



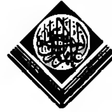
الدار العربية للعلوم ـ ناشرون ش.م.ل

Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

الطبعة الأولى

1428 هـ - 2007 م

ردمك 9-082-87-9953



الدار العربية للعلوم - ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 - 785108 - 785107 (1-961)
ص.ب: 5574-13 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: 786230 (1-961) - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: أبجد غرافيكس، بيروت - هاتف 785107 (9611)

الطباعة: مطابع الدار العربية للعلوم، بيروت - هاتف 786233 (9611)

المحتويـــات

القسم الثالث

القسم الرابع

الإهـــداء

إلى الذين أحبونني على أية حال

مقدمة

كـــل من عاش في فلوريدا الجنوبية، من الأرجح أنه عاش متاخماً للمحيط ما بـــين ميامـــي وبالم بيتش، وحيثما اجتمع العديد من الموسرين داخل أرجاء منطقة واحـــدة، فلا مناص من تباري (تنافس) الغريزة الفطرية البشرية. فإذا كان ثراؤك فاحشاً، بينما لا تمتهن أية وظيفة أو تمارس نشاطاً رياضياً، فالأسلوب الذي تباري بـــه هو محاولة إقناع الآخرين أنك أوفر مالاً منهم. وهذا ما تفعله سيدات الطبقة الـــراقية بجنوب فلوريدا حين يتحلين بثرواتهن التي يضعنها على أجسادهن في شكل مجوهـــرات، ثم يحـــاولن جاهـــدات أن تلتقط لهن الصور. ربما خالجهن الظن أن الأخريات من الطبقات الراقية هنّ فقط من يطالعن صفحات المجتمع، بيد أن تلك الصور والروايات بالنسبة للص هي أشبه بالكتيبات الدعائية.

لم تجـــابهني معـــضلة في ارتداء ملابسي وولوج الحفلات الخيرية والمناسبات الفاخـــرة الأخـــرى. لكني لم أرغب في القيام بذلك حتى لا يصبح وجهي مألوفاً، وكم كان من العسير أن أفسر لزوجتي مبرر خروجي متأنقاً للمحافل مساء السبت دون أن أصحبها معي. ومن ثم، كنت أقبل على ذلك فقط متى اقتضت الظروف، وعـــادة مـــا كنت أدخل الحفل منضماً إلى حشد ضخم من الناس في طريقهم، ثم أتصرف وكأنني منتمياً إلى المكان.

كـــنت أحرص دائماً على بدء الحديث، ثم أدع الطرف الآخر يتولى زمامه، وهـــي ليـــست بالحيلة البارعة. وبمضي الوقت، أضحيت ماهراً في تحديد من كان يحـــاول إحداث أثر أكبر في نفوس الآخرين، ومن كان يحظى فعلاً بالثروات. كما

علمـــت أين كان يقيم الناس، وتوصلت لمعرفة يقينية عن عادات الأثرياء المهملين. فعلـــى ســـبيل المثال، علمت أنه لو عزمت سيدة ما على حضور إحدى الحفلات الراقصة الضخمة، فإنها ستقضي طيلة فترة الظهيرة وما بعدها في صالون التجميل، ولكـــن فقط بعد أن تقوم بترتيب ملابسها وأدوات زينتها. بالنسبة لي، كان هذا يعني شقة خالية بمجوهرات مكشوفة، وحال وجود خزانة، فقطعاً ستكون مفتوحة. فهـــؤلاء الذين لا يجازفون بترك خزاناتهم مفتوحة متى كانوا بالبيت ليلاً، فإنهم لا يهـــتمون إطلاقاً بتركها مفتوحة على مصراعيها إذا ما تغيبوا نهاراً. من بين قواعد السطو الأصيلة، هي أنها لا تجوز قط خلال النهار. إلا أن القاعدة الفعلية ما هي إلا تنويع آخر لتعليق شهير للاعب كره البيسبول ويللي كيلر حول استراتيجية تصويبه للهدف، حيث قال: "اضربهم حيث لا يوجدون".

أول مـــا تعرفت على السيدة أرماند هامر كان في بعض الحفلات الراقية. لم أكـــن أعـــرفها في البداية؛ كان كل ما أبصرته فيها هو أنها امرأة غاية في الجمال، تتحلـــى ببعض الأحجار الكريمة الرائعة، و لم أندهش حين عرفت أنها كانت زوجة لواحد من أثرى الرجال في الدولة.

أصرّ د. أرماند هامر على أن يُكنّى بلقب "دكتور" رغم حصوله على درجته الطبية منذ ما يربو على نصف قرن مضت، و لم يزاول مهنة الطب قط. كان رئيس مجلس إدارة شركة النفط الغربي؛ واحدة من أكبر شركات النفط في البلاد. كان قد اشـــتراها حـــين كانت على وشك الإفلاس، وأمضى سنوات في تأسيسها، حتى أضـــحت مجمعاً ضخماً في منتصف السبعينيات من القرن الماضي. كما كان هامر محباً عظيماً للخير، فتبرع بمبالغ مالية ضخمة، وأعمال فنية بارزة الشأن لمؤسسات متنوعة رفيعة المستوى. ربما كان الوقت قد حان كي يتبرع بشيء يسير لي.

أرشـــدني دليل المدينة إلى مكان إقامة عائلة هامر، حيث كان بمجمع سكني فاخر يطل على شاطئ في فورت لود يرديل. كانت شقتهم بالطابق الخامس عشر، وكانت تلك أنباءً رائعة بالنسبة لي؛ فأغلب الظن أنهم يستبعدون احتمال تعرضهم للخطـــر. ولكـــن كـــان للمبنى أكثر من حارس، ومن ثم كان يتعين عليَّ الالتزام بالمـــراقبة المتأنية لأتلمس طريقة دخولي إليه. لم أكن لأعتبر هذه مهمة شاقة، حيث

يمكـــنني الجلـــوس على مقعد شاطئ مريح، فلا أرقب المبنى فحسب، بل والنساء الباهرات في ملابس الاستحمام الضيقة المنسابة عليهن.

اتخـــذ المـــبنى شـــكل سلسلة أعمدة مربعة مذهلة، وبكل طابق أربع شقق، وجاءت كل غرفة متسقة على شكل زوايا قائمة مع الغرف الموجودة على جانبيها، بطريقة جعلت من كل غرفة ركناً جديداً بالفعل. شقتان كانتا تواجهان المحيط من الجهـــة الشرقية، والشقتان الأخريان كانتا تواجهان المجرى الساحلي على الجانب الغـــربي مـــن المبنى. وقد برزت حافة ضيقة، بالكاد يمكن ملاحظتها من مستوى الـــشارع، الـــتفت بشكل متعرج حول كل طابق من طوابق المبنى، وبدت أشبه بتصميم معماري مزدهر أكثر منها مجرد بروز ذي استخدام فعلي. كما كان هناك درج سُـــلّم مفـــتوح يمر من الطابق الثاني وحتى نهاية السطح، مما يسمح بسهولة الوصول إلى كافة أنحاء المبنى من خلاله. وبينما أحاطت القضبان الحديدية بالطابق الـــثاني، بـــيد أن كافـــة مسطحات الدرج بعدها كانت مفتوحة للهواء الطلق. وأحسب أنه كان من المفترض لدُن العمل بالمبنى، أن أحداً لن يستطيع اجتياز سياج الطابق الثاني، ومن ثم لم يكن هناك داعٍ لإفساد مظهر المبنى بتسييج الدرج بأكمله.

في الـــنهاية، كان متاحاً لي أن أرى كل ما أردت أن أراه من الأرض، وحان الـــوقت لتجربة صغيرة عن كثب. ذات مساء، ألقيت بخطاف (كُلاّب) إلى أعلى حافـــة الطابق الثاني ما بين شقتين، وتسلقت، ثم أعدت تثبيته بدَرَج الطابق الثالث فوق القضبان الحديدية، وهكذا، حتى تسلقت الدرج لاثني عشر طابقاً، ووجدتني قـــبالة باب السيدة هامر. كان عليه جهاز إنذار لامع وقفلان مذهلان، فضلاً عن القفل العادي فوق مقبض الباب مباشرة. ومن المحال معرفة ما إذا كان المكان فعلاً مزوداً بأجهزة إنذار، أو أن اللاصقة كانت فقط للتباهي، أو أنهم عادة ما يقومون بتـــسليح المكان. أكاد أقسم أن الوصول لرغد العيش كان يزداد صعوبة ومشقة؛ لماذا لا يعيشون بالشقة المجاورة حيث لا يوجد سوى قفل عادي واحد كالمعتاد؟ لم تكن تلك بادرة طيبة.

ومـــا يزيد الأمر أسفاً هو أنني كنت على مشارف التيقن من معرفة عادات الـــسيدة هامـــر، مما زادني اقتناعاً بوجود كنـــز ثمين بالداخل، وكنت قادراً على

تتبعها بسهولة متى خرجت أو دخلت المبنى. أبقيت سيارتي على بعد ما يقرب من مائة ياردة (90 متراً) من طريق (أيه آي أيه)؛ وهو الطريق الموازي للمجرى المائي، وكـــنت أرقـــب سيارها من الشاطئ مستخدماً منظاراً ثنائي العَيْنيَّة، حيث كانت تقـــود بـــبطء، وكـــان متيسراً إدراكها حالما تبينت اتجاهها. كانت تهوى شراء أطعمـــتها، وتتبعتها ذات مرة إلى داخل متجر بقالة لمجرد أن أرى ما كانت ترتديه من حلي. ولكن لا شيء، مما كان يعني أن جميعها ما زالت هناك.. في الشقة.

غالـــباً مـــا كان السيد والسيدة هامر يخرجان للعشاء ويعودان نحو العاشرة مـــساءً. شرعت في مراقبة المكان ليلاً، وكانت الشقتان المجاورتان مضاءتين دائماً، ولم أبـــصرهما قـــط مظلمتين. لكن الشقة الرابعة، تلك المعلق عليها قفل رخيص، كانت مظلمة دائماً. كنت قد تحريت بالفعل، وعلمت أنها لم تكن معروضة للبيع، لـــذا عـــدت أدراجـــي لدليل المدينة، واكتشفت أنها كانت مسجلة كشقة لزوار مؤســـسة ما. عدت مسرعاً إلى المبنى ذات ليلة، وأدركت أنه إذا استطعت ولوج شـــقة الزوار تلك، لتمكنت من المضي على تلك الحافة الضيقة، ولتلمست طريقي إلى شقة آل هامر.

كانت شقة الزوار على جانب المبنى المقابل لشقه هامر، ولم تكن فكرة السير عبر واجهة المبنى (بما فيها خمس زوايا قائمة لاجتياز كافة تلك الأركان) على حافة لا يـــزيد اتساعها عن ثمانية عشر بوصة (4.5 سم)، وبلا حبل للتشبث به، فكرة مقـــبولة تمامـــاً، خاصة وأن السقوط من ارتفاع خمسة عشر طابقاً هو مكافأة زلة القدم الأولى.

إن الـــتحدي الحقيقي في التخطيط لنشاط إجرامي إنما يكمن في التوصل إلى أكـــبر قـــدر من التوقعات، ثم التأهب تبعاً لذلك. فبالإضافة إلى أشياء مثل طرق الهـــرب، وحـــالات الطوارئ في حالة تعثرك بجهاز إنذار، يتعين عليك أيضاً تقرير أنواع الأدوات التي قد تحتاج إليها، وأية مواد احتياطية معينة من الصواب وجودها معك. خامرني حدس جيد عما قد أجابه في شقة هامر، وبات جلياً أنه لا مفر من اجتـــياز تلـــك الحافة الضيقة، والدخول عبر النافذة. كان الباب محفوفاً بالمخاطر، ولكـــن بإسناد ظهري إلى الجدار تماماً، بينما تتعلق مقدمة حذائي بالحافة، لم يكن

هناك ثمة سبيل لحمل كافة الأدوات معي. ولو انتهى بي المآل بالتعثر بأحد أجهزة الإنذار قبلما أدرك الشقة، لكان من العسير عليَّ حقاً التحرك بسرعة عبر تلك الحافة بدون أن تثقل حركتي العديد من الأغراض الثقيلة الوزن المربوطة حول جسدي، والتي لا يمكن فكها بسهولة، ولسقطت في الحال.

عندما جالت الإجابة بخاطري، ألفيتها في منتهى البساطة، حتى إنني أنّبت نفسي لعدم مراودة الفكرة لي من قبل: في إمكاني حمل كافة الأدوات التي رغبت فيها إلى شقة الزوار وإخفائها هناك قبلما أشرع في الخروج على الحافة. حتى إذا ما دخلت شقة هامر، بات كل ما يتعين عليَّ عمله هو اجتياز بابهم وعبور الردهة إلى شقة الزوار، ثم التقاط كافة أغراضي وحملها عائداً.

كانت أدوات قطع الزجاج هي كل ما كنت أحتاج إليه حقاً وأنا فوق الحافة؛ فلو أن باب رواق عائلة هامر موصدٌ، وأظنه كان مدعماً بجهاز إنذار، لأمكنني حينئذٍ إحداث ثقب كبير به بما يكفي لأزحف من خلاله، وعندها أبطل نظام الإنذار من الداخل. بالطبع كان هذا في الأيام التي تسبق وجود أجهزة استشعار الحركة بالموجات الصوتية، فحالما ولجت هناك، لن يكون ثمة شيء آخر يعوقني.

أفضل الأمور قاطبة هو أنني - بعد إنجاز مهمتي - لم أكن مضطراً إلى العودة إلى تلك الحافة النحيلة لمغادرة المكان، فكان بوسعي هبوط الدرج تماماً مثلما ارتقيته صاعداً.

وهكذا كان الأمر يتحسن شيئاً فشيئاً، والأكثر أنه قد طرأ ببالي لاحقاً أنني لو اكتشفت فقدان أداة ما، بوسعي ترك المبنى كله بمنتهى البساطة - عن طريق الدرج والخطاف المعلق - ثم الذهاب لجلب ما أحتاج إليه وأعود أدراجي مرة ثانية، بلا ضرورة لاجتياز الحافة مرة أخرى.

وسيلة هربي حال ما تعثرت بجهاز إنذار صامت في شقه الزوار كانت تبدو جيدة أيضاً. فمن تلك الحافة، سيكون بوسعي أن ألقي نظرة جيدة، ومن ثم أتمكن من رؤية الأضواء الوامضة على بعد أميال، مع وجود فسحة كبيرة من الوقت للدخول في أية شقة خاوية والتواري فيها، لا سيما في وجود قفل زهيد يسهل فتحه.

وعـــندما حان الوقت، كنت مستعداً للقيام بالمهمة، وكنت قد عاينت ثلاث مـــن تلك الشقق، وعرفت كيفية فتح أبوابها جميعاً. وطالما لم أضطر لقطع زجاج بـــاب الرواق، لن يكون هناك أدنى أثر لدخولي المبنى، وسيبدو الأمر وكأنه إنذار كـــاذب. عـــندئذٍ، يمكنني العودة في وقت آخر، بعد أن تستقر الأمور، وأحاول انتهاج خطة مختلفة.

من الطبيعي أن الوقت الأمثل لمهمة كهذه هو متى أزمع آل هامر على الخروج إلى بعـــض مناســـباتهم المبهـــرة، والتي كان في إمكاني معرفتها مقدماً عن طريق الـــصفحات الاجتماعية. ولكن غالباً ما يكون هذا في أمسيات الجمعة أو السبت، بيـــنما يزخر الشاطئ عصراً في تلك المنطقة بالناس ممن يستطيعون رؤيتي بسهولة. ولـــو داهمـــت الشقة متى لم يكونوا على أهبة الاستعداد لحفل أو مناسبة ما، فمن الجائـــز ألا يكون هناك شيء يستحق السرقة. بات من المؤكد احتمال احتفاظهم بالمجوهرات الثمينة في خزانة صندوق ودائع، حيث تُخرج السيدة هامر ما تشاء متى اقتـــضت حاجـــتها لـــه. لذا، عندما علمت ذات مرة أنهما أزمعا حضور إحدى الحفلات الكبرى، تتبعت السيدة زهاء يومين لأرى إن كانت ستذهب إلى البنك، بـــيد أنها لم تفعل. أنبأني هذا بأنهم كانوا يحتفظون بخزانة في شقتهم، فأدرجت في قائمة مهماتي الأدوات التي سأحتاج إليها لفتح تلك الخزانة.

إلا أن الأكثـــر أهمـــية هو أن كل تلك الترصدات والتحاليل قد أفضت بي إلى اســـتنتاج مؤســـف بحق: فكما لو أن تلك الحافة لم تكن خطرة بما يكفي، حدث أن قـــررت إنجاز هذه المهمة في ليلة عاصفة حينما يكون الشاطئ مقفراً، فيحجب صوت الـــرعد والمطر أي ضجيج قد أحدثه. وكان لزاماً أيضا أن أنجزها في ليلة لم يزمع فيها آل هامـــر حـــضور أمـــسية فاخرة جداً، فلم أكن راغباً في ولوج تلك الشقة في ليلة تقلدت فيها السيدة هامر أفضل نفائسها حول جيدها، بدلاً من تركها في خزائنها.

رياح عاصفة، طقس رطب، يسوده الظلام...

وفي الأيـــام القلـــيلة التالية لذلك، شرعت في النظر إلى تلك الحافة بشكل مختلف تماماً.

* * *

عقب انقضاء أسبوعين، وتماماً في الوقت المناسب، هبّت على المكان عاصفة موسمية من الجنوب. بدأت العاصفة في الهبوب في وقت متأخر من عصر يوم عمل عـــادي، وفي الـــوقت نفسه الذي كنت أشحذ فيه همتي لاعتلاء الدرج، وما أن خـــبأت الخطاف والحبل في صندوق مطفأة الحريق، وارتقيت الدرج حتى الطابق الخـــامس عشر، اشتدت العاصفة وهبّت في قوة الريح الموسمية. نجحت في الدخول إلى شقة الزوار دونما عقبات، وطفت في أرجاء المكان بنظرة سريعة لأتيقن من أنني كنت فعلاً بمفردي. عكفت منهمكاً، وحثيثاً، و لم أضع أدنى حركة، لأنني لم أكن راغـــباً في الـــتفكير في كيف سيكون الأمر لدن الخروج إلى تلك الحافة. كنت قد خططت لهذا حتى أدق التفاصيل، لدرجة أنني فكرت في حمل منشفة لأمسح أسفل حذائي، فلا يتوصل أحد لمعرفة كيفية اقتحامي الشقة فيما بعد. وبالتالي، كان كل مـــا تبقى لي الآن هو تنفيذ الخطة بدون أن أشغل بالي بالتفكير فيها بتاتاً؛ فالباب الأمامـــي موصـــدٌ ولكـــن دونما قفل، وحقيبة بداخلها الأدوات، ولا شيء معلق بـــسترتي أو ســـروالي مـــن شأنه أن يعرقل حركتي. كانت تلك مفردات قائمتي الذهنـــية، ففـــتحت إحدى النوافذ وأدخلت ساقاً واحدة خلالها، مثبتاً قدمي على الحافة، ثم أزلجتها لأختبر شدة التشبث.

لم يكـــن الأمر جيداً. افترضت أن السطح مصنوعاً من الإسمنت الخشن، ويمكن الارتكاز عليه، بيد أنه كان أنعم ملمساً مما توقعت، كما أن مخلفات المياه من العاصفة الممطـــرة جعلت الأمر أكثر سوءاً. كان لزاماً عليَّ التيقن من تثبيت كل قدم مع كل خطـــوة إلى أسفل كي أعتمد – إلى حدٍّ ما قدر الإمكان – على الاحتكاك في كبح حركتي التالية إلى الأمام، وهو ليس بالسبيل المألوف للسير. أدخلت ساقي الثانية، ومن ثم أصبحت واقفاً على خارج المبنى، بينما ما زلت متشبثاً بأسفل النافذة المفتوحة. ملت إلى الخلـــف لإغلاقها حتى لا تتسرب الأمطار إلى داخل الحجرة، تاركاً فجوة صغيرة للـــتأكد من إمكان إدخال أصابعي لفتحها ثانية؛ ليس خشية إغلاقها، ولكني لم أكن راغباً في دفع ذلك الزجاج إلى أعلى في محاولة لفتحه مرة أخرى، بينما أقف على تلك الحافة المتناهية في الصغر التي لم يكن بوسعي الاعتماد عليها. في النهاية تمكنت من ترك كل الأشياء تماماً، ووقفت ثانية ثم شرعت في التحرك.

ألصقت ظهري بالجدار، وشرعت في تخيل الجولة بأكملها. ولكن بعد سير عشرة أقدام (3 أمتار)، كنت أحاول فيها - عبثاً - دفع مياه الأمطار عن عينيّ، وتخيلت لو انزلقت قدماي وسقطت رأساً على عقب.. ما كان مني إلا أن استدرت وألصقت صدري بالجدار بدلاً من ذلك. رحت أختبر موضع قدميّ في حذر في كل خطوة، متلمساً أي تغير في احتكاك قدمي بسطح تلك الحافة، وقد تسببت الطريقة التي كان ينزلق بها حذائي على ذلك السطح الأملس في أن شعرت بغثيان. وتساءلت عما ستفعله الشرطة بجثمان مسحوق فوق الإسفلت حال انزلقت وسقطت - انتحار... ربما؟

كانت جولة مفزعة بحق، ولقد قمت بالفعل بسرقات كثيرة وحصلت على غنائم باهرة، مثل سرقة رأس النافورة الفائقة الأناقة، ولكن تلك كانت نزهة هينة مقارنة بهذا السطو. فقد اقتضت تلك تسلقاً عمودياً، وحظيت بحبل مريح للتعلق به بكلتا يدي، بل وكان بإمكاني لف ساقيّ حوله لألتمس بعض الراحة. وكان أسوأ ما يمكن أن يحدث هو السقوط على الرمال من ارتفاع أربعين قدماً (12 متراً)، وساق مكسورة، أو اثنتان، إذا ما سارت الأمور إلى الأسوأ.

لكن هذا.. كان ضرب من جنون، فمن شأن عطسة واحدة أن تسقطني من فوق الحافة. قبل تلك اللحظة، لم أكن أبداً قد حاولت تقدير قيمة وجود شيء - أي شيء - يصلح للتشبث به. فلم يكن لديّ آنذاك سوى يديّ المنبسطتين على الجدار، وكانت كل هبّة ريح ترتطم بظهري بمثابة قوة خبيثة الطوية تحاول نزعي عن المبنى، وطرحي في الخواء.

لعلك كنت تتوقع بعض الهراء عن كيف أنني رحت أحدق في وجه الموت الوشيك الحدوث، وأجبرته على أن يبقى بمنأى عني. حسناً، لا تنتظر هذا مني. فقد استبدَّ بي الخوف حتى جفّ دمي؛ كنت دائماً أهاب لدن اقترافي تلك السرقات. فعدم الخوف معناه الجنون، وكان هذا أكثر المواقف التي انخرطت فيها جنوناً. وعلى رأس الخطر الجسدي الذي يحفّ به الموقف، كان هناك واقع تورطي في نشاط إجرامي؛ فبينما كنت أحاول جاهداً اجتناب الموت، كنت أحاول أيضاً أن أتوارى عن الأعين. ولكن الحيلة كانت تكمن في ألا أهاب كوني خائفاً، لأن

الخوف كان ظاهرة صحية في هذه اللعبة، وما وجب عليك السعي إلى تحقيقه بعد ذلــك هـــو التوازن: كن خائفاً لتظل شاخصاً على قدميك، على ألا يستبدّ بك الخـــوف فيمنعك من تنفيذ الخطة؛ فلو أنك لا تستطيع كبح جماح خوفك، فإنك تقع بالخطأ بالنسبة لعملك.

كـــان ولـــوج شرفة آل هامر مبعثاً للراحة. وقفت هناك، واستنشقت نسمة هـــواء للحظـــة، مطـــبقاً على السياج بإحكام، لدرجة أنني لم أكن واثقاً من أنني سأســـتطيع بـــسط أصابعي بعدها. وعندما انتهيت من ذلك، اكتشفت أن باب الرواق كان غير موصد، ولم يكن هناك أية أجهزة ترصُّد في أي مكان على مرمى البـــصر. كان من شأن هذا الحظ السعيد أن يضفي أثراً مريحاً على نفسي، بيد أن ذهـــني كان في سباق مع الزمن رغم ذلك. وكان هذا يحدث في يسر شديد رغم كابوس المضي فوق الحافة. شرعت في التساؤل إذا ما كنت قد أمعنت التفكير في كـــل شيء فعلاً، لكن سرعان ما أبعدت ذلك عن ذهني. فلم يكن من المحتمل أن يطرأ إلى ذهني الآن، وأنا في غمرة انشغالي، أي شيء نافع لم أفكر فيه أثناء أسابيع من التخطيط الدقيق الواعي.

دخلـــت الشقة، وأصغيت لبرهة، ثم أجريت بحثاً دقيقاً للتيقن من أنني كنت بمفردي. كان الظلام مخيماً على المكان، إلا أني لم أشأ إضاءة الأنوار، فاستخدمت بطـــاريتي الصغيرة. كانت غرفة النوم هي آخر ما توقفت عنده، وماذا تعتقد: كان هـــناك صـــندوق مجوهرات ضخم فوق الخزانة مباشرة. كان الغطاء مفتوحاً على مـــصراعيه، والجـــزء العلوي كاد أن يفيض بالدرر الثمينة الرائعة. لم يكن (سانتا كلوز) ليمتلك كل تلك الثروات، كما أنه كان يسعى فقط وراء الحلوى.

في هـــذه اللحظـــة وجـــدت مبرراً لكوني لص مجوهرات. كان الأمر أشبه بالمخدر؛ يتسلل إلى حيث لا يحسب أي شخص إمكان ولوجه. ينفق الناس ثروات ضخمة، ويغيرون أنماط حياتهم، في محاولة لحماية الأشياء القيمة مثل تلك من أناس مثلي، وها أنذا.. هنا، بمفردي، على بعد طفيف من الكنـــز الثمين. وكما قررت أن أفعـــل، ســـأترك الدار تبدو تماماً مثلما كانت قبل وصولي. بالنسبة للساكنين المندهـــشين، سيبدو الأمر ببساطة وكأن المجوهرات قد تبخرت. لم تكن اللعبة التي

أمارسها لعبة ذكاء، و لم يكن في الأمر سخرية، أو محاولة إظهار أي تفوق، أو إثبات وجهة نظر ما. كان الأمر ببساطة كيفية اجتناب الإيقاع بي. فعدم وجود متغيرات بالمكان كان يعني الافتقار إلى الأدلة والبراهين. ومع الحفاظ على السيطرة على ذاتي، وطمس معالم الوسائل التي أتبعها، كان كل ما استطاعت الشرطة التوصل إليه عن كيفية إنجازي هذه المهمة ضرب من توقعات ليس أكثر، وكلما ازداد ميلهم إلى التخمين، كلما ازداد اطمئناني.



مسكن هامر كان الثالث من أقصى اليمين، فوق النوافذ الموصدة. سرت فوق الحافة من الشقة في أقصى يسار ذات الطابق.

لم أكن لأحتاج إلى أي من الأدوات التي أحضرتها، لذا لم يكن من المنطقي الانتقال إلى الشقة المجاورة ومن ثم العودة. التقطت وسادة من الفراش، ونزعت عنها غطاءها، ثم أفرغت صندوق المجوهرات في الغطاء. لدن ذلك، كنت قد استغرقت خمس دقائق فقط داخل الشقة، ولكن كان القلق قد بدأ يساورني بشأن

الخـــروج مـــن المكان، لذا لم أشغل نفسي بتفقد المزيد من الأشياء الثمينة. ومما لا يصدق، ليس فقط أن جهاز إنذار الباب الأمامي كان أعزل، بل و لم يكن أي من الأقفـــال الإضـــافية محكماً. لو أني عرفت ذلك مقدماً، لتجنبت تلك المسيرة على طول الحافة.

عـــبرت صوب الردهة، وأخذت أدواتي التي لم أستخدمها من شقة الزوار، أوصدت النافذة التي كنت تركتها مفتوحة جزئياً، ومسحت عتبة الباب. وبعد أن أغلقت الباب ورائي، نـــزلت إلى الطابق الثالث واستعدت الخطاف المعقود مـــن صندوق مطفأة الحريق. انحنيت على الأرض، وفككت الخطاف، وكيس الوسادة المليء بالمجوهرات مدثرٌ تحت قميصي، ثم عمدت صوب الشارع مباشرة إلى حافة المياه، حيث قطعت مسيرة عمارتين للوصول إلى سيارتي. فور ما نأيت بأمـــان عـــن المبنى شرعت في تدبر كل شيء في ذهني. أتراني تركت أي شيء بأعلـــى يمكـــن اقتفاء أثره؟ خلتني كنت حريصاً، بيد أنني لم أحاول التفكير في ذلك مرة ثانية.

قدت سيارتي إلى مكتبي، وسمحت لنفسي بإلقاء نظرة خاطفة على المسروقات قبل إخفائها. كان هناك عدد ضخم من قطع الماس، أغلبها من الأساور، والأقراط، والدبابيس، وبعض المشغولات الذهبية الباهرة الجمال، بما فيها سوار ذهبي مزركش بديـــع. لكـــن أكثر القطع إبهاراً كان دبوساً مصنوعاً على شكل وردة لها بتلات ماســـية موشـــاة بالذهب ومفتوحة لتكشف عن ماسة بالداخل تزن ثلاثة قراريط مرصـــعة. كانت قطعة مذهلة بحق، ومن المؤسف أنه يجب تكسيرها وبيع أجزائها كي لا يتمكن أحد من التعرف عليها، ومن ثم يربطني بالسرقة.

لم تكتـــشف الـــشرطة الجـــاني قـــط، ولم يتوصلوا أيضاً لكيفية دخول "اللصوص" (فقد افترضوا أنه كان هناك أكثر من فاعل) إلى الشقة. سبب ذلك حـــرجاً بالغـــاً لكل من يعنيهم الأمر: مديرو المبنى الذين وعدوا ساكنيه أعلى مـــستويات الأمن، ورجال الشرطة الذين لم يتمكنوا من تصور كيفية ارتكاب السرقة، وافتقروا إلى الأدلة والبراهين، بالإضافة إلى أفراد أسرة هامر الذين كانوا يؤثـــرون لو أن العالم الخارجي لم يعرف أنهم قد تركوا ثروة من المجوهرات بمقر

ســـكنهم، و لم يأبهــوا بتشغيل أجهزة الإنذار. بدا الأمر وكأن الجميع يهتمون بإبقـــاء الحـــادث برمته سراً، فلم يرد ذكرها إطلاقاً في أي من وسائل الإعلام المحلية.

بعـــد أربـــع سنوات من وقوع السرقة، وعندما لم تتوصل الشرطة إلى مشتبه واحد، ربما أعترف بأنني كنت اللص.

القسم الأول

1

البدايات

اسمـــي بـــيل مايسن، وإن لم يكن هذا الاسم مألوفاً لديك، فهذا يعني أني قد أبلـــيت بلاءً حسناً في الاحتفاظ بأشيائي لنفسي، وهي الطريقة التي نجحت بها في الإفلات من عقوبة السجن.. على الأقل في أغلب الأوقات.

فمن خلال "مهنة" امتدت لقرابة الثلاثة عقود، قد استطعت سرقة مجوهرات تـــبلغ قيمتها عدة ملايين من الدولارات، وأُصبت برصاصة كادت تودي بحياتي، وأفـــسدت زواجاً كان جيداً، ونجحت في تربية ثلاثة أبناء رائعين بحق، بالرغم من الهـــوس الشاذ الذي استحوذ على أبيهم. وعلى الرغم من أن الهيئات العاملة على تطبـــيق القانون كانت على علم بما ارتكبته من سرقات، إلا أني لم أدن قط بتهمة سرقة المجوهرات.

وقـــد حـــدث أن سرقت مجوهرات وأحجاراً كريمة نادرة من أشخاص مثل "روبرت جوليه"، و"جوني ويسملر"، و"ترومان كابوتي"، و"فيليس ديلر" (مرتين). كمـــا نجحت في اقتحام خزينة تخص نائب رئيس واحدة من أكبر عصابات المافيا. إلا أنـــه لديّ بالطبع محاولات أخرى لم تفلح؛ كمحاولة سرقة "مارفين ديفيس"، و"إليزابيث تايلور"، و"مارجو هيمنجواي"، والأخوات "ماكجوير".

ولقـــد لحقـــتني الشرطة المحلية ومكتب التحقيقات الفدرالية في طول البلاد وعرضها، حتى إن علاقات غاية في الغرابة قد ربطت بيني وبين بعض منهم. وعلى ذكر الصداقات الغريبة، كنت أنا الشخصية الرئيسية في فضيحة الوريثة الشهيرة التي اهتزّ لها مجتمع كليفلند الراقي.

حقيقة الأمر هي أنه لم يكن هناك أسباب جيدة تدفعني إلى السرقة؛ فأنا لم أكن فقيراً على الإطلاق، وكانت نشأتي طبيعية تماماً، ومن ثم فإنه إذا نفذت إلى باطن الأمر لاكتشفت أني كنت أقوم بالسرقة فقط لأني كنت أرغب فيها. سمِّه عيباً في شخصيتي إن أردت - فهكذا يجده الكثيرون، وأنا منهم - فأنا بالفعل لم أكن في حاجة إلى المال.

ومن ثم لا يجدر النظر إلى هذا الكتاب مطلقاً بوصفه مبرراً للطريقة التي اخترت أن أعيش بها حياتي؛ لقد كنت مجرماً بحق، ولا مبرر لذلك سوى أن تكاد تموت جوعاً، أو أن تحيا في ظل نظام حيث القوانين مجحفة، أو أن تكون مجبراً على مخالفتها من أجل هدف أسمى. ولا تنطبق أي من تلك الأشياء على حالتي، ولم أكن "روبين هود" آخر، يسرق من الأغنياء ليعطي الفقراء، ومن ثم لن تجد لي أية أعذار بين طيات هذه الصفحات.

بالأحرى، فإن هذا الكتاب ما هو إلا وصف لما فعلت، وكيف أقدمت على فعله، وكيف شعرت تجاهه، وكيف كان تأثير ذلك على أولئك القريبين مني. والسبب الحقيقي وراء روايتي للقصة الآن، هو أني لم أعد "في تلك الحياة"، وأن قانون التقادم المسقط ينطبق بالفعل على آخر ما ارتكبت من جرائم.

كل ما ستقرأه في هذا الكتاب حقيقي، باستثناء تاريخ غير أكيد هنا أو هناك، أو محادثة لم أتذكر تفاصيلها جيداً، أو اسم مغلوط. بيد أن بعض الذين تعرضوا لسرقة جواهرهم الثمينة، وحليهم، ونقودهم سيعرفون - للمرة الأولى - من سرقهم آنذاك. العديد ممن استهدفت - بمن في ذلك العامة - كانوا على اقتناع دائم بأن عصابة ما تقوم بسرقتهم، وستكون مفاجأة لهم عندما يكتشفون أنه لم يكن هناك سواي، أفعل ذلك بمفردي.

كما أني لا أتوقع أي مغفرة أو عفو من الأصدقاء أو العائلة عما سببته لهم من ألم؛ فما تلقيته منهم بالفعل إنما يعدو حدود ما يحق لي أن أتوقع منهم. بيد أني أريدهم أن يتفهموا الأمر أكثر قليلاً مما رغبت - أو استطعت - أن أخبرهم به وقت وقوع أحداث هذا الكتاب، فهي قصتهم قدر ما كانت قصتي.

* * *

أظـــن أن أكثر الأشياء استثنائية في حياتي هو أنها كانت حياة عادية تماماً – على الأقل إذا ما أغفلتم هوايتي الصغيرة لسرقة المجوهرات.

عندما اتخذت قراراً بأن أكتب هذا الكتاب، ظننت أن من أكثر العناصر إثارة هـــو استعادة أيام طفولتي، ومحاولة الوقوف على تلك التجارب التي دفعت بي إلى ذاك الطـــريق الشائك. فلطالما قرأت السير الذاتية لأناس غير عاديين، حيث كانت هـــناك دائماً قوى عظمى تدفعهم في إصرار نحو مصائرهم. فالطريقة التي كتبت بها تلك الكتب إنما توحي بأنه كان من المستحيل بالنسبة لهم أن يسلكوا طريقاً أخرى غير تلك التي اضطروا إليها.

إلا أن كُتاب السير – بمن في ذلك كُتاب السير الذاتية – يعمدون إلى التركيز علـــى تلـــك الأشياء التي تدعم الانطباعات التي يحاولون إرساءها. فالطريقة التي يكتبون بها تجعل الأمر يبدو وكأن كافة ما كان يحدث في حياة ممن يكتبون عنهم لم يكـــن ســـوى حفـــنة من الأحداث والتجارب التي جعلت منهم في نهاية الأمر موسيقيين، أو سياسيين، أو علماء.

حقيقة الأمر هي أن الأطفال يتعرضون لسيل من كافة أنواع التأثيرات، ومن المـــستحيل تقـــريباً أن تُقـــرن أي منها بتأثير ما بعينه. فأنا أظن أن "نيوتن" كان سيكتـــشف أمـــر الجاذبـــية الأرضية سواء سقطت تلك التفاحة فوق رأسه أو لم تسقط، هذا إذا كانت قد سقطت فوق رأسه بالفعل.

وأعـــتقد أن ما يحدث بالفعل هو أن مرحلة الطفولة أشبه باختبار للحساسية خاص بالمهارات. لو أنك تعرضت لاختبار حساسية من قبل، فأنت تعرف بالفعل أن الطبـــيب يحك جلدك بمئات من المواد المختلفة حتى تتسبب إحداها في ترك أثر يـــشبه أثر اللكمة. على النحو ذاته يصادف الطفل مئات الفرص التي تكشف عن بعـــض مواهـــبه الدفينة، حتى يحدث أن تتفجر واحدة منها، ومن ثم تبدأ حياته في اتخاذ مسار بعينه. أحياناً ما يتسم الأمر بالوضوح، كأن يبلغ طول طفل في السابعة مـــن عمره ستة أقدام (180 سم)، إضافة إلى قدرته على تسديد كرة السلة بعينين معصوبتين، مستخدماً في ذلك أي من يديه، أو أن يقوم تلميذ في المرحلة الابتدائية بصنع جهاز راديو من أجزاء الغسالة القديمة.

وأحياناً لا يكون الأمر بهذا الوضوح، كما في حالتي. كان بوسعي أن أتسلق الأشجار كالقرد، وأن أقوم بفك كافة أنواع الماكينات وإعادة تركيب أجزائها مرة أخرى؛ أشياء قليلة جداً تلك التي كنت أخشاها، وكنت أستطيع الإبقاء على فمي مغلقاً بينما أستمع إلى الآخرين. ولكن ماذا يمكن أن يعني هذا؟ وكيف يمكن لتلك الأشياء أن تقود طفل ما إلى مهنة معينة؟

حتى كانت المرة الأولى التي حاولت فيها سرقة شيء ما، أدركت عندها كيف يمكن أن تكون مهاراتي تلك ذات فائدة لي.

* * *

وكما قلت، كان كل شيء في حياتي عادياً بما في ذلك طفولتي المبكرة.

ولدت عام 1940 ببلدة صغيرة في ويست فيرجينيا، تدعى هاندريد. كانت تلك البلدة بمقاطعة مونونجاليا، والتي كانت معروفة بالمقاطعة الأم لويست فيرجينيا الشمالية، حيث إن ثماني عشرة مقاطعة أخرى، البعض منها في بنسلفانيا، تم اقتطاعها منها منذ نشأتها في عام 1776. والمسافة بين هاندريد وحدود بنسلفانيا هي مسافة ثلاثة أميال؛ وهاندريد بلدة ريفية ويكتنفها فقر مدقع.

كانت ذكرياتي الأولى تدور حول الأشياء التي اعتاد الناس مزاولتها بشكل عام في تلك السنوات لمؤازرة الجهد الحربي، ولتجنب الإفلاس. كان وقت التدبر والتوفير، وشأن سائر العائلات الأخرى، عمدت أسرتي إلى توفير كل الأشياء: ورق معدني من علب السجائر، دهن الطهو، الحبال والخيوط، الورق... أي شيء يمكن تحويله إلى غرض آخر، متى كان ذلك ممكناً عوضاً عن نبذه. وقتها، لم نكن نعرف لهذا اسماً جميلاً مثل "إعادة التدوير"، والذي نعرفه اليوم.

وفي الليل، كان يسود التعتيم، حتى في وسط المدينة، حتى وإن كان احتمال وقوع هجمات هناك احتمالاً مستبعداً، بخلاف المجتمعات الساحلية الواقعة على مسافة ثلاثمائة وخمسين ميلاً إلى الشرق. ما زلت أستطيع بسهولة استدعاء لحظات الخوف التي أحسستها آنذاك، كطفل في الرابعة من عمري، حين لم يكن هناك سوى الظلام الدامس ليكفل لنا الأمان، أملاً في أن يخفي مدينتنا الصغيرة عن أعين الألمان، فيسقطون إحدى قنابلهم فوق رؤوسنا.

أظن أنه من اليسير القفز إلى النتيجة القائلة بأن حاجتي الماسة إلى الأمان المالي، والراحة التي أشعر بها متى حلّ الظلام، قد تشكلا في حياتي آنذاك. بيد أن آلاف الأطفال كانوا يشحّون بإنفاق البنسات، وينشدون الملاذ من العدو خلف ستائر التعتيم تلك دون أن يتحولوا إلى مجرمين، فمن يدري إذاً؟

ومع ذلك لا تخطئ فهمي، فبغض النظر عن الأوقات العرضيَّة التي كانت تشتد فيها وطأة الحرب، كان ذاك وقتاً رائعاً ومكاناً ملائماً لأعيش فيه كطفل. وقد كنت الطفل الوحيد المدلل لدى أبوين متعلمين هاما به حباً. كان لديّ هكتارات من الأرض العراء حيث كنت أتجول وأستكشف، وحيوانات مزرعة لأداعبها، ومذاق الحرية اللذيذ المتاح فقط للأطفال في المناطق الريفية المكشوفة.

إلا أن أفضل الأشياء كانت الأشجار. على قدر علمي، كانت الأشجار تُغرس في الأرض كي أتسلقها، وقد كنت بارعاً في هذا. وقبيل بلوغي الخامسة، كنت قادراً على التسلق دون استخدام ساقيّ، فقط بذراعيّ. وعندما كانت فروع الأشجار الأفقية شاهقة الارتفاع بحيث يصعب الوصول إليها من الأرض، كنت غالباً ما أستطيع تسلق جذع الشجرة مثل دب الكوالا.

ثم تبدلت الأمور عندما بلغت السادسة. كان أبواي معلمين؛ فكانت أمي، واسمها إيللا، معلمة الصف الثالث في المدرسة الابتدائية المحلية، بينما كان أبي، أورا، معلم الرياضة البدنية، ومدرب بمدرسة واينسبورو الثانوية في ولاية بنسلفانيا. بيد أن المنطقة كانت تجابه ضائقة مالية عسيرة. وجاءت تسمية مقاطعة مونونجاليا، وهو اسم غالباً ما كان يُكتب بشكل خاطئ في الوثائق الأولى، تيمناً بنهر مونونجاهيلا، ومعناه "نهر الضفاف المتداعي"، وهو وصف دقيق لما كان يحدث للاقتصاد المحلي آنذاك. عثر والدي على وظيفة براتب أفضل، إلا أنها أوجبت عليه الذهاب إلى ديترويت. في البداية كان يذهب إلى هناك على فترات طويلة، ثم أصبحت الحاجة ملحة إلى السفرات وازداد عددها، مما دفع والدي في النهاية إلى نقلنا جميعاً إلى ديترويت، حيث أقمنا مع عمتي نيل. كان لها طفلان باتا بمثابة أخي وأختي. إلا إني ما برحت أفتقد ويست فيرجينيا، وأزكيت في نفسي أمل معاودة الانتقال إلى هناك في يوم ما.

ولكـــن بعـــد قرابة عامين من الانتقال، تلقى والدي عرضاً بوظيفة أخرى، وبقدر ما كره معاودة الانتقال مرة أخرى، إلا أن ذاك العرض كان مغرياً بحيث لا يمكن رفضه. كان عمي يمتلك بنايتين سكنيتين في (كليفلاند)، واستعان بوالدي في إدارهما، ومن ثم انتقلنا إلى شاكر هايتس. وبينما كان اتخاذنا مسكناً في تلك الجيرة الموفورة الثراء فرصة عظمى لوالدي، إلا أنه كان دماراً بالنسبة لي.

اتـــسمت شـــاكر هايـــتس بمبانيها الشاهقة، وشوارعها الممهدة وأرصفتها، وأشجارها المزروعة يدوياً، والمحاطة بسياج من السلك لإقصاء الأولاد عنها. وكان بها جيران يبعدون عشرة أقدام (3 أمتار) بدلاً من مسيرة عشر دقائق، والعديد منهم كانوا من الصفوة الموسرين ممن يحبون الأطفال المؤدبين، الهادئين، المتحلين بالنظافة. لمحـــة خاطفة واحدة على إسمنت وإسفلت بنايات ميدان شاكر التي تشبه السجن، جعلـــتني أدرك أن أيـــام ركضي في الحقول، وحلب الأبقار، وتسلق الأشجار، قد ولّت إلى الأبد. أشك أن والدي قد استوعبا بحق مدى الشقاء والتعاسة التي لحقت بي مـــن جراء ذلك الانتقال، فقد كنت أتجرع مرارة الوحدة واليأس، واعتدت أن تـــراودني أحـــلام يقظة عن الهرب من البيت والعودة إلى ويست فيرجينيا. ولدن بلوغي الثامنة، بت مقتنعاً بأن حياتي قد تدمرت بالفعل.

كـــرهت العمارات السكنية من أول لحظة وقع بصري على أولها. فلو فضّل الكـــبار المعيشة في أقفاص دجاج كبيرة الحجم، فذلك شأهم، ولكن ما الهدف من أن يُحكم على صبي ريفي النشأة بالمعيشة في ذلك الحجز الخانق؟ ومع ذلك، عادة مـــا يتكيف الأطفال؛ ربما بالانهماك في فعل أي شيء آخر. بالنسبة لي، شرعت في تـــسلق المباني بدلاً من الأشجار. اكتشفت سطوحاً وسراديب، وأصبحت ساحاتي للعب. ونتيجة لذلك أصبحت صديقاً للعديد من رجال الصيانة ومدراء البيانات، وبذلك تلقيت تعليماً من الطراز الأول فيما يتعلق بأمور لم تبدُ هامة بالنسبة لمدرسة بوليفارد الابتدائية.

إن الأشـــخاص المعنيين بالاهتمام بالشقق السكنية هم محترفو فنون عدة ممن يُـــبخس قـــدرهم. فهـــم يقومون بأعمال الكهربائيين، والسباكين، والنجارين، والبـــنائين، والنقاشين، وصانعي الأقفال، وملمعي الزجاج، وصنّاع الآلات، وغالباً

ما تُنجز كل الأعمال في نفس اليوم. ثمة شيء ما لاحظته مبكراً، وهو أن توجههم كان عملياً 100%؛ لم تكن دقة الصنعة هي جل اهتمامهم، بل سرعة عمل الأشياء بغية تهدئة حنق المستأجرين الكثيري المطالب.

تصور تحليك بكافة تلك المهارات، دونما فرصة لعرضها على أحد. ثم تخيل ظهور صبي محب للاستطلاع، مهتم بكل الأشياء، ولا يتثاءب كلما شاركته بعض من معرفتك. وهو بارع في استخدام يديه، ويمد يد العون متى أتيحت له الفرصة.

تعلمت الكثير من أولئك الرجال، ليس لأنه كان لديّ خطة ما لحياتي، أو أني كنت أتعمد الاستعداد لأي شيء، ولكن لمجرد أنني اكتشفت أن الأمر مثيراً للاهتمام وممتعاً. ولمهارتي في التعامل مع الأشياء الآلية، لطالما ألححت على عمال الصيانة حتى يسمحوا لي بمحاولة إصلاح آلات الغسيل والثلاجات التي يئسوا من إصلاحها، أو تلك التي كانت لا تستحق جهد إصلاحها. لم يكن هناك الكثير من الخسارة في حال إخفاقي في إصلاحها، فقد كان مقدراً لها أن تُحمل إلى النفايات على أية حال. ولكن عقب تدبري إصلاح الأشياء ثانية، كان يُسمح لي بتعهد مهام أصعب. كما شرع اثنان منهما في تخصيص بعض الوقت لتلقيني بضعة أشياء.

كان للأقفال سحر خاص؛ أجزاء آلية دقيقة مليئة بزنبركات متناهية الصغر، وآلات معدنية مصممة آلياً، بحيث تظل تُغلق وتُفتح طوال اليوم، ومع ذلك نادراً ما تتعطل. والمبرر الوحيد لفكها كان إما لتغيير المفتاح بآخر جديد، أو إذا كسر شخص ما المفتاح بينما يحاول فتح الباب وهو ثمل أو في عجالة، فيترك قطعة داخل الأجزاء الآلية. حال حدوث ذلك، كانت الطريقة الأسرع هي استبدال القفل. لكن اثنان من أمهر عمال الصيانة كانا قادرين على فك تلك الأقفال إلى أجزائها الأولية وجمعها كلها معاً مرة ثانية، لاجتناب تكلفة قفل جديد. شاهدتهما يزاولان ذلك لساعات، ثم شرعت في المعاونة، ووصلت تدريجياً إلى القدرة على فعل ذلك بنفسي. فما من سبيل أفضل لمعرفة كيفية عمل شيء إليّ أكثر من فك كافة أجزائه تماماً.

كان تواجدي بالقرب من الكبار العاملين يشعرني بارتياح أكثر مما كنت أشعر به وأنا مع أقراني من طلاب المدرسة الابتدائية. فكنت ألزم الصمت والهدوء

مـــتى كنت بالقرب من الصبية والمعلمين، وكنت بأنواع الأسئلة التي كانوا يرغبون مـــني طـــرحها أقـــل اهتماماً من تلك التي رغبت بالفعل في تلقي إجابات عنها. فالنواحي العملية الخاصة بكيفية تشغيل الأشياء في العالم الحقيقي كانت أكثر أهمية بالنـــسبة لي مـــن باستخدام كلمة (أنا) أو (ضمير المتكلم) في جملة. ومن ثم لبثت منطوياً إلى حد ما أثناء فترة المدرسة الثانوية، مما كان له أكبر الأثر في زيادة اهتمام الفتـــيات مـــن زمـــيلات الدراسة بي. حقيقة الأمر أني لم أكن مهووساً بمطاردة الفتيات، بيد أنني لم أفتقر قط إلى المواعيد العاطفية.

* * *

ومـــع تقدمي في العمر، شرعت في معاونة أبي في إدارة المباني التي كان يتولى إدارتهـــا. استمتعت كثيراً بهذا العمل، ولكن الأفضل على الاطلاق كان فرصتي في مطالعـــة كافـــة المجـــلات التي طرحها جانباً المستأجرون، حيث كنت أفضل ذا نيويوركر وذا ساترداي إيفنينج بوست على سائر المجلات. وتمكنت الحصول على بعـــض الـــنقود إزاء القـــيام ببعض المهام للمستأجرين، وعندما كبرت بما يكفي، حـــصلت علـــى مهمة توزيع الجرائد. كانت هذه ميزة عظمى للشقق في المنازل المتباعدة: كان بوسعي توزيع ما يقرب من خمسمائة جريدة في صباح الأحد، وبدا لي المال الذي كنت أغتنمه وكأنه ثروة صغيرة.

ولدن وصولي للصفوف الدراسية العليا، بدأت في الاستمتاع بالمدرسة أكثر، وبـــدأت ممارســـة لعبة كرة القدم، وشاركت الفريق في بطولة كرة المراوغة، بل واســـتهوتني بعض الفصول الدراسية، ولا سيما العلوم ومادة التاريخ. ورغم أنني كنت أستيقظ في الخامسة من صباح كل يوم لتوزيع الجرائد، كنت لا أزال أمتلك طاقة هائلة للذهاب إلى العديد من الحفلات ومناسبات ما بعد الدراسة.

تـــواءمت تماماً مع والدي، وشعرت نحوه بالأسى في ذات الوقت لأنني خلته يلقـــى معاملـــة سيئة من عائلة والدتي. كان مرجع هذا لخالي رودي، شقيق أمي، والمعـــروف بالدكتور ريتشارد رينر، والذي ناضلت عائلة أمي كثيراً خلال أوقات عـــصيبة لإلحاقـــه بمدرسة الطب. وبعدما أضحى طبيباً، أصبح موضع فخر وبهجة العائلة. فأسس مستشفى رفيع المستوى في كليفلاند، وكان واحداً من أبرز صفوة

المدينة ممن ينالون جل التقدير والاحترام. بالمقارنة بخالي رودي، كان من المستحيل بالنسبة لوالدي أن يحتل أية مكانة. ورغم أن والدي قد نجح في إخفاء مشاعر الاستياء التي ربما قد أحس بها، إلا أني جابهت متاعب عدة كي أحذو حذوه. ولم يكن قد مضى وقتاً طويلاً في حياتي عندما جال بخاطري تساؤل ما إذا كان صراع والدي الدائم مع آلام التقرحات المبرحة كان ذا صلة بوطأة العيش في ظل خالي رودي.

كنا أنا ووالدي نرى بعضنا البعض كثيراً حيث كنا نعمل معاً، وكثيراً ما ذهبنا معاً إلى ألعاب الكرة. لا يعني هذا أننا كنا صديقين حميمين على مستوى واحد، فقد كان شديد السيطرة عليَّ، ولم يكن ليمرح أو ليمزح. في أحد عطلات نهاية الأسبوع النزقة، رسمت وشماً على شكل أفعى على ذراعي الأيمن، وتدبرت أمر إخفائه عنه لقرابة العام. وحينما اكتشف أمره، سدد لي لكمة قوية. أتعرف الحكمة المتعارف عليها القائلة بأنك لا تستطيع إزالة الوشم؟ هراء، حتى في الأيام التي سبقت استخدام الليزر. سحبني والدي إلى طبيب بالشارع 105، حيث جمّد ذراعي بجليد جاف، ثم استلّ فرشاة سلكية دوّارة بسرعة قصوى ليحك بها جلدي. في تلك الليلة، بينما كنت أتألم وأنزف، كل ما أمكنني التفكير فيه هو أنني سأخوض غمار ذلك ثانية بعد الاستشفاء من العلاج الأول. انتهى بي الأمر بأخذ ثلاث جلسات كشط معاً ليس فقط لإزالة كل أثر لذاك الوشم، بل ولمجرد احتمال رغبتي في وشم آخر، بل واضطررت إلى تحمل نفقات الطبيب أيضاً. بوجه عام، قمت بتقويم مسلكي بسبب والدي، ولم أشرع باللهو والعبث ريثما دخلت المدرسة الثانوية.

شيء واحد كان جديداً في المدرسة الثانوية، ألا وهو الاهتمام المتزايد بتباين الحالة الاجتماعية. غالبية الأولاد في الصفوف الأولى لم يكونوا على علم بالخلفية الأسرية للطلاب الآخرين، وجنحوا من ثم إلى تكوين مجموعات ذات اهتمامات مشتركة، مثل الرياضة. لكن مع تقدمنا في السن، أضحينا أكثر إدراكاً بمن أتى من أي خلفية اجتماعية. كنا عصبة مختلطة، وما أن شرعت الاختلافات الاجتماعية في الظهور على السطح، حتى باتت الحاجة جلية إلى إعادة ترتيب الصداقات.



تقـــع شاكر هايتس على أرض كانت مملوكة في الأســـاس من قِبل طائفة شاكر، وقد بيعت لاثنين من معمـــري الأراضـــي عام 1905. كانت فكرهم ابتداع واحـــدة من ضواحي "مدينة الحدائق" الأولى بالولايات المتحدة، وكان جزء الخطة الخاص بجذب سكان ذوي منـــزلة رفيعة للتأكيد على أهمية التعليم الراقي. كانت مدرســـة شاكر هايتس الثانوية واحدة من أرقى مدارس الـــبلدة، ونحو 90% من طلابها كانوا من أبناء الأثرياء؛ بعضهم من مال موروث، والـــبعض الآخـــر بمجموع إثر قصص نجاح أميركية أصيلة مبنية على الكفاح. كان أولـــئك التلامـــيذ يرتدون ملابس باهظة الثمن، ويرتحلون كثيراً، ويحظون بشهرة عريضة في المحافل الثقافية.

ومـــثل مدرسة بيفرلي هيلز الثانوية، كانت مدرسة شاكر هايتس الثانوية مدرسة عامـــة، والتـــزمت بقبول أي تلميذ داخل حدودها الجغرافية المعنية. أما العشرة بالمائة الآخـــرين، وأنا منهم، فكانوا من الجانب الاجتماعي الآخر - بالمعنى الحرفي - ولكن كـــان لهم الحق في الالتحاق بالمدرسة بفضل سكنهم في الحي نفسه الذي تقع فيه. أما الـــشبان ممن اتسموا بالعناد، والذين كانوا يرتدون سترات جلدية، ويتخذون تصفيفة شعر (ألفيس بريسلي)، فكنا نلقبهم بـــ (المشاغبين) لأسباب تغيب عن ذهني الآن. لم يكـــن هناك اعتناء بتلك الاختلافات، ولا مهرجانات متعددة الثقافات لإحداث نوع من التفاهم المتبادل، لا شيء من هذا القبيل. وكلما انطوت المجموعتان على نفسيهما، كلما ازداد واتسع التباين بينهما. لم يكن هناك أدنى سبيل للجانب الذي كنت أنتمي إليه في مجاراة الأغنياء فيما يتعلق بالسيارات، والملابس، وسائر الأشياء المادية الأخرى. لذا، كان خيارنا إما أن ننسحب ونشعر بالدونية، أو نختال بما لدينا ونحاول أن نـــزهو بـــه. غـــير أن كل ما كان لدينا هو السلوك، فعملنا على أن يكون هناك الكثير منه. كـــنت في زمـــرة أشـــد المشاغبين وأكثرهم شغفاً بالعراك ومشاركة في المشاحنات والمـــتاعب الأخرى. كنت مزهواً بصورة الفتى المشاكس تماماً كما كان يزهو الفتيان الأثرياء بسمات طبقة المجتمع العليا المتعجرفة.

إلا أن وضعي الخاص كان يمتزج بواقع أن غالبية معلميني قد أحبوني، وقد التصقت بي الجملة المهيبة: "إنه لا يعمل لتحقيق ما هو متوقع منه"، وكأنها مرض جلدي يأبى العلاج. ولو أنهم اقتنعوا يوماً أن لا أمل فيّ، لكان بوسعي المضي في المدرسة الثانوية بسلاسة دون أن يتحرش بي أحد. ولكن بين الأسبوع والآخر، كان أحد المدرسين الحمقى يتصلون بوالديّ ليشكو إليهما كيف أني لم أكن أعمل لتحقيق ما هو متوقع مني، وكيف أنني كنت أبدد وقتي سدى وموهبتي إلى فتات، وكيف أنني كنت أتغيب عن دروسي، ويعلم الله ماذا أيضاً. كان يثير هذا غضب أبوي، ويدفعهما إلى حبسي، مما ضاعف من ازدرائي لأولئك المعلمين المقحمين أنفسهم في شؤون الغير، بل ويجعلني أشرس طباعاً وأصعب في التعامل.

وعلى النقيض من هذا، أنه بالرغم من أني كنت معروفاً بانخراطي ضمن المشاغبين، إلا أني قد حظيت بأصدقاء عديدين من مجموعات الطلاب الأخرى، بمن فيهم أكثر الأولاد ثراءً، وأولئك الذين يفوقونني في الصف الدراسي. ويتذكرني الناس اليوم بأنني كنت أنسجم مع الجميع، وهذا ما أذكره أنا أيضاً، رغم أنني شاركت في معارك شبه منتظمة. وربما لأني لعبت في فريق كرة القدم المدرسي، كان في هذا علامة على أني لم أكن غريباً تماماً.

كان الوقوع في المتاعب في تلك الحقبة غير المستنيرة بمثابة حالة من تخليد الذات. أما المديرون الذين كانوا يوقعون العقاب، لم يمارسوا ذلك بدافع الإصلاح الاجتماعي، أو بهدف لتقويمنا، أو تقديم يد العون لنا: بل كانوا سريعي السأم، ولم يعرفونا حق المعرفة، وقد اتخذوا قرارهم بالفعل بأننا لا نرتدع ولا نستأهل جهدهم. بدا أنهم يستمتعون بجعل حياتنا أصعب عن طريق الجزاء أكثر من إعادة التأهيل والإصلاح، أو هكذا بدا الأمر لنا. وبالطبع جعلنا هذا أكثر حنقاً وأكثر تصميماً على إثارة المتاعب، وهكذا سارت الأمور. لم نطق انتظار الخروج من المدرسة، ولم يحتملوا هم انتظار التخلص منا. الشيء الوحيد الذي حال بيني وبين الطرد من المدرسة كان الحضور الطاغي لوالدي؛ بوجوده في حياتي كان هناك خطّاً لم أكن متأهباً لاجتيازه.

وبالـــرغم من هذا، مضيت خلال كل هذا وحصلت على درجات متوسطة دون بذل جهد حقيقي، وربما كان هذا هو السبب وراء اعتقاد المعلمين بأني كنت جديراً بمحاولة الاحتفاظ بي. تخرجت في ربيع 1958، وكان لي الحق في الالتحاق بجامعـــة أوهايـــو. أظـــن أن أحداً بالمدرسة الثانوية لم يفكر جدياً في أني سألتحق بالكلـــية، وأنا أولهم، لكن في تلك الآونة حظيت بحافز قوي للغاية؛ ليس الالتحاق بأية كلية، ولكن بأوهايو على وجه الخصوص.

* * *

في عصر أحد الأيام، حينما كنت في الصف العاشر، كنت أقذف الكرة على جـــدار المنازل بصحبة بعض الأصدقاء. كان بوبي لوريا أحدهم؛ كان طفلاً صغيراً يلثغ قليلاً. لا أتذكر كيف حدث ذلك، لكني أصبحت حاميه. (إنه محام الآن ولا زلنا أصدقاء).

ألقـــى بـــوبي برمية قبالة الجدار، وكان فائزاً تلقائياً، فوثب إلى الأمام لاغتنام جوائزه، ولكن ما أن انحنى إلى أسفل، اندفعت يد من الزاوية واغترفت النقود.

صاح بوبي بينما تراجع منسحباً في دهشة "ما هذا!"

اســـتغرق مني الأمر لحظة لإدراك ما كان قد حدث؛ ركضت حول الزاوية وأبصرت شخصاً ما ولى الأدبار، وكان ظهر سترته الجلدية المفتوحة يرفرف محدثاً ضـــجة. لحقت به، وكنت على مقربة منه حينما تبين أن شخصاً ما كان يتعقبه. وحين قرّر زيادة سرعته، كانت قوة اندفاعي قد حملتني إليه مباشرة، فقبضت على جزء من سترته، ودرت على عقبي ثم أفلته قبالة جدار المبنى.

"أعطني هذا!" صحت فيه بينما التفّت يداه حول رسغي.

"ماذا تـــ ...؟"

لم أمنحه فرصة إتمام السؤال، فدفعته بقوة أكثر، ورفعته فوق أطراف قدميه. "أعطني هذا وإلا أوسعتك ضرباً وحصلت عليه بأية حال".

تجـــاوزت حدتي حجم جريمته، وربما أخافه ذلك بعض الشيء، فأطلق سراح معـــصمي وأومـــأ برأسه. طرحته أرضاً وتراجعت إلى الخلف، لكني أبقيت قبضتي مـــشهرة بالقـــرب مـــن وجهـــه. علمت أنه بوب بنـــز، بالصف الحادي عشر،

ومعروف رسمياً بكونه محدث شغب، مثلي، إلا أنه كان من الطراز المشاكس فعلاً، ومن المحتمل أيضاً أنني كنت ضجراً للغاية لاستغرق وقتاً طويلاً للتفكير فيمن قد يكون أصدقاؤه.

"لا تدع الجنون يستبد بك"، قالها وهو يعطيني العملات النقدية.

"إن الغلام في نصف حجمك!" صحتُ فيه.

"لم أعرف لمن كانت أيها الأحمق، كانوا أربعة يرمون الكرات".

"وماذا كنت تظن...؟ أن أحداً من الأربعة لن يتعقبك؟"

كأنه لم يخالجه الظن في ذلك أبداً؛ سيطر عليه الدافع، وسعى إليه فحسب. رمقني باستهزاء، ثم حك رأسه ودمدم "تباً". كانت طريقة بوب في التفكير تلك هي ما أدخلتني في زمرة المتاعب لاحقاً.

لا يمكنني استرجاع كيف حدث ذلك على وجه التحديد، ولكن أضحينا أنا وبوب أصدقاء. كان والده يمتلك حانة في بيتش وود، وقلّما كان متواجداً. ولكنني أحببت والدته كثيراً، وقد بادلتني نفس الشعور. كنت دائماً موضع حفاوة في منزلهما الكبير في شارع وارنسفيل سنتر. لا أعرف إن كان والداه قد أدركا وقتها كم من المتاعب عرفناها معاً. لم أعد قادراً على احتساب عدد المرات التي ضبطنا فيها قابعين في سيارته بالقرب من المدرسة، ندخن السجائر بدلاً من حضور الفصول الدراسية. كان بوب مندفعاً بشكل خطر، بيد أنه ظل يستحوذ على إعجابي لطيشه وجرأته.

وحدث أن أعجبتني شقيقته أيضاً.

رغم أنها كانت تصغر شقيقها بقرابة العام، إلا أن باربارا بنز كانت أيضاً بالصف الحادي عشر، مما جعلها تسبقني بعام دراسي. (فوت بوب عاماً دراسياً حينما كان أصغر سناً بسبب عملية جراحية أجراها في ساقه). كانت جميلة؛ تبلغ خمسة أقدام (150 سم) طولاً، وكانت نحيلة، وذات شعر أسود، وعينين سوداوين، وذكية أيضاً برغم كونها خجولة. كان يحدوها اعتزاز بالنفس بطريقة ليست معهودة في طلاب المدارس الثانوية. ولكون بارب إحدى الفتيات الرائعات في المدرسة، فغالباً ما كانت تحرجها ألعاب الاحتيال التي كان يقوم بها شقيقها

المشاكس، وكانت تنظر في البداية شزراً للصديق الجديد الذي شرع أخاها في إحضاره إلى المنزل. ولكن سرعان ما بدأ التجاذب المتبادل، إلا أننا مكثنا نتحايل حول الأمر لفترة، رغم أننا كنا قد بدأنا في قضاء بعض الوقت معاً.

كانت بارب تعلم أني من المشاغبين، شأن غالبية الشبان النازحين من منطقة وودلاند أفينيو في الجانب الغربي من شاكر هايتس. لكنها كانت تعلم كذلك أن لي شخصيتي الخاصة والودودة مع أقران من مجموعات عدة مختلفة، حتى إنني كنت أواعد الملكة المرتقبة، رغم أنها كانت تناهز السادسة عشرة وأنا في الخامسة عشرة. ارتبطت بارب بمجموعة من فتيات لطيفات كلهن في صف التخرج. تلاءمتُ معهن، ونعمنا بصحبة بعضنا البعض، حتى بات طبيعياً لنا جميعاً أن نمارس أعمالاً معاً. وسرعان ما تطايرت شرارة الإعجاب بيني وبين بارب على نحو ساطع للغاية بحيث لا يمكن تجاهله، وشرعنا في التواعد بشكل أكثر "رسمية". ودائماً ما كنا نخرج في مجموعتين، عادة بصحبة شاب آخر من وودلاند وفتاته، لأنني لم أكن قد حصلت بعد على رخصة قيادة.

وحصلت على الرخصة متى بلغت السادسة عشرة، وفي سني الصغير، وبالنقود التي ادخرتها من توزيع الصحف، ومعاونة عمال الصيانة في الشقق السكنية، ابتعت سيارة فورد، موديل 1949 مستعملة. كانت تصدر أصوات قعقعة حتى إنه كان بوسعك سماعي آتياً من على بعد ثلاث بنايات، ولكن، على الأقل، كنت أقدر على الحركة الآن. شرعت في القيادة بانضباط في أرجاء شاكر هايتس لاصطحاب بارب إلى المدرسة والذهاب إلى منزلها كل ليلة بعد العشاء تقريباً. كان التواعد أمراً في منتهى البساطة وآنذاك، ونادراً ما كنت أحتاج إلى أكثر من خمسة دولارات. كان ثمن تذكرة السينما لا يتعدى الخمسين أو خمسة وسبعين سنتاً، والفيشار بربع دولار، والبرغر بعد ذلك، ويتبقى معك فكة متبقية من الخمسة دولارات، وبضع دقائق من العناق الملتهب بالطريق يعد ختاماً حسناً لأمسية رائعة.

وبحلول الصيف كنا كفرد واحد، وقليلة جداً هي الأماكن والأوقات الأفضل لتقع في الحب أكثر من مدينة صغرى بأميركا في الصيف. كانت الأيام طويلة،

وثقيلة، والطقس ساخن، وكنا - أنا وبارب - لنقطع مسافة ثلاثين ميلاً إلى مينتور لنسبح في شاطئ رملي طبيعي يبلغ طوله ميلاً في هيدلاندز بيتش ستيت بارك. ولم يكن مثيراً للدهشة أن حصلت ذات ليلة على تذكرة مرور لشيء أو آخر، وفي تلك الأيام كانوا لا يوقعون غرامة على القُصّر، بل يسحبون رخصهم. كان مصيراً محتوماً أسوأ من السجن (أو هكذا فكرت بحماقة وقتها).

بالمصادفة، كان والداي يستعدان لترك المدينة في عطلة الأسبوع التالية. ولكوني غير قادر على القيادة، كان المبرر الوجيه لأدعو بارب إلى المنزل الخاوي، غير مدركٍ أنني لم أكن فعلاً في حاجة إلى انتحال أعذار. كانت عطلة أسبوع لا تُنسى؛ استكشاف عشقي لاثنين يوليان بعضهما البعض اهتماماً عميقاً، يعبران فيه عما يجيش في نفسيهما بكافة السبل التي يستطيعها اثنان حديثا العهد، ليتمكنا من الوصول إلى غايتهما بنفسيهما.

ما من أحد منا رغب في تحطيم سحر ذاك الصيف الزاهي بواقع أن بارب قد تخرجت وأنها على وشك الالتحاق بالكلية. لكننا لم نكن لنتطرق إلى هذا الأمر. لكنها عادة ما كانت تذكرني بقولها: "إنها جامعة أوهايو. ليس الأمر كما لو كنت ذاهبة إلى أوتر مونجوليا؛ سنتمكن من ملاقاة بعضنا البعض".

أجبتها بوجوم "لكننا لن نفعل ذلك كل يوم". كنت قد ألفت رفقتها طيلة الوقت، ولم أدرِ ما كان سيكون عليه الأمر متى لم يعد ذلك ممكناً.

وافتقدتها بشدة عندما ذهبت، رغم أنها كانت على بعد أربع ساعات بالسيارة، واستطعنا أن نلتقي كثيراً. وبالرغم من أن درجاتي الدراسية حتى تلك الآونة لم تكن سيئة، إلا أني تحليت فجأة بدافع قوي لأتفوق دراسياً: رغبت في الالتحاق بأوهايو في العام التالي، وعلى أية حال، لم يكن لديّ شيء أفضل أنشغل به معظم الوقت بدون بارب، ولم يجرفني إحساس بمواعدة أية فتيات أخريات. لذا انكببت على العمل - أو على الأقل ما حسبته عكوفاً وثيق الصلة بما كنت أعمله - وقضيت عاماً جميلاً، ثم تخرجت وتم قبول التحاقي بالجامعة.

نعمت أنا وبارب بقضاء صيف رائع معاً، ولم يحاول أي منا كبح جماح ما كان يجيش في صدره من مشاعر، وقد غمرتنا السعادة لأننا سنلتحق بنفس الكلية

في الخريف. تحدثنا عن الزواج من وقت لآخر بشكل عرضي؛ بشكل على طريقة "ماذا لو"، وكانت حياتي واعدة.

ولكـــن.. في شـــهر آب/أغسطس، أيام قليلة قبيل انضمامي إلى الجامعة مع بارب، بدأت علاقتنا في الانهيار.

2

الظرف القاسي

أظـــن أنـــه كان مساء يوم الثلاثاء، فبدون الأيام الدراسية يصعب تتبع أيام الأسبوع.

كنت بالخارج برفقة باربارا، وعدت إلى المنـــزل نحو منتصف الليل لأجد والدي راقـــداً على أريكة غرفة المعيشة، ويده مطبقة على بطنه، ووجهه ينكوي من الألم. أما أمي فكانت في زيارة لعمتي نيل في ديترويت، لذا فقد كان بمفرده طيلة فترة المساء.

وحينما سألته عمّا ألّم به، همهم قائلاً: "المعتاد، لعن الله القرحة!" بيد أنه كان بوسعي أن أرى أن هذه النوبة كانت أكثر سوءاً من المعتاد، فقلت مقترحاً: "أعتقد أنه يجدر بنا أن ننقلك إلى المستشفى".

أشاح بيده، وحاول النهوض وهو يقول: "أنت أيضاً..؟ لقد ارتبطت بموعد مع خالك رودي بالفعل"، قال في جهد واضح، ثم أضاف: "سأنتظر حتى ذلك الوقت". ثم تأوه وعاود التلوي فوق الوسائد، فسألته: "ماذا تقصد بـــ 'أنت أيضاً'؟"

تـــبين أنـــه تحدث بالفعل مع الخال رودي الذي لم يقترح فقط الذهاب إلى المستشفى، بل وأجرى ترتيبات فعلية لدخوله. "بيد أنه ليس هناك الليلة"، قال أبي، ومن المحتمل أن ذاك كان سبب عدم رغبته في الذهاب.

أوضـــحت جلـــياً لأن الأمـــر خاضع للجدل، فأخذته إلى داخل السيارة، واصـــطحبته إلى مستشفى دكتورز أعلى سيدار رود في كليفلاند هايتس، على أن يقوم الخال رودي، مؤسس المستشفى، بفحص والدي في اليوم التالي.

لم يكن قد سبق لي التعامل مع أي من الأطباء هناك، وقد ظللت هناك بعض الـــوقت بعد أن أدخلوا أبي إلى إحدى الغرف، ولكن كان من الواضح أن لا أحد كـــان ســـيخبرني بـــأي شـــيء. وقبيل بزوغ الفجر، استبد بي السأم والإرهاق، فاستقللت سيارة والدي الشيفروليه، ويممت صوب المنـــزل.

كل ما يمكنني تصوره أني قد غفوت فوق عجلة القيادة، لأن أول ما أستطيع تذكـــره كان إحضاري إلى غرفة بإحدى المستشفيات، مدثراً بضمادات ضخمة، وأعاني آلاماً مبرحة أكثر مما خلته محتملاً. جابهتني مشقة في التحدث، ولم أتمكن من تحريك فمي لسبب أو لآخر.

يـــبدو أنني قد اصطدمت بشجرة في طريق فيرهيل، بينما كنت أقود بسرعة عالية. وكي يخففوا عني الصدمة، شرعت الممرضات في سرد قائمة إصاباتي الواحدة تلو الأخرى: تمزق لساني من منتصفه، اقتلعت معظم أسناني العلوية، انكسر فكي، وســـاقي، بالإضـــافة إلى بعض الإصابات الداخلية، والعديد من الغرز في وجهي وســـاقي، حـــتى إنهم توقفوا عن العد بعد المائة غرزة الأولى. كما قاموا بتشخيص بعض الجروح الداخلية، لكني لم أفهم غالبيتها.

أخـــبروني أنـــني كنت بمستشفى سانت لوك. كنت أتألم لمجرد إدارة رأسي، ولكـــن قبل أن أغيب عن الوعي مرة ثانية، تمكنت من إبلاغهم برغبتي في أن أنتقل إلى مستشفى دكتورز، كي أتمكن من مرافقة أبي. وعندما أفقت ثانية، كانت أمي إلى جواري. عرفت بعدها أنه لدن اتصال المستشفى بها، أخبروها بأنني قد لا أنجو. شـــرحت لي أنهم قد ربطوا فكي بالأسلاك، مما منعني التحدث بوضوح. وببعض الجهـــد أخـــبرتها بـــرغبتي في الانتقال إلى مستشفى دكتورز. تطلب الأمر بعض الإجـــراءات، لكن مع حلول عصر ذاك اليوم، كنت في نفس غرفة والدي، الذي كان قد أجريت له عملية جراحية في اليوم السابق.

عقـــب ذلك بيومين كنا نتحسن بشكل ملحوظ. كنت مصاباً بدوار من أثر مسكنات الآلام، ولكن ليس إلى حد ألا ألحظ نقلي إلى غرفة أخرى.

ســـألت الممرضة التي دخلت لقياس ضغط دمي: "ماذا يحدث؟" كنت أتحسن في جعل كلامي مفهوماً بينما كانت أسناني ما تزال مطبقة، وسألت: "أين أبي؟"

ارتسمت ابتسامة شاغرة على وجهها، وقالت: "كل شيء على ما يرام".

وبيـــنما توجهت صوب الباب، ناديتها بأفضل ما استطعت مع فكي الثابت، وقلـــت: "لم يكـــن هـــذا ما سألتك عنه، بل سألتك أين أبي، و لم كان نقلي من الغرفة؟"

فزفرت وقالت قبل أن تمضي: "نل قسطاً من الراحة".

غـــضبت من انصرافها المقتضب، وساورني القلق على والدي، فتوصلت إلى جرس الاستدعاء وضغطت عليه مرة ومرات حتى لاحت ممرضة أخرى، والعبوس يعلو وجهها.

سألتها مطالباً بإجابة: "أين أبي؟"

حملقـــت فيّ بصمت مطبق، ثم قالت: "إنه على ما يرام. والآن... لم لا تنسى ذلك...".

"لمـــاذا انـــتقلت من الغرفة طالما أنه بخير!" كان التحدث أمراً شديد الإيلام بالنسبة لي، ولكن الأدرينالين النابع من غضبي قهر الألم.

قالت في إصرار: "هلا خفضت من صوتك!"

ولكـــني لم أكن لآبه. وبعد بفترة وجيزة، أبلغوني أن والدي قد أصيب بجلطة دمـــوية في ســـاقه. أصـــررت أن يأخذوني إلى غرفته، وأخيراً فعلوا بعد كثير من الجدل، رغم أنهم لم يكونوا رقيقي الحاشية في التعامل مع مقعدي المتحرك.

كان والدي مغمض العينين، وثمة أنابيب تخرج من فمه وأنفه، وآلات يبعث شـــكلها علـــى التشاؤم كانت تدور مسرعة محدثة صوت كالنقرات، والعديد من الأضواء المتقطعة.

كما كان هناك العديد من الممرضات وطبيبان. أخذوا يحدقون بإمعان في تلك الآلات، ثم يدونـــون ملاحظـــات، ويجسون نبضه، ويقيسون حرارته، وكل منهم يتشاور مع الآخر بأصوات خفيضة، ثم يعبسون..

ولكن.. لم يكن أحد منهم يفعل شيئاً حقيقياً.

استطعت أن أقول مغمغماً: "ماذا يحدث؟"

"جلطة دموية" أجابني أحدهم.

"وماذا عساكم تفعلون حيال هذا؟"

قال الطبيب: "نحن نرقب حالته".

"أعني ماذا تفعلون حيال الجلطة الدموية".

أجابتني إحدى الممرضات أخيراً: "إن طبيب والدك المعالج ليس هنا الآن. لقد اتصلنا.. لا تجزع، كل شيء سيكون على ما يرام".

"ولكن ألن يفعل أحدكم شيئاً ريثما يصل الطبيب؟"

أجابتني ممرضة أخرى في تخابث: "إن د. رينر هو المسؤول عن هذه الحالة".

"لكـــنه ليس هنا الآن". قلت ذلك، وأمكنني تلمس الذعر يتسلل في جنبات صوتي المموه، "ألا يجدر أن يفعل أحدكم أي شيء؟"

كان هناك المزيد من المراوغة، والنظرات المُحَوَّلة بعيداً. هل كان الخال رودي مـــصدر خـــوف لهـــذا الطاقم الطبي لدرجة خشيتهم وضع يدهم على واحد من مرضاه؟ كان والدي غائباً عن الوعي، ويكسوه شحوب مميت. توسلت إليهم كي يقومـــوا بمـــا يلزم عمله. أمروني ألا أرهق نفسي. ظل الأطباء ينظرون إلى الآلات والأجهـــزة، بينما راحت الممرضات يرفعن وسادات أبي، وصرن يخرجن ويدخلن من الغرفة وإليها في شكل جاد، ولكن دونما تأثير. ازددت تعباً، فقد كنت ضعيفاً في المقام الأول، وازددت إرهاقاً وهزالاً من جراء المفاوضات العقيمة والمحبطة نيابة عن والدي. وفي آخر الأمر، غلبني نوم عميق وأنا في مقعدي المتحرك.

حينما أفقت، كانوا قد أعادوني إلى الغرفة الأخرى، بينما وقفت أمي بمدخل الـــباب تومئ في صمت، بينما كان الطبيبان اللذان كانا يلازمان والدي، واللذان تملكهما الخوف والاستكانة آنذاك وقد عاودهما الثقة، يقومان بتفسير الأمر لها في نبرات غير رسمية متعاطفة، وأبلغاها إنه لم يكن ثمة جدوى في الأمر، وأنهما قد بذلا قصارى جهدهما من أجله. ربتا على ذراعها لمواساتها، وهو بالتأكيد أفضل مما فعلا لأبي، الذي أدركت الآن أنه قد وافته المنية.

ألقـــت أمي نظرة عليَّ فوجدتني أبكي، وظنّت أنه الحزن الدفين، وكان ذلك جـــزءاً مـــن الحقيقة؛ فبينما كنت أناضل وطأة الحزن الطاغي، أحسست بغضب

عاجز محتدم، ورغبت في قتل الأطباء والممرضات، وابتغيت قتل الخال رودي، مثلما اغتالوا والدي. كل ما سمعه والدي طوال حياته في نطاق الأسرة كان عن رودي ومآثره، وكيف كان رجلاً عظيماً بارزاً، وكيف شفي المرضى، وحقق الثراء في ذلك. و لم يحضر هذا الوغد حتى في الوقت الوحيد الذي كان أبي في أمس الحاجة إليه.

لم أكن حانقاً عليه وعلى طاقم المستشفى فحسب، بل كنت ثائراً على العالم بأسره، بما في ذلك نفسي. كان يفصلني عن أبي أقل من عشرة أقدام (3 أمتار)، و لم يكن في وسعي فعل أي شيء له، بل أنني عجزت حتى عن إقناع وحث هؤلاء الذين ربما كان في إمكانهم معاونته.

سمحوا لي بمغادرة المستشفى تلك الليلة، وأمكنني من ثم البقاء مع والدتي في البيت. قام أحدهم بتوصيلنا، إلا أنني لا أتذكر من هو، فقد كنت كسير الفؤاد لفقد والدي، ولكيف قضى نحبه، حتى عجزت عن التفكير الصائب.

كان فكي الموثق بالسلك يؤلمني بضراوة، وثورة الغضب التي لم أتمكن من التخلص منها لم تجد نفعاً، حيث داومت على شد عضلات وجهي. لزمت الصمت المطبق خلال الجنازة، وحينما بلغت المنزل، انتزعت زردية حادة، وعرجت صوب المرآة، وشرعت في قص الأسلاك التي كانت تطبق على فكي معاً.

أطبق صديق لي على ذراعي قائلاً: "هل جننت يا (ماسون)؟"

أزحت يده بعيداً، وقلت: "لا أبالي"، واجتثثت كافة الأسلاك و لم أعد قط إلى عيادة الأطباء.

أمعنت التفكير ملياً في هذه في السنوات الأخيرة، وأجدني أميل إلى الاعتقاد بأنني قد ضخّمت الأمر في ذهني، وأن ذكرياتي قد تكون أشد قسوة مما حدث بالفعل آنذاك. ومع ذلك، من الصعب تصديق أن مجموعة من الأطباء والممرضات قد وقفوا ساكنين بالقرب من مريض ما، وتركوه فريسة للموت لمجرد أنهم كانوا يخشون التعدي على نطاق سلطة رئيسهم.

ولكن تلك كانت الطريقة التي أتذكر بها الأمر.

* * *

بعـــد انقضاء بضعة أسابيع رحلت لمرافقة باربارا في جامعة أوهايو. ولكن أياً كـــان الهدف العلمي الذي حققته، فهو كان سريعاً ومختصراً. فقد كنت في حالة ذهنـــية مضطربة و لم أبذل حتى محاولة جادة للانخراط في الحياة الجامعية. و لم تكن أمـــي على ما يرام، وكانت في حاجة ماسة لي، وأحسست بالذنب لكوني لست معها. وظللت هكذا حتى أجلستني باربارا قبالتها ذات مساء، وقالت:

"إنك لا تنتمي إلى هنا".. قذفتها بوجهي بشكل مباشر.

آلمـــني ذلـــك، فقد كانت هي السبب الرئيسي لالتحاقي بتلك الجامعة منذ البداية، فقلت:"لم تقولين ذلك؟"

"لا يهم، تعلم إنها الحقيقة. في إمكانك إبقاء الأمر إلى فترة أطول لو رغبت، ولكن في النهاية..." قالت هذا، وهزت كتفها، و لم تكمل.

كانـــت محقـــة، فلم أكن أبداً منتمياً إلى المكان، لكني عزفت عن الاعتراف بـــذلك حتى لنفسي، و لم أرغب في تركها. فبغض النظر عن حقيقة أنه لم يطب لي الأمـــر حيـــنما كنا منفصلين، فأنا لم أكن مستعداً بعد للمجازفة بفقدانها. وأظنها شعرت بسبب ترددي، فقالت مؤكدة:

"لن يغير هذا شيئاً مما بيننا. ستزداد تعاستك لو بقيت هنا، وهو أسوأ ما يمكن أن يلم بنا".

ومـــرة أخرى كانت على حق - كان لزاماً عليَّ أن أتيقن، ولكن بعد فوات الأوان، أنها كانت دائماً على حق. وهكذا، بعد انقضاء فصل دراسي واحد تخليت عن الكلية وعدت إلى البيت، تغزوني مرارة وإحساس بالازدراء.

حصلت على وظيفة بمصنع (جنرال إليكتريك) الذي يصنع المصابيح الضوئية الكهـــربائية. كانت وظيفة جماعية، وكنت أتقاضى حوالى سبعة أو ثمانية دولارات في الـــساعة، وكان هذا جيداً. ولكن حتى بعد انقضاء كل السنوات المنصرمة منذ ذلـــك الحـــين، ما زلت أجدها أسوأ وظيفة حصلت عليها، على الأقل خارج عن الـــسجن، فقـــد كانت مملة إلى حد تعجز عن وصفه الكلمات. كل ما كان عليَّ عملـــه هـــو مراقبة أربع ماكينات، وحينما ينحشر شيء أفك وثاقه. أتاح لي هذا وقـــتاً كي أفكر وأسهب في التفكير في مدى الضجر الذي اعتراني. ومن ثم، لبثت

هـــناك ثلاثة شهور ثم تركت العمل، وأنا على يقين بأني لن أرغب أبداً في أن أطأ بقدمي داخل مصنع ثانية إلا إذا كنت أنا مالكه. وشرعت في القيام بأعمال صيانة الشقق السكنية.

كان وضعي الجديد وحالتي الذهنية مزيجاً مقلقاً، فالآن وقد استبد بي غضب عارم بشأن الطريقة التي توفي بها أبي، لم يعد لديّ أب يكبح جماح ثورة حنقي. ربما استطعت بمرور الوقت أن أتغلب على هذا، فتهدأ نفسي، وربما أعود إلى الجامعة... مـــن يدري؟ كل ما أعرفه هو أن عدم مبالاتي ووهني قد اتحدا والظروف القاسية، فجنحت دفة حياتي بشدة.

لبـــثت باربـــارا بالجامعة، وبدأت أنا في قضاء وقتاً أطول مع بوب، شقيقها الأكبر؛ ربما لشهرته كخارج عن القانون، أو كي أظل بالقرب من عائلة بارب، لا يمكـــنني الجزم بهذا حقاً. كان بوب شاباً رائعاً، ولكن وقتئذ كان له بضع مخالفات مع القانون - كان بالفعل يمضي فترة مراقبة سلوك - ولم يكن الشخص المناسب لاستئناف صداقتي معه.

قبيل عيد الشكر في العام التالي، كنا نشرب ذات ليلة ونتجاذب الهراء واللغو كمخمـــورين معتدلين دون تفريط، حين سألني بوب: "ماذا يجب أن نفعل؟ لا بد من أن نسطو على محطة وقود سنوكو أسفل مركز إس أو إم ومايلز".

فـــضحكت وقلت: "أجل، فكرة صائبة، وربما نسطو على مصرف في طريقنا إلى البيت".

إلا أن بـــوب لم يـــضحك، وقال: "أعرف شخصاً اعتاد العمل هناك، وقد أخـــبرني أن الرئيس يترك دائماً بعض النقود ليلاً". وعندما توقفت عن الضحك، قال: "ما من خزنة، مجرد خزانة حفظ الملفات".

ارتـــشفت رشـــفة من شرابي المفضل، إما لكسب بعض الوقت للتفكير، أو لتهيئة نفسي.. لست موقناً، ثم قلت: "ألديك خطة؟"

هنا ضحك بوب، وقال: "خطة؟ أجل، لديّ خطة. ندخل من النافذة الخلفية وننتزع النقود، ثم نلوذ بالفرار".

ويبدو أنه رأى ملامح الريبة تكسو وجهي أو ما شابه، لأنه عبس وهزّ رأسه

قـــائلاً: "ليست بالمهمة الصعبة، سوف تدخل وتخرج سريعاً، فلا يهم إن انطلقت أجهزة الإنذار".

كـــان جاداً، فرحت أطرح عليه بعض الأسئلة، وأسرع هو ببضع الإجابات، واحتسينا المزيد من المشروب المفضل.

كانـــت فكرة قاصرة، وخطة سيئة، ومهمة خرقاء، بدا الحديث عنها عندما كـــنا مخمـــورين أفضل بكثير من فعلها متى كنا واعيين. أوقفت سيارتي على بعد حوالى خمسمائة قدم (150 متراً) من محطة البنـــزين، ثم مشينا إلى هناك، وحطمنا النافذة الخلفية، ثم أزحنا بقايا الزجاج المكسور ودلفنا من خلالها.

أخـــذنا نتطلع حولنا داخل المحل المعتم، و لم نتمكن من رؤية خزانة الملفات، فـــشرعنا في التنقيب عنها. كانت هناك أكوام مكدسة من الإطارات وقطع غيار قديمة في كل مكان، بالإضافة إلى أدوات مبعثرة وأجهزة أخرى.

فجـــأة جذبني بوب من ذراعي، وبينما فعل هذا لاحظت ضوءاً يتسلل فوق الجدار البعيد، وكان منبعثاً من سيارة بالخارج. خطوت داخل الظل، وأخذت أنظر عبر المكتب الأمامي ومن خلال إطار النافذة الزجاجية الفخم، فرأيت سيارة شرطة تـــتجول ببطء. أبصرت أنوار كوابحها تتسلل إلينا بينما كانت حركتها تبطئ، بيد أنها لم تتوقف تماماً، وكأن السائق كان يحاول اتخاذ قرار ما.

سألت بوب: "أتظنه يعرف شيئاً؟"

"أشك في ذلك" قال بوب مستهجناً، "ربما مجرد...".

انطفأت أنوار المكابح واستدارت سيارة الشرطة إلى محطة الوقود، وكانت لا تـــزال تتحـــرك بمنتهى البطء. لم أعرف كيف أمكن للشرطة معرفة أن هناك أناس بالداخل، ولكن شيء ما حمله على الاستدارة.

تـــوجهت صوب النافذة الخلفية وتسلقت إلى الخارج، ببطء، وبدون ضجة. رغبت في الهرب في حال اقتحمت الشرطة المكان، بيد أنه لم يكن منطقياً الإعلان عـــن أنفسنا إن كان الشرطي يتحرى المكان كجزء من عمله اليومي المعتاد. لكني قفزت فوق الأرض وعدوت منطلقاً، وكان بوب خلفي تماماً.

بـــشكل تلقائـــي، ركضت بعيداً عن سيارتي، فلو ضبطنا الشرطي لكان من

الأفضل لنا كثيراً أن نترجل، وذلك لأسباب عديدة. لم تكن القضية إذا ما كنا نستطيع التفوق عليه في سباق للسيارات أم لا، لأنه كان سيتعقب أثرنا بسيارته على أية حال. فضلاً عن أنه من الأفضل أن تخسر نفسك فقط، بدلاً من أن تخسر نفسك وسيارتك أيضاً.

كان ذلك كله واضحاً بالنسبة لي، حتى إنني بددت ثانية أو اثنتين فيما كان ذهني يحاول تدبر ومتابعة حقيقة أن بوب كان متجهاً مباشرة نحو سيارتي. ليس فقط أنها كانت فكرة خرقاء، بل وكان عليه أن يعبر شارع مضاء للوصول إلى السيارة. متى لم أعد متمكناً من رؤيته، اندسست داخل بقعة شجيرات كثيفة، ونبشت طريقي خلالها، ووصلت إلى مساحة قليلة الشجر بالخلف وواصلت الركض.

بعد حوالى عشر دقائق، تواريت قبالة أحد الأشجار لألتقط أنفاسي وأستجمع شتات أفكاري.

وما أن كنت بمأمن حتى شرعت في القلق على بوب. نهضت وعثرت على تلفون عام بالنَّقْد، واتصلت بشقيق باربارا الأصغر - أوجي - لأرى إن كان قد تلقى شيئاً من بوب، ولكن لم تكن لديه أية أخبار، فأبلغته بما حدث.

سألني أوجي: "ماذا سنفعل؟"

سؤال وجيه، ولكني لا أظنها فكرة صائبة أن نتصل بالشرطة ونسأل عمّا إذا كان روبرت بنز معتقلاً لديهم. فاقترحت قائلاً: "ربما يجدر بنا أن نبحث عنه".

اصطحبني أوجي، وقدنا السيارة بالقرب من المكان في محاولة للعثور على بوب. التزمنا بحد السرعة القانوني، وتوجهنا يميناً صوب زاوية مركز إس أو إم ومايلز. قلت مشيراً إلى بقعة خالية: "كنت قد أوقفت سيارتي هنا".

"أتظنه أخذها وأفلت بها؟"

لم يكن هناك سبيل لمعرفة ذلك، فقررنا مواصلة القيادة. وعلى مسافة بنايتين تقريباً، لاحت أنوار حمراء وامضة وراءنا فجأة، وأضاءت ما بداخل السيارة كله. قال الشرطي لـ أوجي بعدما انتحينا جانباً وسار هو بجوار النافذة: "الرخصة وسند الملكية". وبينما سلمهما أوجي، مال الشرطي برأسه إلى أسفل ورمقني قائلاً: "وأنت أيضاً".

رمق رخصتي بنظرة خاطفة ولوّح بعدها إلى شريكه الذي خرج من السيارة وسار إلى جانب مقعد الراكب، ثم فتح بابي قائلاً: "أخرج".

وبعـــد أقل من دقيقة، كنت وأوجي بالمقعد الخلفي لسيارة الشرطة، مكبلين بالأصفاد.

* * *

كان الشرطي بمحطة الوقود قد عاد أدراجه وأبصر الزجاج المكسور، وألقي القـــبض علـــى بـــوب قبل أن يتمكن حتى من الوصول إلى سيارتي. كانت هناك ســـيارات أخرى تقف بالشارع، ولكن بطريقة ما لازم الشرطي سيارتي. لا أدري إن كـــان قـــد خمّن أية سيارة كان يهدف إليها بوب، أو إن كان بوب قد تفوه بـــشيء، لكـــن الأمر استلزم فقط مكالمة عاجلة من مخفر الشرطة مع أرقام لوحة ســـيارتي وحصل على اسمي، الذي تم نشره على كافة سيارات الشرطة في المنطقة. (لم يخبرني بوب أبداً إن كان سلمني لهم، و لم يحدث قط أن سألته).

أطلقوا سراح أوجي بعد بضع ساعات، بينما أمضيت أنا الليلة بالسجن. وفي الـــصباح الـــتالي، كـــنت أنـــا وبوب مدانين بالسطو. وادعى كلانا البراءة لدن الاستدعاء. أقبلت أمي ودفعت الكفالة (كانت تستشيط غضباً، وحملتني سدادها لها فـــيما بعد). ولكن لم تكن هناك كفالة لـــ بوب نظراً لسجله الحافل، والمشكلات التي وقع فيها من قبل، فبقي محتجزاً.

استأجرت محام خاص، والتقينا زهاء الشهرين، وخططنا لكيفية تناولنا للقضية في المحاكمـــة. كان يظن أن موقفي جيداً؛ فقد كان الدليل هزيلاً وغير جوهري، وأنـــه لم يكـــن هناك ما قد أنـــزعج بشأنه، حتى إنه قد خمّن أن الولاية ستُسقط التهمة قبيل المحاكمة، حيث إن ضعف القضية ضدي ستجعل مساعد النائب العام يبدو كأبله أمام القاضي.

كان بوب محتجزاً طيلة الوقت، لأنه كان يمضي فترة اطلاق السراح المشروط بحـــسن السلوك وقت اقتحمنا محطة الوقود، وكان بالفعل يقضي عقوبة السجن، وكان للولاية الحق في إيداعه السجن ثانية ريثما أرادت. زرته كثيراً وأكدت له إنه سيخرج في غضون يوم أو اثنين بعد بدء المحاكمة.

كنت أشعر بثقة تامة حين تلقيت مكالمة من المحامي الخاص بي قبل المحاكمة بيوم واحد؛ ضحك خفْيةً وقال: "يرغب مساعد النائب العام في مقابلتنا".

كنت مبتهجاً، وهرعت إلى المحكمة، حيث جلسنا أنا والمحامي مع مساعد النائب العام في غرفة اجتماعات صغيرة، ولم يبدد مساعد النائب العام وقتاً في الوصول إلى لب الموضوع.

قال لي: "إن أقررت بأنك مذنب، ستقضي ثلاثين يوماً بالسجن وعامين لمراقبة السلوك، وسنسقط التهم عن صديقك بنز، فقد قضى الرجل شهرين بالفعل... وهذا يكفي".

بحد معرفتي، كان ذلك نسفاً كاملاً لمستقبل إنسان، ووجدتني عاجزاً عن الإجابة على الفور. أما المحامي، الذي كان معتاداً على هذه الأمور، قال: "أي اتفاق هذا؟ ليست هناك قضية، ولا يمكنك الفوز بالمحاكمة وتعرف ذلك. تباً.. من المحتمل أن القاضي سينهي القضية في اليوم الأول".

أجاب مساعد النائب العام: "محق أنت في هذا.. ربما يُطلق سراح موكلك"، ثم التفت إليّ وقال: "الأمر وما فيه، أنك إن قبلت بهذا بالمحاكمة، ستفوز أو تخسر، وسننتهك اطلاق سراح صديقك المشروط، مما يعني أنه سيعود إلى السجن". كان هذا ما قاله بالفعل: "إلى السجن".

هتف المحامي في غضب: "انتظر دقيقة".

ولكن مساعد النائب العام نهض وتوجه صوب الباب قائلاً "هذا هو الاتفاق، فور ما تبدأ المحاكمة، فالأمر خارج المداولة".

بالطبع استشاط المحامي غضباً، فها هم الرجال الذين أودعهم الناس ثقتهم يفترسون المشتبه به بلا هوادة، ويحملونه المسؤولية الشخصية عن سجن أو حرية صديقه، مع معرفتهم الكاملة أنه سواء كان بريئاً أو مذنباً فإن أي شخص يتحلى بذرة من الضمير ما كان ليتخذ قراراً بإنقاذ نفسه في مقابل الزج بصديقه إلى السجن. فأين العدل هنا؟ ما صلة هذا الاتفاق الكريه بذنبي أو براءتي؟ لماذا لم يلقوا القبض على أحد أصدقاء بوب بنز عشوائياً ويعرضوا عليه الاتفاق نفسه!

بعـــدما انتهى المحامي من تأففه، أخبرته بقبول العرض الذي لم أكن سعيداً به، ولكن الواقع كان أنني حاولت اقتحام محطة الوقود. أدركت ذلك، وكذلك أدركـــت الشرطة، ورغم أن أسلوب تعاملهم مع ذلك قد انتهك ما يربو على ست من وصايا الحريات المدنية، إلا أنه من العسير أن نجزم بأن العدالة لم تطبق. عـــلاوة علـــى ذلك لم يكن هناك سبيل لأن أكون مسؤولاً عن عودة بوب إلى السجن.

قـــضيت الثلاثين يوماً في حفرة قذرة في كوياهوجا كاونتي، والتي أسعد بأنني لم أكـــن أعرفها قبل أن أتخذ ذاك القرار، فقد كان مكاناً قذراً مخيفاً وحقيراً؛ أفظع مكـــان يمكـــن أن أودع فيه بمعزل عن الأصدقاء والأسرة للمرة الأولى في حياتي، ولكـــم بغضته. كانت فكرة تكرار التجربة - وقد كانت لمدة شهر فقط - كفيلة بأن تبقيني حريصاً لبقية حياتي.

تـــلا هذا أن كنت حسن السلوك تماماً للعام الأول من فترة مراقبة السلوك، لدرجـــة أنهـــم تنازلوا رسمياً عن نصف العام الثاني، معلنين أنني مواطن محافظ على القانـــون اقتـــرف يـــوماً خطأً ساذجاً، واستوعب درسه وصار مؤهلاً لنيل حقه ومكانته المنتجة بالمجتمع مرة أخرى.

كنت فعلاً قد تلقنت درسي جيداً: لا أستعن أبداً بشريك.

3

السطو الأول

مـــن المــثير للدهشة أن باربارا ارتبطت بي عقب حادثة السلب تلك، والتي كانت تجربة محرجة بالفعل، ولكني لا أحسب أن لهذا علاقة بمساندتي لشقيقها.

كـــرهنا ابتعادنا عن بعضنا البعض وقضينا المزيد والمزيد من الوقت معاً. فكنا نطوف أرجاء الجيرة الموسرة نفتش عن لافتات تحمل كلمة "للبيع"، ثم نتظاهر بأننا حديــثو الــزواج، بينما نفحص الأماكن لنتأكد من أنه كان ثمة غرف نوم كافية للأطفــال الـــتي كنا سنرزق بها. وسرعان ما تبدل مزاح كوننا زوجين بدرجة لا يمكـــن إدراكها، حتى لم نعد على يقين من الاختلاف بين التخيل والتخطيط، بل صار من العسير في أغلب الأحيان أن ننطق بكلمة الوداع. وبطريقة ما بدأ يتملك كلانا خاطر أن كل شيء سيصبح أيسر وأقل لوعة إن تزوجنا فعلاً، وما أسرع ما تغيرت أحاديثنا إلى متى وكيف سنتزوج.

لم نـــرد احتفالاً مبهرجاً، بل لم نشأ حتى أن نبلّغ العديد من الناس، إذ سيبدو أمـــر دراســـتها بالكلية بينما أنا في البيت بلا دراسة أمراً محرجاً. وفي النهاية أتممنا الزفاف بكنيسة صغيرة بمنتصف الطريق بين كليفلاند وأكرون بحضور أمهاتنا فقط، إذ كـــان والــــد بارب قد وافته المنية قبل عام. ولم يكن شهر العسل سوى ليلتين قضيناهما بنـــزل، ثم عادت أدراجها للكلية وأنا إلى البيت.

لم نقـــضِ سوى ليلتين، ورغم ذلك اكتشفت بارب بعد مضي ما يقرب من شـــهر أنها كانت حاملاً، فتركت الدراسة، واستأجرنا شقة صغيرة في كليفلاند،

وكان هذا في أعقاب خروجي من السجن بعام واحد.

وبقـــدر ما كنت عابثاً بالمدرسة الثانوية، كان من الصعب تصديق كيف صـــرت مـــتحملاً للمسؤولية في تلك الفترة الوجيزة، وهي إحدى مزايا رعاية أســـرة علـــى ما أعتقد. في العام التالي كنت أناهز الثانية والعشرين، وأقطن في شـــقة صغيرة، لكن مريحة، بصحبة زوجتي وابنتنا سوزان، وأمضي ثلاث ليال أسبوعياً أفيد من رخصتي في مجال العقارات لدى كيس ويسترن رزيرف، والتي لا تـــبعد كـــثيراً عن مكان سكني إذا ما ذهبت بالسيارة. حصلت على وظيفة جـــيدة في إدارة مجمع سكني، أكسب منها مائة دولار أسبوعياً، والذي لم يكن بالـــدخل السيئ عام 1962، إلا أنه كان بعيداً كل البعد عما تمنيت أن أكون عليه في السنوات القليلة التالية.

كان لديّ أفكار عديدة عن ماهية الوظيفة المستقبلية، ولكنني كنت أفتقر إلى كيفـــية الوصـــول إليها بالفعل. فلم يكن القول المأثور "خذ المال لتصنع المزيد من المال" ينطبق على أي شيء بقدر ما يصدق في حالة مجال العقارات، إذ يحتاج المرء إلى قـــدر مـــن رأس المال السائل، ولو قليل، لدن التفكير في الدخول فيه. لم أدرِ بالضبط كم كان القدر المطلوب، ولكنني كنت أدرك يقيناً أنه كان أكثر مما كنت أمتلكه، وأكثر مما كان من المحتمل الحصول عليه في وقت قريب براتبي هذا وعائلتي الجديدة التي أعولها. فكرت في قدر المال الذي يجب أن ننحيه جانباً بشكل منتظم لاســـتغلاله في بعـــض الاستثمارات الصغيرة، وما هو قدر الوقت المرجح استغراقه للوصـــول إلى المـــرحلة التي يمكننا عندها وضع المال في استثمارات أكبر، ومن ثم تكـــرار لمرات ومرات. وتخيلت مستقبلي كطريق مفرط الطول والبطء، وقد بعد الهدف كثيراً حتى صار من العسير الوصول إليه.

وفجأة نمى في داخلي الولع برياضة الغولف المصغرة.

* * *

وذات لـــيلة، بعـــد انتهاء الدرس، كنت أحتسي شراباً مفضلاً مع صديق لي يدعـــى سام شنيرمان، الذي عرف عنه خلال المدرسة الثانوية أنه طالب نجيب لا يورط نفسه في أية متاعب إطلاقاً، لكني كنت معجباً به على أية حال. كان يشرع

في احتساء كأسه الثالث حينما كنت أنا بعد في كأسي الأول، وبدا وكأنه كان يحتسي الشراب المفضل طيلة اليوم.

مازحته قائلاً: "ما خطبك يا سام؟ هل تعاني ضغوطاً في العمل؟"

سحب نفساً عميقاً من سيجارته، وأومأ بوجوم قائلاً: "لن تصدق ما حدث".

أحسست أن ابتسامتي تتبدل إلى فم فاغر. هل كان يمازحني؟ "بالله عليك! إنك تعمل بملعب غولف صغير!"

"أجل، فقط جرّب العمل به ليوم واحد؛ أطفال وآباء يصرخون طوال الوقت..." قال هذا وحاول أن يشيح بذكريات يومه بعيداً، قائلاً: "إنها مجرد وسيلة لكسب الرزق، وعلى الأقل هناك ساحة اللعب حيث أفرغ إحباطي في كرات الغولف التي لا حول لها ولا قوة".

" لم تزاولها إذن؟"

"راتبها الجيد". قال وهو يشير طالباً شراباً آخر، على الرغم من أنه لم ينتهِ بعد من احتساء الكأس الموجود أمامه.

ضحكت لذلك وقلت: "نعم، صواب! رياضة الغولف الطفولية".

"لست أمزح، فالمدير يغترف المال منها اغترافاً؛ فهو يملك المبنى، وكل نفقاته أنا والكهرباء.. إنه منجم ذهب لا ينضب".

كان بوسعي أن أرى ما يعنيه، فقلت: "ومنجم نقود سائلة أيضاً".

أومأ سام برأسه إيجاباً، وهو يقول: "يظن مكتب ضرائب الدخل أنه بالكاد يغطي نفقاته، بينما الرجل يحشو خزينته بالمال".

شعرت بشيء ما يدغدغ مؤخرتي: "خزينة؟ هل تعني أن لديه خزينة حقيقية هناك؟"

"أجل، خلف مكتب الاستقبال في الكافيتيريا، حيث يحتفظ بالإيصالات التي ترد خلال عطلة نهاية الأسبوع ريثما تفتح البنوك أبوابها صبيحة يوم الاثنين".

نقرت بيدي في لامبالاة متصنعة، والتقطت شرابي، وسألته محاولاً إظهار عدم الاهتمام قدر الإمكان: "وما هو قدر المال الذي يمكن أن يتوافر فيها.. في مكان كهذا على أية حال؟"

شاب صوت سام شيئاً من مرح عندما قال: "بضعة آلاف تقريباً"، ثم أخرج سيجارة جديدة ووضعها بين شفتيه.

بذلت جهداً مضنياً كي أبقي يداي ثابتتين بينما أشعل ثقاباً لأوقد سيجارته، وهو يأخذ نفساً عميقاً، ثم سألته: "أيحتفظ بذاك القدر الكبير من المال هناك؟"

"بـــسهولة" قال هذا وتراجع إلى الوراء وهو ينفث سحابة كثيفة من الدخان الأزرق بينما يراقبني.

هززت عود الثقاب لأطفئه وقلت: "هاه!.. تخيل هذا!"

ثم أدرت دفـــة الحوار إلى موضوع آخر، بينما ظل جزء من ذهني يفكر فيما يمكـــن فعله ببضعة آلاف إضافية من النقود السائلة. بالطبع كان ذلك كله محض تفكـــير وأمنية، بيد أنني في الصباح التالي كنت لا أزال أفكر في الأمر... بل وفي اليوم الذي تلاه أيضاً.

* * *

"هذه دَعابة، أليس كذلك؟"

قالـــت بارب وشبح ابتسامة يرتسم فوق جانب شفتيها، وكأنها تنتظر ختام الدعابة والهدف منها. كانت تمسك بإسفنجة غسل الصحون بإحدى يديها، ووعاء أو ما شابه في اليد الأخرى.

قلت لها مؤكداً: "ليست بدعابة... دعك من هذا، سيكون الأمر ممتعاً".

"نعم.. ممتعاً! منذ متى وفكرتك عن المتعة أن...".

"فلتنـــته ممـــا تفعلـــين"، قلت بينما كنت أخرج من المطبخ، "سوف أذهب لإحضار سوزي".

اللعـــنة.. إنها مجرد لعبة غولف مصغرة، بيد أنني لم أستطع فهم الكثير عنها. دأبـــت علـــى اصطحاب باربارا وسوزي الصغيرة إلى هناك في كل عطلات نهاية الأســـبوع، وهو أمر استمتعت به باربارا. أظنها كانت مسرورة لرؤيتي أسترخي، حتى لو كانت ساحة الغولف تسلية غريبة لمشاغب سابق، صعب المراس.

لم يكـــن لديّ أية نية فعلية للقيام بأي شيء حيال الخزينة. خلتها فقط زيارة مـــن بـــاب اللهـــو والتسلية غير الضارة أن أتحرى المكان، وأمارس بعض ألعاب

الـــتخمين الذهنية. ولكن حقيقة الأمر هي أني كنت أمر بوقت عصيب في تركيز انتباهـــي على وظيفتي، إذ ما فتئ ذهني يعود إلى ساحة الغولف اللعينة تلك. كنت قد تصورت أنه ما أن يقع بصري فعلياً على المكان، سأجد العديد من العقبات من شـــأنها أن تصرف اهتمامي وترسل أي تفكير في محاولة جدية أدراج الرياح. ومن ثم يمكنني في النهاية الإقلاع عن التفكير في ذلك طيلة الوقت، لولا أنها ستكون مثار ضحكي أنا وسام لدن احتسائنا الشراب المفضل.

لم تزعجني ساحة اللعب، إذ لم تكن مجدية ببعدها الشديد عن مقر الكافيتيريا. كان الغولف المصغر لعبتي، وحاولت استيعاب أكبر قدر من التفاصيل حول مخطط المكان، بينما ركزت بارب على مضرب الغولف خاصتها، وكانت سوزي الصغيرة تـــضحك بـــسعادة عند طاحونة الهواء، وقلعة قصص الأطفال، والأشياء الأخرى الملونة المبهجة المنتشرة حول الملعب.

كانـــت ســـاحة انـــتظار السيارات متسعة ومكشوفة للناظرين من الشارع، وكانـــت خاوية كل ليلة، بحيث كان من اليسير أن تلاحظ الشرطة على الفور أية سيارة تُترك هناك بعد ساعات العمل، حيث كانت تقوم بدوريات خفارة بالمنطقة بـــين الحين والآخر. أما أقرب مكان لترك سيارة ما، فكان في نـــزل على بعد ما يقرب من ربع ميل شمالاً، حيث كانت السيارات تغدو وتروح طوال الوقت، من وإلى ســـاحات الانـــتظار المتعددة هناك. لاحظت وجود وهد صغير يسير بمحاذاة الطـــريق، بجـــوار ساحة انتظار السيارات الخاصة بالنـــزل، وحيث بعض المياه في قاعـــه. خمـــنت أن العمق قد يختلف وفقاً لفترة هطول الأمطار وفترات الجفاف، وواتتني فكرة عن كيفية الاستفادة من ذلك الوهد في عملية السطو.

كانت الخزينة حيثما قال سام تماماً؛ خلف مكتب الاستقبال. وبعد أن فكرت في الأمـــر ملياً، خاصة والخزينة تستقر أمام ناظري بالفعل، انتابتني مشاعر لم أكن معداً لها على الإطلاق. أحد تلك المشاعر كان انجذاباً جارفاً – بحيث إني واجهت صعوبة في إزاحة بصري عن الخزينة. وآخر كان الخوف، بل الخطر، من أنني لو لم أنقطع عن التفكير في هذا الآن، لربما أفلت من يدي زمام الأمر، لأجدني أهوي من فـــوق تل زلق شديد الانحدار. كان الأمر أشبه بالحملقة في منحدر غوص مرتفع،

بيـــنما أنجذب نحوه ويحدوني الخوف في آن واحد. تراكم كل ذلك حول لب من الحتمية بات من العسير تجاهله مع كل دقيقة تمر.

كـــنت أجهـــل أي شيء عن الخزائن، ولكن هذه الخزينة بدت وكأنها قطعة خردة، ضخمة وبدينة، يبلغ ارتفاع كل جانب من جوانبها قرابة الثلاثة أقدام (90 سم). وكان لها باب مستدير، زال طلاؤه الأخضر الباهت من عدة مواضع. ترى، كم سيكون صعباً فتح خزينة أثرية كهذه؟

كان 'نظام' الإنذار بدائياً للغاية، فلم أعره اهتماماً يذكر. لم يكن حتى مُراقباً؛ فقط مجرد جرس لإثارة خوف المخربين المعتادين. كنت قد أبصرت العديد من مثل تلـــك التركيبات الرخيصة في كثير من شقق المبنى الذي كنت أتولى إدارته. كانت الحيلة الوحيدة هنا هي اكتشاف مصدر طاقتها، وأماكن أقفالها، وما إن كان هناك جرس ثانٍ.

كـــان هناك المزيد من العوائق إذاً حسبما راودني الظن. لكن مع كل زيارة تالية فكرت في سبل للتعامل مع تلك العوائق، وبذلت قصارى جهدي في التفكير في كل مشكلة محتملة، وأياً ما كان قد طرأ على ذهني، وجدت له الحل. في الوقت نفسه خرجت بحالتي الذهنية من الوضع الافتراضي، ووجدت نفسي أقضي ساعات في تصور كل خطوة في السرقة الفعلية وصولاً إلى ما سأفعله بيديّ، وكيف ستبدو الأمور من مسافات مختلفة من أضواء الشارع، بل وكيف ستكون درجة الحرارة، وما الذي سأرتديه. ثم شرعت في تدوين أنواع المعدات التي سأحتاج إليها وكيف سأحزمها، وأجريت تعديلات بينما أفكر في المشكلات المحتملة. في النهاية، وعقب حوالى ثلاثة أسابيع من جولتنا الأولى بساحة الغولف المصغر، أصبحت عاجزاً عن التفكير في أي شيء آخر.

كان توقيتاً بارعاً، لأن باربارا كانت قد بدأت في التساؤل عن تلك الجولات الـــصغيرة، حـــيث أضـــحيت أمـــضي طيلة وقتي هناك في فحص كل شيء آخر باســـتثنائها وســـوزي وطاحونة الهواء السخيفة تلك التي تقبع في الفجوة الخامسة عـــشرة، ولم يكن ليمضي وقت طويل حتى يبدو واضحاً أنني أفكر في شيء آخر أكثر من مجرد احتراف مهنة الغولف المصغر.

كان إقدامي على القيام بذاك الأمر فعلياً بات أمراً مسلماً به. ربما لم أكن قد تبينت فعلاً تلك المزية التي تمتع بها عقلي آنذاك، بيد أنني عرفتها فيما بعد؛ فبمجرد شروعي في التفكير في انتزاع غنيمة خطرة وشاقة، أتحول كثيراً إلى ما يشبه عالم أبحاث أو مخترع: فأيّاً كانت خطورة المهمة، سوف أجد سبيلاً لحل الأحجية، ومن ثم سأبادر بالقيام بها.

* * *

في ليلة الأحد التي تلت زيارتنا الأخيرة، أوقفت سيارتي عند ساحة النزل، وانزلقت داخل الوهد. و'انزلقت' هي الكلمة الصائبة، لأنني كنت محملاً بما يقرب من مائة رطل من المعدات، وكنت بالكاد أتمكن من السير. لم يكن لديّ أية فكرة عن كيفية فتح خزينة، لذا أحضرت معي كل ما خطر ببالي من معدات قد أحتاج إليها لتحطيمها: مطرقة كبيرة، أزاميل، معدات متنوعة للتعامل مع قوة الخزينة، وسمٍّ ما شئت من معدات أخرى. كما كان معي مِحَفّة (حمّالة) ذات عجلات مطوية تحت ذراعي، بحيث يمكنني حمل الخزينة بعيداً في حال عجزت عن فتحها في مكانها، بحيث أعكف على ذلك في مكان آخر.

كان قاع الوهد موحلاً، فالتزمت بالمضي بموازاة الجانب. وكان حملي ثقيلاً، وغير متناسق، فكنت ألهث عندما وصلت بمحاذاة مبنى الكافيتيريا وتسلقته. كان الدخول سهلاً كما تخيلت تماماً؛ فكل ما فعلته هو قص المسامير الغليظة بالقاطعات المخصصة لذلك، فهوى القفل الضخم المعلق على الباب محدثاً دوياً هائلاً.

لففت حول مكتب الاستقبال، ووقفت لأبصر الخزينة التي بدت، في تلك اللحظة الحاسمة، ضعف الثقل والصلابة التي كانت عليها من قبل، وكأنها تتحداني في إحداث فجوة بجدرانها.

كان هذا نداءً قوياً بحق من جانب الخزينة.

قرابة الساعة الثالثة صباحاً كنت أجلس قبالة الجدار، وقد أعياني الإرهاق. كنت أتصبب عرقاً بعدما قضيت ما يربو على الساعتين وأنا أعكف على الخزينة. بعد كسرها مراراً بالمطرقة الكبيرة، ووضع الأزاميل داخل كل شرخ متاح، وتدمير

ثـــلاث من شفرات المنشار الدائري، وانثناء قضيبين قويين صلدين، توصلت أخيراً لنـــزع الطبقة العليا من الفولاذ، فقط لأجد تحتها طبقة إسمنتية تغلفها. وبعد المزيد مـــن الطـــرق، والقرع بالأزميل، والحفر، والنشر، بلغت طبقة أكثر صلابة تحتها. ســـاعتان من الجهد المضني و لم أتوغل داخلها إلا بمقدار بوصتين (5 سم) من شيء يبلغ سمكه ثمان بوصات (20 سم) على الأرجح. قررت أن أجرب مسماراً غليظاً آخر، وحطمت قرص أرقام فتح الخزينة. ظل المقبض ثابتاً تماماً كما كان من قبل، وبإزالـــة القرص المحرك، فلم يكن هناك ثمة سبيل للوصول إلى آلية تحريك القضبان الفولاذية الداخلية التي تبقي الباب موصداً.

أصابني ذلك بالإحباط الشديد؛ إذ كان الباب قد انفتح قليلاً، وانفرجت بينه وبين هيكل الخزينة فرجة بمقدار بما يقرب من ثمن بوصة (0.3 سم) أو ما شابه. بيد أنـــي أدركـــت أن سبب ذلك فقط هو ميل المفصلة قليلاً عن موضعها، و لم يكن ذلك يعني بالضرورة أن الباب سينفتح بسهولة، بل لقد أيقنت أن المحاولات التالية ســـتكون عديمـــة الجدوى، وكنت في حاجة لبعض الأدوات القوية؛ غير تلك التي يمكن إخفاؤها في كيس من الخيش.

لم أكـــن مـــستعداً للاستـــسلام. وعلى الرغم من أنني أحضرت محفة لحمل الأدوات الثقـــيلة، إلا أني لم أفكر في استخدامها لجذب الخزينة إلى الخارج، ولكن الآن لم يعد أمامي خيار. تدبرت أن أوقف الخزينة على حافتها وأحملها على المحفة، ثم جمعت أغراضي، ووضعتها فوق الخزينة، ودفعت بها صوب الباب.

كـــان كل شيء على ما يرام بينما أقوم بدفع المحفة عبر الطريق الممهد مجتازاً ساحة الغولف، لكن حالما سرت بها بعيداً عن الإسفلت وعلى العشب بالقرب من قاع الوهد، غاصت المحفة ذات العجلات داخل الأرض الناعمة. جدير بالذكر أن تلك الأرض كانت أكثر ثباتاً من ذلك القاع.

انحنيت على قمة الخزينة وأنا لا أدري هل أضحك أم أبكي، وجالت بخاطري صـــورة المالك وهو يعود صبيحة يوم الاثنين ليرى خزينته قابعة على العشب فوق محفة موحلة عديمة الجدوى، فينفجر في الضحك على ذلك اللص البليد الغبي الذي حاول سلبه. فأعطاني ذلك قوة إضافية.

أوقفت الخزينة على حافتها وأنزلتها من فوق المحفة إلى العشب ثم دفعتها ثانية وأنا أحشرج وبالكاد أتنفس من فرط الجهد المبذول، ثم توقفت، ونظرت حولي، وأصغيت. من جديد دفعت بها دفعتين، ثم وقفت، وأنصت، ولكن ليس طويلاً كما كان يجدر بي. أحسست أنني معرض للخطر، ورغبت في الوصول لذلك الوهد سريعاً. لم أكن على يقين تام من كيفية إنزال الخزينة إلى أسفل حينما وصلت إلى هناك، لكن ذلك القرار تم اتخاذه نيابة عني عندما أفلتت الخزينة قبل أن أكون متأهباً، ووقعت فوق الحافة لترتطم بالنباتات الصغيرة تحت الأشجار، وتندفع بشدة داخل القاع الموحل بصوت أشبه بـ... حسناً، أشبه بصوت خزينة وزنها ثلاثمائة رطل تسقط لتغوص بمقدار عشرة أقدام (3 أمتار) في الوحل: صوت الانغماس في الوحل مندمج مع صوت الارتطام بالمياه. ألقيت بالمحفة والأدوات خلفها ونزلت بنفسي إلى الداخل.

بذلت بعض الجهد في دفع الخزينة بعيداً عن الوحل، الذي بدا عاقد العزم على ابتلاعها، فقط لتسقط ثانية في المياه، على الرغم من أنني كنت أبعد ثلاثة أقدام (90 سم) فقط عن الموتيل. دفعت بها ثانية أربعة مرات، ثم عدت أدراجي لأجلب الأدوات والمحفة. وبدا الوهد وكأنه ممتداً في غياهب الظلمة إلى ما لانهاية، بينما ألقى القمر غير المكتمل بضوئه الخافت. كنت ألتقط أنفاسي عندما حدثت نفسي قائلاً أنه لم يكن مهماً كيف سيبدو الطريق، بل فقط مدى بعده فعلياً. وشرعت في إجراء حسبة ذهنية سريعة: ربع ميل للذهاب يعني قرابة ثلاثمائة قدم (90 متراً)، بينما أدفع ذلك المسخ الأخضر على جانبيه بمعدل ثلاثة أقدام (90 سم) في المرة الواحدة، فما هو عدد المرات التي يجب أن أفعل فيها ذلك؟ قررت ألا أعرف، وعكفت على المهمة مرة ثانية. على الأقل لم أعد مكشوفاً، ومعرضاً للخطر.

كان الوحل يقتلني. حاولت أن أدفع بنفسي قليلاً إلى أعلى حافة الوهد لأصل إلى أرض أكثر رسوخاً، ولكن حافة زاوية الخزينة العسيرة - فكر في وضعك وأنت تهوي بينما تتزلج - كانت تعني أنني لن أتمكن من إفلاتها ومن ثم أستريح، لذا لم يجد ذلك نفعاً. حاولت فتح كيس الأدوات وطرحه أرضاً أمام الخزينة. وكان ذلك أفضل قليلاً، لكن عندئذ لن يكون هناك ما يمكن وضعه أمام الخزينة في الدفعة

الثانية لأن الحقيبة كانت أسفل الخزينة الآن. قررت أن ذلك لم يكن يستأهل الجهد، ولا سيما أن معي الآن حقيبة أدوات يغمرها البلل والوحل لأناضل بها، مما جعل المغامرة برمتها أكثر بغضاً.

نظرة خاطفة على ساعتي أنبأتني بأنه من الأفضل أن أكف عن الرثاء لحالي، وأتأقلم مع الوضع. فآخر ما أردته هو أن تشرق الشمس بينما لا أزال داخل الجب. على الأقل كان القمر قد توارى بالفعل.

في النهاية، نجحت بطريقة ما في مهمتي؛ بعد ست ساعات اعتصرني فيها عمل مستمر، أجدني لا أذكر كيف دحرجت الخزينة على حافة الوهد، ولكني فعلتها. أمكنني رؤية أول بادرة لضوء الشمس الخافت صوب الشرق، فهرعت لإحضار سيارتي إلى حيث تركت الخزينة. وعندما قدت السيارة، والأضواء الأمامية مطفأة، استطعت بصعوبة أن أتبين في ضوء النجوم ذلك الشيء الخبيث المكتنز القبيح، الذي كنت أشعر في تلك الحالة من الهزال والتلبس بالجريمة أنه يسخر مني.

أوقفت السيارة على بعد قدم (30 سم) من الخزينة، ثم ترجلت وفتحت الشاحنة. وبينما كنت ألهث، وأناضل، ويضنيني الجهد، لم أستطع في النهاية رفع الخزينة فوق حافة صندوق السيارة؛ فقد كانت بالغة الثقل، بينما كانت الحافة بالغة الارتفاع. لكنني لم أستطع الاستسلام، ليس بعد المحنة القاسية التي جابهتها في السير بالخزينة كل تلك المسافة. كان لا بد من وجود وسيلة ما.

كانت السيارة عبارة عن مركبة قديمة من طراز كوميت، لها مقعدان ذوا مساحتين عريضتين في المقدمة. أحسست أنه لم يعد أمامي عدة خيارات (بل عدة أدوات)، فما كان مني إلا أن فككت المقعد، الذي يفتح ويتحول إلى مقعد طويل، ووضعته في صندوق السيارة، ثم رفعت الخزينة فوق حافة الباب لأدخلها في السيارة مكان المقعد. غطيتها بمنشفة، وركبت السيارة. لم تكن هناك مساحة كافية لإبعادها تماماً من جانب مقعد السائق إلى مقعد الراكب، لذا فلم يكن هناك مفر من الجلوس فوقها كي أتمكن من القيادة. كنت مضطراً للانحناء إلى الأمام وقد التصقت مؤخرة رأسي بالسقف، بينما أطراف أصابع قدمي بالكاد تلمس

الدواسات. قدت السيارة هكذا، ولم أجرؤ حتى على مجرد التفكير فيما سأقوله لأي شرطي ينتحي بي جانباً.

قدت حتى المبنى الذي أتولى إدارته، وأبدلت السيارة، ثم قدت متجهاً إلى البيت. كان ذلك يفوق في صعوبته سرقة الخزينة في المقام الأول، فبالرغم من كوني مرهقاً، ومبللاً، وخائفاً، ومستريحاً، إلى جانب أمور أخرى لم أتمكن من تصنيفها، غمرتني نشوة عارمة لم أستطع معها الجلوس ساكناً لأقود السيارة.

أما محاولة النوم فكانت أكثر سوءاً، ولكنني أظن أنني غفوت لساعة أو اثنتين.

* * *

قبل أن يحل فجر يوم الاثنين كنت قد حملت الخزينة بمشقة إلى أسفل القبو، الذي هو بمثابة غرفة العمل، وذلك باستخدام عربة يدوية لحمل الأثقال. وعكفت العمل بمسدس لهب قاطع، يحتوي على الأكسجين وغاز الأستلين. لم يكن نزع الباب عسيراً باستخدام تلك الأداة؛ وكنت قد فكرت في هذه الفكرة في الليلة الماضية، وأدركت أن كل ما عليَّ إنجازه هو أن أخترق المفصلات. وانتهيت من هذا الأمر في منتصف الصباح.

كانت هناك فوضى عارمة بداخل الخزينة. يقيناً كان هناك قدر وافر من النقود، ولكن الماء الموحل كان قد تسرب إليها من خلال الباب المفتوح بينما كنت أدحرجها عبر الوهد، فصار كل ما أتطلع إليه الآن هو كتلة ضخمة، قذرة، شديدة البلل، يمتزج فيها اللونان الأخضر والبني. عجزت عن تمييز العملة النقدية من ورقة الشجر المتعفنة، فحملت الكومة القذرة بأكملها داخل اثنين من أكياس القمامة البلاستيكية وألقيت بهما على المقعد الخلفي للسيارة. وضعت الخزينة داخل صندوق السيارة مستعيناً بعربة الأثقال اليدوية، ودعامتين خشبيتين رفعتهما بحيث يشكلان مسارين للعربة، ثم توجهت إلى خارج المدينة، وألقيت بالخزينة في البحيرة، وتوجهت عائداً إلى المنزل.

بعد أن أفرغت الكيسين في حوض الاستحمام، أجريت الماء على المحتويات، وتمكنت من تمييز العملة النقدية عن أوراق الشجر ما أن انمحت عنهما القذارة. بعد ذلك عاودت حشو الكيسين البلاستيكيين بالنفايات، وانتزعت بعض الأوراق

النقدية وألصقتها بالجدران المُبلَّطة كي تجف. وبينما غطت النقود الجدران بأكملها، لم أكن قد أخذت من الكومة سوى القليل، فواصلت العمل بالمثل في الردهة، ثم غرفة النوم، ثم المطبخ.

تمنيت أن أنجز كل هذا وأنزعه قبيل مجيء باربارا إلى البيت، لكن ذلك الشق من الخطة لم ينجح. فحينما دخلت المنزل ظهر ذلك اليوم، كانت كل بوصة (حوالى ثلاث سنتيمترات) مربعة من غرفات (غُرف) الطابق السفلي، ونصف غرفات الطابق العلوي مغطاة بالأوراق النقدية من فئة الخمسات، والعشرات، والعشرينات. بل وليس الجدران فحسب، بل والأرضية، والموائد، والمقاعد، والمصابيح، وجهاز التلفزيون، والخزانات... وفي كل مكان. وبينما وقفت باربارا محدقة وقد فغرت فاهها وعجزت عن الكلام، تركت عملة ورقية جافة موضعها وطارت لتسقط على الأرض. تتبعتها عيناها، وحينما استقرت على الأرض، بدا الأمر وكأنه ينتشلها من أية صدمة ألمت بها.

ومضت عيناها ببريق مخيف بينما تلوح بيديها في أرجاء الغرفة سائلة: "ما هذا؟"

لم أعنِ أن أكون متهكماً وأنا أقول: "إنها نقود"، لكني أخال أن جملتي بدت كذلك.

عقدت أسنانها وهي تقول: "أعلم أنها نقود، ولكن نقود من؟ وماذا تفعل على جدراننا!"

"إنها نقودي.. نقودنا.. أصابها البلل وعمدت إلى تجفيفها".

إنها كانت "حانقة"، لم يكن وصفاً كافياً لرد فعلها. ولكن على الرغم مما كانت تشعر به، فقد لزمت الصمت عند ذلك الحدّ وعضت على شفتها. أدركت أنني اقترفت شيء غير مشروع، وعلمت أنني لو رغبت في إبلاغها، لأبلغتها، لذا لم يكن ثمة منطق في إزعاجي، بل ولم يكن من المنطقي أن أعبث معها. كما أنها أدركت أن أي تفسير قد آتِ أنا به، سيكون محض لغو فارغ، وأدركت أنها كانت ستعلم أنني "سطوت على خزينة".

شرعت عيناها تدور في محجريهما وكاد يغشى عليها، لكنها تعافت سريعاً.

"أية خزينة؟ أين؟"

"في ساحة لعبة الغولف المصغرة".

فهمت أنها أدركت على الفور كافة النتائج، وبينما حدث ذلك، خطرت على بالي أسوأ العواقب في الوقت نفسه، و لم أكن قد جمعت تلك العواقب معاً حتى تلك اللحظة.

قالت بنبرات متهدجة: "طيلة ذلك الوقت كنا هناك معاً، و لم يكن ذلك من أجلنا.. أكنت تخطط للسرقة؟"

كنت مؤهلاً تماماً لقبول الإهانة وسوء المعاملة لإدانتي بالجرم، ولكن ما كنت غير متأهب له هو إحساس بارب الفادح بالخيانة. فقد كان أسوأ شق بالنسبة لها في ذلك الأمر أنني خدعتها. كانت قد تواءمت مع ما بدا لها كولع شخص غريب الأطوار بساحة الغولف، وبينما كان الأمر يسير على هذا النحو، كنت أكذب عليها بالفعل. بدا أنها تواجه مشكلة في أن تقرر ما إذا كان يجب أن ترضخ أم تغضب، بيد أن الغضب كان أسهل بالنسبة لها في التعامل معه، لذا فقد أظهرت غضبها.

كان لذلك الغضب أسباب أخرى أيضاً، وكان أكثرها وضوحاً أنني عرضتها وابنتنا للخطر، بالإضافة إلى نفسي بالطبع. فعلى الرغم من أن بارب لم يكن لها ناقة أو جمل في هذا الأمر، يمكن للادعاء المتقد حماساً أن يجعل القضية تبدو وكأنها عاونتني في اغتنام فرصة القيام بالسطو. وإن تم القبض على كلينا، فأين سيفضي ذلك بالصغيرة سوزي؟

كانت بارب قد أدركت بالفعل في المقام الأول أي حزن سيخيم على أية عائلة من جراء ذلك السلوك المارق. لقد خاضت تلك التجربة مرة مع شقيقها، ثم ثانية معه ومعي حينما اقتحمنا محطة الوقود تلك. ولكنها تزوجتني على أية حال، معتقدة، أو متمنية، أنني سأتغلب على داء السرقة ذاك بعد حبسي لمدة شهر كامل في سجن مقاطعة كوياهوجا، فقط لتدخل الشقة ذات يوم وترى النقود تكسو أرجاء المكان. أدركت على الفور أن المتاعب توشك أن تعترض طريقها ثانية.

لحسن الحظ، كانت طريقة بارب في التعبير عن الغضب الشديد هي أن تركن إلى الهدوء وترفض مخاطبتي، حتى إنها لم تساعدني في انتزاع النقود عن الجدران والأثاث قبل أن تندفع خارجة من المنزل. لاحقاً، حينما تحدثنا عن ذلك، طمأنتها بكلمات مؤكدة أنها كانت مجرد فرصة سانحة تم انتهازها بغاية اليسر، ولم يتسنَّ لي رفضها، وأنها صفقة العمر لجعل حسابنا في البنك يبدأ في التزايد، وأنها آخر هفواتي؛ فأي أب وزوج سأكونه إن اقترفت شيء كهذا ثانية، وواصلت ذلك دون انقطاع حتى اقتنعت تماماً في النهاية أن ذلك لن يحدث قط ثانية، وألم تكن كل أسرة بحاجة لسر عظيم تتكتمه على الأقل لمدة نصف قرن من الآن، ليصير بعد ذلك ممتعاً وحالماً؟

في الحقيقة كنت أخدعها ثانية، لأنني لم أكن أستطيع أن أجزم بأنها كانت مجرد فرصة واحدة سانحة تم انتهازها، وأنها لن تتكرر ثانية، وبالتالي فمن غير المجدي أن نعكف على التحدث عنها. لم أترك لنفسي فرصة للتفكير في العواقب الوخيمة، وبأمانة لم أعرف مغزى أي منها.

كان هناك ما يفوق الخمسة آلاف دولار في تلك الخزينة، والذي قد لا يبدو مالاً وفيراً الآن، إلا أنه في عام 1962، وبالنسبة لرجل يعول عائلة جديدة، ويعمل كمدير مبنى، كان يماثل راتب عام تقريباً. ومع ذلك، بعد انقضاء أسبوع تقريباً عرضت نصف المبلغ على سام؛ إذ كان على كل حال من ألمح لي بهذه الفرصة. ولكنه، لدهشتي العظيمة، ما كان ليقبل بنساً واحداً، بغض النظر عن صعوبة محاولتي إقناعه بأنه كان السبب في حصولي على المال.

وأخيراً استسلمت، لكن كان عليَّ أن أسأله: "لماذا أنا؟ ما الذي حملك على التفكير بأنني سأقوم بذلك؟"

علت وجهه ابتسامة عابثة لشخص مدرك وقال: "استحوذ عليَّ شعور قوي بأنك ربما كانت لديك...، لا أدري" - لوّح بيده في الهواء بينما يبحث عن الكلمات المناسبة - "ربما أنك تتمتع بنوع من المهارة".

فاجأني ذلك قليلاً؛ فلم أعرف حتى إنه كانت لديّ المهارة. ما الذي تبينه فيّ سام ولم أكن أعرفه؟ سألته: "ولكن إذا لم تكن تريد جزءاً من المال، فلم ألمحت لي بسرقته من البداية؟"

تلاشـــت الابتسامة من وجهه وهو يقول: "إن المالك وغد حقيقي. كان من الصواب أن يسرقه شخص ما".

لقد تصور – بطريقة ما – أنني أنا هذا الشخص. شيء مثير للاهتمام. لم يكن لدى المستقيمين من أمثال سام ملكة خاصة في تبين الشخصية الإجرامية. لقد كان صديقي منذ ما يزيد عن أربعين عاماً، ولا أصدق أنه سبق له اغتنام شيء يزيد على تذكرة ركن سيارة.

نـــوع مـــن المهارة. حتى عندما كنت أدحرج تلك الخزينة عبر حافة الوهد، اصـــطدمت بالعديد من الأشياء التي أخفقت في توقعها، بينما بدت في الماضي في منتهى الجلاء. فلم أفتح خزينة من قبل قط، لذا ما كان يجب أن أفترض أن بإمكاني فـــتحها في موقعها. ربما كان يجدر بي أن أحدد مكاناً قريباً منها لنقلها إليه، بحيث يمكنني أن أعود بالسيارة لالتقاطها. أكان يجب أن أستأجر أو أستعير شاحنة؟

علـــى الرغم من ذلك النقد الذاتي، كان يعتريني إحساس عظيم بالإنجاز؛ إذ كنت قادراً على الحصول عليها في نهاية الأمر، واستطعت أن أفكر بشجاعة عندما ظهرت المشاكل، دون أن يستبد بي الذعر، أو أستسلم، أو أحتاج إلى مساعدة. لم يغـــب عن ذهني كيف لعب الحظ دوره ببراعة في إنجاحي في النهاية، ولكنني أيضاً أوليت نفسي الثقة بمقدرتي على اغتنام ذلك الحظ.

قررت أن سام كان محقاً: كانت لديّ مهارة.

* * *

أشـــياء عديدة بدأت تطرأ على ذهني عقب تلك التجربة. فعلى الرغم من أنه كان من المخيف أن أقدم على فعل أحمق وخطر مثل هذا، كان هناك إحساس غير عادي بالألفة حياله. لم يكن بالضبط بسبب تلك الأمور التي تتعلق بالحياة السابقة للفـــرد، أو إحساسي بأن هناك تجربة مسبقة، ولكن كان السبب شيئاً آخر، مثل ارتـــداء حـــذاء غريب المظهر تماماً، بيد أنك تجده ملائماً تماماً لقياس قدمك لدن إخـــراجه من الصندوق، وكأنه صنع خصيصاً من أجلك. ومن الغريب أن حقيقة أنـــني أمـــتلك الآن كومة هائلة من النقود – وهي ظاهرياً سبب قيامي بالسطو في المقام الأول – كانت في الغالب ذات أهمية ثانوية.

لطالمـــا سحرتني الجريمة؛ فقد ارتبط الجانب المتعلق بالخروج على القانون بالطاقة الإبداعية غير العادية لأكثر المجرمين شهرة في الحياة الواقعية والأدبية على حـــد ســـواء. يقيـــناً لم أكن فريداً في ذلك الافتتان، إذ حفلت طاولات بيع الـــصحف والمجلات في الخمسينيات من القرن الماضي بالمجلات التي تتحدث عن مناضلي الجريمة ومقترفيها، وقد تصدر كتاب مثل "مايكي سبيلان" قوائم أكثر الكـــتب مبيعاً على نحو منتظم. كما أن أفلام مثل "على ضفاف المياه"، و"اثنا عـــشر رجال غاضبون"، و"شاهد على الادعاء"، و"تشريح قاتل" قد رُشحت جمـــيعها لجائـــزة الأوسكار حينما كنت مراهقاً. فالجريمة كأحد سبل التسلية الأكثـــر جماهيرية، كانت دائماً أحد أسس الثقافة الأميركية، كما أنه دائماً ما يتم تجسيد أدوار الأشرار على نحو يبعث على التعاطف، على الأقل بنفس درجة الأخـــيار في أغلب الأحيان. (إن كنت لا تصدقني، فمن تصفق له استحساناً في فيلم "العرَّاب"؟).

أتذكر حينما أحدث اللصوص فجوة خلال السطح بمخزن فرانكلين سايمون في ميدان شاكر، وصفت الصحف كيف نـــزعوا طبقات الخزينة واستولوا عليها. كانـــت المديـــنة بأســـرها تـــتحدث عن ذلك، وقلة من كانوا يهزون رؤوسهم، ويهمهمون عن مدى بشاعة الأمر، بل كانت وجوههم تشرق بالإثارة والتساؤل، بينما يعيدون حساب كل تفصيلة بلا نهاية. وكان الأطفال الصغار يتسلقون بجهد قمـــم الأســـطح متظاهرين بأنهم اللصوص، ولا أتذكر أي منهم يتظاهر بأنه يقوم بدور الشرطة أو المحققين.

كمـــا ذكرت سابقاً، فقد صرت أتعلم فن السرقة الدقيق من عدة جهات دون إدراك مـــني، بدءاً من عمال صيانة المبنى الذين أمضيت معهم وقتاً طويلاً. ولكـــن ذلـــك كان الجانب الفني فقط. أما ما بقي بالنسبة لي، فهو أن أتواجد بالقـــرب مـــن أناس لم تمثل لهم حياة المجرمين ذلك العالم البعيد الذي لا يمكن تخيله، بل ظنوا أنهم مواطنين "عاديين". ابتعت سيارتي المستعملة موديل 49 من طـــراز فورد من رجل اسمه طوني تاراسكافيج، الذي كان يمتلك متجراً لهياكل السيارات في العمارة المجاورة. طفت مراراً حول ذلك المتجر، وكنت ماهراً جداً

وسريع التعلم، لذا علمني طوني كيف أستخدم مسدس اللهب القاطع المزود بغاز الأوكسي أسيتالين ليمنحني فقط شيء أقوم بعمله، ومن ثم ينأى بي عن المرتبة الدنيا. كان متجره ملتقى للعديد من الأشخاص المريبين، الذين قضى العديد منهم نحبه مبكراً ولا زال البعض الآخر يقضي أحكاماً طويلة بالسجن. وفور ما اعتادوا عليَّ، لم يعودوا يتكتموا الحديث عندما أكون في الجوار. تحدثوا عن الجريمة باستمرار - وبمعرفة حقائق الأمور - وكم كان الإصغاء لمحادثاتهم يخلب لبي. في البداية كان لها أثر طيب في نفسي؛ لأن تلك الشخصيات لم تكن تنقب فقط في مقالب القمامة، أو تلقي بالبيض على السيارات. ويقال أنه يمكنك الاعتياد على أي شيء ما دمت بالقرب منه، وهكذا، اعتدت بعد فترة فكرة أنه كان هناك العديد من الناس في العالم لم يعيشوا حياتهم مثلما عاشها أبواي. أول مرة تسمع فيها عن سرقة مصرف من مشترك فعلي في الجريمة تصدم عقلك، لكن عقب المرة العاشرة أو الثانية عشرة يفقد الخبر أثره القوي في إحداث الصدمة، وبعد ذلك يبدو في الغالب كشيء طبيعي. عندما تقضي المزيد من الوقت داخل هذا العالم الغريب غير المعهود، وتشرع في إدراك أن محترفي تلك المهنة ليسوا بالضرورة مجموعة من الكلاب الضالة الشرسة البغيضة، ويبدو لك ما يفعلونه أقل وأقل غرابة وحظراً. أتصور هؤلاء القتلة المحترفين، سواء سخرتهم الحكومة أو العصابات المنظمة، يجتازون النوع نفسه من التكيف النفسي، حتى يصيروا مثل كليمنزا في فيلم "العرَّاب"، وهو يخبر أحد رجاله ألا ينسوا تناول حلوى الكنالوني بعدما أوسعوا أحد الرجال الحكماء ضرباً.

كان الناس الذين يخفون أسراراً يميلون إلى البوح بها لي، وربما كان لذلك صلة بكوني صبوراً، ومستمعاً جيداً يبدي اهتمامه، أو ربما كان ذلك مجرد إطراء لذاتي، وأنه كان هناك شيء ما بي أنبأ المجرمين أنني كنت في قرارة نفسي مغامراً مثلهم. بأمانة لا أدري، ولكن في عموم حياتي كانت الناس دائماً تفضي لي بأشياء لم يكونوا ليتفوهوا بها في الغالب لأطبائهم النفسيين. وفي الأماكن التي كنت أجول بها، أخبرني الكثير من اللصوص العتاة بالكثير من الأمور المثيرة للاهتمام.

ما زلت، حتى تلك النقطة، لم أتبين نفسي كمحترف للإجرام، بل مجرد رجل عـــادي، يكرس حياته لأسرته وعمله. ولد ابننا مارك بعد عام من اقتحامي ساحة الغولف، و لم أقم بسطو آخر ريثما انقضت ستة أشهر، وكان ذلك وقتاً ضائعاً غير ذي جـــدوى: خـــرجت إحـــدى الـــسيدات لقضاء الأمسية في حضور الأوبرا، فاقـــتحمت شـــقتها وسلبت النذر اليسير (على الرغم من أنني حصلت على لقبي الأول في الـــصحف وهـــو "لص الأوبرا"). ومثل أي مدمن قمار عن غير عمد، اعـــتقدت حقـــاً أن كل ما كنت في حاجة إليه هو غنيمة عظمى، وكان ذلك ما أريـــده. كـــنت مغروراً بما يكفي لأعتقد أنني مؤهل لسلب شيء ذي أهمية قبلما اعتزال المهنة. و لم تكن لديّ أدنى فكرة عن أنني أوشكت أن أميط اللثام عن شهية لا تقاوم، لا صلة لها بالمال إطلاقاً.

4

الحظ القدري

إن الحـــصول على غنيمة عظمى ما هو إلا أحجية معقدة تحتاج إلى حل، بيد أن التخطـــيط المفـــصل، والإعـــداد الدقيق لا يساويان شيئاً إن لم تكن الآلهة إلى جانـــبك. فالقدر هو العامل الحاسم، وهو الشيء الوحيد الذي لا يسعك عمل أي شـــيء حياله، على الرغم من أن بن هوجان، أحد لاعبي الغولف، قال ذات مرة: "إن المزيد من الممارسة يجلب المزيد من الحظ".

ولكن، من ناحية أخرى، لم يكن هوجان ليستعين بحظه أبداً في محاولة سرقة خزينة يملكها العامة.

* * *

خـــيم الحـــزن على الأجواء في الشهور التالية لاغتيال جون. ف. كينيدي، وكـــان هناك إحساس بأن شيئاً ما قد تغير إلى الأبد، لكنَّ أحداً لم يعرف يقيناً ما هو. لم يبدُ أحد على علم بكيفية التصرف، أو بما يجب فعله بعد ذلك، كما لو كنا جمـــيعاً في مـــرحلة انتقالية غريبة، ننتظر أن تلوح لنا بادرة تشير بأنه من الملائم أن نتحـــرك. أثقلـــت هـــذه الحالة من عدم اليقين المتفشي كاهلي، فاعتراني إحساس بالانـــــزعاج، وعـــدم الراحة، وقررت أنني كنت محتاجاً للخروج لسلب شيء ضـــخم. لا يمكـــنني القول بأنني كنت على وجه الخصوص مترقباً للفرص عقب حادثتي ملعب الغولف الصغير، وسطو "الأوبرا"، بيد أنني كنت أركز الآن، محاولاً أن أدفع بالأمور قليلاً بدلاً من مجرد الانتظار لاغتنام الفرص السانحة.

لا يعني هذا أنني قد صرت الآن لصاً مكتملاً بما تحمله الكلمة من معنى - فلم أقترف على أية حال سوى سرقتين فقط في غضون سنوات عديدة. ولكنني أبليت فيهما بلاءً حسناً، وفكرت في أنني لو تمكنت من الحصول على غنيمة أخرى أكثر ضخامة، لاعتزلت إلى الأبد دون العودة إلى ارتكاب هذا ثانية أبداً. كانت تلك فكرة أصيلة بحق.

كان هناك ناد خاص جداً اعتدت ارتياده مرة أو اثنتين أسبوعياً في فترة العصر، وكان مصدر واضح للمعلومات، ولكنني لم أكن قد جربته فعلياً. قررت أن أتحلى بالمزيد من روح المغامرة، وألا أكتفي بالإنصات فقط لمقتطفات عشوائية من الأحاديث، بل أن أدس أنفي هنا وهناك، وأن أسهب في الحديث مع الناس من خلال طرح بعض الأسئلة التي تبدو بريئة عليهم.

كان هذا النادي من الطراز الذي يحتفظ أعضاؤه جميعهم بمفاتيحهم الخاصة للباب الأمامي، وكان يقع في أحد معالم كليفلاند، ويُعرف باسم هاي لاندر، وهو مبنى مؤلف من فندق ذي حجم معقول، وعدد من المتاجر، والمطاعم بالطابق العلوي. كان المكان الذي يمكن للطبقة الأرستقراطية فيه أن تتحلل من القيود الاجتماعية في أمان؛ إذ إن هاي لاندر كان مملوكاً لرجل يدعى لوناردو "أنجي الكبير"، وابن عمه "أنجي الصغير"، وكان أنجي الكبير الرجل الثاني في عصابة المافيا في كليفلاند، وإن كان هناك شيء واحد يبرع فيه العصابيون بوجه خاص، فهو حماية مصالح أعمالهم؛ فلن يسمحوا لأي فرد بإزعاج زبائنهم، ولا حتى آل لوناردو أنفسهم كانوا ليحاولون الحط من شأن أحد الزبائن، إذ كانت مجموعة الأثرياء ممن يمتلكون نقوداً يرغبون في صرفها، تشكل مصدراً متجدداً، ولكن متقلباً، للدخل. فلو ساور هؤلاء الزبائن الأثرياء أدنى شك بأن هاي لاندر كان مكاناً غير آمن، لانتقلوا إلى ناد آخر في الثانية التالية.

أبرز أجزاء هذا المجمع الضخم كان النادي الضخم الفخم الذي كان يقدم الترفيه الليلي. وبالإضافة إلى استضافته للأثرياء القدامى من الأماكن المجاورة، مثل شاكر هايتس، كان المكان يستقبل العديد من رجال السياسة البارزين، ورجال الأعمال. كان الموقع المثالي بالمدينة لأولئك الناس الذين يودون بالظهور وقد

احـــتكت أكـــتافهم بمن يرغبون في أن يراهم الآخرون، وقد نبعت خصوصية هذا المكان في المقام الأول من أسعاره الباهظة.

مـــن ناحـــية أخرى، كان ذاك النادي ذو المفاتيح خاصاً بحق؛ إذ كان يزخر بالصفوة من الناس، الذين كان جلّ اهتمامهم هو الخصوصية، وليس حب الظهور، كما أنهم كانوا يرغبون في مرافقة آخرين ممن ماثلوهم في الاتجاه. كان النادي مجهزاً بسخاء؛ فالأطعمة والمشروبات من الطراز الأول، والنادلات في ثيابهن المثيرة بدون في غاية الجمال.

لم يكن لديّ نسختي الخاصة من مفتاح النادي؛ ذلك لأنني لم أكن عضواً بالفعـــل، وكنت أعالج القفل متى رغبت في الدخول. كان للقفل سنّان فقط، وقد فتحته في أحايين كثيرة، حتى صار بمقدوري الدخول بسرعة، تماماً كما لو كـــان لـــديّ مفـــتاح شرعي، وبالتالي لم أعد مضطراً لانتظار خلو المكان من الأشـــخاص. (فيما بعد، صار أصدقائي يسخرون مني حين كنت أفتح الأقفال بطـــريقتي تلـــك بدلاً من استخدام المفتاح متى كنت في عجلة من أمري؛ لأن استخدام المفتاح كان بطيئاً للغاية). وفور ما أدلف إلى الداخل، كنت أتصرف ببـــساطة كم لو كنت منتمياً إلى المكان، ولم يتساءل أحد عن كيفية تواجدي، بل ظنوا جميعهم أنني شخصٌ بارزٌ في مجال العقارات، فقد كان المجال الذي أعلم عـــنه بعـــض الشيء، ويمكنني أن أدير مناقشات عن علم حوله متى اضطررت لذلك.

غالـــباً كان الزبائن من منفذي المشاريع، الذين يعانون من الإرهاق بعد يوم عمل شاق، وأحياناً في منتصف اليوم. وكان النادي عادة ما يفتح أبوابه في حوالى الحاديـــة عشرة صباحاً، ولدن الظهيرة يكون هناك عدد هائل من الناس ممن شرعوا بالفعل في احتساء المشروب المفضل.

تم قبولي في النادي كزائر منتظم كثرة ترددي عليه، وما أتركه من انطباع من أني منـــتمٍ بالفعـــل للمكان. أدركت النادلات تماماً ما أرغبه، على الرغم من عدم معـــرفتهم بالسبب وراء لهذا؛ فقد ظنن أني مجرد رجل أنيق وسيم يقحم نفسه على الـــنادي ليستمتع به وبأعضائه. وكنت أروق لهم جميعاً، ولا سيما بعد أن اعتقدوا

بوجـــود علاقـــة ما بيني وبين روز ماري، التي تتولى الإشراف على الحانة، والتي كانت تضيف حساب شرابي على فواتير الحانة الخاصة بأناس آخرين ذوي حساب نفقات مدعوم؛ وبالتالي فلم أكن ملزماً قط بالدفع.

وحـــيث إن وظيفتي كانت الإصغاء والتعلم، لم يتعين عليَّ أن أتحدث كثيراً، وإنمـــا غالباً ما كنت فقط أهمهم وأومئ برأسي مشجعاً هؤلاء الذين شعروا بأنهم مدفوعـــون لـــسرد التفاصيل الكاملة لحياتهم الخاصة لشخص غريب تماماً عنهم. وحـــيث إنهم افترضوا أنني روح قريبة من الأخوة عصبة الرأسماليين ذوي الأخلاق المنحلة؛ فقد راحوا يميطون اللثام بين الحين والآخر عن قصص تتعلق بممارسات غير مـــشروعة في أعمـــالهم، كما لو كانوا يعيدون احتساب أهداف الغولف في عطلة الأسبوع. ولو كنت شخصاً مستغلاً مبتزاً، لكنت أنعم بالثراء الآن. ولكنني كنت مجرد لص حديث العهد، و لم يكن شيء من هذا ليجديني نفعاً.

بعد أن انقضى أسبوع أو اثنان على قراري بأن أحضر مبكراً، كنت في مطعم هاي لاندر، أحتسي القهوة وأراقب بزوغ الشمس. كان المطعم موصداً، و لم يكن به سوى الموظفين وأصدقائهم من أمثالي. لا أدري إن كان ذلك لأنني كنت أبدو ضـــجراً أو مرهقاً في الآونة الأخيرة، أو كان ذلك لسبب آخر، إلا أني ألفيت روز ماري قد صبت لنفسها قدحاً من القهوة وقالت: "هل علمت أن هناك نادياً آخر؟ نادياً خاصاً؟"

شـــيء ما أيقظ حواسي من الطريقة التي قالت بها ذلك، فكأنها كانت تفشي سراً ما، وكانت قد فكرت مسبقاً ما إذا كان يجب أن تطلعني عليه أم لا. أجبرت نفسي على تصنع اللامبالاة، ونظرت إليها قائلاً: "صحيح؟"

أومـــأت برأسها إيجاباً وهي تقول: "لكن ليس في الفندق، بل على بعد ميلين منه، فلست موقنة من مكانه".

"ومن يملكه؟"

"آل لوناردو".

عجزت الآن عن إخفاء دهشتي؛ إذ كان هؤلاء هم أنفسهم الأشخاص الذين يمتلكون النادي ذا المفتاح، فسألتها: "و لم نادٍ ثانٍ؟"

هزت كتفيها مستهجنة، وقالت: "هذا ما يحيرني. لكني أظن أنهم يديرون المكان في لعب القمار"، ثم ارتشفت رشفة أخرى، ووضعت القدح، وشرعت في الاتجاه صوب الباب، وهي تقول: "ما أسمعه هو أنه يضم المقامرين من الطبقات الرفيعة فقط".

خلتني لمحت تعبيراً وقحاً على وجهها، ولكنني لم أفهمه في البداية. هل كانت تخشى أن يتسرب إليّ الملل من النادي ذي المفتاح - وبالتالي، من رفقتها - وأن أتطلع إلى الانتقال إلى مكان آخر؟ وفي الوقت الذي خطر لي فيه هذا الإدراك، كان قد فات أوان قول أي شيء يخفف قلقها.

وقبل أن تتجه صوب ردهة الفندق، نظرت إلى الخلف، وقالت: "أعتقد أن فيني عضوٌ بالمكان، لو كنت ترغب حقاً في اكتشاف الأمر".

بالنسبة للص، يمكن أن تساوي معلومة واحدة من المعلومات الخفية حمولة شاحنة من الأدوات الرائعة.

* * *

و"فيني" هذا هو فيني أوفينو؛ عضو منتظم بالنادي ذي المفتاح. كان سكيراً ومولعاً بالمقامرة، ومن النوع الذي قد يضع رهاناً على أي من قطعتي السكر ستقف عليها الذبابة، مما يفسر أين ذهبت أمواله، ولكن ليس من أين جاءت. كنت أعرفه، لأنه كان يعيش في واحد من المباني الفاخرة التي توليت إدارتها في ميدان شاكر.

كان أوفينو ذا شخصية حقيقية؛ دائماً ما كان يختال في مشيته، ويتفاخر بتبجح، ولكنه بدا مسالماً بما يكفي، وكان الناس يتسامحون معه لأنه كان مرحاً مبهجاً. فقد كان من الممكن أن يدفع لفتيات البار مرة أو مرتين في الزيارة الواحدة مقابل الجلوس في سيارته، ويشاهدنه وهو يستمني (يمارس العادة السرية)؛ وقد كانت تلك أموالاً سهلة المنال فور اعتيادهن الأمر، وكان الرجل يجزل العطاء.

كان أوفينو يحب الحديث أكثر من أي شيء، ولا سيما عن نفسه، ولم استغرق وقتا طويلاً لحمله على إبلاغي بشأن النادي الآخر، الذي كان يفتح أبوابه فقط في عطلات نهاية الأسبوع، وكانت المقامرة هي المصدر الرئيسي لجذب

الزبائن، كما حدست روز ماري، بالإضافة إلى الإقبال الضخم على سباق الجياد، وكـــرة القـــدم والبيسبول، وكذلك المراهنات المرتفعة الخاصة بلعبة البوكر، ولعبة النرد، وغيرها من الأشياء.

كـــان كل من هذا يعني بالنسبة لي مالاً وفيراً؛ فلو أن شخصاً مثلي لم يسمع قط بالأمر، فقد كانت هذه إذاً عملية لا تحتاج روعتها إلى الترويج.

نظـــر إليّ أوفينو بدهاء، ثم مال نحوي بشدة، حتى إنني كنت لأثمل من رائحة أنفاسه، ثم قال وهو يغمز بعينيه "أتريد رؤيته؟"

تظاهـــرت بالـــتفكير في ذلك للحظة، ثم أردفت قائلاً: "لا... يبدو أنه أعلى قليلاً من مستواي".

استوت قامته ثانية، وتجهم وهو يقول: "كي أصدقك القول يا بيل، إنه يفوق مستواي أنا أيضاً"، قال هذا وقد بدا أنه يبذل جهداً كي يكبح تفاخره، ثم احتسى جرعة من شرابه من المشروب المفضل وهو يقول "لكن النادلات هناك متعاليات".

تنفـــست الـــصعداء بعد أن خرجت من الشرك بمنتهى السهولة. كان هناك مـــبرران لعـــدم رغـــبتي في الذهاب إلى هناك: أولهما أني لم أمتلك المال المطلوب للمـــشاركة في المقامرة، وكنت على يقين من أنه مكان دافئ، حميم، يحفل بالعديد مـــن أثـــرياء العـــالم القديم، المبالغين في التعبير عن عواطفهم، وفي تملقهم، بيد أنه ســـاورني شـــك طفيف في أن العيون اليقظة تعلم تماماً ما كان يفعله كل فرد في المكان طيلة الوقت، وما كان لينقضي وقتاً طويلاً حتى يكتشف أي فرد أنني كنت أشغل مكاناً، وأحتسي المشروب المفضل، ولا أشترك في أية مراهنات.

ثانيهما، وهو الأمر الأكثر صلة بالموضوع، هو أني لم أكن أرغب أبداً في أن يـــراني أي شـــخص بالقرب من ذلك النادي. فبعد القليل من البحث، ربما يثبت وجود غنيمة تستحق السلب هناك، وريثما يتسنى لي صياغة خطة كاملة، لم أرغـــب في المخاطرة بتعكير صفو المياه إن اقتضت الخطة عدم تواجدي على الاطلاق في المكان. ولو ثبت أن هناك جدوى من مشاهدتي في المكان، بوسعي دائمـــاً تدبر ذلك في وقت ما، ولكن لم يكن وارداً على الاطلاق القيام بعكس ذلك طالما أنه الأكثر صحة.

شـــرعت في تحري المكان على نحو سري، لأتبين إن كان هناك بالفعل صيد ثمين.

* * *

كـــان أول ما لاحظت هو أن مرتادي هذا النادي كانوا من طبقات أرقى مما كـــنت أظـــنها - حتى ذلك الوقت - الطبقة الرفيعة في كليفلاند، ممن كان يمكن مشاهدهم في وكر قمار يرتاده الغوغاء. ومن داخل سيارتي، لدن وقوفي على بعد نـــصف عمـــارة مـــن المكـــان، تعرفت على الأقل على ربع الناس الذين يغدون ويـــروحون، وميزت الملابس التي كان يرتديها ربع آخر منهم، والتي لم تكن تشبه تلـــك النوعية من الملابس التي تحصل عليها من المتاجر المحلية. وفي نظري أنهم ربما وشموا أيضاً أرصدهم البنكية على جباههم.

بـــدا هـــذا بالطبع منبع الثراء، ولكنني لم أكن لأسمح لنفسي بالتفكير في أية أوهـــام قد تشتتني عن التفكير فيما سأفعله. لا بد من أن كل فرد من أولئك الناس كـــان يعلـــم من يدير النادي، ولم تكن الشرطة هي محل ثقتهم في حمايتهم، فإذا حدث وأُلقي القبض عليَّ، لن أنعم بأمان وراحة زنـــزانة السجن في نهاية المطاف.

لم تكـــن لديّ أدنى فكرة عما كنت سأفعله في ذلك الأمر، ولكن إحساساً مألـــوفاً أوعـــز إليّ، كما كان شرلوك هولمز سيخمن، أن اللعبة قد بدأت بالفعل. عمدت إلى صبر هادئ غريب، والتزمت على الأقل بالمرحلة الأولى من أية عملية: وهي أن أراقب، وأتعلم. ومن ثم راقبت المكان لعدة أسابيع وتعلمت الكثير.

كـــان الـــنادي يوصد أبوابه قبيل الثالثة صباحاً في أيام السبت، وكان أنجي الصغير يقوم بمباشرة العمليات اليومية، وقد أمكنني رؤيته من خلال منظاري المكبر وهـــو يخرج لبضع دقائق عقب إغلاق الباب، حاملاً حقيبة سوداء، يستقل بعدها سيارته الكاديلاك ويقود باتجاه مطعم هاي لاندر. ذات ليلة تعقبته إلى هناك، ولدي فكرة كاملة عن المكان الذي سيتجه إليه.

علمـــت أنهم كانوا يقومون بأعمال صيانة لمكتب بلا نوافذ بالطابق الثاني المؤمن من الفندق، والذي يقتضي مفتاحاً لدخوله. كان هناك ما يقرب من خمسين غرفة في ذلك الطابق، بالإضافة إلى المكتب، مع وجود درج على لدن نهايتي الممر الطويل.

كـــان لديّ مفتاحي الخاص، وحينما ذهب أنجي الصغير إلى الدرج الموجود عـــند إحـــدى النهايتين، ذهبت أنا إلى الدرج الثاني وارتقيته. أردت خلع حذائي لإبقاء الصوت منخفضاً، بيد أنني لو كنت فعلت لكنت في موقف أحسد عليه وأنا أحاول تفسير سبب سيري عاري القدمين في تلك الساعة المتأخرة إذا ما اعترضني أحدهم. اعتمدت على طول الممر في الحيلولة دون وصول أية أصوات إلى مسامع أنجي الصغير.

كـــنت على علم أنه من المرجح ذهابه إلى ذلك المكتب؛ لذا أحضرت معي بريـــسكوب صغير، صنعته من أسطوانة ورق حمام فارغة، ومرآتين، ولاصقاً قويّاً. نـــزلت على الدرجات العلوية ووضعته على الأرض، بحيث يمكنني رؤية ما حول الممر دون كشف موقعي. فلو داهمني شخص ما سوف أتدحرج فوق البريسكوب، وأتظاهر بأنني ثمل، وأقول أنني تعثرت.

راقـــبت أنجي بينما يخرج من إحدى نهايتي الممر، ويفتح باب المكتب ويدلف إلـــيه، حـــيث لبث حوالى خمس دقائق ثم خرج، واستدار ليشغل جهاز إنذار ما، وغادر دون الحقيبة السوداء.

* * *

كان مبنى هاي لاندر الأمامي الفخم، والذي يضم المكتب الرئيسي والنادي المتميـــز، يقـــع في شارع مزدحم جداً بضاحية خارج كليفلاند. كان الفندق يقع خلفـــه، وكان يتألف من جناحين بكل منهما طابقان وسقيفة مرتفعة، ويفصلهما حمـــام ســـباحة كبير ورواق. وكانت الشرفات الخاصة تطل على حمام السباحة بالطابق الثاني لكل جناح.

كانـــت هـــناك أبنية يتكون كل منها من ثلاثة طوابق، وثماني شقق سكنية، ويحـــتوي كـــل طابق على مائة وحدة سكنية. كانت روز ماري تقيم هناك شأن العديد من موظفي المطعم، والفتيات اللائي كن يعملن بالنادي ذي المفتاح.

كـــان هـــاي لاندر مكاناً ضخماً، يموج بالحركة، ويفيض بالنشاط المستمر طـــوال الوقت، وكان من اليسير التحرك في المكان دون لفت الأنظار، ولا سيما بالنسبة لشخص مثلي، ذي وجه مألوف بالمبنى. حتى إنني قد اصطحبت باربارا إلى

هـــناك في مناسبات عدة، ليس فقط إلى المطعم، لكن إلى حمام السباحة أيضاً. وقد يسر لي كل هذا مواصلة مراقباتي دون أن يلحظني أحد.

كان باب مكتب العصابة هو الباب الثاني بالطابق المؤمن، وكان الباب الأول يقـــود إلى غرفة الإمدادات الخاصة بالخادمات، والتي كان بها جهاز إنذار، وكان يغلـــق ليلاً بقفل ضخم ثقيل، وقفل منفصل.أما باقي الغرف، فكانت غرف فندقية عاديـــة. عـــادة مـــا كانت غرفة الإمدادات تظل مفتوحة طيلة النهار كي تتمكن الخادمات من إحضار أدواتهن بسهولة؛ العربات، وأدوات النظافة، وأطقم الفراش. وكـــان هناك حارس أمني يطوف في المكان باستمرار عندما يكون مفتوحاً، لكنه كـــان يـــتجاذب أطراف الحديث مع الخادمتين، مما يسر لي إلقاء نظرة على جهاز الإنذار المعلق على الباب، والذي كان مدعماً بآلية مغناطيسية بسيطة.

مـــع ذلك، لم أكن قادراً على كشف ما بداخل المكتب أبداً؛ فلم يكن الباب يتـــرك مفتوحاً قط، وكانت مجازفة خطرة جداً أن أحاول التواجد في اللحظة التي يدخل فيها شخص أو يخرج.

كانـــت غـــرفة الغسيل بأسفل في الطابق الأول، تحت غرفة إمدادات الخادمات والمكتب، وخمنت أن العمل يجري بتلك الغرفة ليلاً، إلا أن ذلك لم يكن صحيحاً على الإطلاق، وكان هذا منطقياً. فلو أديرت ليلاً، لاحتاج الفندق إلى طاقمين كاملين من شراشـــف الفراش، والمناشف، ولن يكون هناك حاجة إلى ذلك المخزون الاحتياطي. وبتشغيل المغسلة خلال النهار، تكون خادمات الغرف منهكات في عملهن.

كان ذلك يطيب لي، فغرفة غسيل خالية بأسفل ستعين على كتم أي ضجيج أحدثه في النهاية.

كـــان عليَّ وضع العديد من الافتراضات، تعلق أحدها بطراز جهاز الإنذار الموجـــود في المكتب، بيد أن طريقة تشغيل أنجي الصغير للجهاز قد أنبأتني بالكثير. فلم يقم بإدخال أية تركيبات، ولم يضغط على أزرار متعددة، بل بدا وكأنه يدفع بمفـــتاح التشغيل، ويوصد الباب؛ لذا فقد كان على الأرجح يشبه الجهاز ذا الآلية البـــسيطة الـــذي كان موضوعاً في غرفة الخادمات، وكان هذا قرار نتج عن بناء منطقي دعم قناعتي العقلية على نحو ما.

كـــان الافتراض الثاني يدور حول المكان الذي سيدق فيه الإنذار بالفعل متى ســقط، وكان ذلك المكان يقيناً هو المكتب الأمامي. وليس من المنطقي أن يكون متـــصلاً بقسم الشرطة المحلي؛ لأن المكتب الأمامي كان مجهزاً بالرجال طيلة الأربع وعشرين ساعة، وكان بإمكانهم أن يفوقوا استجابة الشرطة. أربط هذا بأنه افتراض سخيف أن يقوم مالكو هاي لاندر باستدعاء الشرطة لمساعدتهم في مشكلة أمنية، وقـــد بات مؤكداً تماماً أن إشارة جهاز الإنذار لا تتجاوز المبنى قط، بل كان من المـــرجح أن جهاز إنذار المكتب قد امتد منه سلك عبر المكتب الأمامي ليصل إلى أسفل ويتصل بجهاز إنذار غرفة الخادمات.

كان من الأهمية بمكان أنني لم أسمع قط جهاز الإنذار ينطلق حينما كان أنجي يفـــتح الـــباب. في تلك الأيام، قبيل صناعة الأجهزة المعقدة، مثل دوائر التعطيل الـــرقمية، وأدوات استشعار الحركة، كانت معظم التركيبات تجذب زناد الإنذار لـــدن فتح الباب، وتكف عن الرنين حالما يدفع مفتاح التشغيل، الموجود في بقعة خفـــية. قم بالسير في أي شارع بقطاع البيع القطاعي في موعد الفتح، وستسمع العديد من أصوات أجهزة الإنذار التي تنطلق لثلاث أو أربع ثوانٍ في المرة الواحدة.

لكـــن طالمـــا أنـــه لم يصدر أي صوت عند فتح أنجي الصغير لباب ذلك المكـــتب، فمن المؤكد أن الصوت قد تردد في المكتب الأمامي، فالموظف يكون علـــى علم متى دخل أحد المكتب، وسوف يتوقع عدة ثوانٍ من انطلاق الإنذار ويـــتجاهلها. أي شـــيء آخر، وساورني الشك بأنه سيتم استدعاء بعض القتلة المحترفين لتنفيذ العدالة الفورية على المتطفل، الذي لم يعلم على الاطلاق أنه قد أطلق جهاز الإنذار.

ومن ثم كان التعامل مع جهاز الإنذار هو التحدي الأول.

وكـــان التحدي الثاني هو الحارس المتجول، واعتمد أمره على معرفة عاداته، علـــى أمـــل أن تكون عادات منتظمة جداً. فإن كان يقوم بجولاته على نحو دقيق منضبط كالساعة، فسوف أعلم على وجه التحديد قدر الوقت المتاح لي للعمل في أثـــنائه، فأضع خطتي وفقاً لذلك. أما إن كان تجواله عشوائياً وفي مساحات قريبة جداً، فلربما غضضت النظر عن الأمر برمته.

كان التحدي الثالث، وهو أكبر تلك التحديات، هو كيفية اقتحام خزينة لم أرهـــا قط. كانت روز ماري بالمكتب ذات مرة، وسمعتها تحكي لبعض الناس في الحانـــة عن هذه "الخزينة العملاقة" هناك، وكانت تضع يدها، وقد بسطت كفها فوق رأسها بمسافة لتوكيد الحجم، فأدركت أنها لا بد من أن تكون هائلة الحجم. وعلـــى الـــرغم مـــن أن مهارتي بفتح الخزائن قد تحسنت منذ السطو على ساحة الغولف المصغرة، إلا أني لا زلت لا أتمكن من اقتحام واحدة مثل تلك التي تراها في الأفـــلام الـــسينمائية، حيث يتطلب فتحها قوة هائلة، ووقتاً طويلاً، مما يجعل أمر الحارس أكثر أهمية.

وفي النهاية، يجب أن تحتوي الخزينة على مال وفير لتصبح المغامرة برمتها ذات جدوى. كنا في أوائل شهر حزيران/يونيو، وكانت تلك المرة التالية التي يحتمل فيها أن تحتوي الخزينة على كمية وفيرة من المال هي في الرابع من شهر تموز/يوليو. وقد علمت بالفعل أن هناك عدداً من الحفلات الخاصة من المزمع إقامتها في عطلة نهاية الأســـبوع تلك، وبالتالي كان ذلك هدفي؛ ليلة الاثنين على وجه الخصوص، حيث ســـتمتلئ الخـــزائن عن آخرها، ولن يتم إفراغها ريثما تعيد البنوك فتح أبوابها يوم الثلاثاء.

كان أمامي شهرٌ لأخطط فيه للأمر، أو أن ألغي الخطة برمتها.

لم أدرِ بالـــضبط متى كانت اللحظة التي اتخذت فيها قرار خوض هذه المهمة، وإصـــابة هدفي، وهو آل لوناردو مباشرة، بدلاً من سلب أحد زبائنهم الباهرين، لكـــن هذه المرة لم يكن ثمة تردد في ذهني، فلو تمكنت من التغلب على الصعوبات كافة، سوف أنفذ المهمة.

* * *

لم تكن الصدمة الأولية لاغتيال كينيدي قد هدأت بعد عندما كانت لجنة وارن لتقـــصي الحقائـــق تعمل على قدم وساق. وبدا وكأنهم كلما حاولوا مقابلة المزيد من الشهود، وإماطة اللثام عن المزيد من الأدلة، كلما صارت القضية برمتها أكثر غموضاً. وفي الـــوقت الذي كنت أخطط فيه للمهمة، كان قد بقي على إصدار التقرير الختامي ثلاثة شهور، لكن الاتهامات بالتعتيم كانت صريحة وصارخة بالفعل.

كـــان الجانـــب الأكبر من التركيز على جاك روبي، الذي كان قد أردى لي هـــارفي أوزوالـــد قتـــيلاً في قبو قسم شرطة دالاس بعد يومين من اغتيال أوزوالد المـــزعوم لكينيدي. وبشكل مفهوم، طرأ توقع مباشر بأن روبي قد قام بالقتل نيابة عـــن شـــركاء مـــا في المؤامرة التي خططت لاغتيال كينيدي، وأهم قد رغبوا في إسكات أوزوالد للأبد.

أمـــا مـــا جعل لهذا الأمر صلة وثيقة بموقفي، فهو القصص التي ارتبط روبي من خلالها ارتباطاً وثيقاً بطبقة المجرمين بالعالم السفلي - كان قد نما وترعرع في شيكاغو بجيرة قاسية، حيث صادق مجرمين محليين، وازدهرت أنماط تلك الأواصر عندما أصبح مديـــراً لملهـــى ليلـــي. كان مقامراً شهيراً، وقد قام بزيارة كوبا كضيف على المقامر المحترف لويس ماكويللي، وكان لشريكه في نادي فيغاس سجلٌّ إجراميٌّ.

كـــل هذا لفت الأنظار إلى العصابيين بشكل مذهل غير مرغوب فيه، وأعني بذلك الآن اللاعبين الحقيقيين، وليس هؤلاء المتبخترين الذين شغلوا الصفوف الدنيا من جنود المشاة؛ بل أعني الزعماء الذين ابتعدوا عمداً عن الأنظار لعدم رغبتهم في التفاخر جهاراً، مع استثناء واحد أو اثنين واضحين. إهم هؤلاء الناس الذين عرفوا ماهيتهم بدقة، وكان ذلك الشيء الأهم.

لكـــن مع تنقيب لجنة وارن في ماضي جاك روبي، ومع تنقيب كل صحفي يسعى للحصول على جائزة بوليتسر في الصحافة، وهو يجوب الشوارع، ويستحث المـــصادر في محاولة لأن يسبق اللجنة، كان العصابيون في منتهى العصبية والتوتر، تمامـــاً كما كانوا حينما كانت التحقيقات المبدئية للجنة كيفوفر لتقصي الحقائق، ولجنة ناب في طريقها للانعقاد.

وكان أنجيلو لوناردو هو آخر شخص ترغب في الاقتراب منه في حالة توتره.

كان والد أنجي الكبير، جو لوناردو، قد هاجر من ليساتا في صقلية عام 1905، بـــرفقة إخوته الثلاثة، ومجموعة أخرى من الإخوان بوريللوس، وأدركه الثراء من تجـــارة ســـكر الذرة، الذي كان المكون الأساسي في تجارة الخمور غير المشروعة خلال الحظر. كان جو الكبير هو بادرينو كليفلاند الأصلي، أو العرّاب لها، وكان بوريللو الأكبر أحد أعوانه.

مـــضى بوريللو لوناردو عام 1926، لإقامة عمل سكر الذرة الخاص به برفقة إخوته الستة، وصاروا المنافسين الأساسيين لجو الكبير. وعندما ذهب جو الكبير إلى صـــقلية لزيارة والدته، وترك مسؤولية التجارة لشقيقه جون، عاد ليكتشف أن آل بوريللو اغتنموا فرصة افتقار جون إلى حاسة العمل، وقاموا باحتكار السوق المحلي.

في محاولة لتجنب إراقة الدماء، عرض جو الكبير التفاوض، ووافق آل بوريللو علـــى هذا، ثم أردوا اثنين من أشقاء لوناردو قتلى بالرصاص في متجر حلاق، مما أهل بوريللو الأكبر لتنصيب نفسه عميداً لمافيا كليفلاند. وبينما ازدادت قوة ونفوذ بوريللـــو، استعر الغضب والتعطش للانتقام وسط عائلة وشركاء الأخوين لوناردو المصروعين. ذات يوم في عام 1929، أوصل أنجيلو، ابن جو لوناردو الكبير والبالغ مـــن العمـــر ثمانية عشر عاماً، والدته إلى مقر بوريللو، وبعث برسالة مفادها أنها رغـــبت في التحدث إلى "بلاك سام" تودارو، أحد رجال بوريللو المسلحين الذين اغتالوا أشقاء لوناردو. وعندما دنا تودارو من السيارة، استل أنجيلو مسدساً وأفرغ رصاصه فيه.

تم إلقاء القبض على أنجيلو بتهمة القتل، وحكم عليه بالسجن مدى الحياة، بيد أنـــه ظفر بمحاكمة جديدة، وأطلق سراحه بعد أن قضى ثمانية عشر شهراً فقط في السجن. وفيما بعد عرف باسم أنجي لوناردو الكبير.

وهذا هو الرجل الذي كنت أخطط لسرقته.

* * *

في عطلـــة الأسبوع التالي تابعت أنجي الصغير كالمعتاد، باستثناء أنني في هذه المـــرة قـــد توجهت إلى مكتب التسجيلات، بينما توجه هو إلى المكتب. أجريت حديـــثاً وجيـــزاً مع الكاتب بالاستقبال، متصنعاً أنني قد ثملت قليلاً، وتناهى إلى مـــسامعي يقيـــناً صوت طنين خفيف ينبعث من مكان ما أسفل المكتب تماماً في الوقت الذي يُفترض فيه أن يفتح أنجي الصغير باب المكتب. ثم توقف الصوت بعد مضي بضع ثوانٍ.

كـــان تخمـــيني صائباً، وكان كل ما عليَّ فعله هو إيقاف عمل ذلك الإنذار لبعض الوقت بعد أن يودع أنجي النقود في الرابع من تموز/يوليو. لم أتمكن من فعل

ذلك مقدماً لأن الموظف سيتوقع سماع صوت الإنذار بعد الثالثة صباحاً بقليل، مما كـــان يعني أن عزل الجهاز الرنان بالمكتب الأمامي لم يكن خياراً. ما هو الادعاء الـــذي كـــان من الممكن أن ألفقه للوصول إلى أسفل المكتب في ساعات الصباح القلـــيلة، دون أن ينتهـــي بي المطاف إلى أن أوضع في وعاء به أسمنت ويلقى بي في بحيرة إيري؟

بعد انقضاء يومين، ارتديت ملابس العمال، وشرعت في التجول حول البناية بلوح كتابة بال، ومجموعة من الأدوات مثبتة بحزام حول خصري. طرحت العديد من الأسئلة - من المذهل كيف أن الناس يضطرون إلى إخبارك بأشياء متى بدوت وكأن لك الحق في المعرفة - وبسهولة حددت موقع صندوق الوصلات الكهربائية. وكانـــت الخطوة التالية هي تمييز سلك الإنذار الذي عليَّ قطعه بعد أن يضع أنجي الصغير ودائعه. شعرت بالإثارة حينما عالجت القفل الرخيص وفتحت الصندوق.

واجهـــتني مجموعة هائلة من الأسلاك التي تعذر عليَّ فهم مؤداها. كان هناك أكثـــر مـــن مائتي غرفة بالفندق، وكانت خطوط الأسلاك تمتد من هذا الصندوق لتغذي كل تلك الغرف. كانت الأسلاك ملتصقة ببعضها البعض بمنتهى الإحكام، وبـــدت وكأنهـــا كـــتلة واحـــدة صلبة، وكنت أتصبب عرقاً بينما كنت أجذبها وأطـــويها، في محاولة لعدم قطع أي منها، بينما أنقب عن سلك أو اثنين من المتوقع أن يبدوا مختلفين عن الآخرين، وهما الخاصان بجهاز الإنذار.

لم أهتد إليهما قط. بعد نصف ساعة من فصل كل سلك في الكتلة الضخمة عن الآخر تأكد لي أن جهاز الإنذار لم يكن له أسلاك تمر عبر الصندوق الرئيسي. كـــنت مغتماً، ومع ذلك استغرقت وقتاً في إعادة كل شيء إلى مكانه كي لا أثير أدنى شك.

لم تكن هذه بداية تُبَشِّر بالنجاح.

* * *

كانـــت مـــشكلة جهاز الإنذار تلك تستحوذ عليَّ، فقررت أن أعكف على بعـــض الجوانب الأخرى للخطة، وأنا على يقين من أن الإجابة ستأتيني من تلقاء نفسها إذا فكرت في أمر آخر أقل مبعثاً على اليأس.

"ماذا عن قضاء عطلة نهاية الأسبوع خارج المدينة؟ نحن الاثنين وحسب".

رفعت زوجتي حاجبيها استغراباً، بينما ترفع بصرها عن الصحيفة سائلة: "و لم؟"

"لا بد من أن نحقق أرقاماً قياسية جديدة في احتساء المشروب المفضل، ونتطارح الغرام".

تظاهرت بالتفكير في هذا لبضع ثوانٍ، ثم أومأت برأسها إيجاباً، وهي تقول: "يمكنني تولي ذلك. أين؟"

"في هاي لاندر".

لوت شفتيها امتعاضاً لدى ذكر مكان محلي بدلاً من مكان خارجي مثير، وعادت لمطالعة الجريدة، وهي تقول: "طريف جداً".

"لست أمزح". جلست قبالتها، ونحيت صحيفتها جانباً، وقلت: "سيكون ممتعاً مثل شهر عسل آخر، وقد تطوعت والدتي بالفعل لمجالسة الطفلين".

بدأت تدرك أنني جاد، فمضيت في التحدث قائلاً بإصرار: "لا أطفال، لا غسيل، ولا طهو... لن نخبر أحد بمكاننا، ولن نتلقى مكالمات هاتفية أيضاً – في وسعنا عمل أي شيء نبغيه، فما قولك؟"

بينما كنت أسرد قائمة الأشياء التي لم يكن عليها أن تهتم بها لمدة ثلاثة أيام، رأيت نظرتها اللينة، وأدركت أنني قد استوليت على مشاعرها.

وكانت بالفعل عطلة أسبوعية ممتعة، وبدت وكأنها مطارحة غرامية متقدة أكثر منها شهر عسل ثان. شربنا كثيراً، وأكلنا جيداً، وتطارحنا الغرام كالمراهقين، مما صرف انتباه باربارا جزئياً عن واقع مداومتي على التطلع من النافذة. ولو كنا قللنا من الاحتفال قليلاً، لسألتني عن هذا الأمر مئات المرات، بدلاً من الخمسين مرة، أو ما شابه، التي لاحظت فيها ذلك.

لم يغب عني كم كنت أخاطر بزواجي، وكانت باربارا مدمرة بالفعل من جرّاء ما أحسته كخيانة عاطفية، حينما اكتشفت أنني كنت بالفعل أدرس ساحة الغولف بغرض السطو. لقد ضايقها سلوكي المخادع أكثر من حقيقة أنني ارتكبت جناية من الدرجة الأولى، واستغرق الأمر وقتاً طويلاً لإقناعها أنه كان محض

انحراف حدث لمرة واحدة فقط، وأنني أحسست بمنتهى السوء حيال ذلك كما أحست هي. وكان السبب في قدرتي على إقناعها هو أنني حقاً - حقاً - اعتقدت ذلك.

وها أنذا الآن في فندق جميل، أحتسي المشروب المفضل، وأتناول الطعام، وأحبها، باستثناء أنني كنت حقاً أدرس المكان بغرض السطو. وقد خامرني شعور سيئ حيال هذا، ولكنني كنت بلا حول ولا قوة، فقد استولت فكرة السطو على الخزينة على ذهني، وتملكت منه بثبات، كما لو كانت تسري في دمي، بيد أن النتيجة ستكون مختلفة في هذه المرة؛ فلن تكون هناك نقودٌ مبللة ملصقة بأرجاء المنزل، ولن تعلم باربارا أبداً بحدوث تلك السرقة.

على الأقل لن يفتضح الأمر لو نجحت الخطة و لم يتم إلقاء القبض عليَّ.

علمت الكثير خلال عطلة الأسبوع تلك، ورفع ذلك من روحي المعنوية أكثر مما توقعت. كان الحارس كسولاً، وربما كان مقامراً صغيراً لم يكن يريد أن يضع نفسه في خطر لقاء بضعة دولارات في الساعة. ولكن ذلك لم يعنِ بالطبع أنه ما كان ليطلق جهاز الإنذار. إلا أنه كان يقوم بجولات تفقدية ست مرات في الليلة الواحدة، ويقضي الباقي غافياً في الحجرات الخالية. لا بد من أنه كان يعرف إنها كانت عملية يقوم بها عصابيون، وافترض في عقله أنه ما من شخص عاقل سوف يثير متاعب هناك. المبرر الوحيد لرؤيتي إياه يتفقد غرف إمدادات الخادمات كثيراً فيما مضى، هو أنه كان يفعل ذلك نهاراً بينما كان الناس الذين يدفعون راتبه بالمكان، لمراقبة عمله.

من ناحية أخرى، ربما كان نوم الحارس خفيفاً، ويستيقظ في الحال عند سماع أي صوت مزعج، وقد كانت الجدران غير سميكة بحيث يمكنني سماع الشخص في الحجرة المجاورة وهو يغسل أسنانه.

في اليوم الثاني من بقائنا هناك، وفي ساعات الصباح القليلة، صعدت إلى الغرفة التي كان الحارس يغفو فيها، وأمكنني سماع غطيطه عبر الباب غير السميك. سعلت بصوت منخفض، ولكن لم يحدث شيء. فسعلت بصوت أعلى هذه المرة، ولكن لم يحدث شيء أيضاً. سعلت بشدة كمن داهمته نوبة ربو إثر الإفراط في

التدخين، مما أدى إلى إشعال أضواء خفيفة تسربت من أسفل عقب أبواب ست حجرات أخرى، ولكن إيقاع غطيط الحارس لم يطرأ عليه أدنى تغيير.

بعد أن رضيت عن إزالة هذه العقبة من طريقي، شرعت في العودة إلى غرفتي، عندما صدمني أمر ما: لقد كان جل تركيزي على باب المكتب المثبت به جهاز الإنذار البسيط، وأخفقت تماماً في محاولة التفكير خارج ذاك الإطار: لماذا أهاجم الجزء الأصعب من السلسلة بدلاً من حلقتها الأضعف؟

فطالما أن جدران الغرفة كانت غير سميكة بالمرة، فما مدى صعوبة القطع خلال إحداها للوصول إلى المكتب مباشرة، متجنباً بذلك الباب وجهاز الإنذار معاً؟ لن يتسنى لي ذلك عبر غرفة الإمدادات؛ فمن الواضح أنها كانت مزودة أيضاً بجهاز إنذار، بيد أن المكتب يتاخم أيضاً غرفة فندق عادية. ممتاز!

اعتراني الزهو بفكرة إمكانية القطع خلال باب غرفتي مباشرة عندما أحتاج إلى ذلك، ولكن لم يخطر ببالي إلا فيما بعد ذلك اليوم أن عليَّ أن أتأكد بطريقة ما خلو الغرفة المجاورة ليلة تنفيذ المهمة. وبالتالي، فقد استبدلت مشكلة بأخرى، لكني كنت أكثر سعادة بهذه الفكرة وأبقيتها جانباً في الوقت الحالي كي أفسح المجال لمزيد من التفكير في الخزينة.

* * *

وعلى الرغم من أن مهاراتي في فتح الخزائن لم تكن متطورة للغاية، إلا أنني كنت بارعاً في استخدام الأدوات والأشياء الميكانيكية بصفة عامة. وحيث إنني لم أكن أعرف ما سأواجهه عند فتح تلك الخزينة، بينما كنت على يقين من أنها قد صنعت لتكون كدبابة مدرعة، فقد جمعت صفاً من المعدات التي كان من شأنها أن تجعل غواص الإنقاذ المحترف فخوراً بنفسه. كان لديّ مثقاب كهربي قوي الأجزاء، ومطرقتان كبيرتان، وأزاميل، ومناشير دقيقة، وعتلتان، إحداهما طويلة للغاية، وذات طرف منحنٍ لدعم قوة الرفع.

ومع ذلك كله، فقد كان مصدر فخري هو مثقاب هيدروليكي من طراز بورتا باور، ابتعته خصيصاً لهذه المهمة، وكان الجهاز يمثل ضغطاً يساوي عشرة أطنان عن طريق قضيب يبرز عند أحد طرفيه. كنت أخطط لثقب الوجهة

الخارجية للخزينة، وإزالة مساحة صغيرة من المعدن باستخدام الجهاز، ثم كشط الأسمنت بالداخل ما بين الطبقات باستخدام الأزميل، لأتوغل إلى الطبقة الثانية من المعدن. لا شيء سيسبب ضجيجاً مرتفعاً سوى الكشط بالأزميل. كان جهاز بورتا باور يبذل قدراً هائلاً من الضغط، ومع ذلك فإن الشيء الوحيد الذي قد يُسمع هو صوت تصدع الإطار المعدني للخزينة، والذي كنت آمل أن أغطيه باستخدام أغطية الفراش والبطاطين الموجودة في غرفة الفندق. أعددت أيضاً القليل من الخرق البالية وزجاجة من الكحول لمحو بصماتي في حالة الاضطرار إلى ترك أي من الأدوات.

كان معي أيضاً مسدس لهب محمول مدعم بغاز الأوكسي اسيتالين، وقفازات من المطاط، ومئزر جلدي، وقناع وجه ينزلق إلى الأسفل، وصفيحتان إضافيتان من الوقود. وكنت قد اكتسبت المزيد من الخبرة في هذه الأنواع من المسدسات القاطعة في متجر هياكل السيارات الخاص بتوني تاراسكافيج، وكنت موقناً تماماً أن بإمكاني القطع للوصول إلى الخزينة في حال فشل كل الأشياء الأخرى. وكان العيب الوحيد لهذا المسدس أنه سيستغرق وقتاً طويلاً، وسيتسبب في انبعاث رائحة دخان كريهة. وكنت سأستخدمه فقط لو اضطررت لذلك، ولكني تركته بالسيارة في الوقت الحالي إذ كان معي الكثير لأحمله. حزمت كل شيء داخل حقيبة طويلة من القماش الخشن تزن ربما مئة وخمسون رطلاً. كانت إحدى العتلتين طويلة للغاية بحيث لا تلائم وضعها داخل الحقيبة، لذا فقد ربطتها بأشرطة حمل الحقيبة، مما جعل الحقيبة الضخمة أكثر إعاقة. وحيث إنني لم تكن لديّ معرفة مسبقة بما سأحتاج إليه تماماً، فقد اضطررت لحملها كلها معي للتقليل من جولات الذهاب والإياب.

لم أتمكن أبداً من حل مشكلة التيقن من أن الغرفة الملاصقة للمكتب ستكون خالية. حتى إنني فكرت لوهلة في التيقن من ذلك بنفسي، ربما بارتداء زي تنكري ما، ولكنني نبذت الفكرة لما تحويه من مجازفة بالغة. كان بإمكاني الاستعانة بصديق من مدينة أخرى ليتأكد نيابة عني من خلو الغرفة ثم يختفي، بيد أنه كانت هناك مبررات وجيهة عدة لرغبتي في العمل بمفردي، وأنه من الأفضل لي أن ألغي المهمة

عن أن أغير سياستي في العمل في لحظة انفعال. كان لا بد لي من أن أغتنم الفرصة، وأخاطر بأن الغرفة ستكون خالية.

* * *

لكنها لم تكن كذلك، مما يعني المزيد من سوء الحظ، إذ حجزها اثنان من كبار السن في يوم الأحد، والذي يسبق اليوم الذي كنت أخطط فيه للقيام بالمهمة.

أعمل جيداً عندما أكون تحت ضغط ما، ففي الوقت الذي كانا يخرجان فيه أمتعتهما من السيارة، خطرت لي فكرة. لكنها اقتضت تركهما للغرفة، و لم يكن هناك أي بوادر للحياة في الساعات القليلة التالية، ولا حتى الخروج لإحضار دلوٍ من الثلج. بل والأسوأ من ذلك، أنني لم أتمكن من ملاحظة بابهما مباشرة، خشية أن يلاحظ شخص ما تسكعي في طابق مؤمن دون مبرر، لذا كان عليَّ بدلاً من ذلك أن أقتصر على مراقبة أبواب الدرج عند إحدى نهايتي الممر المؤدي للطابق الأرضي.

كانت عيناي مثبتتين على تلك الأبواب لباقي فترة ما بعد الظهيرة، حتى أحسست بدوار، لكن في النهاية، في حوالى السادسة، فتح أحدهما الباب، وخرج الاثنان. بدا وكأنهما قد استعدا للخروج للعشاء.

انتظرت ريثما دخلا سيارتهما وانطلقا بها، ثم انتزعت بعض الأدوات اليدوية التي أعددتها، وصعدت إلى غرفتهما. ألصقت شريط من السلولويد بين الباب وإطاره، ودفعت مسمار القفل الغليظ إلى الخلف، ومضيت مباشرة باتجاه دورة المياه. ومن خلال الزحف على ركبتي أسفل الحوض، حللت المسمار الغليظ الذي يتصل بخط المياه الباردة حتى بدأ في تسريب المياه، ثم ثنيت حافة القطعة المثبتة للخط، بحيث لا يمكن إعادة إحكامها بسهولة. استغرق الأمر أقل من دقيقة، ثم عدت إلى الباب عندما خطر ببالي خاطر ما. لقد كانت قطعة التثبيت واضحة ويمكن الوصول إليها بسهولة، وبالتالي لن يستغرق السباك وقتاً طويلاً في إعادتها إلى مكانها. وحتى لو انتقل الزوجان إلى غرفة أخرى، سيعكف عامل الصيانة على إصلاحها طيلة يوم الاثنين، وقد يحجزها شخص آخر.

لذا فقد عدت أدراجي، وحللت قطعة التثبيت تماماً حتى تدفق الماء، وشرع يغمر السجادة، وبعد ذلك ببضع دقائق أحكمت توثيقها، بحيث تسمح بنزول قطرات من الماء. لم أكن أتطلع لحالة طارئة عظمى هنا، بل مجرد شيء يدفع هؤلاء الناس إلى الانتقال إلى غرفة أخرى، والتأكد من أن هذه الغرفة ما كانت لتحجز لشخص آخر في اليوم التالي.

لم ألبث بالمكان لمراقبة الزوجين المسنين وهما يثيران ضجيجاً لدى عودتهما، لكنني عندما عدت في منتصف الليل للتأكد من أن أبجي الصغير قد قام بإيداع النقود كالمعتاد، فحصت موقع سيارتهما، التي كانت تقبع يقيناً في الجانب الآخر من المبنى الآن.

فيما يتعلق بي، كنت قد اجتزت نقطة "اللاعودة"، كما يسميها الطيارون، وكنت قد التزمت تماماً بتنفيذ الخطة، باستثناء أي فوضى قد تظهر في الدقيقة الأخيرة. كان كل شيء في موضعه، و لم يبقَ سوى انتظار الأربع وعشرين ساعة التالية.

* * *

ذهبت في نزهة مع عائلتي في يوم الاثنين، كان يوماً رائعاً، ولكنه كان خطأ: فلا شيء يجعلك متوجساً وخائفاً من فقدان حريتك أكثر من تمضية اليوم بصحبة من تحبهم قبيل المخاطرة بكل شيء في مغامرة تنضح بالأنانية.

كانت خطتي في تلك الليلة أن أنام حتى منتصف الليل، بيد أنه كان عليَّ أن أدرك استحالة ذلك، وأن أخطط له. ولكن بدلاً من ذلك، جبت أرجاء المكان، مما أعطاني المبرر الذي كنت أحتاج إليه للنهوض من الفراش؛ لأنه في ذلك الوقت كانت باربارا تشعر بالراحة تماماً لرؤيتي أنهض، بحيث إنني لم أضطر لاختلاق رواية.

تأكدت من كل شيء للمرة الألف، ثم قدت سيارتي إلى هاي لاندر. ظهر أبجي الصغير في الوقت المناسب تماماً، وفي غضون دقائق من مغادرته، كنت قد فتحت باب غرفة الفندق المغمورة بالمياه وتركته مفتوحاً قليلاً، كي أتمكن من دخولها بسرعة بعد أن أجذب معداتي إلى الطابق العلوي.

عندما عدت، رفعت الحقيبة على الفراش لأبقيها جافة، وكانت رائحة العفونة تنبعث من المكان بسبب السجادة المبللة، وكان هناك صوت دهك بينما أسير

عبرها صوب الحائط البعيد، ومعي سكين تجفيف الجدار مشهراً وعلى أهبة الاستعداد.

كان تخلل الجدار أسهل مما توقعت، وكان هناك مجالٌ سعته ستة عشر بوصة (40 سم) بين قوائم الجدار تسمح بضغط جسدي للمرور من خلاله. كانت الخزينة أول شيء أبصرته، وكما أشيع عنها فقد كانت ضخمة جداً، إذ بلغ ارتفاعها ستة أقدام (180 سم)، وكان لها بابان. أحسست بتسارع ضربات قلبي، وعلى الرغم من قلة الوقت المتاح لأنجز عملي فيه، أجبرت نفسي على التوقف، وركنت إلى الهدوء، وأنصت لأي ضوضاء قد تشير إلى أنني سببت إزعاجاً من نوع ما.

انتهزت فرصة التوقف لتقدير الوضع.

من خلال خيط الضوء المنبعث من مصباحي الكهربي أمكنني رؤية قرص أرقام الخزينة، الذي كان قطره حوالى ست بوصات (15 سم)، والقابع إلى اليسار تماماً من المقبض الباهت. نظرت في ساعتي، وكانت الساعة الثالثة وأربعون دقيقة، واكتشفت أني لديّ ما يقرب من ثلاث ساعات قبل وصول أي شخص.

كان المكتب بلا نوافذ، فأضأت النور، ثم عدت أدراجي صوب الجدار لإحضار أدواتي ومعداتي، والتي رتبتها بشكل يسهل الحصول عليها من أمام الخزينة، بالإضافة إلى إحضار زجاجة مياه في حال شعرت بالعطش أثناء ما أيقنت أنها فترة طويلة من العمل الشاق. جذبت أحد المقاعد لأجلس عليه، كي أتمكن من العمل في ارتياح، وفحصت مفصلات الخزينة سريعاً، ثم أخذت نفساً عميقاً وشمرت عن ساعدي. قررت أن أبدأ بالمثقاب على أقصى سرعة له.

انحنيت إلى الخلف لأمسك بالمثقاب، ولكنني شعرت بالمقعد يختل توازنه، ولكي أحتفظ بتوازني بشكل أفضل وصلت للمقبض الخاص بالخزينة، الذي انزلق إلى الأسفل في الحال، محدثاً صوت طقطقة مرتفع.

كنت في غاية الاندهاش حتى أنني كدت أنقلب تماماً، فأنزلت المثقاب، وعدلت قامتي، محملقاً في أصابعي الملتفة حول المقبض، الذي كان يتجه إلى الأسفل الآن، بدلاً من الاتجاه إلى الجانب. اعتراني الذهول، وتعلقت ببصيص من الأمل، ورمشت بعيني عدة مرات، ثم جذبت، فانفتح الباب الضخم بسهولة.

والآن هذا هو ما أدعوه بالحظ.

فضلاً عن النقود الموجودة في حقيبة أنجي السوداء، كانت الخزينة تعج برزم أنيقة من النقود تساوي الواحدة منها خمسة آلاف دولار، بالإضافة إلى بعض قطع المجوهرات الجميلة، والتي انتزعتها أولاً، وحشوت ما أمكنني من حزم النقود داخل حقيبتي، ومررتها خلال الجدار مع حقيبة أنجي. كما جمعت تلك المعدات غير المستخدمة كلها ومررتها أيضاً. وفور ما تمكنت أنا نفسي من المرور، أعدت حزم أدواتي وثبت الحقائب جميعها على ظهري، ثم شرعت في سحب كل شيء على الممر بأقصى ما يمكنني من هدوء. ولم أخلّف ورائي سوى العرق المتصبب، ومن الجيد أن اختبارات الحمض النووي لم تكن قد عرفت في تلك الأيام.

بعد أقل من ساعة من إعادة قفل الغرفة الخالية إلى مكانه ثانية، أوصدت غطاء صندوق سيارتي بهدوء، وتوقفت عند أحد المباني التي أديرها لأخفي المسروقات والمعدات داخل صندوق مقفل غير مستعمل، وعدت أدراجي إلى المنزل والفراش قبيل الخامسة صباحاً، حتى قبل أن تدرك باربارا أنني كنت بالخارج.

وكان ذلك من حسن حظي أيضاً.

* * *

شعرت بالأرق نفسه بعد إنجاز المهمة بقدر ما شعرت به قبلها. حتى إن كأسين كبيرين من المشروب المفضل لم يفعلا شيئاً لتهدئة جهازي العصبي الذي استمر في إفراز الأدرينالين. كان هذا كل ما أمكنني فعله لأناضل الرغبة في النهوض كل خمس دقائق للنظر إلى العتلة، وإقناع نفسي بأنني قد انتزعتها بالفعل.

توجهت إلى النادي ذي المفتاح عصر يوم الأربعاء، كالمعتاد. فهناك قول مأثور قديم يقول بعودة المجرم دائماً لمكان جريمته. لا أعلم إن كان ذلك حقيقياً أم لا؟ لكن ما عرفته بالفعل أن أسوأ شيء يمكنك عمله للفت الأنظار تجاهك متى كنت مهدداً بالسلاح هو أن تغير عاداتك، لذا لم أرد تغيير عاداتي.

كنت أحمل شرابي الأول في يدي قبل أن أستمتع بسماع القصة. اندفع أحد المدراء الحُمْق قائلاً: "سطا مجموعة من الرجال على عائلة أنجي للحصول على بعض

الـــنقود"، وقد حاول أن يبدو كفرد من العصابة بدلاً من مجرد شخص يتولى قسم الحسابات.

قاطعــه شخص آخر يشبه الشخص المرسوم على الورقة من فئة الدولار، وأضاف قائلاً: "وبعض المجوهرات أيضاً"، واقترح ثالث مبلغاً أكبر مما قاله الذي سبقه. ومضى الأمر على هذا النحو خلال الوقت الذي مكثته هناك، وأحسب أن قـــدر النقود المتزايد مع الروايات المتعاقبة كان من المفترض أن يخلق القصة، ويعلي من شأن القاص. لقد كان المبلغ الفعلي يزيد قليلاً عن مائة ألف دولار، لكن أولئك الأشخاص كانوا بالفعل يضاعفونه لخمسة أضعاف.

عندما هززت رأسي، وتناولت جرعة كبيرة من شرابي، بدا ذلك وكأنه تعاطف مـــع آل لـــوناردو، أو استسلام لما يؤول إليه مصير هذا العالم، بيد أن الأمر لم يكن كذلك إطلاقاً. كانت الحقيقة هي الاستمتاع بأن الجميع افترضوا قيام عصابة بأكملها بمهمـــة الـــسطو. اعتبرت ذلك إطراء، وبات من الواضح أنني، حتى في تلك المرحلة المبكـــرة، كـــنت بارعاً في هذه الأمور، ويمكنني، من خلال الممارسة، أن أتطور إلى الأفضل. هل كان من العجيب أن تجنح أفكاري بالفعل إلى الغنيمة التالية؟



أنجيلو لوناردو، "أنجي الكبير"، الرجل الثانـــي فـــي مافيا كليفلاند، كما ظهر أثـــناء اعـــتقاله عام 1977 بتهمة قتل عصابي آخر.

كان ثمة شيء آخر فكرت فيه، فيما بعد، وهو ماذا كان يمكن أن يحدث عندما يدرك آل لوناردو أن الخزينة لم تتعرض للتلف على الإطلاق. لم يكن أنجي الصغير سيتذكر أنه نسي إغلاقها - أو سيعترف بذلك، لو كان فعلها - مما كان يعني أنهم سيفترضون إما أن فاتح خزائن فائق الاحتراف كان قد فتحها، أو أن شخصاً ما كان على علم بأرقامها السرية قام بفتحها. لم أرغب حتى في التفكير فيما يتوقع حدوثه مستقبلياً لأي فرد على قائمة الاحتمالات.

* * *

نص تاريخي وجيز: بعد حوالى اثني عشر عاماً من قيامي بهذه المهمة، انفجر صراع القوى الذي أفضى في النهاية إلى حرب العصابات في أوهايو، وقامت السلطات الفدرالية بتحقيقات مكثفة، وكذلك الولاية، والسلطات المحلية الرسمية (لم يزل صدى تلك التحقيقات يتردد حتى أواخر عام 2002 عندما صار جيمس ترافيكانت من أوهايو ثاني من يطرد من مجلس الشيوخ منذ الحرب الأهلية). حدث أحد أكثر التطورات صدمة حينما تحول أنجيلو لوناردو، في عمر الثانية والسبعين، إلى مرشد للحكومة، بعد محاكمته، وفرض عقوبة بسجنه مدى الحياة، بالإضافة إلى مائة وثلاثة أعوام بتهم المخدرات والابتزاز. وكان يعد في ذلك الوقت من أكبر رجال العصابات الذين يشهدون لصالح الحكومة. وقد ساعد ظهوره بقاعة المحكمة في تدمير زعماء العصابات من عائلات المافيا، أمثال جينوفيز، لوشيز، كولومبو. وبعد ذلك، التحق أنجي الكبير ببرنامج الحكومة الفدرالية لحماية الشهود ودبر بإحكام أمر اختفائه.

توفي أنجي الصغير لأسباب طبيعية عام 1998، ولكن على حد علمي، ما زال أنجي الكبير حياً في مكان ما في شمال شرق أوهايو دون أدنى فكرة عمن اقتحم خزانته منذ سنوات عديدة.

حتى الآن، آمل يقيناً أن يكون من الطراز المتسامح...أو أن يكون طاعناً في السن، بحيث لم يعد يبالي.

5

الاستثمار الراقي

ذات مـــرة قـــال شخص عن الطيران أنه ساعات من الضجر المطلق تقطعها لحظات من الرعب المحض. وتشبه حياة لص النفائس هذا الأمر، على الرغم من أنني أستبدل كلمتي 'الحياة السوية'، و'الإثارة'بـــ 'الضجر' و'الرعب'.

بالتغاضـــي عن السرقات العرضية في الوقت الحالي، كانت حياتي في منتصف الستينيات من القرن الماضي غير حافلة بالأحداث فعلياً، ولكنها كانت حياة سعيدة أيضاً. فقد كان لديّ زوجة وأطفال أعشقهم، رغم أنني لم أمضِ معهم وقتاً طويلاً تقريباً، بسبب المبرر المعتاد، والمألوف تماماً: كنت أكدح في عملي العادي للغاية.

لم أكـــن أعمـــل بالضبط في مجال "الأملاك العقارية" كما كنت أذكر لرواد الملهى الليلي حينما كان يسألني أحدهم. وإنما كان ما أفعله بشكل يومي هو إدارة ما يقرب من خمسمائة شقة فاخرة في منطقة شاكر هايتس نيابة عن الملاك الفعليين، والـــذين كان أغلبهم أبناء أعمامي. كنت أستيقظ في الصباح، وأتوجه إلى العمل، شـــأن المحاســـبين، وملاك المتاجر، والنجارين، والباعة في الجوار. وكنت أُحصّل الإيجـــار مـــن المتأخرين في السداد، وأحفز الباعة على تسليم الطلبات في الوقت المحدد، وأراقب بعناية عمال الصيانة الكسالى، الذين يطلون ما حول آنية الزهور. يا لها من مهام مثيرة.

بـــيد أن دخل الأملاك العقارية سحرني، وكانت الخبرة اليدوية التي اكتسبتها في هـــذه الوظيفة لا تقدّر بثمن. وكلما بذلت مجهود أكبر، وتعلمت المزيد، زادت

رغبتي في أن أكون على الناحية الأخرى من الطاولة، مع الملاك، لا المستأجرين، والعمال.

عقب الانتهاء من كيس ويسترن، حصلت على رخصتي كسمسار عقارات، ودبرت بيع بضعة منازل بشكل سريع نسبياً. لم أضع إعلاناً، أو أي شيء من هذا القبيل، ولكن بعض كبار السن، الذين رغبوا في بيع منازلهم الكبيرة، والانتقال إلى أحد المباني التي توليت إدارتها أعطوني القائمة. وعلى الرغم من أن عرض المنازل المفتوحة في عصر أيام الأحد لم تكن فكرتي عن التوقيت الصائب، فقد واجهت مشكلة يسيرة في إنشاء صلات مع المشترين المرتقبين، وأبليت بلاء حسناً مع عملائي من كبار السن، والذين سرعان ما سيصبحون مستأجرين لديّ.

كل هذا زاد من اهتمامي بدخل الأملاك العقارية. طالعت كل كتاب أمكنني الحصول عليه يتعلق بالاستثمار العقاري، بما في ذلك تلك الكتب السخيفة التي تعد بتحويل البنسات إلى ملايين بين عشية وضحاها. حتى هذه الكتب كانت تضم أحياناً بعض الحكم الثمينة، وقد رغبت في معرفتها.

سرعان ما حان الوقت لفعل شيء مثمر بكل تلك النقود التي سلبتها من آل ليوناردو، وشرعت في استكشاف بعض العقارات التي تدر دخلاً، والتي قد تلائم ميولي، ومهاراتي. بالإضافة إلى المال، كان لديّ ثلاثون موظفاً كنت موقناً من قبولهم بالعمل لديّ. كانوا أناساً عملت معهم عن كثب، وكانوا يقدّرون خبرتي الفنية، والأسلوب المحترم الذي كنت أعاملهم به، والذين كنت أثق بهم في الإبقاء على ما أشتريه في حالة ممتازة. وكانت الصيانة الرفيعة المستوى شيئاً عقدت العزم على جعله شعاراً لأي عقار سأملكه.

فور ما اتخذت قراري، لم يمضِ وقتاً طويلاً حتى علمت أن أحد المباني التي كنت أعرفها بالفعل كان يعرض للبيع. كان المبنى على الطراز البيزنطي القديم، ويتكون من ثماني عشرة شقة مذهلة، وقد حاز على العديد من الجوائز لجمال تصميمه المعماري. وكانت كل شقة تختلف تماماً عن غيرها، فبعضها كان به غرفة معيشة سفلية، وأسقف تبلغ خمسة وعشرين قدماً (7.5 متر)، وأخرى ذات درج حلزوني يفضي إلى أجنحة أساسية هائلة الحجم، وكانت الشقق كلها تحتوي على

مدفآت تعمل بالفعل (شغَّالة). لقد أصابني الدوار من مجرد فكرة احتمال امتلاكي له بالفعل.

لم يكـــن مال المافيا المسلوب كافياً لسداد دفعة مقدمة فحسب، بل إنه أثار أيضاً انتباه البنك المحلي إلى كياني المالي، وفطنتي الظاهرة في مجال الأعمال. منحوني رهـــناً، وصـــرت مالكاً لأحد أكثر المباني رقياً في المنطقة، وأنا لم أزل في الخامسة والعشرين من عمري.

بـــيد أن نمـــط السرية الذي أسسته بالفعل، والذي منحني الكثير من الحماية خـــلال حياتي امتد كذلك ليشمل محاولاتي المشروعة. فلم أعلن أبداً للمستأجرين، سواء الموجودين، أو المرتقبين، أنني كنت مالك المبنى. بل تركت كل منهم يظن أنه ملكـــية أخرى لحساب الشركة الإدارية التي كنت أعمل لأجلها. أما عن باربارا، ووالـــدتي فقـــد اعتقدتا أنني اقترضت مبلغاً يفوق بشكل كبير المبلغ الذي امتلكته بالفعل.

وقد دعم هذا الخداع غير الضار طريقتي في المشاركة النشطة في الحفاظ على صـــيانة المبنى. كنت أحب أن أعمل بيدي، وقضيت وقتاً طويلاً في مشاركة عمال الـــسباكة، والكهرباء، والنجارة (ناهيك عن صانعي الأقفال) في العمل والاتساخ بيـــنما كنا نعكف على تحسين العقار. وكنت شديد الانشغال لأفكر في "هواياتي" الصغيرة الأخرى، ووجدت أنه من اليسير أن أعوق ميولي الخفية.

علـــى الأقل خلال العام الأول، عندما ظننت أنني في طريقي لأن أصبح بمثابة رجـــل العقارات، دونالد ترامب، في كليفلاند. لاحظ بعض الأشخاص المهمين في دوائـــر الأمـــلاك العقارية المحلية ما كنت أفعله، وشرعوا في عرض بعض الفرص الاستثمارية الأخرى عليَّ، وقد قمت ببعض الاستكشافات بالنيابة عنهم، وعني أنا الآخـــر، موســـعاً دائـــرة الـــبحث إلى خارج نطاق كليفلاند، وأوهايو، وعندها اكتشفت مدينة فلوريدا.

كانـــت ميامـــي، وفـــورت لـــودرديل تزدهران على نحو هائل مع حلول الـــسبعينيات مـــن القرن الماضي، وكانتا بالإضافة إلى بالم بيتش، أدفأ المنتجعات الشتوية في البلاد، ومصدر جذب للأثرياء، والمشاهير، فضلاً عن مئات الآلاف من

البشر الأقل شهرة، والذين ينفقون المال ببذخ. لم تكن "طيور الشتاء" كثيرة التأثر بـرد الفعـل التقليدي العدائي المتزايد ضد تيار الاستهلاك الواضح، والذي كان يسيطر على بقية البلاد، وكانوا يجدون متعة غير مدركة في تحين كل فرصة للتباهي بسياراتهم الفاخرة، وبمجوهراتهم الغالية، ونمط حياتهم المسرف.

كـان كـل ذلـك يمثل إغراء هائلاً لشاب نشط، لديه القليل من الحيطة، والمـواهب، بالإضـافة إلى أسرة متنامية - كانت لورا قد ولدت لتوها، وكانت سوزي في الثامنة من عمرها، ومارك في السادسة -. ولكن... كنت لا أزال أعيش في كليفلاند مع زوجتي، وأطفالي الثلاثة، وألتزم بمسؤوليات عمل أسسته بجهدي، وإرادتي، ووضعت به كل ما أملكه من نقود سائلة. لذا، ولأسباب مالية بحتة، كان الانتقال إلى جنوب فلوريدا حلماً بعيداً، على الرغم من أنه قائم.

ظاهرياً، كنت مجرد أميركي، متوسط المستوى، كادحاً، وذا طموح كبير.

* * *

كـان وقـت الصيف في أوهايو جميلاً، وكان ميوزيكارنيفال هو أحد أكبر مـصادر الجـذب في ذلك الموسم؛ وهو مسرح متنقل على شكل خيمة يقام على حلـبة سباق ثيسلداون. كان يتسع لألف وخمسمائة مقعد، وكان الغرض منه في الأسـاس هـو استـضافة المسرح الصيفي، ولكنه كان يجذب أيضاً بعض الأسماء الـشهيرة في مجـال الترفيه. كان ديوك إيلينجتون يؤدي عروضاً هناك باستمرار، وكـذلك ستيف لورانس، وإيدي جورم، وروبرت جوليت... ومؤدية كوميدية تدعى فيليس ديلر.

كنت قد رأيت ديلر، وهي من أوهايو في الأصل، منذ بضعة شهور في عرض مايك دوغلاس، وكان برنامجاً صباحيّاً في تلفزيون كليفلاند في ذلك الوقت. كان الشيء الوحيد الذي أتذكره هو ذلك الكم الهائل من المجوهرات الكبيرة التي كانت ترتديها، وتساءلت إن كانت حقيقية. لم أعرها انتباهاً أكثر من ذلك، حتى علمت أنها ستظهر في ميوزيكارنيفال.

ابتعت تذكرة لليلة الافتتاح، لكني انتظرت طويلاً، ولم يمكنني الحصول سوى علـى مقعد جهة الخلف. ومع ذلك، وحتى من ذلك المكان، فقد راحت كل تلك

الجواهـــر المتدلية من عنقها، ومعصمها تلمع بشدة، وكان لديّ انطباع قوي بأنها كلها قطع أصلية.

لم أكـــن أدرك أنـــني قـــد مضيت فعلاً وبشكل واعٍ في عملية اتخاذ القرار، ووجدت نفسي أخطط لغنيمة جديدة.

كانـــت ديلر مرتبطة بتقديم عرض لمدة أسبوع، لذا فقد عدت أدراجي الليلة التالية وانتظرت حتى نهاية العرض، وتبعتها وهي تغادر المسرح بسيارة ليموزين. لم يكن من العسير اقتفاء أثرها مع قلة عدد سيارات الليموزين في ضواحي كليفلاند. كمـــا كـــنت على دراية تامة بالطرق، ويمكنني تخمين المنعطف التالي دون الحاجة للاقتراب كثيراً.

وفي النهاية، كنا كلما قدنا أكثر، صرت أكثر معرفة بالطرق، حيث إن ديلر كانـــت مـــتوجهة إلى مطعم في وسط الشارع بجوار هاي لاندر، في طريق نورث فيلد. كان اسمه فندق وصالة بلو جراس، وكان يرتاده نفس نوعية زبائن الفندق.

ذهـــبت إلى البار، بينما قصدت ديلر غرفة الطعام، وكنت قادراً على مراقبتها دون أن يلاحظـــني أحـــد. كانت بصحبة رجلين مفتولي العضلات افترضت أنهما حارسين شخصيين.

بعد أن انتهوا من العشاء، وأوشكوا على الخروج، لبثت ساكناً، وذهبت إلى الـــباب الأمامي فقط عندما تيقنت من أنهم لن يلاحظوني. عندما وصلت هناك، رأيتهم يركبون السيارة، ولاحظت في أي طريق توجهوا عبر الشارع.

كانوا يقودون ببطء، وفجأة خطرَت ببالي فكرة: هل هذا ممكن...؟

كـــان ممكـــناً، وعلى بعد ربع ميل رأيتهم يدخلون هاي لاندر من دون كل الأماكن.

* * *

أحـــسب أنـــه ما كان يجب أن يدهشني ذلك، حيث كان هاي لاندر أكثر الأمـــاكن رفاهية في المدينة. ولكن لأفكر أن ديلر كانت ستمكث في مكان كنت بالفعل على دراية قوية فيه كان أكثر مما أملت به. إنه مثال آخر على الدور الذي يلعبه الحظ في هذا النوع من العمل.

في الليلة التالية انتظرت في هاي لاندر، وراقبت بينما رافقها أحد الحراس إلى الردهة، ثم عاد إلى السيارة. واصلت السير بمفردها من هناك، مما أثار دهشتي قليلاً ريثما علمت أن حاشيتها يحتلون طابق بأكمله بالفندق، وهو تدبير ربما جعلها تشعر بالأمان فعلاً. لاحظت أيضاً أنها لم تزعج نفسها بإيداع أي من الحلي التي كانت ترتديها بخزينة الفندق. وما كنت أجهله هو هل كانت ترتدي كل ما أخذته معها في الطريق، أم أنها كانت تترك المزيد من الحلي في الغرفة عندما تكون خارجها. وهل كان هناك أي شخص آخر في الغرفة، ربما زوجها المجهول الهوية، فانج، مثار العديد من نكاتها على خشبة المسرح؟

ما كنت في حاجة لمعرفته هو في أية غرفة كانت تقيم، وكيف يمكنني دخولها، والخروج منها، وما هي الاحتياطات الأمنية التي كانت تتخذ متى لم تكن في الغرفة. علمت بالفعل توقيت ذهابها من موعد عرضها في ميوزيكارنيفال.

في الصباح التالي، لجأت إلى أكثر أدواتي تعقيداً، وفعالية، وقدرة على الاستطلاع، وهي ملابس عمل قديمة ولوح كتابة. لأنني كنت على دراية بالناس في هاي لاندر، ارتديت أيضاً نظارة شمسية، وغطاء رأس ينحدر فوق جبهتي. سرت بالطابق الذي كانت تقيم به هي وحاشيتها، وكنت مزوداً بشريط قياس قابل للارتداد. كنت أقيس كل شيء تقع عليه عيني، وأدون ملاحظات دقيقة على لا شيء، بيد أني بدوت يقيناً وكأنني أعرف ما كنت أفعله.

لا بد من أنها كانت بالجناح، لكن كان هناك ثلاثة أشخاص بالطابق، ولم أجد طريقة أكتشف بها أيهم كان يتبعها. تجول القليل من الناس في المكان، ولم ينتبهوا لي، ولكن في وقت ما كنت سأصبح ملحوظاً لأي شخص يمر بجانبي أكثر من مرة.

وفي الوقت الذي بدأت لا أجد فيها أشياء أقيسها، ظهر خادم يحمل صينية الإفطار، والذي لم ينتبه لي كثيراً كما فعل الزبائن (أحد المتع القليلة التي تجدها في الوظائف الدونية هي احتقار شخص آخر تظنه أقل منك مرتبة)، ثم سار إلى أحد الأجنحة الثلاثة، وطرق الباب. راقبت بينما فتحت الباب امرأة ذات شعر قصير، يغلب عليها النعاس، وبدون زينة، وقد بدت عينيها شديدة الإرهاق، وكانت

تــرتدي رداء قديماً. جعلتني رؤيتها بدون الشعر المستعار الضخم، والحلي المتلألئة، وحامــل السيجارة ذي الماركة المسجلة، أستغرق بضع ثوانٍ كي أدرك أنها كانت ديلر نفسها.

الآن وقد علمت الغرفة الصحيحة، خرجت من الطابق، ونظرت متجهماً إلى لــوح الكــتابة، وأنــا أهرش رأسي مستغرقاً في تركيز عميق، وكأنني مجرد عامل بسيط، يفكر ملياً في تعقيدات العمل، ولا يستجيب لأية محادثة بسيطة من شخص يمر به.

كانت محاولة دخول جناحها عبر الممر أمراً مستحيلاً؛ فقد كان هناك العديد مــن المارة في ذلك الطابق، وكنت أعلم أن غالبية الحاشية لم يحضروا العرض كل لــيلة. كانت هناك طريقتان محتملتان للدخول. إحداها كانت التسلل عبر الجدار، وكــنت قد علمت من خلال سطوي على العصابة أن الجدران كانت رقيقة جداً بحيث يسهل اختراقها، ولكن كانت هناك مشكلتان: كانت المشكلة الرئيسية هي أنني كنت سأحتاج إلى غرفة ملاصقة خالية، بينما كان الطابق بأكمله مشغولاً.

كان الاختيار الآخر الوحيد هو شرفتها الخاصة، لكن لتجنب اكتشاف أمري كــان لا بد من الدخول من أعلى، وقد كانت الشرفة تقع أسفل سقيفة مستدقة بمــسافة عــشرين قدماً (6 أمتار)، ومع ذلك كان هذا هو خياري الوحيد، ولكن الجيد في الأمر هو أن اجتياز الباب الزجاجي المنــزلق للرواق لم يكن بأمر عسير.

* * *

في اللــيلة التالية، اتشحت بالسواد من أعلى رأسي إلى أخمص قدمي، بما في ذلــك حــذاء مطاطــي ذو عقب مجعد، وقفازان أسودان. حملت حبلاً، وبعض الأدوات في حقيــبة عادية خاصة بالرحلات القصيرة، وصعدت إلى سطح الجناح الذي كانت تقيم به ديلر. كان مؤمناً بقفل قوي معقد التركيب، والذي فتحته، ثم حــشرت عــود أسنان في القفل العادي الخاص بمقبض الباب. أخفيت الحبل وراء ماسورة صرف على السطح، ثم عدت إلى المبنى، وأوصدت الباب خلفي.

ذهــبت إلى المستوى الأرضي، وعبرت للجناح المقابل، ثم صعدت إلى ذلك السطح. كان الباب هناك يحتوي على قفل بقوة الآخر، ومن جديد قمت...

كلمـــة تحذيـــر: إن أردت الـــتفكير في أن أمهر اللصوص يفتحون الأقفال باســـتخدام وسائل سرية تجعل هوديني يأكله الحسد، فربما ترغب في إغفال الخطوة التالية.

لم أستخدم مشابك الورق في فتح تلك الأقفال، أو مجموعة من أدوات معالجة الأقفـــال موضوعة في جراب جلدي أنيق، ولم أستعن بأداة إلكترونية خارقة ذات تكنولوجـــيا عالية، وسعر هائل. إن المكان الوحيد الذي يفتح به اللصوص الأقفال المـــصنوعة بمتانة في ثلاث ثوانٍ هو الأفلام السينمائية، وهو أمر ستعرفه بالفعل لو كنت قد أغلق بابك، وأنت خارج الشقة، واستدعيت صانع أقفال. فهم يحضرون بحـــزام مليء بالمعدات الغريبة، ويعبثون بقفلك زهاء النصف ساعة، وفي 90% من الحالات ينتهي الأمر بتحطيمه. وأولئك الأشخاص هم الذين يقضون أربعين ساعة أسبوعياً في العمل بالأقفال.

كـــنت قد ألقيت نظرة على البابين قبل ذلك بثلاثة أسابيع، ودونت الأرقام المسلسلة للقفلين. استعنت بالأدوات الكتابية الخاصة بشركة إدارة المبنى التي أعمل بـــه، وأرسلت الأرقام إلى شركة ماستر لوك، وأخبرتهم أن لديّ قفلين معلقين دون فائـــدة علـــى بـــابين مفتوحين في أحد المباني التي توليت إدارتها لتوي، وأكره أن أســـتخدم أداة قطع المسامير الغليظة؛ لأنها كانت أقفال باهظة الثمن، وأرغب في التمكن من استخدامها، ولذلك ألا يمكنكم معاونتي في هذا الأمر؟ بعد ذلك ببضعة أيـــام وصـــلني خطاب يحمل كلمات مبهجة ("نحن في غاية السرور أن نكون في الخدمـــة يـــا سيد سميث") ويشتمل على سلسلة أرقام التركيبات الخاصة بالقفلين. عـــنوان الشركة المطبوع على الأوراق الخاصة هو واحد من أهم الأدوات الناجحة لغرضي العمل والسرقة. حتى إنني استطعت بعد ذلك أن أحصل منهم على المفاتيح الرئيسية لفندق رمادا، ومجموعة من الفنادق الأخرى.

فـــور مـــا وصـــلت إلى السطح، وتيقنت أنني كنت في ظل دامس، جربت مـــنظارين مكـــبرين للتطلع إلى شرفة ديلر. كانت أنوار الجناح مضاءة، وكانت الستائر مفتوحة قليلاً. لم أرَ أية حركة، ولكنني دفعت نفسي إلى مراقبة المكان لمدة ساعة كاملة للتأكد من عدم وجود أحد بالداخل.

يمـــر الـــوقت ببطء مؤلم عندما تكون في موقف خطير، ولا تفعل شيئاً البتة، وتحـــدوك رغبة عارمة في المسارعة؛ لأنك موقن أنه قد انقضى وقتاً كافياً. أفضل وســـيلة لـــردعك عـــن فعل ذلك هي أن تخطط أكثر ما يمكنك تخطيطه مسبقاً، وتتجـــنب اطلاق أحكام فورية. كانت خطتي تلك الليلة تقتضي أن أراقب الغرفة لمدة ساعة، وقد قمت بذلك باستخدام ساعتي.

بعـــد أن اقتنعت أن الغرفة كانت خاوية، عدت ثانية إلى المستوى الأرضي، وعبرت صوب جناحها، ومنه إلى السقيفة ثانية. قمت بفتح الباب الذي علّقته من قـــبل، واسترجعت الحبل، ثم سرت نحو فتحة مدخنة بالقرب من الحافة، ووثقت الحـــبل حـــولها. وعندما صار مؤمناً، جذبت بأقوى ما أمكنني، ولكن المدخنة لم تتزحزح.

وضعت الحبل أسفل الجانب المائل من السقيفة، ثم إلى الخارج فوق الحافة – وذلـــك بـــبطء؛ للتيقن من أن الحبل لم يتدلَّ، ويجذب الانتباه – دليته فوق حافة الشرفة، بدلاً من وسطها، بحيث يكون من الصعب أن يميزه أحد، سواء بأسفل، أو داخـــل الغـــرفة. انتظرت عشر دقائق، ملتزماً بساعتي ثانية، ثم تراجعت إلى الجزء المنحدر، وخطوت فوق الحافة، ثم بدأت في التدلي لأسفل.

سمعـــت موســـيقى منبعـــثة من مكان ما، لكني عجزت عن تحديد المكان. والموسيقى، مثل أي ضجيج "طبيعي" يمكن أن تساعد، أو تعيق. فقد ساعدتني لأنها يمكـــنها التغطية على أي صوت مثير للريبة قد أحدثه، ولكنها كانت مشكلة أيضاً لأنها قد تغطي على أصوات أحتاج إلى سماعها، مثل شخص يدفع المقعد إلى الوراء؛ لأني نبهته بشكل ما إلى وجودي، أو شخص يفتح الباب ليدخل إلى غرفة تصادف وجودي بها بشكل غير مشروع في هذه اللحظة.

كان صوت الموسيقى يزداد ارتفاعاً، كلما هبطت إلى أسفل، وعندما صرت علـــى بعـــد بضع خطوات من الشرفة، أدركت السبب: وهو أنه كان ينبعث من غرفة ديلر.

لم يكن ذلك جيداً. فمن عساه يصغي إلى الموسيقى هناك، ويفعل ذلك دون أن يتحـــرك في المكـــان إطلاقاً؟ لقد راقبت المكان لساعة كاملة، و لم أبصر إشارة

واحـــدة تدل على أن شخصاً ما كان بالداخل. هل يحتمل أنهم دخلوا إلى الغرفة، بينما كنت في طريقي إلى السقيفة الأخرى.

هذا الأمر غير محتمل، ويمكنني أن أرى أن ديلر ربما تكون قد تركت شخصاً ما في الغرفة عندما غادرت، ولكن إذا كان لأحد أن يأتي بعد ذلك، فلا بد من أنه سيحتاج إلى مفتاح للغرفة، وهذه قصة أخرى. ولكن الأمر الأكثر ترجيحاً هو أن ديلر قد تركت الموسيقى تعمل داخل الغرفة، إما بالصدفة، أو عن عمد لإبعاد أي لــص انــتهازي يتجول في المكان. لقد قضت آلاف الليالي في فنادق كهذا، وربما تكــون قــد عــرفت مجموعة من الحيل الصغيرة، مثل باقي العديد من المسافرين المحنكين، لتقي نفسها من مثيري المشاكل، الذين يظهرون بشكل عرضي. (إحدى الحــيل الجيدة هي ترك المذياع، أو التلفزيون مفتوحاً، وكذلك الأنوار. هناك حيلة جــيدة أخــرى، وهــي عدم ترك لافتات "خدمة الغرف" على الباب، والتي تخبر خادمات الغرف أن بإمكانهم الدخول لترتيب الأسرة، ولكنها تخبر العالم كله أيضاً أن الغرفة خالية. ولكن بدلاً من ذلك يمكنك إعلام المكتب في طريقك إلى الخارج، أو أن تتصل بخدمة الغرف قبل أن تغادر تماماً).

جلــست في الشرفة بقدر ما أستطيع من هدوء، وانتظرت ثانية، وقد لففت يدي حول الحبل في حال احتجت إلى العودة إلى أعلى سريعاً، ولكن لم يكن هناك صوت غير الموسيقى، وكذلك لم تكن هناك حركة. حان الوقت عندئذ لبدء العمل على الأبواب الزجاجية المنــزلقة، وعندها لاحظت أن الستائر الداخلية تخفق قليلاً، مــا لو كان ذلك بفعل النسيم. كان من المؤكد أن درفتي الباب لم تلامس إحداها الأخرى تماماً، وبدا واضحاً أنها لم تثبت ببعضها البعض.

كان قلبي يخفق تقريباً بألم، بينما أفتح إحدى درفتي الباب بهدوء. فتحت الستائر بــبطء، ونظرت حولي، ولكن لم يكن هناك أحد في الداخل، وبالتالي دخلت. كنت أحــب أن أخفض صوت الموسيقى، ولكني لم أشأ أن أجازف بأن يتساءل شخص ما في غرفة مجاورة عمن خفض الصوت، مع علمه بأن ديلر قد خرجت.

كانــت الملابــس مبعثرة في كل مكان، وكذلك الأطباق، وأدوات المائدة المــستخدمة. كانت أدراج المكتب نصف مفتوحة، وكانت أبواب الخزانة مفتوحة

قليلاً، وكانت المناشف الملقاة بلا اهتمام تظهر من خلال باب الحمام... كان الجناح يبدو وكأن أحدهم قد ألقى بقنبلة يدوية بداخله. وأتذكر أنني تساءلت، في وجود الغرفة على هذه الحالة، كم من الوقت سيستغرقه شخص ما لملاحظة حدوث سطو.

كان أول مكان بحثت فيه هو الدرج العلوي للمكتب، وكان المكان الوحيد الذي أحتاج إليه؛ فقد كان هناك صندوق بداخله يمتلئ تقريباً بكمية هائلة من الجواهر. كان من العسير أن أعرف إذا كان نبضي يتسارع بسبب الخطر الذي يحيق بي، أم بسبب رؤيتي لتلك الجواهر اللامعة، والمعادن البراقة الثمينة. أفرغت ما في الصندوق داخل كيسي الكبير الخيشي الأسود، مستمتعاً بوزنه، ثم علقته فوق كتفي، وتوجهت عائداً إلى الأبواب المنزلقة.

مع وجود الكنز بيدي، أجبرت نفسي على الحذر، والبطء، يدفعني حافز داخلي للتسلق بأسرع ما يمكن. وكنت أعلم أن المغادرة قد تكون حتى أكثر خطورة من الدخول: فالآن، لو كان قد رآني أي شخص في أية مرحلة لكان لديه متسع من الوقت كي يبلّغ حراس الأمن، أو الشرطة، وإن كانوا يجهلون بالضبط أين كنت، سيتريثون، ويراقبون شخصاً ما يقوم بحركات مباغتة، مختلسة.

والأسوأ من ذلك، أنني كنت أمسك الآن بالمسروقات. فلو كان قد تم القبض عليَّ في الطريق، كان كل ما سيجدونه هو ملابس مثيرة للشك، وبعض الأدوات، وستكون العديد من الشكوك المنطقية في صالحي. أما الآن، فسيتم الضغط عليَّ بشدة، مع ذلك، لتفسير أمر حيازة حقيبة بمجوهرات. حتى لو تدبرت أمر طرحها بعيداً عني، فربما يبصرني شخص ما، ويكون مستعداً للشهادة بذلك.

رغم أنني كنت أتحرك بمنتهى الحذر، إلا أنني ذهبت إلى الشرفة، وصعدت إلى السقيفة بعد أقل من خمس دقائق. جذبت الحبل خلفي، وحللته من ماسورة الصرف، ووضعته في الحقيبة مع المجوهرات. في طريقي للخروج، انتزعت عود (خِلال) الأسنان من القفل، وأغلقت الباب ورائي، ثم أعدت تأمين القفل. كان كل أثر لكيفية دخولي إلى الغرفة قد أزيل الآن. فربما يكتشفون أمر السرقة في النهاية، ولكن لن يكون هناك أي تخمين يساعدهم. سيتركز الشك الأول في أي

شخص يملك المفتاح الرئيسي من موظفي الفندق، وهم كثر على الأرجح. وسوف يكون الارتباك الناتج عن ذلك في صالحي، وبعد أن يقتل هذا الطريق بحثاً، لن يعود هناك من حل لدى الشرطة.

فكرت في إمكانية حيازة شركة الأقفال لخطاب "السيد سميث" في ملف، بيد أنه لم يكن هناك ما يشير إلى أن السرقة قد تمت عن طريق السقيفة. وحتى لو حدث هذا، فلا يمكنني أن أتخيل أن الشرطة سوف تتوصل إلى حقيقة أن شخصاً ما قد يتصل بشركة أقفال للحصول على أرقام أقفال السقيفة.

كانت الحرارة المبهجة لنشوة النصر قد بدأت تتسلل إلى صدري، ولكن في طريق العودة إلى السيارة، وبينما أنا أتهادى بقدر ما استطعت من اللامبالاة بين المباني الواقعة في المنتصف، لاحظت شخصاً بدا وكأنه يراقبني. تبدل حرارة النصر بعقدة متعسرة في تجويف معدتي: كيف تسنّى لهذا الشخص أن يعرف ما اقترفته لتوي؟

حاولت أن أوعز ذلك لوسواس في عقلي، ولكن بينما مررت، وقف، وانعطف في اتجاهي، وكدت أصاب بدوار بينما انسحبت الدماء من وجهي. لم يبدُ خجلاً من الحملقة المباشرة فيّ. حاولت جاهداً أن أبدو أكثر لا مبالاة، ولكن ذلك لم يجدِ نفعاً، بل جعلني أحس وكأن هناك لافتة من النيون معلقة على ظهري. أدركت فجأة أن ملابسي كلها سوداء، وتمنيت لو كانت الحقيبة المعلقة على كتفي بدت من طراز الحقائب التي قد يحملها أي نزيل في الفندق.

تسابقت الخواطر في ذهني عبر قائمة كاملة من البدائل، لكن كل ما فعلته كان المضي بعيداً عن ساحة الانتظار. لم أرغب أن يراني أدخل سيارتي. فحتى إن لم يكن يتعقبني، ربما يكون من النوع الذي يفرض نفسه، والذي سوف يسجل طراز السيارة، بل ويكتب أيضاً رقم الرخصة على اللوحة المعدنية. وبعد أن يتم اكتشاف السرقة، ونقلها في الأخبار، ربما يستجمع كل هذا، بالإضافة إلى رؤيته إياي، ويبلغ الشرطة.

حاولت ألا أغير من مشيتي، أو وضعي بينما سرت إلى الشارع قبل أن أنعطف إلى الخلف، وأختفي عن نظره. كانت ساحة الانتظار هائلة، وكنت قد

تـــركت السيارة أقصى طرفها، ولم يكن هناك من سبيل لأن يراني، وأنا أستقلها، وأنطلـــق بها. بيد أنني قدتها ببطء، وهدوء على أية حال، وأبقيت الأضواء الأمامية مطفأة حتى صرت في منتصف الشارع.

بعد أن تأكدت من أنني لم أكن متبعاً، لم أسترخِ تماماً، لكن قلقي السيئ بدأ يتبدد، وشرعت في مراجعة نفسي. ما الخطأ الذي فعلته؟ ما الدليل الذي يمكن أن أكـــون قد خلّفته ورائي؟ كيف كان يمكنني أن أؤدي الأمر على نحو أفضل؟ هل كـــان يجـــب أن أقـــود السيارة، وأنوارها الأمامية مطفأة مثلما فعلت؟ وإن كان الـــشخص الذي يراقبني يتأرجح على حافة الريبة، فإن في ذلك إشارة لكوني كنت قذراً. من ناحية أخرى، كان الهدف هو ألا يعلم أين كنت في المقام الأول بعد أن انعطفت بعيداً على قدمي.

يمكنني التأمل في هذا الأمر للأبد، ولكن الشيء الوحيد المؤكد هو أنني أفلت بفعلـــتي حـــتى الآن على الأقل، لذا كان من العبث أن أنتقد نفسي ثانية في تلك المرحلة.

لم أشـــأ إحضار أي شيء إلى البيت، أو حتى إلى المبنى الذي أملكه، فأخذت الملابـــس، والغـــنائم إلى خزانتي في أحد المباني التي توليت إدارتها، ثم توجهت إلى البيت لأقوم بتجرع كأسين من المشروب المفضل، ثم أبقى مؤرقاً طوال الليل، وهو الأمـــر الـــذي بـــات بمـــثابة تقليد لديّ بعد كل سرقة. كنت أتطلع فعلياً لذلك الاســـترخاء المعتاد الذي يتبع السرقة؛ على الأقل يمكنني بذلك الحصول على قسط من النوم.

* * *

في اليوم التالي في العمل حاولت أن أقوم بعملية فحص الغنيمة بنظارة الصائغ المعظمة.

وعقـــب شعوري بالكثير من التوتر، والمزيد من دفعات الأدرينالين، اكتست الغنـــيمة في ذاكـــرتي بصورة غير واقعية، أقرب إلى الحلم. ومع ذلك، فبينما كنت أفـــتح الحقيـــبة الآن، جـــثم أمامي الدليل المادي على ما اقترفته. كانت الخواتم، والأساور، والدبابيس ضخمة، مبهرجة وكانت الأحجار الكريمة جميعاً أصلية.

كانـــت أكثر القطع إثارة ساعة من طراز كارتييه مطعمة بنقش "مع حبي إلى فيلـــيس مـــن بـــوب هوب". في وقت لاحق ابتعت غطاء خلفيّاً شديداً للساعة، وصهرت القديم مع الذهب المأخوذ من قطع أخرى. كرهت فعل ذلك بشدة، ولا زلت نادماً عليه حتى الآن، ولكنني كنت في المقام الأول محترفاً، و لم أشأ أن يكون بحوزتي شيء يمكن التعرف عليه.

تـــصدرت السرقة عناوين الصفحات الأولى في الصحف الصادرة عصر اليوم التالي. كدت أختنق من تصريحات ديلر للشرطة - ولشركة التأمين التي تتبعها بلا شـــك - بأن المسروقات كانت تساوي ما يزيد على ربع مليون دولار، مما كان يعني على الأرجح أنها كانت بالفعل تقدّر بنصف هذه القيمة. وكانت الحقيقة أنني فتنت بالقطع، بيد أنني لم أقم حتى ولو بتقييم مبدئي لها، و لم يكن لديّ أدنى فكرة عـــن ارتفـــاع قيمتها إلى هذه الدرجة. تضاعفت صدمتي بشدة بعد ذلك عندما فحصت القطع بالتفصيل، واكتشفت أن ديلر قد قدّمت تقريراً دقيقاً، و لم تخادع في القـــيمة إطلاقاً. سوف تكون هذه إحدى المرات القليلة في حياتي المهنية التي يقدم فيها شخص سرقته تقريراً صادقاً. دعونا نواجه الأمر: إن الذين تتم سرقتهم بالفعل - عن طريقي أنا وضحاياي - هم شركات التأمين.

ومع ذلك، كان ما يمثل المزيد من الاهتمام المباشر بالنسبة لي هو أن الشرطة كانـــت تتـــسلل إلى جميع أرجاء هاي لاندر. قاموا بالتقصي الدقيق عن المكان، وساورني القليل من الشك في أنهم قد عثروا على الشخص، الذي كان يراقبني من قاعـــة الفندق. وعلى مدى الأيام القليلة التالية، كنت أدرس بإمعان كل طبعة من كل صحيفة، إذ كنت مقتنعاً أنه لن يمضي وقت طويل قبل أن أقرأ وصف مفصّل لنفسي. لم يحدث ذلك، ولكن القصة ظلت حية لفترة طويلة على أية حال، أطول بكـــثير ممـــا كـــان الأمـــر سيستغرق في مدينة كبرى. فلم يكن يحدث الكثير في كليفلاند، وكانت تلك أخبار عظمى.

بعـــد أن فـــرغت وسائل الإعلام تماماً من استنـــزاف هذه القصة، وبدأت الـــروايات تنفد، انتهى قلقي أنا الآخر. حتى إنني نجحت في الابتسام لما بدأ يصير علامـــة مسجلة لتغطية الصحافة لسرقاتي: افترض الجميع أن السرقة تمت على يد

"عصابة"، وكان يشار دائماً إلى "اللصوص" الذين قاموا بالسرقة.

تساءلت أيضاً عن مدى حكمة ديلر في ترك العديد من النفائس موضوعة بعشوائية في غرفة فندق. كانت سيدة شديدة الذكاء، لذا فقد خطر لي أنها ربما كانت تشعر بالحماية لمعرفتها أن المكان كانت تمتلكه عصابة، وكانت على الأرجح لا تدرك أن شخصاً (صديقك المخلص) قد سرق بالفعل خزينة هناك أمام أعينهم. بالطبع، لم تكن تلك السرقة شيئاً يعلمه الكثيرون خارج هاي لاندر. فلم يكن من المحتمل أن يدع أنجي الكبير الشرطة تعلم بالأمر، ولم يكن شيئاً يود الإعلان عنه.

على أية حال، فإن لديّ الآن غطاء أمنيّاً ماليّاً، وشعرت أنني كنت على بعد خطوة واحدة من الانتقال إلى فلوريدا الجنوبية.

* * *

كان ذلك الشعور بالأمان سابق لأوانه قليلاً. فعلى الرغم من أن الصحافة سرعان ما تناست أمر السرقة، إلا أن الشرطة لم تنسه. فقد كانوا مصرين بشدة على حل تلك القضية، وكان أحد الأشياء التي فعلوها عن يقين، بالإضافة إلى أملهم في ظهور من يخبر عن الأمر، مراقبة متاجر المسروقات المحلية بعناية في حالة ما إذا ظهرت أية قطعة من المسروقات.

لم يكن يساورني القلق بشأن المخبرين، حيث إنني كنت أعمل بمفردي، ولم يكن أحد يعلم أنني متورط في الأمر. مع ذلك، كانت متاجر المسروقات قصة أخرى، وقد قررت أنني لن أقلق بشأنها؛ لأن أي من المسروقات لن يظهر. فقد كنت لا أزال على رأس العمل، وأحصّل إيجار بشكل منتظم. لذا لم أكن في عجلة من أمري لبيع المسروقات. ومع تصميمي على ألا أقوم بأخطاء الهواة – من المؤكد أن ديلر قد أعطت الشرطة وصفاً تفصيلياً لكل قطعة، والذين قاموا بدورهم بإعلام كل مرهن، وصائغ في المنطقة بأسرها – أجبرت نفسي أن أتحلى بالصبر، وأؤجل أمر المسروقات.

مضى ما يقرب من عشر سنوات قبل أن أقرر أخيراً ما يمكن عمله بالمسروقات. أخذت بعضاً منها إلى متجر جواهر في طريق ماديسون في نيويورك،

وأعددت قصة مفصّلة بإبداع عن وقوعها في حوزتي. بيد أن أحداً لم يطرح سؤالاً واحداً عن خلفية القطع. عقب ترك المسروقات تحت الإيداع، داهمتني نوبة لحظية مـــن الفزع حينما رأيتها في اليوم التالي معروضة في مكان بارز في نافذة العرض، وتنفست الصعداء بارتياح عندما تم بيعها لمشتري أوروبي خاص بعد أسبوعين.

أكـــسبتني تلـــك التجربة جرأة بطريقة ما. ففي وقت لاحق، حينما صرت هارباً، ارتديت أفخر الثياب، وتجولت داخل كريستي، وهو أحد أكثر بيوت المزاد رقـــياً في العـــالم. مع اعتقادي أنه سيكون من قبيل المصادفة التامة أن تحضر ديلر المزاد، دخلت باسم "جون ويللينج"، وعرضت بعض القطع للمزايدة. لم يبد أحد اهـــتماماً بأصـــل الجواهر، بل إن أحداً لم يرمش حتى عندما سألوني إذا ما كنت أرغـــب في أن تلتقط صور للقطع، وتطبع إلى جانب النص في الكتالوج، وصحت بـــصوت مـــرتفع جـــداً "بالطبع لا" (ربما لم تحضر ديلر المزاد، ولكن من يعلم إن كانـــت، مـــثل العديـــدين، تحب أن تتصفح الكتالوج؟). وإنما كانوا أكثر توقاً للحصول على القطع والعمولات من أن يسألوني عن سبب رد فعلي القوي.

بمناسبة الحديث عن جون ويللينج...

حتى الآن، لا يعرف أحد أنني كنت من سطا على ديلر، رغم أن بعض الناس كانـــت لـــديهم شكوك. في إحدى ليالي الجمع، كانت مجموعة من الرجال الذين تخرجوا من مدرستي يتسكعون في إحدى الحانات في الجوار في شاكر هايتس تدعى ذا بلاس. كنت أشكل أنا وجون ويللينج - الحقيقي - فريقاً على مائدة البلياردو الوحـــيدة، وكنا نتولى أمر الكرة الثامنة لقاء دولار في اللعبة، وقدح من المشروب المفـــضل لكلينا. كنت أنا وهو صديقين حميمين منذ كنا في شاكر هايتس الثانوية معاً. وبعد ذلك بعدة سنوات، عندما صرت هارباً، كان يساعدني في صنع نسخة ثانية مـــن هويته - بما في ذلك رخصة القيادة، وجواز السفر، والبطاقات الائتمانية. أمكنني اســـتخدامها لتجـــنب السلطات الرسمية، كما استخدمتها أيضاً في مزاد المجوهرات في كريـــستي، وســـوثباي. كان جون متوسط البنية مثلي، ولكن شكل قسمات وجهه، الـــذي كان يشبه المطرب بيري كومو، كان أرق، ويكاد يشبه الأطفال، وكان يعلو وجهه أي تعبير إلا التهديد عند تقديم الرهانات على مائدة البلياردو.

ذات ليلة عقب السطو بثمانية عشر شهراً، غنمنا أنا وجون مكاسب ضخمة من ذا بلايس The Place، بالإضافة إلى أقداح المشروب المفضل التي كانت تقبع في انتظارنا. وفي غمرة السعادة الناتجة عن المكسب، جذبني جانباً، ووضع يده على كتفي، ثم قال: "عليَّ أن أسألك يا رجل: هل كنت الشخص الذي قام بالسطو على ديلر؟"

دعوت أن يكون ثملاً بشدة حتى لا يستشعر الصدمة التي سرت خلالي. كوني أصر بشدة على ممارسة السرقة بمفردي جعلني أتخذ قراراً بالاحتفاظ بهوايتي الصغيرة لنفسي. لم يكن ذلك لأنني كنت أفخر بذلك المستوى من التميز، ولكن كانت ببساطة الطريقة الأكثر يقيناً لحماية نفسي. وأما أن يسألني شخص ضاحك، ثمل سؤال كهذا ليس في الحسبان، وبعد مضي ثمانية عشر شهراً على السرقة، فقد كان ذلك بمثابة خيبة أمل كبيرة، وكنت في حاجة إلى بضع ثوانٍ لأتيقن من أنني كنت هادئاً قبل الإجابة.

كان هناك إغراء شديد كي أخبره؛ فقد كان صديقاً حميماً، وبات واضحاً أنه كانت هناك نبرة إعجاب وراء السؤال. لكن حتى في تلك الحالة من التشوش الذهني، نبهتني خطتي الدقيقة في الحفاظ على البقاء، وكأنها قائد آلي. قلت له ضاحكاً، وأنا أرفع ذراعه، وأتوجه إلى اللعبة الثانية: "لا بد من أنك تمزح. إن كنت قد فعلتها، فهل تظن أنني كنت سأمكث هنا، وألعب البلياردو مع أحمق حقير مثلك؟"

ضحك ثانية، ولكن خامرني إحساس ملح بأنه لم يصدقني، وأحسست بالسوء لمحاولة إقناعه أن حدسه كان خاطئاً.

كنت أيضاً قلقاً عما رآه في، وجعله يسألني عن السطو على ديلر في المقام الأول. كان يعلم أنني أتردد على هاي لاندر كثيراً. هل أعطيته بعض التلميحات دون اكتراث في محادثة عرضية عن أنني كنت على دراية، أو ينتابني الفضول بشأن مجالات أخرى للعمل تبعد كثيراً عن مجال العقارات؟

ولكن اكتشفت في وقت لاحق أن أخيه، بيل، كان لص بنوك، ثم صار الأمر واضحاً. عندما تقترب من هذه الحياة، تصير أكثر حساسية تجاه لغة أهل المهنة،

والتلميحات السلوكية لنوع خاص من العناية، والحذر - يكون لديك عدد ضخم من الإشارات غير المدركة، والتي تنبئك بأن شخصاً ما يخفي الكثير. كرهت أن أكذب عليه، ولكن قمت بهذه الفعلة من غير التعرض لعواقب سيئة، و لم لا؟ فقد خدعت زوجتي نفسها لعدة سنوات، ولقد صار الأمر وكأنه طبيعة ثانية فيّ.

اكتشف جون الحقيقة في النهاية، بالإضافة إلى ما هو أكثر من ذلك، بمرور الوقت، وبعد أن صار أخوه أحد الأشخاص القلائل الذين أئتمنهم على حياتي.

* * *

مثلما قلت لم يعرف أحد أن "العصابة" كانت أنا، عصابة من فرد واحد. لسوء الحظ، في السنوات التالية سرقت ديلر للمرة الثانية، ولكن تلك المرة لم تنتهِ على نحو جيد كسابقتها، بل في الحقيقة، تكاد تكون قد أتت على مهنتي.

ولكن ذلك كان في المستقبل البعيد، أما هنا في الوقت الحاضر، فقد منحني السطو على ديلر بعض الدروس القيمة بشأن أنماط حياة الطبقة الراقية، والمعدات اللازمة لسرقتها. ولماذا تزعج نفسك بالسطو على المشاهير في المقام الأول؟ عندما سئل ويلي ساتون عن سبب سرقته للبنوك، قال إنها المكان حيث يوجد المال. حسناً، إذن، فإن أماكن المشاهير والأثرياء هي حيث توجد الجواهر.

كانت من السهل تحديد الأهداف الجيدة؛ لأن المشاهير، وخاصة في مهن الترفيه، يعيشون حياة لا يكون التظاهر مقبولاً فيها فقط، بل متوقعاً ومؤيداً. فكل ما تحتاج إليه لتثبت ذلك هو مشاهدة خمس دقائق من إذاعة حفل جوائز الأوسكار.

المشكلة أن العالم مليء بالمجانين، ويستلزم الأمر واحداً فقط ليدمر يومك. كانت وفاة جون لينون المأساوية على يد مسلح مختل عقلياً تمثل نوعاً من نقطة التحول بالنسبة لأولئك الذين يعيشون في زهوة الدعاية. فإذا تم قتل شخص راقٍ، يدعو للسلام كهذا، فإن هذا يعني أنه ما من شخصية بارزة عامة آمنة. وفوق ذلك، فإنهم لم يكن لديهم أمل في توقع اتجاه ظهور الخطر. فلم يهاجم رونالد ريغان لأسباب سياسية؛ بل كان ذلك بسبب شخص غريب الأطوار يحاول التباهي أمام ممثلة لم يلقها حتى أبداً. من يمكنه توقع حدوث هذا؟ لذا اضطر المشاهير لاتخاذ إجراءات غير عادية لحماية أنفسهم.

ولكن قبل مصرع لينون بالرصاص عام 1980، لم يكن الأمن محكماً تماماً مثل ما هو الآن.

* * *

قبـيل انـتقالي مـن أوهايـو، كـان روبرت جوليت يؤدي عرضه في ميوزيكارنـيفال في كليفلاند، المكان نفسه الذي ظهرت به فيليس ديلر حينما سـرقتها أول مرة. كان يهوى ارتداء الكثير من الحلي الذهبية الثقيلة، وحجر بـراق، أو اثـنين. أحب أن أتمكن من إخبارك بقصة ساحرة عن سرقة شديدة الإبداع، والجرأة، ولكنني لا أستطيع؛ لأنها كانت سرقة سهلة، وكنت أحترف الأسلوب تماماً وقتها.

في الليلة التي تلت ليلة عرض جوليت الأخيرة، تبعت سيارته من مكان العرض إلى فندق بلو جراس، وهو المكان الذي كانت ديلر تحب تناول العشاء به. ركبت المـصعد معه، ورأيت أية غرفة كان يقطنها. عدت أدراجي الليلة التالية، وحصلت على أغراضه كلها. صراحة، لم يكن هناك الكثير، وأحسب أنه ارتداها كلها عندما كان يقدم عرضه.

بعـت المسروقات إلى شخص يدعى ريتشارد "بلوت" تومبا (سأخبرك المزيد عـنه لاحقـاً)، ولكني انتهكت واحدة من قواعدي الأساسية، واحتفظت بقطعة لنفسي؛ ساعة فضية من طراز سايكو، ذات مينا زرقاء، ليس بها شيء جذاب، أو غـالي الثمن بوجه خاص، لكنني أعجبت بها، ولبستها لعدة سنوات. حينما ذهبت إلى السجن في فلوريدا بعد ذلك ببضع سنوات، نسيت أن أخلعها قبل دخولي إلى الـسجن، واحـتفظ بهـا ضباط السجن داخل ظرف متعلقاتي الشخصية. حينما أعطوها لي بعد خمسة عشر شهراً، كانت لا تزال تعمل. حتى إنني فكرت كثيراً في الـتقدم إلى سـايكو بفكرة توقيع هذا المنتج الرائع ("حتى وأنا في السجن كانت تواصـل التكتكة، أو "لا تدق ثانية أكثر مما هي ملزمة به"). ظلت تعمل على نحو رائـع لمدة ثلاثين عاماً، حتى فقدتها في النهاية فقط في العام الماضي، حينما كنت أركب طوافة في النهر بصحبة أحفادي.

6

اعتلاء القمة

شاركتني باربارا حلم الانتقال إلى جنوب فلوريدا، فقد كرهت قضاء فصل الشتاء على وجه الخصوص في أوهايو؛ من حيث حمل الأولاد على ارتداء حلل الوقاية من الجليد، ثم نزعها عنهم عدة مرات في اليوم، والسير في الطين القذر، ومحو آثاره عن الأرضية، وارتداء ملابس تلائم الوقاية من الهواء الرطب الشديد البرودة لمجرد الخروج لشراء جريدة. لم أكن أنا الآخر يعجبني ذلك، وهو الأمر التي ينطبق على كل من يدير العقارات. فحماية المستأجرين من الشتاء القارص هي دائماً لعبة خاسرة. فلن يلحظك أحد إن خرجت لإزاحة الثلوج وتمهيد الأرض خلال نصف ساعة من انهمار الجليد، أما إن وجدت قطعاً ثلجية صغيرة الحجم بالممشى بمكان ما، فستتكبد مبلغاً طائلاً.

حينما قررنا الانتقال أخيراً، حاولت إدارة الشركة التي أعمل بها إغرائي بالبقاء مقابل عروض مالية مجزية. وعندما لم ينجح ذلك، سألوني إن كنت مهتماً بمعاونتهم في التعرف على الأملاك العقارية الممكن شرائها في فلوريدا، والتي سأتمكن عندئذ من تولي إدارتها. تمسكت بهذا العرض، وفي غضون الشهور القليلة التالية، أجريت العديد من رحلات العمل على نفقة الشركة لاستكشاف المنطقة لهم، ولي أنا وبارب أيضاً.

صحبت بارب معي في إحدى تلك الرحلات، وقمنا بالزيارة مع نورم وجاني تريب، اللذين كنا نعرفهما عندما كانا يقطنان في شاكر هايتس. لم يكف نورم،

الـــذي كـــان يعمل محامياً، عن الترنم بمناقب فلوريدا عامة، وجزر كورال ريدج بمنطقة فورت لوديرديل، حيث يقيمان، بوجه خاص. وفي وقت معين، عندما تمكننا مـــن التحدث على انفراد، أخبرناهما بأننا نـــزمع بالفعل الانتقال. كانا مغتبطين، وأصـــرا على اصطحابنا للشارع في الحال لرؤية جار لهم يدعى سام هايمن، والذي كان يبيع منـــزله. وكان قد انتقل من نيويورك، وعلى الرغم من أن زوجته أحبت فلوريدا ألا أنه كرهها.

صدم كلانا لدى رؤية شقة سام، ولكن جاني قالت: "لا تقلقا، فبغض النظر عن الطلاء، ستجدون المنـــزل جميلاً بحق".

وعلـــى الرغم من ذلك، فقد كان من العسير غض النظر عن الطلاء لتصور شـــكل المنـــزل عند إعادته إلى لونه الطبيعي. فقد كان لون المنـــزل من الخارج ورديـــاً، ولا أقصد لوناً رملياً شاحباً، أو مجرد لون وردي معتدل. إنني أتحدث عن اللـــون الـــوردي الذي يصدمك، وكذلك كل بوصة مربعة بالشقة. بدت كقطعة عملاقة من حلوى عيد الفصح، أو شيء لا تجده سوى في مدينة ديزني بجوار قلعة الجمـــيلة الـــنائمة. كـــان كـــل شيء بالداخل مطلياً باللون الأرجواني الفاتح، والبنفـــسجي، والمزيد من اللون الوردي، بما فيها الأسقف. لا عجب إذن أن يكره سام فلوريدا.

فيما عدا ذلك، فقد كان مكاناً جميلاً حقاً، يحوي ثلاث غرف نوم، وثلاث حمامـــات. وأبلغنا نورم وجاني، اللذان كان لديهما أبناء في مثل أعمار أبنائنا، أن الـــنظام الدراسي كان استثنائياً أيضاً، وأن المكان كان من أجمل المناطق في فورت لوديـــرديل. لم أعـــرف الكثير عن مواقع الأملاك العقارية في فلوريدا مثلما عرفت عنها في أوهايو، ولكن كنتيجة لجولاتي الاستكشافية عرفت ما يكفيني كي أقرر أن السعر المطلوب كان معقولاً.

بعـــد أن تجولنا حول المكان لبرهة، انتحى بي سام جانباً، وقال: "إن زوجتي خبيـــثة، ولن نحصل على ما يكفي لقاء الشقة، ولكنها تحاول فقط أن ترفع السعر، فـــإذا منحتني السعر المطلوب، سأعيد إليك عشرة آلاف فوراً. إنك تعمل بمضمار العقارات، لذا دعنا لا نخدع بعضنا. إنك تعلم أنها صفقة كبيرة".

غمغمت بشيء ما عن كيف أنها كانت بالفعل صفقة جيدة، بيد أنني لم أكن موقناً من أن بإمكاننا تكبد شرائها. أردف قائلاً: "لا يمكنك تكبد عدم شرائها. أنت تدري ما يجري هنا. إنهم يتوسعون، لذا يمكنك إعادة بيعها خلال عام وربح عشرة، أو عشرين ألفا". نظر حوله، وارتجف قائلاً: "فور تخلصك من هذا الطلاء اللعين"، ثم دفع بالمفاتيح في يدي، وأبلغني أنه سيعود أدراجه إلى نيويورك لمدة أسبوع. "انظر إليها ملياً أنت وزوجتك قدر ما تريدان".

ذهبت أنا وبارب إلى المنزل ثلاث أو أربع مرات خلال هذا الأسبوع، وفي الزيارة الأخيرة تطارحنا الغرام على الأريكة في غرفة المعيشة. بعد ذلك قلت: "لنشترها، لنتصل بـ سام الآن، لأننا لو رأينا تلك الألوان البشعة مرة أخرى، فربما نعدل عن رأينا، وهي صفقة جيدة جداً لنفوتها".

وافقت بارب، واتصلت بـ سام من مطبخه، وقلت له: "استرد الرهنية، وسوف نعقد الصفقة".

يمكنك سماع نبرة الارتياح في صوته من على بعد ألف وخمسمائة ميل، وهو يقول: "اتفقنا! سأطلب من المحامي الخاص بي جمع المستندات فوراً. ولكنه اتفاق، أليس كذلك؟" أكدت له أننا كنا نعني هذا.

عدت أنا وبارب إلى كليفلاند لإعداد ترتيبات بيع شقتنا هناك، واتصل بنا نورم ليبلغنا أن سام أخلى المنزل بالفعل، وكان هذا بعد أسبوع من اتفاقنا الشفهي، قبل توقيع أية مستندات. لست ألومه، فلا أتخيل كيف أمكنه الإقامة به طويلاً.

قمنا برحلات عديدة ممتدة إلى فلوريدا خلال الشهور القليلة التالية. وقمنا بطلاء الشقة بأنفسنا، وأضفت غرفة نوم رابعة. كان بالمنزل بركة سباحة منعزلة، كنا دائما نستمتع بالغوص فيها قبيل العشاء بعد قضاء يوم عمل شاق.

وجدت أيضاً مجمعاً سكنيّاً يحوي مائتي وحدة سكنية للبيع في جزر باي هاربور شمال شاطئ ميامي. وقد أقبل الناس الذي عملت لحسابهم في كليفلاند لإلقاء نظرة على المكان، وأعجبهم ما رأوه. أجرينا ترتيبات للشروع في إنشاء شركة أخرى، ثم ابتاعوا المكان وتم تأجير مكتب لي في فورت لوديرديل. كان كل

شـــيء يسير على ما يرام في المكان، وقبل مضي وقت طويل، ودعنا أعلى الشمال بأسى وانتقلنا إلى منــــزلنا "الجديد". وسرعان ما تعرفنا على الجيران، حتى قبل أن يعرفونا، لأنهم كانوا ممتنين للغاية إذ خلصنا الشارع من ذلك المنظر المؤذي للعين، والمثير للغثيان.

* * *

تلاءمـــنا تمامـــاً مع نمط الحياة بضواحي كورال ريدج، وكانت بالفعل جيرة رائعـــة، تزخـــر بالعديد من الأطفال من مختلف الأعمار، الذين يركضون في كافة أرجـــاء المكـــان. وكانت إيفل كنيفل تقيم بوسط الشارع، بينما كان جو ناماث يقطن بالعمارة التالية.

قبيل انتقالنا، كان المنـــزل الواقع قبالة الشارع قد تم بيعه لشرطي متقاعد من نـــيويورك وزوجـــته. كـــان شاك وجين شخصين رائعين، وكان شاك على وجه الخـــصوص مولعاً بالدعابات السمجة حقاً، لذا لم يمر وقتاً طويلاً حتى شرعنا أنا، وســـوزي، ومارك في ممارسة أنواع الدعابات السمجة جميعها عليهما. كان ولدانا في الثامنة والعاشرة من عمرهما فقط (كانت لورا قد بلغت عامين بالكاد، ولم تكن لتـــستوعب المـــتعة والألعاب) ومع ذلك، كانت لديهما مهارة المداعبين المحنكين، والـــتي تمكـــنهما مـــن الإتيان بالحيل الرائعة المجنونة، مع وجود أب مستعد دائماً للمـــساعدة في تخليـــصهما من عواقبها. كانت أفضل دعابة عندما اهتديت لبعض ورق الجـــرائد الذي كان يباع بإحدى المزادات. كان عبارة عن لفافة من الورق بارتفاع ست أقدام (180 سم)، وبطول يبلغ حوالى ميلٍ. وفي إحدى عطلات نهاية الأســـبوع التي كان شاك وجين يقضيانها خارج المدينة، لففنا المنـــزل كله بورق الجرائد، ولم نترك سوى هوائي التلفزيون بارزاً من فوق السطح. كانت مراقبتهما يعـــودان مساء الأحد تثير الضحك الجنوني، لكنهما أدركا على الفور من قام بهذه الدعابـــة. لمجـــرد الضحك والمزاح، تركا المنـــزل على هذه الحال ليومين، ريثما حـــضرت إدارة مكافحة الحرائق، وأجبرتهما على نـــزع الورق كله. كانوا على حق أيضاً: فشرارة واحدة كانت كفيلة بإبادة المكان عن آخره. صار شاك وجين أصدقاء مقربين خلال العامين التاليين.

كان أولاد الجيران يتسكعون حول منــزلنا طوال الوقت، لأن أولادنا كانوا دومــاً بالخارج، ولطالما كنت ألهو مع المجموعة كلها كل مساء تقريباً. كان هناك القليل من السيارات التي تمر بالطريق، لذا تمكنا من لعب البيسبول، ولعبة الاختباء، كمــا لعبــنا لعــبة لمس كرة القدم كثيراً، وكان ذلك يعتمد على ما إذا كان من تــصادف وجــودهم في المكان أطفال كبار أم صغار، وكنا نعدل قواعد اللعب، بحــيث يــتمكن الجميع من اللعب. كانت لورا صغيرة جداً لتشارك بنفسها، لذا حينما كان فريقي يمسك بالكرة، كنا نعطيها إياها، ثم أحملها فوق كتفي وأعدو بها في ســاحة اللعــب فيصيح جميع من بالفريق الآخر احتجاجاً، لأنها كانت مرتفعة جداً، ولم يكن لمسي أنا فقط يحتسب. كانت بارب تشاركنا بين الحين والآخر إن كنا نلعب لعبة تحبها. وكان الأطفال يحبون أيضاً اللعب بحبل كنت أدليه من شجرة في الفــناء الخلفــي. وكــنت دائماً ما أعلق هذا الحبل أينما أقمت، وأجعله هدفاً للتسلق والهبوط مرات عديدة في اليوم مستعيناً بذراعي فقط، وكان الأطفال يحبون التسلق على ظهري بينما أزاول تلك اللعبة، مما يزيد من مشقة التمرين.

كــان صديقي بيل ويللينج هو البالغ الوحيد الآخر الذي كان يشارك بانتظام في مــشاركتنا اللعــب بانتظام، والذي كان قد شرع وقتئذ في قضاء الشتاء في فلوريدا، وكــان زائراً مستديماً لمنــزلنا برفقة شقيقه جون. كان ويللينج ضخم الجثة كالدب، ومفــتول العــضلات - يخطر على بالك "سائق شاحنة إيرلندي" عندما أقول هذا - وأحــياناً عندما يكون هناك أطفال في الفريق الآخر كبار بما يكفي للمس لورا، حتى وهي فوق كتفي، كان ويللينج يحملنا كلينا، فلا يتسنى لأحد لمسها.

لم يكن هناك الكثير من الإثارة في منطقتنا الصغيرة، لذا فعندما يحدث شيء، كان يجذب انتباهنا. في صباح يوم أحد، تناهى إلى مسامعي صوت زجاج يتحطم. في الــبداية، ظننت أن كرة بيسبول قد ارتطمت بإحدى النوافذ، ولكن بعد ذلك ببضع ثوان، كان هناك صوت تحطم آخر، لذا خرجت لإلقاء نظرة. كان شاك قد سمع هذا الصوت أيضاً، وكان بالفعل على الرصيف. وعندما رآني، أشار إلى أحد الشوارع، حيث وقف شخص ما يضرب سيارة مرسيدس بمضرب بيسبول. طفق يــضربها المرة تلو الأخرى، فحطم زجاجها، وأحدث فجوات في الغطاء والسقف،

وحاول أن يسقط حواجز العجلات. عرفت الشخص، على الرغم أن معرفتي به لم تتعدَّ التلويح بالتحية العابرة. كان في حارة القيادة الخاصة به، وقد أبصرت السيارة هــناك من قبل أيضاً. وبعد أن حضرت الشرطة، وهدأت من روعه، أبلغونا أنه لم يكــن بوسعهم فعل الكثير. كانت سيارة زوجته، لكنها مسجلة باسمه، وإن رغب في تحطــيمها، فــذلك كان شأنه فقط. وعلى الرغم من أن هذا كان مثار حديث الجيرة كلها لأسابيع، لنواجه الأمر، فلم تكن القصة ذات بال بالفعل. وإنما أذكرها فقط؛ لأنه بعد انقضاء بضع سنوات كان لديّ مبرر لتذكرها.

في أواخر ذلك العام، ابتعنا قارباً وأمضينا الكثير من أوقات بعد الظهيرة نقطع الــشريط الداخلي للساحل جيئة وذهاباً، ونغامر بالإبحار داخل المحيط للصيد. وفي العطــلات الأسبوعية الطويلة، كنا نذهب إلى جزر كيز، أو جزر الباهاما، وكنت أذهب أنا، وبيل، وجون ويللينج في رحلات غوص لدى تواجدهم بالمدينة.

لم يكن من أحد منا نحن الناضجين يخدع نفسه بالقول بأن كل شيء على ما يرام في جنوب فلوريدا خارج نطاق جيرتنا الصغيرة الآمنة. كان استخدام العقاقير المنشطة قد شاع استخدامه في الولايات المتحدة بعد عرض فيلم "صيف الحب" عام 1967، وأضــحى الــشاطئ الشرقي لشبه جزيرة فلوريدا منفذ الدخول الأساسي للبضائع المستوردة من المكسيك، ووسط، وجنوب أميركا. وكانت الشحنات غير الــشرعية التي تنتقل عبر الساحل تسقط بالات من تلك العقاقير إلى قوارب سريعة يــتم إطلاقهــا مــن الشاطئ لالتقاطها. كانت قوة مكافحة المخدرات الفدرالية تطــاردهم طوال الوقت، وقد ألقوا القبض على القليل من المهربين بشكل عرضي. وفي العديــد مــن الحالات، كانت القوارب التي تلتقط العقاقير تقوم بإغراقها من جانــب القــارب، إذا كانــت السلطات شديدة القرب منهم. وكانت لفافات الماريجــوانا، والكوكايين، والحشيش تلقى على الشاطئ طيلة الوقت. وكان الناس الــذين يذهــبون لصيد الأسماك يتطلعون لنيل "بالة السمك"، أو بالات المخدرات الجامحــة في المــياه. وأحياناً ما كانت تسلّم إلى السلطات، ولا سيما إن كان شيئاً يقــاوم الضغط بشدة كالهيروين. أما كمية الماريجوانا التي كانت تسلّم إلى الشرطة فقد كانت، كما قيل لي، تدنو من الصفر.



أنا وبيل ويللينغ (على اليمين) في كنتيمرا

كانت هناك أشياء ممتعة ومبهجة في تجارة المخدرات، على الأقل من مدى بعيد، وفي حالة استرجاع ما مضى، لكن عن كثب، ومن ناحية شخصية لم يكن لها شيء ممتع على الإطلاق. فقد كان تجار الكوكايين يتبادلون اطلاق النار طيلة الوقت، أحياناً في مراكز التسوق، وأماكن أخرى تكتظ بمتفرجين أبرياء. و لم يكن مروجو المخدرات يبالون بمن يعترض سبيلهم متى استولى العنف على زمام الأمور؛ فقد كان هناك الكثير من المال في هذه التجارة، ويمكن للمال الكثير أن يحول الناس إلى وحوش. فما هو الأكثر فزعاً من إنسان بلا ضمير. وقد كان جنوب فلوريدا يزخر بهم.

أمضيت معظم العام الأول هناك أعمل في المنزل، وأدير العقارات التي كنت أتولى أمرها، وأبحث عن بعض العقارات الأخرى التي يمكن للشركة في كليفلاند شراؤها. كانت حياة مبهجة، فقد كانت ماري والأطفال سعداء للغاية بكونهم هناك، وقد أحببت ذلك أيضاً.

وكما هو طبيعي بالنسبة لي، أخذت أبحث عن طريقة للفتك بهذا كله.

كان هناك شيء ما يجذبني في تلك المباني الفخمة المتعددة الطوابق الواقعة على الشاطئ، وبعد عام من السطو على أوزي وهارييت، صرت مؤرقاً، ولكن ليس بما يكفي لإنجاز عملية كاملة تبدأ بتوقع غير متحمس. كنت أحتاج إلى فرصة تأتي على طبق من فضة، بل وتسقط أمامي بالفعل كي أعود إلى سابق عهدي.

كانت جارتي ناثا ليزلي، التي تقطن بجوار شاك، الشرطي المتقاعد، ميسورة الحال تماماً، وكانت تقضي معظم وقتها في تدعيم روابطها الاجتماعية مع كافة أنماط المشاهير. اتفقت أنا وهي تماماً، وعندما اكتشفت مهارتي اليدوية، كانت تعهد إليّ بتصليح أشياء صغيرة لها طيلة الوقت. لم أكن أمانع ذلك، وقد أتاحت لي الفرصة بين الحين والآخر للاقتراب من معارفها الأثرياء، والذي كان ضرباً من المتعة بالنسبة إليّ.

كانت صديقة حميمة لـ جوني ويسمولر، وزوجته ماريا. وعلى الرغم من أن إنجازاته التي حققت له الشهرة كانت قد مضى عليها وقت طويل، إلا أن ويسمولر لم يعد قادراً على احتمال عدم وجوده في دائرة الضوء كما كان. كان متباهياً إلى حدٍّ ما، وأحب أن يكون معروفاً، وكان بارعاً في حملهم على التقاط صور له. حتى إنه كان يقف أحياناً في حديقة تاتا، ويطلق صيحة طرزان الشهيرة، مما يبهج الأولاد في الجيرة، والذين اعتادوا مشاهدة تلك الأفلام في التلفزيون صباح كل سبت.

كان هو وزوجته يرتديان الكثير من المجوهرات.

أحسب أنه كان يجب أن أغض النظر عن هذا الأمر - لسبب واحد، كان من المحتم أن يثير خبر السطو على طرزان ضجة إعلامية كبرى - لكني لم أغض النظر. كنت دائماً أظن نفسي حذراً، ودقيق الحسابات، على الرغم من أن حرفتي كانت إثارة أكثر منها عملاً، لكن حتى هذا اليوم، لست موقناً من قدر تلك الغنيمة الذي سيؤكد على أن فكرة سلب طرزان، وزوجته جين هي فكرة رائعة. درست الأمر بشكل عقلاني، ووجدت أنها ستكون غنيمة جيدة، وأن وسائل الأمان ستكون بسيطة، لأنني افترضت أن شخصاً من نوع ويسمولر سوف يكون من العسير عليه أن يصدق أن شخصاً قد يجرؤ على سرقته. وكنت قد حسمت أمري قبلاً بأنني لن أتابع هذه المهمة إذا ما بدا أنها تحتاج إلى جهود طويلة مكثفة.

كـــان ويسمولر يقيم في أقصى شمال نادي البلدة في كورال ريدج، بالطابق الـــثالث مـــن منـــــزل صغير. ومن حسن الحظ أن رواقه كان يطل على ساحة الغولف. أتساءل إن كان الناس الذين تطل منازلهم على تلك المناظر المرغوبة بشدة يدركـــون كـــيف تجعلهم أهدافاً سهلة. إن ساحات الغولف تكون دامسة الظلمة لـــيلاً، ليس فقط لعدم وجود مبرر لإنارها، ولكن لأن مساحتها تبلغ بضع مئات الأكرات، ويتسلل إليها ضوء خافت من الإعلانات التجارية البعيدة. وتكون تلك الأكـــرات مهجورة تماماً، لعدم إمكانية اللعب فيها بعد مغيب الشمس. إنها تقريباً الخطة النموذجية التي يرغب بها اللص – إنها تغطيك بشكل ممتاز، بحيث يمكنك أن تعد لغزو عسكري صغير فيها دون أن يتبين أحد حقيقة الأمر.

بـــدا لي وكأنه سيكون من اليسير أن أتسلق إحدى زوايا المبنى، ثم أسير من رواق إلى آخر ريثما أصل إلى رواق ويسمولر. كانت مجرد مسألة التيقن من عدم وجـــود أحد في مجموعة الشقق المعنية، وكان ذلك يسيراً أيضاً، فكل ما كان عليَّ فعله هو التجول بساحة الغولف، ومراقبة الأنوار الداخلية. ويتمم الأمر كله وجود ســـاحة إيقـــاف ســـيارات ممتازة. كان الشارع التجاري على بعد ما يقرب من خمـــسمائة قـــدم فقط (150 متراً)، ولأنه كان طريقاً عاماً هائلاً، فلم تكن هناك سيارة واحدة في غير مكانها وبالتالي مُلاحَظة.

لا تـــضحك: فـــبعد أن تـــتولى أمر الأدوات المهمة، والملابس، والحركات البهلوانـــية، فمـــا زال عليك أن تهتم بالمكان الذي ستوقف فيه سيارتك، وما إن كانت ستلفت الأنظار، وما إن كنت ستتمكن من إحضار أدواتك منها، ثم تعيدها إلـــيها دون أن تثير الشك. إن الخروج بأمان هو رقم واحد في أولويات التخطيط، ويأتي في المقام الثاني الفرار ببعض الأشياء الجديرة بالسلب إلى مكان بعيد.

استغرقت بضع ليال في الجلوس بساحة الغولف لمعرفة من كان بالبيت، ومن كان خارج المدينة، وبالتالي، من كان يخرج لقضاء الأمسية فقط إن كانت الأنوار مطفـــأة. مـــرّ الـــوقت، وحلّت ليلة السبت، وكنت متأهباً. ملأت حقيبة الظهر بالأدوات الملائمة لفتح باب الرواق بالعتلة، وتعطيل جهاز الإنذار، أو تجنبه، وشق طريقـــي إلى الخـــزينة الصغيرة. قبعت بساحة الغولف لما يقرب من تسعين دقيقة،

ريثما تيقنت من خلو الطريق المؤدية إلى أروقة الوحدات غير المسكونة. ثم تسلقت الجـــدار، وما لبثت أن وصلت إلى شقة ويسمولر. لم أعد أدهش من رؤية الأبواب الخارجـــية وقد تركت مفتوحة، كما تعلمت أيضاً أن من ترك الباب مفتوحاً، لن يزعج نفسه بتفعيل أجهزة الإنذار. وعلى ذلك، فتحت الباب بسهولة وسرت إلى الداخل.

كان الظلام يسود بالداخل، ولكن لم يستغرق الأمر أكثر من دقيقتين لتحديد موقـــع صندوق المجوهرات العادي للغاية في غرفة النوم باستخدام المصباح اليدوي. أفرغت محتوياته بأكملها داخل حقيبتي، فوق الأدوات التي لم أستعن بها. و لم تكن قد مرّت خمس عشرة دقيقة على دخولي الشقة عندما كنت في سيارتي ثانية، وبعد ذلك بعشر دقائق كنت أودع الغنيمة في مكتبي. لم أتح لنفسي وقتاً لتفحصها لأنني رغبت في الوصول إلى البيت، كي لا تتساءل باربارا عما كنت أفعله.

* * *

لم تكـــن بالغنيمة الهائلة، فربما تصل قيمتها إلى أربعين ألف دولار، إن كان مشتري المسروقات بلوت تومبا يشعر بالسخاء والكرم، ولكنه لم يكن كذلك قط. ومع ذلك، فإن القيمة النقدية تتراجع إذا ما قورنت بما وجدته في قاع كومة الحلي البراقة التي أودعتها سريعاً في الحقيبة.

فقد كانت هناك ميدالية أولمبية ذهبية.

علمـــت من الصحف في اليوم التالي أن ويسمولر كان قد فاز بها لقطع مسافة أربعمائة متر في سباق السباحة الحرة في دورة الألعاب الأولمبية، التي عقدت في باريس عام 1924. وكانت واحدة من ثلاث ميداليات ذهبية فاز بها في ذلك العام، كما أنها واحدة من ضمن الخمس ميداليات التي حصل عليها في المجمل من دورتين أولمبيتين.

لم أمسك بيدي أبداً ميدالية مثلها، بل و لم أبصر قط واحدة عن كثب. كنت مسحوراً بها، كما لم أكن بأي جوهرة من قبل، على الرغم من أنني حظيت ببعض القطـــع الـــرائعة. فقـــد بدا وكأنها تحمل معها تاريخها الخاص، وقد راودني هذا الإحـــساس المثير للخوف فعلاً بأن هناك من يرقبها دون علمي. انفجرت بداخلي أنواع الأحاسيس كلها التي أجد صعوبة في تصنيفها، وبعد ما يقرب من دقيقتين لم

أحرك فيهما ساكناً، اعتراني إحساس فظيع لاستيلائي عليها، على الرغم من أنني لم أقصد ذلك. فلم تكن تعني لي شيئاً - لسبب واحد، فقد كانت قيمتها النقدية لا تساوي شيئاً، رغم جاذبيتها الواضحة، فمن المستحيل بيع شيء كهذا - ولكنها كانت تعني العالم كله بالنسبة لـ ويسمولر.

على الرغم من مدى الألم النفسي الذي سببته السرقة لـ ويسمولر، لم يستطع الصحفيون منع أنفسهم من محاولة التفكر في كيفية قيام شخص بالسطو بأسلوب طرزاني على طرزان نفسه. واقترحوا أن تبحث الشرطة عن الأحبال المتدلية التي لا بد من أن يكون اللص قد تأرجح عليها، أو ربما قام شمبانزي بالسطو... وغيرها من سلسلة النكات، والتكهنات غير المرضية.

شعرت بأسف شديد لم أشعر به من قبل خلال عملي كلص. ورغم أنني وددت أن أعيد إليه الميدالية، فلم أشأ أن أخاطر بفعل ذلك، بيد أنني لم أستطع التخلص من الإحساس السيئ الذي استبد بي.

بعد حوالى شهر ذهبت إلى كليفلاند لبيع المجوهرات إلى بلوت. وكانت فترة قصيرة جداً حتى إنني لم أشعر بالراحة خلالها، ولكن طالما لم يكن هناك قطع مبهرة في الغنيمة، ظننت أنه سيكون أكثر أماناً بالنسبة لي أن أتخلص منها سريعاً.

خططت للرحلة بحيث يتعين عليَّ أن أبدل الطائرة في أطلنطا. قبل أن أغادر، وضعت الميدالية في صندوق ولففتها بعناية، وتأكدت من محو آثار البصمات عن كل شيء. أودعت اللفافة في صندوق بريد في مطار أطلنطا، وشعرت بالتحسن بعد أن قرأت في الصحف أن جوني قد تسلم ميداليته.

ولا سيما بعد قراءة الشق الخاص بامتنانه للصوص.

* * *

كانت أول مرة لاحظت فيها إليزابيث بندر في الصفحات الاجتماعية بصحف فورت لوديرديل. كانت ضمن قائمة العشرة الأكثر أناقة، بيد أنني لا أتذكر مدى اتساع المنطقة الجغرافية التي شملت هذا التقييم. ولكن ذلك لم يكن مهماً بالفعل؛ لأن العشرة الأكثر أناقة في فورت لوديرديل كن مثل العشرة الأكثر ثراء في بيفرلي هيلز: فقد كنّ في القمة أياً كان من يقارن بهنّ.

كـــان ما جذبني إلى بندر أنها كانت أكبر سناً من الأخريات بالقائمة. وكان ذلـــك يعـــني بالنـــسبة لي أنها كان لديها المزيد من الوقت لتجميع النفائس خلال حـــياتها. عندما أبصرت في ملحوظة أنها ستحضر غداء في فندق باهيا مار خاص بالعشرة الأنيقات، قررت أنه قد يكون من المجدي إلقاء نظرة سريعة.

انتظرت في ردهة الفندق، الذي كان مليئاً بمتفرجين آخرين، وعندما وصلت بـــندر، لم تكن ترتدي الكثير من الحلي. وبدت لي أكثر رقياً من أن ترتدي حلياً لامعـــة نهاراً، ولكن لم يكن هناك من شك في ذهني في أن تلك المرأة تمتلك بعض الجواهر الرائعة. وعلى مدار الأسابيع القليلة التالية، شاهدت صوراً لها في العديد من الحفـــلات الخيرية، وعلى الرغم من أنها لم ترتدِ قط عدداً كبيراً من الحلي، إلا أنها كانت ترتدي قطعاً مختلفة في كل صورة.

كان مدرجاً بدليل الهاتف أنها تقيم بـــ جالت أوشن مايل في لوديرديل على البحر. كان اسم المبنى هو فاونتين هيد، وكان مبنى شهير، مؤمن، يتكون من سبعة عـــشر طابقاً تطل على البحر، وتقع قبالة الشريط الداخلي للساحل الذي يمر عند نادي البلدة في كورال ريدج.

كـــنت في حاجـــة لأن أجد عنصراً واحداً في المكان يجعل هذه الفرصة جديرة بالاستمرار في القيام بها. حبست أنفاسي وأنا أفتح دليل المدينة الذي أثق به، ثم تنفست الصعداء برضاء وارتياح عندما قرأت رقم الجناح الذي تعيش به: بنتهاوس. ج. الطابق العلوي.

* * *

لا شـــيء يـــأتي لصالح السارق أكثر من شعور الناس بالأمان. لهذا فإن أيسر الأمـــاكن ســـرقة، هي تلك المدعومة بالعديد من أجهزة الإنذار، والمحاطة بحراس الأمـــن. أمـــا أكثـــر العناصر أهمية في الأمن - أكثر أهمية من الأقفال، أو أجهزة الإنـــذار، أو أجهـــزة الاستشعار، أو الحراس المسلحين - فهو وضع الناس. فالمبنى الذي لا تتم حمايته بأكثر من قفل رخيص مزود بقرص أرقام، ولكن يسكنه أناس يقظـــون، على وعي بالمخاطر، يكون أكثر أمناً من مبنى آخر مدعم بأكثر أنظمة الإنذار تعقيداً في العالم، ويفترض مستأجريه أنهم يقيمون بقلعة حصينة.

بـدأت أسـتوعب أن هناك شيئاً ما في الارتفاع يعطي الناس إحساساً بالأمان. لاحظت هذا أولاً حينما توليت إدارة بعض المباني التي يزيد ارتفاعها عن ثمانية أو تسعة طوابق. فليس مجرد تعبير مجازي أن يقول قاطنو الأدوار العليا أنهم يشعرون بأنهم فوق الجميع. وهم كذلك بالفعل، وحينما تفكر في الأمر، تجد أنك كلما ارتفعت لأعلى، قلـت طرق الدخول التي تصلك ببقية العالم. إنها ليست بوجهة نظر غير منطقية على الاطـلاق أن ليس هناك من سبيل، بغض النظر عن الدرج والمصعد، لأن يصل إليك أحد، وكان عليَّ أن أستغل ذلك الشعور بالرضا عدة مرات.

قمت بعدد من الجولات التفقدية لمبنى فاونتن هيد على مدى الأسابيع القليلة التالية، وقررت أنه من المباني ذات المستوى المرتفع (أقصد ذلك حقيقة دون تورية) مـن ناحـية الأمتار، والمنخفض من ناحية وضع السكان. كان هناك العديد من الوسائل الأمنية الواضحة للعيان، بما في ذلك الكاميرات المنتشرة في أرجاء المكان، ووجـود البوابين، وحراس الأمن على مدى أربع وعشرين ساعة. كما ساد أيضاً جـو من "ما الذي يمكن أن يحدث؟" والذي كان لا يخطئ بالطريقة الارتجالية التي كان المستأجرون يعاملون بها الحراس، كما لو كانوا سعاة أو خدماً لا رجال أمن محترفين. كان أسلوب أشبه بوجهة نظر ركاب الطائرة حيال المضيفين، كما لو أن وظيفـتهم الأساسية هي تقديم الشراب، والمكسرات بدلاً من الوظيفة الفعلية، ألا وهي إنقاذ حياتك في حالات الطوارئ.

وحـتى مـع التواجد الطفيف لأولئك البوابين والحراس جميعهم فإنه لا يزال يشكل تحدياً لدخول المكان، ولا سيما خلال الليل، حينما يكون الطريق خالياً إلا من القليل من المارة. كان هناك جدار منحدر على ضفاف الشاطئ المجاور للمبنى، يـبلغ ارتفاعـه حوالى أربعين قدماً (12 متراً)، وبه ارتداد يشكل سطح المسبح. (خفـضت عمليات بناء الشاطئ على مدى سنوات من منسوبه بشكل ملحوظ). ومن شأن هذا الارتداد أن يجعل تسلق المبنى أمراً عسيراً، وليس هذا فقط، بل لقد كـان مـرئياً للـوحدات الخلفية للمبنى، كما هو الحال لأي متجول على طول الشاطئ. كان من الممكن إنجاز هذه العملية، لكن كان يجب أن أدخل المبنى لإلقاء نظرة مفصلة، قبل أن أحدد بالضبط كيفية القيام بها.

تـــريثت حتى ظهر إعلان عن شقة للبيع في الصحيفة، ثم حددت موعداً مع وكـــيلة الأمـــلاك العقاريـــة. ارتديت أفضل حلة لديّ لأيام الآحاد، ثم حضرت، وأوضـــحت لها أنني كنت أتطلع لشراء مكان منعزل لأبوي، اللذين سينتقلان من الشمال الشرقي. تأثرت الوكيلة بامتلاكي مالاً وفيراً لأكون بهذا السخاء العرضي، تشبثت بي كسمكة رامورا، راغبة في أن ترضيني بأي شكل.

حاولـــت أن أبـــدو غير مبالٍ بينما تعدد مآثر المبنى وخدماته - المسبح، وســـلامة البـــناء، والنوعية الجيدةً للمستأجرين الآخرين... وشأن العديد من مندوبي البيع الذين لا يملكون الكثير من المهارة في مهنتهم، ذكرت عدداً هائلاً مـــن الافتراضـــات عمـــا سأعده من الأمور المهمة، ولم تفكر قط ببساطة أن تسألني.

ثرثرت حول المناظر المذهلة، وهو شيء أراه بنفسي، والقرميد الرائع بالمطبخ، والذي أمكنني رؤيته بنفسي أيضاً - ما شأن سماسرة العقارات أولئك الذين يبدون مجبرين على أن يصفوا بكل فخر، وبالتفصيل ما تتطلع إليه بالفعل؟

انتظـــرت ريثما صرت موقناً أنها شعرت بأنني أفقد الاهتمام. ثم قلت لها آملاً أن تفهـــم أنـــني لم أهتم كثيراً بدورة المياه "الفاخرة"، والغرف الواسعة "المذهلة": "لأصدقك القول، فإن اهتمامي الوحيد هو الأمن الجيد لوالدي".

أطلقـــت صـــيحة ارتـــياح، ثم طفقت تقول: "أوه، إنه أكثر الأنظمة تعقيداً وحداثة! فهو يحوي الموجات فوق الصوتية، والأشعة تحت الحمراء و...".

ولكـــنني كنت أهز رأسي، محاولاً تصنع الوجوم، وأنا أقول: "بطريقة ما، لا يـــبدو لي علـــى درجـــة الأمان نفسها التي تتمتع بها بعض الأماكن الأخرى التي شاهدتها. فقد أخبروني عن تلك الأنظمة الحديثة كلها ورجال الأمن...".

وكـــأنني قـــد فتحت البوابة لسيل متدفق. فقد أخبرتني الوكيلة، التي كانت لدهشتي خبيرة بهذه الأمور، بالضبط عن عدد الحراس العاملين في المبنى، وكم منهم يوجد في كل نوبة، بل وأخبرتني بالإجراءات التي يتبعونها، وصولاً إلى كيفية قيامهم بفحص الأدوار كل على حدة، وفقاً لجدول محدد، بالإضافة إلى التجول على نحو عـــشوائي حـــول المبنى. كانوا يستخدمون نظام توقيت، يقوم فيه الحارس المناوب

بإدخـــال مفتاح في عدة محطات حول المبنى، ليثبت أنه قام بجولاته، ولإعداد سجل عن أماكن تواجده. ووصفت لي الوكيلة كيف أن كاميرات المراقبة جميعها متصلة بنظام تسجيل مركزي، وأنواع أجهزة الاستشعار التي ترصد الأبواب، وكيف أن الـــسيارات، والممرات الداخلية كانت مؤمنة داخل مرآب تحت الأرض. ذهبنا في جـــولة أوضحت خلالها فعلياً كل كاميرا في المكان، بما في ذلك الكاميرات الثلاثة على سطح المسبح. كنت قد بدأت أتساءل إذا ما كان يجب عليَّ أن أعطيها قطعة مما سأحصل عليه في هذه الغنيمة.

لاحظت ثلاث نوافذ مغطاة بسلك سميك بالقرب من المسبح، بأسفل الجدار. قالـــت الوكـــيلة أنهـــا غرفة خزانات المياه الساخنة. لم أشأ أن أبدو مهتماً للغاية، ولكـــنني تمكنت من إلقاء نظرة خاطفة. كانت النوافذ بأعلى غرفة ضخمة بارتفاع طابقين.

شـــرعت في الإيماء حتى تستمر الوكيلة في الثرثرة، بينما أتفحص الكاميرات الموجـــودة على جانب المسبح، والتي كانت مثبتة في مكانها، وبدا أن هناك منطقة فقـــدت الاهـــتمام بالقـــرب من قمة الجدار المنحدر، وتدنو تماماً من نوافذ غرفة الخزانات. وعلى الرغم من ذلك، فقد كانت منطقة محكمة، و لم تكن محطة الحراسة تـــبعد عنها كثيراً. كما كانت هناك محطة توقيت تقع على المسبح أيضاً، مما كان يعني أن المنطقة كانت جزءاً من جدول الدوريات المحددة.

حينما عدنا إلى الداخل، سألت عن مخطط الطوابق، وأخرجت الوكيلة رسوماً تفصيلية توضح الوحدة المعروضة للبيع، وسائر الوحدات الأخرى بالطابق. أشرت إلى أشـــياء في المخطـــط، بحـــيث تنظر إلى أسفله، ولا تلاحظ عيني وهي تفحص المخطط فيما يتعلق بصف الشقق الواقعة في الطابق "ر". ثم بدأت أومئ برأسي بين الحين والآخر، وطرحت بضعة أسئلة يعتبرها سماسرة العقارات "بوادر الشراء": هل سيـــسترد الـــبائع الرهنية، وكيف كان يتم تنظيم جماعة ملاك الشقة، وكم عدد المساحات المتاحة لإيقاف السيارات؟

استمعت إلى حديثها دون تركيز، حيث كنت أفكر في كل شيء أحطت به علماً، ونجحت في العودة بنا ثانية إلى حيث المسبح؛ إذ إن الجدار الخلفي كان يمثل

مشكلة في التوقيت، ووددت أن ألقي عليه نظرة أخيرة. لن أتمكن من استخدامه إلا في لـــيلة غير مقمرة، ولا بد من أن يكون الوقت متأخراً تماماً كي يكون الشاطئ خالـــياً من الناس، على الأقل الواعين منهم. كان الأمر سيعتمد بشدة على جدول المواعيد المسائية للسيدة بندر. رغبت بشدة في أن أذهب لإلقاء نظرة طويلة داخل غـــرفة الخزانات تلك أيضاً، ولكن لم يكن هناك من سبيل لفعل ذلك دون أن أثير الشكوك.

مـــن حسن الحظ أن شقة بندر كانت تطل على المحيط. أمضيت وقتاً كثيراً علـــى الـــشاطئ على مدى الأسابيع القليلة التالية. ولا بد من أن بارب ظنت أنني صـــرت رومانسياً أو ما شابه، وإلا ما سبب سيرنا معاً في ضوء القمر. ومن الجيد أنها لم تربط ذلك بآخر مرة اهتممت بها فجأة بمكان بعينه؛ ملعب الغولف المصغر. علمت أن بندر كانت تخرج تقريباً كل مساء، ما بين السادسة والسابعة، ولا تعود قط قبيل العاشرة والنصف، أو الحادية عشرة.

في اللـــيلة غير المقمرة التالية ذهبت في نـــزهة بمفردي. وفي هذه المرة كنت أحمـــل كلاَّباً ومصباحاً يدويّاً. كنت أيضاً أرتدي لباس الاستحمام، ومعي منشفة. فـــإن أمسك بي الحارس، يمكنني أن أتعلل بأنني كنت ذاهباً للسباحة. ولجعل الأمر أكثر واقعية كنت مستعداً لأن أقول أنني كنت أتسلل للسباحة في هذا المسبح لعدة مرات في وقت متأخر من الليل.

لم يكن إلقاء الخطاف فوق جدار بهذا الارتفاع بالأمر اليسير، فقد أخفقت في أول ثـــلاث محـــاولات لي، ولكني تعلقت بالحافة في المحاولة الرابعة. وسرعان ما صـــعدت، وصرت بأعلى، وألقيت نظرتي الفاحصة على غرفة الخزانات، والنافذة ذات الغطاء السلكي السميك.

وقررت أنه من الممكن أداء العملية.

* * *

ظهـــر القمـــر الجديد التالي في ليلة الجمعة. وكنت أفضل أن يكون ذلك في منتصف الأسبوع، عندما تقل احتمالية ارتداء بندر لأفضل حليها، بيد أنه لا مجال للجدال مع الطبيعة.

كانــت معي كافة أغراضي، وأدواتي في حقيبة الظهر، والتي كان من شأنها جعل التسلق أقل صعوبة منه إذا حملت حقيبة على كتفي. وفي هذه المرة تمكنت من جعــل الكلاّب يتشبث بحافة سطح المسبح في الرمية الأولى. قد يبدو هذا للبعض بادرة طيبة، لكني فكرت فقط أنه قد قلل من قدر الضجة التي كنت سأثيرها.

كـان التسلق أصعب ما يكون مع حمل وزن تلك الأدوات على ظهري. بيد أني كــنت مواظباً على الحفاظ على لياقتي. فلم يكن الأمر أصعب من تسلق الحبل في ســاحة فنائي الخلفية، وأنا أحمل طفلاً في الثامنة من عمره فوق ظهري، وكان بإمكــاني استخدام قدمي بمواجهة الجدار للمعاونة. داومت على البطء والحذر كي لا أحدث أي ضجيج، وما لبثت يداي أن أمسكت بالحافة، وبدأت في دفع نفسي لأعلى لاجتياز الياردة الأخيرة. وبعد أن تجاوزت برأسي مستوى الحافة، تناهى إلى مــسامعي صوت جلبة، وتوقفت بينما انفتح الباب في الناحية الأخرى من المسبح. وشاهدت مصدوماً خروج الحارس من المبنى وصولاً إلى السطح.

كـان أول شيء فعلته هو أنني لبثت بلا حراك، بينما اندفعت جرعة ضخمة من الأدرينالين داخل مجرى الدم، وقاومت الحافز الأوَّلي لفعل شيء - أي شيء - لحمايــة نفــسي. لكن أفضل شيء كان التزام السكون، وهو ما يتسبب في جعل الأدريــنالين، وهو ذلك الدعم الفوري من الطاقة المحضة، والذي تستحضره نظرية التطور للهرب من السباع، وما شابه، ليس فقط عديم الفائدة، بل ربما يكون مضراً أيضاً.

نــــزلت إلى أســفل ببطء وحذر قدر المستطاع، ثم تعلقت بحيث لم يكن ســيظهر مني سوى أصابعي إذا ألقى الحارس نظرة على هذا الاتجاه. وتصورت أن رؤيــته لــيدي لم يكن بالأمر الخطر الذي يجب أن أقلق بشأنه، إذا ما وضعت في الحــسبان ذلك الكلاّب ذا الثلاث شعب، الذي لا يزال يقبع فوق الحافة، والذي كان كافيا في حد ذاته لجذب انتباه الحارس، إذا ما اختار النظر في هذا الاتجاه.

سمعت وقع أقدامه، وشددت قامتي لأتبين اتجاهه، وكان يتجه صوب الجدار. نظــرت إلى أســفل الحافة، مشرئباً برقبتي لأرى ما فوق كتفي. ماذا سيحدث إن سمحت لجسدي بالسقوط لأسفل؟ نبذت الفكرة في الحال. فحتى لو سقطت على

الـــرمل الناعم من مسافة أربعين قدماً (12 متراً)، ربما يسفر ذلك عن كسر إحدى ساقي أو كلتيهما. كلا لو أزعمت النـــزول، فلا بد من أن أتدلى على ذلك الحبل، فلن يتمكن الحارس من إزالة الكلاّب بسهولة وأنا معلق بوزني عليه، وربما أمكنني الهبوط لأسفل قبل حتى أن يفهم ماذا يحدث.

خطواته لم تبدُ متروية، ولا مترددة، و لم يراودني شعور بأنه وجد شيئاً خطأ. و لم يكن يسير باتجاهي أيضاً، ولكن بدا أنه كان متوجهاً إلى بقعة أبعد على طول الجـــدار. توقفت خطواته، ثم انبعث صوت هسهسة، ثم... هل أشعل عود ثقاب؟ كان الرجل يشعل سيجارة.

سمعـــته يزفـــر بكسل. ربما كان يحدق فقط في المحيط. بدأت ذراعاي تؤلمني قلـــيلاً، لكني لبثت ساكناً. و لم أستطع أن أسمع شيئاً سوى صوت ملاطمة الأمواج للشاطئ على بعد مئة ياردة (90 متراً). ربما كان الحارس ينظر إلى الخطاف، وإلى أصـــابعي مباشـــرة. ربما فهم الأمر برمته، وكان يسير على أطراف أقدامه ليجلب مقعداً ويحطم به يدي. ربما كان يشير إلى الكاميرا ليلفت انتباه حارس آخر.

عبرت سحابة رقيقة من الدخان الأزرق فوق رأسي. وكانت ذراعاي تؤلماني الآن حقـــاً، وودت بـــشدة أن أنـــتقل إلى الحبل كي أتمكن من لف ساقيّ حوله، وأســـترح قلـــيلاً، لكن أياً كان مدى حذري، ربما تحرك أحد أطراف الخطاف، وأحـــدث جلـــبة. لم يكن هناك شيء أسفل الحافة العلوية للجدار، ويمكنني وضع قدمـــي، أو مرفقـــي عليه أيضاً. وعلى ذلك، فقد كنت أتدلى من هناك فحسب، متشبثاً بأناملي في الهواء على ارتفاع أربعة طوابق. حاولت أن أنقل وزني من يد إلى أخرى، بحيث أتيح لذراع واحد على الأقل بعض الراحة لفترة، ولكن ذلك لم يُجدِ كثيراً؛ لذا كان من الأفضل أن أحتفظ بوزني موزعاً على الذراعين بالتساوي.

تباً لذلك... كم من الوقت يمكن أن يستغرقه تدخين سيجارة لعينة! حاولت أن أتخـــيل كم بقي من الوقت، وتضرعت ألا يكون ذلك الرجل من الطراز الذي يدخن السيجارة حتى آخرها. من يمكنه الجزم بأنه سيرحل بعد أن ينهيها مباشرة؟ وماذا لو كان مدمناً على النيكوتين حتى النخاع، وأشعل سيجارة أخرى؟ ثم خطر بـــبالي أنه ربما لم يكن المبعث الوحيد لقلقي. إنني معلق هنا منذ ثلاث دقائق على

الأقـــل، على الرغم من أنها بدت أكثر من نصف ساعة. فماذا لو رآني شخص ما علـــى الشاطئ؟ ماذا لو تم تحديد موقعي من قبل إحدى الشقق الواقعة في الواجهة الخلفية للمبنى نفسه؟ ماذا لو...؟

لفـــت نظـــري مرور وهج ما ينطلق سريعاً، فأدرت رأسي لأراه، وشاهدت ذلك الشرر يتطاير من المؤخرة للسيجارة التي كانت تسقط سريعاً باتجاه الشاطئ. أعقـــب هـــذا صوت خطوات بطيئة، حيث كان الحارس يندفع بعيداً عن الحائط ويـــستدير، ثم صـــوت صرير الباب ثانية، وصوت طقطقة المزلاج وهو يسقط في موضعه.

رفعـــت نفسي مرة أخرى إلى أعلى، وعضلاتي تكاد تصرخ احتجاجاً، حتى تمكـــنت من وضع إحدى يدي على الحافة، ثم وضعت الأخرى. والآن وقد صار ذراعـــاي بمـــوازاة الأرض، انتظرت لبضع ثوان ريثما تبدأ بعض الدماء في التدفق ثانـــية، ثم دلـــيت ســـاقاً ونـــزلت على السطح. تدحرجت صوب نوافذ غرفة الخزانات، ورقدت هناك حوالى دقيقة، عاودني ألم ذراعيّ مرة أخرى على نحو أسوأ ممـــا كانا عليه عندما كانا فوق مستوى رأسي، ويحملان وزني كله، وقد بدأ الدم ينـــسحب منهما. عندما صرت قادراً في النهاية على تحريكهما، دلكت كتفي في محاولـــة لإزالة بعض التيبس عنهما. كانا يؤلماني بشدة، ولكني أجبرت نفسي على مواصلة تدليك ذراعيّ؛ لأنني كنت في وضع خطير، واحتجت إلى المضي قدماً. لم يكن أمامي من سبيل أعرفه إذا تم تحديد موقعي. لم أكن سألغي المهمة بسبب تلك الاحتمالية الضعيفة، لكني كنت أحتاج إلى الابتعاد عن المنطقة بسرعة.

فـــور مـــا أتيح لي مجال كاف للحركة ثانية، رفعت الحقيبة من على كتفي، وعـــدت زاحفاً إلى الجدار لأجذب الحبل. قطعت ما يكفي من الأسلاك المتشابكة الـــتي تغطـــي النافذة باستخدام قاطع حاد أحضرته معي، لأتمكن من عمل فتحة أزحف من خلالها. كان هناك إفريز ضيق للنافذة على الجانب الآخر، ولكنه كان يتـــسع بما يكفي كي أسير فوقه جاثياً، وبجواري حقيبة الظهر. حاولت أن أحفظ تـــوازني فـــوق الإفريـــز في تلك الظلمة الدامسة، محاولاً ألا أفكر في أرضية غرفة الخزانات التي تستقر على بعد مسافة بعيدة أسفلي - كانت الأرضية مصنوعة من

الأسمنت، لا الرمال - بينما أقوم باستخدام سلك قوي لإعادة السلك المقطوع إلى مكانــه. لم تكــن مهمة دقيقة، ولكنها كانت جيدة بما يكفي، بحيث لن يلحظ المــشاهد العــادي وجود خطأ ما. ربطت الحبل بذلك الجزء الذي لم أقطعه من الــسلك المتشابك، ووضعت الحقيبة على ظهري، ثم نــزلت إلى الأرضية. أبقيت عيناي مغمضتين؛ فمن اليسير أن تتصور الأشياء وأنت على هذه الحال لسبب ما، حتى في غرفة شديدة الظلمة، بحيث لا يمكنك أن ترى شيئاً فيها على أية حال.

فــور هبوطــي على الأرضية، منحت نفسي لحظة من السكون، كي أتعافى قلــيلاً. كان هذا وقتاً آمناً لعدم وجود علامات مرئية تشير إلى دخول أي شخص إلى المــبنى. وإن كان قد تم رصدي، فربما يمكنني الاختفاء لفترة في غرفة الخزانات. كـــان هـــناك أمر واحد يتعلق بجنوب فلوريدا، وسكانها من المسنين: كان الناس يعــتقدون دائماً أنهم يرون لصوصاً، وقتلة يشتبكون في مطاردات آثمة، وفي أغلب الأوقـــات، تكون الشرطة أقل سرعة في الاستجابة، وأقل حماساً في فحص الأشياء لدى وصولها.

أصــغيت لأي ضوضاء قد تشير إلى أن الحراس قد تنبهوا لشيء - صيحات، ركض، صوت أبواب تصفع، صوت صفارات إنذار - ثم عاودت تنفسي بشكل طبيعي. عندها كانت عيناي قد تكيفت مع الظلمة بما يكفي لأتبين أشكالاً مبهمة في الغــرفة. عــبرت صوب الباب وفتحته بخفة، وانتظرت، ثم خطوت إلى الخارج حــيث الردهة السفلية وسرت تجاه الدرج. وبالأسفل، كان هناك باب يفضي إلى الخارج تجاه الشاطئ، وكان للحالات الطارئة فقط، وكان مدعماً بأجهزة إنذار.

شــرعت في ارتقاء الطوابق السبعة عشر وصولاً إلى قمة المبنى، متوقفاً لبرهة على كل مسطح (مُنْبَسَط) درج للإصغاء لأصوات صادرة من الردهة. كان هناك محطــة توقــيت لكل طابقين، وكنت قد خمنت أن هناك واحدة لكل طابق فاصل أيــضاً، ولكن في مكان آخر بخلاف الدرج. وبهذه الطريقة كان على الحارس أن يــسير في الــردهات جمــيعها كي يصيب كافة المؤقتات، بدلاً من صعود الدرج ونــزوله. فكرة جيدة: فآخر ما ينقصني هو التعثر بأحد الحراس وهو يقوم بجولاته، ولكــن إن حدث هذا عند الدرج، فإن الميزة هي أن حركته التالية ستكون صعود

مجمـــوعة من الدرجات، أو نـــزول أخرى، ومنها إلى الردهة. وسوف أتمكن من الدوران حول الطابق دون أن يكشف موقعي.

نجحـــت في الوصول إلى مستوى السطح بلا مصادفة، وفتحت الباب بالعتلة، مـــستخدماً شـــريط من السليولويد. ومرة ثانية كان هناك قفل رخيص يحمي باباً يفترض الجميع أنه لم يكن بحاجة إلى الحماية في المقام الأول.

شعرت بهواء الليل البارد العذب. حتى الأمواج المتلاطمة كان صوتها مهدئاً، علـــى الرغم من أنها تميل إلى طمس أية أصوات طفيفة، وهو أمر مفيد بالنسبة لي. نظرت حولي لأجد مجموعة الأشياء - كومات، أسلاك، هوائيات - التي ستوجهني إلى حيث شرفة إليزابيث بندر، ثم ربطت إحدى نهايتي الحبل حول ماسورة صرف ونظرت فوق الحافة.

لا يهـــم عدد المرات التي تقوم فيها بهذا؛ فالنظر إلى أسفل مباشرة من ارتفاع حوالى مائتي قدم (60 متراً) هي تجربة تجعل قدميك لا تحملانك. وبينما أنا أسترجع تلـــك التجـــربة الآن، لا زلـــت لا أدري كـــيف نجحت في تسلق حافة الحماية المنخفـــضة، ومنها إلى الجدار الخارجي، دون أن أستعين بشيء سوى يدي، وقوة ذراعـــي، ولا يفصلني عن الموت المؤسف غير حبل مصنوع من الخيوط. لا أدري كـــيف اســـتطعت القيام بالعديد من الأشياء التي فعلتها، ولكني أعتقد أنني كنت أصغر سناً وقتها، وبالتالي كنت أكثر جنوناً.

هذا الوضع على وجه الخصوص أقل حرصاً من أوضاع غيرها. فبالطريقة التي كنت مصطفاً بها، حتى لو انقطع الحبل، أو انـــزلقت، كانت هناك فرصة جيدة أن ينتهي بي المآل إلى الشرفة، التي كانت تبرز من جانب المبنى، وعلى بعد خمسة عشر قـــدماً (4.5 متـــر) أسفلي، وهو أفضل من السقوط على أرض أسمنتية في مستوى الطابـــق الأرضـــي، وذلك إذا لم أبتعد كثيراً عن الجدار. ومع ذلك، فقد استغرق الأمر ثانيتين للوصول إلى الشرفة بالطريقة الآمنة.

كنت متيقناً بما يكفي أن الأبواب المنـــزلقة لم تكن مغلقة. لا يمكنني أن أقول أنـــني ألـــوم بندر، أو أي شخص آخر يسكن على هذا الارتفاع. في الحقيقة، فإن إغـــلاق بـــاب كهذا قد يبدو بالنسبة لبعض الناس من قبيل جنون الشك. حتى لو

توسعت بخيالك لتفكر في شخص يحاول المجيء من السطح، فلا يزال هناك التيقن من أن أحداً لن يستطيع الوصول إلى السطح في المقام الأول. وقد أوضحت وكيلة الأملاك العقارية استحالة هذا الأمر تماماً. لم أحفل البتة بمن دعاني بالمصاب بجنون الشك، وقمت بعمل الفحص القياسي للجناح بأكمله، لأتأكد من خلوه بالفعل.

بحكم الخبرة التي وصلت إليها في هذا الأمر الآن، لا زلت لا أتمكن من زعزعة إحساسي بانتهاك حرمة أحدهم من خلال التطفل على مساحته الخاصة. وكان ذلك الإحساس أقوى قليلاً في هذه المرة لأنها كانت امرأة تعيش بمفردها، مما يزيد من إحساسها بأنها عرضة للأذى.

كانت قد أوصدت الباب الأمامي، وفعلت جهاز الإنذار. هل هناك شيء نشط بداخلنا يجعلنا نفترض أن الأشرار يفكرون مثلنا (حسناً، مثلما تفكر أنت على أية حال، فأنا من الأشرار)؟ يقيناً لو كان شخص ما سيسرق الشقة، سيدخلها كما يدخل الأشخاص المحترمون، أي من خلال الباب الموضوع لهذا الغرض. ربما يفسر هذا سبب تثبيت بعض الناس لأربعة أقفال من النوع الجيد على باب من خشب البلوط الصلب بجوار نافذة زجاجية مباشرة.

حينما تيقنت أنني بمفردي، توجهت إلى غرفة النوم، وهو أول مكان أبحث فيه دائماً. كان هناك صندوق مجوهرات ضخم واضح للعيان، حتى تكاد ترى لافتة على جانبه تقول: "طالما أنك نجحت في الوصول إلى هذا الحد، تفضل".(إليك نصيحة صغيرة: ضع القليل من الحلي الصغيرة في صندوق مجوهرات غرفة النوم، أما القطع الجيدة فعلاً، فعليك أن تضعها في غرفة الغسيل، أو المرآب). فتحت الصندوق على مصراعيه، وشهقت عالياً لما رأيته بداخله.

كانت إليزابيث بندر على ما يبدو شغوفة بأحجار الماس على شكل قلب، وكان لديها بعض النماذج غير العادية. أقراط، وقلادات، وأساور، وخاتم مرصع بحجر يزن عشرة قراريط، والذي كنت موقناً أنه لا تشوبه شائبة. كانت أغراض بالغة الروعة من الطراز الأول. كان لدى السيدة ذوق رائع للغاية.

لم أبدد وقتاً طويلاً في الإعجاب بالغنيمة (ربما قد يؤخر ذلك اكتشاف أمر السطو لمدة خمس دقائق، لكن إن كنت في حاجة لأربع دقائق في مكان ما على

طـــول الخطة، فسوف يحدث هذا فرقاً كبيراً) بل طرحتها داخل حقيبة، وأغلقت غطاء الصندوق، وخرجت. كان الباب الأمامي مدعماً بجهاز إنذار، لذا كان عليَّ أن أعود إلى لشرفة، وأتسلق الحبل إلى أعلى وصولاً إلى السطح. وضعت أذني على الباب، ولم أسمع شيئاً البتة، لذا دخلت إلى الدرج، ونـــزلت لطابق واحد، حينما سمعـــت باباً يفتح بمكان ما بأسفل. تجمدت في مكاني، ثم سمعت صوت مفتاح يتم إدخالـــه في جهـــاز التوقيت. كانت هذه مفاتيح خاصة، مرتبطة بسلسلة متصلة بـــصندوق كـــان الحـــارس يحمله معه. كنت شاكراً لأنهم أحدثوا جلبة كبيرة، وتصورت أنه كان يبعد عني بحوالى خمس طوابق إلى أسفل.

عندما سمعت وقع خطوات الحارس الهابطة، أدركت أنه سينـــزل مجموعة من الـــدرجات، ثم يتوجه عائداً إلى الردهة وصولاً إلى الصندوق التالي بمكان ما بذلك الطابق. وتصورت أن بإمكاني النـــزول إلى المستوى السفلي تقريباً في الوقت الذي سيعود فيه إلى الدرج، بأسلوبه المتثاقل في المشي.

أحـــصيت خطـــواته الشديدة البطء، وكنت أعلم عندما سيصل إلى مسطح (مُنْبَسَط) الدرج التالي، وتأهبت للذهاب. لكن بدلاً من سماع صوت فتح الباب، سمعت صوت وقع أقدام كثيرة تهبط. ماذا كانت كل تلك الأصوات؟

اســـتغرق الحـــارس البطيء الحركة ما بدا وكأنه دهراً حتى هبط إلى المسطح (المنبسط) التالي. سمعت قرقعة سلسلة مفتاحه، ثم تم قرع جرس المؤقت. رجوته في عقلي ولسان حالي يقول: أرجوك اذهب إلى الردهة! لكن لا حراك. خطوة بطيئة بـــشدة في كل مرة، ثم شرع في هبوط الدرج ثانية. بدا وكأنني أخطأت في تخمين وضـــع المـــؤقت كلية، وأن هناك مؤقتاً بعد كل مستويين في ذلك الدرج فقط. لم يكن هذا منطقي على الاطلاق - فبإمكان الحارس أن يتحقق من كل محطة توقيت دون حتى أن يضع قدمه في الردهة ولو لمرة واحدة - ولكن هذا ما كان لديّ على أية حال.

مـــا زلـــت لا أتمكن من افتراض أي شيء عما سيفعله هذا الرجل. كان قد دخـــل الدرج عند الطابق الثاني عشر، أو الثالث عشر تقريباً، وليس السابع عشر، لذا لم يكن لديّ أدنى فكرة عن الإجراء النموذجي الذي يتبعه. كان يهمهم لنفسه

الآن، بذلك الأسلوب الخاص بالأشخاص الذين أصابهم الملل للغاية: بلا لحن، ودون تحديد، ومحدود في مجاله، وشديد الإزعاج. كان قد بدأ يتسلل إليّ انطباع بأن هذا الشخص يبلغ التسعين من عمره. ما الذي يتوقعه منه أي شخص إذا تعثر بالفعل في شخص شرير؟ بالطبع لم يكن يتوقع منه القيام بأي شيء؛ فمجرد وجوده يفترض أن يكون رادعاً.

بدأت أسلك طريق الهبوط بأهدأ ما يمكنني، متصوراً أن أبقي فوقه على الأقل بثلاثة طوابق، بينما واصل هو هبوطه. لم تكن حاسة السمع لديه جيدة على الأرجح، ولكنني لم أود أن أغامر. سوف أتحلى بالصبر، وسرعان ما سأعود إلى مستوى غرفة الخزانات.

بدا هذا جيداً على الورق، ولكن بالمعدل الذي كنا نسير به، اعتقدت أنني ربما أخرج من المبنى قبيل العيد القادم. بدأت أقلق من احتمال عودة بندر إلى منزلها، واكتشافها أمر السرقة، واطلاق صوت الإنذار. وإذا كان لدى الحراس أية عقول، أو خبرة على الإطلاق، فإن أول ما سيفعلونه هو سد المخارج جميعها، ثم سأكون أنا في موقف لا أحسد عليه. فكرت باختصار أن أنزل مروراً بالحارس، كما لو كنت أنتمي إلى المكان، ولكن ذلك كان ينطوي على الكثير من المخاطرة. وإن أثار ضجة... حسناً لن يهم وقتها مدى كبره، وقلة حيلته، كما أنه ليس من أسلوبي أن أتشاجر. لذا نظرت إلى ساعتي، وتأكدت من أنه لا يزال أمامي بعض الوقت قبيل عودة بندر إلى البيت، وأكرهت نفسي على التذرع بالصبر بينما واصلنا الهبوط الوئيد.

في الوقت الذي وصلت فيه إلى غرفة الخزانات، كنت بالفعل سأنفجر من فرط التوتر، الذي كان يتراكم داخلي. كل مرة سمعت فيها صوت باب يغلق في ردهة بعيدة، كنت على يقين من أن شخصاً ما يوشك أن يدخل إلى الدرج فوقي، ويوقع بي. كان يجب أن أدخل الردهة، ولن يكن هناك أي مكان للاختباء حتى يتم إخلاء الدرج، وليس هناك أي سبيل آخر للخروج يمكنني الاعتماد عليه.

ولكن ها نحن هنا، ولا يزال ذلك العجوز الغريب، البطيء الحركة يتثاقل في سيره وصولاً إلى أسفل الردهة بجانب غرفة الخزانات، عندما وصلت إليها. لم أكن

أعلم إلى أين سيتجه بعد ذلك. ربما كان هذا نهاية المطاف وكان سيستدير. ماذا لو قرر أن يعود أدراجه إلى أعلى الدرج ثانية؟ محال أن أفعل ذلك ثانية معه.

كـــان الـــدرج المؤدي إلى الشاطئ على ارتفاع مرفقي عملياً. وكان الباب بالأســـفل مـــدعماً بجهاز إنذار، ولكني صحت بصوت مرتفع: "تباً له"، وهبطت الدرج مسرعاً، وصدمت مرفقي بمزلاج الباب. انطلق الصوت المدوي لهذا الجرس بالقرب من أذني تماماً، وكاد يشق رأسي، ولكني انطلقت أعدو مسرعاً، وتوجهت مباشرة إلى الشاطئ المظلم، ولم أستدر إلا عندما كانت قدماي داخل المياه بالفعل، وحاولـــت أن أبـــدو كمن يمارس رياضة القفز داخل المياه بينما انطلقت بأقصى سرعة.

كانـــت واحـــدة من أكبر الغنائم التي حصلت عليها داخل واحدة من أصغر الحقائب. تحدثت الصحف كثيراً عن هذا السطو نظراً لما يتمتع به رأس النافورة من مكانة في المنطقة، وسمعة بندر، وقيمة المسروقات. وكالمعتاد، أشار الصحفيون إلى العديـــد مـــن مقترفي الجريمة، ولا شك في أن الحراس كانوا يواجهون استجوابات بـــشأن كيفية حدوث ذلك، بل لقد كان هناك تخميناً حول ما إذا كانت بندر قد سرقت نفسها لقاء نقود التأمين، بيد أنني أنقذها بلا قصد من هذه المحنة: مع وضع فكـــرة الأشـــباح والعفاريت جانباً، لا بد من أن أحداً قد قام يقيناً بإسقاط جهاز الإنذار الموجود على الباب المؤدي إلى الشاطئ.

بالطبع أقسم أحد شهود العيان للشرطة أنه رأى الباب ينفتح على مصراعيه، ولكنه لم يرَ أحد يخرج منه. على الأقل ليس آدميّاً.

لا بد من أن تحب ذلك.

7

الصراع المميت

شاطئ بومبانو في فلوريدا، وقت العيد هو هدف مهم، على الأقل إذا لم تأخذ في الحسبان السقوط من سطح المبنى الذي تقع به الشقة ذات الإيجار المرتفع إلى شرفة الطابق الخامس عشر. إنها غنيمة رائعة حقاً، مع مفاجأة هائلة: خاتم مرصع بماسة بيضاوية مدببة كبيرة بحق. إن له بريقاً هائلاً، لدرجة أنني أخشى أن ينفذ بريقه من خلال سترتي.

أوصدت باب الشقة خلفي، بينما لا زلت أرتدي القفاز، وتوجهت صوب الممر. لم يكن هناك أحد بالمكان، فلا حاجة لادعاء أنني أنتمي إليه، لذا أسير بخطى أسرع من المعتاد، لكن دون عدو.

"قف!"

أجزم أن قلبي قد توقف بالفعل عن الخفقان لبضع ثوانٍ، وتدفقت جرعات من الأدرينالين الملتهب إلى صدري بقوة أشعرتني بانعدام الوزن، وكان رد فعلي حيال الأمر الموجه إليّ تلقائيّاً: وهو الشروع في الركض، بحيث صار الباب القابع عند نهاية الردهة فجأة على بعد عشرة أميال.

لم يحدث شيء، ولم تصدر المزيد من الصيحات. وعندما أكاد أصل إلى الباب، وألتف بجسدي كي أمر من خلاله، دوى انفجار هائل كاد يمزق طبلة أذنيّ. بدا وكأنه صوت قنبلة، ولكني أدرك أنه طلق ناري تضخم بفعل الحدود القريبة للردهة، وقد سمعته في الوقت نفسه الذي شعرت فيه بشيء يتعقب مساره عبر

معـــدتي. أشعر بحرارة، لا ألم فعلي، وأتصور أن الرصاصة لا بد من أن تكون قد لامـــست جلـــدي بالكـــاد وهـــي تمر بجانبي، ولو لم ألتف بجسدي في اللحظة الأخيرة...؟

أرتطم بالباب، وأواصل الركض، وأقفز عبر قمة الدرج إلى أسفل قبل أن تطأ قـــدماي إحـــدى الدرجات في النهاية، وأتمكن من الإمساك بالسياج. أهبط خمس وســـت درجات في المرة الواحدة، قافزاً بجنون فوق المسطحات (المنبسطات)، وأنا أتوقع طلق ناري آخر في أية لحظة.

لا شيء يحدث. وفي الوقت الذي أصل فيه إلى الطابق الأرضي أشعر بالدوار مـــن الهبوط مسرعاً فوق كل تلك الدرجات، ولكنني أنجح في الوصول إلى الباب المفضي إلى الخارج، ولا يتعقبني أحد. أحاول أن أتذكر: هل هناك نوافذ بالدرج؟ هـــل يقـــف مصوب الرصاص هناك في أي منها، ينتظر خروجي حتى يتمكن من اطلاق النار علي؟

لكنه يعلوني بخمسة عشر طابقاً، وهو مسلح يقيناً بمسدس، لا بندقية. لا أحد يستطيع إصابة هدف متحرك متعرج من تلك المسافة بمسدس، صحيح؟ ولا سيما في الليل.

لـــيس أمامي خيار، فيقيناً لن أبقى في الداخل كي يتم الإيقاع بي كحيوان، ولـــن أبدأ أيضاً في البحث عن مخرج آخر. وبالإضافة إلى ذلك، فما مدى سرعة الـــرجل في اتخـــاذ قرار اللجوء إلى النافذة بدلاً من مطاردتي، واتخاذ وضعه بالفعل هناك؟

إنـــني حتى لا أبطئ الخطى، ولكني أفتح الباب، وأشرع في الركض، مناضلاً إغواء الركض بأقصى سرعة ممكنة في خط مستقيم، بل أستغرق وقتاً في التحرك من جانب إلى آخر، وأنا أنكمش في توقع مخيف لطلقة أخرى، أو وابل من الطلقات؛ لأنه كلما زادت الطلقات التي يطلقها، زاد احتمال إصابته إياي.

لم يحدث شيء بعد، وليست هناك أصوات من الخلف. أتصبب عرقاً، وأشعر بجذعـــي كله غارق في العرق، ولكني في النهاية أقترب من مبنى آخر، وأبتعد عن مجـــال رؤية الشخص. والآن، فإن قلقي التالي هو كم عدد الأفراد الذين لا بد من

أن يكون قد أيقظهم صوت الطلقة، وهو الوقت الذي شكرت فيه الله على أني قد أحضرت معي دراجة، لا سيارة.

لم أعـد أبـالي البتة بمن يراني. فمن المستحيل أن يميزوني في الظلام، وعن بعد، كما لن تكون هناك أية أرقام على لوحة معدنية مرخصة يمكنهم تدوينها. لم أرغـب بشدة في أي وقت من حياتي في التواجد في مكان آخر كما أرغب الآن.

تستند الدراجة إلى أحد أعمدة الهاتف، وتبدو مغلقة، ولكنها ليست كذلك؛ إذ إن مـشبك القفل غير مثبت في مكانه. أجذب السلسلة بعيداً، وأمسك بمقود الدراجة، وأدفعها إلى الأمام، وأقفز فوقها بينما تسير، وأشرع في تحريك البدالات بغـضب. أحرك البدالات كالمحموم، ولا أرغب في التوقف حتى للتبديل إلى سرعة أكـبر، وإنما أود فقط أن أبدل بأقصى ما يمكنني، كي أبتعد بمسافة كبيرة عن ذلك المبنى.

سـرت لمـسافة ميل على الأقل قبل أن أتمكن أخيراً من الإبطاء من سرعتي، والتقاط أنفاسي. لا أصدق كم العرق الذي أبذله. إنني أشعر به يسيل فوق بطني، وأشـعر أيـضاً بمسار الرصاصة عبر معدتي، وأتساءل كيف سيبدو هذا، وكيف سأفسر ذلك لباربارا. إنه ليس مؤلماً تماماً، لكنه حار، وغريب.

ثم يـنفد مـني الأدرينالين، وتتحول ساقاي، وذراعاي بغتة إلى مادة هلامية، وبالكاد أترجل من فوق الدراجة دون أن أسقط، وأشعر بالضعف الشديد، وعدم التناسق.

أجلس على الرصيف، وأتظاهر بأنني أربط حذائي، بينما أنتظر عودة السيطرة على أطرافي، وأصابعي تعبث بلا فائدة برباط الحذاء. تمر بعض الدقائق، ثم أصارع علـى نحـو أخرق كي أقف على قدميّ، وأسير بالدراجة لمسافة عمارة تقريباً، ثم أركـبها، وأسـوق ببطء صوب المنـزل. أقف لتخبئة المسروقات في مرآب شاك وجـين قبالة الشارع. إنه شرطي مدينة نيويورك المتقاعد، الذي أخبرتكم عنه من قـبل. إنهما مسافران لقضاء العطلة، وأنا أراقب المنـزل لهما. لا أرغب في إضاءة النور الأمامي، لذا أخبئ المسروقات بأفضل ما يمكنني في الظلام.

أتوجه إلى مرآبي، ولم أدرك أنني لم أكن أتصبب عرقاً إلا بعد أن دخلت، وأضأت النور، بل كان قميصي وسروالي غارقين في الدماء. وبينما أقف هناك، وأحملق غير مصدق، يسيل الدم إلى الأرضية، ويتجمع ببطء في قدميَّ.

* * *

بعد ذلك في الحمام، بعد أن عبأت ملابسي في حقيبة بلاستيكية، وعثرت على الرصاصة التي تم إطلاقها في بطانة سترتي، مسحت أرضية المرآب، وأخذت الغنيمة. كان هناك ثقباً نظيفاً أسفل ضلعي الأيسر في أدنى جزء منه، وثقباً آخر أصغر في جانبي الأيمن، وبدأت أشعر بالألم. أدركت أنني لم أكن محظوظاً كما اعتقدت في البداية، ولكنني لا زلت محظوظاً؛ فقد اخترقت الرصاصة دون أن تصيب أي عضو جوهري. لقد شاهدت العديد من أفلام الغرب الأميركي القديمة، لذا أدركت أنني سأكون على ما يرام.

انخفض معدل النزف بشكل ملحوظ، وعكفت على تنظيف الجروح، محاولاً بمشقة أن أمنع نفسي من الصراخ بينما أربت على الجروح بمادة مطهرة. كان الألم يزداد شدة، وسرعة، وأدركت أن محاولتي فعل هذا بنفسي لم تكن ستنجح، فأيقظت باربارا بإحجام.

غمغمت في ذهول: "ما الخطب؟"

بادرتها سريعاً: "لا تقلقي، أنا بخير"، وعندها أدركت أنني على الأرجح لست كذلك، واستيقظت تماماً. "تعرضت لحادث بسيط".

كانت بالفعل تزيح الأغطية إلى الوراء، وتعتدل جالسة، وهي تقول "أي حادث؟"

"أصبت بطلق ناري".

كانت تدرك أفضل من تبديد الوقت في طرح الأسئلة. كانت فزعة للغاية، ولكنها سيطرت على نفسها تماماً ريثما فرغت من تنظيف الجروح، وربطتها بالضمادات بإحكام، في حالة ازداد النزيف. تجرعت كأسين من المشروب المفضل، وأويت إلى الفراش محاولاً أن أنام، على الرغم من أن باربارا كانت ترتعد من القلق بجانبي. ولكن الجرح كان يؤلم بضراوة عندما أرقد، وكان

السبيل الوحيد للقليل من الراحة هو أن أجلس على مقعد.

اتصلت بارب بشقيقها أوجي، الذي كان قد انتقل حديثاً إلى فلوريدا، وأقام بالقـــرب منا، وقد حضر إلى المنـــزل على الفور. تسببت الأصوات غير المعتادة في منتصف الليل في إيقاظ سوزي، ولورا، وأقبلتا إلى الردهة بخطى خافتة، بينما دخل أوجـــي. اعترضـــتهما بـــارب قبل أن يتمكنا من بلوغ غرفة النوم، وأخبرتهما أن والدهما يعاني من ألم طفيف في البطن.

ســـألت لورا: "ما سبب وجود خالي أوجي لمجرد ألم في البطن؟" أرادت أن تعرف ذلك، ولا يمكنك أن تخفي شيئاً على تلك الطفلة.

أجابت بارب: "في حال احتجنا إلى إحضار شيء من الصيدلية".

سألت سوزي مقاطعة: "ولم لم يحضره في طريقه إلى هنا؟"

دفعـــت بهم بارب إلى الفراش، ثم عادت إلى غرفة النوم. حقيقة لم يكن هناك شيء يمكن لأوجي فعله في تلك اللحظة، لكنه أدرك حاجة بارب إليه بالمكان، وفي النهاية غلبه النعاس أسفل الفراش. سهرت بارب معي لبقية الليلة، وكلانا يأمل أن تخف وطأة شقائي بعد بضع ساعات.

ولكنه ما لبث أن ازداد سوءاً. ومع شروق الشمس، كنت أعاني من ألم حاد، ولم أتمكـــن من التفكير في الذهاب إلى العمل، أو حتى تناول الطعام. طرق مارك باب غرفة النوم رغبة في معرفة ما يحدث؛ إذ كان غارقاً في النوم خلال الاضطراب الذي حدث الليلة الماضية.

قالت بارب ناصحة بحكمة "أجبه أنت".

أجبته بصوت خفيض قدر الإمكان: "ألم في البطن بسبب شيء أكلته". كان الألم الناجم عن التحدث هكذا شديداً، حتى كاد أن يغشى عليَّ.

ذهـــبت بارب، وأوجي إلى المطبخ لإعداد الإفطار للأولاد، الذين أدركوا من أسلوب تصرف والدهم، وخالهم أن في الأمر ما هو أكثر من مجرد ألم بالمعدة.

عقـــب عـــبور أوجي للشارع ليرى إن كانت هناك أية دماء قد تسربت إلى أرضية مرآب شاك وجين، ذهب لإحضار بعض المضادات الحيوية، لكنها لم تحدث أي فـــرق يمكنني ملاحظته. لبثت في غرفة النوم طيلة النهار، لدرجة أن الأطفال لم

يتمكـــنوا مـــن رؤيـــتي. ثم تناولت دواء قوياً تلك الليلة دفع بي إلى نوم متقطع. اســـتيقظت في حـــوالى الـــرابعة صباحاً وأنا أشعر بألم حاد لم يكن لي أن أصدق حدوثـــه. كنت أشعر وكأن شخصاً ما يلوح بموقد لحام داخل أمعائي. شرعت في التقلب بشدة، وتركت غرفة النوم كي لا أوقظ باربارا، ووجدت نفسي وحيداً مع أفكار محمومة تدور بشدة داخل رأسي.

هـــل تم الإبلاغ عن الجريمة؟ لقد كان سكان الشقة خارج المدينة، رغم أنني كـــنت أجهل تماماً كم من الوقت سيتغيبون. هل رأى مطلق الرصاص، الذي كان علـــى الأرجـــح حـــارس أمن، الشقة التي خرجت منها؟ هل عرف حتى بحدوث الـــسطو؟ ربمـــا لا! باستثناء من عساه يطلق الرصاص على شخص يتسكع فقط بالمكان، حتى ولو لم يكن يقطن هناك؟ إذن، فلا بد من أنه رآني أخرج من الشقة، واستنتج حتماً أنني سرقتها، وبالتالي أبلغ عن السرقة.

ولكن انتظر لحظة. كيف تسنى له أن يعرف بسرقة أي شيء إذا لم تكن تلك شـــقته؟ حـــتى إن لم يكن يعلم يقيناً بارتكاب السطو، فقد علم بالتأكيد أنه أطلق الرصاصة على شخص ما، وربما اقتفى أثر خطواتي، وأبصر الدماء. لذا فلا بد من أنه نبّه السلطات للبحث عن شخص ينشد رعاية طبية لجرح ناتج عن طلق ناري.

اللعنة!

انتظـــر ثانية. ربما لم يعلم مدى سوء الإصابة، حتى أنا لم أعلم بمدى سوئها إلا مؤخـــراً. إلا أنـــه رأى الدماء، وربما الكثير منها، لذا أدرك أنه نجح في إصابتي. أم أن ملابـــسي قد امتصت الدماء تماماً في البداية حتى إنها لم يتسرب منها شيء؟ من ناحية أخرى، ألم يكن من غير المشروع اطلاق النار على مشتبه به هارب؟ وهل ينطبق ذلك علـــى المدنـــيين الـــذين يحمون ممتلكاتهم الخاصة؟ فيما عدا أنها على الأرجح لم تكن ممتلكاته. وهل سيدفعه هذا لأن يلزم الصمت بشأن الأمر برمته، ليحمي نفسه؟

هل كنت أفكر حتى في هذا كله بشكل متناسق؟

كـــنت خائـــر القـــوى بعد ساعات من الصراع مع الألم المبرح، فعدت إلى الفراش ثانية، ولكني كنت أتلوى بقوة خلال دقائق. أضيء النور، واعتدلت باربارا جالسة، وطفقت تنـــزع عني الأغطية قبل أن أتمكن من جذبها ثانية.

صاحت بعد أن ألقت نظرة: "يا إلهي!"

كـــان بطني قد انتفخ بشدة، بحيث بدوت كامرأة حامل في شهرها السادس، وكانت الضمادات غارقة في الدماء التي تسرب بعضها إلى أغطية الفراش. اتسعت عيـــنا باربارا في ذعر، وهي تضع يدها على فمها. كان الخوف قد شلّ حركتها، وبـــدأت الدموع تنهمر على وجهها. تقلبت بجسدي محاولاً النهوض، ولكن كان من العبث أن أقوم حتى بتلك المحاولة، وسقطت على الفراش ثانية.

أفاقت باربارا من جمودها، وأمسكت بالهاتف على المنضدة المجاورة للفراش.

خرج صوتي متحشرجاً وأنا أقول: "ماذا تفعلين؟"

أجابت، وهي ترفع سماعة الهاتف: "أطلب سيارة إسعاف".

اتجهـــت بجسدي نحوها، على الرغم من الألم، ووضعت السماعة في مكانها ثانية قائلاً: "كلا. هل جننت؟"

أجابتني مسرعة: "هل جننت أنت؟"

لا يمكنني أن أسمح لها بطلب سيارة إسعاف، فهذا ليس قطع ناتج عن تقطيع الخبز، بل جرح ناتج عن طلق ناري، ولا يتلقى المرء علاجاً لجروح من هذا النوع دون أن يـــسأل الناس العديد من الأسئلة، ولدى الأطباء التزام قانوني بالإبلاغ عن حالات كهذه فوراً.

لـــدى العديد من محترفي الجرائم الخطرة – سارقي البنوك، وخدم العصابات، وأمـــثالهم – سبل للوصول إلى الأطباء المحتالين، الذين يتلقون مبالغ ضخمة لعلاج الجـــروح الناجمة عن الجرائم المقترفة. لم أبحث قط عن تلك المصادر، لأنه لم يكن هـــناك من سبيل لفعل ذلك دون التنازل عن قدر كبير من المعلومات، وكان من شأن هذا أن ينتهك استراتيجيتي لحماية نفسي. بالإضافة إلى أنه لم يخطر ببالي أبداً أنني قد أصاب في عملية سطو، باستثناء ربما السقوط، أو الإصابة بجرح، من نوعية تلـــك الجروح التي يمكن تفسيرها بسهولة، وتحدث بشكل روتيني. لم أكن مجرماً عنـــيفاً، فلـــم أحمل سلاحاً، و لم أرتكب سرقة قط في وجود الناس، أو على الأقل ليس عن عمد. بالطبع كانت هناك دائماً احتمالية القبض عليَّ، وسيكون لديّ النية في فعل كل ما يمكن للهرب، ولكنني لم أتصور أن أؤذي أحداً لأتمكن من ذلك.

والآن فقد كنت أواجه مشكلة خطيرة، فلم يعد بإمكاني التظاهر بأن ذلك جرح سيشفى بمرور الوقت. كانت أمعائي ملتهبة بشدة، وكانت حالتها تزداد سوءاً بمرور كل ثانية. كان الألم لا يطاق، ولم يكن بمقدور الكحول، أو العلاج المنزلي مساعدتي على التعامل مع ذلك.

تذرعت باربارا بهدوء حكيم، وتركتني أتوصل لاستنتاج حتمي، بدلاً من أن تثيرني للدخول في جدل عقيم. كان الأمر واضحاً للغاية: إذا لم أحصل على المساعدة، سوف ألقى حتفي.

من ناحية أخرى، لو ذهبت إلى المستشفى، فسوف ينتهي بي المآل حتماً إلى السجن.

سألتني باربارا في النهاية: "ما الذي سيحدث؟"

اتخذت نفساً عميقاً، ثم قلت: "ساعديني على النهوض، سأذهب إلى كليفلاند".

* * *

لم أفكر بحماقة أن أعود إلى موطني كي أموت هناك. كان ابن خالي رودي، والذي لم يكن ابن خال وحسب، ولكن صديق حميم أيضاً، جراحاً في مستشفى ذائعة الصيت في كليفلاند. وكان أيضاً مالكاً جزئياً لبعض المباني التي توليت إدارتها. اتصلت به باربارا، وأبلغته بما حدث، بشكل مبهم قدر الإمكان، ولكن على نحو يكفي ليعرف أنها كانت حالة طارئة حقيقية. أجريا بعض الترتيبات، ثم جذبت حقيبتي سفر من الخزانة، وأحضرتهما إلى غرفة النوم.

هززت رأسي بالنسبة للحقيبة الأكبر قائلاً: "سأذهب بمفردي".

لم تأخذ كلامي على محمل الجد، وربما اعتقدت أنه كان احتجاجاً اضطرارياً لا أعنيه. رفعت الحقيبتين على الفراش، وفتحتهما. قلت لها: "لا يمكنك الذهاب"، وفي هذه المرة توقفت عن الحركة، وسألتني ثانية إن كنت مجنوناً.

ربما، بيد أني كنت أدرك ما أفعله. قلت محاولاً تقليص عدد كلماتي؛ لأن الحديث كان يؤلمني بشدة: "إنه العيد. الأولاد... لا يمكن أن نرحل نحن الاثنين".

أجابت، وهي تلوح بيدها تجاهي، وكأنها تفكر في حالتي كلية: "لا يمكنك الرحيل وحدك، إنك بالكاد تستطيع النهوض، فلن تنجح".

لكــــي أدركـــت أنني سأفوز في هذا النقاش قبل حتى أن يبدأ، فلا يزال الأولاد يجهلون حقيقة ما حدث، وكان من المهم ألا نــزعجهم أكثر مما كانوا بالفعل. ففي أسرة مترابطة تماماً كأسرتنا، لم يحدث قط أن تغيب أحدنا عن التواجد معهم بالمنـــزل خلال العيد. أما أن نتغيب نحن الاثنين، فقد كان أمراً لا يمكن حتى التفكير فيه.

قالـــت بـــارب "يمكننا اصطحاب الأولاد معنا"، ولكنها قالتها بلا اهتمام، وبفتور، وكان القرار قد اتخذ بالفعل.

حاولت بارب إقناع الأولاد أنها كانت مجرد رحلة عمل أخرى إلى كليفلاند، ولكـــن هيهات أن يخدعهم ذلك للحظة. فدائماً ما كانت أعلم مقدماً بموعد تلك الرحلات، وكنت أهتم بالأطفال بشدة لمدة يوم، أو يومين قبل أن أغادر. أما هذه المـــرة فلـــم أقل حتى وداعاً. في النهاية، أخبرتهم بارب أن لديّ اضطراب معدي شـــديد، وأحـــتاج إلى زيارة طبيب أثق به في موطني. كانت لورا في الخامسة من عمـــرها، وربمــا لم تفهم تلك الأمور الدقيقة، لكنها تفهمت نبرة صوت والدتها، واستـــشعرت الخـــوف فيها. بذل سوزي ومارك، رغم قلقهم هم أيضاً، قصارى جهـــدهما لتهدئـــتها، ولكن طفلان في الثالثة عشرة، والحادية عشرة كان عليهما الـــذهاب إلى المدرسة لبضع أيام قبل أن تبدأ العطلة، مما أدى إلى ترك لورا بصحبة أوجـــي، بيـــنما صـــحبتني بارب إلى المطار. وقد ساهمت حالته المزاجية الكئيبة، والمكالمات الهاتفية المغمغمة طيلة النهار في زيادة اضطراب ابنتنا الصغرى.

حجـــزت لي بارب في رحلة منتصف الصباح، وكان أحد أسوأ أيام حياتي. كـــان الألم غير محتملٍ بالمرة، ولكن كان عليَّ أن أبدو في أحسن حال درءاً لإثارة أيـــة شكوك، أو لدفع أحد موظفي الخطوط الجوية الحسني النية لعرض الكثير من المـــساعدة. حزمت بارب حقيبة صغرى من أجلي بأخف الأغراض التي وجدتها، ولكني كنت أوثر السفر بلا شيء. فقد كان مجرد رفعها عن الأرض عذاباً، وكان وضـــعها في خـــزانة فوق الرأس مستحيلاً. وبدلاً من أن أطلب المساعدة، ركلتها أسفل مقعدي.

بيـــنما انطلقت الطائرة، ازداد الألم سوءاً بقدر لم أتخيله ممكناً. لم أكن أعرف وقـــتها أن السبب في ذلك هو أن انخفاض ضغط الكابينة يؤدي إلى تمدد الغازات

المحتبسة من أثر الالتهاب، بما يؤدي إلى حدوث المزيد من الانتفاخ. وكان أدنى اضطراب بالكاد يلحظه الركاب الآخرون - حتى ذلك الشخص على الصف نفسه الذي كان يتحرك في المكان ويرتطم بالمقاعد - كان بمثابة رمح يغرس في بطني الملتهبة، وعندما هبطت الطائرة بشدة على الممر في مطار هوبكينز الدولي في كليفلاند، شعرت بأنني أكاد يغشى عليَّ.

كان ابن عمي، دان رينر، ينتظر عند البوابة، وحينما رآني ابتسم، ورفع يده، ولكن خلال بضع ثوان قصيرة اختفت الابتسامة، وهبطت يده إلى أسفل ببطء، كما لو كان تناسى بشأن ذلك. من خلال الطريقة التي نظر بها يمكنني أن أتخيل كيف كنت أبدو.

ترك دان سيارته عند الزاوية، وهو أمر كان بإمكانك فعله تلك الأيام، وطالما كانت سيارتك تحمل لوحة طبيب معالج، يمكنك تركها هناك قدر ما تشاء. فور ركوبنا، وبدلاً من أن يقود مباشرة، مال إلى الجانب، وتوصل إلى قميصي. كان مجرد لمس أنامله للنسيج يسبب طعنة من الألم بداخلي، فدفعت بيده بعيداً. انتظر ريثما فككت أزرار القميص بنفسي، ثم ألقى نظرة.

تمتم غاضباً "تباً لذلك"، وهو قول لا تود سماعه من طبيب اطلع على هذه الأمور كلها، ولا يفترض به أن يذهله أي شيء بعد ذلك. ثم قال: "لا تتحرك"، وخرج من السيارة. راقبته وهو يذهب إلى هاتف عمومي، ويطلب رقماً، ثم ينتظر لبضع ثوان، ثم يبدأ بالتحدث والإشارة بيديه. نظر إلى ساعته عدة مرات خلال المحادثة، ثم أغلق السماعة وعاد إلى السيارة. سألته عم كان كل هذا.

أجابني قائلاً: "يتم إعداد غرفة العمليات".

جراحة؟ "ما مدى سوء الحالة؟"

لم يجبني فوراً، وربما كان يفكر في صياغة ذلك بلغة الرجل العادي، ثم أجابني أخيراً: "لقد تمزقت إرباً من الداخل"، قالها على هذا النحو فقط.

كثير جداً بالنسبة لأفلام الغرب الأميركي القديمة، والرصاصات التي تخترق الأجساد دون أذى. قلت، وأنا أشعر بالقلق على سمعته ومركزه المهني: "إنه جرح ناتج عن طلق ناري، ستضطر للإبلاغ عن ذلك".

هزّ رأسه، ثم أشار إلى قميصي إلى حيث موضع الثقبين في كلا جانبي القفص الصدري قائلاً: "إنه أسوأ اطلاق نار أبصرته على الإطلاق".

بعد مرور أقل من ساعة، كنت على طاولة.

في وقت من الأوقات بينما كنت بأسفل في غرفة العمليات، حدث لي شيء غير عادي. حلمت أني كنت في نفق طويل متوجهاً إلى ضوء أبيض يغشي البصر. شعرت بسكينة لم أشعر بها قط في حياتي، كنت في راحة، ورضا تامين. كنت أنجذب إلى هذا الضوء، ولكني لم أكن في عجلة من أمري على وجه الخصوص كي أصل إليه. ثم، ودون تحذير، بدأ الضوء يعتم، وشعرت بسكينتي تتخاذل. واستمرت شدة الضوء في الانخفاض، وبدأ النفق يتلاشى، وكان هذا كل ما أمكنني تذكره.

أخبرت باربارا عنه هاتفياً تلك الليلة من غرفة العناية المركزة، وعدت ذلك على أنه حلم جميل ناتج عن التخدير بعد يومين من المعاناة المستمرة.

فور ما نجوت من الخطر، كشف لي دان عن شيء يتعلق بكيفية سريان الجراحة. قال: "كنت ميتاً إكلينيكياً لبضع ثوانٍ. لم نسمع خفقان القلب، مما أدى بنا إلى رعب هائل". لم أستوعب ذلك حتى سنوات لاحقة؛ حيث جمعت هذين الأمرين معاً، وأدركت أنني مررت بتجربة تقليدية بالفعل اقتربت فيها من الموت.

بعد انقضاء ثمان وأربعين ساعة، خرجت من وحدة العناية المركزة، ولبثت في المستشفى لثمانية أيام أخرى، مفتقداً قضاء العيد مع زوجتي وأولادي. صديقي الحميم بيل ويللينج، وزوجته ذهبا إلى منزلنا للمساعدة. أتيح لي الكثير من الوقت للتفكير، وأحد الأشياء التي خطرت ببالي بغتة هو أن هوايتي الصغيرة لم تعد ممتعة تماماً. ومع كل ذلك الحظ السعيد الذي أتحلى به، استغرق الأمر انعطافاً طفيفاً في الأحداث. حادثة لم يتعد زمنها ثانيتين من الوقت، ولكنها كانت بمثابة صفعة قوية على الوجه بما مثلته من واقع نوع الخطر الذي كنت أعرض نفسي له.

لم أستطع أن أمنع نفسي من التفكير أيضاً فيما كان يفعله هذا بباربارا. كانت تلك النظرة التي علت وجهها عندما أخبرتها أنني أصبت بطلق ناري نظرة لم أود رؤيتها ثانية، ولكنني رأيتها بعد يومين عندما أزاحت الأغطية عن جذعي المحطم، وتخيلتها ثانية عندما أخبرها دان بالتفاصيل عبر الهاتف. أما بالنسبة لوجوه

أطفالي المرتبكة المرتعبة، فلم يكن الألم الجسدي الشديد كافياً لإزاحة صورهم عن عقلي.

بعـــد عـــشرة أيـــام من الانغماس في التأمل الذاتي المتعب، استبد بي الجنون للخروج من المستشفى، رغم أنني لا زلت أشعر أني غير موفور النشاط، وأخبرت دان أن حالتي على أحسن ما يرام. في اليوم التالي سمح لي بالخروج، مع مجموعة من التعلـــيمات الخاصـــة بالـــرعاية الطبـــية بعد العملية، والدواء الكافي لضمان عدم اضطراري لملء أية وصفات طبية في فلوريدا.

لم تـــتفوه باربارا بالكثير عندما وصلت إلى البيت. لقد فقدت عشرين رطلاً من وزني خلال عشرة أيام، ولكنها كانت قلقة بشدة بشأن ما إذا كانت ستتمكن مـــن رؤيـــتي حيّاً ثانية، وبدت عليَّ علامات الإنهاك، والمعاناة التي كنت أحسها، وأمكـــنني فقـــط تصور ما كان يدور في خلدها. على الأقل لم نضطر للقلق عن عملي: فقد باشره أوجي، وكان يتولى أمره نيابة عني.

لم تقـــبل عليَّ خلال الأيام القليلة التالية أيضاً، ولكني أصبت بالتهاب غشاء الجنب، وازدادت أمعائي سوءاً كما كانت في الأسبوعين الماضيين، وحينما ألححت في الرحيل عائداً إلى كليفلاند بمفردي، لم تزعج نفسها بالجدال، ولكنها شرعت في حـــزم حقيبتين. كان من الصعب تفسير التعبير الذي ارتسم على وجهها. حتى لو بقيت على قيد الحياة، فكم من الوقت سأحياه قبل أن يحدث شيء آخر، وتضطر للخـــوض في ذلـــك الأمر من جديد، وكم عدد المرات المتبقية لي قبل أن تفقدني نهائياً؟

لم أكتـــشف أبـــداً من أطلق الرصاص عليَّ، شاك الشرطي، وزوجته قضيا نحبهما بعد عدة سنوات دون أن يعلما أن الغنيمة المسروقة، المبقعة بالدم كانت في وقت من الأوقات مخبأة داخل مرآبهم.

على كلٍّ، فإنها تجربة مخيفة، ولا حاجة بي إلى أن أقول أنني قد تعافيت منها، ولكنني لم أتعلم شيئاً.

8

بحث (استكشاف) السوق

"بحث السوق" هو الاسم الذي يطلقه البائعون المحترفون على ما تفعله للعثور على الزبائن المحتملين. فإذا لم تكن تعمل بمتجر تجزئة يقصده الكثير من الزبائن الذين تعتمد عليهم في كسب عيشك، فعليك أن تعمل على تحديد من يحتمل أن يشتري منك قبل أن تبدأ في البيع له. فإن كنت تروج لبيع واجهات الألومونيوم، عليك أن تقوم بجولة في الجوار تبحث فيها عن جدران مهدمة بفعل الطقس. أو إن كنت متعهد توريد أطعمة، فعليك أن تتابع إعلانات الزواج في الصحف المحلية.

وهناك شق آخر مهم في دورة المبيعات النموذجية، ويدعى "تقييم" الزبون المحتمل؛ أي التيقن من كونه جديراً بالبيع له. فإن كنت تروج لبيع سيارات من طراز "كاديلاك"، وطلب منك الشخص الذي أغريته بالشراء أن يسدد ثمنها بشيكات البطالة خاصته، فأنت على الأرجح تضيع وقتك سدى.

كان الأمر يختلف قليلاً في حالتي؛ فلم أكن أبحث عن زبائن، بل عن أناس يمكن سرقتهم. وكان هذا هو الشق البالغ الصعوبة في الأمر. كان هناك العديد من الأثرياء في جنوب فلوريدا، ولكن كون الشخص يبدو ثريّاً لا يعني بالضرورة أنه زبون جيد. فالعديد من محدثي الثراء يرتدون كل ما يملكون في وقت واحد، ليعطوا بذلك انطباعاً بأن هناك المزيد في البيت، فالأمر كمن يغلف لفة من فئة الدولار الواحد بورقة نقدية من فئة المائة دولار: مجرد بريق بلا ذهب. لا بأس بذلك إن كنت من الطراز الذي يسرق الناس مباشرة، ولم أكن أنا هذا الشخص. فلم أكن

أستخدم الأسلحة، و لم أفكر أبداً أن حفنة من الجواهر تساوي إيذاء شخص ما، بمن فيهم أنا.

وغالبية اللصوص الرفيعي المستوى معروفون في الدوائر الإجرامية، وتنهال عليهم كافة أنواع المعلومات الإرشادية، ولكن أفضل هذه المعلومات هي التي تتعلق بتخصص اللص. فقد يحصل اللص المتخصص في سرقة اللوحات الثمينة على معلومة بأن جامع اللوحات في طريقه للتحرك، مما يعني أن مجموعته الفنية قد تكون معرضة للخطر لبضعة أيام. وقد يحصل أحد اللصوص المتخصصين في سرقة الأسرار التكنولوجية على معلومات من شخص يعمل داخل إحدى الشركات، ويعرف النظم الأمنية بالداخل والخارج. وينطبق الأمر ذاته على لصوص السيارات المصفحة، وسارقي الشاحنات. وأياً كان ما يحدث، فإن ناقل المعلومات يتوقع أن يحصل على شيء ما من السرقة الناجحة، وعادة ما يكون نوع من العمولة تقتطع من صافي حصيلة الغنيمة. ويعتمد قدر المال على خصوصية المعلومة وإمكانية الاعتماد عليها، وتكمن مشكلة اللص في القدرة على تمييز المعلومات الجيدة من عديمة الجدوى أو المضللة، ويعني ذلك أن تدس الشرطة معلومة خاطئة لمحاولة الإيقاع باللص متلبساً بالجريمة.

يعد تجار المسروقات (الذين يتلقّون السلع المسروقة) بعض من أفضل مصادر تلك المعلومات، وتاجر المسروقات هو شخص متخصص في تحويل المسروقات إلى نقود سائلة. هناك أشياء تكون أصعب في بيعها لتاجر المسروقات من غيرها، وتعتمد العمولة التي يحصل عليها التاجر في الصفقة على حجم المشقة والخطر المتعلقين بترك المسروقات لديه. فالذهب، على سبيل المثال، يكون من اليسير نسبياً تحويله إلى نقود؛ حيث يمكن صهره، وإخفاء مصدره تماماً، وبيعه على هيئة سبائك عن طريق تجار المعادن الثمينة الشرعيين. كما يكون بيع العقاقير غير المشروعة بالجملة أمراً يسيراً جداً أيضاً؛ إذ إن التجار يكونون دائماً على استعداد لدفع مبالغ نقدية هائلة دون طرح أية أسئلة.

ومن ناحية أخرى، فإن الفنون الرفيعة تكون من الصعوبة بمكان التخلص منها، إذ يسهل التعرف عليها، وبالتالي لا بد من إما أن يدفع الملاك الأصليون فدية

في مقابل إعادة حصولهم عليها، أو أن يتم بيعها لجامع تحف خاص ليس لديه النية في عــرض القطــع الفنية على الجمهور إطلاقاً. ويكون نصيب التاجر الوسيط من ذلك النوع من الصفقات هائلاً؛ لأن مهمته في تحويل التحف الفنية إلى نقود تكاد تكــون علــى الدرجــة نفسها من الصعوبة والخطورة التي تعرض لها اللص عند سرقتها.

النقطة هنا أن تجار المسروقات يكون لديهم منفعة ثابتة في الحفاظ على تدفق خطوط الإمداد، وبالتالي يكونون مدفوعين لتزويد اللصوص ليس فقط بالكثير من المعلــومات، بــل بالقيمة منها أيضاً. فهم على أية حال لا يرغبون أن تبدد أفضل مصادرهم الوقت في سرقات صغيرة، كما أنهم يقيناً لا يودون أن يتم القبض على اللــصوص، وبالــتالي لا يحصلون على عمولتهم. ومن شأن ذلك أن يوقف سيل المدخــولات المتدفق إليهم، ويمثل خطراً كبيراً إذا ما قرر اللص أن يرشد عن تاجر المسروقات في مقابل الحصول على عقوبة أخف.

لا يعــني هــذا أن تجــار المسروقات دائماً أهل للثقة، كما أنهم لا يتوافقون بالضرورة مع السلوكيات الشاذة الخاصة بالأشخاص الذين يتعاملون معهم. فتاجر المــسروقات الأول الذي أتعامل معه في كليفلاند، بلوت تومبا، يعلم كيف أشعر بــشأن التخطيط الدقيق، وتجنب العنف، ولكن حاول ذات مرة أن يدفعني لسرقة بائع جواهر في نيويورك يدعوه إليه مرة كل شهر. وبالإضافة إلى حقيقة أن تومبا لم يكــن لديــه الكثير من المعلومات التي يمكن استخدامها في التخطيط للمهمة، فقد كان الأمر سيتضمن استخدام السلاح؛ لذا رفضت، على الرغم من استمراري في القيام بالكثير من العمل معه.

كانــت العديــد من المصادر التقليدية للمعلومات الإرشادية موصدة أمامي. بالنــسبة للمبــتدئين، كنت منعزلاً، وكنت أتبع سياسة حازمة تقضي بعدم اتخاذ شــركاء أبداً. بهذه الطريقة نجحت في الابتعاد عن المشاكل لعدة سنوات. ونتيجة لذلك، لم يكن الكثير ممن يسكنون بالشارع يعلمون حتى بوجودي؛ لذا فلم يطلع عليَّ أي فرد على الاطلاق بـــ "معلومة" قيمة. وكان من شأن هذا أن يجعل عملية البحث عن زبون محتمل أكثر صعوبة، ولكن من ناحية أخرى، فلم أكن أدخل في

أيـــة خطط وهمية، كما لم يكن من المرجح بالنسبة لي أن أجد شخصاً آخر قد قام بالمهمة بينما لا زلت أخطط لها؛ لأنه حصل على المعلومة نفسها من المصدر ذاته. ولم يكن عليَّ أن أشرك شخصاً آخر في الغنيمة بخلاف تاجر المسروقات.

لم يكـــن أسلوبي أن أستيقظ في أحد الأيام، وأقرر أن عليَّ أن أقوم بمهمة؛ فقد كنت في حالة مالية جيدة، ما بين السرقة، وأعمالي الشرعية في مجال العقارات، بحيث لم أكن أبداً في حاجة مادية تدفعني لارتكاب سرقة. كان الأمر أشبه باستغلال الفرص، حيث أبقي عيني وأذني مفتوحتين خلال البحث النشط ولكن المسترخي.

طالعت كافة الصفحات الاجتماعية بعناية، دارساً مكانة كل فرد في المدينة، ومـــاذا يجـــري، ومـــاذا ســـيحدث. كما ترددت أيضاً على الكثير من الوظائف الاجتماعـــية، فقـــد كنت "أطور أدائي بشكل جيد" كما يحب أن يقول أصحاب العمل للواعدين من المتقدمين للعمل. وكنت قادراً في العادة من خلال ارتدائي بذلة عمل، أو رداء سهرة رسمي، ودون خاتم زواجي، على السير دون تردد في الحفلات الخاصة الكبرى، أو الاحتفالات، ووصلت إلى مرحلة كان وجودي فيها ليس فقط مسموحاً به، بل ومتوقعاً، وصار وجهي مألوفاً ضمن قطاع كبير من صفوة المجتمع في جنوب فلوريدا.

زاد توافقـــي مع هؤلاء الناس، وكنت قادراً عند تقديم وجه جديد إليَّ على التأكد على نحو سريع نسبياً مع من كنت أتعامل. وأضحى التمييز بين المتطلعين إلى الثراء، والأثرياء بالفعل أمراً يعتمد على ملاحظة ليس فقط كيفية تعامل الناس، بل والكيفـــية الـــتي يتصرف بها الآخرون في وجودهم. فعندما يظهر أشخاص جدد مـــزيّنون بما يبدو وكأنه ألماس وزمرد، لا أفترض أي شيء حتى أراهم في أمسيات متعاقـــبة. وحاولت أن ألاحظ من بين الأشخاص الذين ظهروا ثانية ما إذا كانوا يرتدون الحلي نفسها، أم حلي مختلفة. هل كانوا يخالطون الأشخاص أنفسهم؟ هل قـــام الناس الذين عاملوهم بترفع من قبل بإظهار المزيد من الود في معاملتهم الآن؟ أين كانوا يجلسون، وكيف تغير ذلك بمرور الوقت؟ ما كنت أحاول أن أحدده هو مـــا إذا كانـــوا يـــستحقون ذلك القدر الهائل من البحث والتخطيط الذي كان سيستغرقه أمر تجريدهم من بعض ممتلكاتهم الثقيلة.

البحث، والجدارة جزءان من المهمة، ولا يختلفان كثيراً عن حالة بائع الكاديلاك. نوع من:

* * *

"لصوص أشباح" سطوا على مجوهرات امرأة نائمة تقدر بالملايين

الشرطة المذهولة تستبعد وجود مؤامرة، وتقول إن الضحية ليست لديها أي مبرر للتخطيط لسرقة "مستحيلة".

تقول الضحية التي كانت في حالة سيئة: "لم أعرف إن كان هناك شخص ما حتى استيقظت، ووجدت كل شيء قد ذهب".

عادة ما تكون الحقيقة تقل كثيراً في غرابتها عن الخيال الحقيقة. أكاد أكره أن أكشف عن حقيقة ما حدث فعلاً، بسبب ما سيسببه ذلك من خيبة أمل لكل هؤلاء الناس الذين اعتقدوا أن السرقة قد ارتكبها المريخيون، أو شيء من هذا القبيل.

عقب انتقالنا إلى فلوريدا، كنت أزور كليفلاند مرة كل شهر تقريباً. وكنت أقضي يوماً، أو اثنين في العمل على أملاكي، وكذلك في مقابلة شركة كليفلاند الإدارية، والتي كنت أتولى أمر أملاكها في ميامي، كما كنت أحضر معي بعض المسروقات إلى تومبا، إذا كنت قد قمت بسرقة ناجحة.

كانت زياراتي غير منتظمة عن عمد، ولم أبلغ أي فرد سوى أسرتي عن وقت رحيلي، ولم أكن أحدد موعداً للقاء تومبا ريثما أكون بالفعل في كليفلاند. لم أحمل أيضاً الكثير من الأغراض معي، بل كنت أقسمها على عدة زيارات. كان ذلك كله للتقليل من احتمالية تجريدي منها على يد شرطي أو محتال متهور بما يكفي لسرقة الأغراض التي سرقتها من شخص آخر.

كان السبب الثاني لبيع المسروقات بكميات قليلة هو الحصول على سعر أفضل، ولكن كان هناك خطر ملازم في تجزئة الغنيمة هكذا. إذ كان ذلك يعني

أنني كنت أحمل ممتلكات مسروقة كل مرة أذهب فيها إلى كليفلاند تقريباً. كنت أحـــب أن أبقـــي على أبعد مسافة ممكنة بيني، وبين مكاسبي غير المشروعة – مثل وضع المسروقات في صناديق مغلقة في محل عملي، وليس في المنـــزل على الاطلاق – لذا كان التنقل بها مرهقاً للأعصاب للغاية. وكنت أحب أن أفحص المسروقات بـــدلاً من حملها معي شخصياً، وعلى ذلك، كنت إذا رأيت أن هناك العديد من رجال الشرطة يحومون حول سير الحقائب بالمطار، أسير بعيداً، وأتركها.

ذات مـــرة هـــبطت في كليفلاند، ووجدت نفسي آخر من يقف عند سير الحقائب بعد أن تم التقاط كافة الحقائب، فتقدمت صوب مكتب الأمتعة المفقودة، والتقـــيت امرأة بدينة، قاسية النظرات، حدجتني بنظرة أتخيل أن تنظر بها حية ذات أجـــراس إلى أرنـــب. لا يمكنني القول إنني لمتها كثيراً. فما رأيك في العمل بوظيفة يكـــون كل شخص تتعامل معه من خلالها غاضباً وعدوانيّاً، ولا يجد من يفرغ فيه غضبه إلا أنت؟

حملقت فيّ دون أن تنبس ببنت شفة، لذا بادرت قائلاً: "لم تظهر حقيبتي".

وضـــعت في غضب استمارة، وقلماً على المكتب، وعيناها التي تنطق بالتعب مـــن هذا العالم تكاد تقول تبّاً. بعد أن ملأتها، أخذتها دون كلمة، والتقطت سماعة الهاتف.

قالت بعد أن رفعت السماعة: "إنها في بيتسبرج".

انتظرت، وانتظرت هي.

قلت في النهاية: "إذن ماذا يحدث الآن؟"

قالت، وكأنها كانت تتدرب على النص، وتتحرق شوقاً للانقضاض عليّ: "لا شيء ريثما تصل الطائرة إلى هنا!"

لكم كرهت أن أكون تحت رحمة أناس يملكوا زمام أمري، ولكني كبحت أية ملاحظات ذكية قائلاً: "ومتى ستصل؟"

راجعـــت قطعة ورق، ثم قالت: "في الرابعة والنصف". أي بعد ساعتين من الآن.

"هل هذا أكيد؟"

قالـــت في برود شديد: "قلت إنها ستكون هنا"، ثم التقطت الاستمارة ثانية. "هل هذا عنوانك الصحيح؟"

قلـــت في محاولة صغيرة ساحرة لتقليل من حدتها: "لم تقولي أنك رغبت في عنواني الصحيح".

فـــشلت المحاولة فشلاً ذريعاً. "إذا كان هذا عنوانك الصحيح، سنرسلها لك عند وصولها".

أبلغتها قائلاً: "أفضل انتظارها".

"يمكننا إرسالها إليك".

"يمكنني أن أنتظر".

قالـــت، وهي تستدير مبتعدة، محاولة التخلص مني: "افعل ما تشاء، ولكن إذا لم تظهر...".

"خلتك قلت إنها ستكون هنا". كانت تلك حركة خرقاء، مثل إسناد إحدى حيات الكوبرا إلى الجدار وهي تبصق سمها بشكل يضمن في الأغلب مهاجمة كاملة مـــن الأمـــام في المقابل. بينما بدأت في التوتر الشديد، رفعت يدي في استسلام، وتراجعت عن ساحتها.

بعد مضي ساعتين من القلق، وصلت طائرة بيتسبرج، ولكن حقيبتي لم تظهر على السير، و لم يعطني أحد أية معلومات عنها. كان من المستحيل أن أعود لمواجهة وحـــش الحقائـــب، لذا فقد بدأت في التجول، وفي النهاية وجدتها تقبع وحيدة في أحـــد الممـــرات. التقطتها، ومضيت إلى الخارج، دون تحدٍّ، مثل أي شخص آخر يحصل على حقيبته.

كنت أذهب في العادة من المطار إلى شقة والدتي مباشرة، وأتصل بتومبا على الفـــور، وفي خلال خمس عشرة دقيقة أكون في سيارة والدتي، وفي طريقي إما إلى متجـــره، أو إلى منـــزله. في المرات القليلة الأولى، كنت ألقي التحية على والدتي، وأقول لها إنني مضطر للخروج سريعاً، ولكنها اعتادت ذلك.

كان ريتشارد تومبا أحد الأشياء القليلة الجيدة - حقيقةً كان الشيء الوحيد الجـــيد - الذي نشأ عن احتجازي في تلك الزنـــزانة القذرة في مقاطعة كوياهوجا

لمـــدة ثلاثين يوماً منذ اثني عشر عاماً. كنت هادئاً جداً، وكنت قد عقدت العزم علـــى ألا أتدخل في شؤون الغير، ولكن سرعان ما اكتشفت أن الأمور بالداخل ليست مثلها بالخارج. فبالداخل ما من مكان يمكنك الانفراد فيه بنفسك، لذا من الأفضل حتماً أن تشكل صحبة ملائمة، وإلا فسوف تسوء الأمور سريعاً.

كان أحد المساجين الآخرين شخصاً يدعى فيني جارامندي أو "الرأس الضخم". لم أســـأله قـــط عن مبرر سجنه، لأنني خشيت أنه قد يخبرني. كان ذو الرأس الضخم معجباً بي، وكان دائماً ما يجاذبني أطراف الحديث عند ساحة التدريب. كان يضحك، ويـــبلغني كـــيف كـــان يجدر بي أن أكون قواداً وليس لصاً، كما لو كان هناك أي اخـــتلاف. وحيـــنما أوشكت مدتي على الانتهاء، أخبرني عن الحانة التي يتسكع بها بـــشارعي 105، وأوكليد، وقال إنني يجب أن أزوره هناك بعد أن يخرج من السجن، وقد زرته بالفعل بعد بضعة شهور، وتصادف وجود ريتشارد تومبا هناك تلك الليلة، وقدمنا (عرّفنا) ذو الرأس الضخم إلى بعضنا البعض.

تجاذبـــت أنـــا، و"بلوت" تومبا أطراف الحديث، وعلمت أنه امتلك ما كان وقتـــئذ أحد أكبر، وأرقى متاجر المجوهرات في كليفلاند (على ذكر "أكبر"، كان يجـــب أن أذكر أن تومبا كان يدعى "بلوت" لأنه كان يزن حوالي أربعمائة بوند (182 كلـــغ)، ويبدو كشخصية بلوتو في كارتون بوباي). لم تكن طفرة كبيرة، بالنظر إلى وجوده في تلك الحانة المروعة والأصدقاء الذين بدا أنه يرافقهم، أن يفعل بلوت ما هو أكثر من نصح المتحابين بشأن خواتم الزواج. وعندما أخبرني أنه يقوم بـــتجارة كبيرة في "حلي الأسرة التي جيء بها من البلدة القديمة على يد المهاجرين" - أي أنها أغراض لا يمكن اقتفاء أثرها على الاطلاق - كان من الواضح تماماً أنه تاجر مسروقات. في ذلك الوقت، وجدت ذلك غير ملائم، ولكنه ساحر، ولكننا صـــرنا أصدقاء أنا، وتومبا، واستمر اتصالنا ببعضنا البعض، وبعد ذلك وجدت فيه نفعاً هائلاً.

كـــان ذلـــك أيضاً درساً جيداً في عدم النفع المطلق للمظاهر الخارجية. فبعد بلوت، لم أصدم ثانية أبداً بالفساد الذي كمن في العمق خلف الواجهة البراقة.

* * *

في ذلك الوقت كنت قد عرفت بلوت لسنوات، ولكنني لم أزل أتقصى بعناية كلما ذهبت إلى منـــزله، أو متجره، بحثاً عن بوادر خطة. بعد أن تصبح لصاً، تميل إلى التفكير كلص طوال الوقت، ويصبح من العسير أكثر، وأكثر أن تثق بأحد على الإطـــلاق. ومثل ممثل المسرح الذي تحوم حوله فراشات الأضواء ليلة تلو ليلة، أياً كان عدد المرات التي زرت فيها بلوت لبيع المسروقات، لم أعتد الأمر قط. بسبب ذلك، فضلاً عن الخطر المحيق بي لكوني مستولياً على مجوهرات غير مشروعة، كنت أحب أن أتخلص منها بأسرع ما يمكن.

كنت أجلس أنا وبلوت بالحجرة الخلفية في متجر مجوهراته المحترم، ونفحص المسروقات التي أحضرتها إليه. كان معدن نفيس كالذهب يتم تصريفه سريعاً، لأن ذلك كان يعتمد بشكل أساسي على الوزن والنقاء وأحوال السوق بالشارع. أما الجواهر المصقولة، والأحجار الكريمة، فكانت قصة مختلفة. فقد كنا نمضي ساعتين، أو ثلاثـــة في وزن الأحجـــار وفحصها بعناية. وكان لدى كل منا عدسة الصائغ، وهي عبارة عن عدسة مكبرة، ذات يد، وعدسات عالية الجودة. كان بلوت يحملق في الحجر، ثم يسلمه لي مع تقرير دقيق مفصل عن مبرر كونه نفاية.

كان يقول عن ماسة ما أنها "مليئة بالتعرجات".

فأرد قائلاً: "إنها بالكاد ترى، ونقاؤها مذهل".

فيهز رأسه قائلاً: "نعم، ربما، ولكن هناك مسحة ضاربة إلى الصفرة...؟"

كان بلوت خبيراً معتمداً في الأحجار الكريمة، وهي ثقة اخترت التنازل عنها بنفسي بدلاً من أن أضطر لأن أفسر في يوم من الأيام سبب تكبد شخص في مجال العقارات عناء التدرب على تقييم الأحجار الكريمة. ومع ذلك، فقد درست بشكل مكثف بالاعتماد على نفسي، وصرت خبيراً مثله في الأحجار الكريمة، وقد عرف هو ذلك.

كان تخصصي هو الماسات. على الرغم من ندرة ملك الجواهر، وأغلاها أمر يكاد يكون صناعيّاً - تقوم شركة دي بيرس في جنوب أفريقيا بالتحكم بشدة في عـــدد الماســـات التي تدخل السوق كل عام، للحفاظ على ارتفاع الأسعار - يتم تقيـــيم الماسات وفقاً لأربعة معايير. و"القيراط" هو أكثر عوامل الجودة موضوعية،

ويشير إلى وزن الماسة. وهو مصطلح شديد القدم مشتق من كلمة "خروب"، وهي بذرة لا تختلف كثيراً في وزنها عنه، وكانت تستخدم كوحدة للوزن في اليونان القديمة. وتكون الأونس (28 غراماً) عبارة عن 142 قيراطاً. وحيث إن الماسات الكبيرة تكون أندر من الصغيرة، تكون قيمة القيراط أعلى في الماسات الكبيرة، وعلى ذلك، فإن ماسة وزنها قيراطان قيمتها أكثر بكثير من ماستين تزن الواحدة منهما قيراطاً، وتتشابهان في الجودة. (يجب أن لا يتم الخلط بين "قيراط"، و"كيراط"، وهو مصطلح آخر لدى الصائغين، يشير إلى نقاء الذهب).

أما المعيار الثاني، فهو "الصفاء". تحتوي أغلب الماسات على شوائب داخلية تدعى مكتنفات، وعادة ما تنتج عن بقايا المعادن. ويتم تصنيف الصفاء اعتماداً على عدد، وحجم، ونوع التعرجات. وتكون الماسة "الخالية من الشوائب"، وهي تلك التي تخلو من الأخطاء الداخلية، والخارجية، شديدة الندرة، وثمينة للغاية. في هذه الأيام، قد تصل قيمة الماسة التي تزن قيراطاً واحداً، ويتم قطعها بشكل جيد، وتحتوي على شوائب بالكاد ترى بالعين المجردة ما يقرب من خمسة آلاف دولار، بينما قد تتجاوز الماسة الخالية من الشوائب، والتي تكون بالحجم وطريقة القطع ذاتها السبعة آلاف دولار.

على ذكر "القطع"، فهذا هو المعيار الثالث، ويشير إلى كيفية تشكل الحجر النهائي من الكتلة التي استخرجت من الأرض في الأساس. ولا يكون شكل الماسة مبهراً جداً، وهي لا تزال تحت الأرض، ولا بد من أن يحرر الحجر النهائي من تحت الأرض، بحيث يصبح بجودة الحجر الكريم. ولا بد من أن تولى عناية فائقة لاستدارة، وعمق، وعرض، وتناسق الوجيْهات، وهي السطوح الصغيرة المسطحة التي تشكل المظهر الخارجي للماسة. وتشبه الماسة المقطوعة على نحو كلاسيكي للماسة شكل خُذْرُوف (فُرْفيرة) الخاص بالأطفال، فيما عدا أن الحواف جميعها تكون مستقيمة، لا مستديرة. وعندما ينفذ الضوء داخل الماسة، يرتدّ ثم يخرج ثانية من قمتها. وإذا كانت الماسة قد تم قطعها على شكل كتلة قصيرة وثخينة، فسوف يتسرب الضوء من الجوانب، ويفقد الحجر الكريم بريقه. وإن كانت عميقة للغاية، فسوف يتسرب الضوء من القاع، وسيبدو المظهر باهتاً.

ولكـــن إذا تم قطعها على النحو الصحيح، بحيث تتخذ كافة الوجيهات الزوايا الصحيحة بالنسبة لبعضها البعض، فسوف ينفذ أغلب الضوء داخل الماسة، ويخرج من السطح العلوي، وسيبدو الحجر غالباً كما لو كان يشع ببريق ينبع من داخله. ويطلق علـــى القطع الكلاسيكي "النموذجي"، بيد أن هناك العديد من طرق القطع "الرائعة"، مثل الشكل البيضاوي، والزمردي، والمشع، والبيضاوي المدبب، والكمثري.

أمـــا المعيار الأخير، فهو "اللون"، حيث تعكس الماسة الضوء بالطريقة نفسها التي يعكسه بها المنشور الثلاثي، الذي يمكن أن تكون قد عبثت به في صف العلوم، فـــيما عدا أنها تكون أكثر تعقيداً. يقسم الانعكاس الداخلي الضوء الأبيض العادي إلى العديـــد مـــن ألوان قوس قزح، والتي تلمع في عينيك عندما تتسرب من الماسة وكأنهـــا "نار". وإذا كان بالماسة أي لون، عادة يكون اللون مصفراً، ويكون الأمر مـــثل النظـــر إليها عبر نظارات شمسية. فاللون هنا يعمل كمرشح، يقلل من تأثير النار. وبالتالي، وبشكل تقليدي، تكون أجمل، وأثمن الماسات هي تلك التي تحتوي على أقل نسبة من اللون. وقد تصل قيمة الماسة الخالية من اللون تقريباً، والتي تزن قيراطاً واحداً، وتم قطعها بالشكل النموذجي حوالى أربعة آلاف وخمسمائة دولار، بيـــنما يمكن أن تتعدى قيمة الحجر الخالي من اللون تماماً، ويحوي الشوائب نفسها ضعف هذا المبلغ. وأقول "بشكل تقليدي"، لأن الموضات تأتي، وتذهب، كما هو الحـــال مع كثير من الأشياء المرتفعة الثمن، والتي لا يكون لها في الأساس أية قيمة جوهرية على الإطلاق. وعادة ما تعد الماسات ذات شيء من اللون أقل قيمة، أما تلك التي تحوي الكثير من اللون، فإنها غالباً ما تكون مرغوبة بشدة، في حالة تناسق اللـــون خلالها. وينطبق هذا الأمر بشكل خاص على الماسات الصفراء، أما الألوان الأخـــرى، فتتماشـــى مع الموضة، أو تبعد عنها على مرّ السنين. وبغض النظر عن ذلك، على أية حال، فقد كانت الماسات الصافية، أو البيضاء الضاربة للزرقة على قمـــة عـــرش الجـــودة دائما. (تجعلك الماسات تتعجب يقيناً من الناس: لماذا يدفع شـــخص المـــزيد مـــن الآلاف لقاء الجودة، التي لا يمكن أن يكتشفها سوى خبير مدرب في الأحجار الكريمة، بل وحتى هذا الأخير لا يكتشفها إلا بعدسة مكبرة؟ لا غرو أن الفنانين المحتالين، ومحترفي الدعاية لا يفقدون القدرة على العمل أبداً).

فضلاً عن وزن القيراط، تعد كافة عناصر الجودة، إلى حدٍّ ما، مسألة تقدير، لذا فمن السهل رؤيتي وبلوت نعكف على الجدل حول أحجار فردية. وليس لأي منا بالفعل اليد الطولى في تلك المناقشات، ولكنّ كلينا يكون مدفوعاً للتوصل إلى اتفاق. ربما كان لديه أشخاص آخرون يأتونه بالمسروقات، ولكنني هنا، الآن، ومعي بضائع فائقة الجودة، وهو لن يود أن أذهب، بينما لا يزال هناك الكثير من الفائدة لاغتنامها. كان يعلم أيضاً أني أحضر له أحجار كريمة أفضل بكثير مما يجلبه غيري، وقد أراد أن أظل مصدر مستمر للبضائع الجيدة.

أما بالنسبة لي، فقد كان لديّ تجار مسروقات آخرون يمكنني الذهاب إليهم، ولكنني لم أحب فكرة حمل الأحجار الكريمة في جميع أرجاء المدينة. وبالإضافة إلى ذلك، ومع الوضع في الحسبان حجم التجارة التي أقوم بها مع بلوت، فقد كان هناك خطر أقل بكثير مما يمكن أن ينجم عن التعامل مع أشخاص آخرين لا أعرفهم. كما أنه كان يعلم قدرتي على تقدير الأحجار، ولم يبدد الكثير من الوقت في محاولة خداعي.

لذا كان من مصلحتنا نحن الاثنين أن نعمل بعقلانية، وننهي الصفقة، وكانت مناقشاتنا عبارة عن تبادل منطقي للآراء، يعتمد على المزايا الحقة للأحجار. وعندما لا يمكننا الاتفاق، أو عندما تكون هناك عناصر لا يريدها فحسب، كنا نضعها جانباً، ويقوم بعرض مبلغ إجمالي لقاء باقي الأغراض، ثم نتناقش قليلاً بشأن المبلغ المعروض. بيد أنني، وتومبا لم نخفق أبداً في عقد صفقة في المرات العديدة التي أحضرت إليه أغراضاً فيها، وقد قمنا بذلك ثانية في هذه المرة.

بعد إتمام هذا الأمر، وتحويل غنيمتي الحديثة إلى نقود تدعو للاسترخاء، كنت حراً في قضاء الأيام القليلة التالية في زيارة والدتي، وخالتي، وفي الاهتمام بشؤون عقاراتي.

* * *

لنعد أدراجنا إلى بحث السوق.

في أغلب أمسياتي في كليفلاند كنت أصحب أمي، وخالتي لتناول العشاء. وكنت أشعر دائماً بالسوء حيال تركهم عندما انتقلت بأسرتي إلى فلوريدا، ولا

سيما أن كلتيهما كانت تعيش وحيدة بعد أن فقدت زوجها. وشعرت بالتزام بقضاء أكبر وقت ممكن معهما، وكنت سعيداً أن لديّ مبررات للعودة إلى هناك في كثير من الأحيان.

بين الفينة والأخرى كنت أتوجه إلى متجر بيل ويللينج في شارع 49 الشرقي. كانت أيام سطوه على المصارف قد ولّت منذ زمن بعيد، وقد أضحى شخصاً محترماً مستقيماً. وحيث إنه لم يُلقَ القبض عليه أبداً، لم تكن له صحيفة سوابق، وقد ذهب للعمل من أجل مجلس إدارة مدرسة كليفلاند، حيث عمل لما يزيد على ثلاثين عاماً. ولأنه كان دائماً يعمل بجد، فقد وصل في النهاية إلى منصب يسافر من خلاله إلى العديد من المدارس في جميع أنحاء المدينة. وكان من شأن ذلك أن يوفر له الكثير من وقت الفراغ، لذا فقد استغل القليل من مهاراته اليدوية المميزة في أغراض مشروعة، وأسس تجارة مع أخيه، جون، يقومان فيها بإعادة تركيب الأبواب، وتحديث طراز المطابخ. وحيث إن أغلب العاملين لديه كانوا يعملون نهاراً في وظائف أخرى، كان أغلب العمل يتم ليلاً، وصار المتجر الصغير مرتعاً للأصدقاء. وكان لدى ويللينج دائماً برميلاً معداً من المشروب المفضل، وكان كل من يحضر يعمل على المساعدة في أعمال النجارة.

ربما كان ويللينج قد انتهج السبيل المشروع، لكن العديد من رفاقه كانوا لا يزالون يمارسون حياتهم غير المشروعة. كان بعضهم يأتي إلى المتجر لحسن الصحبة، لكن العديد من الآخرين كانوا حقاً في حاجة ماسة لبضعة دولارات يحصلون عليها في مقابل نشر جذوع الأشجار، وتجميع إطارات خشبية لويللينج. ويجعلك ذلك تتساءل عن العائد الصافي لكونك مجرماً، ولكن العديد من أولئك الأشخاص أشبه بمقامرين فاسدي الخلق، يظنون أن عليهم الحصول على غنيمة واحدة كبيرة فقط، وبعدها يعتزلون المهنة. أجل، صحيح، فالحقيقة أنه ليس هناك لصٌّ أو مقامرٌ أعرفه – وأنا ضمنهم – قد وضع في عقله أبداً رقماً يحاول الوصول إليه. لذا فأياً كان قدر ما يربحونه، أو يسرقونه، من المستحيل أن يعرفوا ما إذا كانوا قد اجتازوا العتبة السحرية، أم لا، وبالتالي يعتزلون. بالطبع كان هذا أمراً مقصوداً، ومدركاً في العقل الباطن، فالأمر بالنسبة للصوص، والمقامرين نادراً ما يتعلق بالمال في حدّ ذاته.

في إحدى الأمسيات، عقب انتقالنا لفلوريدا بحوالى خمس سنوات، كنت في متجر ويللينج أنعم بالاسترخاء بينما أتناول قدحاً من المشروب المفضل، وتطرقت لحديث مع شخص يدعى واين، والذي كان يعمل بصحبة ويللينج في وظيفة نهارية بمجلس إدارة المدرسة. كان كثير الكلام، بينما كنت مستمعاً، وكان الأمر انسجاماً طبيعياً. وبينما عكفنا على تناول المزيد من المشروب المفضل، ثرثر واين بالمزيد، والمزيد من الحديث، و لم يبدُ أنه لاحظ الأوقات التي تحول فيها انتباهي عنه. وفي النهاية، أخبرني أنه يعمل بوظيفة ثانية، وهي غسل النوافذ في بعض الشقق الفاخرة في شاكر هايتس، وبيتش وود. أدّى ذلك إلى أن يخبرني بسلسلة من القصص المملة عن كيف أنه لم يتقاضَ أجراً كافياً، ويعمل كثيراً، و لم يتم تقديره، وما إلى ذلك. ويبدو أنه لم يكن ممتنّاً بوجه خاص لهؤلاء الأثرياء المتفاخرين، الذين يزيدون دخله. وكنت أحس وراء قصصه عن الدفع البطيء، والشكاوى المزعجة بأنه يرثي لحاله، وشككت في أن سكان تلك الشقق الفاخرة لديهم مشكلات في عمل واين. وكنت أتمايل من النُعاس تقريباً عندما بدأ في التذمر من سيدة كانت تثير امتعاضه بشكل خاص.

بصق قائلاً: "عجوز ثرثارة. أرملة لديها الكثير من المال اللعين، والوقت، ولا تفعل شيئاً سوى أن تحتسي الشراب طوال اليوم، وتوبخني، وتشتكي من هذا، وذاك. إذا نسيت أمراً صغيراً، فهي تطلب مني أن أقوم بالعمل بأكمله، ولكن عندما يأتي وقت التحصيل؟ دائماً ما تكون هناك مشكلة. وكأنها تنتظر شيك الإعانة الاجتماعية تلك العجوز الثرية اللعينة".

أعدت فتح جفني، وغمغمت بشيء يوضح أنني ما زلت أنصت، و لم يستغرق الأمر أكثر من إعلان الأسف على حال واين.

قال بمرارة: "لن تصدق ذلك. كل تلك الأموال التي تمتلكها المرأة العجوز. لديها خزانة ملأى بالجواهر والقلادات والأساور المبعثرة في كل أنحاء المكان...".

قال صوت من خلفي: "محض لغو"، والتفت لأرى ويللينج، وهو يأخذ بعض المشروب المفضل من الزجاجة. ترك مقبض الوعاء يرتد بسرعة، وغمز لي بعينه بابتسامة خفيفة، ثم أشار تجاه واين بكأسه.

"كلها مزيفة في الغالب". كان ويللينج يدرك تماماً ما كان يجول بخاطري.

اندفـع وايـن قـائلاً: "تـباً لذلك. لقد أبصرت الأغراض، وأقول لك أنها حقيقية!"

بعد أن مضى ويللينج بعيداً، واصلت تقديم المزيد من المشروب المفضل لواين، وحملته على مواصلة الحديث، حيث أطرح عليه أسئلة تبدو سليمة النية عن شكل الشقة، وهل تخرج السيدة منها، وما إلى ذلك. كان مسروراً لإيجاد من يصغي إليه، واستمر في اللغو لمدة ما يقرب من أربعين دقيقة أخرى، ونحن نتجرع أقداح المشروب المفضل، بينما كان كل ما تناولته طوال الوقت هو قدح واحد.

عـندما أيقنت أننا صرنا على علاقة وثيقة، وأنه كان مسترخياً للغاية، قلت: "أعرف العديد من الناس الذين يقطنون في بلير، فمن هذه السيدة بأية حال؟"

بعـد ذلك بفترة، خرج واين من المتجر في النهاية مترنحاً، فانفردت بويللينج، وسألته عما إذا كان واين يعي ما يقوله فيما يتعلق بأمر الجواهر.

أجاب ويللينج: "ربما، فشقيقه يعمل صائغاً".

تمنيت أن يفيق واين في الصباح التالي على الآلام الحادة التي تتبع الإسراف في الشراب، وينسى كل شيء تحدثنا عنه.

* * *

بعـد أن بحثت عن زبون جديد محتمل بهذه الطريقة، حان الوقت للتأكد من أهليتها.

أمضيت بضعة أيام أخرى في كليفلاند عاكفاً على أملاكي. تحررت من كافة ارتباطاتي الليلية بعد أن أبلغت أمي وخالتي أن هناك عملاً كثيراً عليَّ أن أقوم به قبل أن أعود إلى فلوريدا. وقضيت تلك الأمسيات أستقصي كل ما يتعلق بتلك العجوز التعسة، والتي تقيم في شقة زاخرة بالجواهر.

كانـت أول محطة أتوقف فيها هي مكتبة شاكر هايتس العامة، حيث كنت أفحـص دليل المدينة. إن أدلة المدن هذه أشياء رائعة، فهي بمثابة مراجع للصوص تنـشر علـى نفقـة الدولة. فمن خلال ذلك الكتاب الوحيد علمت رقم هاتف السيدة، وعدد الهواتف التي ملكتها، ورقم جناحها في بلير هاوس، ووظيفة زوجها

الـــراحل، ومعلـــومات أخـــرى مماثلة عن كل الناس المقيمين فوقها، وتحتها، ومن حولها. استغرق ذلك كله نصف ساعة، ثم توجهت صوب المبنى ذاته للمعاينة.

كـــان بلير هاوس أحد صفوف المباني السكنية ذات الشقق المرتفعة القيمة في شرقي شاكر هايتس. أحسب أن اسمه الرنان كان من المفترض أن يبعث في النفس صـــورة المقـــر الرسمـــي لوزارة خارجية الولايات المتحدة بواشنطن، التي يزورها الأشخاص الرفيعو المقام. لكن هذا كان مكاناً فاخراً عن جدارة واستحقاق. فقد كانت واجهته الأمامية تطل على جادة فان أكين، بينما يطل بواجهته الخلفية على نـــادي شاكر هايتس الخاص بعليّة القوم، والذي تم تشييده عام 1913 وكان يعد أحـــد الـــروائع الـــتي تمخضت عنها مهنة المهندس المعماري، دونالد روس، أشهر مصمم لملاعب الجولف. وكان أريج الثراء القديم ينبعث من الجيرة بأكملها.

كـــان النظام الأمني في بلير هاوس مؤلفاً من وسيلة اتصالات تلفونية داخلية، وكـــاميرا تلفـــزيونية عند اللوحة المعلقة على الباب الأمامي. فإذا قمت بالاتصال بشخص ما، يمكنه أن يرى صورتك عبر التلفاز، إذا رغب، أو أن يكتفي بالسماح لـــك بالدخـــول اعتماداً على صوتك. وبالطبع، إذا حدث و لم يكن جهاز التلفاز مفعلاً، ومضبوطاً على المحطة الصحيحة، فلن يروا أي شيء. في تلك الأيام، كانت أغلب أجهزة التلفاز لا تزال تدار بالأنابيب بدلاً من الأجهزة الصغيرة المحمولة، مما عـــنى أنه كان هناك شك في أن الكثير من الناس يفتحون التلفاز، ويجلسون حوله، بيـــنما يتأهب للتشغيل كلما تلقوا مكالمة من الطابق السفلي. كان من السهل أن أتسلل إلى الداخل، إذا اضطررت.

لكـــني لم أرغب في ذلك، وإنما تجولت متفحصاً المكان قليلاً، وكان أول ما توصـــلت إلـــيه هو مدخل الخدمة. وباستخدام مفك، وضعت بعض الضغط بين الباب، وإطاره، فانفصلا بسهولة، ليكشفا عن آلية المزلاج. كان لديّ آلة كنت قد صنعتها، وهي عبارة عن قطعة رقيقة، ولكنها قوية، من المعدن متعرجة على شكل الحرف S. انـــزلقت القطعة بسهولة حول الباب، وخلف المزلاج الزنبركي. وكان من شأن دفعها قليلاً أن تدفع بالمزلاج إلى الخلف قليلاً لينفتح الباب. والآن، كنت علـــى دراية بمجريات الأمور في المبنى. (بإمكاني الآن أن أسمع استجواب الشرطة

لإدارة المبنى عن مبرر عدم استعانتهم بأقفال أكثر فعالية، فيجيب الملك الحتمي للردود الحمقاء قائلاً: "ولكننا لم نسرق من قبل أبدًا!" وكأن الأمن الجيد شيء لا تحتاج إليه إلا بعد أن تتعرض للسرقة).

لم يكن هناك أحد بالقرب، وبعد ذلك ببضع ثوان كنت في جناح السيدة، الذي كان له بابان لم يقترب أي منهما بما يزيد عن خمسين قدماً (15 متراً) من أجنحة الجيران. كان الباب الرئيسي يحوي ثلاثة أقفال صلبة، بيد أن مدخل الخدمة كان عليه قفلٌ واحدٌ – لا بد أنك خمنت ذلك. أحسب أن تفكيرهم كان إن حاول شخص ما السطو على المكان، سيختار الباب الرئيسي. كان ذلك النوع من التفكير الذي يجعل حياتي أيسر، ولكن كان عليَّ أيضاً أن أفترض أن المستأجر لم يكن غبياً. ربما كان السبب في وضع قفل واحد على مدخل الخدمة أنه كان مقفلاً بمزلاج صلب من الداخل. وإذا كان الأمر كذلك، فقد لا أتمكن من الدخول عبر الأبواب الداخلية.

كان الجناح من الشقق التي تطل على ساحة الجولف، لذا عدت إلى الخارج، وتجولت حول المبنى. كانت ليلة معتمة، وقد تسرب القليل من الضوء من الشارع، وكان بإمكاني أن أستغرق بعض الوقت في استطلاع المكان.. كانت الوحدات السكنية التي تحتوي على أروقة هي الشقق الواقعة في الطابق العلوي. وإذا كنت سأهبط من الأعلى، وأدخل الجناح عبر النافذة، يجب أن أمر من إحدى تلك الشقق، أي أن هناك فرصة أخرى لرؤيتي، وهذا عنى أنني يجب أن أنفّذ المهمة عندما لا تتواجد السيدة، وجارها في الطابق العلوي في المنزل. وبالمناسبة، كانت السيدة في المنزل في هذا الوقت، فسجلت في عقلي ذلك اليوم، والتوقيت.

كانت لديّ فرصة واحدة أخرى للعودة إلى هناك خلال تلك الرحلة إلى كليفلاند، وبعدها كان عليَّ العودة إلى فلوريدا. حاولت أن أبعد عن ذهني فكرة بلير هاوس، ولكن الأمر كان عسيراً. فور أن تستولي على عقلي سرقة محتملة، فإنها تمكث فيه كفيروس حتى أقوم بها، أو أنبذها تماماً بسبب خطورتها الشديدة. وقد زرت المكان ثانية لعدة مرات خلال رحلاتي الثلاثة التالية.

كانـــت هذه طريقة رديئة لملاحقة مهمة، فقد كنت أزور المكان على مدى شهور متفرقة، و لم أتمكن من تكوين أي نوع من جداول المواعيد بالنسبة للمرأة – هل كانت هناك ليالٍ في الأسبوع تتناول فيها الطعام بالخارج، أو تلعب القمار، أو تـــذهب إلى الـــسينما؟ تـــباً، لم أكن أعرف حتى إن كانت تقود سيارة، أو تملك واحدة. لم أشأ أن أدخل المبنى ثانية إلا في حالة الضرورة، وفي حال التقيت مصادفة بأي شخص، فإن لديّ العديد من المبررات الوجيهة لكوني هناك، ودائماً ما كنت أهـــتم بأنـــاقتي، حتى لا أثير الشك. لكني لا أحفل إن كنت لورانس أوليفييه: حينما تـــدرك في أنك تخطط لشيء ما، فمن المستحيل أن تتصرف على نحو طبيعي، وتكون شديد العصبية بحيث لا يمكنك أن تقيم بدقة ما إذا كنت تكشف نفسك أم لا.

كـــان علـــيَّ أن اكتشف أمر السيارة، مع ذلك، ولذا في صباح يوم شديد البرودة، وقبيل الفجر تماماً، ذهبت إلى المبنى ثانية، ونـــزلت إلى المرآب. كانت أماكن الانتظار ترقم بالوحدات في ذلك اليوم. (كانت تلك إشارة أمنية واضحة للكفيف تقول: لا تفعل ذلك!) وكان هناك مرافق في الخدمة، ولكنه كان نائماً، لذا تمكنت من الاهتداء للمكان الصحيح، وتفقدت السيارة. كانت سيارة من طراز كاديلاك مضى عليها أربع سنوات، وهي بحالتها الأصلية، دون خدوش في أي مكان. وربما كنت مدفوعاً للاستنتاج إلى أنها نادراً ما كانت تقودها، لكنني اكتشفت أنها كانت قـــد دفعت للمرافق لتوها كي ينظفها بشكل منتظم، وربما وبخته بشأنها بالطريقة نفسها التي كانت توبخ بها واين بشأن النوافذ. والآن، وقد علمت شكل السيارة، يمكنني أن أراقبها وهي تخرج، وتدخل بها، وأتبين إن كانت تسير على روتين ما.

عـــدت أدراجي إلى أعلى، وقبعت في الدرج البعيد في نفس الطابق الذي تقطـــنه السيدة. كانت الساعة حوالى السادسة والنصف صباحاً الآن، أي قبيل ســـاعة الازدحـــام القـــصوى الطبيعية، عندما يذهب الناس إلى عملهم، وتبدأ الخادمـــات، وفـــئة العـــاملين في الوصول والتجول في المكان. سوف يقومون بإخـــراج النفايات، وإحضار البقالة، وحمل الأدوات، وتسليم الأشياء... كنت قـــد تعودت تماماً على أساليب الحياة داخل المباني بعد أن عملت داخل وحول المباني السكنية لعدة سنوات.

جلست هناك لثلاث ساعات ونصف، وقد استبد بي التوتر والحذر، ولم أرَ، أو أسمع أي شيء. هل مات كل من في المكان؟ وعندما اكتفيت من ذلك، ذهبت إلى المصعد مباشرة لأهبط إلى الردهة، ومنها إلى الباب الأمامي، وصولاً إلى سيارتي. لم أبصر شخصاً واحداً طيلة الوقت. قد يبدو ذلك نبأً ساراً، بيد أنه كان العكس تماماً. كان ازدحام المرور أمراً جيداً لعدة أسباب؛ أولاً: فهو جعل وجود شخص آخر أقل ملاحظة. ثانياً، سمح لك أن تركز على روتين ما، وتقيم انتظامه. أما عدم رؤية أية حركة على الإطلاق، فإن هذا عنى أن أية حركة سوف تحدث، ستكون عشوائية، وغير متوقعة، وربما خطرة.

أكسبني قضاء المزيد من الشهور في الملاحقة المحبطة بضع معلومات جديدة. يبدو أنني لا بد من أن آتي ببساطة إلى المبنى، مجهزاً تماماً، كما سيقتضي الأمر الكثير من المرات، ثم أستمر في الذهاب إلى منزلي حتى تخرج أخيراً في إحدى الليالي. وعندما تفعل ذلك، لن يكون لديّ أدنى فكرة عن المدة التي ستمكثها بالخارج. كان ذلك أمراً عليَّ أن أفكر فيه بإمعان قبل أن أنفّذ. لقد استسلمت في العديد من مشاريع السرقة التي بذلت فيها الوقت والجهد مفكراً حينما أبت النجوم ببساطة أن تصطف بشكل صحيح. ومع ذلك، اتخذت قراراً واحداً، وهو أن أركز على باب الخدمة المؤدي إلى الشقة، بدلاً من الباب الأمامي. لم أشأ أن أربك نفسي بثلاثة أقفال، وسوف يكون من الأيسر أن أنهي ذلك العبث بمدخل الخدمة، في حالة واجهني أحدهم.

* * *

مرّ الشتاء ببطء وصولاً إلى الربيع، ولم أكن قد تحركت تجاه هذه المهمة. كنت قد ترددت على المكان عدة مرات، ولكنها كانت دائماً في المنزل. وبدأ الأمر يبدو وكأن الوسيلة الوحيدة لتنفيذ ذلك هي أن أخيم بالمكان لمراقبته أربع وعشرين ساعة في اليوم لمدة أسبوع، وكان من المستحيل أن أفعل ذلك. بالإضافة إلى ذلك، فيما تعلق بي، لم تكن تلك قد صارت "زبوناً محتملاً مؤهلاً تماماً"، ولم أكن لأقوم بذلك النوع من الجهد من أجلها.

عدت إلى كليفلاند ثانية في نهاية شهر أيار/مايو، وقررت البقاء هناك خلال عطلة نهاية أسبوع يوم شهداء الحرب. عدت مساء يوم الخميس، وقمت

بـــرحلتي المعتادة إلى متجر بلوت تومبا للجواهر، لأفرغ لديه كمية صغيرة من ســـرقة سابقة، وأخرج من عنده بعشرة آلاف دولار. وكما هو معتاد بالنسبة إليّ، كنت أود أن أودع النقود في إحدى الخزائن الموجودة في محل عملي بأسرع ما يمكن، ولكن بينما كنت أقود في شارع وارينسفيل سنتر، لمحت نادي شاكر هايتس، وانعطفت دون تفكير صوب جادة فان أكين. تركت السيارة على بعد ما يقرب من عمارة من بلير هاوس، وقمت بجولة عرضية لأرى ما كان يحدث. الأمر القديم نفسه: كانت الأنوار مضاءة في شقتها، وكان بمقدوري تبين حركة ما في الداخل.

عـــدت ثانـــية ليلة الجمعة، ولكن تكرر الأمر نفسه. كان هذا الأمر يتحول بالفعل إلى مضيعة يائسة للوقت، وبدأت أفكر في كيفية التخلص من هذا الكابوس المزعج، وأن أتناساه تماماً. ولكن هذا لم يكن بالأمر اليسير، مع ذلك، إلا إذا كان هـــناك عائـــق لا يمكـــن الـــتغلب عليه. ولكن إن كانت المشكلة فقط نقصاً في المعلومات، أو تتعلق بمسألة التوقيت، فقد كان من العسير أن ألغي الأمر برمته، لأن الحل يمكن أن يكون على مقربة منك.

عـــدت ثانية في حوالى الساعة الثامنة ليلة السبت، ولم أصدق ما رأيته، بينما كنت أنظر إلى المبنى. كانت أنوارها مطفأة، وكذلك أنوار كل فرد في المبنى تقريباً. مـــا هذا بحق السماء؟ هل غادرت مجموعة من الأثرياء في الوقت نفسه؟ تساءلت بشدة إن كانوا قد ذهبوا جميعاً إلى المكان نفسه.

إن صدمة رؤية تلك الأنوار مطفأة عقب عدة شهور قد جعلت رأسي يدور. كـــان تـــسجيل ذلك في ذاكرتي الذهنية، والتحرك بعد ذلك لم يكن منطقياً على الإطـــلاق، ولم يكن هذا جزءاً من أي نوع من الروتين. ليلة سبت من عشر، أو اثنتي عشرة ليلة؟ لم يخبرني ذلك بشيء البتة. إذن فماذا كان الهدف من العودة حتى إلى هناك ليلة تلو أخرى؟

استدرت حولي، وخطوت بضع خطوات، وهززت رأسي بشدة عدة مرات، وعـــدت للنظـــر ثانية. ما زال الظلام مخيماً في أعلى ذلك المكان، ولم تكن هناك جـــدوى مـــن خداع نفسي. إن لم أنفّذ المهمة فوراً، فلن أنجزها قط، وبغتة صار

الـــزمن عدواً لي. لم تكن لديّ أذني فكرة أين كانت، أو متى ستعود. وحين أشرع في التفكير في ذلك، لم أكن موقناً تماماً أنها قد خرجت.

عـــدت مسرعاً إلى سيارتي وقدتها إلى المبنى، حيث خبأت الأدوات التي كنت أعـــددتها جانــباً بيـــنما كنت أفكر في كيفية أداء هذه المهمة. طلبت رقم هاتف الـــسيدة، وأمسكت بالهاتف بعضدي بحيث يكون ملاصقاً لأذني بينما كنت ألقي بـــالأدوات داخـــل حقيبة. عشر رنات، وما من مجيب. أدرت الرقم ثانية، ببطء وعناية، لأتيقن من أنني أصبته، ولكن لا شيء.

كانـــت الأدوات كلـــها معدة للذهاب، لكني استغرقت وقتاً في طلب أرقام الـــشقق جميعها على جانبي شقتها، وأعلاها، وأسفلها، وكذلك تلك التي تقع في المستوى نفسه. لم تكن هناك إجابة في أي مكان. نظرت إلى ساعتي: كانت الثامنة وخمـــس وأربعـــين دقيقة. أي يمكن أن تكون؟ تتناول العشاء؟ ولكن هذا لا يهم بالفعـــل؛ لأنـــني لم يكن لديّ فكرة متى غادرت، وبالتالي لا أستطيع أن أخمن متى ســـتعود. ربما يجب أن أنتظر حتى ليلة سبت أخرى، وأبدأ في مراقبة المبنى في وقت مبكـــر مـــن اليوم، ولكني كنت أعكف على ذلك لعدة أشهر، وكانت تلك المرة الأولى الـــتي وجدتها بالخارج، وقد يستغرق الأمر عدة سنوات قبل أن تسنح فرصة أخـــرى. ومـــاذا لو دخلت في تلك اللحظة، و لم أجد شيئاً سوى صور أحفادها، وأدراج زاخرة بالجواهر المزيفة؟

أدركت بالفعل أنه لم يكن هناك من سبيل لأن أدر ظهري لتلك المهمة، وإلا فمـــاذا كان الهدف من كل تلك الشهور من الاستطلاع إذا كان كل ما فعلته هو تـــرك السرقة في الليلة الوحيدة التي وجدت فيها المرأة بالخارج؟ لذا يمكنني إما أن أقف هناك، وأجادل نفسي بينما تمر الدقائق الثمينة للأبد، أو أن أن أحول انتباهي تجاه تنفيذ المهمة.

في خـــلال أقـــل من خمس عشرة دقيقة تالية كنت في شارع فارنسليه، وهو تفـــرع صغير من شارع فان أكين. كانت ملابسي سوداء، ولكنها مثيرة للاحترام تمامـــاً بيـــنما أســـلك طريقـــي إلى مدخل الخدمة بالمبنى، وأستخدم أداتي الخاصة للدخول. عقب ذلك ببضع ثوانٍ، وصلت وجهاً لوجه أمام مدخل الخدمة الخاص

بالشقة. ابتعدت عنه، وسرت صوب الباب الرئيسي، وقرعت جرس الباب. لم يكن هناك من مجيب، لذا قرعته ثانية، ووضعت أذني بملاصقة الباب. لا بد من أن أعترف أن جزءاً مني كان يرغب في أن تجيبني. ويمكنني أن أخبرها أنني مندوب لبيع الكتاب المقدس، وأتحدث بأي حديث عن سبب ترويجي للكتاب المقدس في الساعة التاسعة مساء في ليلة السبت، ثم أخرج من هناك، وأتخلص من هذه المهمة للأبد. لكن لم يجبني أحد، و لم يتناهَ إلى مسامعي شيء من الداخل، وقرعت الجرس أربع مرات أخرى متلاحقة، ثم توجهت إلى باب الخدمة.

فحصت القفل بعين متمرسة، واستخرجت بسلاسة حافظتي المصنوعة من الجلد المدبوغ، وتخيرت بعناية معالج أقفال من ضمن صف من الأدوات المختلفة الأحجام. فور ما قمت بذلك، بقي ببساطة مهمة إدخال المعالج اللامع داخل القفل، ثم تحريكه بضع مرات، بينما كنت أنظر بعيداً، وأترك أصابعي الحساسة تقوم بدورها. بعد انقضاء ثلاث، أو أربع ثوانٍ كوفئت بصوت طقطقة عالية مرضية، بينما خضع القفل لخبرتي المذهلة.

مجرد مزاح. ففتح قفل في الحياة الواقعية هو أمر صعب. حتى عندما ينجح، وهو ما لا يحدث كثيراً، فإنه يستغرق وقتاً طويلاً في جعل كل من الأسنان البارزة تصطف إلى أعلى بطريقة ما، كل على حدة دون المساس بتلك التي عملت عليها بالفعل. كان هناك مبرران فقط في المقام الأول للخوض في كل تلك المتاعب؛ أحدها هو الاحتفاظ بسلامة القفل – وإذا كان كل ما فعلته هو نسيان مفاتيحك في مكان ما، فقد يستحق الأمر أن تفعل ذلك – والثاني هو أن بإمكانك الدخول، والخروج دون أن يعلم أحد أنك كنت هناك.

إذا لم يكن أي من هذين المبررين يلائمك، فهناك طرق أسرع، وأضمن للتغلب على القفل. يمكنك عادة أن تفك أغلب الأجزاء المصنعة من الخارج، وتفعل الآلية باستخدام مفك. أو يمكنك، إذا لم يزعج إحداث بعض الضجة، أن تحفر داخل فتحة المفتاح خلال الأسنان البارزة، ثم يدور قلب القفل بحرية. تعد كلتا الطريقتين أسرع من معالجة القفل، إذا توافر لديك فسحة من الوقت لفعل ذلك، ولن يلحظ أحد ذلك القدر الطفيف من الضرر المرئي بينما تكون بالداخل.

لم أكن أعلم قدر المهلة المتاحة لي، لذا كانت للسرعة الأولوية القصوى. من حسن الحظ، كان القفل الموجود على مدخل الخدمة قفلاً عادياً من طراز شلاج، يــدار بالمفتاح. وكانت أيسر طريقة لاختراق ذلك النوع من الأقفال هي الإمساك به بواسطة زردية قوية. وبعد لي القفل لعدة ثوان، تصدع قلبه محدثاً دوياً مكتوماً. حبست أنفاسي آملاً ألا يكون لسان للقفل في الجهة الأخرى، ولكن الباب تحرك بسهولة، ثم توقف على نحو متوقع بعد ثلاثة بوصات (7.5 سم)، فقد أعاقت فتحه سلــسلة أمــان. وبعد الضغط عليها بقوة باستخدام الزردية، انكسرت، وتناثرت حلقاها المفككة على الأرض محدثة طقطقة. وها أنذا بالداخل.

الــتقطت حقيبة أدواتي، ودفعت الباب، ولكنه توقف تماماً بعد بوصة (2.5 ســم) أخــرى. مــاذا كان ذلك؟ لففت يدي المغطاة بالقفاز حول حافة الباب، وتحســست ما وراءه. إنه شيء كبير، وصلب، ويحتوي على مجموعة من القضبان الرفيعة المتوازية...

لا عجب أن الباب كان يحوي قفلاً بسيطاً فقط: فقد كان هناك براد يستند إلى الباب، ومن خلال إضاءة المشعل الكهربي في الدخل، وإلى أعلى، استنتجت من ارتفاع ذلك الشيء أنه هائل الحجم.

مستحيل أن أذهب إلى الباب الأمامي، لأصارع مع ثلاثة أقفال منفصلة. فقد يــستغرق هذا وقتاً طويلاً جداً، وكانت الاحتمالات على أحسن تقدير أن أطرق علــى واحد منها على الأقل بشدة، مما يعني أنه سوف يلاحظ على الفور من قبل أي شــخص يمــر بالمكان. وكان هناك افتراض أساسي لم يكن لديّ النية لإغفاله عندما يقع الأمر، وهو احتمال مرور شخص ما، بينما أنا بالداخل.

دفعــت الباب، ولكنه لم يتزحزح، فوضعت كتفي بملاصقته، ودفعت على نحو أقــوى، وكوفئت بتحرك الباب بمقدار نصف بوصة (1.3 سم). استدرت، وألصقت ظهــري بالــباب، كي أدفعه قليلاً من الأسفل في محاولة لاستغلال الفعالية القصوى لقدمي. وحصلت على موطئ جيد لحذائي على البساط الموجود بالبهو، ودفعت ثانية.

كانــت الــضجة الناجمة عن زحزحة البراد بطول مشمع الأرضية بينما أدفع الباب هائلة، مثل الصوت الذي يحدثه شجار قطتين. توقفت، وأنصت؛ لا بد من

أن الصوت قد أيقظ الناس على بعد عمارة من المبنى. دفعت ثانية، ثم انتظرت لدقيقة. إذا كان الصوت الأول قد لفت انتباه أي فرد، فسوف ينصبّ ثانية في انتظار تكراره، وعندما يسمعه، سوف يقرر التقصي عنه. ولكن لم تكن هناك أية أصوات في المقابل، لذا فقد انحنيت على الباب ثانية، وواصلت دفعه حتى صارت هناك مساحة كافية كي أعتصر جسدي للمرور من خلال فتحة الباب. فور أن دخلت بأدواتي، شرعت على الفور في البحث بإمعان داخل الشقة لأتيقن تماماً من أنني كنت بمفردي. بعد ذلك، توقفت عن الحركة، وأخذت استراحة وجيزة، متأهباً للمغادرة إن تناهى إلى مسامعي أي شيء غير مألوف.

انبعثت من الشقة رائحة مشروب مفضل لا تخطئ، وكانت تلك أنباء سارة؛ لأنها تؤكد على الأقل أحد الأشياء التي قالها واين عن العجوز. اجتزت غرفة المعيشة، وخطوت إلى داخل غرفة النوم الرئيسية، وكنت وشيك الإصابة بأزمة قلبية كما لم أكن من قبل في حياتي.

كانت هناك امرأة بالفراش، إما أنها نائمة، أو تتظاهر بذلك ببراعة.

كان ثمة العديد من الأفكار تنطلق في رأسي لم أتمكن من تصنيفها، ولكن أحدها كان قوياً جداً، بحيث ظل يلح عليَّ، وهو: أن مجرد اقتحام المكان، ودخوله، وهو ما قد يعني قضاء عامين في السجن، قد تحول إلى سرقة مسكن مأهول، وهو ما يعاقب عليه في أوهايو بسجن إجباري لمدة عشر سنوات. كان هناك شيء يصرخ بداخلي أن أغادر، وأتعلم من تلك التجربة، ولم أكن في حالة مزاجية تسمح بالجدال. مع وضع كل شيء جانباً، كان يجدر بي أن أعرف من خلال خبرتي في إدارة الشقق أن مدمني الشراب من السكان الذين يسرفون في احتساء المشروب المفضل وحدهم نادراً ما يخرجون. كنت أيضاً مخطئاً للغاية بشأن سيارتها النظيفة تماماً، والتي تشير بأنها عهدت للمرافق برعايتها، والأكثر ترجيحاً أنها لم تقدها قط.

كم عدد الأخطاء الأخرى التي كنت قد ارتكبتها؟

شرعت في التراجع للوراء بمنتهى الهدوء، وأدركت بعد ذلك حماقة هذا الفعل: هل فكرت بالفعل في أن خطواتي قد توقظ عجوز ثملة كانت قد نامت خلال الجلبة التي أحدثتها بالفعل؟

عدت إلى المطبخ، والتقطت الهاتف، وأنصت إليه. ماذا لو كانت تدعي النوم، وحاولت أن تتصل بالشرطة؟ ماذا لو كانت قد قامت بذلك بالفعل، وكانوا في طريقهم إلى المنزل؟ سمعت الطنين، وتركت سماعة الهاتف مرفوعة. إن لم تكن قد أجرت اتصالاً بعد، فلن تتمكن من إجرائه من غرفة النوم الآن.

كان الكثير من الأدرينالين يتدفق خلال أوردتي، بحيث تمكنت بالكاد من الإبقاء على ثبات يدي. إن كنت تشاهد هذا على شريط فيديو، فكل ما ستراه هو شخص ما يقف في غرفة، دون أن يحدث شيء آخر، وكل شيء هادئ. أما في ذهني، فقد كان العالم يتحرك بسرعة تسعين ميلاً في الساعة. بدت الظلمة ذاتها وكأنها تندفع نحوي، وحتى الأرضية، والجدران كانت تهتز. على الرغم من كل ذلك، ناضلت لأفكر بعقلانية، لأتخيل ما الذي كنت سأفكر فيه فيما بعد، وأتمنى لو كنت فعلته.

كان عليَّ أن أخرج، لكن لم يكن هناك أي منطق يقول بأن العجوز ستعرف أن شقتها قد تم اقتحامها. لم أتمكن من الفرار عبر مدخل الخدمة لأنه سيكون من المستحيل أن أعيد البراد إلى مكانه، لذا فسوف أدفعه إلى مكانه ثانية من الداخل، ثم أخرج من الباب الرئيسي. استطعت إعادته إلى مكانه بضجة أقل من ذي قبل من خلال تحريكه إلى الأمام، والخلف، بينما كنت أدفعه تجاه الباب. بعد أن فعلت ذلك، فكرت أن الأمر سيكون على ما يرام. ثم خطر لي فجأة: ماذا لو كانت العجوز لم تسمعني لأنها كانت قد فارقت الحياة! إن تم إلقاء القبض عليَّ، فإن ذلك يعني أن أتهم بجريمة قتل. تباً لذلك! إنه شيء لا أستحقه.

تسللت إلى غرفة النوم، وتوقفت في الردهة، أنصت بعناية. بدا أنني لم يجب أن أجهد نفسي لأنني استُقبلت بغطيط خافت من الفراش. لم تكن حية فقط، بل إنها لم تكن تدعي النوم أيضاً لأن ما من سيدة سوف تغط عن عمد؛ فقد كان هذا أمر لائق. كانت تتنفس ببطء أيضاً، وكان من العسير بشدة أن تتصنع ذلك، إن كنت مرعوباً حتى الموت، كما يجب أن تكون هي إن كانت مستيقظة بالفعل. كنت أعلم ذلك، لأنني كنت أتنفس بسرعة بحيث كنت مهدداً بالإصابة باللهاث، على الأقل إن لم ينفجر قلبي من شدة الخفقان، ويقتلني أولاً.

فجـــأة، بدأت الأمور تتضح. كان من المستحيل أن تستفيق تلك السيدة في غـــضون الدقائق القليلة التالية، وحتى إذا فعلت، فسوف تكون في غاية الإجهاد، وربمـــا لن تدرك حتى إن شخصاً ما كان في شقتها. ربما ما زال في إمكاني تحويل هذا الفشل إلى نجاح.

دخلـــت غرفة المعيشة، وتأكدت من أن الأقفال الثلاثة كانت موصدة، وفتحت الـــنافذة، والـــسلك. إن كان للشرطة أن تأتي في أثري، فسيكون لديّ بعض الوقت للخـــروج مـــن النافذة بينما يناضلون يعبثون بالباب. ستكون السقطة على بعد ثلاثة طوابق وصولاً إلى سطح المرآب، وهو أمر لن يستغرق أكثر من بضع ثوانٍ بالنسبة لي.

حملـــت حقيبة الخيش في يدي، وهبطت على يدي، وقدمي، وزحفت عائداً إلى غـــرفة النوم. فإن حدث واستيقظت لعدة ثوانٍ، وتصادف أن تلقي نظرة حولها، لن تراني. فور أن دخلت من الباب المفتوح للخزانة الهائلة، نهضت. وبينما كنت أتحسس بطارية الجيب الخاصة بي، رأيت أن أحد أجزاء الخزانة كان مليئاً بالأدراج من الأرض إلى الـــسقف. فـــتحت الدرج الأوسط، وبهرت لمرأى ذلك الكم من الجواهر الماسية المتناثـــرة. أمسكت البطارية الكهربية بفمي، وأفرغت محتويات الدرج في حقيبتي بقدر مـــا استطعت من هدوء، ثم أطفأت الضوء، وخرجت من الخزانة. لم يكن هناك من حركة في الفراش، ولم يكن إيقاع تنفس المرأة قد تغير على الإطلاق.

عـــدت إلى الخـــزانة، وفتحت درجاً آخر، ورأيت الشيء نفسه، وأفرغته في حقيبتي، وخرجت ثانية للتأكد، ثم عدت إلى الخزانة لأفرغ درجاً ثالثاً. وكان هذا كل شيء، ولم يكن هناك من شيء يثير الاهتمام في الأدراج الأخرى.

لم تتحـــرك المـــرأة مـــن مكانها في غرفة النوم، بل ولم يتغير إيقاع تنفسها. لاحظـــت مـــن خلال الضوء الخافت المتسلل عبر نافذتها النصف مغلقة المزيد من الماسات فوق المنضدة الصغيرة بجوار الفراش، ودفعت بها هي الأخرى إلى الحقيبة.

صـــار كل شيء في حقيبتي، ونظرت طويلاً من خلال ثقب الباب الأمامي، وأمضيت بعض اللحظات الهادئة منصتاً لأية ضوضاء غير مألوفة، ثم فتحت الأقفال الثلاثة، وغادرت.

* * *

لا أستطيع أن أذكر أنني كنت ممتنّاً لتنسم لهواء المنعش أكثر من تلك اللحظة. كنت مرتاحاً للغاية لكوني قد خرجت من تلك الشقة، ولم يزعجني كثيراً أن أسير بطول الشارع حاملاً معي حقيبة مملوءة بالمجوهرات المسلوبة. قدت السيارة وصولاً إلى الصندوق الموجود في محل عملي، مراقباً سرعتي بحرص، ومقاوماً إغراء زيادتها، ووضعت الحقيبة دون أن أنظر داخلها.

ولا يعني القول بأنني أحسست بالراحة ولم أكن أشعر بالإثارة. خرجت من المبنى في الساعة العاشرة والنصف، وشرعت في السير سريعاً، بشكل عشوائي في الغالب، ولم أتوقف لمدة ساعتين تقريباً، وشعرت بتحسن في الوقت الذي انطلقت بسرعة إلى داخل حانة في جادة وودلاند. كنت مجهداً بدنياً، ومرهقاً ذهنياً، فتجرعت كأسين من المشروب المفضل، وذهبت إلى منزل والدتي في محاولة للنوم.

استيقظت مبكراً يوم الأحد، وذهبت إلى صندوقي. فتحت حقيبتي، مع أولى خيوط ضوء النهار البارد وشكرت واين في صمت. لقد كانت المسروقات مذهلة، وكانت كل قطعة أصلية، وعالية الجودة، وكانت أضخم غنيمة حصلت عليها حتى الآن. وضعتها كلها ثانية، وقضيت اليومين الأخيرين من عطلة نهاية الأسبوع مع والدتي، وخالتي في حفلات الشواء، والذهاب إلى السينما، واحتساء الشراب في الأمسيات، وقد حاولت بشكل عام ألا أفكر في كل تلك المسروقات الموجودة في صندوق العمل.

بعد ثلاثة أسابيع، عدت إلى كليفلاند، وذهبت إلى متجر بيل ويللينج. وعلى الرغم من ذهابي في ساعة متأخرة، كان هناك العديد من الأشخاص الذين يعملون، وكان بيل قد وضع المشروب المفضل. كانت سرقة بلير هاوس لا تزال محور حديث الشخصيات الأقل طرافة في المتجر. وكان هناك عدد لا نهائي من التخمينات في الصحف المحلية عن كيفية تمكن اللصوص من القيام بتلك المهمة المذهلة، حيث استولوا على كل ما له قيمة دون حتى أن تدري العجوز بوجودهم ريثما أفاقت واكتشفت فقدان كل شيء. كان الأشخاص العقلانيون في المتجر يخرجون بكل أنواع النظريات المجنونة، ولم يكن بإمكاني لومهم: فقد بدت سرقة

مستحيلة. ومن الواضح أن الضحية لم تبلغ الشرطة "أنني كنت في غاية الفزع، فقد كان من الممكن أن يستولوا على الفراش، وأنا فيه"، وبالتالي لم يكن هناك من سبيل ليعرفوا أنها ربما حتى لم تكن بالمكان.

لم يخرج "ويللينج"، ويسألني إن كنت من قام بالسطو، ولكنه كان يعرف.

قال دون أية مقدمات: "قامت الشرطة باستجواب واين".

"ثم...؟"

"أطلقوا سراحه، وأتاني هنا بعد ذلك".

انقضت شهور منذ أن التقيت واين، وأجرينا تلك المحادثة. "أتظن أنه تذكر إبلاغي عن المكان؟"

هز ويللينج رأسه. "ما يمكنني قوله، إنه أخبر مئات الأشخاص بهذه القصة اللعينة، بل وأي شخص ابتاع له كأسين من المشروب المفضل، وبقي لفترة طويلة، لينصت لكل ذلك اللغو".

أشرت تجاه المشروب المفضل الذي وضعه ويللينج قائلاً: "إنني حتى لم أنفق بنساً على الرجل، لقد كان مشروبك المفضل!"

"بدا لي أنه كان في قمة السعادة لقيام شخص ما بسلب العجوز، ولم يبالِ كثيراً بمن يكون الفاعل. لا تقلق".

تمازحنا كثيراً بشأن ذلك، لأنني فكرت فيها بتلك الطريقة أيضاً، "امرأة عجوز"، حينما كنت أفكر فيها من الأساس. بالنسبة لي، لم تكن حتى شخصاً حقيقياً، بل شخصية هزلية في مسرحية كنا نمثل فيها معاً، وكانت العقبة غير المتوقعة التي يجب التغلب عليها؛ كي يتسنى اختتام الفصل س من المشهد ص. ولم أعد بذاكرتي إلى الوراء، وأشرع في الشعور بندم متزايد لما اقترفته بحق الكثير من الناس، وبحقها هي على الأخص، إلا بعد مضي وقت طويل على الأمر، وبعد أن مررت أنا نفسي بأوقات عصيبة. فقد كانت عجوزاً وحيدة تدخر مالاً، وممتلكات موروثة، لأنها لم يكن لديها أحد في الحياة، وكانت تلك هي الأشياء الوحيدة الباقية التي تميزها. كانت تسرف في احتساء المشروب المفضل ليلة تلو أخرى، كي تمحو رهبة الإحساس بعدم وجود شيء مهم، فقط سيارة لم تقدها قط، وجواهر لم

تسنح لها الفرصة لارتدائها، وكانت تشعر بمرارة العيش لدرجة أنها نبذت حتى القليل من الناس الذين كانت لديها الفرصة للتعامل معهم، مثل منظف النوافذ، ومرافق ساحة الانتظار (وقْف السيارات).

ثم تستيقظ ذات صباح، وتجد أن مصادر الأمان البراقة جميعها قد ذهبت. ربما كانت تعاني من آثار الإسراف في الشراب، بحيث استغرقت عدة ساعات من الشعور بالغثيان كي تحاول أن تكتشف ماذا كانت هي نفسها ستفعل بالجواهر، وفقط عندما انقشع الضباب أدركت أنها قد أخذوا منها. ثم كان عليها أن تهندم نفسها، وتقوم بتهوية الشقة، وتخفي كل زجاجات المشروب المفضل قبل استدعاء الشرطة. لم تكن لديّ فكرة إن كانت قد أمنت على نفسها، أم كان لها وسائل أخرى، ربما حساب مصرفي محشو بالنقود، بحيث كانت خسارتها الفعلية الوحيدة هي القيمة العاطفية للجواهر. فلم يكن ذلك جزءاً من تنقيب وتخطيط اللص المحترف. ولكن حيث إنني قد وصلت إلى فهم نوع الألم النفسي الذي يسببه علم المرء بأنه سرق، فلم يكن لديّ شك في أنها كانت ضربة شديدة، خاصة إذا ما وضعنا في الاعتبار تلك الكوابيس التي قد تنتج حتماً عن الأمر، والتي تتعذب فيها بمشاهد رجال غرباء، وهم يحومون على بعد سنتيمترات منها بينما ترقد هناك، عاجزة عن الحركة، ومعرضة للأذى. ربما أدى هذا الأمر إلى قصر حياتها، إذا ما زادت من جرعات المشروب المفضل الذي تتناوله بسبب ذلك.

لم أكن أفكر في أي من تلك الأمور وقتها، وحاولت ألا أفكر فيها طيلة الوقت الذي كنت فيه لصاً. كنت بحاجة للابتعاد عن الضحايا، وإلا لصارت السرقة مستحيلة. عملت على ألا أحبهم، وعلى حسدهم على المال الذي يملكونه، ولم يكن لديّ. إن سمحت لنفسي برؤيتهم كأناس رقيقي المعشر، وحساسين، وإن استسلمت لتأمل كيف أنهم كان من الممكن، لولا ظروف الولادة المختلفة، أن يكونوا أسرتي، لانتهت مهنتي كمجرم. في إحدى المرات كنت أخطط منذ أسابيع لسرقة منزل، وتصادف أن لمحت المُلاّك، زوجين طاعنين في السن يمسكان بأيدي بعضهما البعض، وهما يجهلان أن هناك من يراقبهما، وقد حطمني هذا؛ فقد كان

أمــــراً مؤثّراً عاطفيّاً، و لم أعد قادراً على إقناع نفسي أنها كانت مجرد مهمة، وأن الـــضحايا كانـــوا غير جديرين بالتفكير فيهم. وتخليت عن الخطة، ثم حاولت أن أضعها ورائي، وأواصل المسير.

قـــبعت المجوهـــرات التي غنمتها من بلير هاوس في الخزانة لما يزيد على ثلاثة أعـــوام. و لم أتخذ الخطوات في النهاية لاستبدالها بالنقود إلا بعد أن صرت هارباً، واحتجت إلى بعض المال.

القسم الثاني

9

خلال قضاء مدة السجن

ذات مرة، كتب أحد الكتاب المميزين بإحدى المجلات أنني لم أهوَ السجن – حقـــاً؟ كنت مصدوماً. دائماً ما ظننت أن السجن مكانٌ مريحٌ للغاية ويبعث على الاسترخاء، حيث يجدر بك أن تحبه وتبغي العودة إليه ثانية بأسرع ما يمكن.

قطعـــاً لم يــرقني. رجل وحيد منعزل كان في متناوله كل ما ابتغاه في العالم الخارجي، يقبع الآن في مكان بلا خصوصية، يعج بالضجيج المستمر، وتنبعث فيه الـــروائح الكـــريهة بـــصفة مستمرة، ومجموعة من المنحطين اجتماعياً على أهبة الاستعداد للقيام لذبحك لقاء علبة سجائر. بالله عليك.. ماذا يمكن أن أهوى في مثل هذا المكان؟

بعض الأشخاص كانوا معتادين على السجن، وبوسعهم قضاء فترات طويلة فيه؛ أشخاص "لا يعنيهم الوقت"، فلم يكن هناك الكثير في عالمهم الخارجي، حيث يقـــضون غالبـــية أوقاتهم يتسكعون مع رفاقهم، يتبادلون الشتائم طيلة اليوم، ولا يفعلون شيئاً سوى سرقة بلهاء من حين لآخر لمتجر صغير، أو سطو ما، أو اقتحام منــــــزل لا يملـــك ساكنوه أكثر مما لدى السارق نفسه. بالنسبة لهؤلاء، لم يكن الـــسجن ليخـــتلف عن الشارع. بضع قواعد أخرى، بالطبع، ولكن أيضاً "ثلاث وجبات وفراش"، ولا قلق حيال طرق القيادة ولا محصلي الفواتير.

لكني لم أكن واحداً من هؤلاء، ولم تكن تعنيني الأوقات العصيبة. كما لم آبه كـــثيراً بالنــــزلاء الآخـــرين، حيث كان بوسعي أن أعتني بنفسي، وبدا أنهم قد أحـــسوا بـــذلك. لكن بالنسبة لشخص ما عاشق للهو، ومحب للخروج في الهواء

الطلـــق، ومـــرتبط بعائلته مثلي، كان السجن بالنسبة لي بمثابة موت حي. لم يكن داخل السجن ما أهابه، بل هو مجرد وجودي هناك؛ كان هذا هو الشيء الوحيد في العالم الذي أفزعني وهالني بحق.

ثمـــة أفكار عديدة شائعة عن السجن، بعضها حقيقي تماماً وبعضها ليس على هـــذا النحو. من المعروف أنه ليس بوسعك أن تنعزل وتمضي عقوبتك في صمت، وتـــتوقع أن تترك وشأنك. فشيء أساسي أن تعمد إلى تكوين أحلاف، وأن تجتمع بالأفـــراد المناسبين، فتحظى بـــ "عائلة" تقوم على حمايتك، وتضمن عدم تعرضك لأي ضـــرر. هذا صحيح إلى حدٍّ بعيد، إلا أنها ليست حقيقة عامة، حيث يتوقف هذا على المؤسسة القائمة على سجنك، والأكثر أهمية هو من تكون، وكيف تتدبر شؤونك.

بعـــض الأشـــخاص يأتـــون إلى الـــسجن مرتعبين، حتى يكادوا يتبولون في سراويلهم، وأحياناً ما يحدث هذا بالفعل. فهم ليسوا ممتهني إجرام، وكل ما يعرفون هو ما شاهدوه في الأفلام السينمائية وعلى شاشة التلفزيون. تلك النماذج الدرامية ليـــست بارعة في توصيل حقيقة الحياة داخل السجن؛ ملل مؤلم ساحق يدعو إلى الجـــنون، ومن ثم فإنهم يجنحون إلى التركيز على لحظات أكثر إثارة وحركة. لذا، تجد الوافد الجديد مرتعباً من أن يتعرض للاغتصاب من قِبل عصابة ما في أول يوم لـــه، فيعتدي عليه نصف دستة من السود المختلين عقلياً، ممن يزن كل منهم قرابة الـــثلاثمائة رطـــل (136 كلغ)، وقد حرموا من اللحم الأبيض لأسابيع، ثم يتبعون حفلهم ذاك بضرب الرجل ضرباً مبرحاً من باب التسلية.

أشـــياء كهذه تحدث فعلاً؛ فهناك جرائم طعن وقتل أيضاً، ولكن ليس دائماً بالكثرة التي تصورها وسائل الإعلام التي تركن إلى عنصر الإثارة. أما النـــزاع فهو أمر آخر، وهناك الكثير منه، بيد أن أكثر حقائق السجن بعثاً على الاكتئاب، سوى أنك لست بصحبة أحبائك، هو الملل.

كنت في السادسة والثلاثين من عمري عندما دخلت سجن بروورارد كاونتي في فلـــوريدا لقـــضاء ثلاثة شهور كفترة عقوبة وسأشرح لكم الأسباب فيما بعد، وكـــنت منتـــصب القامة، لا تبدو عليَّ أية إمارات خوف. رحت أرمق السجناء

الأكثــر تهديــداً بنظرات احتقار، مما أسفر عما لاقيت من استهجان وملاحظات ســاخرة في البداية. بيد أني احتفظت بتلك النظرات و لم أشح بنظري قط. لم يكن السجن جيد التصميم، وكان أشبه بمجرد استدراك ملحق بالمحكمة، ومن ثم لم يكن هــناك فــناء للتمارين. بشكل فعلي، يمكن القول بأننا كنا مسجونين طيلة الأربع وعشرين ساعة، لكنني مارست رياضة رفع الجسد مئات المرات، مستخدماً قضبان الزنــزانة، لأظهر قوة الجزء العلوي من جسدي. لم يكن ذلك على سبيل التباهي، ولكن للتيقن من أن الرجال يعرفون أنني لم أكن موظفاً مختلساً، لين العريكة رقيق الحاشــية لا ولن يستطيع الدفاع عن نفسه. وهكذا، عمدت منذ البداية إلى إظهار أني لــن أتهاون مع شخص قد يحاول الاعتداء على عفافي، وإنني لأوثر القتل وأنا أناضــل، ولــسوف أتأكد من إلحاق أضرار جسيمة بمهاجميني فيما أقاتل. بإيجاز، أعطــيت الانطــباع إنني سأكون أكثر إثارةً للمتاعب مما كنت أستحق، وبالتالي تركوني وشأني.

ينــصرم الوقت بمنتهى البطء داخل السجن. وإذا ما عكفت على التفكر في وضــعك ومــشاكلك، يمضي الوقت أبطأ وأبطأ، وقد تفضي بنفسك إلى الجنون بسهولة، ومن هنا يصبح انشغال ذهنك هو شاغلك الأول. ونظراً لما يمكن اعتباره سجن لأربع وعشرين ساعة، وكان الطعام يمر من خلال قضبان الزنــزانة بواسطة الموثــوق فــيهم وهم "نموذج" من السجناء بمهام تتيح لهم الحركة بقدر أكبر من الحــرية، فــلا يمكــنك حــتى كسر ملل النهار بالذهاب إلى قاعة الطعام لتناول الوجبات. وكانت المقامرة أكثر ما يحدث هناك، وكانت السجائر والأطعمة، ولا ســيما الحلــوى، هــي البنود الكبرى التي تُجرى عليها المقامرة. وكانت غالبية المشاحنات تنشب بسبب خسائر القمار.

كــنت محظوظاً إذ شغفت بالقراءة، وبينما لم يكن هناك مكتبة بذاك السجن القليل الموارد، المهمل الإدارة، لم يكن هناك ثمة اعتراض على اقتناء السجناء الكتب الــتي يحضرها لهم زائروهم. كما أمضيت الكثير من الوقت أتدبر كيفية الهرب. لا يعني هذا أني كنت أنتوي الهروب بالفعل، فقط كنت أحاول إبقاء ذهني مشغولاً، ولكــن استحوذت عليَّ إمكانية حدوث الفكرة، ورحت أرسم العديد من الخطط

التفصيلية، وحتى ولو كان ذلك على سبيل تمضية الوقت ليس أكثر. انتهيت إلى أن الهـــروب من السجن أمر سهل نسبياً إذا ما توفر العون الصحيح من الخارج؛ من الصعب جداً الإقدام على هذا بمفردك.

ولكـــنه لـــيس مـــستحيلاً. فبحكم خبرتي السالفة في تولي إدارة المباني ذات المصاعد، كنت أعرف أن أبواب المصعد بكل طابق كان بها أجهزة تجاوز الطوارئ بأعلى كل منها. وهي تتخذ مفتاحاً خاصاً على شكل الحرف U، فتدفعه إلى الشق أو ثقب المفتاح وتنقره بشدة فيتحرر الباب المنـــزلق، وينفتح عمود المصعد. كما أنـــه مـــن شأن هذا أن يوقف دولاب المصعد أتوماتيكياً لو كان في حالة حركة، بغـــض النظر عن موقعه وقت حدوث ذلك. وبينما استبد بي الضجر ذات يوم في الـــسجن، صـــنعت مفتاحاً من أجزاء معدنية ذات رأس دوارة، وقد جربته أثناء ورديـــتي (نـــوبتي) بالطابـــق الخامس كسجين موثوق، بينما لم يكن هناك أحد، وتأكدت من قدرتي على إيقاف كل المصاعد. طفقت الأبواب تنفتح، وأبصرت أنه سيستلزم فقط وثبة لحوالى أربعة أقدام (120 سم) كي أصل إلى الأسلاك. ولو أن بـــيدك منـــشفة، يمكنك الانـــزلاق على أحد الأسلاك إلى أي طابق يتصادف أن يقف لدنه المصعد، ثم تقفز فوقه وتركبه ريثما يقف بالطابق أسفل السجن. الغلمان في بـــرونكس يـــزاولون هـــذا طيلة الوقت، ويطلقون عليه اسم "ركوب سطح المصعد"، وبغض النظر عن حوادث الموت التي تحدث بشكل يكاد يكون متكرراً، والـــتي تنجم عن ذلك، فإني أحسبها متعة. وما أن تقف لدن أحد الطوابق السفلى حـــتى تـــستطيع فتح الباب الذي يعلو الطابق الذي توقفت به عربة المصعد، وإذا افترضنا أنك لم تلتقِ مصادفةً بأحد القضاء أو بعض رجال الشرطة الذين يعرفونك، ستـــستطيع الذهاب صوب الخارج، وتبدو كمجرد عامل صيانة مصاعد مشحم. ففي ذلك السجن العتيق، كان الجميع يرتدون ملابس الشارع العادية.

ثم اتـــضح أن خطـــتي تلك كانت غاية في التقنية والتعقيد. فبعد حوالى ستة أســـابيع من خروجي، قام رجل كوبي حكيم كنت التقيته لقاءً عابراً وجيزاً عندما كنت بالسجن، قام بالاختباء داخل غرفة المؤن بقرب من التلفونات الرئيسية. وفي منتـــصف الليل، أحدث ثقباً في الأرض وسلك طريقه إلى غرفة القضاة مباشرة، ثم

مـــضى خارجاً من قاعة المحكمة. بقدر علمي، لم يُسمع عنه شيئاً منذ ذلك الحين. وقد غزت الصحف صور الثقب الذي أحدثه.

ربمـــا كانـــت حادثة الهروب تلك هي ما أفضى إلى تجديد الإجراءات داخل الـــسجن، وجعلها أكثر احترافاً. فطالما لم يكن يتم احتساب عدد السجناء، ولأن الحـــراس كانـــوا يدخلون الزنـــزانات فقط في حالات الضرورة القصوى، مضت أربعـــة أيـــام كاملة قبل إدراك هرب ذاك السجين. يبدو أن محاميه كان قد أقبل لزيارته، وقبع حانقاً زهاء الساعة، ثم أبلغوه أن موكله قد لاذ بالفرار.

* * *

و لم يكـــن الحـــراس أقل معاناة مع الملل، فضلاً عن كونهم بالأساس خادمين مدنيين يتقاضون رواتب زهيدة، بينما يحاولون تمضية يومهم دونما فقدان صوابهم أو وظـــائفهم، أو تعرضـــهم للأذى. الشيء الوحيد الذي كان يكسر الرتابة والملل بالنـــسبة لهم، فضلاً عن المنغصات أو حالات الضرب العرضية، كان متى اضطروا إلى نقـــل ســـجين بمفـــرده. قـــد تظن أن الحارس – عندئذ – يتوجه مباشرة إلى الزنـــزانة الـــصحيحة، ولكن حقيقة الأمر هي أن هذا المكان كان سيئ التنظيم للغايـــة، بحـــيث إن ضباط السجن لم يكونوا ليعرفوا في أي من الزنـــزانات ذات الأربعة سجناء يقبع سجينهم المطلوب نقله، ولا في أي تجمع يكون.

يـــذهب الـــسجين قيد الاستدعاء إلى زنـــزانة حجز صغرى تفضي إلى خارج الـــوحدة، وأحـــياناً يضطر الحارس إلى إيقاظه أولاً أو انتظاره ريثما ينتهي من ارتداء ملابسه. ولدن أي نوع من الإبطاء، يقوم الحارس بإسداء خبطة له لحثه على الإسراع. لا أدري مـــبرر فعلـــهم ذلك دائماً – فما الشيء الهام – سوى ذلك – لدى الحارس للقيام به؟ ولكنهم دائماً ما كانوا يقومون بذلك على أية حال. وبعدها، يُدفع السجين إلى الممـــشى حـــيث يذهب بصحبة الحارس. تفصيلة واحدة كانت تبدو لي غاية في الطـــرافة، وهي أن الحارس يحمل ورقة مكتوب عليها اسم السجين طوال الوقت؛ ربما حتى لا ينسى الحارس اسم السجين بعد كثرة مشيه حتى الوصول إليه.

ألـــيس هذا مثيراً بشكل مذهل؟ وبشكل عام، كانت تلك المهمة هي أبرز ما يميز يوم عمل الحارس.

والذي كان يطيب لهم، حيث الشيء الآخر الوحيد المتاح لكسر رتابة اليوم كان المتاعب. والحراس في داخلهم يخشون المتاعب، ومن ثم يحدوهم ميل إلى تجاوزها. لم يكن الأمر أنهم يكرهون السجناء؛ ربما كانوا يزدروهم ويظهرون لهم القليل من الاحترام، إلا أن الأمر لا يتعلق بالبغض. الأمر برمته هو أنه متى تبدأ المتاعب، يزداد احتمال أن شيئاً ما خطأ على وشك الحدوث، مما يعني أن الحارس - بدوره - سيعاني مغبة ذلك، إما بإصابة، أو بالتأنيب رسمياً في سجله، أو بخسارة وظيفته على الفور. لذا فإنهم يؤثرون إخماد مصادر الإزعاج بسرعة، وهم حقاً لا يحبون مثيري القلاقل.

غالبية حراس سجن بروورارد كاونتي كانوا يحبونني؛ فلم أثر المتاعب قط، وكنت دائماً مؤدباً ومتعاوناً. بيد إنني لم أداهن وأتملق أبداً أيضاً، وهو أمر كانوا يتفهمونه. كما كانوا يتفهون متى اضطررت إلى التصدي لأحد السجناء متى أصبح مصدر إزعاج لي، وأبداً لم يكن ينجم عن تلك المجابهات العرضية أية عواقب. أفترض أن الأمر كان أشبه بـ "علاقة عمل" جيدة، وأحسبها أثبتت فاعليتها؛ عندما كنت أحتاج إلى إجراء مكالمة هاتفية مثلاً، أو أية ميزة خاصة إضافية يملك الحراس زمامها، نادراً ما كان يرفض طلبي.

لم يكن كل نزلاء السجن يقضون فترة عقوبة. البعض كان محتجزاً ريثما الانتهاء من المحاكمة أو جلسة سماع الأقوال لأنهم عجزوا عن دفع الكفالة، أو تم رفض التماسهم للخروج بكفالة. لم تكن فترة بقاء مثل هؤلاء محددة أو معروفة، ومن ثم لم تكن تسند لهم أية مهام.

أما أنا، فكنت أمضي فترة عقوبة، وكنت من السجناء الموثوقين، وكانت مهمتي هي الطابق الخامس، المركز الرئيسي لاستقبال الوافدين الجدد من السجناء. كان يدير الطابق الخامس رجل دمث الخلق يدعي الرقيب ريتشارد هوارد، وتحت قيادته ستة حراس آخرين. كانت مهمتي هي إجابة الهاتف، وتلقي الرسائل، وتوجيهها إلى حيث المرسل إليهم، والتأكد من حصول السجناء الجدد على بعض الشطائر، وما إلى ذلك من المهام. لم يكن هذا بالجهد الشاق، ولكنه كان يملأ اليوم. دائماً ما كان هناك أربعة أو خمسة حراس يقفون بلا شيء، يسردون

القصص، ويحاولون تمضية الوقت. لم يبدُ قط أهم يبالون بكوني دائماً أتحدث على الهاتف، و لم يسألوا أبداً عمن كنت أحادث. استغرق مني الأمر حوالى الساعة حتى أعرف كيفية استخدام الهاتف في إجراء مكالمات خارجية، ومن ثم حادثت بارب عدة مرات.

واحدة من وظائفي الأكثر أهمية كانت التأكد من ألا أنال تقريعاً إزاء المزاح المعتوه الذي كان يهوى الحراس ممارسته. الشيء المفضل لديهم كان أخذ أحد الحراس الجدد وحملي على إعطائه ورقة مدوناً عليها اسم السجين القابع في أبعد وحدة، المدعو جاك ميوف. وعليه، يمضي البريء المسكين العديم الخبرة، وقد اعتزم القيام بمهمة جيدة في أول يوم عمل له، سائراً في الممر بطوله منادياً جاك ميوف، أمام كافة المنحطين المتواجدين بالوحدات. كان هذا أكثر ما يمرحون لأجله، بينما يعمد القدامى إلى اطلاق صيحات مثل: "جاك نائم، سنوقظه". وعندما يدرك الحارس الجديد ما كان يفعله، يفترض أنه أنا من نصبت له هذا الشرك، لا سيما والبراءة ترتسم على ملامح كافة الحراس الآخرين. يريك ذلك مدى ما كانت عليه الرتابة الحقيقية عندما تزيد توابل نكات خرقاء كهذه.

كانوا يحبون اطلاق أي نوع من النكات، بغض النظر عن مدى قسوتها. تضمنت إحداها سجين يدعى ستيفن سيمونسون، عرفته لأننا أوكلنا نفس المحامي، راي ساندستورم، واقتسمت معه قضمة لحم، حيث مدة عقوبته وعقوبتي كانتا متشابكتين، ولسوف أتطرق إلى هذا لاحقاً. كان سيمونسون لصّاً سيئ السمعة، وحكم عليه بالسجن عامين عن عملية سطو تنكر فيها كقس، وطرق باب إحدى السيدات، ثم استولى على مجوهراتها حينما أجابته.

كان سيمونسون واحداً من أكثر الأشخاص عصبية الذين رأيتهم في حياتي. كانت فرائصه ترتعد رعباً من السجن وكان دائماً يحاول مخاطبتي لكي يهدئ من روع نفسه، حتى أصبح الأمر مزعجاً بحق، وحتى إني ذات يوم لفقت له أنا وأحد الحراس خطة لإزعاجه. أرسلنا حارساً آخر ليبلغ سيمونسون بإحضار كل ما له من أشياء لأن تقرر إرساله إلى أعلى النهر حيث شاتاهوتشي، المعروفة بدوائر السجن بكونها "مستشفى للمجاذيب". كان للمكان سمعة مفزعة، ومن ثم وقف

هذا الرجل المسكين عند الباب لساعتين كاملتين يرتعد رعباً، حتى أشفقت عليه في النهاية، وأخبرته أنها كانت دعابة. بالطبع كان هذا شيئاً وضيعاً، ولكن تذكر أن هذا لم يكن معسكراً صيفياً كذلك. انتقل سيمونسون فيما بعد إلى سجن آخر، وأبلغني راي أنه تعرض للاغتصاب هناك.

وإذا ما نحينا هذا اللهو الأبله جانباً، طرأ حادث في باكورة فترة سجني كان مزعجاً للغاية، ولكنه كان مفيداً كذلك. كان السجناء الواردون يصلون إلى مكتب الحجز بشتى أنواع الحالات؛ بعضهم ثُمالى، والبعض كانوا يرتدون ملابس نسائية راقية حتى يصعب تصديق أنهم كانوا رجالاً بحق، والبعض كانوا محاربين. في يومي الثاني هناك، كان واحد من أكثر الحمقى يمشي متبختراً وقد تصدى لحارس ودفع آخر. وكما لو أن وميضاً من إشارة لاسلكية سرية قد سرت من حارس إلى آخر، انهال عليه أربعة حراس على الفور بضرب مبرح حتى خارت قواه، ثم طرحوه فاقد الوعي في زنزانة انفرادية. مما رأيت، كانت وخزة واحدة في ضلوع الرجل كافية لإخراسه، ولكن ما مضى فيه كانت الإجراءات القياسية التي يلاقيها أي من الأشخاص الجدد عندما يحدوه الظن بأنه يستطيع التبختر بجسمه في الطرقات. وقد فسر لي هذا حسن السلوك الذي يتم به غالبية النزلاء طيلة الوقت، ولقنني كذلك ذلك درساً قيماً: أنه لا بأس من مصادقة الحراس، ولكن لا تكن أحمق لتفترض أبداً أنكم أصدقاء. وفي الشهرين التاليين أبصرت سجناء يتعرضون للضرب المبرح والإيذاء القاسي حتى إنهم كانوا بالكاد يدركون ما يضربون به.

ثم كان أن تم هدم ذاك السجن العتيق وشُيِّد بدلاً منه سجناً حديثاً، مما يذكرني ببضعة سطور من أحد أفضل أفلامي:

بوتش: ماذا حدث للمصرف القديم؟ كان جميلاً!

مدير البنك: داوم الناس على سرقته.

بوتش: ثمن زهيد يدفع مقابل الجمال.

ربما حان الوقت كي أبلغكم بأسباب دخولي ذاك السجن...

* * *

في منتصف السبعينيات من القرن الماضي، كنت أحيا حياة جيدة في فورت لوديرديل. كانت شركتي العقارية تبلي بلاءً حسناً، وكنت مشغولاً بالإشراف على الأملاك في ميامي، وزيارة المشترين المحتملين يومياً. ورحت أتفحص أضخم البنايات لصالح المجموعة الاستثمارية في كليفلاند، وأصغر الأملاك لصالحي أنا.

كنت قد برئت تماماً من جرح الطلق الناري، رغم أن الندبة حيث دخلت الرصاصة، والأخرى حيث خرجت، وكذلك أثر الجراحة، كانت ما تزال ظاهرة للعيان، مما استلزم مني بعض الشرح متى تواجدت حول المسبح. وفيما يخص باربارا، كنت قد تعلمت درسي، ولكن كل ما فعلته حقاً كان مواصلة دفع عملي الإضافي لأبعد مدى في نطاق السرية. كنت ما زلت أتصفح بانتظام الصفحات الاجتماعية لاغتنام فرص لا علاقة لها بطبيعة الأملاك العقارية إطلاقاً.

ومهما حاولت التزام الصمت والخصوصية فيما يتعلق بالعمل الإضافي، كان من المستحيل الاحتفاظ بشيء كهذا لنفسي كلية إلا إذا سارت الأمور دائماً على النحو السليم تماماً، والحياة ليست هكذا. شخص واحد استطاع الوقوف على بضعة أشياء في مرحلة مبكرة؛ كان هذا أوجي، شقيق بارب الأصغر. بالرغم من اقترافه بعض الأفعال الخرقاء في حياته، إلا أن أوجي لم يكن غبياً. بلغ طول قامته حوالى ستة أقدام (180 سم)، وكان شديد الوسامة، ومتعدد المواهب. كان من الطراز الذي يصعب الاستمتاع معه، بيد أنه أيضاً كان مفكراً وغامضاً إلى حدٍّ ما. أحببته كثيراً وأوليته ثقتي رغم أن أحكامه أحياناً لم ترقَ إلى مستوى ولائه الشخصي، والذي لم يكن أبداً موضع شك.

كان لدى أوجي شقيق اسمه كالفين جونسون عاش في جنوب فلوريدا. كان أوجي قد قص له بعض القصص إبان وقت الدراسة أثناء حفلات الشراب، أو ما شابه. وربما أفضى بها كالفين لأخيه الأكبر، ديريك. ولم يستغرق مني الأمر وقتاً طويلاً حتى أدرك أن ديريك الكبير كان يرغب في شيء ما مني.

شرع ديريك في الطواف ببيتي في عطلات نهاية الأسبوع، وأحياناً برفقة زوجته. كان يسبح في مسبحي، ويشرب مشروبي المفضل، ويجري أحاديث قصيرة عامة تحوي بعض الإساءات المتضمنة. وأخيراً، بينما كان يرقد بجوار المسبح في أحد

الأيـــام الدافئة على نحو مميز، جرح ديريك نفسه، وأطلق زفرة هائلة، وقال: "يبدو إنـــني في حاجـــة إلى بعـــض النقود يا بيل.. الكثير منها"، قال هذا وانقلب ناظراً تجاهي. "هل يتصادف معرفتك لأي سبيل يمكنني من وضع يدي على بعض النقود على الفور؟"

كـــان ذاك هو الوقت الأمثل لسؤاله. وقد يكون الأسوأ.. حيث يتوقف هذا على كيفية نظرتك للأمر.

قـــبل ذلـــك بحـــوالى عام، كنت على متن قاربي، أجوب الشريط الساحلي الداخلي للطرق الملاحية. في حال كنت غير مضطلعٍ على جغرافية فلوريدا الجنوبية، دعني أخبرك أن الشريط الساحلي هو طريق ملاحي ضيق يفصل الهيكل الأساسي لفلـــوريدا عـــن شريط أرضي يجري بمحاذاة الساحل. وعلى تلك الأرض الفضية النحـــيلة تقـــع كافـــة الشواطئ الشهيرة، مثل ميامي ولوديرديل. ويعج الشريط الـــساحلي بالقـــوارب، حيث بوسعك القيام برحلة بحرية لأميال دون الحاجة إلى المجازفـــة بالدخول إلى المحيط. وبينما يميل غالبية الناس في فلوريدا إلى النظر إلى هذا الـــشريط الساحلي باعتباره معلماً محليّاً بارزاً، إلا أنه يصل إلى بوسطن. تم إنشاؤه إبـــان الحـــرب العالمية الثانية كي تسافر به قوارب نقل البضائع إلى مختلف أرجاء الساحل الشرقي في مأمن من هجمات غواصات العدو.

وهـــو أيضاً الهيكل المائي الذي تتحدث عنه عندما تتكلم عن المنازل المواجهة للمـــياه في تلـــك المنطقة. هناك الآلاف من المنازل ومرافئ القوارب تتصدر الخط الساحلي، وهي ما كانت تنال إعجابي بينما كنت أقود سيارتي في هدوء، متجولاً دون وجهة بعينها. كان يمكن للمنازل هناك أن تدر عدة ملايين، وكذلك القوارب الخاصة التي كانت تتسع بسهولة لأعداد غفيرة من ضيوف الحفلات.

ترامى إلى أسماعي صوت موسيقى منسابة من مكان ما على يساري. نظرت صـــوب ذلك الاتجاه فرأيت يختاً يبلغ طوله مائة قدم (30 متراً) يلوح من الخلف. كـــان هـــناك حفلٌ مقامٌ عليه، يضم نحو خمسين فرداً، جميعهم في حللهم الرسمية الفاخـــرة وأثـــواب الـــسهرة، وحـــتى من بعيد كان من السهل رؤية العديد من المجوهـــرات الـــبديعة المنظر. وبينما كان القارب يمر بجواري، تعرفت على بعض

الوجوه على متنه؛ أحدهم كان بيرت باركس، المضيف المستديم، الذي لا يشيخ، لحفلات ملكة جمال أميركا التي لا تحصى.

فُتـــنت بما رأيت، فرحت أرقب اليخت من مسافة لا بأس بها. قصدوا الخط الـــساحلي إلى بورت إيفرجليدز، ثم استداروا شرقاً نحو المحيط، ثم شمالاً مرة أخرى مـــتخذين الطـــريق صوب بالم بيتش. كانت رحلة في مجموعها تصل إلى حوالى خمـــسين ميلاً، ولكن لم يبدُ أن أحداً على متن القارب في عجلة من أمره. وأخيراً رســـى اليخت بمحاذاة بعض المساكن الفاخرة للغاية، حيث ترجل راكبوه إلى البر وانـــضموا إلى المـــئات من أنيقي المظهر من أمثالهم، وقد التفوا حول ما اتضح أنه حفل الصليب الأحمر السنوي.

بالقلـــيل من البحث والتقصي اكتشفت أن اليخت مملوك للسيدة التي كانت تمتلك هوليود بريد، والذي كان ذائع الصيت جداً وقتها، حتى إن هنري ميللر قد ذكره في مقال كتبه في أعقاب الحرب العالمية الثانية. ولقد جابهوا متاعب فيما بعد مـــع جهـــات التعاملات الفدرالية بشأن ادعاءات خفض الوزن التي أعلنوا عنها، وأظـــن أنهم اعتزلوا العمل في النهاية. ولا يزال مبنى هوليود بريد القديم في وسط مدينة هوليود فلوريدا معلماً محلياً بارزاً.

علـــى أية حال، كل عام كانت هذه السيدة تدعو المجموعة من الناس الذاهبة إلى الحفـــل كي ينضموا إليها على متن اليخت، وبذلك يتجنبون تأخيرات الجسر المتحـــرك الـــتي يكـــاد المـــرء يفقد صوابه منها، والتي كانت واقع حياة بالنسبة للمـــسافرين بالـــسيارة إلى هناك. ولقد أقامت السيدة حفلاً لذلك، وكان الناس يعمدون إلى صيد الدعوات للعام المقبل حتى قبل انقضاء حفل العام الحالي.

بالنـــسبة لي رأيت اليخت كما يرى سمك القرش الأبيض الضخم عجل بحر جريح. وفور ما اختمر في ذهني أنه من الممكن الإغارة على هذا الشيء، لم أتمكن من إزاحة الفكرة عن رأسي، ولكن سرعان ما توصلت إلى النتيجة النهائية أنه من المـــستحيل إنجـــاز هـــذه العملية بمفردي، مما جعل الهدوء يتسرب إلى نفسي تجاه الفكرة. كما أنها تنطوي على استخدام الأسلحة، وهو ما لم أحبذه قط. فلا بد من أن تبقـــي خمسين ضيفاً تحت السيطرة، برُفْقة طاقم من أربعة أفراد، ويكفي الأمر

شـــخص واحـــد في المجموعة يتوسم في نفسه البطولة، فيقوم بعمل أخرق يفسد العملية بأكملها. فبدون أسلحة قوية بحق مسددة تجاههم، سيكون في الأمر مجازفة خطرة.

ستكون الخطة هي اعتلاء القارب من الخلف ما أن يكونوا في المحيط المفتوح، ثم تـــسلق مـــتن القارب بواسطة خطاطيف عالقة، ثم مباشرة العملية بشكل عام. ســـنقوم بتعطـــيل الراديو أولاً، ثم المحركات، ثم نشرع في إراحة الجميع على متن اليخت من بضائعهم الثمينة. بعدها، نعود أدراجنا إلى قاربنا ونيمم شطر موقع ما نكون قد أوقفنا عنده السيارة، ثم نغرق القارب ونمضي في طريقنا بصحبة مجوهرات تـــساوي الملايين. بالطبع سيكون الأمر أكثر تعقيداً من ذلك، ولكن فكرة كوني قرصان القرن العشرين كانت مشوقة جداً بحيث لم أستطع أن أنفضها من تفكيري كلية.

هـــل كانـــت مـــشوقة بحيث رغبت في إعادة التفكير في بعض القواعد التي خدمتني جيداً في الماضي؟ ربما كنت أحمق صعب المراس فيما يتعلق بعدم الاستعانة بـــشركاء أو أسلحة، وعدم السطو على بنايات في حضور قاطنيها. أتراني عن غير قـــصد فـــوّت على نفسي فرصاً رائعة بسبب بعض رموز السرقة المثالية التي عفى عليها الزمن؟

سردت الأمر على أوجي وصديقي بيل ويللينج على سبيل الدعابة والضحك؛ تبادلنا النكات وتناقشنا في مرح، وبعد برهة أدركت أنهما ضالعان معي في الأمر. فهـــا هو ديريك جونسون يسأل الآن عما كنت أعرف سبيلاً يمكنه من الحصول على مال وفير، وكلانا يعرف تماماً ما كان يرمي إليه. كنت بالفعل قد انتهيت إلى أنه للقيام بهذه المهمة يقتضي الأمر الاستعانة بأربعة رجال. لم أكن لأثق في ديريك - استغرقت وقتاً أطول للوصول لهذه النقطة، ربما أكثر من الوقت الذي قضيته معه - ولكنني يقيناً كنت أثق في أوجي وويللينج.

بيـــنما كنت أحاول أن أبدو طبيعيّاً وغير مهتم قدر الإمكان، أخبرت ديريك بأنـــه ليس هناك شيء أعرفه على وجه التحديد قد يساعده في هذا الأمر، ثم سألته عما سيشعر حيال قيادة قارب لبضع ساعات مقابل عشرة آلاف دولار كاملة.

اعتدل ديريك في جلسته، وسأل: "أقوده إلى أين؟"

"ومـــا الفرق؟" أجبته وأنا ما زلت مسترخياً فوق ظهري وعيناي مغمضتان. وأدرك ديريك ما كنت أعنيه. فبداية، أن يعرض عليك شخص ما مالاً كهذا مقابل قـــيادة قارب، فمن الطبيعي أن الحمولة ليست سرطانات البحر. من ناحية أخرى، لو أنني رغبت في إطلاعه على الأمر، لكنت أخبرته.

وأدرك ديريك هذا، فقال وقد حداه الشوق: "بالتأكيد، ما من مشكلة".

يـــا لـــه من أحمق. كان هذا كافياً لأعرف أنه يجب أن أنأى عنه تماماً قدر الإمكـــان. في الأفلام السينمائية يلتقي الرجال مصادفةً بمواقف خطيرة دائماً بدون المـــزيد مـــن التفاصيل سوى غمزة عين أو لمسة لجانب الأنف. أما في الواقع، إن أردت الـــبقاء حياً وبمنأى عن المتاعب، عليك أن تطرح مليون سؤال ريثما تعرف لون رباط الحذاء المفترض أن يرتديه السائق الذي يساندك. ولكن ها هنا ديريك، لا يعـــرف مـــا إذا كـــنت أخطـــط للتخلص من جثة ما، أو للهرب بحمولة من المخـــدرات، أو يعلم الله ماذا غير ذلك، ولكنه يوافق على الاشتراك. و لم أكن أنا أقل غباءً في إشراكه حقّاً، لكني على الأقل كنت على صواب في ألا أسمح له بمعرفة ما كان يجري بالفعل.

* * *

كـــان هـــذا وقت أن بدأت فرقة العمليات التخطيطية بفورت لودرديل في تتبعي، رغم أني كنت أجهل ذلك تماماً.

كانت الشرطة قد عمدت إلى تشكيل تلك الفرق في استجابة لبرنامج النشاط الإجرامـــي بالـــولاية، والذي ألزم إدارات الشرطة المحلية بمهمة استهداف المذنبين المعـــتادي الإجـــرام، ومحاولة القبض عليهم أثناء اقتراف جرائم خطيرة. غني عن القـــول، كان هذا ينطبق تماماً عليَّ، ولكن - بحق السماء - كيف تأتى لهم معرفة ذلك؟

شـــرعوا في تعقبي ليلاً ونهاراً، وكان أفراد تلك الفرقة بارعين بحق، وليس من الصعب القيام بمراقبة بارعة إذا ما أتيحت الميزانية اللازمة لذلك. فقط يتطلب الأمر العديـــد مـــن الـــرجال. وبعكس الاعتقاد الشائع، كلما ازداد الازدحام وضجيج

المدينة، كان من السهل اقتفاء أثرك، حيث يصعب تحديد مكان مترصديك. أما في الأماكن غير المكتظة بالناس، فمن المستحيل تقريباً أن تتعقب شخص ما بدون أن يلحظك.

عمـــدت فـــرقة التعقب إلى تغير الأشخاص والسيارات باستمرار، بحيث لا يُحتمل أن ألحظ ذات المركبة في مكانين مختلفين. فكان من الطبيعي لفريق منهم أن يلـــبث ساكناً بينما أغادر المنطقة بينما هم يخبرون فريق آخر عن طريق اللاسلكي بمكـــاني فيقبـــضون عليَّ، ثم أقفز من بين أيديهم كالضفدع فقط لأتأهب للتسليم الـــتالي. علـــى أية حال، أفضيت بهم إلى الجنون لأني كنت دائماً بالخارج أتحرى البنايات. فكنت أقف قبالة إحدى بنايات الجيرة المتميزة وأطوف حولها، وأتفحص المـــداخل، وقـــد ألتقط بعض الصور. ومن ثم تشرع أجهزة اللاسلكي في إحداث قرقعة في جميع أرجاء المكان، حيث يصبح رجال الفرقة على يقين من أني أوشكت على مداهمة المكان. كان لديهم ست سيارات غير مميزة مجتمعة مستعدة للانقضاض عليَّ حالما أقوم بحركتي الأولى. ولكن كل ما كنت أفعله حينئذ هو أن أبرح المكان وأذهب إلى مكان آخر. ذات عصر أخذنا أنا وأوجي قاربي في رحلة طويلة، وكان هـــناك رجـــال شـــرطة في ملابس عادية متمركزين على كل جسر بين فورت لوديرديل وميامي، يتعقبوننا ويبلغون عن موقعنا لاسلكياً.

ومـــثلما قلت، لم أكن وقتها على علم بحدوث أي من ذلك، و لم تكن لديّ فكرة على الاطلاق إنني كنت مُلاحقاً. فيما بعد، حينما ساءت الأمور ووقعت في الشرك، أتى محامي بكل تقارير الترصد تلك، وتمكنت في النهاية من ربطها بعضها ببعض. كان هذا أمراً مسلياً كذلك؛ فأكثر الأشياء البريئة التي فعلتها كانت في نظر تلـــك الشرطة الوثابة بوادر فعل شرير أنتويه. ومنذ ذلك الحين أصبحت أنظر إلى التقارير الإخبارية التي تتعامل مع شخص ما متهم في جريمة بعين الارتياب. فبوسع أي صحفي خريج مدرسة ثانوية أن يضع الأشياء في منطق يجعل أي شخص يبدو وكأنه مذنباً تماماً، طالما تم تقديم تلك الأشياء في شكل اتهامي محكم. انظر لما فعلته وسائل الإعلام بريتشارد جويل الذي اتهم خطأً بكونه قاذف القنابل بدورة أطلنطا الأوليمبية؛ جعلوه يبدو وكأنه إرهابي محترف بينما كان الرجل بريئاً تماماً.

أكثـــر اللحظات وطأة على النفس قاطبة، والتي كنت أجهلها آنذاك، طرأت حيـــنما حـــضرت أنـــا وبارب الحفل الفاخر لجمع الأموال لصالح حزب فلوريدا الجمهوري. كان الرئيس جيرالد فورد هناك، وفي لحظة تصافحنا أنا وهو بالأيدي وتحدثنا لبضع ثوانٍ. بدا أن حوالى أربع وعشرين سماعة كانت تتصنت بينما حدث ذلـــك، وتوسل رجال الشرطة المحليون لإدارة المباحث السرية بألا يتدخلوا خشية إفـــساد عملـــية مراقبتهم لي بالكامل، بينما راح رجال المباحث السرية يصيحون بطلـــب تعليمات من عميلهم المسؤول، وبينما رجال مركز الاستخبارات يثرثرون مع رئيس فرقة فورت لوديرديل فيما يخص تقرير درجة الخطورة التي أمثلها. حدث كـــل هذا بسرعة وفي هدوء، على الأقل بالنسبة للضيوف، ولكن تخيل أي رؤوس كانت ستسقط نتيجة لمثل هذا القرار إذا ما انتويت بالفعل الإتيان بأمر شرير.

أحـــسب أنه كان يجب عليَّ أن أدرك أن شيئاً ما يحدث، ولكني لم أكن أقتـــرف أي خطـــأ بالفعل، ولذلك لم أكن متيقظاً (على حذر). وربما ساهم هدوئي الخارجي في إنقاذ حياتي، أو على الأقل حال دون كسر بعض عظامي، فلو كان التوتر قد تملكني بينما أقترب من الرئيس فورد، لربما انتهى بي المطاف تحـــت رحمـــة جماعة من عملاء إدارة المباحث السرية، الذين يتسمون بذيوع الصيت في البطش والقتل متى كانوا يحمون رجلهم. (فتقريباً قد أفضوا بالرئيس ريجـــان لموت محقق عندما دفعوه بعنف إلى سطح السيارة بعد اطلاق الرصاص علـــيه، وقـــد عُـــرِف أنهم قد تسببوا بالفعل في كسر واحد أو اثنين من عظام ضلوعه أثناء تلك العملية. يبدو أنه من الظريف القول بإنك قد هاجمت الرئيس، حتى ولو كان ذلك للدفاع عنه).

كان احتفال الصليب الأحمر ما يزال بعيداً، وكنت لا أطيق الانتظار. عرفت مـــن أحـــد السماسرة في فور لوديرديل أن رامادا إن المواجه للشاطئ تماماً قد تم عرضـــه للبـــيع. لم أكن في وضع يسمح لي بشراء فندق، ولم تكن شركة الأملاك العقاريـــة في كليفلاند مهتمة به أيضاً، ولكنه كان مبرراً وجيهاً لإجراء القليل من التقـــصيات. كنت قد عاينت المكان مرة من قبل بالفعل، وبفضل شركة سكلاج للأقفال، كان لديّ نسخة من المفتاح الرئيسي لكل غرفة.

حدث في زيارة سابقة أن قد ألقيت نظرة خاطفة على أحد المفاتيح الرئيسية بينما كان فوق عربة التنظيف، واحتفظت في ذاكرتي برقم الشفرة عليه. ثم أرسلت إلى شركة سكلاج، على ورق "شركة إدارة باي هاربور" وأخبرتها أني قد فقدت المفتاح الرئيسي لواحدة من بناياتنا السكنية، لكني كنت من الحكمة أن دونت أرقام الشفرات مسبقاً واحتفظت بها في خزينة الشركة، فما كان من هؤلاء المدربين على خدمة العملاء إلا أن أرسلوا لي بمفتاح بديل بين عشية وضحاها (أذكر أني قد أرسلت لهم خطاب شكر آنذاك).

ولكن هذا المفتاح كان يصلح فقط للدور الأول. ولكن، فيما يخص نظام المفتاح ذلك، وهو نظام رخيص، كان كل مفتاح رئيسي يختلف عن الآخر بِسن واحدة في الأقفال ذات الخمس أسنان تلك، وكنت أعرف أنها إما السن الأولى أو الأخيرة. ولما كان بحوزتي الآن مفتاح رئيسي واحد، كان كل ما يجب عليَّ فعله هو الحصول على بعض قوالب سكلاج والقيام بنسخ المفتاح عدة مرات، ثم تحريك سن واحدة - سواء الأولى أو الأخيرة - إلى أعلى أو إلى أسفل مع كل نسخة جديدة. انتهى بي الأمر بأن أصبح بحوزتي ما يقرب من أربعين مفتاحاً تمثل كل مفتاح أصلي ممكن لذاك الفندق بعينه، وقمت بتجربتها على مجموعة أبواب ريثما اهتديت إلى المفاتيح الفاعلة.

ما زلت أرتجف حتى الآن كلما عاودت التفكير في ذلك اليوم. فها أنا ذا، أخرج بابتهاج لتفتيش فندق، دون معرفة أن فصيلة بأكملها من الشرطة ترقب كل خطواتي. صحيح أنه لو أنهم كان من الحماقة بأن يتعرضوا لي حالما ظهرت هناك، لتمكنت بسهولة من إثبات أنني كنت هناك لأتفحص بناية معروضة للبيع. لكنهم لم يكونوا بهذا الحمق قط؛ ربما اتسموا بنفاد الصبر، ولكن ليس بالحمق.

لدن وجودي على ذاك الشاطئ، وبعد نحو دقيقتين، أبصرت اثنين في منتصف العمر يجلسان على أرائك وثيرة جنباً إلى جنب. كانت السيدة ترتدي مجوهرات ذهبية وماسة تزن ستة قراريط على أقل تقدير. وربما تتساءل: من عساها ترتدي حلي كهذه على شاطئ؟ في فلوريدا، قد يفعل هذا نصف السكان. خمنت أن يكون هذا الثنائي من زوار الفندق، وتأكدت من ذلك حينما أقبل عليهما النادل بالمشروبات ثم وقعا على الفاتورة.

كان هناك حوالى عشرين شخصاً على الشاطئ في منطقة خلف الفندق. اتخذت مجلسي على أريكة أخرى وثيرة وحاولت قدر الإمكان أن أبدو أكثر كسائح ليس له أي صفة خاصة. لم أكن بحاجة إلى إلقاء نظرة ثاقبة على الثنائي، فكان يكفي أن أراهما ينهضان كي أتمكن من متابعتهما وأحاول معرفة غرفتهما، ثم أعود ليلاً لأرى ما إذا كانت الزوجة قد تركت حليها في أرجاء الغرفة بلا اكتراث.

في الساعتين التاليتين، بدأ الشاطئ يعج بالرواد؛ فعلى الأقل خمسة عشر كانوا يتمشون على الرمال، وجميعهم تتراوح أعمارهم بين العشرينيات والثلاثينيات. كنت مندهشاً لرؤية هذا الحجم الكبير من العمل في فندق يتم بيعه، وكانت دهشتي للتعاظم باكتشافي أن جميعهم كان من أفراد الشرطة. وكان هناك المزيد في الردهة، وفي ساحة انتظار السيارات واثنان على السطح. كانوا هناك جميعاً يراقبونني، مقتنعين تماماً أني كنت أنتوي فعل شيء ما، وكانوا على حق.

في النهاية، بدا الثنائي الذي كنت أرقبه وكأنهما يتأهبان لجمع أغراضهما وقصد غرفتهما. ولأني لم أرغب في أن أذهب في إثرهما مباشرة، فيبدو ظاهراً أني أتبعهما، نهضت بسرعة وسرت نحو الفندق أولاً. كان هناك باب واحد يفتح على الشاطئ. فبالداخل، يمكنك الذهاب يساراً وأعلى الدرج للطابقين الثاني والثالث، أو أن تتخذ طريقاً مباشرة ثم إلى اليسار لتلبث بالطابق الأول. عندما وصلت إلى الباب، فتحته في أدب جم لشابة غاية في الجمال كانت في طريقها إلى الخارج، ثم سرت مباشرة حتى وصلت إلى ممر الطابق الأول. سرني كثيراً أن وجدت أن الأبواب الخاصة بالغرف الثلاث الأولى على جانبي البهو كانت مفتوحة على مصراعيها، ربما لأن الغرف كان يتم تهويتها للنزلاء الوافدين. أما سجاد البهو فكان مبللاً، وهو أمر مألوف في الفنادق قبالة الشاطئ، حيث يدخل النزلاء وأطفالهم يقطرون بالماء عقب السباحة، وغالباً ما تساعد نسمات الهواء التي تهب خلال المكان في تجفيفه بشكل أسرع.

انسللت إلى داخل واحدة من تلك الغرف المفتوحة وأزحت الباب لغلقه بحيث تبقى فتحة لا تزيد عن بوصة واحدة (2.5 سم) تكفي لأن أتمكن من رؤية ما

بـداخل البهو. وفور ما يدخل الثنائي إلى الفندق، سأعرف على الفور ما إذا كانا سـيعتليان الدرج أو سيتوجهان صوب الطابق الأول، حيث سيضطرا للمرور بي. ومن ثم أستطيع تعقبهما من مسافة معقولة وأرى أية غرفة كانا يقطنان.

بعـد فترة وجيزة دخلا وسارا مارين بالغرفة التي كنت فيها. انتظرت قرابة عشر ثوان، ثم خرجت وتبعتهما في صمت وأبصرت حجرهما، ثم عدت أدراجي تلك الليلة وسلبت ثروة من الذهب والماس، وذهبت حراً طليقاً بلا أي اهام يذكر.

علـى الأقل كانت تلك هي الخطة. ولكن ما حدث كان مختلفاً تماماً. حالما فتحت الباب وتأهبت لدخول البهو، أبصرت السيدة الجميلة التي كنت قد فتحت لهـا الـباب. كانـت تقف عند المدخل تماماً، تنظر إليّ مباشرة، مشهرة في يدها مـسدساً بوليـسياً عيار 0.38 كاليبر وقد أشارت به صوب رأسي مباشرة، وهي تصيح آمرة إياي أن أنبطح على الأرض ووجهي إلى الأسفل. كان من الصعب أن أتـبين كلماهـا حيث كان هناك ثلاثة آخرون من رجال الشرطة يقفون خلفها مـشهرين مـسدساهم نحوي كذلك، ويصرخون مطالبين بذات الشيء. الشيء الوحـيد الـذي تبينته بوضوح كان اسمي: كان أولئك الرجال يعرفون تماماً من أكون.

وبيـنما أنا منبطح على الأرض ووجهي إلى أسفل على السجاد المبلل حيث تنـبعث رائحة عفن كريهة والرمل يكسوه، ألصق واحد من رجال الشرطة ركبته بظهـري وقـيد وثاقي، وعندها فقط تراجع الآخرون ومسدساهم بأيديهم. عمد اثـنان مـنهما إلى إهاضـي على قدمي، ثم شرعا في تفتيشي، بينما راحت المرأة والـرجال الباقون يسخرون مني مزاحاً عن تبولي في سروالي، لأنني كنت أقطر من الـسجاد المبلل. ستكون هذه واحدة من أفضل القصص التي ستتناقلها شرطة فور لوديرديل عني، وتبلغ بها الصحفيين لسنوات.

لكـني لم أبـالِ على الاطلاق بما كانوا يفكرون فيه آنذاك، فلقد كان ذهني منـشغلاً في محاولة تخمين ما قد يكون لديهم ضدي. فلم أستطع تخيل السبب أهم أوقفـوني هكذا بينما كان بوسعهم الانتظار والقبض عليّ متلبساً بالجريمة، في فعل جنائـي واضح، طالما أهم كانوا يتتبعونني منذ البداية. ماذا كان لديهم ضدي ولا

أعرفه؟ كانوا موقنين من العثور على المفاتيح الأصلية للفندق بحوزتي، مما يمكنهم من رفـع قـضية لحيازة أدوات السطو، والتجاوز أيضاً، ولكن تلك كانت قمماً بخسة جـداً. فكـيف سيفسرون هذا الإنفاق الضخم على قوة ضباط الشرطة المسلحة تلـك؟ فإن لم يكن هناك أية جرائم خطيرة وقد عجزت الشرطة عن التصدي لها بسبب ذاك النشاط في الفندق، فإن إدارة الشرطة ستعاني لا محالة.

ثم بـدأ رجـال شـرطة آخرون في الظهور، وهم يهنئون بعضهم البعض للقـبض على رجلهم المنشود. لم يكن هذا منطقياً على الإطلاق. ثم سمعت مخبر عجوز يتحدث في جهازه اللاسلكي ويبلغ شخص ما أنه تم القبض عليَّ، وأنهم قد عثروا معي على أدوات السطو، ومن ثم فإنه يمكنهم المضي قدماً وتنفيذ إذن التفتيش.

"أي إذن تفتيش؟" سألت المخبر.

فابتسم ابتسامة عريضة وقال: "إذن تفتيش منـزلك يا صديقي".

تباً.

* * *

سـاروا بي إلى الخارج صوب سيارة شرطة واقتادوني إلى القسم. بالنظر إلى حجم العربة، قد يساورك الظن أنهم قد اعتقلوا الرئيس بداخلها.

غـير أنـنا لم نكن متجهين نحو القسم، بل في اتجاه مغاير تماماً. انتابني لحظة ذعـر، وتـساءلت مـا إذا كانوا يأخذونني إلى إيفرجليدز، حيث يعدمونني رمياً بالرصاص ويلقونني لإطعام التماسيح أو ما شابه. بيد أني هدأت من روعي بسرعة، فلـم يكن منطقياً فعل شيء كهذا لجريمة لا تتسم بالعنف، بغض النظر عما سببته لهم من حنق وإحباط. كما أنه كان هناك العديد من رجال الشرطة في موقع إلقاء القبض بحيث يصعب الاحتفاظ بالأمر سراً.

ثم أدركـت أننا كنا متجهين صوب منـزلي. وما أن وصلنا حتى اجتذبوني خـارج السيارة وساروا بي حتى الباب وقرعوا الجرس في أدب. نختزن جميعاً صوراً محفـورة في أذهاننا بحيث لا شيء يستطيع محوها: واحدة منها كانت وجه باربارا حينما فتحت الباب.

طالعت في الكتب عن مدى المشاعر المختلفة التي قد ترتسم على وجه شخص مـــا كلـــها في آن واحـــد، وتبدو أخيراً كشيء أبله، لكن الأمر لم يكن كذلك. الصدمة - النوع الذي يصيب المرء بالدوار - والارتباك كانا أول ما لاحظت على وجه بارب، ثم الهلع الشديد، حتى بدت وكأنها تنكمش. جالت ببصرها بيني وبين رجـــال الشرطة ثم إليّ مرة ثانية، بمنتهى السرعة، وكأنها تحاول إيجاد إجابات لكل ســـؤال دار في خاطـــرها. أشفقت عليها كثيراً وكدت أعجز عن التنفس. وأخيراً استقرت عيناها عليَّ حيث أدركت مبرر وثاق يديّ خلف ظهري.

كان هذا شديد الإيلام بالنسبة لي؛ ففي أكثر اللحظات التي كانت فيها بارب في حاجـــة ماسة إليّ، كنت أنا سبب تلك الحاجة. غير أن الهوان والعجز كانا كل ما لديّ لأقدمه لها.

لكـــان الأمر مختلفاً لو كانت تواطأت معي وشاركتني في السرقة، بيد أنها كانت بريئة تماماً، ولم تكن تستحق هذا. كنت أعرف أنها كانت شديدة الريبة في أني لم ألتزم جـــادة الصواب حتى بعد إصابتي بالرصاص، لكنها كانت تجهل ما كنت أنتوي فعله، ولا أخالهـــا رغبت في معرفة ذلك. الأولاد والبيت شغلوا غالبية وقتها، وبينما لم يكن المـــال قط مشكلة حيوية، لم تطرح أبداً أية أسئلة عن مصدره. ربما خالجها الظن أن مضمار الأملاك العقارية كان بمثابة منجم ذهب، ولكن بارب كانت في غاية الفطنة، لـــذا أشك في ذلك. كانت أوقات تغيبي الليلية المتوالية المتكررة لتصبح قضية في ظل ظروف أخرى، ولكني كنت أمضي الكثير من الوقت مع زوجتي وأولادي، ربما أكثر من أي والد آخر أعرفه، فلم يكن هناك احتمال إلى أني قد أهملتهم أو ما شابه. فكان أن اعتادوا فكرة "إن أبي يحب أن يبقى بمفرده من وقت لآخر".

أشـــرف هـــذا على النهاية. كان رد فعل بارب إزاء ما كانت تشهده لدن مدخل الباب ليمثل عذاباً مبرحاً لي، ولكن رجال الشرطة كانوا معتادين على مثل هذه الأشياء، واستخدموا الأمر لمصلحتهم. لا بد من أن المخبر قد شعر على الفور بأنـــه كـــان مـــن السهل تهديد بارب. وبدلاً من إمهالها بضع ثوانٍ حتى تبرأ من صدمتها وتستجمع شتاتها، لوّح بشارته، وأخرج مظروفاً وقال: "هذا إذن بتفتيش المنـــزل، يا مسز ماسون. أنا المخبر كينج، أيمكننا الدخول؟"

ناضلت بارب لاكتساب بعض السيطرة على زمام الأمر، وقالت في غير قناعة عقلية أو إحساس حقيقي بالقوة: "لم أطالعه بعد".

أجابها كينج وهو يزيحها جانباً بينما خطت هي إلى الأمام: "لا يهم إن كنت طالعته أم لا، فما زال سارياً على أية حال".

وبالـــرغم مـــن الخوف الذي استبد بها، إلا أن بارب كانت على ثقة من أنه ليس ثمة شيء يمكنهم العثور عليه. فهي من يقوم بالتنظيم ورعاية المكان، لذا قطعاً كانت لتعرف حال وجود شيء بطريقة خاطئة.

لكني كنت أقل يقيناً منها. كنت على وشك الرحيل إلى واحدة من رحلاتي إلى كليفلاند، وجلبت بعض الأشياء إلى المنـــزل لأخذها معي لتاجر المسروقات. كـــان لـــديّ بعض أمل أن رجال الشرطة قد لا يعثرون على تلك الأشياء، ولكن ســـرعان مـــا داهمني الكدر بينما كنت أرقبهم وهم يعملون. كان أولئك الرجال متأهبين لقضاء بقية حياتهم المهنية يبحثون في منـــزلي طالما اقتضى الأمر ذلك. ليس فقـــط لأنهـــم كانـــوا يرغبون بضراوة في إلقاء القبض عليَّ، رغم إنني ما زلت لم أســـتوعب السبب، بل ولأنهم رغبوا في التيقن تماماً من أنهم لن يعودوا إلى القسم بخفي حنين، ومن ثم يصعب تفسير مبرر تعبئتهم جيشاً ضد مذنب، بواقعة واحدة هـــزيلة في صحيفة سوابقه. لم يكن رجال الشرطة ما كنت أهابهم، فأكثر ما كان يقلقني هو مرأى وجه بارب حينما تكتشف أنني أخفيت مسروقات في منـــزلنا.

لم يكـــن بـــيدي حـــيلة لإيقاف أي من هذا، ولكن كان هناك شيء واحد أســـتطيع فعله كي أشرع في حماية نفسي، فتوجهت بسؤالي إلى كينج، الذي بدا الشخص المسؤول آنذاك: "متي يسمح لي بمكالمة تلفونية؟"

"مكالمة تلفونية؟ ما حاجتك للمكالمة؟ إنك هنا مع زوجتك".

"زوجتي ليست محامية" قلتها بلا حقد دفين. "هلم، دعني أجري مكالمتي".

سار بي تجاه المطبخ، ثم حلّ وثاقي من الأمام، وراقبني بينما رفعت الهاتف إلى أذني وأمسكت السماعة بكتفي، بينما وهنت قواي من الأيدي المصفدة بالأغلال. اتصلت بجاري عبر الشارع. كان محامياً، وكذلك كان جار آخر لي، وفي غضون دقيقتين كانا في منـــزلي. كانا قد أبصرا الجلبة والاضطراب فتأهبا، إلا أنهما أبلغاني

بأهما ليسا محاميين جنائيين. "لدينا شخص آخر نستطيع الاستعانة به" قال أحدهما. طلبت منهما إجراء المكالمة الهاتفية، وفي دقائق ظهر محامٍ آخر يدعى هوارد زيدويج.

"لا تنبس بكلمة".. كان هذا أول ما قاله لي بينما سار إلى المنزل. لم يكن في حاجة لتقديمه لي، فقد كنت الوحيد المقيد بالأصفاد، وقد أصبحت خلف ظهري ثانية.

"أنا لم أقل شيئاً" قلت له، فأومأ برأسه في استحسان.

وبعد بضع دقائق أخرى ظهر المخبر المسؤول مرة أخرى. "ما هذا إذاً؟" سأل بينما يهز حقيبة من القماش إلى أعلى وأسفل.

أجابه زيدويج: "على حد علم موكلي، إنه غداؤك فلم أحضرته للمنزل؟"

استمع المخبر كينج إلى ذلك، لكنه لم يتكدر من هذا المحامي المغرور، فقال: "لقد عثرنا عليها الآن.. بالخارج في المرآب".

"أين بالتحديد؟" سأله زيدويج.

"تحت كومة نفايات. علب طلاء وأشياء من هذا القبيل". ثم فتح كينج الحقيبة وسلمها لنا، فومض بداخلها أحجار ماس، وزمردتان، وسوار بزركشة ذهبية، كما كان هناك عدد ضخم من العملات الفضية. "ربما يستطيع موكلك إخبارنا من أين حصل على هذه الأشياء".

"بالطبع" أجاب المحامي "وربما يبلغك أيضاً كيف اغتال كيندي".

وشكت أن أفضي إليه بدون تدبير أن العملات الفضية كانت تخصني. كانت تخصني بالفعل، ولكن ذلك اعتراف صريح أن باقي الأشياء لم تكن ملكي، فالتزمت الصمت.

ضحك المخبر في ود، فها هما فنانان محترفان، حذران ولكن يكنّ كل منهما للآخر احترام، يمارسان لعبة غرض كل منهما فيها أن يتلمس بحذر مدى أهمية الشخص الآخر. ولم يستغرق منهما الأمر طويلاً كي يتبينا أن في إمكانهما التخلي عن الحيل العادية المألوفة التي كان يجدي أثرها فقط على المبتدئين الجدد.

سأل زيدويج: "ثم ماذا؟ إنك لم تودعه الحجز بعد".

"سآخذه على الفور، هل ستأتي؟"

نظر المحامي إلى ساعته، وأدركت ما كان يدور في خلده: كان ما زال الوقت مبكـــراً في النهار للحصول على جلسة الإفراج بكفالة، لذا فسيأتي معي. لو كان الوقت متأخراً لما أضاع وقته في الإتيان معي، حيث لم يكن ليجدي نفعاً.

ثم طلـــب مـــن باربارا أن تتوجه إلى البنك وتنتظر هناك. قادوني إلى القسم وكان احتجازي، وتحددت الكفالة بمبلغ سبعة آلاف دولار. اتصل زيدويج ببارب، الـــتي سحبت النقود، وأقبلت وأخرجتني. وهكذا بعد أربع ساعات من تواجدي بذاك الفندق، كنت في المنـــزل مرة أخرى.

كانت بارب قد أرسلت الأولاد المذعورين إلى جيران لنا، ومن ثم كان أول مـــا يجـــب عمله هو إعادهم إلى المنـــزل، وأن نريهم أن الأمور ما زالت كسابق عهـــدها، ونحـــاول بث السكينة في نفوسهم. منحتهم رواية بقالب مستساغ عن الأحداث، وكيف أن كل ذلك كان عن طريق الخطأ، بيد أن رجال الشرطة كانوا حـــانقين جداً مما استلزم وقتاً لإيضاح الأمر وتسويته. مكثت معهم لفترة طويلة، ولمـــبررات واضـــحة، ولكن أيضاً هالتني فكرة العودة لغرفة المعيشة لمجابهة بارب. كنت أعرف تماماً ما سيكون عليه رد فعلها، وكنت محقاً.

لم تـــسألني عمـــا فعلته، ولم تشر إليّ بأصابع الاتهام، ولم يستبد بها الغضب وتهددني بالتخلي عني أو تلزمني بوعودي القديمة في وجهي. لكنها طرحت العديد مـــن الأسئلة عن المتوقع حدوثه، وما المطلوب منها، وما هي العواقب المحتملة. أي أنها كانت تفعل بالضبط ما كنت أخشاه: أنها ستساندني بنسبة مائة في المائة.

لم يكن الأمر أنها لم تكن مصدومة لما كان قد حدث عصر ذلك اليوم، أو أنها لم تكن مرتعبة جداً بشأن ما كنا مقبلين عليه، وهذا ما جعل الأمر أسوأ حالاً. ما أســـوأ مـــا فعلته في امرأة عذبة رقيقة مثل بارب! ها هي زوجة صلبة كالصخر، أحبـــتني تمامـــاً ولم أستطع كبح نفسي عن إحاقة الألم بها. كان لديّ ملايين من المبررات التي كنت مستعداً لإعطائها إياها – لم أكن أعلم إنه سيقبض عليَّ؛ كانت مداهمـــة خرقاء وكانت الشرطة على علم بها؛ كنت فقط أحاول أن أوفر لنا عيشة

أفضل - بيد أن كل ذلك كان مؤسفاً ومثيراً للاشمئزاز على هدي هذه المرأة الجميلة، المرتعدة الفرائص بعينين مرهقتين حمراوين، والباذلة قصارى جهدها للتماسك.

أردت تفسير الأمر لها على أية حال، وأخبرتها بالحقيقة، على الأقل كما أدركتها آنذاك، مع تعديل طفيف لتفصيلة أو اثنتين. في الظاهر، كان كل شيء أبلغتها إياه معقولاً نظراً لحقيقة أنني - تقنياً - لم أقترف أي شيء بالفندق، وأن رجال الشرطة قد ارتكبوا خطأً فادحاً بالفعل. وهي القصة ذاتها التي سأرويها للمحققين فيما بعد؛ كان الفندق فعلاً معروضاً للبيع، وقد ذهبت لتفحص الأمر ومعاينته. جلست على الشاطئ لبرهة ألحظ طراز النزلاء الذين يجتذبهم الفندق والخدمات التي يتلقونها هناك، ثم دلفت إلى الداخل لتفقد حالة المناطق العامة وغرف الضيوف. مجموعة من الغرف كانت مفتوحة، فدخلت إحداها لإلقاء نظرة. لم تكن مشغولة في تلك اللحظة، ولم تكن حتى محجوزة لأحد، حيث لم يكن هناك أية أمتعة شخصية، وكانت خادمات قد تركن الغرفة مفتوحة بغرض تهويتها. لبثت لبضع دقائق ليس أكثر، ثم فتحت الباب لأغادر فداهمتني فرقة من رجال الشرطة. لم تكن لديّ أدنى فكرة عما كانوا يفعلونه هناك - وكانت هذه أيضاً حقيقة - ولا أية فكرة عن سبب إيقافهم لي، حتى إن حقيقة أنهم يعرفون اسمي قد أذهلتني، وبالتفكير في هذا، بات واضحاً أن تعرفهم عليَّ كان سابقاً على لحظة إيقافهم لي. لقد كانوا يعرفون أنه أنا من بالغرفة حتى قبل أن يروني بداخلها.

لم يكن من السهل شرح سبب وجود كل تلك المفاتيح الأصلية معي. ولكن لم يكن هناك شيء غير شرعي حيال ذلك طالما أني لم أحصل عليها عن طريق السرقة، إلا أن مصطلح "مهمات السرقة" مصطلح مرن ويعتمد على السياق. فإذا كنت تحمل مفكاً، وعتلة، ومثقاباً قوياً ويتصادف أن تكون بطابقك السفلي تعيد تأسيس خزانة ذات أدراج، فليس هناك ما يسوء. ولكن إن كنت تحمل تلك الأدوات ذاتها بالقرب من مصرف في الثالثة صباحاً، فإنك في وضع حيازة أدوات سطو. تلك أمثلة واضحة، مما سيثير بعض الجدل في حالتي؛ فأن تحمل مفاتيح أصلية داخل فندق في وضح النهار بينما لديك رخصة وكيل أملاك عقارية والفندق

معروض للبيع، فإن هذا لا يصنع دعوى مُحكمة تشير إلى نية ارتكاب جريمة. ومن ثم فـأن أكـون منتوياً القيام بسرقة، أمر جانبه الصواب تماماً، خاصة أنني لم أكن أنوي بالفعل القيام بالسرقة في ذلك الوقت. كنت أخطط للعودة أثناء الليل. ولكن مـاذا إن كان قد ساورني الشك في جدوى هذا، ولم أكن قد عقدت العزم بعد، فهل أكون مذنباً بأي شيء؟ أترى كيف يمكن أن يصبح الأمر ملتوياً.

إلا أنه لم يكن هناك ثمة التواء في أي من الاتهامات الأخرى، ومن بينها حيازة المسروقات. لم أكـن متيقناً أنه بوسعهم إثبات أن المتعلقات التي عثروا عليها في منـزلي هي أشياء مسروقة بالفعل، ولكني كنت شرعت أفكر أنهم كانوا يعرفون بالفعل أكثر قليلاً مما كنت أفترضه في البداية.

لم أشـارك بـارب في أي من هذا بينما كنا جالسين نتجاذب الحديث، وما كانـت هـي لتهتم بالتفاصيل على أية حال. وأدركت أن ما يراود ذهنها كان سـؤالان لا ثالـث لهما؛ أولهما، ما الذي يحدث لي هذه المرة، وثانيهما، ما الذي سـيحدث بعـد ذلك. لم يكن يحدوني أمل حقيقي في أني سأنجو سالماً من تلك النكبة، ولا حتى أمل طفيف في أني سأتعلم من هذا الموقف دروساً تبقى معي طوال حياتي القادمة. في صميم قلبي كنت مستعداً أن أقسم بحياة أبنائي أنني سألزم جادة الـصواب وألبث مستقيماً، وقد كنت مؤمناً بذلك فعلاً. ولكن عقلي كان يحدثني بشيء آخر؛ أنني كنت في مفترق الطرق هذا من قبل، وشعرت بالتزام حقيقي نحو ضـرورة اعتزال هذه الحياة، ولقد صمدت بالفعل قدر ما احتملت، لكني أخفقت في الـنهاية وزللت. إنه ما يشعر به متبع الحمية عندما يفرط في تناول الطعام، أو مـدمن الهيروين بعد أخذ جرعته منه، أو كالمقامر حينما يخسر آخر ما لديه للمرة المائة: هذا هو ما شعرت به آنذاك. بيد أن الأمر لا يستحق الحزن الدفين، كما أني لم أعد في حاجة إليه.

الإنكار التقليدي، الاستجابة القياسية للمدمن الشديد الإدمان.

* * *

كـان موعدي مع زيدويج في تمام العاشرة من صباح اليوم التالي. أقبلت في المـوعد، بيد أني مكثت في انتظاره لمدة ساعة، وحينما وصل أخيراً اعتذر وأوضح

أن سبب تأخيره هو أنه كان يحاول التوصل إلى اتفاق مع المخبرين ونائب المدعي العام. "أظن أنه سيعجبك هذا"، قالها بابتسامة واسعة تنم عن إعجابه بذاته، وتصحبها غمزة من عينه.

دخلنا مكتبه الخاص حيث جلسنا، ثم مال زيدويج بظهره في مقعده الجلدي الوثير ووضع يديه خلف رأسه، وقال: "يبدو أنهم مهتمون بغلق القضايا أكثر من اهتمامهم بإدانتك لحيازة أشياء من المفترض أنها مسروقات".

من المفترض؟ "هم يجهلون إذاً مصدر هذه المسروقات؟"

"أقرب ما يمكنني قوله هو أنهم ما زالوا يعكفون على ذلك، غير أن أشياءَ كتلك..." وهز رأسه قبل أن يتابع: "مسروقات باهظة القيمة. لو أن مصدرها من هنا، من جنوب فلوريدا، سيقتفون أثرها في النهاية".

كان محقاً في هذا. وحتى إن لم يكن رجال الشرطة مهتمين، فقطعاً سيهتم محققو شركات التأمين، وهم أشخاص يتحدثون إلى بعضهم البعض كثيراً. "وما هو الاتفاق إذاً؟"

تحرك زيدويج بمقعده إلى الأمام واتكأ بمرفقيه على مكتبه، وقال: "أبلغهم عن مصدرها بدقة، وسيمنحونك حصانة عن كل واحدة من تلك القضايا. وإذا ما اضطروا إلى اكتشاف المصدر بأنفسهم، سيقاضونك عن كل واحدة منها". وكان يعني بهذا مقاضاتي عن تلقي المسروقات، حيث سيكون من الصعب إثبات أنني كنت اللص الأصلي.

"وماذا عن عملية رامادا؟"

هزّ زيدويج كتفيه وعاد إلى الوراء ثانية، وقال: "سيظل لدينا هذا؛ سيتابعون القضية ضدك. أحسب أنهم مضطرون لتبرير كل ما بُذل من رجال وعتاد".

ولماذا أكون أنا المبرر؟ "أتخبرني أن كافة رجال الشرطة الذين كانوا بالفندق، كانوا هناك من أجلي؟"

أجفل زيدويج في ارتباك من سؤالي، وقال: "يبدو هذا واضحاً".

"ولكن لِمَ يقتفون أثري؟"

فسّر لي ذلك زيدويج أن رجال الشرطة قد أبلغوه أهم أضحوا على معرفة بي بيـــنما كانوا يتحرون أمراً ليس ذا صلة في لاجو مار، مكان فاخر جداً في هاربور بيـــتش، شـــرق فورت لوديرديل. كنت أنا هناك منذ أكثر من شهر سابق. "لقد رأوك توقف سيارتك في الموقف ثم تطوف بالفندق".

انتظرت حتى يكمل زيدويج حديثه، لكنه لزم الصمت، فبادرته قائلاً: "ثم...؟"

"ثم... هذا كل ما في الأمر".

كـــنت بدأت أتساءل ما إذا كان المحامي الخاص بي قد طرح عليهم أية أسئلة أخرى على الإطلاق، أم عساه صدق كل ما قالوا له. "ما تقوله إذاً هو إنهم أبصروا رجـــلاً يوقـــف سيارته في الموقف بفندق ما، فقرروا تخصيص نصف قوة الشرطة لملاحقته زهاء الشهر؟"

"قالوا أنك أوقفتها هناك بحيث تخفي لوحة الأرقام الخلفية"، قال زيدويج، ولا بـــد مـــن أنه قد أدرك مدى سخف ما قاله، ذلك أنه حاول الهرب من الموضوع بسرعة: "من تظنهم كانوا في أثره بفندق رامادا؟"

"كيف لي أن أعرف بحق السماء؟!.. لم أكن أفعل شيئاً".

"مـــا بالك إذاً كنت تمحو بصمات أصابعك من على المقبض الداخلي لباب غرفة النـــزلاء؟"

أذهلني السؤال حتى إني لم أستطع الرد من فوري، وآثرت أن أستوضح نتائج ذاك أولاً. محو بصمات الأصابع؟ "هوارد، ليست لديّ فكرة عما يتحدثون عنه!"

بـــدأ التعبير على وجه زيدويج يتحول إلى التعبير التقليدي الذي يعرفه كلانا؛ تعـــرف تماماً أنك دنس عفن، ولكني سأكون مؤدباً معك لأنك موكلي، ومن ثم اتخذ زيدويج قناع الحياد المتعمد المدروس، ولكن لم يكن هذا ليعنيني كثيراً، فقلت: "اللعنة، لم أكن أفعل أي من هذا! إنهم يبالغون في استغفالك"!

"لا أدري ماذا أقول! سواء كان هذا حقيقياً أم لا، إنهم أربعة من رجال الشرطة ضـــد متهم قيد الاعتقال، و لم يرك أي أحد آخر داخل الغرفة". كان زيدويج محقاً في هذا. "كما أن لديهم شاهداً مدنيًّا؛ امرأة من كونيكتيكت تدعى جين تيرني".

كونيكتيكت؟ "ما صلة شخص ما من كونيكتيكت بهذا...؟"

"تلـــك كانت غرفتها التي عثروا عليك بداخلها، غرفة رقم 127. ستأتي تلك المرأة وتشهد أن الغرفة كانت محجوزة لها، مما يقر أن الغرفة كانت مشغولة، ومن ثم سيثبتون بسهولة أنك كنت مداناً بالسرقة".

حاولت أن أفسر لزيدويج، فقلت: "هوارد، تلك الحجرة كانت خالية تماماً. الـــباب كان شاغراً لأنهن كنّ يقمن بتهوية الغرفة. خادمات الغرف لا يفعلن ذلك أبداً متى كانت الغرف مشغولة".

"أنــا أصدقك"، قال زيدويج معترضاً إياي، وقد رفع يديه وكأنما يقول إني أضـــيع أنفاســـي سدى في محاولة إقناعه. "ولكن ربما كانت تلك المرأة مرتبة جداً واحتفظت بكل متعلقاتها داخل الأدراج".

"هراء".

"ربمـــا، ولكـــن كيف عساك ستجادلهم في ذلك؟ لو أخبرتهم بأنك فتشت الأدراج، إذاً كـــنت بالفعـــل تحاول سرقة المكان". كان هذا ما ينتظره زيدويج؛ انتـــصاره الوحـــيد في هذه المحادثة المضجرة المزعجة، أن يتوصل لذلك، ثم أردف قائلاً: "أقترح أن تقبل الاتفاق يا بيل".

بالطـــبع كان هذا اقتراحه.. سيمكنه هذا من أتعاب ضخمة، وسيظل سجله نظيفاً من خسارة أي قضايا. كان إخفاقه البين في طعن اعتقال الشرطة له – وهي استراتيجية نموذجية ليعرفوا أنك ترى قضيتهم بلا قيمة، وأنك تنتوي محاربتهم بكل مـــا أوتيت من عزم وقوة – مؤشر لي أنه يجب عليَّ التفكير في هذا الاتفاق بنفسي بما يتفق مع مصلحتي أنا الشخصية وليس مصلحته.

اســـتغرق مـــني ذلك تسعون ثانية. "أريدها كتابة أنني سأنجو من كل قضية أبلغهـــم عنها، كما أبغي استعادة كل العملات الفضية التي أخذوها من منـــزلي، فكلها ملكي".

اســـتراح زيـــدويج لمـــوافقتي، وأني لن أتحدى التزامه بقضيتي، فأعادني إلى غرفة الانتظار حتى يجري تلك المكالمة الهاتفية، وعاد بعد أقل من دقيقة: "ظفرنا بالاتفاق".

ولم يكن يعرف نصفه.

* * *

التقينا بالمخبر كينج في وقت مبكر من صباح اليوم التالي. ناولني نسختين من الاتفاق المكتوب وقلماً، وقال: "وقع هاتين الورقتين، ودعنا ننتهي من هذا الأمر".

ولما لم يحرك زيدويج ساكناً، أخذت الأوراق، وتجاهلت القلم وجلست لأقرأهما. وبدون النظر إليه، كنت أشعر بالمحقق كينج يستشيط غضباً أني أخذت وقتي في القراءة.

قال زيدويج: "إنه نص نموذجي تقليدي يا بيل".

"من أين لك معرفة هذا؟" أجبته دون أن أرفع بصري عن الأوراق، "إنك لم تقرأها".

"اسمع.." بدأ كينج كلامه، ولكني التقطت قلمه فلزم الصمت. وما أن أمسكت به حتى بدأت شطب بعض الجمل والفقرات، وأخذت أسطر في الهوامش.

"ماذا تفعل بحق السماء!" قال مزمجراً.

"فقط أبغي أن تشير إلى ما اتفقنا عليه".

"إنها تشير إلى ذلك بالفعل، إلام ترمي يا ماسون؟"

"أرمي؟"

"لقد قمت أنا بتوقيعها، أليس كذلك؟"

"بل قمت أنت بكتابتها!" توقفت عن الكتابة ونظرت إليه، ثم إلى المحامي، "أيظن أحدكم أني سأقوم بتوقيع هذا المستند دون موافقة مني عليها؟"

"بالطبع لا... ما المشكلة إذاً؟" قال زيدويج الذي رغب بوضوح في إنهاء هذا الموقف، إلا أنه لم يكن هناك بد من إجابته على سؤالي ذاك.

"شيئان. أولهما، هذا الكلام القانوني المعقد الذي لا أفهمه؛ أريده في لغة إنجليزية واضحة وسلسة". قلت هذا وقرأت عليهم ما كتبت: "'سيتلقى مستر ماسون حصانة عن كل ما يخبر الشرطة عنه'. أليس هذا ما اتفقنا عليه؟"

"وهذا ما يقوله المستند". قال كينج في إصرار.

"فليذهب ما يقوله مستندك إلى الجحيم".

اقترب كينج وأخذ المستند بنفسه. أعتقد أنه فطن إلى أن الاتفاق بصدد الانهيار، وبدأ يتصبب عرقاً. كنت معولاً على حقيقة أنه قد قام بالفعل بإبلاغ

فحـــواه لمندوب الشرطة المفوض، وأنه على وشك إنهاء ثلاث أو أربع من القضايا المعلقـــة لديهم والتي فشلوا في حلها، وما لديه الآن هو العودة إليهم قائلاً أنه دمّر الأمر برمته بسبب مشكلة صياغة الاتفاق المكتوب.

قـــرأ كينج الاتفاق لبضع ثوان، ثم جلس وشرع في كتابة ملاحظاته. "أولاً، ليس أي شيء تقوله، ولكن أي شيءٍ تقوله اليوم، إبان الموضوع بعينه".

"أجـــد هذا منصفاً تماماً"، ثم تفاوضنا زهاء ثلث الساعة تقريباً، كان زيدويج خلالها يندس مقاطعاً الحديث من وقت لآخر، من حيث إنه من المفترض أنه المحامي الخاص بي. والحقيقة، أني لم أكن محبذاً تدخله في الموضوع، فلقد كان لديّ خطتي، ولم أكن مهتماً باطلاعه عليها أو مشاركته فيها.

وأخيراً قال كينج: "والآن، لا بد من طباعة الاتفاق مرة أخرى".

"لا عليك.. ليس هذا ضرورياً" قال زيدويج "بوسعكما أن توقعا بجانب كل تغيير أو تعديل أجريتماه، ثم نقوم بتصويره، وهذا قانوني تماماً".

وهكذا فعلنا، ثم استقلينا سيارة الشرطة حيث كان كينج خلف عجلة القيادة وأنـــا بالمقعـــد المجاور، بينما زيدويج في المقعد الخلفي. ثم قال كينج بينما بارحنا الموقف: "حسناً.. فلتبدأ في الغناء". كان هذا ما قاله بالفعل.

ربما يصعب تصديق ذلك، ولكني كنت معجباً بالمخبر كينج على نحو ما، فقد كـــان مهـــذباً وودوداً منذ أن بدأنا هذا الشأن. أعتقد أن هذا هو موقفه طالما أن المـــتهم لا يسبب له المتاعب، فما من مبرر لأن يكون غير مؤدب معه. ولقد رأيت في هـــذا سلوكاً مستنيراً، وخامرني إحساس سيئ حيال ما كنت متأهباً لفعله معه، وتمنيت ألا يضمره لي، ولكني كنت على يقين من أنه سيفعل. يا لها من أيام!

انتظرت حتى أصبحنا بالشارع، ثم قلت: "حسناً... هناك عملية رأس النافورة".

رمش كينج بعينه بضع مرات، ثم قال: "عملية ماذا؟"

"رأس النافورة.. تلك التي...".

"اللعـــنة... أعـــرف تماماً ما هي عملية رأس النافورة... ولكن أتحاول القول بأنك أنت من فعلها؟" قال كينج وقد اتسعت عيناه واستدار قبالتي.

"أجل.. يا رجل.. التفت إلى الطريق بحق السماء!"

أولى كينج القيادة انتباهه مرة أخرى، ولم يكن هناك ما يسوء في الأساس، ولكني أردت فقط أن أصرف اهتمامه قليلاً. وعند أول إشارة حمراء، سحب مفكرة سوداء صغيرة من جيب قميصه ودوّن ملاحظة ما.

"وهناك أرماند هامر أيضاً" قلتها بشكل عرضي قدر ما استطعت.

"هراء"! ردّد كينج وقد بدأ الحنق يزحف على نبراته. "سطوت على هامر! هكذا ببساطة.. هراء!"

آثرت ألا أجيبه على الفور حتى يخبو غضبه، وأن يتضح في ذهنه نتاج اعترافي هذا. فالصحافة لم تذكر شيئاً عن سطو هامر.

"هراء" كررها كينج ولكنه كان أكثر هدوءاً هذه المرة. "لا أحد على الاطلاق يعلم بتلك السرقة، لا أحد سوى آل هامر، وشركة التأمين الخاصة بهم، وشرطي أو اثنين. لقد تكتمنا الأمر. لا أحد...".

"ولكن اللص كان يعرف" قلت مذكراً.

لم أبالِ إن كان صدقني أم لا، ما دام عكف على التدوين، فتصديقه إياي لم يكن جزءاً من الاتفاق؛ كل ما كان يعنيني هو أن يتم تدوين هذا في سجلات الشرطة. لكن، كما أسلفت، كان الرجل دمث الخلق، لذا أقمت الدليل على زعمي. "أتذكر ذلك السوار المزركش بالذهب الذي عثرت عليه بشقتي؟" ثم انتظرت حتى أومأ برأسه، وأردفت: "أره للسيدة هامر".

فكر كينج في الأمر، ثم دقّ بقبضته بعنف على عجلة القيادة، بينما خرجت عبارة "يا إلهي!" من بين أسنانه.

سادنا الصمت لبضع دقائق، ثم قال: "أهناك من يساعدك؟"

لم يمكنني الجزم إذا ما كان الفضول وراء سؤاله، أم أنه يحاول دفعي لأخبره عن متواطئين آخرين - حيث إني لم أعد مداناً في تلك السرقة وفقاً للاتفاق - فيفيد هو من الموقف ولا يخسر كل شيء. أجبته بالنفي على أية حال، وأني كنت بمفردي. كانت تلك هي الحقيقة ولم يكن لديّ ما أخسره.

التفت لأتيقن من أن زيدويج كان يدوّن ملاحظاته، في حال ما أغفل كينج أن يدوّن أي من اعترافاتي بشكل أو بآخر. قبل أن يتمكن المخبر من تجاوز صدمته

ويدرك ما كان يحدث، كنت قد أبلغته عن ست جرائم سطو أخرى. وكلها عمليات كبرى. أرشدته إلى عناوين شتى، وأعطيته تفاصيل لا يعرفها سوى لص محترف، وأجبت كل أسئلته، حتى تلك التي لم تكن ذات صلة مباشرة بتلك السرقات. فبالنسبة لي، هي جزء من الاتفاق طالما قد صدرت عن المخبر كينج.

لا أظنه كان مهتماً بشأن التفاصيل التقنية، بل بدا وكأنه على وشك أن يلوث سرواله، و لم يكترث حتى بمحاولة التظاهر بأنه مسيطر على الموقف. كان هو ومساعد النائب العام قد تأذيا كثيراً بسبب تلك السرقات، ولكن لا بأس بذلك. فقد اقترفت بعض أكبر عمليات السطو في تاريخ المقاطعة، تصدر بعضها الصحف، و لم يعد في مقدور أحد أن ينال مني بسبب أي منها الآن. وبينما واصلنا القيادة، حرصت على ربط كل قطعة مجوهرات عثروا عليها في منزلي بواحدة من عمليات السطو التي اعترفت بها، مما أفاد كثيراً في تهمة حيازة المسروقات.

ما أن انتهيت من سرد كل القصص حتى توجهنا عائدين إلى قسم الشرطة. كان كينج ساكناً وممعناً في التفكير، و لم أجد سبباً يدفعني لبدء أية محادثة.

أما زيدويج، الذي قلما تفوه بكلمة منذ تركنا ساحة الانتظار (الموقف)، تحدث الآن وقال: "أظنك راضياً الآن أيها المحقق؟"

لم يجبه كينج على الفور، بل نظر إليّ وقال: "يتبقى شيء واحد".

اعتدل زيدويج في جلسته، ولكن قبلما ينطق باحتجاج، قال كينج، وكان ما زال ينظر نحوي، "أخبرني كيف أنجزت عملية هامر".

"لم يكن هذا جزءاً من...".

أشار كينج بضجر إلى المحامي، وقال: "إن هذا خارج التحقيق يا ماسون. فقط بيني وبينك. وبالنسبة لي، لا يتعدى الأمر أنك كنت تحتفظ بالسوار للشخص الذي فعلها".

قال هذا وصرف انتباهه إلى الطريق مرة أخرى. نظرت إلى زيدويج الذي هزّ كتفيه استخفافاً: كما تريد، ليس ثمة التزام في هذا. كان هذا صحيحاً. فقد اعترفت لتوي بما هو مدوّن في السجلات، فإن صدقني كينج أو لم يصدقني، فإن ذلك لم يكن بالأمر الهام. كما أنه لا يمكنهم السعي ورائي لذلك. فلِمَ أخبره بالمزيد؟

أطلـــق كيـــنج زفرة، وتحول عنا وقد بات غير مستريح، ثم قال: "كنت أنا المسؤول عن تلك القضية".

عندها فهمت، فسألته: "سيظل هذا سراً، أليس كذلك؟"

أومأ موافقاً برأسه، فأخبرته.

غير أني لم أخبره بما أراد معرفته فعلاً، وبدلاً من ذلك رحت أدور حول تلك التفاصـــيل وتلاعبت بها. أخبرته أني دخلت الشقة دون أن ألجأ إلى كسر أو تحطيم أي شـــيء، وأن أجهزة الإنذار كلها كانت مغلقة، وأن الأثر الوحيد الذي خلفته كان المجوهرات التي اختفت. بالطبع كان كينج على علم بكل ذلك، ولأني لم أكن أعطـــه ما أراد، بدأ في إحداث ضجة مفادها ارتيابه في اعترافاتي. كان كينج ذكياً ومحتـــرفاً، وبدأ اللعب عليَّ. كان على يقين بأنني قد اقترفت تلك الجرائم، وأدرك أيضاً أنه لا يعنيني سواء صدقني أم لا، لذا كان يأمل أن يستفز غروري فأشرع في قول المزيد لإقناعه بصدق رواياتي.

أبلغته بالتاريخ الذي قمت فيه بالعملية، وأدليت بمواصفات ست قطع ثمينة من تلـــك الـــسرقة لم تكن موجودة في منـــزلي حينما تم تفتيشه. وصفت له الشقة، وصندوق المجوهرات، وحتى الوقت الذي غادر فيه آل هامر لتناول العشاء. لكني لم أبلغـــه كيف دخلت أو خرجت. ولأنه أدرك أنه لا طائل من دفعي إلى قول هذا، أذعن كينج ورضخ.

ولكـــن كان هناك سؤال يراودني: "ولكن كيف حدث أن لم تنشر الصحف كلمـــة واحدة عن تلك السرقة؟ كان هذا شيئاً جيداً بالنسبة لي، فالدعاية والنشر كانا آخر ما رغبت فيه أو كنت في حاجة إليه، لكنني كنت فضولياً.

غمغـــم كينج بشيء ما عن عدم رغبته في إحراج آل هامر، ثم غيّر الموضوع بـــسرعة. أحسب أن كان للأمر صلة أكبر بعدم إحراج الشرطة. واكتشفت فيما بعـــد أنهم تعرضوا لإهانة شديدة نظراً لعجزهم عن المضي قدماً في حل القضية قبل اعتـــرافهم النهائي بالعجز والتسليم. قد افترضوا أن السارق من الداخل بشكل أو بآخر؛ ربما البواب أو الحارس، أو عامل صيانة ما، بل ربما حتى أحد أفراد العائلة، ممـــن يتمكـــنون مـــن دخول الشقة. ولكم تملكهم اليأس والإحباط، حتى إنه دار

بخلدهم أنه ربما كان أرماند هامر نفسه، بهدف الحصول على مبلغ التأمين، إلا أن ذلك كان في منتهى السخف، وسرعان ما احتكموا إلى العقل وأقلعوا عن تلك الفكرة. تخيل شخص موفور الثراء يقوم بعملية احتيال من هذا النوع.

كما كان هناك نظريات "الإنسان الطائر" و"الشبح" التي كانوا سمحوا للصحف بتداولها، ربما بشكل متزايد مع كل سطو محير يعجزون عن حله. كانوا يركنون إلى الكثير من ذلك، وهم يعرفون أن سيأتي وقت يبدأ فيه صحفي مهم الشأن في التساؤل عما إذا كانت الشرطة ستعمد إلى هذا الهراء المخزي في كل مرة تخفق في حلّ لغز جريمة أو أخرى.

بالطبع، لم يكن من سبيل لديهم وقتها لمعرفة أن كل عمليات السطو تلك قد قام بها شخص واحد. وما كانوا ليعرفوا حتى ذاك اليوم الذي ركبت فيه السيارة مع المخبر كينج واعترفت لهم تحت ستار الحصانة.

شعرت باستياء من تحرق كينج لمعرفة إجابات العديد من الأسئلة التي طافت بذهنه. لكن الحقيقة هي أنه برغم أني كنت أجابه متاعب جسيمة لحظتها، إلا أني لم أكن أعرف يقيناً ما إذا كنت سأعود إلى تلك السرقات في مجال سلطته مرة أخرى أم لا. وما هو الهدف من كشف النقاب عن أسرار المهنة؟ لم يكن هناك ما قد يدفعني إلى إخباره بالمزيد عن قيامي بتلك المهام. أو.. ربما كان هناك شيء ما.

"إذا أخبرتك كيف دخلت لشقة هامر... أتسقط عني اتهامات فندق رامادا؟"

كنت أستطيع رؤية رأسه وهو يمور، فلكم كان يتحرق شوقاً لمعرفة تلك التفاصيل. جعلت الأمر يبدو وكأنني سأذكر فقط قصة عملية هامر كافتتاح المقامرة، ظناً أنه ربما يعود ويسأل عن عمليتين أو ثلاث أخريات، فنتفاوض. و لم يساورني أدني شك إنه سيسعى إلى إتمام تلك الصفقة.

بيد أن القرار لم يكن قراره. "من المستحيل أن يطلق مكتب النائب العام سراحك يا ماسون. لو كان الأمر بيدي لوافقت على الفور، ولكن ليس أولئك الرجال".

نتيجة لذلك، وضد مصلحتي الخاصة، نمت الأساطير البلهاء حول تلك السرقات. وعندما نشرت الصحف أمر ذاك الاتفاق حتى عاد الصحفيون ذوو العقول المتشنجة الكسيحة ذاهم إلى سرد الهراء حول الإنسان الطائر مرة أخرى. (أراهن أنهم اعتقدوا أن كريسكين ويوري جيللر المذهلين كانا نفسيين حقاً). ساورني الشك أن جنوب فلوريدا ستكف عني أبداً؛ في كل مرة تُسرق المجوهرات من أحدهم، تأتيني الشرطة لتسأل أين كنت في ذلك الوقت.

وبقدر ما هو خانق هذا الموقف، وبقدر ما سبب لي من ضغط عصبي، لم أكن أعرف أن كل هذا سيبرز ثانية بعد ثماني سنوات وعلى بعد ألف ميل. سأخبرك بهذا عندما أقص عليك سرقتي لرجل الصناعة جوزيف مانديل.

10

خلال قضاء مدة السجن (متواصل)

أعـــرف أنني كان من المفروض أن أخبرك كيف انتهى بي الحال في السجن، وسأتطرق لهذا.

فليس لأنني خدعت الشرطة والنائب العام فإن هذا يعني أنهم سيتسللون بعيداً ويلعقـــوا جـــراحهم في صمت. والقول بأنهم ضاقوا بي ذرعاً لا يدنو من حقيقة مـــوقفهم بعـــد. وإذا نظرنا إلى أنني أنهيت لهم برضاي مجموعة كبيرة من القضايا الواضحة، سنجد أنني أستحق بعض الامتنان.

كمـــا أنهـــم لم يحركوا ساكناً لردع الصحف عن نشر معلومات غير دقيقة بالمرة؛ فقد نشر بمقال خاص بإحدى المجلات أنني اعترفت باقتراف أكثر من مائتي عملية سرقة، وأوردت صحيفة أخرى أنها أكثر من خمسمائة، ولكن أكثر ما ذكرته الجرائد التي رأيتها كان أن عدد تلك السرقات يصل إلى ألف عملية، أي أنني كنت أقوم بعملية سرقة كبرى كل يومين لمدة ست سنوات. وذكر في منشورين نقلاً عن مـــصدر شرطة مجهول أنني كنت أيضاً متهماً بعدة جرائم قتل واغتصاب. لم أكن لأنـــدهش لـــو كانوا ألصقوا بي تهمة خطف ليندبيرج أيضاً. وتبين مؤخراً أن رقم مـــائتي عملية المذكور في المجلة قد ورد إليها من تقرير شرطة، باستثناء أن الكاتب بدل كلمة "مشتبه به" إلى "معترَف به".

كان هناك العديد من سيارات الشرطة تجوب مختلف أنحاء شارعي كل يوم، حـــتى إنه كان من الصعب الاعتقاد بأن هناك أية سيارات متروكة تحسباً لحدوث حالـــة طارئة فعلية في مكان ما آخر بالمدينة. كانت الطائرات المروحية تحوم وتطن

فـــوق رؤوســـنا طوال ساعات الليل. جيراني لم يبالوا بسيارات الشرطة - معدل الجـــرائم في منطقتنا هبط إلى الصفر - ولكن الطائرات كانت تحدث ضجيجاً... مدويّاً...، ولا سيما حينما تهبط لأسفل إلى مستوى قمم الأشجار. كان جلياً أنه لم تكـــن هـــناك مراقبة فعلية ولكن كان هدفهم الوحيد هو التحرش بي، لأن ماذا كانـــوا يعتقدون أنني سأقوم به بعد أن اعترفت بكل هذه الجرائم، أخرج وأسرق بنكاً؟

أحياناً بدون سبب معين، كنت أستيقظ فجراً وأركب سيارتي وأقود ببطء في الـــشارع وأنواري الأمامية مطفأة. وكنت حالما أصل إلى التقاطع، أضيء الأنوار وأنطلق بعيداً، ثم أسير متعرجاً لعشر أو عشرين دقيقة، فأجد ست سيارات دورية وطائـــرة مروحية أو اثنتين تتعقبني. كنت أتوارى داخل متجر ليلي وأبتاع كوارت (رُبْـــع جالون) لبن وأذهب للبيت. ذلك قطعاً كان يثير ضجرهم أكثر، وجعلهم يزيدون من أزيز الطائرات المروحية في منتصف الليل مما أشعل غضبي أكثر، وهكذا بلا انقطاع.

هـــذا جعـــل الجيران يغضبون أيضاً، لكن عندما كانوا يشتكون للشرطة عبر الهاتـــف، كانوا يتلقون سيلاً من الكلام عن كوني مجرماً خطيراً وكيف أن الشرطة تبقـــيني تحت المراقبة لمصلحة المجتمع. وبما أن كافة الجيران كانوا يعرفونني - أولوني ثقتهم للعب مع أبنائهم وكنت دائماً أساعد فيما يتعلق بأعمال التصليح الخفيفة - لـــذا افترضوا أن الشرطة كانت تهذي. مثلما قال واحد منهم لبارب وهي تحتسي القهـــوة ذات يـــوم: "لو كانت الشرطة فعلاً تظن أن زوجك هو ديللينجر آخر، لبادروا بالقبض عليه، صحيح؟"

العاقبة الفعلية الوحيدة من كل هذا كانت أن رجال الشرطة والنائب العام كانوا لا يريدون إشراكي بشكل كبير في مداهمة فندق رامادا. اتصل بي زيدويج ذات صباح قائلاً: "تلقيت عرضهم، لن يعجبك، ولكنه أفضل ما يمكنك الحصول عليه".

لا أتذكـــر كل التفاصيل التي اشتمل عليها الاتفاق، ولكنه كان يذكرها كما توقعت. حاول زيدويج أن يقنعني بقبوله. بيد أني قاطعته قائلاً: "اعتقدت أنه كان من المفروض أن تكون في جانبي".

"إنني في جانبك، فقط أبلغك إنني أظن أنه ما من سبيل لتحسين عرضهم".

مـــاذا دهـــى هذا الرجل؟ بدا موقفه وكأننا سنقوم ببعض المفاوضات حول العرض وعندما يرفض الادعاء منح المزيد، نقبله وحسب.

لم يخطـــر حـــتى بباله أنه ربما يجب أن نرفض عروضهم ونذهب للمحاكمة. كنت منـــزعجاً من كون زيدويج قد افترض أهم نالوا منا وأنه لم يعد لنا مناص. مـــا فائدة هذا الرجل إذا كان كل ما سيفعله هو أن يتدحرج على الأرض ويلعب دور الميت؟ في إمكاني عمل ذلك بنفسي دون الحاجة لمحترف.

"إهـــم غاضـــبون لأنك تمكنت من الإفلات في جميع عمليات السرقة تلك" وأكد قائلاً: "والآن يريدون...".

"أنا غاضب أيضاً يا هاوارد"، قلت له. "أبلغهم أن يضعوا ذلك نصب آذاهم. أبغي محاكمة أمام هيئة محلفين".

زيـــدويج الذي كنت أبغضه أكثر بمرور الوقت، كان مفحماً لسماعه تلك الفكـــرة الجذرية. "محاكمة أمام هيئة محلفين! أتظن أن بإمكانك الفوز في محاكمة هيئة محلفين؟" أجبته: "ليكن ما يكون، حتى لو خسرت فلا يمكن أن يكون الوضع أســـوأ حـــالاً من الاتفاق الذي يعرضونه عليَّ الآن". بالفعل كان من الممكن أن يـــصبح أكثر سوءاً. كنت فقط أحاول تدعيم مركزي في التفاوض، هذا ما كان يجب عليه القيام به.

لم يكـــن سعيداً على الاطلاق بهذا وبدا أكثر اهتماماً بحماية سمعته في المجتمع القانوني أكثر من تمثيلي والدفاع عني بشدة. قلت له: "أنت محامٍ للدفاع عن مجرم. وأنـــا ألمـــع العمـــلاء الذين حظيت بهم. اجلب لي البراءة وابدأ في إجراء البرامج الحوارية التلفزيونية".

بيد أني أدركت ما هي مشكلته. كان خبيراً في عقد الاتفاقات وليس التقاضي وقدرته على إبرام تلك الاتفاقيات كانت معتمدة على الحفاظ على علاقاته الوطيدة بالجانب الآخر. إذا ذهب بي إلى المحاكمة سيضطر لبذل قصارى جهده ليدفع بعدم كفـــاءة الـــشرطة وعجـــزها وربما بفسادها أيضاً. عندما ينتهي كل هذا ويضطر للجلوس معهم ممثلاً لموكل آخر، فإن الترحيب به سيكون، مع عدم المبالغة، بارداً.

لم يكن من المفروض أن أعير مشكلته أدنى اهتمام. كان يتقاضى أتعابه ليهتم بـــشؤوني ولقد أقسم على أن يلتزم بذلك. كان ملتزماً قانوناً ببذل ما بوسعه من خلال القانون للحصول على حكم بالبراءة لي. أتذكر أنه بعد ذلك بسنوات كنت مـــستغرقاً في تتبع محاكمة أوجي سيمسون وقد بُهت تماماً عندما كان يُنتقد جوني كوشـــران لمشاركته في برنامج سباق الخيل في محاولة الحصول على البراءة لموكله. وذلك أظهر لي أنه كيف أن العديد ممن يفترض بهم المعرفة الصحيحة يسيئون فهم نظامنا القانوني. إذا لم يكن كوشران قد شارك في سباق الخيل، فإنه كان يجب أن يحاكم بتهمة ارتكاب أعمال منافية للقانون. مهمته كانت أن يبذل قصارى جهده نـــيابة عن موكله، حتى لو كان ذلك يعني توجيه التهمة لغزاة من المريخ إن اقتضى الأمر.

كـــان لي الحق في توقع جهد متفان مماثل من زيدويج، ولكنني بحكم خبرتي وفهمـــي لمجريات الأمور كنت أعلم أنني لن أنالها. ما كان يقوم بتعريض مصالحي للخطـــر عمداً، لكن لم أظن أنني أستطيع أن أعتمد عليه في بذل مجهود شاق من أجلي. أدركت أنني يجب أن أكون موكلاً فعّالاً إذا كانت أمامي فرصة للحصول على البراءة على الإطلاق.

أول شـــيء طلبته منه كان طلب تقارير المراقبة من الشرطة وتقارير أخرى. "وما حاجتك لهذه الأشياء؟" سألني.

استبد بي الملل والإرهاق بينما كنت أناضله في كل منعطف، لذلك شرحت علـــى أية حال. رغبت في معرفة ما كانوا يفعلونه في رامادا. من الذي كانوا فعلاً يـــراقبونه ويحاولـــون النيل منه؟ هل تم القبض عليَّ بطريق الخطأ، وهل كان هذا التحرش فقط لإخفاء حرجهم لإمساكهم بالشخص الخطأ؟

ذلـــك ما أبلغت به زيدويج. النصف الآخر من الحقيقة كان إنني غنمت فرصـــة لم يـــسبق لها مثيل لاكتشاف ما كان يعرفه رجال الشرطة عني. حتى بالـــرغم مـــن أنـــني كنت موقناً من أنهم كانوا في إثر شخص ما آخر، كنت منـــزعجاً لأنهـــم نادوني باسمي عندما أخذوني و لم تبدُ عليهم الدهشة إطلاقاً عندما عرفوني.

لقد فعلت ما كان يجب عليَّ فعله وأدركت أنه كان لي حق في تلك التقارير. فهناك مشروع قانوني يسمى "الاكتشاف" والذي بموجبه يتسنى للمدعى عليه طلب استدعاء أي شيء من الممكن أن يستخدم ضده، والتأويل المرتبط بذلك سخي للغاية. عادة ما يناضل الطرف الآخر بضراوة للحيلولة دون اكتشاف أي شيء، والقاضي يحدد أخيراً ما يتم تسليمه. في المقاضاة المدنية، يُستخدم الاكتشاف غالباً كتكتيك الغرض من ورائه التأجيل أو التحرش. ذلك مألوفٌ في قضايا المسؤولية عن المُنتَج، على سبيل المثال، لكي يطلب محامٍ مستندات تتألف من ملايين الصفحات، بهدف أن هذا سيكون عبئاً ثقيلاً يدفع الخصم نحو محاولة التوصل لتسوية بدلاً من إعلان عجزه عن توفير كل هذه المطالب. بنفس الأسلوب، غالباً ما يطالب المجرمون المدعى عليهم بأشياء تؤثر السلطات القانونية إخفاءها، خشية تعريض مصادرهم للخطر. أحياناً يؤثرون اطلاق سراح المدعى عليه في مقابل عدم المخاطرة بإفشاء أسرارهم.

لذلك استقريت على أن أنتظر لمدة طويلة بعد أن قدم زيدويج طلب تقارير المراقبة متصوراً أن هذا سيستمر للأبد. بعد أقل من يومين لاحقين اتصل بي تلفونياً وقال: "لقد حصلت عليها".

"حصلت على ماذا؟" لم يجل بخاطري أنها ستكون التقارير. عرض أن يأتيني بها عقب انتهاء عمله، ولكني كنت في غاية الاهتمام وتوجهت في الحال لمكتبه.

توقعت أنها ربما تتألف من أربع أو خمس صفحات كتابية فرجال الشرطة ليسوا أدباء ويمقتون الأعمال الكتابية وقلما يستطيع أحدهم الكتابة جيداً. حينما يضطرون لكتابة شيء ما، فعادة ما يتم ذلك في أقل عدد ممكن من الكلمات. لذلك لم أصدق عيني حينما أشار زيدويج إلى كومة من الورق على مكتبه ارتفاعها نحو قدم (30 سم).

"أنت الرجل الذي كانوا يراقبونه" قالها ثم أردف "وليس فقط بفندق رامادا".

* * *

أخذت الكومة لغرفة مداولة صغيرة وشرعت في تقليب الأوراق وتفحصها بنية التوصل للتفاصيل فيما بعد ولكن متلهف لإلقاء نظرة شاملة متفحصة. هنا لم

أتيقن فقط من أنني كنت بالفعل الشخص المراقب براmادا، ولكن علمت أيضاً أنني كـــنت تحت المراقبة الشديدة لعدة أسابيع تسبق ذلك، مما جعل الأمر أقل منطقياً. تلك الرواية الخاصة برؤيتي وأنا أوقف سيارتي بمكان ما عند (لاجو مار) كانت في منتهى السخف بشكل واضح، وما كان المدعي يجرأ على محاولة الإفلات بذلك في المحاكمـــة. وما كان هذا ممكناً بسبب كافة جرائم السرقة تلك: فلم يتوصلوا حتى لمعـــرفة إنني اقترفتها إلا حينما رافقت المخبر كينج بالسيارة وأبلغته بها. الحق يقال، لم يكن هناك أي مبرر لكي تكون شرطة فلوريدا متنبِّهة لي إطلاقاً. الشيء الوحيد في صـــحيفة سوابقي كان اقتحام مرآب في كليفلاند عندما كنت لا أزال صبياً، وكـــان أمراً صغيراً وعديم الشأن. كانَ مستحيلاً أن هذا لاحقني إلى فلوريدا. لِمَ اضـــطلعت شرطة فورت لوديرديل بمهمة مراقبة ضخمة وباهظة التكاليف كهذه؟ مما أقلقني بنفس القدر، لماذا اضطروا لفعل ذلك في ذلك التوقيت الخاص؟

اهـــتديت إلى الإجابة تقريباً عندما وصلت إلى قاع كومة المستندات. بدا لي وكأنـــه تم دفـــنها هناك عمداً، ربما بأمل أن زيدويج وأنا لن نلاحظ ذلك. كلما قرأت كلما ازداد غضبي، ولكن من نفسي.

تـــبين أن ديريك جونسون صديق أوجي الذي حادثته عن قيادة قارب لسرقة ريـــد كروس بول لم يكن أخرقَ بعد كل شيء. كان مرتشياً محتالاً وخائناً ولكن ليس أخرقَ.

كـــان قد أغفل ديريك أن يبلغني أنه واجه بعض المتاعب القانونية الخاصة به. ما كاد يخرج من فنائي الخلفي بعد ظهر اليوم الذي تحادثنا فيه عن المهمة حتى هرع مباشرة إلى الشرطة وقال إن بحوزته بعض المعلومات مستعد لمقايضتها لقاء إسقاط دعـــاوى قـــضائية ضده ما زالت معلقة. أبلغهم أنه علم بشأن عملية سرقة مقبلة، ولكنه لا يعرف سرقة ماذا أو متى ستتم، وفقط يعرف أن لها علاقة بي. اعتقدوا أنه ربمـــا وراء ديريك شيء ما لأنهم أدركوا أنه ما من أحد، ولا سيما إذا كان بالفعل في غمـــرة المتاعب، سيكون في منتهى الغباوة ليرشدهم نحو مطاردة عبثية، بيد أنهم كانوا مستعدين لاطلاق سراحه بأية حال لأن معلومته كانت مبهمة جداً. ثم قرر أحدهم إجراء تحرٍّ عاجل عن ماضي واكتشف الحكم الخاص بعملية السطو القديمة،

وذلك لفت انتباههم. من هنا، اعتبروا التفاصيل القليلة التي أبلغهم بها ديريك - استخدام قارب، عشرة آلاف دولار لقاء بضع ساعات من العمل، المجرم الذي لم يسمعوا به قط والذي سيأتي إلى المدنية من على بعد ألف ميل - وقرروا أن شيئاً كبيراً حقاً على وشك الحدوث.

"لا تستعن بشريك أبداً"، كان ذلك ما تعلمته في أوهايو. تلك الفكرة البسيطة أبقتني بمنأى عن المتاعب لسنوات. ثم مضيت قدماً وكسرت تلك القاعدة، وهأنذا.

لم أذكر شيئاً من هذا لزيدويج على مدى ساعتين تقريباً من خروجي من غرفة المداولة. كنت أود أن أجعله يعلم بصواب فكرتي عن عملية لاجو مار في أنها كانت هراءً وأنه يجدر به أن يلقي نظرة أكثر تشككاً عما كان البوليس يبلغه به، ولكنني لم أرغب في الدخول في محادثة عن كيفية انقلاب رجل ضدي كنت قد فكرت في استئجاره لعملية سرقة. كما أن الأمر في الحقيقة لم يكن يهم، لأنه على الرغم من كذب الشرطة على المحامي الخاص بي، إلا أنه بإمكانهم دوماً القول بأنهم كانوا يحاولون حماية مصدر سري، ومحتمل أن يفلتوا بهذا القول. بدلاً من ذلك أبلغت زيدويج أنني أرغب في استدعاء كل رجل شرطة كان براماداو كان متورطاً ولو بدرجة قليلة في تتبعي إبان الأسابيع السابقة. كما أبلغته أيضاً بطلب استدعاء مدير فندق رامادا، المدير المنوط بإدارة شؤون الفندق والمسؤول عن خادمات الغرف. قلت إنني سأدون قائمة بالشهود وستتضمن مجموعة من سماسرة العقارات من فورت لوديرديل وميامي، وكذلك رجال مجموعة كليفلاند الاستثمارية الذين امتلكوا العقارات التي تعاملت معها، والذين سيشهدون أنه كان لديّ مبرر وجيه للتحري عن أملاك عقارية للبيع.

"والقيام باستدعاء جيرالد فورد أيضاً" وأتممت بهذا حديثي.

منزعجاً بسبب ما بدا له من أنني أدير شؤون القضية، طرح قلمه على المنضدة ووقف خلف مكتبه قائلاً: "عم تتحدث!"

"لقد تحدثت معه بينما كان رجال الشرطة يراقبونني، وتصافحنا بالأيدي أيضاً. فلو ساورهم الظن أنني خطير وأستحق التوبيخ، فكيف عساهم يسمحون لي بالمرور تجاه الرئيس؟"

"انــصت..." شرع في الحديث، ولكنني لم أعد مبالياً برأيه. "لدي الحق، لذا أستدعه" ذلك لم يكن سيحدث بالطبع، لكني ظننتها كانت لمسة رقيقة.

لم تكن هناك حتى قمة سطو مطروحة على الطاولة، لأنه لم يكن هناك شيءٌ مسروقٌ، لذا فأكثر ما كان لديهم كان انتهاك حرمات الغير وقمة "حيازة أدوات سـطو" السخيفة. فهل كانوا حقاً على أهبة الاستعداد لخوض محاكمة كاملة من أجـل هـذا الهراء؟ كان القاضي ليضحك عليهم حتى يخرجوا من دار المحكمة. لم يتمكـنوا حتى من تلفيق قمة مقاومة الاعتقال السخيفة، لأنه لم يكن هناك شيء واحـد في الماضـي يفيد بأني انخرطت في أعمال عنف. حتى صحيفة القبض عليَّ بـتهمة اقـتحام المـرآب منذ سنوات اشتملت على مذكرة تقرر أنني لم أبدِ أدنى مقاومة وأنني كنت مهذباً على الدوام.

القـصة الـتي كـان يسردها رجال الشرطة عن عملية السطو ذاقا كانت مـستحيلة. قالوا إفم ضبطوني وأنا أمحو بصمات الأصابع من الغرفة 127 بمنديلي. أدركـت أفـم اختلقوا ذلك لأنني لم أفعل ذلك. لم يكن ذلك مثار جدال كبير، بالطـبع، ولكن ما جعل قصتهم مستحيلة أفم لم يتمكنوا من رؤية ذلك حتى لو كان ما حدث صحيحاً. لقد كنت بالداخل في الغرفة وهم كانوا بالخارج.

استأجرت مصوراً محترفاً لالتقاط صور لرامادا بحيث يركز على التقاط صور من كل زاوية داخل الغرفة 127 والأروقة المجاورة. طلبت من زيدويج أن يخبر مدير رامـادا بأن سبب استدعائه كان ليشهد بأن تلك الصور أصلية. لا أذكر كيف، ولكني أيضاً وضعت يدي على قائمة بأسماء هيئة المحلفين المستقبلية واستعنت بدليل المديـنة الموثوق به كنقطة بداية لأعلم كل شيء قدر الإمكان عنهم. كنت ألعب دور مستشار المحلفين لنفسي حتى قبل أن يصبح هذا الاصطلاح موضة شائعة.

اتـصلت ببـيل ويللينج الذي، كما كنت أعرف، أتى لتقديم العون. أعددنا ورشـة عمل في مرآبي وكان عليه أن يصنع نموذجاً قياسياً للأروقة حول الغرفة 127. عـندما تم الانـتهاء مـنه، تدرب على تركيبه أمام المحكمة وإمكانية إخراجه من الصندوق وتجميع أجزائه في ثلاث دقائق. وذلك سيثبت أن الشرطة لم تتمكن من رؤيـة ما أبلغوا عنه. كلما فتحت باب مرآبي، رأينا سيارة شرطة، أو اثنتين، واقفة

بالشارع وأشخاص بداخلها بمنظارات مكبرة وكاميرات مزودة بعدسات تيليفوتوغرافية يحاولون رؤية ما نفعله. ويللينج قام بنفسه بأغلب العمل، لأنني كنت أقضي المزيد من الوقت في الشهادات أمام المحكمة.

كجزء من عملية الاكتشاف، الشهادة هي تصريح رسمي من قبل شاهد في قضية جنائية أو دعوى قضائية. ويتم ذلك بعد حلف اليمين، وفقاً لمسائلة المحامي للجانب الذي سيشهد ضده الشاهد. جميع مفاجآت قاعات المحاكم الضخمة التي رأيتها في بيري ماسون كانت خيالية إلى حدٍّ بعيد. في الحياة الواقعية، للمدعى عليهم الحق في معرفة الشهود والشهادات التي سيتم الإدلاء بها ضدهم كي يتمكنوا من إعداد دفاعهم. ذلك لا يعني أن على الشاهد الإفصاح عن كل شيء سيقوله، ولكن عليه أن يجيب عن كل سؤال مباح قانوناً وله صلة بالأمر يطرحه عليه محامي الخصم. مما يعني أن المحامي لا بد من أن يفكر في كل شيء ليتيقن من أنه لا يباغت بالمحاكمة. جلست إلى جانب زيدويج عند كل شهادة وكثيراً ما مررت إليه مذكرات قصيرة بأسئلة ليطرحها على الشهود.

وفي القاعة أيضاً إبان الشهادات كان هناك مساعد النائب العام ديفيد دامور ممثلاً عن الناس. كانت مهتمة أن يحمي قضية الولاية، وكان له الحق في الاعتراض على ما يظن أنه غير ملائم من أسئلتنا. تجاذبت معه أطراف الحديث مراراً أثناء الاستراحات، وكان بيننا إعجاب متبادل. لسبب ما، كان مستمتعاً برؤية ارتباك رجال الشرطة، ولا سيما حينما حاصرناهم أنا وزيدويج بشأن الإدلاء بمعلومة تخالف ما قاله أفراد شرطة آخرين. لقد كان نائباً بارعاً وقد استمتع بشدة بإزاحة الأشرار بعيداً، ولكن بدا أنه لم يكن يعتقد أنني كنت بهذا السوء، وبدأ يفهم أن قضية الناس لم تكن كما قال رجال الشرطة. ذات مرة حينما كنا بمفردنا في الرواق، أفضى بأنه كان لديه شيء يراوده عن تلك الشرطية الجميلة التي تركت لها الباب مفتوحاً بفندق رامادا.

"أضخم مشاكلك.. هي تلك المفاتيح العمومية"، قالها ذات العصر.

أومأت برأسي. فلم يكن هناك سبب يجعلني أمتنع عن إعلامه أنني فهمت، ولكنني لم أتفوه بأي شيء جهاراً. حينما أخبرت زيدويج بذلك، قال: "ما يفعله هو أنه يتركك تعرف أن قضيتهم ليست ميئوساً منها كما نعتقد".

"لكن ماذا عن محو بصمات أصابعي عن كعبرة الباب؟ الجميع يعلم أن ذلك محض افتراء".

"لديك حق" قالها زيدويج "ولهذا لن يذكروا حتى ذلك".

ذلك صدمني، وسألته عما كان يتحدث. لقد ذكروا ذلك بالفعل في العديد من المناسبات، و لم أعطهم قط أدنى لمحة عن كيفية تخطيطنا لنسف شهادتهم بذلك تماماً.

"قد يتصورون ذلك بأنفسهم. لقد استدعينا مدير الفندق، وكان لديك مصور هناك، ربما يفطنون إلى الهدف من وراء كل ذلك".

"إذن لماذا لا نثير الأمر بأنفسنا؟"

كان سؤالاً ساذجاً، كما فهمت بسرعة. لا يمكنك وضع العبارات على لسان الطرف الآخر بالمحاكمة ثم تتوقع أن تظهرهم بمظهر سيئ بشأن أشياء لم يوردوها بأنفسهم. حتى ولو كانت مدونة في تقاريرهم المكتوبة، فبإمكانهم دائماً القول إنهم لم يكونوا موقنين بدرجة كافية ليشهدوا بها مما يجعلهم يبدون صادقين وصرحاء وذلك يجعلك تبدو كأحمق.

"لا تيأس" قالها زيدويج. "لو أوردوا ذكرها ننسف شهادتهم وإن أحجموا عن ذكرها، نكون قد تخلصنا من شيء يحملونه ضدك".

لكن ما زالت مشكلة المفاتيح باقية أمامنا.

* * *

في تلك الأثناء، كنت أنا ورجال الشرطة نكن لبعضنا كراهية متبادلة. يجدر بي القول، أنا لا أكره رجال الشرطة. بل على العكس، لقد كان لديّ أصدقاء وجيران من رجال الشرطة طيلة حياتي وحتى الآن. إنني أحترم ما يفعلونه ولطالما عاملوني باحترام حتى عندما كنت متهماً أو واقعاً في مشاكل.

لكن هذه المرة كانت مختلفة. لم أكره رجال الشرطة، ولكني كنت حقاً أكره هؤلاء الشرطيين بعينهم. أدركت إنهم كانوا في غاية الإحباط، حيث أنفقوا مبالغ طائلة عليَّ فقط ليخرجوا تقريباً بلا شيء، لكن ذلك كان شقاً من اللعبة وكان عليهم ببساطة المضي نحو أمور أخرى بدلاً من السعي وراء هذا الأمر بلا هوادة.

أنا لا أقول إنني كنت بريئاً تماماً - الأمر بعيد عن ذلك - ولكن كانت هناك عدة جـــرائم شريرة حقاً ارتكبت في جنوب فلوريدا، أغلبها بواسطة مهربي المخدرات، لـــذا كـــان مـــن المستحيل أن أستحق الاهتمام الهائل الذي أولوني به والمبالغ التي أنفقت لهذا الغرض. إن عرف مواطنو بعض المجتمعات الأكثر تعرضاً للمشاكل في بـــرووارد كاونتي بشأن تلك الأولويات غير المتناسبة، أراهن أنهم كانوا سيرتكبون أعمال شغب.

كـــنت لا أزال ألعب البيسبول وكرة القدم في الشارع مع أبناء الجيران كل ليلة، وكان رجال الشرطة يتجولون عدة مرات كل ساعة. كلما مروا علينا كلما كانـــوا يقطعـــون سير المباراة، ويتعمدون السير ببطء للغاية. لم يعقدوا صداقات عديـــدة وســـط شباب المنطقة السريعي التأثر. بين الفينة والأخرى كانوا يفتحون نافذة السيارة ويتفوهون بأشياء بذيئة لي، فقط ليسمعوا الأولاد. لولا خوفي من أن يسمعني الأولاد لكنت أسمعتهم ما يكرهون. كان الأمر طفولياً حقاً، وكنت أفعل الكثير لتحسين الموقف.

أريد أن أبين، في حال كان ذلك ليس واضحاً، أن تصرفي حيال هذا الموقف كـــان مخـــتلفاً تماماً عن الأسلوب الذي عشت به حياتي، وبدا لي وكأن كائنات فـــضائية استحوذت على عقلي. كنت دائماً أوصف بأنني هادئ وحتى كئيب. لم أتفاخر قط أو أكشف اللثام عن أي من الأفعال التي ارتكبتها. وفي المواقف القليلة حيث كان من الضروري أن أفشي بعض التفاصيل، التزمت بالأشياء الأساسية غير المنمقة. طريقتي في العمل كانت تقتضي ألا أجذب الانتباه إليّ، ألا أعادي أحداً بلا ضرورة وألا أجبر أحداً أن يتخذ إجراء ضدي لأنني حينها سأكشف سراً ما. إذن لماذا كنت أسمح لنفسي بالانجذاب نحو منافسة لـــ "إثارة غضب الآخر" مع رجال الشرطة، مع علمي بأنهم يملكون جميع الأوراق الرابحة؟

جزء من السبب كان لأن الموقف بأكمله قد تسرب إلى العلن بالفعل، وهذا الجانب من الموقف كان خارج نطاق سيطرتي. كنت أيضاً أواجه اتهامات لم أكن مضطراً لأن أتعامل معها منذ أن اقتحمت ذلك المرآب عندما كنت مراهقاً. وتلك كانـــت أكثـــر خطورة بكثير، ولا يوجد أي حل عاجل مطروح للبحث. وفوق

ذلك، بعض التهم كانت مزورة بالكامل: كي تحتفظ الشرطة بماء الوجه وتبرر الإنفاق السخيف من موارد الإدارة، اضطروا لتصويري بصورة سيئة والتأكيد على أن التهم والعقوبة المترتبة عليها تبرر كل ذلك الجهد.

كلما ازداد ضغطهم على القضية، ازداد إحساسي بأنني يجب أن أرد عليهم. بعد أن داومت على العمل دون شريك لفترة طويلة، معتمداً فقط على فطنتي لحماية نفسي، لم أكن قرير البال تماماً بأن أضع قدري بين يدي محامٍ لم يبدُ أن لديه نفس حماسي للدفاع عني. كان تحرش رجال الشرطة بي طفولياً وصبيانياً، وكنت أفكر بشكل سوي، وربما كانت لديّ النية لتجاهل الأمر، لأتأكد أنه لن يُستخدم الشجار ضدي. ولكن عندما شرعت قوافل سيارات الشرطة في التجوال مروراً بمنزلي، وأفزعت أبنائي، وحينما كان الضباط بالزي الرسمي يقذفونني بألفاظ نابية ويهددوني كلما مروا بي، لم تكن شيمتي الوقوف ساكناً وتقبل الإهانة. بررت هذا لنفسي بأنني يجب أن أجعلهم يعرفون أنهم لا يتعاملون مع مخنث سيستلقي ويرضخ لقوتهم القانونية الطاغية. كان يجب أن يعلموا أنني سأنازلهم بضراوة. مع ذلك، في الحقيقة أن ما تعتقده الشرطة لم يكن يجب أن يتصدر اهتماماتي. ما كان يهمني هو ما كان يعتقده النائب وهيئة المحلفين، ولو مارست اللعبة بشكل مختلف، لم أكن أدفع قوات الشرطة بأسرها نحو ممارسة الضغط على النائب العام لكي يدعي أبذل ما بوسعي. لو كنت قد أخذت الموضوع بهوادة ورقة، فلربما تلاشى الأمر قليلاً من ذاكرتهم بينما يحولون انتباههم لمشاكل أكثر إلحاحاً. بدلاً من ذلك، ازدادت كراهيتهم لي وبادلتهم نفس الكراهية.

كان وقتئذ حينما التقيت براي ساندستروم لأول مرة، الذي كان ضخم التأثير في بقية حياتي. وقابلت أيضاً موكله ستيفن سيمونسون، ذلك الشخص المتوتر الأعصاب على نحو مدهش الذي أخبرتكم سلفاً عنه والذي أحب حراس السجن أن يسخروا منه، ذلك الرجل الذي تنكر في زي قس لارتكاب سرقة.

سيمونسون كان سيذهب للمحاكمة بسبب تلك التهم في غضون أسبوعين، وقد أتى ساندستروم بفكرة لزيدويج. ما زال في إمكاني استحضار نص المحادثة التي أعقبت ذلك حرفياً، لأنها أحدثت في نفسي انطباعاً قوياً للغاية.

سيمونـــسون خرج بكفالة وأصبح في انتظار المحاكمة مثلي، لذلك التقينا نحن الأربعـــة في حانـــة بهولانديل. بدا راي ساندستروم وكأنه شخصية حقيقية، ذو قـــسمات محفورة وشارب كبير متدل. كان مولعاً بارتداء الحلل البراقة مع ثنيات واســـعة عند صدر السترة والعديد من المجوهرات: أساور، عقد ذهبي، خواتم كبيرة تمـــلأ نصف أصابعه. هذا ما كان يعتقد أنه "الهيكل القوي". بعد ذلك بفترة كبيرة كـــنت أعود بالذاكرة لهذا اللقاء الأول، والانطباع المبكر الذي تراءى لي أن راي ساندســـتروم كـــان القطـــب الثالث الأكثر تقلباً في هيئة الدفاع الجنائي بجنوب فلوريدا.

المحامـــي المبهرج لم يضيع وقته في وضع خطته. "الأمر وما فيه" قالها لزيدويج "مـــوكلك ويقصدني أنا تطابق مواصفاته المواصفات التي ذكرها الشرطة عن القس المزيف أكثر من موكلي سيمونسون". ثم التفت مخاطباً إياي مباشرة: "ما أريد أن أفعله هو أن أستدعيك كشاهد دفاع وأطرح عليك العديد من الأسئلة التي تجعلك تبدو وكأنك كنت القس وليس سيمونسون".

نظـــرت إليه وكأنه هبط لتوه من كوكب بونكرز، بيد أن زيدويج لم تطرف له عين قط. أياً كان ما دار في خلده، كان يعرف أن ساندستروم لم يكن معتوهاً، وكـــان يدرك أيضاً أنه ما كان يبدد وقتنا، حيث كان لا بد من أن يكون في ذلك شيء ما لصالحنا. "ثم ماذا؟" عاجل في الكلام.

"ماسون يستشيط غضباً" أجاب ساندستروم. "يقبل الخمس ويرفض الإجابة عن أي شيء أسأله". وقف ونظر لكل منا على حدة ليتأكد أننا كنا نتابعه. وكان ما زال زيدويج بوجهه الكتوم، وليس لديّ فكرة عما كان عليه مظهري لأن كل هـــذا بالنـــسبة لي كـــان جنوناً. "عند تلك النقطة أعلن أنه شاهد عدائي" واصل ساندستروم حديثه.

"أراهـــنك أنـــي سأكون عدوانياً". كانت هذه هي كلماتي الأولى في اللقاء تقريباً.

أومأ ساندستروم بتعاطف. "ومن عساه يلومك؟ ولكن إحجامك عن الإجابة يعني أن موكلي لن يحصل على العدالة التي يستحقها. مطالبة القاضي بإعلان أنك

عـــدواني يعـــني أنك لست متعاوناً طواعية. إنك تحاربني إنقاذاً لنفسك، وليس في وسع أحد عمل شيء حيال ذلك، لأنه لديك الحق في كفالة الحماية لنفسك. كما يقول الدستور. وهناك تكمن المعضلة الكبيرة".

مال بظهره على مقعده. "موكلي سينال عقوبة هينة لأن ماسون لن يتفوه بما يعـــرفه. وإن أُجـــبر ماسون على قول ما يعرفه، عندئذ يلحقه الأذى لأنه ليس من المفروض أن يدين نفسه. ذلك أشبه بالحقوق المتنازعة".

من زاوية عيني أمكنني رؤية زيدويج يومئ بالموافقة. "باستثناء أن واحد منهما فقـــط ماثل فعلياً للمحاكمة"، قالها ثم أردف: "وذلك هو موكلك - لذا في تلك الآونة، هو أكثر أهمية لأنه معرضٌ للخطر".

"أصـــبت قـــولاً" ترك ساندستروم مقعده يسقط ومال للأمام بساعديه على المنضدة. "اطلاق سراح عشرة مذنبين أفضل من أن تضع بريئاً في السجن، الكتاب المقـــدس يـــشير إلى هذا بمكان ما، صحيح؟ لذا فالحل الوحيد هو أن يمنح القاضي ماسون حصانة كاملة ليمكّنه من الإدلاء بالشهادة".

الآن أدركـــت الأمر. نوعاً ما، "ما حاجتي لحصانة عن عملية القس المزيف؟ فلم أقترف هذا!"

"تباً لعملية القس" أطلقها ساندستروم بابتسامة.

زيـــدويج جذب ذراعي واعتصره قائلاً: "ما زلت تنكر عملية القس ولكنها تـــبدو ضعيفة. ثم راي هنا، يقول شيئاً مثل 'من عساك تخدع يا ماسون؟ هل أنت ملاك؟ أتبلغ هذه المحكمة إنك لم تنو سرقة فندق رامادا؟'".

"من أية نقطة" قالها ساندستروم "تكسب في موضوع رامادا. 'أجل، كنت بالخـــارج لأسرق رامادا، بيد أنني موقناً أنني لم أنتحل شخصية أي قس!' الآن تتخلص من معضلتك الخاصة برامادا بسبب حصانتك، تعتقد هيئة المحلفين أنك ارتكـــبت عملية القس أيضاً، أو على الأقل سيكونون في غاية الارتباك والحيرة، لأنـــه يحدوهم شك منطقي عما إذا كان ستيفن ارتكبها وهم يقضون ببراءته". وبابتـــسامة عريـــضة تحت ذلك الشارب الطويل، مدّ ساندستروم يديه قائلاً: "والجميع يمضي سعيداً".

"ما عدا النائب العام (المدَّعي)"، أطلقها زيدويج.

"تبًّا للنائب العام (المدَّعي)"، ردّ عليه ساندستروم بحدة قائلاً: "إنه ليس موكلي"!

ما زلت أتذكر ما دار في خلدي في تلك اللحظة وكأنها كانت منيرة بالنيون الزاه. "يا للعنة" هذا هو طراز المحامي الخاص بي!

زيدويج هزّ رأسه ونظر إلى تحت نحو يديه، "ذلك ليس أخلاقياً"، أعلنها صراحة.

أدار ساندستروم عينيه في السقف، ثم نظر إليّ وكأنه يقول من أين عثرت على هذا الرجل؟

لوّحت للمحامي بأن يلزم الصمت وطرحت العديد من الأسئلة على ساندستروم. بدأ زيدويج يتململ ووصولاً لنقطة معينة قال بإلحاح: "لا يمكنني الإغواء بالرشوة على يمين كاذبة! إذا عرفت مسبقاً أن موكلي سيكذب على المنصة، أنا...".

"أرني أين يكذب"، تحداه ساندستروم.

ها قد كنت أناضل زيدويج ثانية. كأنني لم يكن لديّ ما يكفيني من القلق والجهد العصبي وقائمة طويلة من الأشياء لأنجزها، فهل كان عليَّ أن أبدد طاقتي في مصارعة المحامي الخاص بي؟

* * *

قطعنا الاجتماع، ولكن على مدار أيام قليلة بعد ذلك التقيت ساندستروم ونحيت زيدويج عن الأمر. وقد أبرمنا اتفاقاً جيداً، وقبيل محاكمة سيمونسون مباشرة، قدم مساعد النائب العام عرضاً له: قضاء عامين بتهمة أقل. سيمونسون الذي كان عصبي المزاج جداً ومذعوراً لكونه لم يغمض له جفن إلا نادراً منذ شهور، قبل الاتفاق، لذا فما كان لنا أن نلمس إن كانت خطتنا ستنجح. كنت محتدماً غيظاً حيال هذا الجبان لكن على الأقل أصبحت أرى محامياً حقيقياً يخوض المعركة.

ظننت أن راي ساندستروم كان حاذقاً للغاية. فلم يكن يرغب كثيراً في إبراء ساحة المذنبين، ولكنه كان ببساطة أكثر الأشخاص الذين قابلتهم عداءً للتسلط.

"كـــان المـــسؤولون ذوو السلطة" الذين يستعرضون سلطتهم يثيرون حنقه. كان يستحـــضر في ذهـــنه كل أنواع الخطط الاستراتيجية المجنونة وتكتيكات التأجيل لسيمونـــسون، وحـــيث إنني كنت مضطراً لدفع زيدويج نحو التفكير خارج الحيز الضيق، فكان عليك عملياً أن تقيد راي للاحتفاظ به على كوكب الأرض.

جعلـــت زيدويج يجري بضع شهادات إضافية، فقط للتأكد من أن ديفيد دامـــور يعـــرف مـــدى التزامـــي بالقضية. واحد من الشهود كان جوزيف جيروينـــز، ضابط شرطة كان براامادا ذلك اليوم، والذي أصبح فيما بعد رئيس شرطة فورت لوديرديل. لم أفكر فيه كثيراً وقتئذ، ولكنه ظهر في حياتي أكثر من مرة.

قبيل محاكمتي بيومين، اتصل دامور بزيدويج وطلب عقد اجتماع. ذهبنا إلى مكتب النائب العام، احتسينا فنجاني قهوة وجلسنا.

"انظر" قالها دامور، "كلنا نعرف أن قضيتنا ليست بلا ثغرات. هذا عن يقين" أجبته موافقاً.

"مـــن ناحـــية أخرى، إنني موقن أنه ليس لديك تفسير مقنع بشأن مجموعة المفاتـــيح العمومية تلك". انتظر ليتأكد أننا لن نعلق، ثم أردف قائلاً لزيدويج: "قد يكـــون مـــوكلك والشرطة يمقتان بعضهما البعض، ولكن واقع الأمر أن مكتبي لا يهتم كثيراً بهذه القضية".

"إذن أسقط التهم"، اقترح زيدويج ذلك مرتجلاً.

"أجل، عندك حق ولكن أبعد كل تلك الدعاية؟ لن ينتهي بنا الحال كالحمقى بدون أن نقاتل".

"ستبدون كمجموعة من الحمقى إن خسرتم في المحاكمة" ألقيت بتلك الجملة عرضاً. ويا لها من غلطة جسيمة. لقد حذرني زيدويج أن ألزم الصمت، والآن ها هو يرميني بنظرة مخزية.

ســـخر دامـــور من سذاجتي، ثم فسّر لي ما كان يعرفه بالفعل زيدويج. "إن خـــسرنا"، قالها بصبر مبالغ فيها، "سنبدو بمظهر صارم وكأننا واثقون من أننا على حق ونبلّغ الصحف كيف أنك خدعت هيئة المحلفين الحمقى بخطط ماكرة، كمثال

آخـــر لمحكمة عليا سهلة ورؤوفة بالمجرمين تخفف من وطأة القوانين وتدلل المجرمين إلخ... إلخ".

هزّ زيدويج كتفيه بلا معارضة، "هذه جملة القول".

الآن كنت أفكر، فلِمَ يحجم دامور عن الذهاب إلى المحاكمة؟ ففي حالة الفوز أو الخسارة، سيكون عل ما يرام.

لقـــد أجاب دون أن أضطر للسؤال: "لكننا لا نريدك أن تفلت بكل هذا يا ماســـون. لا نريد أن يبدو الأمر وكأنك خرجت منها كالشعر من العجين. وليس في مـــصلحتك الـــذهاب إلى المحاكمة لأنك لو خسرت ستقضي وقتاً عصيباً. وفي إمكانك أن تخسر. هل قام محاميك بشرح كل هذا لك بالفعل؟"

لقد فعل. بطريقة أو بأخرى، دامور سيعمل على أن تعرف هيئة المحلفين بكل عمليات السرقة التي اعترفت باقترافها ونفدت من العقاب. وذلك سيقلبهم ضدي، وهو أيضاً سيجعل القاضي الذي بيده الحكم يعرف أن لي صحيفة سوابق إجرامية تبدأ من اقتحام المرآب. بالنظر لكل هذه الأشياء معاً، سيتم إداني وينتهي بي المآل في السجن مدى الحياة تقريباً.

"إذن مـــا الـــذي تقتـــرحه؟" سأله زيدويج. كل الخطوات التمهيدية كانت لصالحي، وهو بالفعل كان يعرف بشأن كل ذلك.

"تـــسعون يـــوماً بالسجن، وسبع سنوات تحت المراقبة - تباً قد يحكم عليه بخمـــس سنوات بسبب حيازة أدوات السطو فقط بالإضافة إلى شيء آخر يتخيره المحلفون".

لم يكن بحاجة للقيام بأنشطة للتخفيف، فقد كان اتفاقاً سخياً لأبعد الحدود، وقد أدركنا أنا وزيدويج ذلك. وعلى الرغم من هذا، قال زيدويج: "امنحنا الليلة لنمعن التفكير فيه".

أفـــاد دامور بأن تلك لم تكن مشكلة، وقد أنهينا المقابلة. في طريقنا للبيت في سيارتي تحدثنا أنا وزيدويج في هذا العرض. أول شيء قاله كان "إن كنت تريد هذا الاتفاق، وأظنك تريده، فالأفضل أن ننجزه اليوم".

"وكيف ذلك؟"

"لأنــه في تخميني، الشرطة لا تعلم به. بعد ما جعلتهم يمرون به، لو اكتشفوا أمــر هذا العرض سيحاولون إعدام دامور من دون محاكمة قانونية، وربما يصرف النظر عن الأمر".

"بعد ما فعلته معهم؟ وماذا عن ما فعلوه معي!"

"إنهم لا يبالون بما فعلوه معك، فليسوا ماثلين أمام محكمة ولا يواجهون عقوبة السجن!"

كان محقاً بالطبع. وإن لم يكن هناك شيء آخر، لم أرد لعائلتي أن تعاني المزيد مــن الدعايــة المحرجة. أنــزلت زيدويج وذهبت للمنــزل لأتناقش في الأمر مع بــارب، ولكــن كان الأمر رسمياً. قالت إنه في إمكانها العيش بدوني ثلاثة شهور ولكــن لــيس خمسة أو عشرة أو عشرون. كان ثمة شيء أيضاً يتعلق بإنهاء اتفاق يرضيها. أعتقد أن الشك كان في الغالب هو ما أقضّ مضجعها وأثار حنقها. نفس الــشيء بالنــسبة لي. عــندما عــاودت الاتصال بزيدويج لإبلاغه بقبولي، فجأة أحسست بحمل ثقيل ينــزاح عن صدري لم أكن مدركاً أنه كان هناك.

حالمــا قــررنا بشأن ذلك الأمر، كان جُل اهتمام بارب هو الأبناء. سوزي كانت في عامها الخامس عشر، مارك في الثالث عشر ولورا في عامها السابع. رغم عــدم خبرتهم بالحياة، إلا أنهم كانوا في غاية الذكاء، وفضوليين للغاية وأكثر دراية عملــية من الكبار الناضجين. كانوا يطالعون الصحف، أيضاً، حتى لورا الصغيرة، وبيــنما أمكنني إقناعهم بأن غالبية ما كانوا يطالعونه عني كان هراء، لم يكن هناك مــن ســبيل للالتفاف حول حقيقة أن والدهم كان على وشك دخول السجن. بــذلت قــصارى جهــدي لشرح الموقف، مستخدماً كافة المصطلحات القانونية النموذجية المخففة عن "الأخطاء" و"القرارات السيئة"، وأيضاً تيقنت أنهم استوعبوا أن الجــريمة التي كنت أوشك أن أعاقب بالفعل عنها لم أرتكبها. كان يمكنني أن أوفــر عن نفسي عناء الكلام مع ذلك، لأن ما ارتكبته وما لم أرتكبه وسواء كنت أســتحق عقــوبة الــسجن أو لا كان آخر شيء يجول في أذهانهم. كل ما كانوا يهتمون به هو أنني سأرحل عنهم. يصعب وصف العواطف التي تأججت بداخلي بيــنما هم متعلقون بي كالقردة الصغار وتنهمر الدموع من أعينهم. غنيٌ عن القول

إنـــي قطعت عهداً مغلظاً ألا أقترف أي شيء أبداً من شأنه المخاطرة بتكرار ذلك المشهد.

في الـــصباح الـــتالي ذهبت إلى المحكمة لأقر بأنني مذنب. كان المفروض أن يكون ذلك في نطاقاً رسمياً، ولكن عند نقطة ما شرع القاضي روبرت تايسون في قـــراءة شـــيء ما وخيم عليه صمت غير مريح لبضع دقائق. بينما تأهب زيدويج لـــسؤاله عما كان يجري، نظر القاضي تايسون تجاهي وطرق بأصابعه على الورق أمامه "يفيد هنا..".

"أين؟" بادرته بالسؤال لأن المحامي لم يكن ليسأله.

"تقريـــر الشرطة" أجاب القاضي "يفيد بوجوب أمر ساري المفعول في قسم الـــشرطة بـــألا يتم اعتقالك أبداً إلا في وجود أربعة ضباط على الأقل. الآن فيمَ ذلك؟"

أدركت لِمَ كان ذلك. لقد كتب المخبر كينج في تقريره أنه في إمكاني تسلق أربعـــة طوابق بحبل، من يد ليد، بينما أحمل حقيبة على ظهري تزن خمسين رطلاً (23 كلـــغ) وبدون الاستعانة بساقاي. كان هناك القليل جداً من الضباط في قسم شرطة فورت لوديرديل في حالة كهذه.

كنت أناضل لتكوين إجابة عندما دخل زيدويج وقال: "مع كل احترامي، يا ســـيادة القاضـــي" قالهـــا بتواضع وخضوع، "هل المحكمة تطرح سؤالاً فعلياً على موكلي ليفسر شيئاً ما في تقرير الشرطة؟ هو لم يدونه ولا يتفق معه. مستر ماسون لم تـــصدر عنه أبداً بادرة عنف واحدة، و لم يقاوم قط إلقاء القبض عليه، ولا مرة طيلة حياته".

"لا بأس، لا بأس" قالها تايسون مشيراً لزيدويج بالجلوس. القاضي كان ضئيل الجسم وأشيب وهادئاً ويشرب كثيراً المشروب المفضل. "تم إدخال التماس الإقرار بالذنب وسيعلن الحكم خلال شهر".

كـــنت مطلـــق السراح بموجب قرار إلزامي بدون أية قيود، حسبما أعددنا لـــذلك مع دامور، واصطحبت بارب والأبناء في رحلة طيلة أسبوع. أمضينا وقتاً رائعـــاً، أكثر الأوقات راحة وسعادة منذ شهور. أعددت الأولاد لغيابي الوشيك،

وأبلغتهم ثانية أن الشرطة ارتكبت خطأ بيد أني وافقت على دخول السجن لبرهة كي لا أخاطر بتحول الأمر لخطأ أكبر. ستنقضي فترة الثلاثة أشهر وكأنها لم تكن شيئاً. أكدت لهم ذلك. في ذلك الحين، كانوا قد اعتادوا الفكرة عقب الصدمة الأولى، وكانوا في منتهى اللهفة والتشوق والذهول لكونهم على متن تلك السفينة العملاقة التي أعددناها لقضاء وقت ممتع معاً.

عقب ذلك بأسبوعين ظهرت في المحكمة ثانية، وصدر الحكم بعشرين عاماً كلها ولكن ثلاثة شهور منها معلقة، وسبع سنوات تحت المراقبة. كما هو متوقع، انفجرت شرطة فورت لوديرديل حنقاً حينما سمعوا بذلك، بيد أنه لم يكن في مقدورهم فعل أي شيء إلا التعبير عن غضبهم للصحافة. حينما باشروا الأمر بعد دامور، استشاط غضباً وسلقهم بألسنة حداد (ندّد بهم بعنف)، وتركهم يعرفون بشروط مؤكدة أنهم لو لم يفسدوا إجراء عملية الاعتقال بمنتهى السوء، لأمكنه الحكم عليَّ بالسجن بمدة عشرين عاماً. كان محقاً، لذا تراجعوا وعكفوا على الاهتمام بشؤونهم بدون أي تحامل على دامور.

وهكذا أضحيت بالطابق الخامس بسجن بروارد كاونتي، أجيب على المكالمات الهاتفية، وأعبث مع الحراس وأمارس حيلاً دنيئة على ستيفن سيمونسون، الذي اكتشفت أنه نال مني بقراره أن يخرج من المحاكمة وقبوله لعقوبة عامين متصلين. لو كانت استراتيجية راي ساندستروم المبدعة نفعته، لم يكن أي منا لينتهيَ به الأمر هناك.

أبقى هاوارد زيدويج على علاقته الحميمة مع مكتب النائب العام ومضى في طريقه ليصبح قاضياً.

راي ساندستروم استمر ليصبح المحامي الخاص بي.

11

الهدوء الذي يسبق العاصفة

بعد أن قضيت سبعة وسبعين يوماً من مدة حكم قوامُها تسعون يوماً، تم إطلاق سراحي من سجن مقاطعة بروورارد بعد منتصف الليل في شهر أيلول/سبتمبر، نتيجة لحسن سلوكي (لم أقتل أحداً خلال فترة وجودي بالداخل). كانت باربارا هناك لاصطحابي، وأذكر أننا تعانقنا بشدة، بيد أنني لا أتذكر أننا تفوهنا بالكثير. وفي المنزل، لبث مارك، وسوزي مستيقظين للترحيب بقدومي، وكان الاجتماع العائلي مبهجاً. شعرت بوخز الضمير الشديد وأنا أتطلع إليهما، وهما يتمتعان بتلك البراءة، غير مدركين العالم الحقيقي، ويتسلقان فوقي دون أن يبلغا بعد حتى ذلك القدر من الحكمة الذي يشعرهما بالغضب مني لحرماهما من الأب لمدة طويلة، وكان ذلك كل ما استطعت فعله كي أمنع نفسي من الانهيار في المنزل. كانا كلاهما في فترة المراهقة، وهو أمر يجعلهما أبعد ما يكونان عن الأفكار العديدة عن "البراءة"، ولكن بارب كانت أُمّاً قوية، محبة، تتيقن من أن الأسرة تأتي في المقام الأول في حياهما، وقد بدا ذلك جيداً بالنسبة لهما. وعدهما مراراً، وتكراراً بألا أدع هذا الأمر يحدث ثانية، وكنت أعني كل كلمة من صميم قلبي. شاركتني باربارا التي كانت تقف بالقرب في بث الطمأنينة إلى الأولاد. وددت أن أظل ساهراً طول الليل لأمسك بهما فقط، ولكنهما بدآ في التثاؤب، وغلبهما النعاس في النهاية. حملتهما إلى الفراش، ولم يكن من شك في قلبي أنني قد صرت لص جواهر تائباً. قلت لبارب عدة مرات: "أعني ذلك".

بعـــد نـــوم دام لمدة ثلاث ساعات بالكاد، عدت أدراجي إلى وسط المدينة لألتقـــي بالضابط المنوط بمراقبة سلوكي. وبينما كنت أمر بالسجن، اعتقدت أنني أكـــاد بالفعل أشم رائحة المكان من الداخل بينما أنا أقف في الشارع خارجه. بدا المبنى وكأنه سيطبق عليَّ مهدداً، ومحذراً، وهو تلك القلعة المظلمة التي تنذر بالشؤم، والتي تمثل تحذيراً دائم المثول كمكان للعقاب. ارتعدت أوصالي، فاستدرت بعيداً، مسارعاً بخطواتي.

كان ضابط مراقبة السلوك امرأة تدعى شيريل، وكانت جميلة بحق. رغم أنها كانـــت في منتـــصف العـــشرينيات من عمرها، إلا أنها كانت حريصة، ومحترفة، وكانـــت معـــتادة تماماً على ملاقاة الرجال الذين خرجوا من السجن لتوهم، ولم يقـــيموا علاقة لعدة أشهر، أو سنوات. أجرت معي حديثاً قصيراً، وقلبت في بعض الأوراق ريـــثما نجحت في كف بصري عنها، ثم بدأنا في العمل، ووجدت أنه من اليـــسير جداً التحدث معها، وبدا أنني أروق لها كذلك. وبعد قليل قالت: "تعرف أن عليك أن تبدأ في الابتعاد عن المشاكل، أليس كذلك!"

رفعـــت يـــديّ مـــدافعاً، وقلت باقتناع هائل: "إنني أسمعك، وصدقيني، لقد تغيرت".

"أجل، حقاً، لقد علمت بالأمر، أليس كذلك؟"

أجـــبت قائلاً: "إنني لن أخدعك. إن الأمر لا يتعلق باكتشاف الله، أو احترام القوانين بغتة، وإنما..." - أشرت تجاه جدران السجن الكئيبة التي يمكن رؤيتها من خارج نافذها - "من المستحيل أن أرغب في العودة إلى هناك ثانية".

قالـــت شيريل: "حسناً، لكنني عندما طلبت منك أن تبتعد عن المشاكل، لم أقـــصد الـــسرقة فقط، وإنما أعني ألا تجعل عدّاد موقف السيارات يحسب لك. لا تبصق في الشارع، ولا تتجاوز حتى الإشارات المرورية".

بـــدا ذلك قوياً بالنسبة لي لحدٍّ ما، ولا بد من أنني رفعت كتفي في لا مبالاة، أو مـــا شابه، لأن شيريل مالت على مكتبها قائلة: "انظر، إن صديقي محامي دفاع جنائي هنا بالمدينة. ولقد سمع عنك، وقال إن كل شرطي بالمدينة يبحث عن عذر للانتقام منك. أتفهم ما أقوله؟"

أومأت برأسي في بلادة. كان يجدر بي أن أعرف ذلك، على أية حال، ولكن بطريقة ما، فإن سماعي ذلك من موظف عام يؤكد أكثر على الأمر، وقد هزني ذلك.

صرت أنا وشيريل صديقين حميمين بمرور الوقت. وكانت تزورني في المنزل بصورة دورية، وتوافقت مع بارب بشكل جيد حقاً، بل وكنا نذهب ثلاثتنا لتناول العشاء بين الحين والآخر، وكنا نذهب إلى مهرجان لاس أولاس الفني. كان من الواضح أنها تعرف كل شيء عن ماضي، وكانت تطلب مني أحياناً أن آتي إلى مسكنها لإصلاح شيء ما. وصارت تثق بي، وتعطيني الإذن دائماً بالعودة إلى كليفلاند للعمل في أي وقت أطلب ذلك.

وعلى الرغم من ذلك، فلم تسمح لنا بمقابلة صديقها، وقد علمنا أن اسمه هو فرانك، وأنه كان محامي دفاع متميزاً، ولكنه كان متزوجاً أيضاً. لم تذكر شيريل ذلك الأمر صراحة قط، ولكنني كان لديّ شك في أن فرانك، الذي كان على علم بتاريخي الإجرامي، لم يكن ليسمح بوضع نفسه في موقف ابتزاز من قبل مجرم معروف، عن طريق التهديد بإخبار زوجته بشأن علاقته الغرامية. لا أستطيع أن ألومه، ولو قليلاً، على الرغم من أن الابتزاز لم يكن ضمن مخططاتي.

لم تكن شيريل تمزح بشأن قسوة رجال الشرطة عليَّ، فقد كان شارعنا لا يزال الأفضل مراقبة في كافة أنحاء فورت لوديرديل. كنت أكثر مواطن رأيته في حياتك حفاظاً على القانون وحذراً، بحيث لا يتوقع مني حتى أن ألقي مِسواكاً في الشارع. قضيت بعض الوقت في إدارة الممتلكات في ميامي، وإدارة المبنى المملوك لي في كليفلاند، وصرت أمهر كثيراً في معرفة متى يتم تتبعي. وبالطبع مع وجود شيء كهذا، كان من المستحيل أن أعرف قدر مهارتي، لأنه لم يكن من سبيل للتيقن من أنه ما من أحد يتبعك في تلك اللحظة.

عقب انقضاء شهرين من إطلاق سراحي، تلقيت مكالمة مفاجأة من ديف دامور، وهو الشخص الذي ادعى قضيتي، يدعوني فيها إلى تناول الغداء بالخارج. وافقت متسائلاً عن السبب في ذلك، وكان الأمر مفاجئاً حقاً.

قال دامور: "لقد استقلت من العمل بمكتب النائب العام، وسوف أمارس مهنتي الخاصة".

أجبته متشككاً: "لا تقل لي أنك ستعمل في الدفاع الجنائي". لم أكن أدرك في ذلــك الــوقت أن هــذا كان يعد نقلة مهنية تقليدية لمساعدي النائب العام. فهم يكتــسبون قــدراً هائلاً من الخبرة القيمة في مجال المحاكمات على نفقة المقاطعة، ويكونون معارف كثيرون في غضون ذلك، ثم يدعون مكاتب المحاماة الخاصة تعلم بأنهم متاحون للعمل، وينتظرن العرض الأفضل، والذي يمكن أن يحصلوا من خلاله على ضعف ما كانوا يحققونه في السابق.

تحدثــنا قليلاً، ثم نظر دامور إلى ساعته، وقال إن عليه أن يلحق باجتماع ما. ووضع بطاقة العمل الخاصة به على الطاولة قائلاً: "إذا احتجت إلى مساعدة في أي وقت، اتصل بي".

أخــذت البطاقة، وابتسمت قائلاً: "ماذا تفعل إذاً، هل تتبع المدانين القدامى بغية أن يصبحوا موكليك في المستقبل؟"

ضــحك قائلاً: "لو قدر لي أن أصبح ثرياً، فسوف أترك الحمقى المعتادين من أمثالك يا ماسون".

هــززت رأسي، وأبلغته أنه سيضيع وقته معي. "لقد اعتزلت السرقة يا ديف. أقسم بالله لقد اكتفيت منها".

"الحــق يُقــال إني أتمنى ذلك. لكن من الأفضل أن تراقب خطواتك؛ فرجال الشرطة هنا لا يزالون لا يميلون إليك".

أبلغته أنني كنت أفعل ذلك وحسب، وأنه من المستحيل أن تثبت الشرطة أي شيء عليَّ.

نهــض لــيغادر قائلاً: "إنك لا تعلم أبداً ما يمكن أن يحدث يا بيل. إن مجرد مكالمة هاتفية لمصلحة إيرادات الدولة الداخلية...".

"مكالمة هاتفية واحدة، وماذا؟"

قــال: "من يدري؟ ولكن لو كنت مكانك، لتأكدت أن شؤوني المالية كلها مرتبة".

كان لديّ الانطباع القطعي أنني قد تلقيت إنذاراً مهماً، وسألت شيريل عصر ذلك اليوم إن كانت تعرف محاسباً جيداً. ولكنها رشحت لي محامي ضرائب بدلاً

من ذلك، وهو شخص يدعى بيتر أيكين، وعرضت أن تحدد لي موعد معه.

كان أيكين رجلاً عظيماً، وكان لديه سمكة ضخمة على جداره، تحتها إشارة تقول: "ما كان ليقبض عليه، لو كان قد لزم الصمت". بعد أن عرضت عليه موقفي، نصحني أيكين أن أسجل كل ما أملكه باسم بارب. ثم أبلغني أن أنقل كافة سجلاتي إلى مكتبه.

سألته: "لِمَ ذلك؟" لم أكن مرتاحاً لامتلاك شخص آخر لها. ماذا لو تعرض هو نفسه للضغط، وأجبر على تسليمها للشرطة؟

"لأنه حصول الشرطة على إذن بتفتيش مكتبي أصعب بكثير من الحصول على إذن بتفتيش منزلك، ويمكنك المجيء إلى هنا في أي وقت لتعمل عليها، ولكن ما من أحد غيرك يمكن أن يضع يده عليها".

لا بد من أنني كنت ما زلت أنظر بارتياب؛ لأنه أضاف: "لا بد من أنك تفهم أن امتياز موكل المحامي تنطبق على أي محامي، أليس كذلك؟ ليس فقط محامي الدفاع الجنائي، بل تنطبق عليَّ أنا الآخر".

لم يخطر ذلك ببالي. كان أمراً منطقياً، وقمت بما نصحني به أيكين بالضبط.

هذه فرصة جيدة لأقصّ عليك قصة صغيرة ستعطيك فكرة عن ما كان عليه جنوب فلوريدا في السبعينيات من القرن الماضي.

مع وجود ذلك الوقت الإضافي كله الذي توفر لديّ من التوقف عن سرقة الجواهر، قررت أن أباشر عملي في مجال العقارات بجدية. فكرت أنه سيكون من الجيد أن أحصل على عقار يدر دخل في فلوريدا، ويكون ملك لي، بدلاً من مجرد تولي إدارته لصالح شخص ما.

* * *

وجدت منزلاً جيداً في لايت هاوس بوينت، شمال بومبانو، وبالقرب من منفذ هيل سبورو الذي يطل على المحيط الأطلنطي، وهو مكان رائع لمراقبة السفن بجميع أحجامها، وهي تمخر عباب البحر. حصلت على المنزل بسعر جيد، لأنه كان في حاجة للكثير من العمل، وسجلته باسم بارب، كما أوصاني بيتر أيكين. كنت آمل أن يكون جاهزاً لتأجيره مع بداية موسم الشتاء. كان المنزل في الأصل

مـــؤلفاً من غرفتي نوم، ودورتي مياه، وأردت إضافة غرفة نوم ثالثة، وحمام فضلاً، عـــن مرفأ جديد بارتفاع ستين قدماً (18 متراً). واستطعت بمعاونة أوجي، شقيق بارب، أن أقوم بكل شيء، فيما عدا الأشياء المتخصصة.

بعد أن فرغت منه، نشرت إعلان للإيجار في الجريدة، و لم يكن قد مضى على وجـــوده بمنصة بيع الصحف (كُشْك الصحف) أكثر من ساعتين من صباح اليوم الـــتالي، عندما بدأ هاتفنا في الرنين المتواصل. أعجب أول شخص أريته المنـــزل، ولكـــنه لم يـــبدِ اهتماماً بأي شيء آخر عدا عن المرفأ. تذكر الآن أنني أمضيت ما يقـــرب مـــن ألف ساعة من العمل المضني في هذا المكان، واستخدمت الخامات الجيدة، بل وأثثته بشكل جزئي، وكنت أشعر بالإثارة لتجهيزه في الوقت المناسب. و لم تكـــن لديّ أدنى فكرة عن أن أي من ذلك لن يشكل فرقاً، وكان بإمكاني أن أوفر على نفسي المشقة.

ذكرت في الإعلان أنني أرغب في الحصول على إيجار الشهر الأول، والأخير، بالإضافة إلى وديعة تأمينية، لكن هذا الرجل الذي لم يمضِ على وجوده في المنـــزل عـــشر دقائق، عرض أن يدفع لقاء ستة أشهر مقدماً، وشرع في نـــزع مائة دولار من لفافة هائلة من النقود. ثم وقّع عقد الإيجار دون أن يطالعه. كان كل ذلك مثيراً للـــريبة، بيد أنني لم أرَ مبرراً للجدال في ذلك، لذا سلمته المفاتيح، متمنياً له حسن الحظ وتركته.

لم تـــصلني عـــنه أية أخبار لمدة أسبوعين تقريباً، وهو أمر غير مألوف بالمرة بالنـــسبة لمـــستأجر جديـــد، والذي عادة ما تكون لديه قائمة بالأشياء التي يود إصلاحها. اتصلت بالدليل للسؤال عن رقم هاتفه، لكنهم لم يكن لديهم قائمة، لذا قـــررت الذهاب إلى هناك، والتحري عن الأمر، ويمكنني أن أبلغه أنني مررت عليه فقط للاطمئنان على حاله. حينما وصلت هناك، بدا المنـــزل تماماً كما كان حينما رأيته آخر مرة. لم يكن هناك شيئاً البتة على مهدة العشب، أو السطح، لا لمسات شخـــصية من أي نوع. قرعت الباب، و لم أتلقَّ أية إجابة، وصاحت السيدة المسنة التي تقطن بالجوار: "لا أظن أن أحداً يقطن هناك". وكنت قد قمت بتحيتها مرة، أو اثنتين عندما كنت أعكف على المكان، بيد أنني قدمت نفسي الآن بصفة أكثر

رسمية، وأوضحت لها أنني قمت لتوي بتأجير المنــزل. لكنها قالت إنها لم ترَ أحداً يدخل، أو يخرج منه أبداً. تركت لها رقم هاتفي، ثم اتجهت لصندوق البريد لأرى إذا ما كان هناك بريد متراكم بداخله. عثرت على المفاتيح، ورسالة تقول: "قررت ألا آخــذ المنــزل. احتفظ بالنقود مقابل جهدك"، و لم تكن موقعة. أدركت فوراً أن الــرجل كان مهرب مخدرات وقد استغل المنــزل - والمرفأ - لإدخال شحنة كبرى، ثم تخلص من الاستراتيجية.

كانت كمية النقود المتضمنة في تجارة المخدرات مذهلة بحق. فقد كان عمال الــشحن يجوبون الساحل ليلاً، ويفرغون حمولتهم داخل قوارب أصغر تعبر بها إلى نقــاط عديــدة على طول الشاطئ. كان الخط الساحلي بالغ الضخامة، بحيث لا يمكن مراقبته بكفاءة، وكنت ستدفع إلى الضحك في كل مرة يعرض رجال الشرطة علــى شاشــة التلفاز شحنة تم ضبطها، زاعمين دائماً أنها كانت أكبر عملية على الإطلاق، في حين يعرف أي شخص على قدر قليل من الذكاء أنها تمثل نسبة ضئيلة للغايــة مــن الشحنات التي يتم إدخالها. كان الأسلوب الشائع أن كل ما تقوم به إدارة مكافحة المخدرات هو رفع الأسعار، ولكن الحقيقة أنهم لم يفعلوا ذلك حتى. بل إنهم لم يحدثوا بالفعل أي تمييز على الإطلاق. فالنقود التي دفعها لي "مستأجري" كانت بالكاد خطأ غير مباشر مقارنة بقيمة صافي ربح شحنة واحدة من مخدر عالي الجــودة، وكانت كل شحنة صادرتها الشرطة بمجرد ثمن - وهو ثمن متواضع رغم ذلــك - للقيام بالعمل. فكل مرة تصادر القوات الفدرالية مائدة مليئة بالمخدرات المضبوطة، وتزعم أنها أحدثت شرخاً في تجارة المخدرات، يكون هذا محض خداع. وإن لم يكن كذلك، لكان من العسير العثور على مخدر في الشوارع، بيد أن ذلك لم يكن عسيراً على الإطلاق.

لقــد تــسبب القــدر الهائــل من المال الذي يمكن تحقيقه من خلال تجارة الكــوكايين في تحــويل العديــد من الأشخاص العاديين إلى وحوش. فلم يكترث المدافعين عن الكتل الكولومبية لإطلاق الرصاص في الأماكن المكتظة بالناس، وقتل العديــد من المارة الأبرياء لمجرد تواجدهم في طريق التجارة، و لم يكن الأمر يتوقف عــند قتل الأشخاص الذين يعترضوهم في الصفقات فحسب، بل تعدى ذلك إلى

قتل المنافسين، ورجال الشرطة الجسورين، والقضاة، والمدعين، وأي شخص يهدد بالحيلولة بينهم، وبين تدفق المخدرات والأموال.

نشرت إعلاناً آخر بالصحيفة، وعرضت المنزل على زوجين شابين يبدو عليهما الاحترام، وأعجبا به على الفور. كان مظهرهما ينمّ عن الاستقامة، رغم أنهما أعطوني الدفعة المقدمة نقداً، وقد زرتهما مرتين لأرى كيف كان حالهما. كانا قد عكفا من فورهما على تزويد المنزل بأثاث فخم، وأجهزة إلكترونية مميزة، بما في ذلك أجهزة الاستريو المتطورة، وأكبر أجهزة التلفاز التي يمكنك شراؤها في ذلك الوقت. بدا وكأنهما زوجان واقعيان يعيشان في منتهى السعادة، وبدأت في الشعور بالاسترخاء قليلاً.

ذات صباح بعد بضعة أسابيع لاحقة دقّ جرس هاتفي، وكانت السيدة العجوز التي تسكن بجوار المنزل تتصل لتخبرني بأن الشرطة كانت محتشدة حول المنزل طيلة الليل. وقالت إنهم لم يجدوا الزوجين، ولكنهم كانوا مقتنعين يقيناً بدخول شحنة ضخمة قبيل مغادرتهما. هرعت من فوري إلى هناك، ولكن وقتها كانت الشرطة قد برحت المكان. كان المنزل سليماً تماماً، بما فيه كل الأثاث، والأجهزة الإلكترونية، والخزانات الزاخرة بالملابس الباهظة الثمن. وبينما كنت أنتقل من غرفة إلى غرفة، ظهر اثنان من المخبرين، وشرعا في طرح أسئلة عليَّ، بيد أني لم أستطع إفادتهما بالكثير. لم أكن سأفعل ذلك على أي حال، ولكن بدا أنهما لا يعرفان من أكون، لذا فقد تصرفت معهما بمنتهى التعاون. فلم أطلب من المستأجرين قط الاطلاع على هوياتهم، طالما أنهم كانوا يدفعون لي نقداً، كما أنه لا شك أنهم لم يستخدموا أسماءهم الحقيقية. سألت المخبران إن كانا سيحاصران في حالة ما إذا عاد الزوجان، بيد أنهما كانا محنكين تماماً، وما كانا ليبددا وقتهما. قال أحد المخبرين: "لقد رحلا، ويمكنك أن تبحث عن مستأجرين جدد".

كنت أفعل ذلك تماماً، ولكن ليس قبل أن أعود إلى هناك عصر ذلك اليوم بصحبة بارب، والأولاد، وشاحنة. قمنا بتحميل الألعاب، والملابس، وبعض الأثاث، وفي ذلك المساء كان مارك يعبث بسعادة غامرة بأفضل جهاز استريو اقتناه مراهق من قبل.

بالطبع قمت بنشر إعلان ثان، وأجرت المنـــزل لزوجين آخرين دفعا مقدماً، ونقـــداً وبعد ذلك اختفيا. كنت قد قمت حتى الآن بتأجير المنـــزل ثلاث مرات، وادخـــرت مـــا يعادل قيمة إيجار عام ونصف، وما زال المنـــزل خالياً. كنت قد بـــدأت أحب هذه الحيلة. كان المستأجر الرابع شخصاً لطيفاً للغاية أخبرني أنه في طـــريقه لنقل عمله من بلانت سيتي، في فلوريدا، والتي تبعد نحو عشرين ميلاً من شـــرق تامبا. عندما انتقل إلى المنـــزل، كان بصحبة زوجين آخرين يبدو عليهما الاحترام، وبدأت أفكر أنني ربما أكون قد حظيت بمستأجر مستقيم هذه المرة، رغم أنـــني لم أكن آمل ذلك، كي أتمكن من إيجار المنـــزل ثانية. طيلة الشهرين التاليين كـــان يدفع الإيجار في وقته، وافترضت أن قطار المال قد وصل إلى محطته الأخيرة، ولكنني تلقيت عندئذ "مكالمة" ثانية.

هـــذه المـــرة أبلت الشرطة بلاء أفضل إلى حدٍّ ما. لا أعرف إن كانوا قد قبضوا على المستأجر الأصلي أم لا، ولكنهم أمسكوا بالزوجين اللذين كانا معه، وبضعة زوار آخرين. وجدوا ماريجوانا بقيمة ما يزيد على ثلاثة ملايين دولار، وغالبيـــتها داخل المنـــزل والبعض على متن قارب راسٍ على المرفأ بالخلف. بل إن أحـــد الـــزوار كان لديه مليون دولار نقداً في صندوق سيارته، التي كانت تقف في ممر السيارات.

قامـــت الـــشرطة بـــضبط ومصادرة المخدرات، والنقد السائل، والقارب، وسيارتين، واعتقلوا سبعة أفراد. تجولت هناك بينما قاموا بتفتيش المنـــزل من أعلاه لأســـفله. مـــن المثير للاهتمام أنهم لم يحفلوا بمصادرة الشاحنة التي كانت بالمرآب، وتـــركوا أيضاً أجهزة الاستريو، والتلفاز الباهظة الثمن جميعها، كما أغفلوا أيضاً نصف كيلو من الكوكايين كان مخبأ تحت أحد الأسرة.

في الـــيوم التالي، اتصل بي مخبر في منـــزلي، وطلب مني معلومات عن الرجل الـــوافد من بلانت سيتي. كان فظاً، ولجوجاً، مما أثار حفيظتي. رفضت إبلاغه بأي شيء، فقال: "بدأ بعضنا يفكر في أنك ربما تكون متورطاً في هذا الأمر".

ســـألته عـــن مدى حماقة الشخص الذي سيؤجر المنـــزل نفسه عمداً لمهربي مخدرات، في حين أن الشرطة قد داهمت المكان مرتين. أبلغته أيضاً أنه لم يتوقع مني

أن أجـــري فحصاً جنائياً لكل من يرغب في استئجار المنـــزل. لم نتفق أنا والمخبر على الإطلاق، ولكن بدا أنني لم أستطع منع نفسي من إغضابه.

في الـــوقت نفسه، كان لديّ من جديد منـــزل زاخر بالأجهزة الإلكترونية الباهظة، و لم يذكر المخبرين قط أن السيارة لا تزال بالمرآب. انقضى أسبوعين قبل أن أفتـــرض أنهمـــا قـــد نسيا بشأن السيارة، ثم قمت بإجراء بحث صغير عن حق الملكية، معتمداً على اللوحات المعدنية ورقم السيارة. كانت باسم شركة في بلانت ســيتي، و لم يـــتطلب الأمر أكثر من مجرد إجراء مكالمتين هاتفيتين لاكتشاف أن الـــشركة لم يعـــد لها وجود، هذا إن كانت قد وجدت في الأساس. لجأت لصانع أقفـــال كي يصنع لي مجموعة جديدة من المفاتيح، ثم نصبت نفسي رئيساً للشركة مـــن خـــلال طلـــب بعض بطاقات العمل. وقمت أيضاً بنقل نشاط الشركة إلى كليفلاند بالطريقة نفسها، ثم طالبت باتخاذ اسمٍ جديد مستخدماً ذلك العنوان. أي شـــرطي كان يوقفني، ويصدر رسالة بجهاز اللاسلكي إلى القسم بشأن "تراخيص" السيارة، سيجد أن كل شيء مطابق، ومشروع قانونياً تماماً. بعد أسبوع آخر من عـــدم الاتـــصال مـــن قبل الشرطة، قدت السيارة بضعة أميال جنوباً إلى هوليود، وأوقفتها عند منـــزل خالة بارب.

وصـــار المنـــــزل خالياً من جديد. كان جنوب فلوريدا في السبعينيات من القرن الماضي أشبه بجنة لي منظمة وفقاً لمتطلبات الزبائن، أو هكذا ظننت.

* * *

بعد انقضاء ما يربو على عام من إطلاق سراحي من السجن - كانت الأمور في منتهـــى الـــسلاسة. صرت فتى صالحاً، بينما كان رجال الشرطة الغاضبون لا يـــزالون في أعقـــابي، رغم عدم التزامهم بالشدة كما كانوا من قبل. و لم تضايقني رؤيـــتهم كثيراً، وهم يحومون ببطء حول المنـــزل في سيارات الدورية الرسمية، أو عندما يتعقبونني بينما أقود. بل صار من المزعج بالنسبة لي ألا أراهم، لأنني عندها لم أكـــن أعلم إن كنت متبعاً أم لا. على المستوى السطحي، لم يكن الأمر يشكل فرقاً؛ حيث إنني لم أكن أفعل شيء غير شرعي، ولكنك لا تعلم كيف يكون هذا مثيراً للضيق عندما لا تكون ببساطة على علم بالأمر.

كانـــت الأمور على ما يرام في المنـــزل. فبعد أن انتهت صدمة احتجازي، والأحـــداث المؤدية إليه، ظنت بارب أنني لا بد من أن أكون قد تعلمت درسي. فبالنظر إلى سجل أحداثي في الفترة السابقة، بدا أنني وضعت تفسيراً فكاهياً لبعض الأجـــزاء، ولكنني أؤكد لك أنها لم تكن فكاهية أبداً. ربما كان هؤلاء الشرطيون، والصحفيون الذين قالوا إنني "أكره السجن" أكثر تبصراً مما ظننتهم؛ فقد كان هناك الكثير من الأشخاص الذين لم يبدُ عليهم الاهتمام للأمر بقدر ما اهتممت به، و لم أكن أستطيع فهم ذلك. ربما لا يظهر لي كأن تسعين يوماً فترة كبيرة، ولكن فكر للحظـــة بشأن التاريخ الآن، وتخيل أن يتم احتجازك في زنـــزانة صاخبة، كريهة الرائحة، حتى هذا التاريخ. تخيل عدم وجود ما يشغل ذهنك تقريباً، وكونك تحت رحمة الآخرين تماماً، دون أن يكون هناك من سبيل لقول "حسناً، لقد اكتفيت. أنا أستسلم، فلتوقفوا ذلك". لم أرغب قط في العودة إلى هناك، كما افترضت بارب، وفكرت أنه لم يكن هناك أي شيء على الإطلاق يستحق تلك المجازفة.

كان العمل جيداً أيضاً. استأنفت رحلاتي المنتظمة إلى كليفلاند، رغم أنها لم تكـــن زيارات متقاربة بأي حال مثلما كان الأمر من قبل، حيث إنني لم أكن أبيع أيـــة بـــضائع مسروقة لبلوت تومبا. وإنما كنت أذهب إلى هناك فقط للعمل على ممتلكاتي، والابتعاد عن المشكلات، ثم أعود إلى فلوريدا.

فجأة، ودون حسبان، أعدّ شخص ما عرضاً كبيراً على المبنى الذي امتلكته. وكنت قد سجلته باسم بارب، وانتقلنا إلى هناك جواً لإنهاء الصفقة. التقينا ببعض الأصـــدقاء القدامى، وقضينا بضعة أيام رائعة، ثم عدنا بقدر وفير من المال بالبنك، بالإضـــافة إلى الـــدخل الثابت الذي كنت أكسبه. كنت أعيش الحياة النموذجية لقاطني الضواحي، وسارت الأمور كلها على ما يرام ثانية.

ذات سبت بعد انقضاء بضعة أسابيع على إنهاء صفقة المبنى، أمضيت الصباح في تنظـــيف المسبح، وغسل السيارة، وفي العصر كنت ألعب مع الأبناء. لطالما كنا نخـــرج أنا وبارب في أمسيات السبت، ولكن سوزان كانت بالخارج مع أصدقاء، و لم نكـــن قـــادرين علـــى الاستعانة بجليسة أطفال لمارك ولورا، لذا لم يكن ذلك متوقعاً. وفي قرابة التاسعة تماماً كنت أشعر باضطراب، وقررت أن أقود السيارة إلى

منتزه أوكلاند، الذي يبعد حوالى خمس عمارات شمال منـــزلنا، واحتساء الشراب المفـــضل. أوقفـــت السيارة خلف حانة عند زاوية أوكلاند وباي فيو، ثم دخلت، لكن لم يكن هناك أي أحد أعرفه؛ لذا احتسيت شراباً واحداً، ثم غادرت.

كانـــت ليلة جميلة، لذا لم أزعج نفسي بسيارتي، ولكن مشيت لمسافة حوالى عمارتين شرق مكان لطيف، اسمه كريستوفرز على الطريق الملاحي للخط الساحلي مباشـــرة. دخلته، ولكنني لم أرَ أحداً أعرفه أيضاً، لذا تركت المكان دون حتى أن أحتـــسي الشراب المفضل، وعدت إلى المكان الأول، ثم اجتزته، وعبرت الشارع وصولاً إلى مكان اسمه وودن سبون. وحيث إن الأمر سار وكأنني لن أصادف أي صديق، افترضت أني قد أستمع أيضاً إلى بعض الموسيقى، وكان لدى تلك الحانة مطربة تروقني بالفعل. وكانت مطربة تزن أربعمائة رطلاً (182 كلغ)، وتدعى بيغ ماما بلو. عبرت آخر شارع، وكنت على بعد أقل من عشر ياردات (9 أمتار) من الـــباب عندما سمعت صوت تحطم خلفي. التفت أنا، وكل من كان في الشارع، ورأيت اثنتين من سيارات الشرطة كانتا قد ارتطمتا ببعضهما بعضاً لتوهما.

انفتحت الأبواب، وهرع اثنان من رجال الشرطة من كل سيارة، وبدا أنهما في عجلـــة من أمرهما، على الرغم من أنه بدا لي أن هناك خطراً قليلاً من أن يشب حـــريق؛ كـــان هناك دخان منبعث من مُشعّ (رادياتور) إحدى السيارتين، وكان هـــناك جزء كبير من المعدن المنبعج، لكن لم يبدُ أنه كان حادثاً على قدر كبير من السوء.

تـــوجه الـــشرطيان اللـــذان ترجلا من السيارة، وسارا باتجاهي بالقرب من الـــسيارة، وقـــبل أن أدرك الأمـــر، كانا يقفان، وقد باعدا بين أرجلهما، وأشهرا مـــسدساتهما. كان أحد الشرطيين الآخرين قد جثا على ركبتيه، مشهراً سلاحه، بينما كان الرابع يتحدث من خلال ميكروفون في يده. وكان هذا هو الوقت الذي أدركـــت فيه أن المسدسات جميعها كانت موجهة نحوي مباشرة. بحق السماء، ما الذي...؟

ثم تكاثروا عليَّ، ودفعوني للاستدارة بجسدي، والوقوف قبالة سيارة متوقفة، ثم فتـــشوني تفتيشاً دقيقاً، وكبلوني بالأصفاد، ويداي معقودتان خلف ظهري. وفي

غضون ذلك، وصلت أربع سيارات شرطة أخرى - دون أن تصطدم إحداها بالأخرى هذه المرة - وتم إلقائي بالمقعد الخلفي بإحداها. حتى الآن لم يبلغني أي أحد لماذا تم إلقاء القبض عليَّ، بيد أنهم شرعوا في طرح الأسئلة، ولكن حيث إنني لم تكن لديّ أدنى فكرة عما كان يحدث، لم أتفوه بشيء. حتى إنني لم أخبرهم باسمي، والذي كانوا يعرفونه على أية حال. كنت أتحرق شوقاً لطرح بعض الأسئلة لاكتشاف مبرر اعتقالي، ولكن انعقد لساني.

التقينا ببعض المخبرين في سجن مقاطعة بروورد، الذين قاموا بإزالة الأصفاد عن يدي، وأجلسوني، ثم شرعوا يمطرونني بالأسئلة، بيد أنني رفضت ثانية أن أتفوه بكلمة. هناك شيء واحد أتذكره بوضوح، وهو أنني قاومت رغبتي في حك معصمي حينما خلعوا عنهما تلك الأصفاد، وهو ردّ فعل تلقائي عندما تنزع الأصفاد عن أي شخص، و لم أكن لأرضي هؤلاء الأشخاص برؤيتي أتصرف مثل مجرم عادي أحضروه إلى السجن.

جلس قبالتي مخبر آخر لم أره قط من قبل قائلاً: "سيد ماسون! لقد تم إلقاء القبض عليك للاشتباه في قيامك بالسطو على مسكن آهل بالسكان، وحمل مسدس أثناء اقترافك الجناية، والهرب من ضابط شرطة...".

عند ذلك الحدّ توقف، ثم أضاف: "... وانتهاك إطلاق سراحك المشروط". كان يعلم أن ذلك سيجذب انتباهي، وقد كان. كان انتهاك إطلاق السراح المشروط أكثر شيء مفزع يمكنك أن تقذف به شخص ما؛ لأنه لم يكن هناك كفالة له. في الأساس، يتم إخراجك من السجن، ليس لكونك جديراً بذلك قانوناً، ولكن بفضل الموافقة الرسمية للمحكمة. فكوني مجرماً محكوماً عليه بعشرين عاماً مع إيقاف التنفيذ، وفترة مراقبة قوامها سبع سنوات، كان يجب أن أبقى بعيداً عن المشاكل، وإلا سيتم إلغاء فترة المراقبة. وقد كان المعيار المتحكم في هذا الأمر فردياً بحتاً، وكانت إجراءات مناهضته أكثر محدودية من التهم الأصلية. لم أكن أعرف كافة الاختلافات (الفوارق) الجزئية القانونية، ولكني أعتقد أن النظرية الأساسية هي أن الكثير من الحقوق التي يمكنك الدفاع عن نفسك باستخدامها ضد تهمة إجرامية تصبح غير فعالة بعد أن تتم إدانتك بالفعل، ويكون السؤال الوحيد المتبقي لديك هو كيف تدفع ثمن الخطأ.

كـــنت قـــد بدأت أشم رائحة مكيدة كبرى، وكان عليَّ أن أناضل للحفاظ على رباطة جأشي أمام أولئك الأشخاص. اعتراني شعور بأهم كانوا يتعقبونني طيلة تلـــك الشهور، آملين أن أزل حتى أصبح رهن الاعتقال، وأنتهك إطلاق السراح المـــشروط. هـــل مـــن المحتمل أهم عندما لم يتمكنوا من فعل ذلك بشكل قانوني لابتعادي عن المشاكل، قرروا أن ينصبوا لي فخاً؟ أرهبتني الفكرة، ولكن ماذا سوى ذلك؟ سطو، حيازة مسدس، هرب... إنني لم أقترف شيئاً من هذا القبيل!

تـــريثت بضع ثوانٍ حتى تيقنت من إمكان الحفاظ على ثبات نبرة صوتي، ثم قلت "أرغب في إجراء اتصال هاتفي!"

قـــال المخبر على نحو غير متحفظ: "اتصال هاتفي؟ بالطبع"، ولوّح لشرطي كـــي يصحبني إلى الهاتف. التقطت سماعة الهاتف، ثم نظرت إليه حتى تراجع بضع خطـــوات إلى الوراء، وطلبت رقم الهاتف الخاص بمنـــزلي. عندما أجابت بارب، حييتها، ولكن قبل أن أستأنف، شرعت في التحدث.

قالـــت والقلق يغلف صوهَا: "أين أنت! إن الشرطة في كل أرجاء المكان". أبلغـــتني أنـــه كان هناك ستة من رجال الشرطة يقبعون حول المنـــزل منذ حوالى العاشـــرة والربع، ولكن ما من أحد منهم كان قد طرق الباب، أو حادثها بكلمة. "ماذا يحدث؟"

أجبـــتها قائلاً: "لا أدري"، وكانت تلك هي الحقيقة. "تم إلقاء القبض عليَّ، ولا أدري مـــا السبب". استشعرت الريبة في صمتها، فقلت بإصرار: "انصتي إليَّ يا بارب! إنني أخبرك بالحقيقة".

أخبرهَا بما كان قد حدث تماماً، وطالما لم يكن هناك ما كنت أحاول إخفاءه، فـــلا بد من أن شيئاً ما في صوتي جعلها تصدقني. قلت لها: "اتصلي بديف دامور، وأحـــضريه إلى هـــنا". كان هذا هو ديف دامور نفسه مساعد النائب العام الذي قاضاني منذ عامين. يبدو أن بحثه عن زبائن محتملين جدد من بين الأشخاص الذين قاضاهم كان على وشك أن يأتي بثماره له.

طالمـــا تم اعتقالي ليلة السبت، فلن يكن على المقاطعة أن تخضعني للمحاكمة قـــبل صـــباح يوم الاثنين، لذا قبعت بالسجن. عندما تعرف أنك مخطئ، يمكنك

استغلال الوقت في تدبير الاستراتيجيات، والتخطيط قليلاً، فتفكر فيما يمكن أن يكون لديهم ضدك، والأخطاء التي ربما يرتكبونها، والافتراضات التي أنشأوها، والتي يمكنك تفنيدها. فإذا كنت قد سطوت على أحد المتاجر، أو شيء من هذا القبيل، ولكنك كنت متعاوناً عند اعتقالك، يمكن أن تنزعج من اتهامك بمقاومة الاعتقال، وتخطط لمواجهة ذلك. ربما يمكنك استدعاء من شاهدوا الحدث، أو تطلب شهادة رجال الشرطة كل على حدة، آملاً في تناقض الأقوال. يمكنك فعل شيء بالفعل. وإذا لم يكن الأمر كذلك، فعلى الأقل أنت تعرف أنك زللت بالفعل، ودعنا نواجه الأمر، فوجودك بالسجن ليس سوء إدارة صارخ للعدالة.

لكن عندما لا تقترف شيئاً، فكل ما يمكنك فعله هو أن يستبد بك القلق البالغ في محاولة لاكتشاف ماذا يحدث. لم يكن لديّ شيء يمكن أن أضع يدي عليه، لأنني لم أستطع حتى تصور نقطة انطلق من خلالها للتفكير في هذا كله. فكل ما فعلته هو أنني سرت بالشارع.

بعد كل ما دار بذهني لبضع ساعات، قررت أن أفضل سبيل يفضي بي للجنون هو أن أركز على تهمة انتهاك إطلاق السراح المشروط. فحتى إذا تخلصت من كل التهم الأخرى، لا يزال بإمكانهم اعتقالي بهذه التهمة. كنت قد بدأت أن أدرك أن إدلائي بكل تلك المعلومات لشرطة فورت لوديرديل منذ عامين كان أحمق ما فعلته في حياتي.

* * *

أخيراً أقبل صباح الاثنين، وتم إخراجي من الحجز لألتقي بديف دامور. مع تلك السنوات من الخبرة، لم يقم حتى بتحيتي حينما كنا في نطاق سماع الشرطة، وقد حذوت حذوه. ربما حدث أن قال ذات مرة بشكل تلقائي لأحد موكليه: "كيف حالك"، فأجابه الرجل بشيء مثل: "ماذا تظن، وأنا أترقب فترة عقوبة تتراوح من خمس إلى عشر سنوات؟" والذي سمعه شخص ما، ووصل به ليصبح نوعاً من الاعتراف. لاحظت أن دامور كان يحمل بعض المستندات تحت ذراعه، فضلاً عن حافظة مستنداته. تم اقتيادنا إلى غرفة صغيرة نلتمس فيها ببعض الخصوصية. كانت أول كلماتي له "هل لديك أدنى فكرة عما يحدث؟"

نظـــر إليَّ في دهـــشة، وقال، وهو يلوح بالمستندات في وجهي: "لدي فكرة جيدة تماماً، وأنا محاميك، أتذكر؟ لذا دعنا نقلع عن هذا اللغو".

لقـــد شاهدت فيلماً به حوار كهذا، أو ربما كانت حلقة من مسلسل منطقة مشبوهة (في مدينة كبيرة)، والتي استيقظ فيها شخص مسكين في نوع من الأكوان الموازية، حيث يختلف كل شيء قليلاً عما يجب أن يكون عليه، ويعرف الجميع ما يحـــدث فـــيما عداه. ودون أن أدرك، كنت أترقب تلك المقابلة في الوقت الذي سيكون فيه كل شيء واضحاً تماماً، وحتى الآن، فإن الأمر يزداد تعتيماً. بيد أنني لم أرغـــب أن يظن دامور أنني قد جننت (طار عقلي)، لذا فقد اكتفيت بالإشارة إلى المستندات التي كان يمسكها، وسألته عن فحواها.

أجاب، وهو يشير إليَّ بالجلوس: "إنها نسخ من تقارير الشرطة التي تم وضعها في ملـــف خاص باعتقالك". أشك في أن أحداً غير مساعد سابق للنائب العام في المقاطعـــة نفـــسها يمكـــن أن يحصل على الأوراق بهذه السرعة. عندما أمسكت بـــالأوراق، قـــال: "يمكنك قراءتها فيما بعد إن شئت. ولكنك على الأرجح تعلم بالفعل ما بها، لذا دعنا نسمع روايتك، ونرى ما يمكن الوصول إليه من تناقضات". فتح حقيبته الدبلوماسية، وأخرج مجموعة من الأوراق القانونية.

حـــسبي ذلـــك. لقد نلت كفايتي من رجال الشرطة، و لم ينقصني سوى هذا الكلام من المحامي الخاص بي. بلغ بي الغضب مبلغه، وأغلقت غطاء الحقيبة مجبراً إياه على النظر إليَّ.

قلـــت بأقصى ما يمكنني من هدوء: "اسمع! لا أعلم سبب وجودي هنا. لقد كـــان سلوكي أنصع من الثلج لما يزيد عن عام، وهو أمر يعلمه هؤلاء الأوغاد..." - وأشـــرت إلى خـــارج الغـــرفة، قاصداً بالإشارة أن تشمل قسم شرطة فورت لودرديل بأكمله - "جيداً أنه صحيح؛ لأنهم كانوا يتربصون بي طوال الوقت. كان يمكـــنني بالكـــاد ربط حذائي دون أن أرى أحدهم يحملق بي، لذا اسدني صنيعاً، وأبلغني ما الجريمة التي يقولون إنني اقترفتها!"

أحسب أن صوتي قد ارتفع قليلاً لدى الانتهاء من ذلك الحديث العنيف، وهو أمـــر لم أكن أقصده، ولكن بدا أنه قد أوقف دامور قليلاً. نظر إليَّ لبضع ثوانٍ، ثم

قرر أن يمنحني حق الإفادة من الشك ويحكم ببراءتي، وقال: "هل تحاول أن تخبرني أنك لا تعلم حقاً سبب اعتقالك؟"

لم يكـــن في حاجة لانتظار الإجابة، فقد كان يعلم أنني على قدر كاف من الإدراك بمجريات الأمور، بحيث أعرف بوجوب عدم الكذب على المحامي الخاص بي. افعل ذلك، ولن يتمكن من مساعدتك.

وقـــف دامور، وخلع سترته، ثم جلس، والتقط تقارير الشرطة. "شرطي اسمه مات بالميري... هل تعرفه؟"

"لم أسمع به قط".

"حسناً، لقد قال إنه كان عند الشاطئ يحادث شخصاً ما في وقت مبكر من مساء السبت، عندما رأى سيارتك تتوقف في مكان الانتظار، ثم ترجلت، وعندما بدأت تسير بعيداً، رأى عتلة تخرج عن كم سترتك. وبعدها فقد أثرك في مجموعة من البنايات السكنية. هل يبدو لك أي من ذلك مألوفاً؟"

أكدت له أنه لم تكن لديّ أدنى فكرة عما كان يتحدث عنه هذا الرجل.

واصل دامور كلامه قائلاً: "عاد أدراجه إلى الشاطئ، ووجد أن سيارتك قد رحلـــت، لذا وضع نشرة بجميع أوصافها، ثم عثر عليها ثانية عند ستوفر في ساحة انتظار يو. إس. 1".

"انتظـــر لحظة!" كنت أحتاج إلى لحظة لفهم ذلك. "هل عاد إلى الشاطئ، ثم توجه خارجاً للبحث عني، وعثر على سيارتي بطريقة ما عند ستوفر؟"

نقر بأصابعه على كومة الورق قائلاً: "هذا ما يقوله التقرير".

مـــن خلال النظرة التي علت وجهه، أمكنني أن أرى أنه ليس عليَّ إخباره بما هـــو واضـــح بالفعل، وهو الأمر الذي ربما لم يفكر فيه لدى قيامه بالقراءة الأولية للـــورق. فقد كان ستوفر على بعد خمسة أميال من الشاطئ، وعلى الجانب الآخر من الشريط الساحلي. وفي الوقت الذي سيستغرقه بالكاد كي يصل هناك في حال قـــيادته بأقصى سرعة، يتصادف عبوره بجانب سيارتي المتوقفة، بينما لم تؤدِّ النشرة إلى العثور على السيارة؟ فهم دامور وجهة نظري، لذا لم يكن علينا أن نتجادل بهذا الشأن، ومضى قدماً في قراءة بقية الورق، وقد تزايدت ريبته.

"رآك تلقي بشيء ما في مقلب قمامة -"

"ماذا كان هذا الشيء؟"

"لم يقل ما هو". و لم نكتشف أبداً ماهيته. "وإنما في ذلك الوقت تماماً تسلم تقريراً من جهازه اللاسلكي يفيد بحدوث سرقة في منطقة الشاطئ نفسها التي رآك فيها تمسك بالعتلة. وقال الضحايا إنهم رأوا الرجل يغادر مسرعاً، وهو يرتدي سترة خضراء".

كنت لا أزال أرتدي سترتي البيضاء التي ألقي القبض عليَّ وأنا أرتديها، والتي لاحظها دامور، فقال: "ربما تكون قد أخفيت السترة الخضراء...".

قلت في سخرية: "نعم، وقد خططت لأن يتم تحديد مكاني، والقبض عليَّ؛ لذا أحضرت ملابس إضافية. استمر!"

"حسناً، فقد اتبعك بسيارته -"

"هل تركني أركب سيارتي، وأنطلق بها؟"

"أياً كان. يقول إنه أمرك بالتنحي جانباً، ولكنه عندما ترجّل من سيارته، ركبت سيارتك، وانطلقت بها، فانطلق خلفك...'في مطاردة بالغة السرعة' كما يقول... في الشوارع القريبة لمسكنك. ثم ألقيت بكيس ورقي من النافذة -".

"هل تمكن من رؤية ذلك؟ بتلك السرعة البالغة في الليل؟"

تفحص دامور الأوراق بإمعان قائلاً: "يبدو أنك ألقيت به في اللحظة نفسها التي مررت فيها تحت ضوء الشارع".

لم يتمكن من إخفاء ابتسامة عند ذلك. لقد استعدت ثقة المحامي الخاص بي.

تابع دامور قائلاً: "ثم فقد أثرك أخيراً في ساحة انتظار سيارات في يو. إس. 1" بدا الأمر مقبولاً بالفعل في ذلك الوقت، ولكننا قمنا بعد ذلك بزيارة ساحة الانتظار، التي لا تزال توجد في طريق فيدرال السريع، بين شارع ثيرتيث، ومنطقة ثيرتيث. وهي تحتوي على ساحة قوامها ستة صفوف تشتمل على خمس وعشرين سيارة في كل صف، وتكون خالية تماماً في ليالي السبت. حتى هيلين كيلر لم تكن لتفقد أثري فيها. "ثم بعد ذلك، رآك تسير عبر شارع منتزه أوكلاند. يا إلهي! لا بد من أنه أكثر رجال الشرطة حظاً في العالم بتلك الطريقة التي كان يجدك بها.

علـــى أيـــة حال، بعد أن قاموا باعتقالك، عادوا إلى حيث ألقيت الكيس الورقي، واســـتعادوه، ووجـــدوا به جواهر، ومسدساً، وهم يجزمون أنك حصلت عليهم خلال السرقة. ثم عادوا إلى حيث سيارتك، وجروها إلى ساحة السجن".

ســـألته، وكـــأنني أطلق رصاصة في الظلام: "أين عثروا على سيارتي؟" حدد دامـــور لي الموقع. لماذا لم أدهش لاكتشافي أنها كانت ساحة انتظار (موقفاً) على الجهة الأخرى من الشارع الذي تركتها فيه بالفعل؟ ويقول التقرير أيضاً أنهم عندما عـــادوا إلى موقـــع جريمة السطو للبحث عن السترة الخضراء، معجزة المعجزات، ووجـــدوها بالفعل. كان قياسها صغيراً لا يمكنني ارتداؤها حتى لو فقدت خمسين رطلاً (23 كلغ) من وزني. وبعد أن طوى دامور الصفحات أخيراً، لم أدرِ إن كان عليَّ أن أضحك، أم أبكي، أم أنـــزع الباب من مكانه.

قال: "هل أفهم أن هذا كله محض لغو؟"

"كـــلا. الـــشق الخـــاص بكيفية إلقاء القبض عليَّ كان حقيقياً، أما الأمور الأخرى فهي لغو فارغ".

أومأ برأسه، بيد أنه لم ينبس ببنت شفة، وكنت أعلم ما يدور بخلده: إن كان رجـــال الشرطة يقولون الصواب في الأساس، يمكنه أن ينقب، ويبدأ في تحين فرصة وجـــود تناقـــضات بسيطة بين الأقوال. ولكن إن كنت أقول إن روايتهم كانت اختلاقاً، فمن أين عساه يبدأ في مناهضة ذلك؟ الشيء الوحيد الذي يمكنني فعله هو كيفية إثبات وجودي في مكان آخر وقتها، أو أن أتوصل إلى أي دليل آخر يتناقض مباشرة مع التقرير.

عقـــب لحظـــة من التفكير قال: "كانت هناك عملية سطو. ذلك الجزء كان حقيقياً".

نقطة وجيهة. "بيد أني لم أقترفها". في الواقع، لا يُمثِّل ذلك أهمية كبيرة؛ فلم يكـــن دامـــور يهتم إن كنت فعلتها، أم لا، وإنما كان كل ما يشغله هو ما يمكننا إثـــباته. اقترحت قائلاً: "ربما يكون من الأفضل أن نتحدث عن المحاكمة". وعندها أبلغـــني بالأخـــبار السيئة: وهي أنه لن تكون هناك محاكمة، على الأقل في الوقت الحـــالي، ممـــا جعلني في حالة من الذهول، وعندها سمعنا طرقاً على الباب. فتحه

دامـــور، وظهـــرت شيريل، ضابطة المراقبة، ولوّحت لي، وطلبت منه أن تنفرد بي لبـــضع لحظات. نهض دامور سريعاً، كما لو كان قد شعر بالراحة لإلقاء المسؤولية على شخص آخر.

* * *

كانـــت شـــيريل إنسانة جيدة، وصديقة جيدة أيضاً. لذا فقد هوى قلبي بين ضـــلوعي لـــدى رؤية تلك النظرة القاسية، غير الودودة في عينيها - وأنا الذي لم أفكـــر حـــتى في إمكانية حدوث ذلك. لم تكن قسوة عليَّ، بل لقد كانت شيريل تسيطر على نفسها بشدة، بحيث تستطيع التماسك خلال اللحظات القليلة التالية.

قالـــت، وهي تدخل مباشرة في صلب الموضوع: "إنك في مشكلة حقيقية يا بيل، ولا يمكنني أن أخرجك". ثم انتظرت، ربما لتمنحني فرصة للتخلص من الرعب الـــذي أثارتـــه بي. وحتى من خلال خوفي، أمكنني رؤية ذلك النوع من التصميم الذي توصلت إليه بصعوبة، وفكرت أنها ربما تدربت على ذلك كله. "نظراً لتهمة انـــتهاك إطـــلاق الـــسراح المشروط، ولو تمت إدانتك بكل شيء، فأمامك حكم بالسجن مدى الحياة بالإضافة إلى خمس وأربعين عاماً".

قبل أن أتمكن من ضبط نفسي، انفجرت قائلاً: "ولكنني لم أفعل شيئاً!" وكان هذا أحمق ما يمكن قوله لعدة أسباب. أولاً، فإن شيريل الآن هي ضابط المراقبة، لا صـــديقتي، ولا يمكنها فعل شيء من أجلي إلا إن كانت تستطيع الدفاع عني أمام رؤســـائها، وهو أمر منطقي في ذلك الظرف، ولا يختلف عما كانت ستفعله لأي شخص في مكاني.

قالـــت: "أنـــا شخـــصياً لا أعتقد أنك فعلتها، ولكن إذا أخرجتك من هنا، فسوف يلقون بي إلى الشارع، ويعتقلونك هنا على أية حال".

ربما لاحظت صياغتها الغريبة للعبارة، فيما يتعلق بأنها لا تستطيع إخراجي. لا يمكـــنها أن تتركني أذهب، كما لو كانت السلطة العليا هنا، ولم يتدخل في الأمر الإجـــراءات المناسبة، والحقوق المدنية. حسناً، لقد كانت كذلك بالفعل؛ لأنه في فلـــوريدا يمكـــنك إلغاء إطلاق سراحك المشروط بمجرد اعتقالك، حتى لو لم تتم إدانـــتك. وحـــيث إن قرار المحكمة يعتمد بشكل شبه كلي على التقرير المقدم من

ضابط المراقبة، فقد كانت حياتك في يديها. كان هناك أنواع من المعايير "المنطقية"، والقليل من الإجراءات المتاحة للمقاومة. كان الأمر برمته يعتمد على الحكم القضائي، مثل حالة المراقبة التي تمنعك من مخالطة مجرمين معروفين، أو غير مرغوب فيهم. وكلمة "معروفين" تعني أنهم معروفون بالنسبة للشرطة، حتى لو كان الجاني المزعوم لم تسبق قط إدانته بأي شيء، أو حتى تم القبض عليه، فكيف تدافع عن نفسك إزاء شيء كهذا؟

سألتها عن فترة السجن مدى الحياة بالإضافة إلى خمس وأربعين عاماً، وأوضحت لي الأمر، وقد بدأت بمعلومة ثمينة حقاً: "إذا قمت بانتهاك إطلاق السراح المشروط، فإن عليك أن تقضي فترة العشرين عاماً التي تشكل الحكم الأصلي".

كان الأمر يزداد سوءاً بمرور الوقت. اعترضت قائلاً: "ولكن ذلك الحكم تم تعليقه، وكانت المراقبة لمدة سبع سنوات!"

"إن تعليق الحكم لا يعني إلغاءه، فهو لا يزال قائماً من الناحية الفنية. فأنت خارج السجن، ولكنك لا زلت في فترة إطلاق سراح مشروط، وإذا فشلت في الابتعاد عن المتاعب خلال فترة إطلاق السراح المشروط"، – رفعت يدها إلى أعلى، ثم هبطت بها على الطاولة – "تعود إلى فترة الحكم الأصلية برمتها".

لم أستطع تصديق ذلك، و لم أتمكن من قول شيء في تلك اللحظة، حيث تزاحمت الأفكار في رأسي. منحتني وقتاً كافياً، ثم قالت: "فقط بيني وبينك، لم يكن إضجار جو جيروينز، وغرفة لجنة حوادث طرق النقل أذكى حركاتك".

كان ذلك آخر شيء رغبت في سماعه من شخص كان في مركز يؤهله للمعرفة، لأنه جعلني أطلق العنان للاستسلام لفكرة كانت تلح عليَّ في اليومين الماضيين، والتي حاولت جاهداً أن أخمدها.

كانت فرقة حوادث طرق النقل مؤلفة من مجموعة من رجال شرطة مفتولي العضلات من المتحمسين، محبي الدعاية، الذين يعرف عنهم أنهم دائماً ينالون من غريمهم. الذي لم يضيفوه إلى ذلك التعبير الغريب هو: "حياً أم ميتاً". عقب اعتقالي بفترة قليلة، كانوا يتعقبون اثنين من المشتبه بهما بمحاذاة الشاطئ، وانتهى بهما الأمر

إلى إطـــلاق الرصـــاص عليهما وإردائهما قتيلين. وادعوا أن المشتبه بهما قد حاولا الفـــرار، ولكـــن حـــيث إنه لم يكن هناك شهود، وأن المشتبه بهما كانا قد لقيا حـــتفهما، لم يكـــن هناك من يجادل في الأمر. ولم يكن هناك احتجاج كبير من الجمـــاهير بـــشأن رغبـــتهم الملحة في الضغط على الزناد بسبب وجود الكثير من الجرائم في المنطقة، بحيث لم يكن المواطنون في حالة مزاجية تسمح بالاهتمام بحقوق المـــشتبه بهمـــا. ويـــبدو أن الحقوق المدنية، بالنسبة للعديد من الناس، هي رفاهية تنغمس فيها فقط عندما لا تكون لها أهمية. وبمجرد أن تتعقد الأمور، ويحتاج الناس بالفعـــل إلى الحماية من التطبيق المفرط الحماس للقانون، يميل المواطنون إلى الرضا بالخطـــأ. قـــال أحد الأشخاص ذات مرة أن المحافظ يصبح متحرراً عندما يسلب قسراً، والمتحرر يصبح محافظاً عندما يقبض عليه. كم هو صحيح هذا الأمر.

قبل أن تدخل شيريل ببضع دقائق، كان دامور يبلغني عن إفادة تقرير الشرطة بأنهم عثروا على سيارتي في ساحة انتظار (موقف) على الجهة الأخرى من الشارع تـــبعد عن المكان الذي أوقفتها به فعلاً. وكنت قد افترضت تلقائياً أنهم قد زيفوا التقرير، ولكن خطر لي شيء آخر الآن: ماذا لو كانوا قد نقلوا السيارة إلى ساحة انتظار (موقف) على الجهة الأخرى من الشارع؟ ولماذا يفعلون ذلك؟

لا أذكـــر إذا مـــا كان جو جيروينـــز كان بالفعل يقود فرقة حوادث طرق النقل، أم أنه مسؤول كبير بها فقط، ولكن على أي الأحوال، لم يكن ذلك مبشراً بالخير. فقد كان في فندق رامادا حينما تم إلقاء القبض عليَّ، وكان أحد الأشخاص الـــذين تم اســـتدعاؤهم للإدلاء بالشهادة. وحيث إنه كان عضواً بارزاً، محترماً في القـــوة التي ستقوم بجزء كبير من المحاكمة، كنا سنستجوبه بضراوة، وندفعه لأقوال متناقـــضة بغض النظر عن عدم منطقيتها، ولن نسمح له أن يخفي شيئاً. كنت أعلم أنـــه كان يضمر العداوة لي من وقتها، والآن لم أستطع أن أمنع نفسي من التساؤل عمـــا إذا كانـــوا قـــد نقلوا السيارة أم لا؛ لأن ساحة انتظار السيارات (الموقف) الموجودة على الجهة الأخرى من الشارع كانت أكثر انعزالاً من ذلك المكان الذي أوقفـــتها بـــه. وإن كنت قد سرت إلى شارع أقل ازدحاماً، أو إن لم تكن سيارتا الـــشرطة قد ارتطمتا ببعضهما البعض وأذهلتا كل من رآهما، بما في ذلك أنا، فهل

كانـــت هناك احتمالية أن يطلق عليَّ الرصاص مثل هذين الرجلين على الشاطئ؟ وهل سيكون ذلك إعدام مدبر؟

كـــان هذا أحد الروايات التي فكرت فيها بينما أجلس وحيداً في الزنـــزانة، حيث كان عليَّ أن أقضي قدراً كبيراً من الوقت، لأنني لن أذهب إلى أي مكان في الـــوقت الحـــالي. عملت جاهداً كي لا أظهر ما أشعر به، ولكن في داخلي كنت أتمـــزق إرباً. كان باستطاعة بارب أن ترى ذلك بوضوح، وكانت تعطي المحامي مهدئات كي يهربها إليَّ خلال فترات الزيارة، ولكنها لم تكن تجدي كثيراً. والآن، فـــإنني أشـــك في أن الكثير من الناس سوف يفكرون أنني أستحق ما يحدث لي، بـــسبب كـــل السرقات التي أفلت بها، وكيف أنني حتى قد استغللت الشرطة في مـــساعدتي في القلـــيل مـــنها، ولكـــن الأمر هنا يختلف كثيراً. فالقتلة، ومروجو المخـــدرات، ومسيئو استغلال الأطفال، والأزواج الذين يضربون زوجاتهم كانوا يحصلون على أحكام أخف، بل ويطلق سراح بعضهم بشكل نهائي، بينما أنا الذي لم أمد يدي على أي شخص بالإيذاء، وإنما لأنني فتحت فمي، وأغضبت أناساً ما كـــان يجـــب أن أغـــضبهم، كنت أواجه عقوبة بالسجن مدى الحياة في زنـــزانة وبتهمة لم أرتكبها. سواء كنت تتفق معي في ذلك التقييم أم لا، فقد كان هذا ما شعرت به، وكنت أتمزق أكثر مع كل يوم يمر عليَّ.

أمضيت الشهر التالي وأنا غارق في مخاوفي، تاركاً إدارة القضية لدامور. كنت قـــد بـــدأت أتساءل ما إذا كان ذلك المدعي السابق لديه العديد من الأصدقاء في مخـــتلف الأماكن كي يخاطر بأن يكون جسوراً، ومبدعاً حقاً بالنيابة عني. إنه لن يقـــوم قـــط بفعـــل أي شيء مخادع، أو بالغ المهارة، حيث إن تلك الأنواع من الاستراتيجيات بطبيعتها تسبب الإحراج للطرف الآخر، وعليه أن يعمل مع هؤلاء الناس بشكل يومي في قضايا أخرى كثيرة، وليست قضيتي فقط. وفي ذلك النظام الطـــاحن، يـــساعد كل فرد الآخر، ويكون تبادل المصالح هو الوقود الذي يدعم القـــرارات الفعّالـــة للقـــضايا. ("في قاعات العدالة، تكون العدالة الوحيدة داخل القاعـــات"). كان بإمكاني أن أرى بسهولة كيف تتدهور الأمور سريعاً، وأن أقرر أنه، مع كل ما أواجهه، لم يكن هناك إمكانية للحياد عن الخطوط المرسومة قليلاً،

وكان آخر شيء أرغب فيه الآن هو شخص محترم، حسن السلوك، يتحكم في هذا النظام. لقد كنت أحتاج إلى جودزيلا.

سألتني شيريل فجأة: "هل تصادف أنك تعرف محامياً يدعى راي ساندستروم؟"

على الرغم من أن هذا السؤال قد صدمني، إلا أنني كتمت أي تعبير خارجي عـــن صدمتي؛ فقد كانت من أتحدث إليها هي ضابط المراقبة، لا صديقتي، ولكن لماذا تسأل ضابط المراقبة هذا السؤال؟ كان الشيء الوحيد الذي خطر ببالي هو أن ساندستروم هذا كان في مشكلة ما، وبما أن الشرطة تعرف أنني قد التقيت به بضع مـــرات، فقد كانت تحاول أن تربطني به. ولكنني لا أنكر أنني كنت أعلم من هو؛ لقد كان أسطورة يعرفها الجميع. "سمعت عنه. لماذا؟"

نهـــضت، وجذبت سترتها من فوق ظهر المقعد. "هل تعرف ذلك الشخص الذي أواعده؟"

"المحامـــي؟ فرانك؟" لم تجمعنا شيريل ببعضنا البعض أبداً، بل ولم تذكر حتى اسمه الأخير.

هزت رأسها قائلة: "ليس فرانك، بل فريد، فريد حداد".

بدا لي الاسم مألوفا بشدة. "لماذا يبدو لي أنني...؟"

"هو وراي ساندستروم شريكان".

جودزيلا الطيب. إنه يظهر فقط عندما تكون في أمسّ الحاجة إليه.

12

راي وفريد
القصيدة القصصية

حـــين تقتـــرح عليك ضابط مراقبتك، والتي مع ذلك تعمل لدى الأشخاص الذين زجوا بك في السجن، أن تستبدل المحامين ثم تزكي لك واحداً؛ وحين يكون ذلك المحامي شريكاً لصديقها؛ فلا ينبغي أن تأخذ تلك النصيحة باستخفاف. فإن شـــيريل على دراية بالنظام داخلياً وخارجياً وهي أيضاً تعرف كل اللاعبين داخل هـــذا الـــنظام كما أنها تعرفني. ومن خلال احتكاكي مع راي ساندستروم، وتلك الاســـتراتيجية المذهلـــة التي قدمها في قاعة المحكمة والتي لفق فيها دفاعه قبل قيام موكله ستيفن سيمونسون بإفساد الأمر بإقراره بالتهمة، تولد لديّ شعور أنه كان يـــرغب في مباشرة قضيتي، وأيضاً فقد راودني إحساس أنه أملى هذه الفكرة على شيريل قبل أن تقترح عليَّ أن أتصل به.

وصـــل راي وفريد إلى السجن وأمكنني سماع صوتيهما يسيطران على زمام الأمر عندما كنت على بعد عنبرين من الغرفة الخاصة بمقابلات المحامين مع نـــزلاء السجن. فإذا ما استغرق الحارس مدة أطول من عشر ثوانٍ في فتح بوابة ما، شرع راي في اتهامـــه بالتحرش، وعرقلة سير الإجراءات القانونية وتضييع حقوق موكله المدنـــية. وقـــد زاد من حنقه إلزامه بفتح حقيبة أوراقه للتفتيش، وكان يهدد برفع بلاغات خطية ضدهم طيلة وقت تفتيشهم مستنداته، في حين ظل فريد يصيح بأنهم بـــذلك كانوا ينتهكون ميزة الموكل. ورغم أن ذلك يصعب تصديقه، لكن الحراس



ريد حداد وراي سكفستروم

كانوا بالفعل يشعرون بالرهبة من تلك العروض، لأنهم كانوا يدركون أن هذين المحاميين لم يكونا بحوزة شكاوى صورية.

في هذه المقابلة الأولى أحضرا معهما سكرتيرة منحلة بدا عليها أنه لم يكن لديها أي شيء جوهري لتؤديه. أحسبهما كانا فقط يتهكمان على الحراس، يحاولان تشتيت انتباههم، ربما يتيحان لهم الإقدام على مداعبتها. وبعدما جلسا، شرعت في إبلاغهما بما قام به دامور حتى الآن، بيد أنهما أشاحا النظر عن ذلك. قال فريد: "لقد قرأنا كل المستندات، وهذا المستوى سوف ينتهي بك الحال لقضاء خمسة وعشرين عاماً بدلاً من مدة عقوبتك المقتصرة على عشرين عاماً. لا بد من أن نفعل شيئاً مختلفاً".

"لكنهم اعتقلوني بتهمة خرق شروط إطلاق السراح" قلت لهم ذلك. لم أستطع فهم ماذا بوسعهما أن يفعلا حيال ذلك أكثر مما كان يفعله دامور، والذي كان يتضمن طلب المزيد من جلسات الاستماع ومحاولة محاجة الادعاء حول ما إذا كان انتهاكي مبرراً أم لا. و لم يكن المستوى القانوني الذي يتحتم على المقاطعة استيفاؤه من أجل استبقاء الشخص المدان داخل الحجز، لم يكن على نفس القدر من الصرامة كما هو الحال في توجيه الاتهام ذاته. "ألا يعني ذلك أنه بمقدورهم تماماً

أشعل راي سيجارة وألقى بعود الثقاب المطفأ صوب علامة ممنوع التدخين المعلقة على الجدار. "أجل، يعني ذلك. لذا فما علينا عمله هو أن نسقط الاتهام الأصلي الموجه إليك. وفور قيامنا بذلك، فلن يصبح هناك وجود لفترة المراقبة، ومن ثم يمكننا انتشالك من هذه الحفرة القذرة".

"إسقاط؟ كيف يمكنكما فعل ذلك؟" فضلاً عن أنني قد وافقت قبلاً على الصفقة".

"بإظهار أن الصفقة كانت محض لغط من البداية. وانطوت على سوء نية، خداع، سمِّها كما شئت. ونطالب بمحاكمة أمام هيئة المحلفين عن التهم الأصلية، وعندما يكون ذلك قيد النظر، فلن تكون خاضعاً لفترة المراقبة وتعود كشخص بريء ريثما تثبت الإدانة ونحصل لك على إفراج بتعهد كتابي".

وأوضح فريد أن المحاكمة الكاملة كانت بالفعل هي فرصتنا الوحيدة. "فإذا كنت مداناً بالفعل وكان السؤال الوحيد المطروح هو كيف حدث أن نلت عقوبتك، ستكون للولاية سلطة هائلة، حيث إنك لم تعد مواطناً بريئاً بل إنك مذنب رسمياً، وعند ذلك سوف تذهب غالبية حقوقك أدراج الرياح. لكن عندما يكونون في محاولة لإدانتك، فسوف يكون لديك كل الحماية الدستورية التي يمكن أن توجد في الدنيا. ويمكنك مواجهة متهميك، واستجواب شهودهم، وبدلاً من تلك المجموعة المبهمة من المعايير والضوابط الخرقاء بانتهاكك إطلاق السراح المشروط، لا بد من أن يثبتوا أنك مذنب بما لا يتطرق إليه الشك".

وأضاف راي "سوف نظفر بمحاكمة جديدة. محال أنهم سيحرزون فوزاً في تلك القضية، فدليلهم وشهودهم هي نقاط لا قيمة لها".

بدا ذلك أروع من أن يكون حقيقياً، وتساءلت بصوت عالٍ لماذا لم تخطر تلك الفكرة ببال دامور.

فقال راي: "على ذكره، لا يتسنى للمقاطعة نيل أي عون منه، لأنه كان محاميك وثمة ميزة في ذلك".

"لم يكن المحامي الخاص بي حينما كان يقاضيني".

"لا يهم. لقد تجاذبتم كافة أطراف الحديث، ولو أن أي أحد بمكتب النائب

العـــام أقرأه التحية مع فنجان من القهوة، سنصرخ حتى نكاد ننفطر حتى الوصول إلى المحكمة العليا".

قلت معلقاً "بيد أنه لا يمكنه ممارسة وظيفته بدون مخاطبة النائب العام".

"بـــلا خداع". قالها راي وهو يضحك ويطفئ سيجارته على المائدة. "لكن كيف.. تكون تلك هي معضلتنا؟"

وكـــان ذلك يروق لي طوال الوقت، لكن ثمة شأن صغير ما زال قائماً يهدد بالإطاحـــة بـــصفقة التماسي. كان لراي وفريد بعض الأفكار المثيرة حول كيفية خوض غمار كل ذلك.

وربما كان ذلك هو الوقت المناسب لإخبارك عن بعض المزيد من سمات هاتين الشخـــصيتين الأكبر حجماً من الطبيعي، كاثنين من أفضل محامي الدفاع الجنائي اللذين التقيت بهما أو سمعت عنهما من قبل.

* * *

كل القصص التي كنت قد سمعتها عن راي ساندستروم جعلت من بقائه على قـــيد الحياة وحمله لترخيص مزاولة القانون حينما ولج حياتي أمراً عجيباً. كان أكبر سناً من شريكه، ربما في أواخر الخمسينيات، بيد أنه كان يبدو أكبر سناً لأنه ذرع حـــياته عاكفـــاً على احتساء المشروب المفضل، وعلى التدخين وغيره مما لا يعلمه سوى الله وحده.

وحـــسبما قلت، وعلى ذلك الجانب من الحياة، كان راي أكثر البشر الذين قابلـــتهم عـــداءً للفاششتيين وكذلك للمبادئ المقررة. كان يمقت رجال الشرطة، القضاة، الحراس، وتقريباً أي فرد آخر في مركز يخوله ممارسة السلطة على الآخرين. وكان يؤمن أن أي شخص لديه القدرة على السيطرة على حياة شخص آخر فإنه لا يفعـــل ذلك من دون أن يكون زاعماً نفسه في مكانة المسيطر ومستمتعاً، رغم كون ذلك لاشعورياً، بالإذلال الخبيث الذي يفرضه. وفى حدود ما يتعلق بأساليبه، فقد كانت فلسفة راي هي استخدام الورقة الرابحة مهما كانت.

بـــدا ذلـــك واضحاً كمثال كلاسيكي من خلال أول يوم من المحاكمة والتي كـــان راي يدافـــع فيها عن لص مسلح. دلف إلى قاعة المحكمة ووقع نظره على

القطعة الوحيدة من الدليل المادي، مسدس، موضوعاً على مائدة الادعاء بصحبة بطاقة حيازة تتدلى منه. فتح راي حقيبة مستنداته ووضعها على الأرض بجوار المائدة، وأزال المسدس بحركة عفوية ووضعه داخل الحقيبة في غفلة من الحضور. عقب تبادل بعض النوادر مع مساعد النائب العام (تراودك فكرة مخاتلة أفعى الكوبرا للأرنب الصغير، وهي تتمنى له يوماً جميلاً)، أمَرّ المسدس خلسة إلى زوجة المدعى عليه، والتي بارحت قاعة المحكمة وقتها. جلس راي عند منصة الدفاع، وبهدوء شرع في إعداد ملاحظاته، وهو يلاحظ عابراً اكتشاف المدّعين فقد دليلهم وأن الجنون قد استبد بهم في محاولة للعثور عليه. حينما لم يتمكنوا، طالب راي بإسقاط التهم، وذلك كان نهاية المطاف. وذاك كان سمة لراي، وإن لم يكن اسمه ملوثاً في مكتب النائب العام سلفاً، فمن اليقين أنه أصبح كذلك بعد تلك الواقعة، رغم عدم وجود أي دليل يؤكد أنه قد أخذ المسدس.

وكان راي متعدداً في علاقاته النسائية وكارهاً لهن في نفس الوقت، كما كان متزوجاً للمرة الثامنة – أو كما بدا لي أنهما زوجان – من سيدة لعوب بذيئة تدعى لولي، أما سبب زواجهما في المقام الأول أو بقائها معه فقد كان خارج حدود استيعابي. ربما كان السبب هو كل تلك الثروة التي كان يملكها، أو العملة الصعبة التي كان يتقاضاها كأتعاب من تجار المخدرات وأخفاها متفرقة في العديد من الأماكن عبر أنحاء المدينة. لكن يقيناً فإنه لم يمضِ معها وقتاً طويلاً. وحين لا يتواجد بالمحكمة، فإن مكتبه هو آخر مكان قد يفكر أي أحد أن يبحث عنه فيه. كان يعشق ركوب القوارب، وصيد السمك وقيادة الطائرات، بيد أنه ظل يتقاتل دائماً مع وكالة الطيران الفدرالية للحصول على رخصة طيار. كانوا يزعمون أنه أخفق في تحقيق مدى الإبصار المطلوب، ورغم أن ذلك كان حقيقياً إلا أنه رفض الاعتراف به ولا حتى لنفسه. كان يرفض ارتداء ربطات العنق في المحكمة، مما أفضى به لمتاعب لا تنتهي مع القضاة، الذين أيضاً لم يرق لهم كثيراً ذلك الكم من المجوهرات الذهبية التي كان يحب أن يتزين بها.

في الواقع، لم يقع بصري قط على راي وهو يطالع مستنداً واحداً أو يفتح ملف قضية، لكن بمجرد دخوله إلى قاعة المحكمة، تستطيع أن تقسم أنه قد حفظ

عن ظهر قلب كل سطر مكتوب في كل قصاصة ورق يتضمنها ملف القضية محل النظر. استجواب الشهود كان تخصصه. كان يشرع بتؤدة مستخدماً أسلوب لهجة جنوبية متشدقة صعبة الفهم تسلم الشهود للسبات، ثم ينقض بعدما استغل غفوتهم للتلاعب بهم عبر تضارب الأقوال والتي تبدو غير ضارة ريثما كان يربطها ببعضها البعض ويجعلها تبدو كأكاذيب مغرضة.

أما فريد حداد، والذي بدأ حياته كصنيعة لراي رغم أنه لا يقر بذلك أبداً، كان أكثر ألمعية من ناصحه السابق. تكاد قوة ذهنه الفطرية أن تكون مرعبة، وكان دائماً أبعد بصيرة من أي أحد آخر في القاعة، ويدرك في ثوانٍ ما يستغرق من الآخرين ساعات لمجرد الدنو منه. ويزداد الأمر إذهالاً مع حقيقة أن فريد كان مدمناً لدرجة أنه قد يحتاج إلى قدح من المشروب المفضل حتى قبل أن ينهض من الفراش الذي لم يكن عادة في فترة الصباح. رغم أنه كان سعيداً ومحظوظاً ومتآلفاً وسط رفاقه والعائلة، فإن قسمات وجهه الشرق أوسطية المرحة لتعلوها القتامة وتنذر بالخطر، حالما يخطو لداخل قاعة المحكمة.

كان يعشق السيارات ذات النوافذ المعتمة ودائماً ما أمتلك العديد منها في وقت واحد، وكان يرتدي الحلي الذهبية بدرجة أكبر من راي. وكان يحب النساء بطبيعته ولكنه جابه متاعب شتى في الاستمرار مع أي منهن، لأنه بحلول الساعة الثامنة في أغلب الأمسيات قلما يتمكن من الكلام. (وعلى ذلك فقد سجلت علاقته مع ضابطة مراقبتي رقماً قياسياً في الاحتمال). أعتقد أنه لو لم يكن يعمل جاهداً على إذهاب عقله بالإدمان، لربما نال جائزة نوبل أو أضحى نائباً بمجلس الشيوخ. وكان الأسلوب القياسي الخاص بفريد داخل قاعة المحكمة هو إمطار الشهود بوابل حامي الوطيس من الأسئلة غير المترابطة لدرجة مربكة وبذلك لا يتمكن الشاهد من الالتزام برواية متماسكة، ويظل متعثراً في سرد التفاصيل. وعلى الخلاف من ضحيته، كان في استطاعة فريد متابعة الخيوط المتعددة مرة واحدة ثم يعيد استرجاعها أمام هيئة المحلفين بالترتيب السليم، كي تطفو تضاربات الأقوال الفاحشة وتعم كل أرجاء المكان. وحين كان الادعاء يحاول إصلاح حالة الشاهد واسترداد مكانته لتبديل أقواله، كان فريد ليبدو في

غايـــة الـــسعادة بيـــنما كان المسكين يحاول إعلان تنصله من نصف أقواله مع الحفاظ على قدر ما من المصداقية.

ولكـــم أحب راي وفريد قضايا تهريب المخدرات. وفيها كان رجال الادعاء شـــديدي التعصب لاستصدار قرارات الإدانة، وهو ما كان يفضي لبعض المعارك فائقـــة الحـــد، ودائماً ما كان الموكلون يأتون بمبالغ هائلة من النقود يسددون بها أتعـــاب الـــدفاع عنهم. وكان كل من راي وفريد يتنافسان بضراوة مع بعضهما الـــبعض أيـــضاً، ويتقاتلان في ذلك طيلة الوقت، بيد أنني أظنهما متحابين أصلاً. وللأسف لي وبعض من موكليهم، فإن تلك النـــزعة القتالية المتأصلة فيهما أحياناً مـــا كانت تعترض أحكامهما القانونية؛ لو ساورهما الظن أن رجال شرطة فورت لوديرديل يبيتون النية ضدي مسبقاً، فإنهما لا يترددان في القتل بمجرد خوضهما في الـــشجار. وقبل أن ينتهي هذا الأمر، سوف يتحول الثأر الضئيل بيني وبين رجال الشرطة إلى ثأر بكامل مقاييسه تتلاشى معه أي خواطر عن العدل واللعب النظيف لتصبح مجرد ذكريات من زمن سحيق. وبالطبع فإنني مشترك في الإثم.

لـــست متيقناً كيف تعلقت بهذه الدرجة الوثيقة بهذا الثنائي الغريب وهو ما اســـتغرق مني تفكيراً عميقاً. وبإرجاع النظر في ذلك، أجدني مملوءاً بالدهشة من إمكـــان نشوء وتطور مثل هذه الصداقة العميقة بيننا. فقد كانا بذيئين، ذوا مظهر زاهٍ ومختلي العقل تماماً، وهو ما يقع على النقيض تماماً من شخصيتي. فقد أمضيت حياتي ساكناً، متقوقعاً لا أتباهى قط بصنائعي لأي أحد، حتى بالكاد أذكرها لأي أحـــد آخـــر باستثناء بيل ويللينج في مرة واحدة نادرة. وكان أسلوبي مع السلطة القانونـــية ألا أتحول إلى مصدر إزعاج لهم ولكن أن أظل مختفياً عن أنظارهم تماماً قـــدر الإمكان. ولم أكن أبغض رجال الشرطة، ولم أتباهَ قط بنجاحي أمامهم بل ناضلتهم فقط حينما أحسست بحاجتي لذلك للدفاع عن نفسي. حتى عندما كنت في غمار مشادة مطوّلة حمقاء مع جو جيروينـــز وشرطة فورت لوديرديل، كانت كل رغبتي منها هي أن يتركوني وشأني، والفرار من تهديد السلاح وأن أفعل فقط مـــا شعرت أنه كان ضرورياً لأريهم أنني شخص لا يمكن الاستهانة به. ولم يكن دافعي أن أثير حنقهم أو أفضحهم.

وبالرغم من كل ذلك، وجدت نفسي ببطء مشدوداً لأسلوب راي وفريد في أداء الأمــور. لقــد ناضلوا بضراوة من أجلي، حتى كانا يبدوان وكأن كل منهما يــباري الآخــر لكسب موافقتي، حتى إنني أضحيت أماثلهم بذاءة عن غير قصد. وبنظــرة متدبرة للخلف، يمكنني تعقب الكيفية التي تغيرت بها إبان تلك الفترة من شــخص كتوم، مستقلٍ بنفسه ومنعزل إلى شخص لاذع مجاهر بسخريته، أخرق للغاية حتى إنني لا أرى الضرر الذي كنت أحيقه بنفسي ولأقرب الناس إليَّ.

وفــيما ســبق، لا أدري تحديداً ما هو الموقف الذي كان أشد ضرراً بعلاقتي الــزوجية. فقــد كانت الجرائم التي اقترفتها والضرر الجسماني الناجم عن إصابتي بالرصــاص سيئة بدرجة كافية لذلك، لكن هذه الحقبة فاقت على كل ذلك بإبعاد باربارا عني. ربما كان السبب هو الإدمان، والذي كان رفيقاً دائماً للمحامين ولي أيــضاً، أو ربما كان جنوناً مؤقتاً يصيبني، بيد أني أسترجع تلك السنوات وأتساءل لــيس فقــط عن كيفية اجتيازها ولكن كيف أنني ما زلت على قيد الحياة ولست ملقــى في إحدى الحارات مصاباً بطلقة قاتلة بواسطة فرقة حوادث طرق النقل أو وحدة أخرى من وحدات السلطة القانونية في مقاطعة بروورارد.

* * *

وعقب تلك العاصفة المنعشة من الأفكار الخلاقة خلال لقائنا الأول، سرعان ما انقض علينا ذلك الضباب المعتم لواقع العملية القانونية. عبر الشهور القليلة التالية غالــباً ما كنت أشعر وكأني أسير حرب ظنّ أنه نفذ هروبه بشكل جيد ولكن لم يلبث إلا أن أعيد القبض عليه. أحياناً ما كنت أشعر أنه من الأفضل لي لو كنت لم أذق هذا القدر الضئيل من الحرية على الإطلاق.

وكانــت البداية جيدة تماماً. حيث طالب راي وفريد بتحديد جلسة استماع أقوال أمام القاضي روبرت تايسون وبالفعل حصلا عليها، للطعن في الاتفاق الذي أبرمته مع دامور الذي أفضى بي لحكم موقوف التنفيذ بمدة عشرين عاماً بشأن لغو عملــية رامــادا. تم استدعاء المحامي الأول الخاص بي، هوارد زيدويج الذي كانا يكنان له ازدراءً بليغاً حتى إنه لا يرقى لمستوى كراهيتهما له، وحمّلاه على الشهادة عن كيفية ممارسته ضغوطاً عليَّ لقبول اتفاق لا أدرك تبعاته تماماً. وعندما فرغا منه،

كـــان من الممكن حتى أن يعترف بأنه قد صوب قاذفة اللهب نحوي وهدد بحرقي وإحـــالتي لـــرماد إن لم أذعـــن. وكان راي يضع علامات في قائمة تشمل حوالى خمـــسين بنداً من الصغائر القانونية واحدة بواحدة، سائلاً زيدويج عما إذا كان قد شـــرحها لي. وبالطبع، كانت الإجابة في أغلب الوقت بالنفي، لأنها في عمومها ما كانـــت ستحدث أي فرق، ولكن كان شعور راي هو أن مثل هذا العدد الضخم لهفوات كهذه ستكون ذات ثقل في المحكمة.

قامـــا أيـــضاً باستدعاء كل رجال الشرطة الذين كانوا متواجدين في وقت مداهمـــة رامادا، وآخرين كان لهم مشاركات في إعداد مهمة الترصد، غير أنهم لم يكونوا حتى هناك. وقاما بمهمة بارعة في إذلالهم وإظهار مدى ضعف تلك القضية بوضـــوح، مشيرين إلى أنه قد تم إلقاء القبض عليَّ أساساً كي يتوافر للشرطة شيء ما ليبرزوه إزاء جهودهم المضللة.

وكانـــت أفضل رمية لنا تماماً لإثبات أننا تم إضلالنا تتعلق بـــشخصية جين تـــيرني الوافدة من كونيكتيكت، وهي المرأة التي كان من المفروض أن دخولها إلى الغـــرفة - التي تم إلقاء القبض عليَّ فيها - قد تم تسجيله. حيث أبلغنا دامور ممثل الادعـــاء حيـــنذاك أنها كانت تخطط للعودة إلى فلوريدا وتشهد أن حقيبتها قد تم نهـــبها. نـــاهض راي هذا بأن كل ذلك كان محض هراء (مستخدماً مصطلحات قانونـــية أكثر من ذلك، لكن بنفس المعاني). وأبلغ المحكمة أيضاً أن مسز تيرني قد أبلغـــت دامور أن حقيبتها في الواقع لم تُمس. وقال راي: "إن صفقة الالتماس التي قـــدمها الـــسيد دامور كان من الممكن أن تكون صفقة منطقية فقط إن صح أن الـــسيدة تـــيرني كانت تعرضت للسلب فعلاً وأيضاً في حال اعتزامها حقاً العودة للـــشهادة. ولا شـــيء مـــن تلك الأمور كان حقيقياً". والشيء الذي لم يكن في مقدوره قوله، من دون الإقرار بأنني فتشت الغرفة، أنه لم يكن هناك أية حقيبة على الإطلاق.

وعلـــى نفس القدر من البراعة التي كان عليها المحاميان اللذان أوكلتهما عني، كـــان أيضاً نائب محامي الادعاء بالولاية ويليام ديمتروليس، الذي حلّ مكان ديف دامور في قضيتي، شخصاً مستقيماً بحق.

كان ديميتروليس ممتلئ الجسم، ويتسم بنظرة إمعان واهتمام، وكان ممثل ادعاء محترف بلا طموح للانخراط في المزاولة القانونية الخاصة. وكان يحس بصدق أنه كان يقدم خدمة عامة لا تقدر بثمن لمواطني بروورارد كاونتي، وإحقاقاً للحق، فقد كان كذلك. وكان سيتم تعيينه في النهاية قاضياً للمقاطعة من قبل الرئيس كلينتون. هو لم يلتقط الطعم الذي كان راي يلقيه لكي يجره في محاولة لإعادة المحاكمة في القضية الأصلية أمام تايسون، بيد أنه التزم بإظهار أن كل ما أجرته الشرطة كان قانونياً وفي محله المناسب. كلما كان فريد يحاول إبراز أن رجال الشرطة قد أساؤوا الحكم وكانوا متحمسين للغاية في مطاردهم لي، كان ديميتروليس يجيب بهدوء أنه حتى لو كان ذلك حقيقياً، فقد كان خارجاً عن الصدد. وأنه كان يتعين علينا، أنا وزيدويج، أن نفعل ذلك أثناء المحاكمة إذا كنا نريد أن نسلك ذلك الطريق. وبدلاً من ذلك، فقد قبلنا طواعية العرض الذي قدمه ديف دامور، لذا فكيف يمكنني الآن أن أزعم بأن العدل لم يأخذ مجراه؟

لم يدهشني كثيراً إذ توافق القاضي مع ديميتروليس. عقب ما يدنو من أسبوع من الشهادة والجدل، لم يشغل تايسون باله حتى بمبارحة القاعة ليتدبر بإمعان ما سمعه، بيد أنه اتخذ قراره فوراً – أو على الأرجح أنه قد عقد العزم عليه قبل ذلك بأيام – وأعلن أنه ليس أمامنا قضية. وقال: "إن الشهادة التي أدلى بها ضباط الشرطة الثلاثة أمس والتي تفيد بأن السيدة تيرني قد قالت إن أمتعتها تم العبث بها ترجح على التعليق اللاحق المزعوم الذي قاله مستر دامور، هاتفياً، بأن الأمتعة لم تمس". وقد وضع على كلمة "هاتفياً" نبرة تأكيد خاصة. كما أن اعتراف المدعي عليه في الواقع بالذنب، حينما قبل بصفقة الالتماس، يرجح ضده".

خلت أن راي سيهاجم القاضي بضراوة حينما سمع بتلك الملحوظة الأخيرة، وهو مبرر منطقي كان كفيلاً لمرء كافكا حسداً، بيد أن فريد كبح جماحه، وهو يذكره أننا ما زال أمامنا خوض غمار مرحلة الاستئناف ولا ينبغي مساس قضيتنا بأدنى سوء من التصرف النابي.

وعلى الفور قدمنا طلب الاستئناف بالمقاطعة الرابعة في بالم بيتش، لكن في غضون ذلك كنت محتجزاً بالفعل لخمسة شهور ولم أكن أتصرف فيها بشكل حسن.

أتـــت بـــارب لزيارتي مراراً وفقاً لما هو مسموح به وكانت أيضاً تحضر كل جلسة استماع. كنت أرى أنها كانت تغرق بسرعة تعادل سرعة غرقي، بقدر كبير من عدم التأكد من شيء وغياب زوجها ووالد أطفالها. بات من المستحيل التكهن بكـــل مناورة قانونية، وفيما بعد لم تعد الأمور واضحة أكثر من ذي قبل. و لم يعد لـــدى أي منا أدنى فكرة إن كنت سيطلق سراحي خلال أسبوع أو سأمضي بقية حياتي داخل السجن، والبقاء في هذه المرحلة الغامضة كان من السوء لدرجة تعجز الكلمات عن وصفه. وكان أسوأ ما في الأمر على الإطلاق، أنه لم يكن أمامي أي إنسان آخر يمكنني صب اللوم عليه. يقيناً أن الشرطة غالت في إجراءاتها ومارست ضغوطاً على مكتب النائب العام للمثابرة على إلصاق فساد الأمور بي، ولكن حتى في أشـــد اللحظات مرارة لم أتمكن من إلقاء اللوم كله عليهم. لم يكن الأمر أشبه باعـــتقال مـــواطن عادي بشكل عشوائي. كنت مجرماً، وإخفاقهم في القبض عليَّ بالفعـــل متلبـــساً بجـــريمة فعلية كان أمراً يثير حرجهم في أكثر من مناسبة، مثل اعتـــرافاتي باقتراف عدد غفير من عمليات السطو الشهيرة والتي عجزوا عن حلها. بينما كان صحيحاً أن التهم التي اعتقلوني من أجلها كانت بالفعل محض هراء من وجهة نظر قانونية، إلا أنه كان صحيحاً بنفس القدر أنني لو لم أنتهك القانون أبداً في المقـــام الأول، ربمـــا كـــنت في نفس الفريق مثل المأمور جو جيروينـــز وليس متصدراً لقائمة ضباطه الباليين (الحقيرين).

لم يكن هناك ما يذكرني بالبيت أكثر من مجيء بارب للزيارة. كانت مطرِقة، وشـــاحبة الـــوجه وقلما أمكنها أن تبادلني النظرات. أحياناً كانت ترتجف يديها، وكانت تضعها في حجرها كي لا أراها. كانت متماسكة من أجل مصلحة الأبناء، وتحاول أن تبتدع بعض السيماء الظاهري المعهود بالبيت.

باشـــرت بارب مهمة تأجير منـــزل لايت هاوس بوينت. وأبلغتني في واحدة مـــن زياراتها عن هذا الحادث الغريب جداً: اثنان قاما باستئجار المنـــزل، وسددا المبلغ نقداً ثم اختفيا. ما الذي كان يحدث وما الذي كان مفروضاً أن تفعله الآن؟

قلت لها عبر المنضدة التي فصلت بيننا، "كانا مهربي مخدرات. لقد أرادا فقط المنـــزل لجلب شحنة واحدة".

نظـــرت إليّ وفمهـــا فاغر ثم استجمعت نفسها قائلة: "كيف عرفت ذلك؟" وشـــرحت لهـــا كيف حدث لي ذلك مراراً. وقد أطاح بها ذلك في حلقة مفرغة، واستغرق الأمر مني برهة لإقناعها أنني لم أفعل هذا عمداً. لم أشغل بالي بذكر أنني حادثـــت الشرطة عن هذا في مناسبات عديدة. سألتني "إذن ماذا عساي أن أفعل الآن؟"

"قومي بتأجيره ثانية".

"لكـــن أولـــئك الـــناس سددوا مقابل ثلاثة شهور مقدماً. فماذا لو عادوا أدراجهم؟"

أكدت لها أنهم ما كانوا ليعودوا. قامت بتأجير المنـــزل مرة ثانية. ويقيني أن لم يحدث ذلك الشيء ثانية. وعلى الرغم من أنه كان يودع بحسابنا في البنك مالاً معيناً لنا، قالت بارب إنها لم يكن لها رغبة في هذا وابتغت بيع المنـــزل و لم أجادلها.

* * *

حـــتى ذلك الوقت الذي كنت محتجزاً في السجن بلا شيء في متناول يديّ ســـوى الـــوقت، لم أتوقف قط لإمعان النظر في تأثير انقيادي وراء رغبات نفسي وانعكاس ذلك على المقربين مني. صار الأولاد مرتبكين وبلا والد، وبارب كانت تتمزق داخلياً وحالتها تزداد سوءاً. أمي وخالتي طغى عليهما القلق. وبمنتهى الهدوء قـــدر الإمكان حاولت أن أتعايش مع الجانب الغامض في حياتي، وقد تأثر بذلك العديـــد مـــن الأشخاص الآخرين، وانجرفوا داخل ورطتي للحد الذي صارت فيه أرواحهم على حافة الهاوية.

شيء واحد مهم تلقنته في السجن: نادراً ما كان أي عضو من عائلة نـــزيل الـــسجن ينظر إلى الجريمة، وفترة السجن باعتبار أن حبيبه ينال فقط ما يستحقه. بغـــض النظـــر عما اقترفته للزج بنفسك هناك، فجميع أفراد عائلتك يتألمون من أجلـــك. يعيـــشون بلا عون لهم، ويستبد بهم الخوف والألم، ويراودهم الإحساس أنـــك تمامـــاً تحت رحمة نظام قاتم مظلم يقطنه حراس غامضون يعيشون في غمرة الظلام. يقضون لياليَ مؤرَّقين ويساورهم القلق عما يجب أن يفعلوه لك في الوقت الـــذي لا يهـــتم فيك غيرهم، وكم هو عذاب شديد أن تكون محتجزاً. وعندما

يجلسون لتناول وجبة شهية أو يختلفون إلى السينما أو مجرد مطالعتهم لصحيفة مع فـــنجان مـــن القهـــوة، فحقيقة أنه لا يمكنك ممارسة تلك الأشياء التي تزعجهم، ويحـــسون بالذنب، حتى رغم كونها ليست غلطتهم. لا يبالون كثيراً بمبرر دخولك السجن. فبغض النظر عن هذا، فهم يتألمون من أجلك.

كـــنت ولا أزال خجـــلاً تماماً من تلك الفترة، ومن وقع تأثيرها الفظيع على الناس الذين لم يقترفوا خطأً بالمرة. حتى رغم مداومتي على أن تسنح فرص السطو العرضـــية – بإرجاع النظر لما مضى فلست موقناً أنه كان لديّ المقدرة للكف عن ممارســـة ذلـــك – لم يكن هناك مبررٌ لأنبري لجيروينـــز وشرطة فورت لوديرديل بأســـرها. غطرستي وثقتي بنفسي المجاوزة للحد حالتا دون إدراكي لضرورة عدم العبث مع السلطة الحقيقية، مع أناس لديهم سلطة الولاية المخوّلة، وثروات طائلة، ومـــسدسات مرخصة وبُغض مبتلى به للمارقين عن القانون مثلي ولكل ما نؤديه. كـــان يجب أن أتحلى بالذكاء الكافي لأدرك أنه سيوقع بي، لأن جيروينـــز وأتباعه الـــشرسين لم يكن ليقر لهم بال ريثما إما أن أخضع لعقوبة سجن مدى الحياة أو ألقـــى حتفي. وسواء كان حلهم هذا ينعكس أثره على أبرياء أم لا فتلك لم تكن مشكلتهم.

كـــنت بالفعـــل أوفر حظاً بالسجن عن غالبية السجناء الآخرين. فحينما تم اعـــتقالي مـــن قـــبل بنفس السجن لمدة سبعة وسبعين يوماً منذ عامين، كنت قد تـــواءمت مـــع الحراس و لم أسبب قط لأحد منهم أي إزعاج. لقد تذكروا ذلك وأتاحـــوا لي امتـــيازات بصفة اعتيادية، مثل المكالمات التلفونية، والتي كان يضطر النـــزلاء الآخـــرون للتوسل في طلبها. يبدو هذا كشيء طفيف، بيد أني كنت محتجـــزاً أربـــع وعـــشرين ساعة يومياً بلا شيء أعمله سوى كتابة رسائل طويلة مـــستطردة إلى بارب فضلاً عن كم السنوات التي سأمضيها إن ثبتت إدانتي بكل الـــتهم البالغ عددها مائة وأربع تهمة، ومثل هذه الأشياء الصغيرة ممكن أن تحدث اختلافاً.

لـــيس مـــا يكفي من الاختلاف مع هذا. فبالنسبة لي، كان لا يزال جحيماً أن أعـــتقل كهذا بلا أدنى فكرة لكم ستطول الفترة. بدأت آلام المعدة تطاردني، وذلك

ليس بمستغرب عن النـــزلاء الذين يتلقون طعاماً سيئاً ويقعون تحت وطأة جهد عصبي ضـــاغط، ولكـــن تلـــك الآلام كانت مختلفة وما كانت تزول. و لم يكن ثمة طبيب بالسجن، بل مجرد ممرضة منهكة القوى وهي قد سمعت أكاذيب من كل صنف بحيث لا يمكـــنك تصورها و لم تكن تصدق أن أي شيء غير سليم فعلياً ألم بشخص ما حتى يفقـــد بالفعل غالبية دمه أو عضو من جسمه. أعطتني حفنة من الدواء وأقصتني بعيداً، بيد أن الألم ازداد سوءاً وأبلغت فريد. ثار مغاضباً وحصل على إذن لي لأعرض نفسي علـــى طبيب خارجي، والذي فحصني ثم أردف قائلاً للحارسين اللذان رافقاني "أريد رؤيته ثانية خلال ثلاثة أسابيع" وحدد يوماً ووقتاً في أواخر أيلول/سبتمبر.

ولا بد من أنه كان مستجداً في فحص السجناء، لأنه انتهك مبدأً أساسياً في إجراءات السجن: لا تدع سجيناً يعرف قط متى سيذهب خارج السجن. وكانت الجولات خارج جدران السجن فرصاً رئيسية سانحة للفرار، ومعرفة موعدها تجعل المهمة أيسر لأقصى حد.

حينما عدنا لأدراجنا السجن، اكتشفت أن طلب الاستئناف المقدم للمقاطعة الـــرابعة قد تم رفضه. وطفر مستوى إحباطي فوق الحدود في الحال واتصلت ببيل ويللينج، الذي كان قد انتقل وقتئذ إلى فلوريدا.

وعندما زارني في اليوم التالي، أدركت أنه استشعر ما دار في ذهني من طريقة تلفته فيما حوله للتيقن من عدم تمكن الحارس من سماعه لنا.

وسألني بعدما اتخذ مقعداً قبالتي: "ماذا في الأمر؟"

أبلغـــته "إنـــني سأخرج بعد ثلاثة أسابيع من أمس لزيارة طبيب في عيادته". سألني باهتمام بالغ "هل كنت هناك من قبل؟"

أبلغته كل شيء أمكنني تذكره عن مقر المبنى حيث مكتب الطبيب. وقلت له "لـــو أمكنك بطريقة ما ركوب المصعد معي، فيمكننا أن ننبري للحارس. سيكون معـــه مفاتـــيح الأصفاد، فيمكننا انتزاعها منه ثم نحكم وثاقه بمكان ما". ذلك كان مجرد افتراض أن واحداً من الحرس سيرافقني لأعلى.

قـــال ويلليـــنج وهو مستغرق في التفكير "هنالك المزيد من الصراع المتوقع، فالمرضى يجيئون ويغدون..".

"مما أبصرته، أغلبهم كبار في السن. نؤدي ذلك بسرعة، وسيعم الارتباك، فلا يدري أحد ما يفعله حيال ذلك ريثما نلوذ بالفرار". لم تكن أفضل الخطط، بيد أني لم أرَ المزيد من الاختيارات.

أسهبنا في الحديث، ثم غادر ويللينج وعاد بعد يومين آخرين. وقد زار مبنى الطبيب وألقى نظرة فاحصة حول المكان. أبلغني أن "ثمة بهواً خلفيّاً وراء مدخل المرضى لمكتب طبيبك على بعد أقل من عشرين قدماً (6 أمتار) من المصعد. إن سيطرنا على الحارس قبلما ينفتح الباب، فيمكنك تلمس إن كان المكان ليس به رقيب قبلما نخرجه ونخبئه في البهو".

وخلال الثلاثة أسابيع التالية أقض مضجعي عذاب ما إذا أحاول الفرار. ليس فقط لأنه كان اقتراحاً محفوفاً بالمخاطر، لكن حتى لو نجحت الخطة، سأضحى هارباً. فضلاً عن الاعتداء على شرطي، فلا شيء يثير حنق جماعة السلطة القانونية أكثر من الفرار. كان ذلك قاسياً وكفيلاً بالإدانة، بل حتى من القسوة لدرجة نيل عقوبة السجن، وكل شخص تم سجنه كان ذلك نصراً للحق والعدالة والنهج الأميركي. بينما الفرار كان سخرية من أولئك الذين كانوا يكدون بمشقة لوضع السجين بمكانه المخصص وإذلال تام لمسؤولي سلطات السجن الذي كانت وظيفتهم الأساسية الوحيدة هي إبقاء السجناء بالداخل. وسيطاردونني ككلب، وحالما يعثرون عليَّ فما كانوا سيبالون باتباع الضوابط الطبيعية الممنوحة للمتهم المقبوض عليه. فلن أكون متهماً، أي بريئاً ريثما يثبت الذنب ويخول لي معاملة مدنية حتى تتمكن الولاية من إثبات خلاف ذلك. بل سأصبح مذنباً أثيماً، دون أدنى حاجة لمناظرة وجدال آخر.

كانت حالتي المرضية تزداد سوءاً. لو كان هناك شيء خطير ألم بي فذلك كان يقتضي رعاية طبية فعلية، ربما حتى عملية جراحية، ولاضطررت للذهاب إلى أوتر مونجوليا بحثاً عن مستشفى لم يتم إبلاغها لترصدي. كان هناك أيضاً احتمالات إمكان إطلاق سراحي قانونياً قبل انقضاء مدة طويلة، وأسير منعماً بحريتي ثانية أفضل من قضاء بقية حياتي أترقب وأركض خوفاً مما حولي. لو لذت بالفرار، فلن يعد لي أي فرصة لأعيش حياة طبيعية، حتى لو ظهرت براءتي

في النهاية من كافة التهم المعلقة ضدي وقتها، فإن الهرب في حدّ ذاته ما زال جناية خطيرة، وما كان هناك أي تغلب عليه. ومن ناحية أخرى، لو لم أهرب وأخفقت كافة التماساتي، لنسفت بذلك الفرصة الوحيدة في الفرار وسأندم عليها للأبد.

بمرور الوقت حان موعدي، وما زلت لم أقوَ على التوصل لقرار نهائي. كنت قد أمضيت بالسجن ما يزيد عن ثمانية أشهر وقدرتي على الاعتماد على النفس قد دُمرت للحد الذي لم أكن أثق بنفسي في اتخاذ قرارات هامة. في أحلك لحظاتي كان يجب أن أقر أن القرارات التي اتخذتها قبل بدء كل تلك المتاعب لم تكن جيدة للبدء بها، لذا فلم يجب أن أفكر أنني سأصبح أفضل حالاً بها الآن؟

أصفادي كانت موثقة القياد بقضيب فولاذي داخل عربة السجن. حينما وصلنا إلى مدخل المبنى الطبي، أقبل حارس لفتح السلسلة ودلفت إلى الباب. خرجت ببطء لم يكن هناك سبيل للتحرك بسرعة متى كانت يداك وقدماك مكبلتين. وبينما خطوت بارتباك نحو الرصيف، أبصرت بيل ويللينج مائلاً على جدار حجري منخفض متاخم لحديقة بالقرب من المدخل. كان مسترخياً بتهاون مصطنع وبدا أنه شخص جاء لمرافقة مريض وتسلل للخارج فقط لتدخين سيجارة، بيد أنه كان يرقبني بعناية. في تلك اللحظة خطر ببالي مدى ما كنت عليه من أنانية مفرطة مرة ثانية، مركزاً على ما سيحدث لي في ظل العديد من السياقات المتباينة لدرجة أنني لم آخذه أبداً في الاعتبار. فقد كان هنا صديقاً مستعداً للتضحية بحريته، ربما حتى حياته إن ساءت الأمور بشكل مرير، و لم أفكر ملياً بالأثر الواقع عليه مما كنت بوشك أن أفعله.

أو على باربارا أو الأولاد.

أحسست بدفعة خفيفة من الجانب، واحد من الحراس يعلمني بأنه قد حان وقت الذهاب. وطرق ويللينج الجدار في نفس الوقت، مستعداً ليتقدمني للداخل وليتأكد أننا سندخل نفس المصعد. رمقني بنظرة خاطفة في اتجاهي، وعندما تيقنت أنه كان ينظر نحوي، هززت رأسي: لا جدوى في ذلك.

بعد انقضاء لحظة من التردد، دار ويللينج برأسه وشرع في تحسس جيوبه، وكأنــه قــد فقد أو نسي شيئاً ما، ثم استدار تجاه الجدار الحجري وتظاهر بأنه يفــتش عن شيء في الأرض بينما اجتزته، وتنتهي فرصة الهرب بزفرة مسموعة خلفي.

* * *

بعــد زيارتين أخريتين للطبيب ومكالمات هاتفية جدلية بينه وبين سلطات الــسجن لم أتمكن تماماً من سماعها من الغرفة المجاورة، تم إبلاغي أنني كنت في حاجــة لإجراء جراحة استئصال للمرارة. هذه المرة لم يبلغوني بموعد إجرائها، لكنهم أقبلوا عليَّ ذات صباح واقتادوني للمستشفى، حيث كنت مقيداً بفراش، حــتى عقب التخدير قبيل إجراء العملية وتم اصطحابي على مقعد متحرك لغرفة العمليات.

بعد ذلك عينوا لي ثلاث نوبات من الحراس لمراقبتي. كانت مجموعة متحفظة جداً، وهو ما كان أمراً غريباً، لأنني عرفت اثنين منهم في السجن وكانا في منتهى اللطف. الآن كان ثمة واحد فقط والذي كان متحضراً، يذرع وقتاً في الجلوس عند فراشــي، يحــادثني أو يلاعــبني الورق، بيد أنه بدا شديد الحرص بعدم السماح للآخرين بمعرفة أننا كنا صديقين.

في النهاية أقر بأن مكتب السجون، أو أياً كان الاسم الذي يطلقونه عليه، قد تلقــى توبيخاً إزاء التزامهم بدفع حساب العملية الجراحية، وفترة البقاء بالمستشفى والحرس الإضافي وكافة النفقات الأخرى الخاصة برعايتي الطبية. وأدرك الجميع أنه ما كان يجب أن أدلل وكان هناك على ما يبدو المزيد من المناقشات الجدلية الحامية الوطيس عما كان يجب أن تكون عليه رعايتي الطبية. وعقب الجراحة بيومين فقط تم إعادتي للسجن، حيث كانت فكرتهم عن غرفة الاستشفاء مجرد زنــزانة معزولة بعارضة خشبية بدلاً من فراش أو حتى مهد للأطفال، وفضلات الفئران تملأ أرجاء الأرض. كان هذا بينما كانت هناك أنابيب علاجية لا تزال معلقة عند جانبي.

حيــنما اكتــشف فريد أنه تم إخراجي من المستشفى اندفع ثائراً وحضر إلى الــسجن مصراً على محادثتي. حينما رفض الحارس على أساس أنني في شدة الإعياء

لاستقبال زوار، شقّ فريد طريقه لغرفة القاضي تايسون وطالب بمعرفة ما هو ضرر محادثة شخص ما معتل الصحة تماماً لمحاميه في سجن بروورارد كاونتي. منح تايسون الموافقة في جلسة استماع أقوال طارئة، لكن حتى عندما أحضروني لقاعة المحكمة وأنا أبدو كمن عاد من الموت، وباربارا تقف قريباً والدموع تطفر من عينيها، رفض أن يعيدني للمستشفى، لأنه أصدر أمراً للحارس بإعادتي إلى زنزانة عادية والتي كان بها على الأقل مرتبة نحيلة وقذرة كما كانت.

ذهبت بارب عندئذ لمكتب الطبيب وأبلغته بما كان يحدث. تحت ضغط إصراره – أخاله وقتها كان يكن بغضاً تجاه السلطات أكثر مني – تم إعادتي للمستشفى.

حدد الطبيب وجهة نظره بمنتهى القوة، وحتماً لم يكن قد راود رجال سلطات السجن الظن بأن في إمكانهم إعادتي للسجن ثانية بسهولة. مع تصاعد فواتير المستشفى، لم تعترض سلطات السجن حينما تقدم المحاميان بطلب جلسة سماع أقوال أخرى أمام تايسون، والتي تحدد لها اليوم الثالث من تشرين الثاني/نوفمبر. ظهر الحارس بنفسه وشهد بأنهم كانوا عاجزين عن كفالة رعايتي على الوجه الصحيح.

كنت أود أن أجعل القضية أنني ما كنت سأحتاج إلى الرعاية الطبية لو كنت تلقيت معاملة أفضل في أول مرة، بيد أنه كان لنا هدف محدد ولم يرغب راي وفريد في إثارة الكدر بنثر الاتهامات هنا وهناك، كما أنني كنت ما أزال في المستشفى ولست حاضراً لجلسة سماع الأقوال.

بعد ما أدلى الجميع بأقوالهم، وقف راي ليطالب بإطلاق سراحي بتعهد كتابي. قبل القاضي تايسون منح الطلب ولكنه فرض شرطاً ببقائي بالمنزل باستثناء زياراتي لطبيبي أو المحامين الخاصين بي.

بدون الرغبة في إظهار الحبور أمام القاضي والحارس والادعاء، احتفظ راي وفريد بالوقار والمهابة قدر الإمكان بينما بارحا قاعة المحكمة. فور ما ابتعدا عن الناظرين، شردا إلى كابينة تلفون عمومي، واتصلا بباربارا التي سبقتهما إلى المستشفى، شغوفة بإبلاغي الأنباء السارة.

وصــــلوا جميعهم معاً، الجميع يبتسم ومفعم بالنشاط، وحالما أبصرهم، كدت أن أشرع في النحيب. كان قد انقضى تسعة أشهر منذ أن تم اعتقالي، ورغم ذلك كـــان في الإمكــــان أن أُلقى ثانية في السجن في أي وقت كان يحس فيه القاضي بوجـــوب ذلك، وسأكون رهن الاعتقال المنــــزلي حتى ولو لم أكن كذلك، ولكن مجرد الفكرة بأن بإمكاني السير داخل منـــزلي كانت غامرة بالحبور.

وتأهب راي وفريد لاحتفال ضخم وسحباني بالفعل خارج الفراش، بيد أني لم أكـــن مـــؤهلاً لـــذلك. أحسبهما ظنّا أنني كنت أتظاهر لأحصل على إطلاق ســـراحي، ولكن الحقيقة أنني أحسست بالفعل بسقم عارم وكل ما رغبت فيه هو فقط العودة للبيت.

إحـــساس الغـــبطة بكوني قادراً على الخروج بدون أصفاد وأن أشم شيئاً ما خـــلاف العـــرق، وقاذورات المجاري وطعام السجن كان حلواً بيد أنه كان قصير الأجل. لم أكن أقرب ما أكون من نـــزهات المستقبل البعيد، وخلال يوم أو اثنين، كانت الكآبة التي أحسست وطأهما، والتي كنت أعزوها لكوني بالسجن ليس إلا، قد شرعت في معاودتي.

ظلّ طيف جلستي الاستماع للأقوال الوشيكتي الحدوث يلوح أمامي. إحداها كانـــت تـــدور حـــول ما إذا كنت بالفعل قد انتهكت شروط إطلاق سراحي. فالمقاطعة لم تكن في عجلة لإجراء جلسة استماع انتهاكي إطلاق السراح المشروط بحـــسن السلوك، لأهم زجوا بي إلى السجن، وكل ما كان سيحدث لو أن الغلبة كانت لهم في جلسة الاستماع فإن ذلك سيؤدي إلى بقائي في السجن. ويمكنهم أن يخـــسروا أيـــضاً، ومن ثم سأخرج ثانية، وعلى قدر ما يهمهم فقط كانوا سعداء لتأجـــيل الجلسة للأبد. على الأقل كان هذا هو الموقف بينما كنت لا أزال تحت سيطرهم في السجن. الآن حيث حصلت على إطلاق السراح، على الأقل جزئياً، فمـــن المحتمل أن يضاعفوا إجراءاهم في محاولة لإعادتي للسجن فور إقرار الطبيب بسلامتي الصحية.

أما جلسة الاستماع الأخرى التي كانت وشيكة الحدوث أيضاً، كانت عن محاكمـــة جديدة للتهم الأصلية الناجمة عن اقتحام رامادا. اعتقد راي وفريد أن

أكثـر أجزاء الخطة الاستراتيجية حرجاً ودقة هو العمل على أن تأخذ المحاكمة مجـراها قـبل موعد بدء جلسة استماع انتهاك فترة السماح المشروط. فإن لم يحـدث ذلك وخسرت في جلسة الاستماع، سأعود للسجن وستماطل المقاطعة للأبـد. وطالما كان لي حقٌّ دستوريٌّ في محاكمة عاجلة، سوف يصرخ المحاميان في احتجاج، بيد أنه في إمكان الادعاء الزعم بأنه لم يتم انتهاك أيٍّ من حقوقي، لأنـه بغـض النظر عن استحقاقات القضية، فلقد انتهكت فعلاً فترة سراحي المـشروط. حتى لو تمت في النهاية تبرأتي من واقعة اقتحام رامادا، وهو ما ينفي في المقام الأول ذلك الوضع الذي يدفعني لقبول إطلاق السراح المشروط، فمن الممكـن أن يظل الانتهاك سارياً. فالوضع هنا وبشكل ما مشابه لسجين يفلت من السجن، وبينما هو لا يزال هارباً، يكتشفون أنه لم يقترف الجريمة التي تمت إدانـته بها. ولكن لا يزال ذلك لا يبرر هروبه. وفي حالتي، لو حظينا بالمحاكمة أولاً وتمـت تبرئتي، كان راي وفريد على يقين تام من أن قضية الانتهاك برمتها ستكون في خبر كان. فقد قضيت بالفعل عشرة أشهر بالسجن وحالتي الصحية سيئة، وليس من المحتمل أن يعيدني القاضي للسجن.

والآن حـيث أضحيت طليق السراح، كانت فكرة العودة مرعبة. اعتمدت على راي وفريد في كل كلمة، أنقب عن المعاني الخفية التي لم تبرز، وأتشبث بأي جملـة عرضية قد تمثل ومضة أمل. أيضاً شرعت في الشك أن هناك من يتبعني في رحـلاتي للطبـيب، وظننت أنه احتمال حقيقي أن شخصاً ما ربما يحاول اغتيالي. كـنت أهاب الخروج بمفردي، وحتى هذا اليوم، لست مقتنعاً بأن هذا كان مجرد وسواس جنوني.

جافـاني الـنوم، واعترتني صعوبة في التفكير الصائب وكنت أزداد غضباً وحـنقاً للاشـيء علـى وجه الخصوص. وكان الأشخاص القريبون مني هم الوحـيدون الذين كنت أفرغ غضبي بهم، وهم باربازا والأولاد، وقد عانوا في ذلك أكثر مما كنت داخل السجن. أعتقد، أكثر من أي شيء، أنني كنت مرهقاً تمامـاً وخالي الوفاض. كنت مرهقاً بدنياً لمناضلة بواعثي، وكان أسهل عليَّ أن أندفـع لاذعاً بالكلام أكثر من محاولة السيطرة على نفسي. وأسوأ ما في الأمر

أنني كنت قد أدركت بالضبط ما كان يحدث، وأمكنني تلمس أن علاقتي ببارب تـــزداد سوءاً أمام عينيّ، ولم أبدُ قادراً على كبح جماحي. كنت وضيعاً وسيئ الطباع ومن المستحيل مخاطبتي.

أيضاً شرعت في احتساء المشروب المفضل، وكان هو السبيل الوحيد لأحارب القلــق المـــوهن والكلـــل ولو لمجرد بضع ساعات، وأتلمس راحة من وطأة الجهد العــصبي القاسي الذي كان الرفيق الدائم لكل ساعة يقظة. راي وفريد كانا أسوأ صــديقين يمكـــن أن أحظـــى بهما في ذلك الموقف، لأنهما لم يريا في الإفراط في المشروب المفضل أي مشكلة على الإطلاق، بل إن ذلك في الحقيقة منحهما فكرة خلاقة تماماً.

كنت تحت طائلة أمر من المحكمة بعدم الذهاب لأي مكان سوى مكاتب الطبـــيب أو المحامين. حدد راي وفريد أن مكاتبهما تشمل كل حانة في فورت لوديرديل الكبرى المكتظة دوماً بالمحامين ورجال الشرطة وموظفي دار المحاكم. ومـــع ذلـــك، فقـــد علـــلا ذلك بأن أكثر تسوياتهما المثمرة والمناقشات قبيل المحاكمات أخذت مجراها في تلك الأماكن، وكان من الأهمية بصورة خطيرة أن يكـــون موكلهما حاضراً. ولسبب ما، فإن أحداً من رجال الشرطة أو حجاب المحكمـــة الـــذين أبـــصروني في تلك الحانات لم يسبب قط الكثير من الصخب الرسمـــي، رغم أنه كان في إمكاني تلمس انبعاث الحنق والغضب منهم. ربما لم يرغبوا في الالتزام بتفسير ما كانوا يفعلونه بتواجدهم هناك مراراً. لذا فقد تجرع ثلاثتنا مشروباً مفضلاً حوّلنا إلى أغبياء ليلة تلو أخرى، حتى إنني أضحيت أكثر نـــــزوعاً للعداء لكي أحجب بارب عن إبداء أية ملاحظة نابية لي عندما أجر نفسي للبيت في النهاية.

* * *

كان راي وفريد ينتويان تحديد موعد المحاكمة قبل جلسة انتهاك فترة السراح المـــشروط، بيـــنما كان ديميتروليس المدّعي الذي يطلق عليه الجميع لقب بيللي د، عاقـــداً العزم على عدم إجراء محاكمة بتاتاً. وأخيراً وضع راي تصوراً للعبته، والتي كانـــت في غاية من الخبث والحذق للدرجة التي تفرض عليك أن تعجب بها فعلاً.

فـإن اسـتطاع بيللي د. أن يكسب جلسة استماع انتهاك فترة السماح وأعادني للـسجن لقـضاء باقي العشرين عاماً، فستسقط ببساطة التهم الناجمة عن اقتحام رامادا. بذلك السبيل لن يتم تبرئتي رسمياً أبداً ولا يمكننا المثول أمام قاضٍ ملتمسين أن الاقـتحام الأصلي كان زائفاً، وبالتالي الاتفاق الذي قبلته. ولن يكونَ هناك أي أسـاس بـاق نرتكز عليه لإبطال انتهاك فترة إطلاق سراحي المشروط، وسأمضي حتماً بقية مدةٍ حكمي.

مـن ناحية أخرى، لو ظفرنا بحق المحاكمة وكسبناها، أدرك بيللي د. أنه لن يحـصل علـى جلـسة اسـتماع انتهاك إطلاق السراح المشروط، وبالتالي تنتفي مسؤوليتي للأبد.

ولا شـك في أنه كان يعكف جاهداً على القضية من جانبه بنفس قدر كل المحامـين الموكلين عني فيها. وحيث إننا لم نلتقِ به صدفة في حانة، فربما كان يكد أكثر. في كل مرة يحصل بيللي د. على موعد لجلسة استماع انتهاك إطلاق السراح المشروط كان راي وفريد يجدان مبرراً لتأجيلها. وفي كل مرة تحدد جلسة استماع حـول حصولنا على محاكمة جديدة، كان بيللي د. يسارع بفعل ذات الشيء لنا. واسـتمرت لعـبة القفز تلك على هذا النحو، ودأبنا على التجمع وازدياد بذاءتنا بانقضاء الأسابيع.

وفي غالبـية الأيـام كنت أتوجه لمكتبهم، ذلك الذي يحمل اسميهما، حيث نتجـرع أقداح المشروب المفضل ونتحدث عن يومهم المنصرم بالمحكمة. وتوالت قصصهم المجنونة الواحدة تلو الأخرى، ولم أصدق معظمها (سأفعل لاحقاً)، ولكنّ الاسـتماع لها طريفٌ وممتعٌ، ولا سيما مع جرعات قليلة من المشروب المفضل. ثم كان فريد يقول "هيا نتحول إلى الملحق"، ثم نتوجه لحانة حيث الحضور من محامين آخـرين أو غيرهم. وسط الرواد المألوفين كان هناك ثلاثة من زبائن فريد، كارل كوبولا، جوي كام وتومي هاريس. كانوا في زمرة أشهر مهربي المخدرات بالولاية ودائمـاً ما كان لهم قضايا قيد النظر. رؤيتي بصحبتهم جعل رجال الشرطة أكثر غـضباً ولـربما كان ذلك مبرراً لمداومة فريد وروي على إحضارهم معهم. كانوا يستمتعون حين يرانا حشد من أفضل رجالات فورت لوديرديل وهم مجتمعون على

طاولـــتهم ونحـــن ندخل المكان. كان رجال الشرطة ينـــزوون متقاربين ويهمهم الواحد للآخر، ربما عما كانوا يودون فعله بنا لو نالوا منا بمفردنا في حارة مظلمة، بيد أنهم لم تكن لديهم سلطة لفعل أي شيء في تلك اللحظة. لم يقتصر الأمر على ذلك.

فقـــد كـــان هناك مال طائل في تجارة المخدرات بل حتى أكثر مما قد يتخيله أغلب الناس، و لم تكن المشكلة الكبيرة في كيفية جمعه، وهو ما كان يسيراً، ولكن في كيفـــية إنفاقه وادخاره، مما كان صعباً بشكل يثير الدهشة، حيث إن اقتفاء أثر التحويلات المالية الضخمة كان سلاحاً رئيسياً من أسلحة التحقيقات الفدرالية في تعريف وتحديد ومداهمة التجار، لذا كان المعول الرئيسي لممارسة هذه التجارة هو أن يتركوا أقل قدر من المستندات القابلة للتعقب قدر الإمكان. النقد السائل كان لا يمكـــن اقـــتفاؤه أساساً وفي الإمكان إنفاقه دون تسجيل، فالكميات المذهلة من النقد كانت تجنح لتحوم حول مهربين أمثال كارل وجوي ولكن ليس الكثير منهم كانوا جسورين حسبما كانوا.

ذات لـــيلة عيد كنا جميعاً في حانة تضم مجموعة من السكرتيرات والمساعدين أحضرهم راي وفريد من المكتب، ودخل المكان رجل يبيع سلاسل ذهبية معروضة في حقيـــبة عرض محمولة. ألقى جوي كام نظرة وقرر أن البضائع كانت أصلية، ثم أخرج ستة عشر ألف دولار في رزم أوراق من فئة المائة دولار واشتراها جميعها من الـــرجل، بما فيها أيضاً الحقيبة. شرع في تمرير البضاعة أمام النساء من المكتب، ثم تحرك تجاه كافة الموجودات الأخريات بالحانة وداوم التحرك ريثما انتهت البضاعة كلـــها. كـــان هـــذا على مرأى ستة من رجال شرطة فورت لوديرديل ومخبرين ومـــساعدين بمكتب النائب العام. وكان ذلك ما أثار حنقي وعصبيتي ولكن بضعة كـــؤوس مـــن المشروب المفضل رأبت هذا الصدع سريعاً. (قُتل كام فيما بعد في فـــورت لوديـــرديل عقب نـــزاع مالي قام على إثره بخطف كارل، والذي يقضي الآن خمـــسة وخمسين عاماً في سجن فدرالي. حتى إن الشرطة ارتابت فيَّ واتهمتني بقـــتل جـــوي ولكنهم دأبوا على اتهامي في أي شيء كان له صلة بأي فرد كان يشترك معي في نفس الرمز البريدي للمنطقة).

كـــان تومي هاريس أكثر المجموعة طيشاً ومرحاً. دائماً كان يطلق نكاتاً هيـــستيرية وقصـــصاً مجنونة عن نـــزقه الجنسي مع صديقتين أطلق عليهما اسم بوكيـــند سيـــسترز. دائماً ما كان بحوزته الكوكايين ويوزعه بحرية لأي أحد تـــصادف أن يكون بصحبته. فريد كان يدافع عن تومي في قضية حول اجتيازه ممـــر مطـــار فـــورت لوديـــرديل في الثانية صباحاً وهو ثمل للغاية من تعاطي الكـــوكايين ومعـــه خمسون ألف دولار وعُثر على مسدس في سيارته حينما تم إيقافه متهماً بمخالفة قوانين تجاوز السرعة المحددة وهو ثمل. دأب تومي أن يصل للمحكمـــة كـــل يـــوم في سيارة محملة بالمخدرات ويترك المفاتيح مع إحدى ســـكرتيراته. ثم يـــأتي واحـــد من أصدقائه ويترك سيارة خالية من المخدرات، ويستبدل المفاتيح مع السكرتيرة ويبتعد بالسيارة المحملة. كل هذا يقع في ساحة انـــتظار (موقـــف) دار المحاكم. كان تومي يجلس في المحكمة طيلة اليوم يتشمم الكوكايين من علبة فيكس لنـــزلات البرد. وساور الجميع الظن أنه قد أصيب بنـــزلة بـــرد وبدا أن عطسه ومسح أنفه تسببا في رغبة كل المعنيين بالأمر في اســـتعجال إجراءات النظر في القضية. أجريت بحثاً شبه قانوني لفريد في تعريف المـــسدس وتم إســـقاط تلك التهمة. بعد ذلك بفترة وجيزة كسب فريد باقي القضية. لم أكن بالمحكمة بيد أني سمعت أنه كان ألمعياً.

بعـــد انقـــضاء ثلاثـــة أسابيع على انتهاء المحاكمة اتصل بي فريد وطلب مني مـــرافقته إلى فندق صغير لمقابلة تومي. ولم يفصح لي عما كان الأمر بشأنه، إلا أن المكان كان قريباً جداً من مسكني، لكن بدا فريد قلقاً. وقد وافقت. ولدى وصولنا في الـــوقت المحدد، كان المكان يعج بالشرطة وسيارات الإسعاف. ويبدو أن تومي أرســـل واحدة من صديقاته لغرفة أخرى ثم قتل نفسه. لا أحد أمكنه تصديق ذلك عـــن هـــذا الـــرجل الـــذي كان دائماً يضحك ويطلق النكات وبدا وكأنه أكثر الأشخاص الممكن تصورهم في عدم اكتراثه بالهموم.

تلـــك كانت أنماط الأشخاص الذين كنت أرافقهم وأخرج معهم. إذا لم أكـــن قـــد وصـــلت لمكتب المحاماة في أواخر فترة العصر، لزاروني في المنـــزل لأخـــذي، مما لم يطب لباربارا، لذا عملت على التأكد كالعادة أن أغادر قبل

حدوث نــزاع حول ذلك. كان راي وفريد يأتيان للمنــزل في عطلات نهاية الأســبوع، لكـــن حيث إن ذلك كان فقط يقتصر على الاثنان ومعهما زوجة راي، لوللـــي، وصديقة فريد - وقتئذ - شيريل، فقد كان لا بأس بذلك لدى بارب. الصديقات كن يكثرن الاهتمام بابني، مارك، الذي كان يناهز السادسة عـــشرة تقريباً وقتئذ وكان من ألطف الشخصيات التي عرفتها بالفعل من قبل؛ مـــتقد الـــذكاء، قوي ونشيط، محب للفن وسريع البديهة، وكان يقع في حب رفيقات فريد الواحدة تلو الأخرى.

وكـــنا نحن (الكبار) عادة ما نخرج لتناول العشاء. وكانت روح الصداقة المشبعة بالمشروب المفضل قد أضحت معدية للجميع، مما حدا ببارب أن تبذل أقصى جهدها للمشاركة في المرح، لكن يقيني أنها كانت خائفة طيلة الوقت. ولو كان بيل ويللينج في المدينة، لانضم إلينا أيضاً. وكان في مقدوره مع راي أن يمضيا الليلة بأكملها في تبادل النكات إن لم تستوقفهما، ويمتد التجمع دائماً حتى ساعات متأخرة. وأعتقد أنني كنت بدأت في الاقتناع بفكرة احتفاظي بهذا الحال للأبد.

لا غرو أن زواجي كان يتصدع وينهار.

* * *

وحـــيث كانـــت بـــارب تتخفف من حدتها في عطلات الأسبوع، كنت أتناســـى مدى تجهمها وحنقها طوال الأسبوع وأظن أن كل شيء كان على ما يرام، لكن أيام الأسبوع تلك هي التي كانت تقوضنا. كنت آتي للبيت ثملاً ليلة تلـــو الأخرى، وإن لم أكن أفكر بشكل صائب، كنت أسرد لها تلك الروايات الـــتي بدت مضحكة وقتها ولكنها لا تزيد على كونها بث فيها الخوف أكثر، علـــى الـــوجه الـــصحيح. مـــثل مداومـــة جوي كام على إرسال فتيات ليل (مومـــسات) لممـــثل الادعـــاء بيللـــي ديميتروليس "مجاملات من صديقك بيل ماسون". وعندما كانت تسألني عن مبرر إصراري على التحرش برجال الشرطة في كـــل شيء، ولا سيما عقب كل ما خضت غماره وكان محتملاً أن أخوض غمـــاره ثانية، لم يكن لديّ أي إجابة، لذا يستبد بي الحنق عليها. كيف كنت سأفسر لها أنني وقعت في أسر راي وفريد تماماً، وفي أسلوب ممارستهما للأمور،

رغم حتى إنهما لم يجابها أية تهم ولم يواجها ذات الأخطار التي واجهتها؟ لم أتمكن من الاهتداء لإجابة حتى لنفسي، لذا كيف كان من المفروض أن أفسر ذلك لها؟ كما لو كان هناك تفسيرٌ منطقيٌّ سديدٌ بأية حال.

أضحيت والمحاميان أقرب ما نكون طيلة الوقت. كنا ندخل مباريات صيد معاً في كل عطلة للأسبوع، وكنت أنا وراي نفوز فيها عادة مع إحساس بغصة فائقة للمنافس الأكبر فريد. قطر راي قاربه إلى منزلي وأوقفه بممر قيادة السيارات، وأمضينا عدداً من عطلات نهاية الأسبوع في استبدال كل خشب الصاج في الأجزاء الخشبية وتركيب محرك ديزل جديد، بينما فريد يقف بالقرب ينتقد عملنا ويرعى شؤون المشروبات.

ورغم ذلك، فلم أكن غافلاً تماماً، وفيما بين نوبات التجمع التي لا تنتهي بدأت أشعر بشكوك مزعجة حيال المحامين. ازدادت تلك الشكوك عقب المرة الثالثة التي تلقيت فيها اتصالاً في منتصف الليل لأخرج فريد بكفالة حينما أُلقي القبض عليه بتهمة اجتياز الحد الأقصى للسرعة وهو ثمل، وبعد المرة الرابعة التزمت بأخذه من منزل واحد من مهربي المخدرات والذي تعرض لهجوم خاطف، حتى إن موكله المريب كان خائفاً أن يسمح له بالقيادة. عادة ما كنت أصحب بارب معي، لأنه لم يكن آمناً لي أن أخرج بمفردي بدون المحامين. كانت متجمدة الأطراف لدرجة قاسية لعدة أيام عقب واحدة من تلك النزهات الخفيفة، وتتخير البقاء ساكنة بدلاً من المجازفة بانفجار آخر بيننا.

ما عدا جلسات الاستماع الخاصة بي، لم أرَ قط المحامين الخاصين بي في مجال عملهما وتملكني الفضول عن كيفية تدبرهما الأمور في أية محاكمة. أردت أن أراهما يتلظيان حنقاً على الخصم، حيث كان المحاميان هما جيشي الخاص الذي يستعد للعرض الكبير والذي سيشهد محاكمتي وانتصارهما الأكبر.

راي كان في غمرة محاكمة بتهمة القتل من الدرجة الأولى. كان المدعى عليه زعيماً لعصابة دراجات نارية محلية، وكان اسماً على مسمى فهو رجل ضخم الجثة يدعى بيج جيم نولان. وكان القاضي وراي يمقتان بعضهما البعض، وفي اليوم الأول الذي حضرت فيه لمشاهدة المحاكمة، ضُبط على راي ازدراؤه

للمحكمـــة مرتين. الأولى كانت لإحجامه عن ارتداء رباط العنق، الذي كان نهجـــاً متعارفاً لراي ولكن المرة الثانية كانت لنعت القاضي بالأحمق في محكمة علنية.

كـــل يوم عند نهاية المحكمة كان عدد يقارب العشرين من راكبي الدراجات النارية – أصدقاء نولان – يتركون مكان المتفرجين بالمحكمة ويتوقفون عند مكتب راي عـــبر الشارع للتحدث واحتساء المشروب المفضل. لم أشتم في حياتي رائحة كـــتلك الخاصـــة بهذه المجموعة. وبعدما يغادرون كنا نضطر لفتح كافة الأبواب ونشغل المراوح في محاولة لمحو أثر رائحة الجسم الكريهة، ثم نتوجه ثلاثتنا إلى حانة كالمعتاد.

كـــان قلقـــي يتزايد أكثر وأكثر بشأن قدرات راي في المحكمة بعد مشاهدة كافـــة حـــركاته الهزلية المضحكة، بيد أن شكوكي خلدت للراحة حينما تم تبرئة ساحة نولان من كل تهمة.

13

مناوشة التنين

ذات ليلة كنت أوصل (فريد) بسيارتي لمنـــزله لأنه كان ثملاً للغاية لدرجة لا يـــستطيع معهـــا القيادة. لم يرق لي عمل ذلك، لأنني بعدما أوصلته، كنت ملتزماً بالوصـــول لبيتي وحدي، ولم أكن من المفروض أن أكون بالخارج بمفردي. إن تم إيقـــافي لـــسبب ما وتعرف عليَّ الشرطي، فلن يكون من السهل محاولة إقناعه أو المحكمـــة أنني كنت في اجتماع مع المحاميين الخاصين بي حتى الثانية صباحاً. كنا في (ســـانرايز بولـــيفارد) شرق الطريق الرابط بين الولايات حينما أبصر (فريد) حانة راقـــت له وأصر على الوقوف بها لاحتساء كأس مشروب مفضل أخرى. كانت الحانـــة متداعية وبالية بالفعل وخاوية تماماً باستثناء رجل واحد يمشي مترنحاً على جانبي الحانة - والذي لم يكن سوى القاضي روبرت تايسون نفسه. حتى من عند البـــاب تمكنّا من معرفة أنه كان مفرطاً في الثمالة. لوّح لي فريد باتخاذ مقعد صغير على يمين القاضي وبمنأى عن مدى نظره. بينما فريد نفسه اتخذ المقعد على الجانب الآخر. ونظر إلى تايسون، منتظراً ريثما يدرك هذا السكير التعس أن هناك شخصاً ما يجلس إلى جواره. "طابت ليلتك يا أيها القاضي".

سمعت تايسون يهمهم "من هذا؟" بينما اهتز رأسه قليلاً. "فريد حداد، كيف حالك؟"

غمغم تايسون بشيء ما وترك رأسه يسقط. وكانت يده ملتفة حول كأس مملوء للنـــصف بالمشروب المفضل. كانت الكأس مائلة وبدت كأنها ستقع. كنت أنوي أن أقوّمها، ولكن كان جليّاً أن فريد لم يرغب في أن يدرك القاضي أنني كنت هناك.

وتمكن فريد من إجراء شبه محادثة وحالما تنبّه، كان تايسون يبدو لي أكثر وضوحاً مما اعتقدته فيه. أخيراً، أدار فريد حواراً حول القضايا المنظورة وقال: "ماذا في وسعنا عمله لإنقاذ بيل ماسون؟" فالرجل عانى كثيراً، لذا فكيف تمنحه الراحة؟"

أخرج تايسون نفساً عميقاً واعتدل قليلاً في جلسته، ثم بدا أنه تذكر شرابه فاحتسى منه رشفة صغيرة ثم أجاب وهو يهز رأسه "ماسون مجرم لدرجة كبيرة، لا عليك منه".

بعد ذلك ببضع دقائق وفي السيارة قال فريد "ذلك الوغد". واستسلم للسكينة بضع دقائق ثم أردف قائلاً: "واتتني فكرة".

"ماذا؟" سألته.

"سأعلمك بها غداً، لا بد من أن أتصل براي أولاً".

الفكرة كانت من أفضل نتاج راي وفريد. فقد طلبا عقد جلسة استماع أمام قاضٍ مختلف، جوزيف ل. برايس من المحكمة السيَّارة لبرووارد، وعللا طلبهما أنهما كانا في حاجة لاستدعاء تايسون للشهادة فيما يتعلق باتفاق إقرار الذنب الذي كنت أدخلته كجزء من الاتفاق الذي كان قد عرضه سلفاً ديف دامور. كان هذا مطلباً منطقياً في مجمله، وحالما تم تسويغه، هرع فريد لغرفة المحكمة للقاء تايسون وطالبه بعزل نفسه عن القضية لأنه أضحى الآن شاهداً. أوشك أن يفضي هذا بالقاضي للجنون، بيد أنه لم يكن أمامه خيار فعلي في هذا الصدد.

كان من ضمن الحضور العديد من ذوي المناصب العليا من شرطة فورت لوديرديل - في جلسة الاستماع، وقد تبعوا فريد إلى قاعة محكمة تايسون. لقد استوعبوا تماماً ما كان يفعله بيد أنهم كانوا بلا حول ولا قوة لردعه. حالما عزل تايسون نفسه من مباشرة القضية، فقد أُبطلت تماماً كافة القيود التي وضعها كعراقيل أمامي، طالما لم يعد يمارس أيةً سيطرة على الأمر. ولأسباب لم أتفهمها بشكل كامل، حتى واقع أنني تم إطلاق سراحي أساساً لدواعي طبية لم تعد منطبقة على حالتي. إلا إذا اتخذ شخص ما خطوات إجرائية خاصة لمحاولة إعادتي تحت الحجز، كنت أنعم بالحرية تماماً، وانحصر التزامي بالظهور في المحكمة متى اقتضى الأمر ذلك سواء بالنسبة لجلسة سماع انتهاك إطلاق السراح المشروط أو عملية رامادا.

اليوم كان ستة من آذار/مارس. أتذكره جيداً لأسباب عديدة أكثر من مجرد انقشاع قيودي. خرجت بصحبة فريد ووراي للاحتفال، وذلك لم يكن يحدث فارقاً أكثر من أية ليلة أخرى في الأسبوع باستثناء أنه كان لدينا الآن شيء ما لنشرب نخبه، بدلاً من الشراب من أجل صحتنا. وعقب انقضاء ساعتين من الفرح الجامح، قررت كسر القاعدة المعتادة، فأصل البيت مبكراً وأشارك بارب المتعة، شيئاً ما دأبنا على مزاولته قليلاً في الشهور الأخيرة.

كنت أحس بنشوة غامرة ولم أرغب في البقاء داخل الأماكن المغلقة أو حتى بالسيارة، لذا توقفت لدى حانة صغيرة في الخلاء بالقرب من الفندق الصغير الذي يدعى جوللي روجر على الشاطئ مباشرة، وأفكر في ارتشاف كأس واحدة من المشروب المفضل، وأراقب تلاطم الأمواج لبضع دقائق. كانت الحانة تبعد فقط خمسين قدماً (15 متراً) من المكان الذي أوقفت فيه سيارتي، لكن قبل أن أمس حتى الأرض، ظهر أمامي ستة من رجال شرطة من مكان مجهول تماماً وأبلغوني أنني رهن الاعتقال. كنت ساخراً قدر ما أضحيت، وببساطة لم أصدق أن هذا كان يحدث.

"فيم القبض عليَّ!" سألتهم وهم يجذبون يديّ بسرعة خلف ظهري ويقيدونهما بالأصفاد.

"التسكع" قال لي أحدهم ذلك.

"التسكع؟" شرعوا يدفعون بي للوراء تجاه الشارع. "إنني لم أكن هنا لعشر ثوان. فكيف عساي أن أكون متسكعاً؟ أدركت أن الأفضل ليس فتح فمي تحت وطأة هذه الظروف، ولكن الأمر كان سخيفاً جداً، فلم تكن لي حيلة.

بدلاً من إجابتهم عليَّ، أوقفوا مسيرتنا القليلة وبدأوا بتفتيشي، سواء لمضايقتي أو لأنهم أدركوا أنهم قد أغفلوا فعل ذلك من قبل، لا أدري، ولكن واحد منهم استل سكيناً صغيرة من جيب سترتي.

قال أحدهم "ماذا لدينا هنا؟"

وبادلتهم الإجابة "إنها سكين دائماً أحملها". لم يكن هناك أي شيء غير مشروع حيال ذلك. العديد من الناس في جنوب فلوريدا يحملون سكاكينَ

للحماية. تصادف أن تكون هذه قطعة نفاية قديمة مع شفرة معوجة. لم تكن ذات جدوى كثيرة، لكنها تشعرني بحال أفضل لحملي لها.

عند القسم احتجزوني بتهمة التسكع وحيازة سكين بنصل خاص معوّج. الآن تتحسن حالتي واحتدم حنقي وطلبت الاتصال بالمحامي. ثم قال لي أحد الضباط الذين قاموا بإلقاء القبض عليَّ، وهو شرطي سري. "ابقَ مستعداً، يمكنك الخروج من هنا خلال دقيقتين إن لم تعقد علينا المهمة".

كان محقاً. تحددت كفالتي بمبلغ ضئيل، خمسين دولاراً، سددتها بنفسي وخرجت. اضطررت لأخذ سيارة أجرة إلى حيث قطرت الشرطة سيارتي وسددت كفالتها أيضاً، ولكن لم يتعقبني أحد حينما ذهبت للمنزل. اتصلت بفريد وسردت له القصة بأكملها. أبلغني أنه سيجري بعض التحريات وطلب أن ألقاه بمكتبه قبل المحكمة.

* * *

وصلت إلى مكتب فريد قبل وصوله وطالعت نبأ إلقاء القبض عليَّ في الصحيفة في ساحة انتظار مكتبه. حينما أقبل، بدا قلقاً. ولكي تفهم ذلك: فريد لم يبدُ قلقاً أبداً.

قال بلا تمهيد "هناك أمر بإلقاء القبض عليك". سألته عن السبب. أجابني وهو ينكمش "انتهاك فترة إطلاق السراح".

أحسست بشظية من الفزع تصطك بأعماق صدري "إنني لا أفهم، كيف انتهكت فترة إطلاق السراح؟"

"يقولون إنك كنت تتسلل وبحوزتك سلاح".

بكلمات أخرى، اعتقالي في المساء الماضي كان هراء، ملفقاً، كمبرر لهم لانتهاك إطلاق سراحي المشروط. كنت قد دبرت لإبطال انتهاك إطلاق السراح المشروط الأصلي، والآن كان هناك واحد جديد، بصحبة قاضٍ جديد تماماً. لا عجب إذن أنهم أطلقوا سراحي بمنتهى السهولة: لم يكونوا مبالين بالتسكع، فقط أرادوا الحصول على اعتقال رسمي بالقبض عليَّ مدرجاً بالسجلات لإثبات سوء سلوكي. "وما عساي أن أفعل الآن؟" سألته.

"أول شيء تفعله، لا تذهب للبيت".

لم أذهـــب وقصدت مسكن راي، واتصلت بباربارا وأبلغتها بما كان يحدث. في ذلك المساء توافدت الشرطة على مسكني لاعتقالي. كانت بارب بالشارع لدى أحد الجيران، وكانت بنتاي فقط بالمنــزل. سوزي كانت في السابعة عشرة وقتئذ. أبلغت الشرطة أنني لست موجوداً وأن والدهما كانت بالشارع، وأن عليهم الانتظار ريثما تتصل بها، لكنهم أزاحوها جانباً ودخلوا بأية حال. فتشوا في أرجاء المنــزل وقـــد غمرهم الرضا حيث لم أكن هناك وانصرفوا. في ذلك الوقت كانت سوزي ولورا قد أوشكتا على الإصابة بنوبة هيستيرية، وهكذا وجدهما أمهما بعد انقضاء حوالى نصف ساعة.

لم أسلّم نفسي – فلم يتم إبلاغي رسمياً بأي شيء، ورجال الشرطة لم يتركوا أية أوراق و لم يـــشيروا إلى ســـوزي بأنني كنت مطلوباً. معاملتهم تلك لبناتي سُطرت في صـــحف الـــيوم التالي، حيث أبلغ راي الصحفيين أنه كان يعد لدعوى قضائية مدنية مطالباً بتعويض قدره مائة ألف دولار ضد الشرطة إزاء تصرفهم الشنيع والذي من شأنه إيقـــاع أضـــرار جسيمة تجاه قواصر أبرياء. أيضاً قام بتحديد موعد لجلسة استماع في العاشـــر من آذار/مارس، وهذه المرة أمام قاضٍ جديد تماماً كان راي يعرفه حق المعرفة وقـــد كـــان ضمن المدعوين بحفل زواج راي الخامس والسادس والسابع. أكد فريد للقاضي أنني سأظهر بالمحكمة وبالتالي أبلغني أن الذهاب للمنــزل أصبح أمراً آمناً.

كـــل شيء كان يتصدع. كنت أؤثر الموت عن العودة للسجن لمدة طويلة، وعلـــى ضوء ذلك الموقف لم أرَ مبرراً للمضي ملتزماً الصمت والهدوء. كان أمامي ثلاثة أيام لتخطيط كيفية النجاة من ذلك إن ساءت الأمور بالفعل.

أول شيء التزمت بفعله كان مخاطبة باربارا. ومع كل ما كان قد حدث، قد يبدو من العسير التصديق بأنني كنت متيماً بحبها وأنها تبادلني ذات الشعور. ربما لم تكـــن موقـــنة من إمكانها مشاركتي الحياة، وذلك ما تفهمته، بيد أنه لم يساورني الارتياب قط في عمق مشاعرها تجاهي.

أجلستها وأعددت رسماً تخطيطياً عما يجب أن تكون عليه خطتي في الهرب إذا باتت ضرورية.

بالنسبة لشخص لم يكن لديه حياة هادئة إلا بالكاد لما يقرب من ستة شهور، خلتني كنت أُبلي بلاءً حسناً، أرسم صورة منطقية رائعة عن كيفية انتقال الأسرة بأكملها وبدء حياة جديدة في مكان ما بعيداً عن جنوب فلوريدا. لقد تحادثنا من قبل عدة مرات، عن شراء قارب ضخم نمخر به عباب العالم، وربما نرسو في أستراليا أو البرازيل أو المكسيك. كان ذلك ضرباً من نسج الخيال غير الضار وقتئذ، ولكني حاولت الآن معالجة الأمر وكأننا كنا نعد لخطط جادة.

استمعت لي بصدر رحب، بيد أنه لم يكن ثمة مجال للخطأ في أن الغيوم تثاقلت في رأسها. استمعت لي وأنا أقطع العديد والعديد من الوعود الجوفاء في الماضي، وراقبتني وأنا أفتح صفحات جديدة بصدق وإخلاص شديدين، فقط من أجل أن تراني أرتد لأساليبي القديمة مراراً وتكراراً. فقد راقبتني وأنا أغرق نفسي في غيبوبة من فرط الشراب ليلة تلو الأخرى منذ أن خرجت من السجن، كذلك وأنا أواصل التحرش بالشرطة حتى رغم علمي بأنهم كانوا عاقدين العزم على الزج بي في السجن ثانية. لقد شاهدت نوعية الأشخاص الذين كنت أرافقهم، وكيف أنني قايضت محامياً رقيق الحاشية ومحترماً مثل (ديف دامور) باثنين مشهود لهما بالجنون ولا يختلفان كثيراً عن نوعية موكليهم. لم يكن هناك أدنى منطق في إبدائي لها أنها حظت بأوقات ممتعة معهما أيضاً، لأنني لم أرغب أن أدفعها للقول جهاراً ما كنا نعرف أنه حقيقي، وأنها فعلت ذلك فقط من أجلي وكانت لتكون أكثر سعادة بجلوسها أمام التلفزيون بصحبتي أنا والأولاد.

ورغم ذلك فما زلت أشعر أن الفرصة ما تزال قائمة لإقناعها، فقط لو تمكنت من أن أكون راسخاً وصلباً بما يكفي في خططي وفي الاستقرار الذي سيغمر حياتنا فور ما نلوذ بالفرار. غافل عن مدى سخافة ما بدا من وقع كلمة الاستقرار بينما أتوارى عن الشرطة؟ - أبلغتها أنني جمعت كمية وفيرة من النقود وأخفيتها بالسيارة التي ورثناها من أحد أولئك المهربين الذي قام باستئجار منزلنا في (لايت هاوس بوينت). لم أبلغها عن المسدسات التي كانت مخفية بها أيضاً. (أكثر استقراراً هناك)، ولكن ذلك لا يحدث اختلافاً، لأنها لم تكن توشك على الوثب بداخلها معي وأطفالنا في صحبتنا.

في اليوم التالي استرددت معظم النقود من السيارة وأخفيتها بالمنـــزل من أجل باربارا. فإذا تعين عليَّ الرحيل، سأكون على اتصال بها لاحقاً وأبلغها عن مكانها. أثقلت على راي وفريد بالأسئلة حول تفاصيل الإجراءات القانونية التي سنخوضها بـــيد أني لم أعلمهمـــا بمبرر سؤالي، الذي كان لتحديد الفرص السانحة للرحيل إن وصل الأمر لهذا الحد.

* * *

في صـــباح العاشر من آذار/مارس، حضرت مبكراً لدى مكتب المحامين. حينما فـــتحت دار المحاكم أبوابها، جمع (راي) كل موظف لديه في مجموعة وأنا في الوسط، وعبرنا الشارع هكذا كي نتيقن ألا يصيبني أحد عرضاً بطلق ناري أو يختطفني عنوة. وكانـــت جلسة الاستماع قد تحدد لها موعد في الحادية عشرة، ولكننا وصلنا هناك في التاسعة. وعلى غير المألوف، كان مقر المحكمة مليئاً بالناس و لم تكن كذلك حتى دخلنا القاعـــة ومـــن ثم أدركنا أن الازدحام كان مرجعه أن غالبية الحضور من الصحفيين. الـــبعض مـــنهم كـــان يحمل ضغينة ضدي، والآخرون كانوا يتيهون بي زهواً كبطل عصري حديث والجميع كانوا يتطلعون لالتقاط صورة لي بالصفحة الأولى وأنا مكبل بالأصفاد أمام القاضي. أحاط بنا أناس يلتقطون صوراً بمصابيحهم الكهربائية ويلوحون بميكـــروفوناقم في وجوهـــنا. حاول راي إقصاءهم عن طريقنا بينما يصيح مردداً "لا تعليق"، ثم استطعنا دخول قاعة المحكمة. بارب كانت بالفعل هناك، وبعض الصحفيين أيـــضاً، واثنان من مأموري السجن ذوا النظرة الجادة كانا يؤديان مهمة بارعة للتأكد من حسن سلوك الجميع. ثم ساد الهدوء المطبق المباغت في المكان بعد الجلبة التي كانت بالردهة والتي كانت غريبة وموحشة ولكنها باعثة للراحة.

وصـــل فريد لقاعة المحكمة مبكراً أيضاً، وتبادل مع القاضي حديثاً خاصاً، ثم أقبل فريد وجلس.

قال فريد، "مشكلة صغيرة، ولا أريد أن يستولي عليك الذعر يا بيل". بالفعل بدأ الذعر في الاستيلاء عليَّ. "ما الخطب؟" سأله راي.

دلّ فريد بإبهامه تجاه الأبواب الخلفية، مشيراً أن الصحافة في البهو الخارجي. "القاضـــي لا يحـــبذ كـــل هذه الدعاية. لا يريد أن يقع تحت ضغط مجموعة من

الصحفيين الطموحين ليؤدي شيء ما سيرضيهم، وهو في غاية الاضطراب لسماعنا أنا وبيللي د. نتحاور بشأن المزايا".

بدا وقع ذلك منطقياً، ولكن ذلك لم يشفِ قلقي البالغ. "لِمَ طلبت مني ألا أفزع؟"

مال فريد برأسه مقترباً وحادثني بهمس أجش "سيعيدك للسجن لبضعة أيام ريثما تهدأ الأمور". عندها انتفضت منتصباً لسماعي ذلك، وضع فريد يده على ذراعي لأتمالك نفسي، وقال: "لا بأس. كل ما في الأمر أن هناك صحفيين يراقبونه، وسيقتلونه صلباً إن لم يتشدد في عقوبته عليك، باعتبار ما ساقته لهم الشرطة لتصديقه".

أومأ راي بموافقته قائلاً: "لكن إن أمكننا أداء ذلك بهدوء، فثمة فرصة أفضل لتبرير تصرفه بشكل منطقي عقلاني".

"بالضبط"، قال فريد.

بيد أن كل ما سمعته كان أنني كنت سأعود للسجن، وأحسب أن ذلك ظهر حتماً.

أسهب فريد في ذلك مهدئاً "كل ذلك فقط من أجل حفظ ماء الوجه، لا يمكنه السماح لك بالخروج من هنا متى كان هناك أمر بالقبض عليك. وبذلك سيبدو متشدداً، مما يعني أنه ليس ملزماً بالتشدد حين نتطرق للأمور الهامة".

"متى؟"

"متى ماذا؟"

"متى أعود للسجن؟"

تزحزح فريد غير المستريح على العارضة الخشبية غير المريحة بالفعل. "الآن".

الشيء الوحيد الذي أمكنني التفكير فيه كانت باربارا. لم يخطر ببالي قط أنني ما كنت سأذهب للبيت ذلك المساء. فلم أودعها بأي سبيل له دلالة عندما بارحت ذلك الصباح، ولا أولادي أيضاً، ولم أرد أن أودع بارب الآن بوجود الصحفيين. حتى الآن لم يكتشفوا بالفعل وجودها، لكن إن منحتهم أي شيء ينظرون إليه، سيتجمعون حولها كالديدان فوق جثة حيوان ميت حديثاً. وبالنسبة

للأولاد فربما لم أكن الأب الأكثر اهتماماً بهم على مدى الستة شهور الماضية، لكن على الأقل كنت بالمنـــزل. الآن ما كنت أعود للبيت ثانية، وسوف يطالعون ذلك في الصحف.

بـــيد أنه لم يكن أمامي أي خيار، لذا فكرت أيضاً أن أتحلى بالرجولة حيال ذلـــك. مثلنا أمام القاضي برايس، بضع كلمات لها وقع هام تم تبادلها بهمهمة، ثم أقـــبل المأمور القضائي وقيدني بالأصفاد. لم يكن مسموحاً بالتصوير داخل المحكمة وهكذا لم تنطلق فلاشات الكاميرات أو التواتر بين الإنارة والإطفاء.

بيد أن بعض الصحفيين صاح بالأسئلة بينما كنت مقتاداً للخارج قبل أن يقـــرع القاضي بمطرقته لإلزامهم السكون ومهدداً بحظر دخولهم لقاعة المحكمة للأبد.

لا يمكنني حمل نفسي على محاولة صياغة ما في ذهني بالكلمات لأصف كيف كان إحساسي عند سماع صفق باب الزنـــزانة خلفي ثانية.

14

المحنة المريرة

انقلبت الأيام القلائل التي حدثني عنها فريد إلى ما يربو على ثلاثة أسابيع. في غضون هذا الوقت كنت زاهداً لدرجة أنني لم أفاجأ بذلك و لم أبالِ حتى أن أتحدث مع محاميّ - عندما أقبلا لزيارتي - عن الخطأ في التقدير الفادح الذي اقترفاه.

عــندما عــدت أدراجــي لسجن بروورارد كاونتي، كان الأمر أشبه بالعودة للــوطن. أقــبل العديد من الحراس لتحيتي متمنين لي حسن الحظ. أعتقد أن الحال كان من الممكن أن يكون أسوأ، ولذا حاولت جاهداً استخلاص أفضل ما فيه.

قصف راي وفريد المحكمة بوابل من الطلبات الكتابية، وتحدد لنا أخيراً جلسة استماع أخرى في الخامس من نيسان/أبريل في الخامسة عصراً. وكان الحراس الذين أقبلوا لمرافقتي يستثيرونني بشأن الساعة المتأخرة، متظاهرين بطلب توقيعي لهم على أتوجــراف ويعرضون كي بذلتي، حيث إنني حتماً أصبحت شهيراً لحد ما. حينما هبطــنا للطابق الأول بساحة الحجز، حيث تعين عليَّ الانتظار ريثما يتم استدعائي للمحكمــة، بارحــوا المكان بدون أن يضعوني في زنــزانة. ترامى لسمعي ضجة كثيرة من خلف باب يفضي إلى بهو بيد أنني لم أمعن التفكير في ذلك كثيراً.

راي كان في انتظاري وأقرأته التحية.

سألني بالتالي "كيف حالك؟"

أخــبرته أنني كنت على ما يرام. أومأ برأسه ولكنه لم ينبس بشيء أكثر من ذلك. كان هذا غير مألوف تماماً، ولاحظت أنه كان داخل واحدة من زنــزانات الحجز وأن الباب كان موصداً. "كيف يتسنى أنك بالداخل؟" سألته.

"إنني بالسجن" أجابني.

"أعرف أننا بالسجن، ولكن ما عساك...؟"

"كلا، أعني أنني داخل السجن".

عـــندما أدركت ما كان يتحدث عنه، شرعت في الضحك. ربما كان ذلك قاســياً، لكـــن لم تكن لي حيلة في هذا. المحامي الخاص بي معتقلٌ! "فيمَ ذلك بحق السماء؟" في النهاية تمكنت من أن أسأله.

بدأ هو نفسه يبتسم قائلاً: "الازدراء. وماذا سوى ذلك؟"

بدا أن راي قد اشتبك في مناقشة جدلية حامية مع القاضي بشأن عدم ارتدائه ربطة عنق، وراي – من هول المفاجأة – لم يعالج الأمر بشكل حسن.

مـــا زالت الضوضاء والجلبة تنبعث من البهو الخارجي، وسألت راي إن كان يعلم بما يجري. قال: "الصحفيون".

هذا كان عقب ساعات عمل المحكمة الاعتيادية، وبما أن جدول القضايا التي تباشرها المحكمة يومياً كان منشوراً على نموذج خاص مألوف ومعد مسبقاً، لذا لم تكـــن تلـــك الـــساعة مدرجة به، وعليه، فجلسة الاستماع الخاصة بنا لم تدرج بالجـــدول. بطـــريقة ما، ربما عبر عيونهم المنتشرة داخل المحكمة، علمت الصحافة بشأن الجلسة على أية حال. تلك كانت أنباء سيئة بالنسبة لي. بل وغاية في السوء. لقد أمضيت ثلاثة أسابيع أهدئ من روعي في السجن لأن الصحف سمعت بالموعد الذي تحدد لجلسة الاستماع، وها قد حدث ذلك ثانية. "يا للعنة" كنت أختنق.

حذرني راي: "هوِّن عليك، فقط هوِّن عليك – اتفقنا؟"

فُـــتح بـــاب مختلف ودخل شرطي قوي ضخم الجسم أومأ لراي ثم لاحظني ووجـــه ســـؤاله لي غاضباً "كيف دخلت إلى هنا؟ المفروض أن تلبث بالخارج في الردهة!"

شرعت في التفسير، ولكنه جذب مجموعة مفاتيح وأدخل واحداً في ثقب باب فولاذي لم ألحظه من قبل. فتح الباب ودفعه. تسلل ضوء الشمس الساطع بالداخل، وبيـــنما رمـــشت بعيني أمام الضوء المبهر، أبصرت بعض درجات السلم التي تقود مباشرة إلى ساحة الانتظار خلف دار المحكمة.

"ابتعد عن هنا"! زجرني الشرطي مشيراً في اتجاه السلم.

"انصت". شرع راي في القول، بيد أن الشرطي أسكته.

"اصـــمت" وقد جذب بسرعة هراوته من حزامه وأشار بها نحوي "لا تجعلني أردد عليك القول مرتين!"

بيـــنما اعتادت عيناي الضوء الخارجي، أبصرت العشب والسيارات على بعد عـــدة أقدام والناس تسير عرضاً على الجانب الآخر من الشارع. والأشجار أيضاً، وطفل يركب دراجة. فكرت في سيارتي الكبيرة، مجرد نـــزهة قصيرة بالسيارة.

"لا تفعل ذلك". حذرني راي، ولكنه كان حريصاً بعدم ذكر اسمي.

"لا تفعل ماذا؟" انتهره الشرطي.

كان المحامي محقاً؛ قلت في النهاية: "أنا في انتظار جلسة الاستماع".

"لغو فارغ! إنها الخامسة تماماً وما من جلسات سماع في...".

"إنـــي تحـــت التحفظ أيها الأبله". كنت متجاسراً لأن هذا الشرطي لم يكن ليتعـــرض لي تقريباً فور ما أدرك الخطأ الرهيب الذي كاد أن يقدم عليه والذي قد يتسبب في إنهاء خدمته. كان يريدني أن ألزم الصمت حيال ذلك.

"عما يتحدث؟" سأل الشرطي راي.

أجابه راي أثناء محاولته أن يكظم ضحكة "إنه موكلي. لدينا جلسة استماع في تمام الخامسة حسبما قال لك".

تطلع الشرطي للخلف والأمام فيما بيننا حوالى عدة مرات قبلما يقرر أننا كنا ننطق بالحقيقة. "تباً لذلك". غمغم بهذا بينما جذب الباب الخارجي ليوصده بسرعة ثانية. وقتئذ كنت وراي خائري القوى وتركنا الشرطي بلا كلمة أخرى.

وعـــندما استطاع أن يتماسك، قال راي: "بالمناسبة، اكتشف فريد شيئاً ما مثيراً وهاماً. كافة تلك الطلبات الحثيثة التي كنا نقدمها؟"

جلست على عارضة خشبية في ساحة الحجز ثم قلت: "ماذا عنها؟"

قـــال راي إن فـــريد قد درس بدقة تقارير الشرطة الأصلية وصادف إحداها تـــصف شاهدة على استعداد للإدلاء بأقوالها، امرأة من كونيكتيكت والتي كانت تشغل الغرفة التي ضبطوني بها في رامادا.

قلت له: "جين تيريي". من الصعب نسيان اسم كهذا.

واستطرد راي قائلاً: "رغب فريد أن يستدعيها القاضي للإدلاء بشهادتها، لكنه رفض، لأنه على قدر اهتمامه، لم تكن هناك قضية معلقة وأنت أقررت فعلاً بالذنب".

"إذن فما هو الشيء المثير الهام؟"

"أدى فريد رقصته المعتادة البذيئة. شيء جيد ويجدر بك أن تراه".

"أظنني فعلت قبلاً، ثم..؟"

"صاح فريد وصرخ أن كل هذا مجرد مؤامرة لاعتقالك، وانتهاكاً للإجراءات المتبعة، وعندما كاد أن يحين الوقت الذي يصل عنده لوأد الديمقراطية ذاتها، نهض واحد من المخبرين مبلغاً القاضي أنه ليس هناك مبرر لاستدعاء المرأة لأنها لن تأتي وتدلي بالشهادة على أية حال.

وسأله القاضي عن السبب والمخبر يرمق فريد بنظرة طويلة ويقول "إن شخصاً ما اتصل بها هاتفياً وهددها".

لم أتمكن من تصديق ذلك "أتقول لي أن فريد...؟"

"كلا، هل تمزح؟ إننا حتى لم نكن نعرف من كانت حتى ذلك الصباح". توقف راي عن الكلام وحك ذقنه قائلاً: "من ناحية أخرى، ما كنا نتساءل عنه...".

أدركت تماماً ما كان يرمي إليه بذلك "لا تنظر إليّ. إنني حتى لم أكن أعرف المدينة التي عاشت بها. كل ما رأيته كان التقرير ذاته مثلك".

أدرك راي أنني لو كنت فاعلها لكنت أبلغته، لذا صدقني، وقد كانت الحقيقة. "من الفاعل إذن في زعمك؟"

أجبته "لا أحد، اسألني عنها، هي لم يكن لها وجود إطلاقاً". بيد أن القاضي الآن خالني من ذلك النمط المتسلق الذي يهدد شاهدة محتملة. شيء رائع.

بعد ذلك بفترة وجيزة أقبل شرطيان آخران لاقتيادنا للطابق العلوي، ولكنهما أولاً شدا وثاقنا بالأغلال مع بعضنا البعض. استغرق الأمر بضع ثوان من الصحفيين الواقفين بالخارج في الردهة لتصور ما كان يحدث حينما أبصرونا

معـــاً، أو ربما لم يفهموا إطلاقاً، لكنهم على أية حال شرعوا في التقاط الصور كالمجـــانين، طـــيلة الطـــريق إلى قاعة المحكمة حتى إنهم حاولوا التقاط صور لنا بالداخل بتعليقهم آلات التصوير لالتقاط الصور في كل مرة تنفتح فيها الأبواب الخلفـــية. لا بد من أنه كان مشهداً بحق، نحن الاثنين مكبلين معاً أمام القاضي بينما كان راي يباشر قضيتي.

كـــان ذلـــك بلا جدوى. فقد ظلّ القاضي برايس - وهو رجل طويل القامة، نحيف ذو مظهر مهذب أرستقراطي - يراقب باستمرار الأبواب الخلفية، وعلى ما يبدو أنه يذكر نفسه بالصحفيين الماثلين خلفها. لم يكن مكترثاً بالمناقشات التفصيلية ورفض اتخاذ أي قرار باستثناء إبطال كفالتي قانوناً. باربارا كانت هناك كالمعتاد وقد جلست في صمت مطبق مباغت، تراقب فريد يصرخ في شدة محتدماً بينما أنا وراي تم اقتيادنا إلى السجن، أنا عائدٌ إلى زنـــزانتي، وراي إلى منطقة الحجز.

حيـــنما أقبل شرطي النوبة المسائية، تملّقت اثنين منهما للسماح للأمناء بأخذ كـــل أنواع الأشياء لراي مثل الفطائر، قهوة طازجة، سجائر وكأس أو اثنتين من المشروب المفضل. في الصباح التالي سألت واحداً من الحراس أن يقتادني إلى أسفل لـــرؤيته. عبر طول الطريق أوقفنا اثنان من الأمناء لإبلاغي بمدى رعايتهما الفائقة لراي وكافة الأشياء العظيمة التي أمدوه بها.

حيـــنما وصلنا إلى منطقة الحجز، لم يكن راي هناك. كان هناك رجل طاعن في السن، يبتسم ويبدو في تمام الرضا. "فيم سعادته؟" سأل حارسي المكلف بحراسة السجن.

أجاب الحارس الآخر "هل تمزح؟ لقد داوم الرجال على إمداده بكافة البضائع طيلة الليل. الزلابية، القهوة والدخان".

سألت "أين راي ساندستروم؟"

"ساندستروم، أتقصد ذلك المحامي...؟"

"أجل".

تفحـــص الحـــارس سجل أوراقه. "شخص ما يدعى حداد أخرجه بالتماس عاجل على ما أظن".

سألته متى.

"قبيل الثامنة بقليل ليلة أمس".

نظرت لداخل منطقة الحجز ثانية. كان هناك فتات وأعقاب سجائر على الأرض وكوبان بلاستيكيان للقهوة مهروسان في الحوض. تساءلت لو كان الرجل الكبير قد ساوره الظن أن الحال في السجن سيظل كذلك كل ليلة.

* * *

عقب ذلك بأربعة أيام ظفرنا بجلسة سرية وفقاً لرغبة القاضي. بدت أبرز أحداثها حينما طالب راي باستدعاء القاضي تايسون للمنصة، والذي حكم عليَّ في التهمة الأصلية.

قال رجل القانون البارز بأسلوب مهيب متغطرس "لا شيء أجبر مستر ماسون على الاعتراف بحقيقة التهم الموجهة ضده".

بادر راي بالإجابة "أصحيح؟ وماذا عن حقيقة أن الادعاء أبلغه بأن الشاهد كان سيلفق دليلاً ضده؟"

"هذا ما تقوله"، أجاب القاضي بهدوء.

بعدما نزل عن منصة الشهادة، قال برايس "أي شيء آخر أيها المحامي؟"

أجاب راي "شيء واحد". "لقد طالبنا بالسجل الرسمي لحكم العقوبة الأصلية".

"وأنا أمرت بتسليمه". قالها القاضي وهو يرفع كتفه بلا مبالاة.

"حسناً، إننا لم نتلقاه".

استنكر برايس متجهماً "ولِمَ لا؟"

هذه المرة رفع راي كتفه بلا مبالاة. "يبدو أنه فقد".

"فقد!" بدا برايس وكأنه في حاجة لثانية أو اثنتين لمواصلة كلامه. "ماذا تعني بأنه قد فقد؟"

"ذلك ما أفادنا به كاتب المحكمة".

"لكن..". برايس يرخي شفته السفلى. لم يكن هناك أي منظور في استنطاق راي الذي لم يكن تحت أدنى التزام ليعلل سبب ضياع سجلات المحكمة.

ثم نظـــر تجاهي القاضي. بيد أنه لم يكن هناك أي شيء مرتسماً على وجهي ليعـــرف منه شيئاً. كنت في غاية الدهشة مثله. استدار ورفع سماعة الهاتف وبينما كان يجري اتصالاً، أقبل عليَّ راي ليحادثني.

"مـــاذا...؟" شرعت في القول. لقد تذكرت الرواية عن كيفية اختلاس راي لمسدس من مكتب قاعة المحكمة مباشرة.

حملـــق كل منا في الآخر لبضع ثوانٍ. ثم قلت، "أتخبرني أنك اختلست سجل المحكمة الرسمي؟"

خلـــت أن راي كـــان سيتعثر، لكنه كاد أن يصيح قائلاً: "أنا! خلتك كنت أنت!"

بـــيد أنني لم أكن الفاعل. فما كنت حتى أعرف أين أبحث عن مستند كهذا. اســـتدار راي بعيداً وشرع في الضحك وهو يهز رأسه "يا إلهي" ثم كظم مشاعره. "لقـــد اختفـــى بالفعل!" ثم ثاب إلى رشده حينما سمعنا صوت القاضي وهو ينهي مكالمة تلفونية.

"يـــبدو أنك على حق يا مستر ساندستروم لقد فُقد". وحك برايس جانب رأســـه. "هذا لم يحدث قط من قبل في ذاكرتي". ثم رفع مطرقته قائلاً، "يتم إطلاق سراح المدعى عليه بكفالة قيمتها سبعة عشر ألف دولار".

في صـــحف الـــيوم الـــتالي، ردّد مراسل الصحيفة المتمرس في المحكمة تعليق القاضي حينما قال، "ذلك أمر لم يحدث من قبل أبداً. من الممكن أن يوضع في غير موضعه الصحيح ولكن لا يفقد قط".

كـــان هـــناك جلسة سماع أقوال أخرى بعد أسبوعين لاحقين تتعلق ببعض الـــشؤون القانونية. لم يكن مطلوباً حضوري و لم أذهب. حتى إن مسألة استمرار الكفالـــة لم تطرأ بالجلسة، مما حمّل المحاميان على الجدل حول تحركنا التالي حينما التقـــيت بهما فيما بعد ذلك المساء. ومع مراعاة عدم اهتمام القاضي برايس بشأن أنني لست محتجزاً، كان راي واثقاً من إمكانية استمرار ذلك للأبد بدون القلق من كـــوني معاداً للسجن. قال راي إلى فريد مشيراً إليَّ "لقد لزم مكانه، وقد نصبوا له كميناً وألقوا القبض عليه ومع ذلك لم يهرب، فلن يريد القاضي إزعاجه".

لم يتقبل فريد ذلك. "ربما ليس الآن، أو حتى الأسبوع المقبل، ولكن عندما يرى جو جيروينز وفتيان لجنة حوادث طرق النقل أننا نماطل؟ إنهم مقتنعون بأن أحداً منا اختلس سجل المحكمة، وسيبادرون بإقناع القاضي أيضاً. سينهالون على بيلي د. ويمارسون ضغوطاً عليه لإلغاء حكم الكفالة وسوف يوافق القاضي".

جادله راي قائلاً: "لكن ما الأساس الذي سيرتكز عليه؟ أي دليل؟ لا شيء تغير؛ القضية تمضي قدماً... فما هو المبرر الذي ستتخذه المحكمة لإلغاء الكفالة قانوناً؟"

استمر هذا لبرهة وجيزة ثم استدارا تجاهي؛ فرغم كل شيء، كان بالفعل قراري وكان من السهل اتخاذه. وعلى قدر اهتمام راي وفريد، فكل يوم أمضيته حراً بالخارج كان هبة، مبرراً آخر للاحتفال والتهكم بالشرطة، ولم يروا أية نقاط سلبية في إبطاء الأمور قدر الإمكان. ومع ذلك، فبالنسبة لي، كل يوم انقضى بدون التوصل لحل نهائي لكل شيء كنت أواجهه كان يوماً آخرَ من ضغط عصبي لا يحتمل وعدم اليقين. لم أتمكن من مزاولة العمل أو النوم بدون احتساء المشروب المفضل، وزواجي كان يتقوض وقلما تمكن أبنائي من قضاء ليلة بدون بكاء. الأسوأ من ذلك، كنا نتعجل في تحريك قضية التحرش ضد رجال الشرطة والتي تم رفعها باسم باربارا، ومما كانت أسمعه أن ذلك كان يفضي بالشرطة للجنون المطبق. أضف إلى ذلك الشكوك في أنني استوليت على سجل المحكمة، وفكرت أنني في خطر داهم فعلي من أن يتم نصب شرك زائف للقبض عليَّ ثانية.

هذا لم يكن سبيلاً للعيش، وأدركت أنني لا أستطيع تقبل المزيد من هذا. "نحتاج إلى إنهاء ذلك، بطريقة أو بأخرى" أبلغت محاميّ. كنت أعرف أن لي حقاً دستورياً في طلب محاكمة عاجلة، حقاً كان يتنازل عنه المدعى عليهم بصفة روتينية، ولا سيما حين يخرجون بكفالة، لأن هذا يهب محاميهم المزيد من الوقت للاستعداد. لكني أردت محاكمة عن تهمتي التسكع وحيازة سلاح بجوللي روجر على ألا تبدأ متأخرة ولو ليوم واحد أكثر مما تسمح به الحالة، ومبكراً أكثر لو كان ذلك يلقى قبولاً من المقاطعة.

استوعب راي وفريد الأمر بدون التزام بالإسهاب في تفاصيل أخرى ووافقا على دفع الأمر قدماً بأسرع ما يمكن أن يسمح به القانون.

* * *

ذهب راي إلى المحكمة بدوني وأبلغ القاضي برغبتنا في محكمة بهيئة محلفين للنظر في شأن قضية جوللي روجر. في عصر ذلك اليوم أبلغني وفريد كيف سارت الأمور. بينما شرع القاضي في تصفح أوراق رزنامته أطلق راي كلمته، "نريدها خلال ستة أسابيع". نظر القاضي تجاهه وهو غير مصدق وسأله عما كان يتحدث. كرر راي طلبه، وشرع الغضب أن يستبد بالقاضي واستدعاه على المنصة ولكنه نحى بيللي د. للخلف، وهو خرق واضح للإجراءات: فليس مفروضاً على القضاة أن يقوموا بإجراء محادثات من طرف واحد، مخاطبة جانب بدون حضور الطرف الآخر، بيد أن ديميتروليس لم يعترض. وكاد راي أن يرى جانباً آخر في القاضي الأرستقراطي الطبيعي جوزيف ل. برايس.

حسبما أخبرنا راي، "يميل القاضي فوق المنصة قائلاً لي: 'ماذا دهاك يا ساندستروم'؟ وناداني بساند - ستورم! 'أطلقت سراح موكلك، لذا ففيم ممارسة الضغط المضني الحثيث لتحديد موعد محاكمة بتلك السرعة؟ ألديك فكرة عن مدى امتلاء رزنامتنا بحيث لا يتسع المجال بها'؟ وأبلغته بأدب جم 'يستجير موكلي بطلب ممارسة حقه في محاكمة عاجلة يا سيادة القاضي'، وأجابني قائلاً: 'تباً لك ولموكلك'! احتفظت بهدوء أعصابي و لم أرفع صوتي و لم أقاطعه...".

"كيف يتسنى ذلك؟" سألته فقد كان هذا ليس بأسلوب راي.

اقتحم فريد الحديث "سأبلغك السبب. لأن ذلك قد يكون أثار ضجره بشكل أسوأ من أي شيء آخر طرحه راي في المحكمة أمامه من قبل. هذا هو السبب".

والذي ربما كان حقيقياً، ولكن بعد أن وجّه لراي ضربات خطيرة وهدده بكل ما يمكن أن يخطر بباله، لم يكن أمام القاضي خيار إلا أن يبدأ المحاكمة في خلال ستة أسابيع، على أساس تعريف المقاطعة لكلمة "السرعة".

"لكن ماذا لو كنت قد أضجرته بضراوة لدرجة أن يلغي كفالتي؟" سألته وتهافت الاثنان على من يكون البادئ بتفسير مدى ما وصلنا إليه كأفضل شيء ممكن حدوثه.

قال فريد: "قضية قاطعة بمحاباة قضائية. لم يكن هناك مبرر في العالم يحمله على فعل ذلك".

أضاف راي: "ولا سيما عندما كنا نتجادل في الإسراع بعقد المحاكمة وليس إبطاؤهـــا. كنا سنحظى بتهمة موجهة ضده بإساءة تصرف قضائي قبيل استراحة الغداء، ونتهمه بانتهاك حقوقك لأنه اعتقد أننا سرقنا سجل المحكمة".

أصبح فريد فجأة هادئاً. "راي، أتعرف ماذا؟"

"أجـــل"، وأتم راي الجملة عنه "أراهن أنه كان يفكر أن ذلك ما كنا نحاول فعلـــه بالـــضبط. ولم يكـــن هناك سبيل لتصدي الوقوع في الشرك". ابتسم راي واســـتدار نحـــوي. "قـــد يكون ذلك أسداك معروفاً عظيماً يا بني بأن جعل من المستحيل عليه أن يطل كفالتك بدون أن يبدو دنيئاً وحقوداً منتقماً". لا بد من أن راي قد ورث في جيناته تدبير المكائد لقدرته على جذب وطرح أشياء كهذه دون حـــتى معرفته لها. إنه لم يبالِ أيضاً بإبلاغ القاضي أن فريد هو الذي كان سيباشر المحاكمة الفعلية.

جـــدول مواعيد المحكمة كان مليئاً بالفعل، وطلب إلينا القاضي المسؤول عن الـــرزنامة الرئيـــسية فعلياً تأجيل الموعد أسبوعاً وهو ما وافقنا عليه بلطف. بسبب تـــضارب المواعيد، حصلنا على محاكمة أمام قاضٍ جديد، امرأة اسمها مارجاريت ســـيمونـــز. كنت أرتدي سترة ورباط عنق، وارتدى فريد ما كان يبدو مثل بذلة رعاة البقر، بما فيها من حذاء عالي الساق، ورباط عنق على شكل فراشة (بابيون) والكـــثير مـــن المجوهرات الذهبية، والتي كانت تومض عبر الجدران كلما كانت الشمس في زاوية قائمة. وخلال الاستراحة في أول يوم يعقب اختيار هيئة المحلفين، اقترب واحد من المحلفين من القاضي وسألها لِمَ كان المدعى عليه يمعن في استجواب الشهود بينما كان المحامي قابعاً. من الطريقة التي ارتدينا بها، افترض المحلف ببساطة أنني كنت المحامي وفريد كان هو الماثل أمام المحاكمة.

لم يطلـــب ممثل الادعاء الشرطي الذي قام بالقبض عليَّ فعلياً لمنصة الشهود، لذا طلب فريد ذلك وسأله أن يفسر سبب ظنه أنني كنت متسكعاً. "كيف تعرف أنه لم يتوقف فقط إلا ليتبوَّل؟"

قال الشرطي "لم أشتم رائحة البول".

"وهل أنت خبيرٌ بالبول؟"

"كلا ولكن...".

"هل لامست الأرض وحاولت الاهتداء لأثر البول؟"

"أي بول؟" سأل الشرطي المهتاج "لم يكن هناك أي...".

"كـيف لـك بمعرفة أنه لم يكن هناك طالما لم تحاول الاهتداء إليه؟ سأبلغك السبب: لأنك لم ترغب في إيجاده، وذلك هو السبب!"

وثـب الادعاء على قدميه. "اعتراض، يا سيادة القاضي! إنه يضجر شاهدي بكثرة الأسئلة!"

أعاد فريد الولولة "شاهدك؟ إنه شاهدي! وأنا استدعيته!"

سـارت الأمور على هذا المنوال زهاء يومين. رغم أسلوب فريد المكشوف وحركاته المضحكة، بات واضحاً أنه لم يكن أمام الشرطة أية قضية ولا مبرر لإلقاء القبض عليَّ. بعد أن استراح كلا الجانبين، وقف فريد وطالب بحكم مباشر بالبراءة بـدون تمريره على هيئة المحلفين. وقال: "يا سيادة القاضي، لو كانت عملية القبض الـسخيفة تلك لها أساس، لو كانت المحكمة تشعر فعلاً بأنه تم تقديم الدليل الكافي والـذي بموجبه نسأل هيئة المحلفين أن تمعن النظر بجدية إن كان موكلي متسكعاً، فقـد تلقون القبض أيضاً على كل من بلغت الثمانين في فورت لوديرديل والتي قد تـتوقف لالتقاط أنفاسها على مسافة مائة قدم (30 متراً) من ضابط بوليس". إنه حتى لم يهتم بالتهمة المتعلقة بالسكين، لأنه طالما لم تقم لتهمة التسكع قائمة، فقد كان لا يمكن تخيل أن تهمة السلاح سيكون لها قائمة، ولم يرغب في إفساد مجادلته بذكر أنني كنت أحمل سكيناً.

الادعاء وقف وناهض الحكم المباشر، كما تقتضيه مهام وظيفته، بيد أنه أدرك أن قضيته كانت كسيحة ولم يكن ميالاً إليها. بعدما أتم أقواله، لم تستغرق القاضية وقتاً في اتخاذ قرار تبرئتي دون أن تسمح لهيئة المحلفين بتناول القضية.

بـدت كإنسانة بارعة وتحدوها روح الدعابة، لذا سألتها إن أمكنني استرداد سـكيني. ضحكت قائلة: "لا تلح يا مستر ماسون". ثم اختفت الابتسامة من على وجهها بينما شخصت بنظرها تجاه خلف قاعة المحكمة. استدرت وأبصرت ثلاثة مـن أبرع رجال فورت لوديرديل واقفين كتفاً لكتف، ينظرون للقاضية. طفرت

داخـــل رأسي تعبيرات بالية مثل "الجريمة في أعينهم" و"نظرات البغضاء"، لم أشاهد قط غضباً عارماً على وجوه أناس من قبل. وكان وقوفهم الساكن معلنين عن تلك التعـــبيرات مزعجاً بصورة أكبر، كما لو أنهم كانوا على رغبة تامة لكبح زمامهم الآن ثم يطلقون له العنان بأسلوب أكثر وفرة في وقت ما لاحق.

احـــتفال آخـــر كان على قدم وساق لفريقنا، ولكن فريد انفصل عنا وهرع خارجـــاً من قاعة المحكمة، وتبعه رجال الشرطة بنظراتهم المتقدة. توجه مباشرة إلى صـــف من كبائن الهواتف العمومية بالردهة. طلبت إلى بارب أن تظل بالقاعة ثم لحقـــت بـــه. عندما سألت لأين كان سيذهب، ردّ صائحاً "لأتصل ببعض أولئك الصحفيين!"

تبعته إلى الهاتف والتقطت بعض الكلمات المتناثرة بينما تحدث إلى واحد من الـــصحفيين الذي كان بوجه خاص يتناول ثلاثتنا بعبارات مؤذية في تعليقاته. عند نهايـــة المحادثـــة وثب فريد بغضب وفتح الباب الزجاجي. وكان يصيح في التلفون "لهذا لا أتعاون معك قط أيها الحقير الأجرب. نشرت خبر اعتقال الرجل بالصفحة الأولى والآن ستدفن حكم براءته بجوار إعلانات الوظائف؟ أجل، تباً لك". صفق السماعة في مكانها بمنتهى العنف حتى إنها هزت ثلاثة أكشاك هواتف مجاورة.

القلـــيل جـــداً عني سينشر في الصحف لمدة ستة أشهر. تحديداً حتى الثالث والعـــشرين مـــن تشرين الأول/أكتوبر. في ذلك التاريخ تصدرت أنبائي الصفحة الأولى ثانية.

عودة إلى قاعة المحكمة، حيث كان ردّ فعل باربارا على براءتي صامتاً.

يقيـــناً كانت سعيدة، بيد أنها كانت أيضاً تفكر بشكل أكثر استقامة مما كـــنت. قالـــت: "كل ما يعنيه الأمر بالفعل أنك رجعت إلى حيث بدأت". ما كانت تقصده أن جلسة الاستماع غير المبتوت فيها بشأن انتهاك فترة السماح المـــشروط وعملية رامادا لا يزالان معلقين فوق رأسي. ما من شيء تغير فعلاً، عدا شيء واحد.

"الآن تمقتك الشرطة أسوأ من ذي قبل" قالت ذلك.

* * *

ما أخافني فعلاً أن تحرش الشرطة العلني وصل إلى تبلد تام. لم يعد هناك المزيد مـــن الجـــولات المتأنـــية بشارعي، ولا النظرات القذرة المزدرية والتعليقات النابية الهامسة بالحانات في أنحاء المدينة. حتى إنه راودني إحساس بأنني لم أعد متعقباً، بيد أنه لم يكن هناك ثمة سبيل لمعرفة ذلك يقيناً. ضاق صدري عما كانوا ربما يخططون له. ترى هل يدس جو جيروينـــز ورجاله المخدرات في سيارتي للإيقاع بي ويحكم عليَّ حكماً إجبارياً محتماً لمدة خمسة وأربعين عاماً، أم يردونني قتيلاً بتهمة مقاومة إلقـــاء القبض؟ ألذلك دفعت الأمور وتعجلتها لهذا الحد؟ وإن كان الأمر كذلك، فمـــاذا كانت القشة الأخيرة... سجل المحكمة المفقود والذي ما زال الجميع مقتنعاً بأنني استوليت عليه؟

لكـــن هل توقفنا؟ كلا قطعاً. داومنا على ارتياد الحانات والتهكم بالسلطات عن طريق وجودي في أي مكان ما عدا السجن. أضحيت أكثر حيطة في التصدي لهم، لكن راي وفريد، إن حدث شيء، يتصديان لهذه الأمور. عقب صدور حكم البراءة بأسبوع تقريباً كنت وراي نقطر قاربه من مسكني إلى المياه. توقفنا لاحتساء القهـــوة وأوقفنا مقطورة الجر بأكملها في منطقة محظورة. حين عدنا كانت سيارة شرطة ترابط هناك وخرج منها شرطيان.

"أهذا ملكك؟" قالها واحد منهما بنبرة بذيئة. لم أكن قادراً على تمييز إن كان قد تعرف على راي أم كان ببساطة في حالة مزاجية سيئة.

"ماذا بشأنه؟" قالها راي بفظاظة.

"ما من منطقة انتظار (موقف) هنا، فلم لا تنقله؟"

بلا أدنى لحظة تردد أجابه راي فوراً، "لِمَ لا تذهب للجحيم!"

تذللت وانكمشت محاولاً ألا يراني أحد. حملق الشرطي في راي، الذي ثبت في مكانـــه ولم يحـــول نظره. كنت موقناً أن الشرطي كان سيطلق علينا الرصاص فوراً. كان الحنق قد استبد به، بيد أن شريكه جذب ذراعه وهزّ رأسه، مما أخافني أكثر من أي شيء. فالموقف هنا كان شخصاً يتراشق محارباً ومسيئاً إلى ضابط بزيه الرسمـــي، وبدلاً من أن يتصدى له أو حتى يدوّن مخالفة انتظار في الممنوع، تراجع الـــشرطي على عَقِبَيْه. بقدر ما كنت أشعر به من قلق، فقد يكون الشخص الذي

هــزّ رأسه ليبلغ شريكه أن يتوقف قد قال بصوت عالٍ، "كلا ليس هنا. فيما بعد، حسبما خططنا. متى لا يرانا أي أحد".

كـــان راي غـــافلاً عن ذلك الفرق وابتسم في انتصار بينما تراجع الشرطيان داخل سيارتهما وقاداها بعيداً.

ازدادت الأمور سوءاً حتى في المنـــزل، لو كان ذلك ممكناً. منذ أن تم إطلاق ســراحي المـــشروط، شـــرع راي وفريد في الاختلاف إلى المنـــزل ثانية، مما أثار أعـــصاب باربارا وقلقها. كانت من الأدب لدرجة منعتها من قول أي شيء لهما مباشـــرة واتخـــذت مظهراً مرحباً جميلاً بينما كانا هناك، بيد أنني سمعت عن هذا لاحقـــاً. طالما كنت كالمعتاد مخموراً في تلك الأوقات، فلم أحسن التصرف تماماً، واســـتمر التهاوي التدريجي لزواجنا في هبوطه لأسفل. كنت لا أزال محتفظاً بكل شـــيء في مكانه على أهبة الرحيل - السيارة، النقود، الأسلحة ودأبت على محاولة محادثـــة باربارا في ذلك، وأفكر أنها ربما ستعتاد الفكرة إن داومت على التطرق لها طـــيلة الوقت، لكنها كانت مجهدة ومتبرمة للغاية لاستمراري بالتظاهر بأنها كانت فكرة ممكن حدوثها فعلياً وسرعان ما استسلمت.

الـــشهور القلـــيلة التالـــية انقـــضت في سحابة من الكدر. كل التحركات وجلسات السماع واحتساء المشروب المفضل والمشاحنات بالبيت وإعادة التخطيط الاســـتراتيجي عقـــب كل منعطف جديد في القضية... كل ذلك نخر فيَّ إلى الحد حـــيث شعرت أحياناً وكأنني لا شيء سوى كومة من الأعصاب المتوترة والطبع الـــسيئ. لا أتذكـــر الكثير من التفاصيل القانونية الخاصة، فقط كانت الفكرة التي بدأت تستحوذ عليَّ أن كل هذا كان مجرد إبطاء لشيء محتم، وأن ذلك النظام كان عاقـــد العـــزم على النيل مني وما كان ليهدأ بالاً ريثما ينال مني، بشكل قانوني أو خلافاً لذلك. فور ما اتخذ فقدان الأمل هذا موطئ قدم في عقلي، لم أعد أتمكن من تجـــنب واقع أن حياتي كما عرفتها سابقاً كانت تنقضي، وأن الشرطة بطريقة ما ســـيحرزون فوزاً بعد كل هذا. ربما كان جزء من هذا أسلوباً دفاعياً آلياً، شيء ما بداخلـــي يحـــدثني أنه كان يجب عليَّ أن تتعود على بضع حقائق مؤلمة إن كنت سأحظى باغتنام أي فرصة لإنقاذ نفسي. ما زلت، كنت أناهض تلك الحقائق حتى

آخر لحظة، أتجنبها حتى عندما حفر الألم أخاديدَ على وجه فريد، وعندما أبلغني أنه قـــد نفـــدت منا الاختيارات القانونية وستنعقد جلسة سماع انتهاك فترة السراح المـــشروط قبيل النظر في إعادة المحاكمة بتهمة اقتحام رامادا. داومت على اجتناب الحقيقة مباشرة حتى قبل موعد انعقاد الجلسة ذاتها في تشرين الأول/أكتوبر.

كان محدداً لها التاسعة صباحاً، وستكون أول قضية يتم النظر فيها حينما تفتح المحكمة أبوابها ذلك اليوم. كنت بالخارج حتى منتصف الليلة السابقة بصحبة فريد وراي وكارل كوبولا. لم يتفوه أحد بالكثير ثم ذهبنا جميعاً إلى البيت.

تلك الحقائق التي لا مناص منها طافت أمام مخيلتي ثانية بينما أشرقت الشمس في الـــصباح التالي. كنت مصاباً بدوار الإدمان، مرهقاً ومكافحاً لقلق يماثل ذلك القلـــق المتوقع عندما يتعلق الأمر باتخاذ قرار بتر ذراعك للهروب من المصيدة. عند حوالى السادسة تماماً أذعنت في النهاية واستسلمت للأبد.

تململت بارب في النوم بينما لكزتها برفق وناديتها بهدوء كي لا أوقظ الأولاد. حينما انتبهت إليّ، قلت: "إنني في حاجة للرحيل".

نظـــرت ملـــياً في الساعة، "إنها السادسة فقط، لسنا ملزمين بالتواجد هناك حتى...".

"كلا، أقصد أنني راحلٌ، ولن أذهب لجلسة السماع".

بســـاطة كان مستحيلاً أن أواجه قاضياً آخر، شرطيًّا آخر حقوداً، يوماً آخر في زنـــــزانة ســـجن، وساعة أخرى من عدم اليقين بكل قسوته، والتي تترافق مع محاولتك شق طريقك عبر نظام قانوني معقد بشكل رهيب وغير متوقع. لم أرغب في تفـــسير كل هذا لباربارا ولا هي حاولت أن تسهب في الكلام عن ذلك معي. لقد خاضت مرارة التجربة كلها معي، وعلى الرغم حتى من أنني سببت لها قدراً لا يحصى من الألم والجزع إلا أنها بطريقة ما ما زالت تحبني وتتفهمني.

كانـــت لحظـــة مخـــيفة للغاية، ونشدت الملاذ في التفصيلات الدقيقة لإدارة العمليات. "ما زلت ملتزمة بالذهاب لجلسة الاستماع". أبلغتها بينما أوشكت على الـــبكاء. هزت رأسها، ولكني فسرت حتمية ذهابها. "إن لم تحضريها، سيتهمونك بمـــساعدة وتحريض هارب. لا بد من أن تذهبي للمحكمة وتبدي مرتبكة ومكدرة

حيـــنما لا أظهر هناك. أخبريهم أني غادرت مبكراً للاجتماع براي وفريد وأنك جئت بنفسك للمحكمة".

كنت قلقاً على حمايتها بينما كنت أكاد أنطلق بنفسي لمجهول محفوف بالخطر لم يلائـــم باربـــارا تمامـــاً، ريثما ذكرتها أن التزامها الأول كان حيال الأبناء. فلو تعرضـــت لمتاعب أو قررت المحكمة أنها كانت أماً غير صالحة واستدعوا الخدمات الاجتماعية...

"أتراهم يفعلون ذلك؟"

نبهـــتها أنـــنا ما زال أمامنا دعوى قضائية معلقة ضد الشرطة، وكانت هي المدعـــية. وبمجرد هروبي فمن المحتمل أنها ستضطر لإسقاطها والتنازل عنها، بيد أن هذا لم يغير الحقيقة أنه قد يكون هناك بعض البغضاء ضدها بالمكان.

بينما قبعنا صامتين، قضيت حوالى خمس دقائق أحس بالرثاء لنفسي وأتمنى من صميم قلبي لو تمكنت من نقض كل شيء ارتكبته لأزج بنفسي في هذا المعترك، ثم اتصلت بشقيق بارب الذي يدعى أوجي وطلبت مجيئه لمرافقتي إلى هوليود. أرسلته في طـــريقه، ثم فتحت باب مرآب خالة بارب ودخلت السيارة الكبيرة. بعد بضع دقائق تالية كنت أتجه شمالاً، وأنا أحاول شغل ذهني بالتخطيط المفصل الدقيق كي أتجـــنب الـــتعامل مـــع الفواحش التي كنت أقترفها. كنت في حاجة لبطاقة هوية جديـــدة، وكل ما أستلزمه ذلك من: فتح حسابات بنكية جديدة، الحصول على بطاقـــة تأمين اجتماعي ورخصة قيادة، تغيير ملكية السيارة، الاهتداء لمأوى أعيش بـــه.. ألف من الأعمال المضجرة العسيرة والمعقدة، وكل منها محفوف بالمخاطر. ركـــزت في كـــل هذا بينما كنت أقود، لأنني لو نفست عن غضبي بسبب مدى الـــسوء الـــذي أحاق بي بالفعل من فقد أسرتي، ولو استحضرت في ذهني صورة ارتباك وحيرة بارب ذلك الصباح لمائة مرة، ومدى ارتياعها بيد أنها ما زالت بنفس الوجه المحبب الذي قهرته؛ لكنت تهاويت.

عند الثامنة والنصف كنت تجاوزت خمسين ميلاً وأكثر و لم تستغرق مني كثيراً من الحساب لمعرفة أنني بالفعل قد اجتزت نقطة اللاعودة: بعد انقضاء ساعة عقب إخفاقـــي في الظهور بجلسة الاستماع المحدد لها التاسعة تماماً، و لم يكن وكلائي من

المحـــامين ولا زوجتي قادرين على شرح أسباب غيابي، فسوف يصدر القاضي أمراً قضائياً للقبض عليَّ. لو قبض عليَّ فلن يكون أمامي أي دفاع أياً كان، فهل هناك دلـــيل أكثـــر وضوحاً لذاته في انتهاكي لإطلاق السراح المشروط من التواني عن حضور جلسة انتهاك السراح المشروط؟

ضـــغطت على بدّال السرعة (دوّاسة البنـــزين) لمنتهاه، وهو شيء أحمق تماماً لفعلـــه متى كان يجب أن يكون حضوري الكامل في تلك اللحظة منصباً تماماً في الحـــرص علـــى عدم الإمساك بي. شرعت في اجتياز السيارات الأخرى ومع ذلك كـــنت مندهشاً لاكتشاف أنني رغم غضبي العارم والإحساس بالمرارة والوحدة، لم يبدُ بوضوح أنني أولي أدنى اهتمام بأي شيء على الإطلاق.

* * *

بعـــد ذلـــك بيومين تم ذكر في سن - سينتينل بجنوب فلوريدا أن شيرلي ثومبـــسون الـــتي كانت مراسلة المحكمة وقتما صدرت عقوبتي الأصلية بالحبس وكانـــت الآن تقـــيم في شيكاغو، عثرت على مذكراتها المدونة بالاختزال عن جلـــسة إصـــدار حكـــم عقوبتي مطبوعة بداخل كتاب. وهي أبداً لم تستنسخ نـــسختها المدونـــة بخـــط اليد لسجل رسمي وعن غير قصد أخذتها معها حينما انتقلت.

القسم الثالث

15

الهروب

كـــنت عازماً على القيادة طوال المسافة من فورت لوديرديل إلى أطلنطا والتي تـــبلغ ستمائة وخمسين ميلاً في يوم واحد ثم أخلد للراحة ليلاً، ولا أتوقف قط إلا عندما تقتضي الحاجة لدورات المياه وشراء بعض الطعام الممكن تناوله أثناء السير. لكـــن عندما وطئت أطلنطا بسيارتي، كانت فكرة الخلود للفراش بمفردي في فندق صـــغير غير مناسبة لي ولذا فقد داومت على المضي، وقد كان أمراً عجيباً أنني لم أصدم سيارتي بشيء ما على طول الطريق رغم أنني كنت أشعر بأني أقود منحدراً من فوق جرف بالإضافة إلى انشغال ذهني وحالة الكدر التي انتابتني.

لكـــن القيادة كانت على الأقل شيء ما أفعله، رغم أنه لا يمكنني القول أنني كنت منتبهاً تماماً للطريق. لكن البقاء وحيداً في غرفة كان أمراً مختلفاً. تباً، حتى في السجن، كان الأشخاص الذين أحبونني وبادلتهم الحب قادرين على زيارتي. ورغم الشكوك التي تساورني لكوني مسجوناً - وأنا أدرك أن هذا سيبدو غريباً - بالفعل لم يكـــن هناك ثمة أشياء كثيرة ليساورني القلق بشأنها، عدا الشاغل الأكبر: كيف ومـــتى أخرج. وقد أدى الأشخاص المهتمون بأمري وأولئك الخبراء دوراً هاماً في زيادة قلقي حول هذا الأمر. فضلاً عن ذلك، كان هناك بعض التفاصيل التي وجب أن أوليها اهتماماً يومياً.

صارت التفاصيل الآن هي كل ما يساورني القلق بشأنه، المئات منها، وبدا يلوح لي ما الذي يعنيه أن أكون هارباً. فالأمر لم يكن مجرد المسارعة في العدو مـــن الشرطة بلا اكتراث واستعادة مرح الأيام الخوالي في التفوق عليهم بالدهاء

والحيلة. كان الأمر يعني عدم القدرة إطلاقاً على تلمس الراحة أو الممارسة اليومية لأكثر الأنشطة براءة - كالخروج للنزهة، قص الشعر، طلب بيتزا - وفجأة أجدني في مواجهة حافة خطرة. لم يكن هناك سبيل لمعرفة ما إذا كانوا على وشك أن يحددوا مكانك أم أنهم قد فعلوا، ومستحيل أن تعرف إن كانوا يقتربون منك أو حتى يترصدونك. فلا شيء أمامي سوى الافتراضات والحدس ولن يكون هناك سبيل لمعرفة ما إذا كانت وسائل الحيطة التي كنت أتخذها فتاكة أو غير كافية بدرجة خطيرة. أفضل ما أمكنني عمله كان التفكير فيها بعقلانية والخروج بخطة والالتزام بها.

تمنيت أن أتمكن من أداء ذلك في وقت قريب لأنني في تلك اللحظة كنت بمنأى عن التفكير السديد العقلاني كما كنت من قبل وأنا واعٍ.

كان معي مائتي دولار من فئات الأرباع لكبائن الهواتف العمومية وكنت أتوقف كل ساعة للاتصال ببارب وبين الفينة والأخرى أتصل بفريد أو راي. كنت قلقاً من أنني جعلت المحاميين يظهران بمظهر سيئ عندما لم أحضر الجلسة، ولكن راي تناسى ذلك بالضحك قائلاً: "مهمتي ليست في جعل القضاة يحبونني". لم أكن قلقاً من التنصت على هاتفي المنزلي، لأنني لم أكن مهماً للقدر الذي يسوغ ذلك الجهد، بيد أني أيقنت من عدم التفوه بشاردة لأي أحد عن مكان إقامتي أو لأين كنت أقصد. كنت أيضاً أتوخى الحذر في محادثاتنا ألا أعطي الانطباع أن كلاً من بارب أو المحاميين كانوا على علم مسبق بأنني كنت سألوذ بالفرار.

افتقدت باربارا والأولاد بفظاعة، وفي كل مرة كنت أسمع أصواتهم وأدرك المدى الذي يتباعدون به عني في كل مكالمة، كان ذلك الأمر يزداد سوءاً. كانت تلك هي الأفكار التي لم أرغب في الانفراد معها في حجرة، لذا دأبت على القيادة ريثما وصلت في النهاية إلى كليفلاند قبيل فجر اليوم التالي. خالتي التي كانت تقيم في الطابق السادس بإحدى العمارات التي توليت إدارتها، كانت خارج المدينة، لذا دخلت الشقة، متوخياً الحرص ألا أدع أحداً يراني. كنت مرهقاً وخلدت للنوم لبضع ساعات، لكن عندما استيقظت أبقيت عينيّ مغمضتين للحظة، غير راغب بفتحهما لاستقبال الضوء الأول لحياة غير مرغوب فيها.

كانت أولى مهامي هي الحصول على بعض المال. لبثت بالشقة طيلة النهار وعقب غروب الشمس توجهت إلى خزانة عملي حيث أخفيت المجوهرات التي سلبتها من بلير هاوس. أمضيت وقتاً في تفحصها، لأقرر ما الذي يمكن بيعه منها على حالته وتلك التي كان يتعين تجزئتها لإخفاء شكلها الأصلي. بعدما فككت المجوهرات التي تستوجب ذلك، وهو ما استغرق مني يومين لإنجازه ببراعة، شرعت في إعداد قائمة بما ظننته قد تكون قيمة المجوهرات القابلة للبيع وبكم سأكون متأهباً للاستقرار عليه كثمن من مشتري البضائع المسروقة.

اكتشفت من بيل ويللينج أن اسمي وصورتي قد تم نشرهما وتوزيعهما في كل دوائر الشرطة بكليفلاند، لذا لم يكن هناك بارقة أمل في التخلص من مسروقات بلير هاوس عن طريق بلوت تومبا. كنت محظوظاً تماماً إذ لم يقبض عليَّ بعد لمجرد الذهاب في منتصف الليل إلى متاجر البقالة التي تعمل أربع وعشرين ساعة يومياً. في الليلة الثانية حيث كنت في كليفلاند، ابتاع ويللينج بعض البيتزا وستة من المشروبات المفضلة وأتى للشقة. أبلغته بورطتي الحرجة وطلبت منه المجيء معي للتخلص من المجوهرات.

"إلى أين أنت تفكّر؟" سألني بفم مملوء بالنقانق والجبن. شرعت في سرد بعض المدن حيث كنت أعرف تجاراً هناك، وأوقفني مقاطعاً حينما تطرقت لأطلنطا. "إن لديّ بعض الأعمال في أطلنطا".

أبلغته بصواب الفكرة، لأنني من المحتمل أن أحظى بأفضل صفقة هناك. ولا أحد منا رأى مبرراً لذكر أن المكان كان قريباً من فلوريدا وأسرتي.

ثم قال: "من المحتمل ألا تحظى بذات القيمة التي كنت ستحرزها من بلوت، ولكن...".

لكن ذلك كان أكثر أمناً.

وفي وقت متأخر من تلك الليلة قصدنا المرآب وأزحنا بعض إطارات من السيارة وأخفينا كل المجوهرات. في اليوم التالي كانت السيارة على الطريق ثانية صوب جورجيا.

* * *

حينما وصلنا إلى أطلنطا، حجزنا في فندق صغير، ثم اتصلت بوسيطي وتركت رقم الهاتف ليعيد الاتصال بي. سيعاود الاتصال بي عندما يكون الوضع آمناً، وكان من الممكن أن يكون في ذات العصر أو ليس لبضعة أيام. ولأننا سنمكث بلا شيء نؤديه لبضع ساعات على الأقل، اقترح ويللينج الذهاب لتناول العشاء.

"هل عرفت أن كارل كوبولا لديه مطعم هنا؟" سألته.

"ذلك المهرب من فورت لوديرديل؟ لم أكن أعرف ذلك".

أكمن كارل الكثير من أرباح تهريب الماريجوانا في ناد لتقديم الرقصات الخليعة وسلسلة مطاعم تسمى جيللي، وقضى وقتاً طويلاً في أحد فروعه المذهلة شمال شرقي المدينة في روزويل رود بساندي سبرينجز. ذهبنا إلى هناك وكان أشبه بأسبوع من الأيام الخوالي. لأسلوبنا الذي كنا نتصرف به، كنت لتظن أننا كنا كأشقاء تائهين منذ زمن طويل أو ما أشبه. الألفة الحميمية المشتركة - حيث جميعنا محتالون ولصوص - والكثير من المشروبات المفضلة تعطي هذا الانطباع.

نعم، كنا جميعاً محتالين، لكن البعض منا كانوا محتالين أكثر من الآخرين. ربما كان الأمر كذلك أيضاً وقتها، لم أدرِ الكثير عن هوية كارل بالفعل، وإلا لكان محتملاً أن أتخير حانة أخرى لأتسكع بها. فما هي إلا بضع سنوات أخرى حتى أصبح موضوعاً لمحاكمة فدرالية أماطت اللثام عن إمبراطورية مترامية الأطراف تفوق أي شيء حتى إن كوبولا آخر - وهو فرانسيس فورد - عرضها على الشاشة في فيلمين بعنوان الأب الروحي (العرّاب)، باستثناء حقيقة أنها كانت صفقة بارعة ولكنها حظيت بإعجاب أقل.

كان جوي كام واحداً من ألطف الرجال الذين يمكنك الالتقاء بهم وكان ينفق المال بإفراط على الذين أحبهم. جعد الشعر ومتوسط الوزن والبنية، كان إيطالياً مهذباً لا يبدو عليه سوى تعبير وحيد وهو الابتسامة المرحة. من ناحية أخرى، كان كارل نحيل القوام مفتول الجسم وفي وضاعة الأفعى، رغم أنه كان دائماً لطيفاً معي وويللينج.

كـــان هناك آخران لم ألتقِ بهما من قبل. أحدهما كان أليكس بيسكوبيتي أحد أعوان كارل، وكانت صفاته تجعل كارل يبدو شخصاً مستقيماً. وكان مفترضاً أن بيـــسكويتي كـــان يعـــيش في سانت بيتسبرج في فلوريدا لكنه كان دائماً بصحبة كارل. وكان الشخص الآخر رجلاً يدعى جاري بيرس.

حجـــزت بالفندق الصغير بصورة دورية، لكن لم ترد لي أية مكالمات، لذا تـــسكعنا مـــع كارل ورفاقه. عقب عشاء ضخم انجذبنا تجاه البار وشرعنا في احتساء المشروب المفضل وترديد اللغو الفارغ عما كنا ننتويه. وبصورة حتمية تطرق الحديث في زمرة هذا الحشد إلى تهريب المخدرات. وفي تلك الدائرة كان كارل وجوي يحظيان بالكثير من الاحترام، فقد كانا يعكفان على هذه التجارة مـــنذ سنوات وكان لديهما من المال ما يكفي لملء قوارب لاستعراضها. وطفق جـــاري بيرس يحقق نجاحاً واعداً في ذلك المجال. عندما شاهد كيف كان كارل يعـــاملني وويللينج بمنتهى العطف، لا بد من أنه قد اعتقد أنها فكرة صائبة بأن يكـــون رفيق الحاشية معنا أيضاً وقام بدعوتنا إلى مزرعته على بعد عشرين ميلاً خـــارج أطلنطا. ذهبنا في اليوم التالي. كانت مزرعة ضخمة مترامية الأطراف وبـــدت كمكـــان لرعي الماشية (رعويّ) من غير الطبيعي لمحترف الإجرام أن يقضي بها وقته. قام بتقديمنا لأسرته، وبدا الأمر برمته كشيء أشبه بمسلسل آل والتون.

عندما عدنا أدراجنا إلى الفندق، كانت هناك رسالة هاتفية في الانتظار.

* * *

"إنـــك تخادعني مازحاً"، قالها ويللينج وهو يبطئ سير العربة في اتجاهي ممسكاً بالكـــابح. وعلـــى بعـــد بـــضعة أقدام (أمتار) كان هناك واحدٌ من أشهر متاجر المجوهـــرات سمعـــة في أطلـــنطا. كان ويللينج قد سمع بالمكان حتى عندما كان في أوهايو. "أهذا هو تاجر المسروقات؟"

لا أدري لـــمَ تعين عليه أن يكون مندهشاً؛ مع ذلك، إن متجر بلوت تومبا كـــان فخماً أيضاً. لكنه لا يضاهي هذا في شيء. بدا المتجر وكأنه واحد من تلك المحلات التي ستنعم ملكة إنجلترا بالراحة الوثيرة فيه.

وبحـــرارة رحـــب الجواهرجـــي بي، رغم أنه نعتني باسم مختلف. قدمت إليه ويللينج، ثم لوّح بيده تجاه مدخل داخلي قائلاً: "هلا ندخل؟"

اتـــسعت عيـــناه حين وضعت المجوهرات على مكتب مبطن. ولربما تظن أن الـــرجل سيحبس مشاعر إعجابه قبل بدء التفاوض، بيد أننا جميعنا كنا محترفين و لم يكن هناك أدنى منطق في محاولة التلاعب بإنقاص جودة ما أحضرته. وكان واضحاً أن الجواهرجـــي قـــد خاض مشاهد مماثلة لمرات لا تحصى وكان مدركاً للقاعدة الأصلية: لا تسل من أين أتى أي شيء.

"كـــيف يتـــسنى أنك لم تكسر هذه القطعة لأجزاء؟" قالها بينما التقط سوار منقوش بالماس وتفحصه بنظارته المكبرة.

أجبته "لم يبدُ متميزاً".

قـــال: "حـــسناً، بل هو كذلك"، ثم سلمني نظارة مكبرة أخرى. تفحصت السوار وفق ما حدد لي ما أتطلّع إليه.

قال: "كل تلك الماسات الصغيرة، ليست مجرد شظايا، من ذلك النوع الذي تنثره من أجل الاستعراض". استعان بمفك مصغر لإبراز بعضها. "كل جزء مقطوع بشكل جميل للغاية، وكلها تتخذ نفس الشكل. لا بد من أنه قد استلزم عدداً كبيراً مـــن العمـــال للعكوف عليه". توقف بينما تيقنت من صحة ما كان يخبرني به، ثم أردف قائلاً: "يا له من خزي أيضاً".

أدركت فوراً ما كان يقصده. طراز دقة الصنع جعلت من الخطر التعامل مع هـــذه القطعـــة، نظراً لتفردها وتميزها. ومع ذلك، حالما يتم تحطيم تلك الماسات المتناهـــية في الصغر من السوار، فإن قيمتها الخاصة ما كانت لتصل إلى ما تستحقه القطعـــة الموحدة المجتمعة الأجزاء. القيمة كانت تكمن في وضع الأحجار المتراصة، وفـــور تحطـــيم هذا، فكل ما كان يتخلف كان قيمة الماسات المنفصلة. بيد أنه لا شيء يستحق أن يتم القبض عليك.

أومأت بالموافقة وأعدت السوار إليه. "أيجدي نفعاً لو أخبرتك أنها وافدة من على بعد أكثر من ألف ميل؟"

"أحب أن أعاونك ولكن كلا". عرض بالسماح لي بالاحتفاظ بها دون بقية الأشـــياء، بيد أن ذلك كان ينطوي على مشقة أكثر مما كانت تستحقه، ومنتهى المخاطـــرة. أبلغته أن يعطيني سعراً واحداً للمجموعة كلها. وفضلاً عن عدم معرفة القـــيمة الحقيقـــية لتلك القطعة الواحدة - يظل المرء دوماً يتعلم - تقديري كان مقاربـــاً تمامـــاً للهـــدف المطلوب. قدم الجواهرجي عرضاً كان يبلغ حوالى خمسة وعـــشرين في المائـــة أقل مما طرأ في بالي. لذا أدركت أنه عقب بعض المساومات ســـأدنو من هدفي. طالما لم أكن أعلم بالقيمة الحقيقية لهذا السوار ولن أتمكن من أخـــذه بأيـــة طـــريقة، كنت في غاية السعادة بذلك وكنت مبتهجاً إبان الشراب المفـــضل المتلاحق الذي كان يقدمه الجواهرجي بكرم وسخاء. عندما انقضى كل هـــذا، اتفقنا على أنه سيحضر النقود لغرفة فندقنا في تمام الحادية عشرة من صباح اليوم التالي.

"أتريدني أن أحتفظ بها الآن" سألني.

لم يكـــن ســـؤالاً ساذجاً كما يبدو. كان شخصاً متمكناً راسخاً بمتجر ذي شـــرعية يقـــف بثبات منذ عدة سنوات، لذا كنت على يقين أنه لا يمكنه بسهولة الفـــرار. كما أنه كان أيضاً تاجر مسروقات محنك ذا نشاط مزدهر مثمر و لم يكن لـــيهدم كل ذلك فقط من أجل سلب عميل واحد. وفي كل عملية، تكون عمولة تاجر المسروقات ضخمة للغاية، ولذا ليس هناك حافز ضخم للسطو من الزبائن.

بيد أنني أبلغته بأنني سآخذ البضائع التي معي بأية حال. وكان هذا في الغالب للتـــيقن أنـــه لم يعتره نفور يدفعه للإبطاء. وكذلك في حالة حدوث شيء ما من ناحيتي واضطررت للفرار قبيل اللقاء. ولقد تفهم ذلك جيداً دون أدنى اعتراض.

بالسيارة في الخارج قال ويللينج "بدافع الفضول فقط: ماذا لو أتى بمبلغ يقل عن المحدد بخمسين ألف؟ هل ستتم الصفقة؟"

اســـتغرق ذلـــك مني بضع ثوانٍ للتفكير. كلانا كان يعلم أنني كنت بحاجة للنقود و لم أكن في وضع ملائم تماماً يسمح بالتفاوض.

"أجـــل"، قلـــتها في الـــنهاية وأومأ بموافقته. فلا يمكنك إظهار الضعف أو الإحـــساس باليأس لتاجر مسروقات. فإن ترسيخ سمعة بأنك شخص لا يستهان به

يستغرق منك سنوات لتأسيسه، ودقائق لتقويضه. أياً كان المضائق التي كنت أعاني منها وقتها، لم يكن سيئاً بما يكفي لفضح أية صفقات لاحقة.

ذهبـــنا إلى مطعم جيللي ثانية تلك الليلة. منتعشاً بفكرة أنني سرعان ما سأتخلص مـــن المجوهرات الهامة التي كنت أحملها وسأحصل على نقد سائل بدلاً منها، احتفلت بنـــشاط أكثر من المألوف وتبعني ويللينج. في الصباح التالي استيقظنا بالكاد قبل ثلث ســـاعة من وصول الجواهرجي إلى الفندق. كان هناك الكثير من الأشياء والعديد من النقود وكنا منهكين تماماً لدرجة أن الأمر استلزم منا نصف الساعة لخوض غمار هذا كله حتى تيقنا أننا قد سوينا كافة الأمور على أكمل ما يرام. حالما ذهب الجواهرجي، أطلق ويللينج زفرة طويلة، وتراجع على مقعده والتقط الهاتف.

قلت له: "هيا بنا".

"لِمَ لا نطلب الإفطار من خدمات الغرف؟" قالها وهو يلوح بالهاتف.

"سنخرج من الفندق" أبلغته، وبعد حوالى ربع ساعة كنا خارج ذلك الفندق وفي طـــريقنا لفندق آخر عبر المدينة. فلا يهم من الذي تتعامل معه، فإنك لا تعلم أبداً أين ومتى كانت تأتيك الخدعة.

* * *

تلك الليلة عدنا أدراجنا إلى مطعم جيللي. الآن حيث إننا قمنا بزيارة المكان مـــع جـــاري بيرس وعائلته، كان الأمر يبدو كما لو كنا عرفنا بعضنا البعض منذ عـــشر ســـنوات. كارل بدا مسروراً، وأحياناً أثناء احتفالات العشاء بالحانة، كان ينتحي بي وبويللينج عند مائدة هادئة بالخلف.

"لـــست متأكداً مما تفعلانه هنا"، قال ذلك ثم وضع يده واستطرد، "وأنا لا أبـــالي بـــذلك، لكـــن إن أتيح لكما بعض الوقت، أتراكما مهتمان بالقيام بعمل بسيط؟" كارل كان يعلم بهربي من فلوريدا ومحتمل أنه افترض أنني من الممكن أن أكتسب بعض النقود. رغم أنه توفر لي الكثير عقب بيع مسروقات بلير هاوس، لم يكن لديّ فكرة كم سيبقى هذا المال وإن كان سيتاح لي المزيد. لو بدأت مواردي تقـــل وازدادت الأمـــور تعقيداً أمامي في سبيل تحويل مسروقاتي إلى نقود سائلة، لوجدت نفسي أمام مأزق خطر. "ما الذي يدور في ذهنك"؟ سألته.

ورغــم ما فيه من مكر، كان حرياً بي تجاوز مثل هذا الطلب. فعندما تطرح ســؤالاً عــن فحوى الصفقة على شخص مثل كارل - وكانت بلا ريب ستتعلق بالمخــدرات - فقد كان من الصعب للغاية رفضها فور ما يطرحها. ويللينج أدرك كل ذلك ولكنه لزم الصمت وسايرني. "ليس بالكثير"، قالها كارل. "أمامي شحنة ضــخمة من الماريجوانا واردة لمطار صغير خارج المدينة. وأنا في حاجة للمعاونة في نقلها إلى بيرمينجهام. ولدي مشترٍ بالفعل".

أراد كــارل مــني وويللينج أن نساعد في تفريغ شحنة البالات من الطائرة لــداخل شــاحنة، ثم نتقدمهم كحراسة للسيارات بينما كان يقود الشاحنة كارل وأليكس إلى ألاباما. ويللينج سيكون في سيارة مؤجرة على بعد ميلين خلفنا، باحثاً عــن أي ســيارة شرطة تعبر الطريق خلف الشاحنة. سأتصدر المقدمة في سيارتي، مــتقدمهم بميلين تقريباً بحثاً عن الشرطة وأيضاً عن محطات الوزن المباحة. الثلاث مركبات كلها ستكون على اتصال دائم عبر اللاسلكي.

"ســتكون أيــضاً مؤازراً ريثما أتلقى نقودي من المشتري"، ألقاها كارل بطــريقة عرضية. سوف يمدنا بالأسلحة، البنادق الآلية المعروفة باسم (ماك - 10) والــتي تتسم بمقدرة في إطلاق ألف وستمائة رصاصة في الدقيقة، وكان مزهواً بــصفة خاصة بإبلاغنا أنه لم يدعمها فحسب بكاتم للصوت، بل إنها طراز ذو مرحلتين للإطلاق والذي تم حظر تداوله و لم يعد في الإمكان الحصول عليه. لم تكــن لديّ أدنى فكرة عما كان يتحدث عنه، ولكني علمت أن (ماك - 10) كان سلاحاً من الممكن القضاء به على قطيع من الأفيال. أولئك الأشخاص لم يمازحوا.

مقابل ليلة عمل ومائتي ميل قيادة سيحظى كل منكما بخمسين ألف دولار"، ضمها كارل في جملة واحدة.

الــصفقة كان بها كل ما كرهته في تنفيذ عملية سطو: المخدرات، الأسلحة، شركاء وشخص ما يحظى بالسيطرة على العملية واتخاذ القرارات.

"يبدو هذا جيداً لي" قلتها ونظرت إلى ويللينج.

"متى ننفذ العملية؟" سأله.

حسبما قلت، لم أكن مدركاً تماماً لمدى اتساع تعاملات كارل كوبولا حينما كنت أتسكع معه سواء في فورت لوديرديل وأطلنطا. أدركت أنه كان هدافاً ذا ثقل ومهرب مخدرات ناجحاً، بيد أني لم أعرف مدى ثقله. تبدل الأمر ليصبح واحداً من أعظم موزعي الكوكايين من الجنوب الشرقي إلى نيويورك. علمت بتلك الحقيقة بعد ذلك بفترة وجيزة عقب مصادرة مطاعم جيللي في ماريتيا وساندي سبرينجز بواسطة الحكومة الفدرالية عام 1986 بما فيها مصادرة لثلاثة ملايين وثلاثمائة ألف دولارٍ من أموال كارل وكل ذلك كان كجزء من اعتقاله وإحالته للمحاكمة بتهم مختلفة عديدة شملت الاتجار غير المشروع والقتل.

* * *

في الصباح التالي منحت ويللينج ثلاثين ألف دولار لمعاونته ومؤازرته مع تاجر المسروقات، وأوصلته للمطار لرحلته عائداً إلى كليفلاند. حينما كنت وحدي ثانية، لم أكن راغباً في شيء أكثر من التوجه جنوباً لأنعم بصحبة زوجتي وأبنائي. بيد أني كنت ما زلت شريداً مطارداً، وما زلت أقود السيارة الضخمة فورد التي تركها المهرب في مسكننا المؤجر في لايت هاوس بوينت، والتي كانت كلها محشوة بالنقود، و لم أعد أتمكن من الذهاب إلى فلوريدا بأمان. كل تلك النقود لم تزح عن كاهلي الألم ولو لهنيهة.

كان اتفاقي مع كارل أنني سألبث في أطلنطا وأن ويللينج سيكون على متن أول رحلة طيران من كليفلاند فور ما أتصل به وأبلغه أن الشحنة كانت في طريقها للداخل. بدا وقع ذلك سهلاً، ولكن البقاء في أطلنطا كان مهولاً بالنسبة لي. كل ما كان يشغلني بالفعل أن أبقى بعيداً عن الأنظار، وذلك لا يماثل بالضبط مداومتي على الانشغال. انتقلت لفندق صغير عقب مبارحة ويللينج وقضيت نصف الساعة في التآلف مع التخطيط، ثم تربّعت أمام التلفزيون. كل من عرفته كان منهمكاً طوال اليوم. سواء كان ما كانوا يؤدونه هاماً أم لا فقد كان ذلك خارج الصدد، وكانت المسألة أنهم كانوا يفعلون شيئاً ما وأنا لم أكن أعمل شيئاً. وجدت نفسي أكثر تطلعاً إلى الذهاب إلى جيللي ليلاً، أتسكع مع الفتيان وأنصرف إلى احتساء المشروب المفضل، وكنت طوال الوقت متجاهلاً مخاطر الافتضاح بهذه الطريقة.

وجوه جديدة كانت دائماً تنساب للداخل والخارج: أحدها كان لديّ مبرر خاص لأتذكره فكان صديقاً يدعى دانييل فورجيوني، حمو جوي كام. وبعد ذلك لاحقاً التقيت أيضاً بتومي بابانييه، أحد حراس كارل.

في نفس الوقت، عقب انقضاء بضعة أيام، كان كارل ليس لديه شيء قطعي لـيقوله عن الشحنة الواردة، وكنت بدأت أستشيط غضباً لحدٍّ ما. عندما تتسكع طـيلة النهار بلا أي شيء تؤديه، فمن السهل أن تتلهى بالغضب. بدا جاري بيرس أن يستشعر هذا وبدأ يثق بي ويحدثني عن بعض أمور كان يحاول مواصلتها. بداية اســتمعت إليه بأدب، ولكن كلما ازدادت الأيام التي انقضت بدون حدوث أي شيء يتعلق بصفقة كارل، كلما ازداد اهتمامي. بدا بيرس قد بدأ يعي ذلك وتحول بالـتدريج نحو محاولة دفعي للاضطلاع بجزء منه. كنت ضعيفاً أمام الاقتراح وكان هو مقنعاً للغاية.

عقـب انقضاء أسبوعين سئمت خلالها من التسكع. أبلغت كارل أنني كنت سـأعود إلى كلـيفلاند. قلت له: "وإذا حدث ذلك، يمكن أن نكون هنا في عشر ساعات".

قال: "يقيناً" وكأنه كان متوقعاً ذلك.

لم أرغب في ترك أي أرقام هاتفية، لذا اقترحت تدبيراً من شأنه أنني سأتصل بتلفون عمومي أمام جيللي كل ليلة في ساعة معينة.

أومأ موافقاً، ثم أردف: "لكن حادث بيرس قبلما ترحل".

"عن ماذا؟"

"إنه يرغب في محادثتك، لذا افعل ذلك".

كان الوقت حوالي الثانية صباحاً لدى جيللي. وكان بيرس ثملاً للغاية ولكنه بـدأ يسترد وعيه قليلاً عندما سألته لِمَ أرادني كارل أن أحادثه. "إنني سأرحل عن هنا في الصباح"، أبلغته.

قال: "الصفقة التي كنت أخبرك عنها، إنني في حاجة لمائتي ألف دولار لمواصلة العملـية. كـارل وجـوي نصيب كل منهما خمسة وعشرون ألف دولار وأنت

والرجل الآخر من كليفلاند ممكن أن تتحملا بذات النصيب. كارل يعلن موافقته. نصيبك النهائي سيكون مائتين وخمسين ألف دولار، أنت وصديقك لكل منكما".

كارل لم يتفوه لي بكلمة عن هذا، وأدركت أنه كان يتركني وويللينج ندخل تلك الصفقة كنوع ما من التعويض عن الصفقة الأخرى، والتي أخفقت على ما يبدو. بيد أنني كنت محذراً للغاية لاتخاذ قرار فوري، وأبلغت بيرس بأنني سأعلمه به.

قال: "إنني أسديك صنيعاً يا ماسون". "أحشو جيوبك بمال سخي. أعلمني بقرارك غداً".

عدت إلى الفندق، وحظيت ببضع ساعات من النوم ثم حزمت أمتعتي وتوجهت إلى كليفلاند بالسيارة. بعدما قدت السيارة متجولاً هناك لبرهة لأتيقن أنني لم أكن متبعاً، ذهبت لشقة ويللينج، وأبلغته عن الصفقة.

قال: "لم أقم بصفقة مخدرات من قبل، باستثناء تلك العملية مع كارل والتي لم تحدث".

أمكنني تمييز أنه يحاول حملي على اتخاذ القرار لكلينا. أحسبه كان يرغب أن أبلغهم مشاركته، حيث بدا واضحاً تماماً أنني رغبت في الاشتراك بها. وإن لم أكن أرغب فما كنت طرحت الأمر بداية. ربما باغته ذلك، لكنه ما كان يجب. بقدر ما كنت أكره فعل أي شيء له صلة بالمخدرات، ففي الواقع أنني كنت في تلك اللحظة أكثر إجراماً في الصميم عما كنت ذي قبل. قبل نشوب المتاعب في فلوريدا، كنت مجرد واحد من الجيرة ذي نزعة لاستيلاء المجوهرات بين الفينة والأخرى. لكني الآن كنت هارباً من القانون. كان عملي العقاري الناجح مجرد ذكرى، كما كان قدر احترامي. كنت بعيداً عن بيتي وعائلتي، أتسكع بصحبة لا شيء سوى اللصوص والمحتالين لأسابيع، مستمعاً للغوهم الذي لا ينتهي وأتردى بعمق أكثر وأكثر داخل أسلوب رؤيتهم للعالم. لم أكن في حالة عقلية تسمح برفض تحويل خمسة وعشرين ألف دولار إلى مائتين وخمسة وعشرين ألف دولار، ولا كنت أوشك على معاونة ويللينج لرؤية جانبي العرض بشكل متساوٍ.

"قلما أمكن القبض على أي أحد" أبلغته، وكان ذلك صحيحاً. ففي مقابل كل مهرب مخدرات، بائع جوال أو تاجر وسيط من هؤلاء الذين تم القبض عليهم، فهناك الآلاف من غيرهم لم يتم القبض عليهم. لم تكن فقط الوفرة الغريبة للمال هي التي جذبت الناس لتلك التجارة، بل كان الاحتمال الضئيل المثير للدهشة لإمكان إلقاء القبض عليهم. لا يمكنك إلقاء صخرة في جنوب فلوريدا بدون أن ترتطم بشخص ما الذي كان ضالعاً بطريقة ما في تجارة المخدرات المحرمة.

إن كان هناك أي عامل دقّ أجراس الإنذار في رأسي، فقد كان مرجعه أنني سأعمل مع شركاء، وهو ما يعد خرقاً لواحد من أهم مبادئي الأساسية. بيد أني لم أعد أعمل من مسافة ملائمة من سداد تفكيري السابق. كنت حانقاً على العالم، أعيش في خوف دائم من اكتشاف أمري وقد اعتراني السأم. وللوهلة الأولى، لا يوجد في رأيي ما هو أسوأ من تلك التوليفة القاتلة.

ويللينج، الذي كان متأهباً للمقامرة تقريباً بكل شيء أعطيته إياه لمعاونتي في بيع المسلوبات الخاصة بعملية بلير هاوس، سلمني خمسة وعشرين ألف دولار نقداً، وعدت أدراجي إلى أطلنطا. وصلتها متأخراً ليلاً، وقصدت على الفور جيللي وسلمت مبلغ الخمسين ألف دولار إلى بيرس. بعد ذلك، لم يكن أمامي ما أفعله بالفعل سوى الانتظار والبقاء على اتصال به. لم يكن لدينا أنا وويللينج مسؤوليات عملية كبرى؛ كنا ببساطة مستثمرَيْن سددا دفعة نقدية سخية مقدماً، وكل ما كنا في حاجة لفعله هو مدّ يد العون إن كان هناك أدنى خلل بالنظام في آخر لحظة، لذا تعين علينا البقاء في أطلنطا ريثما يتم تنفيذ العملية.

ويللينج وزوجته نانسي وصلا بالطائرة من كليفلاند، وبارب كانت ستأتي من فورت لوديرديل في غضون بضعة أيام. وبمجرد حصولي وويللينج على أموالنا، كنا سنتوجه نحن الأربعة إلى نيو أورليانز ونستمتع بالمعالم السياحية لبضعة أيام.

استمتع ثلاثتنا بوقت طيب في أطلنطا. نحن، وذلك شمل بارب أيضاً، تواءمنا بالفعل ونعم كل منا بصحبة الآخر. لكن عقب بضعة أيام، شرعنا أنا وويللينج في التوتر عصبياً.

"كيف يتسنى لشخص كهذا أن يحتاج إلى مائة ألف دولار ليبدأ بها عمله؟" سألني هذا ذات مساء، مشيراً إلى بيرس. "لقد شاهدت مزرعته ومشروعاته الأخرى. ففيم كانت حاجته إلينا؟ كان في إمكانه إتمام الصفقة بأكملها بنفسه ويحصل على صافي ربح بما يقرب من مليونين دولار".

حاولت أن أبث الطمأنينة في نفسه، بيد أنه كان سؤالاً بارعاً وجيهاً. أمكنني تلمس أين يمكن لكارل أن يسلط سطوته على بيرس في إلقاء حجر عثرة في طريقي، ولكن بيرس أخذ أموالاً أيضاً من كارل وجوي. قررنا الاتصال به.

أصر في كلامه أن: "هناك بعض عوائق طفيفة غير منتظرة" "لا شيء بذي بال، لكن اتصل بي في الثانية غداً. ربما أكون في حاجة إليك".

"فيم؟" سألته.

"وكيف لي بمعرفة ذلك؟ لو عرفت لأبلغتك الآن". وأغلق السماعة.

في اليوم التالي قصدنا مركز تسوق تجاري في أطلنطا. ذهبت نانسي بمفردها لبرهة، وفي تمام الثانية ذهبت مع ويللينج لتلفون عمومي واتصلنا ببيرس.

قال بيرس: "مشكلة صغيرة"، الطائرة القادمة من... بدأت رحلتها من كولومبيا ولكن... كان لا بد من أن تتزود بالوقود كما تعرف؟ لذا استقرت في مكانها بالطريق".

"أين؟" سألته وأنا ممسك بالسماعة من الجانب لأتيح لويللينج إمكانية سماعه.

"بمكان ما خارج جاكسونفيل على ما أظن". أجاب بذلك بيرس.

"أليس هذا المكان بالمحيط؟"

"أجل.. إنها طائرة بحرية. قوارب مسطحة".

"لا بأس، لكن من أين يصل إليها الوقود في المحيط؟"

"لا أعرف.. من القارب - ثمة قارب كان في انتظارها، القارب به الوقود".

"إذن ما هي المشكلة؟" سألته بينما بادر ويللينج بحركة استعجال بيده.

"المشكلة" أجاب بيرس. "أجل، نحن في حاجة لشخصين يستقبلان الطائرة وتفريغ الحمولة".

أنـــا وويلليـــنج تبادلـــنا النظرات الخاطفة؛ أترى بيرس قد فقد صوابه؟ "عم تتحدث؟" صرخت في التلفون "ألم ترتب لذلك الأمر؟"

"يقيـــناً، بالطـــبع باستثناء.. سأخبرك: الرجلان اللذان كانا من المفترض... الطائرة تأخرت بسبب إعادة التزود بالوقود. لذا فالأشخاص الذين كانوا سيقومون بتفريغ الحمولة...".

اســتمر حديثه على هذا النحو لفترة، وبدا لي وكأنه كان يختلق القصة بينما يمضي في سردها. وضعت يدي على السماعة وسألت ويللينج عما دار في خلده.

قال: "أعتقد أنك يجب أن تغلق الخط".

أومأت بالموافقة، ثم أزحت يدي من على موصل الصوت بالسماعة وقاطعت بيرس أثناء حديثه قائلاً: "سنعاود الاتصال بك. من الأفضل أن تصل لحل...".

قـــال وهو يكاد يصرخ: "كلا لا تغلق السماعة، انصت، ليس بأمر هام، كل ما علينا عمله أننا لا بد من أن...".

انتـــزع ويلليـــنج الـــسماعة مني ووضعها مكانها، ثم أشار لي أن نخرج من الكابيـــنة. حاولـــت أن أتلمـــس ما الذي تعنيه هذه المحادثة الغريبة مع بيرس لكن ويللينج اختصر ذلك على الفور.

قال: "لديهم قارب لإعادة التزويد بالوقود منتظراً في وسط المحيط. لذا فكيف يمكن أن يكون أمراً مفاجئاً أن الطائرة احتاجت إلى التزود بالوقود؟"

أحســـست بـــرعدة تنساب لأوصالي ثم أبصرت نانسي مقبلة علينا وتلوح. جذبت ذراع ويللينج وقلت: "لنتحرك بعيداً".

سرنا إلى الجانب الآخر من الممشى الفسيح وانحرفت نانسي لملاقاتنا. بينما توقفـــنا أمام المركز التجاري الذي يضم عدة شاشات عرض سينمائية، ترامى لأسماعـــنا جلـــبة واضطراب واستدرنا لنرى ثلاثة رجال يخرجون مسرعين من واحـــد من مداخل المركز التجاري ويهرعون تجاه كابينة الهاتف. ربّت ويللينج علـــى كتفي مشيراً إلى مدخل آخر. ثلاثة رجال آخرون كانوا يعدون من ذلك المـــدخل ويتوجهون صوب كابينة الهاتف أيضاً. كان كل الستة رجال يرتدون الجينـــــز الأزرق، وأحذيـــة جري وستَر خفيفة ونظارات شمسية. بينما تلاقوا

جميعهم داخل الكابينة ورأوا أنها كانت خاوية، شرعوا في النظر إلى ما حولهم في كافة الاتجاهات.

قلت: "هلموا لنشاهد فيلماً." وقبيل تلمس ردّ فعل نانسي، أخرجت محفظتي واشتريت التذاكر. تركت الأمر لويللينج ليفسر لزوجته بينما كان يدفعها مسرعاً للداخل عن سبب رؤيتي لفيلم مختلف عنهما. كلانا كان يعرف أنه يجب ليس فقط أن ننفصل وحسب ولكن أن نلزم أماكننا ريثما ينتهي عرض الأفلام.

عندما خرجت بعدها بساعتين، لم يكن العملاء في مكان ممكن رؤيتهم فيه. انتظرت ويللينج ونانسي وعدنا إلى الفندق لنغادره. استخدمت هاتف عمومي هناك للاتصال بكارل لتحذيره هو وجوي مما كان قد حدث.

عثرنا على فندق مختلف ودخلناه لتمضية ليلة ريثما وصلت بارب. ويللينج وأنا قبعنا بالداخل وحتى لم نستخدم الهاتف. خرجت نانسي لتسوق بعض الأطعمة، وفي اليوم التالي ذهبت نانسي وويللينج لاستقبال بارب بالمطار والتأكد من أنه لم يتعقبها أحد. انفتلوا مسرعين للوصول إليّ وتوجهنا إلى نيو أورليانز. بارب، باركها الله، لم تسأل عن مبرر عدم تدبرنا لاستقبالها هناك في المقام الأول.

التعامل مع كل هذه الأمور كان بارعاً بل وأيسر من التعامل مع باربارا. لم تكن أبداً سعيدة بعلاقاتي مع كارل، جوي وبيرس وهي تتسلل لزيارة زوجها الهارب بينما هو ما زال يتسكع مع الأوغاد مما جعل الأمور أشق عليها. حاولت جاهداً أن أسكن حدة التوتر في مناسبات منتظمة بتلاقينا في مدن أخرى بدون التطرق لذلك العنصر السلبي. وتلك الرحلة التي كنا بوشك بدئها الآن، عطلة أسبوعية طويلة المدى في نيو أورليانز بصحبة اثنين أحبتهما باربارا، كانت أفضل ما في الأمور قاطبة.

توقفنا في مونتجومري واتصلت بكارل. أبلغني أنه حادث بيرس، الذي أقسم أن هاتفه لا بد من أنه كان مراقباً. قال بيرس أيضاً أنه كان خائفاً من إدخال الشحنة.

قلت لكارل: "لغو فارغ. سرد لنا أكاذيب جمة عن كيفية تأخر الطائرة بسبب إعادة تزودها بالوقود في البحر. وبذل قصارى جهده ليحول دون إغلاقي السماعة وقطع مكالمته". كنت أعني ضمناً أن بيرس حاول كسب الوقت والإبطاء

لاقتفاء أثرنا، مما كان السبيل الوحيد لتمكن العملاء الفدراليين من الوصول إلينا في كابينة الهاتف العمومية.

وافق كارل على احتمال اشتراك بيرس الضالع في هذا، ولكن جوي كام لم يبدُ مقتنعاً بهذا. في غضون بضعة الشهور التالية اتصل بويلينج مرتين أو ثلاث أسبوعياً ليتمكن مني. في كل مرة أجبت اتصاله، حاول جوي أن يقنعني بمعاونة بيرس في إتمام صفقته، وكذلك مع مجموعة الأفكار الأخرى التي طرحها جوي. ولكن ويلينج وأنا كنا في غاية الدهاء والحذر في هذا الصدد، رغم أنه لو كان طلباً بالذهاب إلى أطلنطا لأخذ المال الذي وعدنا به، فربما كنا أقدمنا على ذلك.

في وقت ما لاحق رددت اسم بيرس لكارل ثانية، وللمرة الثانية شاب صوته بعض التحفظات. وقال: "شيء ما بشأنه ليس سليماً، الشيء الوحيد هو أنني لا أعرف ما هي لعبته، أو إن كانت لديه واحدة فعلاً".

لعبة بيرس كما اتضح لاحقاً، كانت الوشاية لحساب إدارة مكافحة المخدرات. بصراحة أمكنني استيعاب مبرر رغبة إدارة مكافحة المخدرات في السعي وراء حوت ضخم مثل كارل كوبولا وجوي كام، ولكن ما كان الهدف من وراء جذبي وويلينج في مضمار العملية؟ وإلى الوقت الذي أقنعنا فيه بيرس بالمشاركة فيها، لم يكن أحدنا متورطاً، على الأقل في نطاق اهتمام الفدراليين. لم أكن محامياً، بيد أن ذلك بدا لي مطابقاً لتعريف كلمة شرك. إن لم يكن بسبب واشٍ يحثنا بنشاط للمشاركة في عمل إجرامي ويغوينا لقبوله، فما كنا لنصبح متورطين في هذا.

حمداً لله إذ لم يلج أحدنا في متاعب بهذا المضمار، رغم أن كل منا خسر خمسة وعشرين ألف دولار. أحسب أن ذلك كان ثمناً عالياً إلى حدٍّ ما ندفعه لقاء درس كان يجدر بي تعلمه بالفعل، ولكن هذه المرة تلقنته تماماً. فقد عزمت على عدم العمل مع شريك قط مرة أخرى.

وأيضاً توصلت لقرار هو أن أنأى بعيداً عن مضمار المخدرات وعن كارل كوبولا. بيد أن اسمه سيجيء مرة ثانية في حياتي وليس مثيراً للدهشة، إنه سيفضي بي لغمرة المتاعب مجدداً.

* * *

انعقدت محاكمة كارل عام 1987 واستمرت لأربعة عشر أسبوعاً. جاري بيرس، واشي إدارة مكافحة المخدرات، كان واحداً من الشهود الأساسيين ضده. وسط قائمة الادعاءات الطويلة التي ساقتها الحكومة كانت ادعاءً يتعلق بسوء تفاهم نشب بين كارل وجوي كام.

كان قد رحل كارل إلى نيويورك ليستأنف في قضيته لجريمة قتل عائلة جامبينو، ولكن جوي على ما يُعتقد اتخذ سبيلاً مختلفاً لتعظيم مركزه التفاوضي: هو وحماه دانييل فورجيوني قاما بخطف كارل وقيدا وثاقه وخدراه زهاء الأسبوعين. لهدف ما اعترى قلب جوي العطف وأطلق سراح كارل. في أيار/مايو 1983 عثر على جوي وفورجيوني قتيلَيْن في فورت لوديرديل بطلقات نارية في الرأس. وأحالت السلطات الفدرالية كارل وموظفه السابق وحارسه الخاص تومي بابانييه للمحاكمة بتهمة القتل. أنكروا التهمة وصوبوا أصابع الاتهام ناحية أليكس بيسكويتي.

مساعد المحامي العام بالولايات المتحدة جيم ديشيرت كان لا يلين في مقاضاته لكارل. أبلغ المحلفين أنهم يجدر أن يأخذوا في الاعتبار ملياً أن مستر كوبولا هو الزعيم الرئيسي لتجارة المخدرات، والمسؤول عن جريمة القتل أيضاً". قام بممارسة الضغط على تمثيل رئيس المكتب التنفيذي لشركة كبيرة، ما أن كارل قد حشد طاقم الموظفين العاديين بسفاكين والتي كانت أدوات تجارتهم مدافع رشاشة، مسدسات، وبنادق رش مبتورة الأنبوب. وسيلتهم في إنهاء خدمة موظف ما كانت في تصفيته جسدياً، كما كانوا قد اغتالوا جوي كام.

فريد حداد بذل قصارى جهده دفاعاً عن كارل، مجادلاً أن القضاة الفدراليين المتحمسين قد تسلطت عليهم فكرة القضاء على كارل عقب قضاء ثلاث سنوات من استجوابه حيث أبرموا الاتفاقيات مع شهود الحكومة للحصول على شهادة مدمرة ومثيرة للريبة. عشرة من أولئك الشهود كانوا متآمرين ضد كارل، والذين إما أنهم حظوا باعتبار خاص حيال قضاياهم أو مُنحوا حصانة كاملة تامة.

حاول فريد إقناع المحلفين أن أليكس بيسكويتي هو الذي اغتال جوي كام ودانييل فورجيوني. كان دفاعاً قوياً وحيوياً، بيد أنه تم إدانة كارل على أية حال،

ومــدة العقوبة لم تكن أفضل حالاً من المحاكمة: حكم عليه بخمسة وخمسين عاماً. مـا زال فريد عاكفاً على التماسه وآخر ما سمعته، أن كارل حالياً مساعد القس بإصلاحية تهذيب فدرالية في فلوريدا.

أمـا سبب علاقة كل ذلك بي، هو أن بارب تتبعت المحاكمة عبر الصحف، كمـا فعل ذلك الجميع في سان بيلت. وحيث لم تكن الأخبار مغطاة على مدى واسـع الـنطاق في ميدويست، أرسلت لي قصاصة عن حكم العقوبة. بعد ذلك بـسنوات وحيـنما أُلقـي القبض عليَّ ثانية، عثرت القوات الفدرالية على هذه القصاصة وسط أوراقي وقاموا باستجوابي بشأن مصرع جوي. وظنوا يقيناً أنه كان لي يـد في ذلـك، أو على الأقل قالوا زعمهم هذا، واستخدموا الإمكانيات لدعم قضيتهم ضدي.

16

جنون القلق

بقيت على اتصال دائم مع ويللينج. كم كان سنداً مؤازراً لي في حياتي.

كان بيل واحداً من أولئك الوحيدين الذين عرفتهم والذي نادراً ما حاكمني ولكن تقبلني كما أنا ببساطة. يقيناً كنت أنعم بحب والديّ، وكذلك باربارا وخالتي، ولكن القول بأنني نلت عدم استحسانهم المستمر كان قولاً لا يرقى إلى مستوى الحقيقة. لا أقول إنهم قد جانبهم الصواب (كانوا مخطئين)، بل مجرد أنه بمكان ما في خلفية ذهني، كل تفاعل بدا أنه يحصل على درجة معينة تستند إلى مدى نقائي إبان تلك الفترة. أي أن "قبولي" لديهم كان شيئاً متغيراً.

كنت ألقى قبولاً دائماً من ويللينج، بغض النظر عن سوء ما اقترفته. ذلك الأسلوب الذي أحكم إتباعه. فور ما يقرر أن شخصاً ما كان صديقاً، بدا متوقفاً عن إصدار الأحكام ضدك ومن وجهة نظره فإنك لا تقترف خطأً أبداً. قطعاً، إلا إذا كان الخطأ موجهاً ضده. ويللينج لم يتقبل الخيانة بليونة، ربما لكونه في شخصه وفياً لرفاقه لدرجة أنها كانت صدمة مباغتة متى انقلب ضده شخص ما. وفي المقام الأول، كان أمراً غامضاً أن يرغب أي شخص في أن يخدع شخصاً على هذا القدر من الولاء الشخصي، ولكن العالم، ولا سيما الدوائر التي ترحلت فيها، كانت مفعمة بغموض كهذا.

ورغم الفوضى والاختلاط في مرحلة شبابنا، تلك الأيام المضللة - شاهدته ذات مرة يرفع رجلاً ويلقي به من خلال نافذة حانة - ويللينج أساساً ضخم الجثة طيب القلب. متآلف وعاشق للمرح، طراز الشخص الذي يقتنص أقصى ما يمكن

من حياته، يعشق وجوده ضمن صحبة الناس وبصفة خاصة مولعاً بالحفلات العائلية مـــثل الزفاف. يمكنه الرقص وملاعبة الأولاد، وإطلاق النكات والشدو لساعات متواصـــلة، كما أنه واحد من أكثر الرجال الذين عرفتهم قناعة. وهو أيضاً الأكثر جوداً وسخاء...، لم يكن غير مألوف على الإطلاق أن يقضي شهراً ليعاون صديقاً على إعادة بناء مطبخٍ أو مزاولة بعض المشروعات الكبرى كهذه.

أولادي كانوا بالفعل مولعين به عندما كانوا ينضجون وما برحوا كذلك. إنه واحد من تلك الأصناف النادرة من الرجال التي تجعلك تشعر وكأنه لا شيء آخر في الكـــون عندما يخاطبونك. أمي وخالتي ووالدة بارب جميعهن يعشقن أن يكون بصحبتهن؛ كان يرقص معهن ويجعلهن يشعرن بالتميز بأساليب عديدة.

على العموم، ليس ذلك سيئاً للص بنوك. مع الضجر الذي كنت أعانيه، إلا أنني كنت محظوظاً ومميزاً أن أحظى به كصديق.

جـــون، شـــقيق ويللينج، كان صديقاً رائعاً أيضاً، وسمح لي "بسلب" هويته. وســـرعان مـــا حصلت على رخصة قيادة، بطاقات ائتمانية، جواز سفر وبطاقات عمـــل وســـائر الأمـــور الأخرى التي تحدد هويتي كجون ويللينج، كاملة بالصور الفوتوغـــرافية. لـــيس ذلك في صعوبة ما يبدو عليه، بيد أن ذلك تطلب أن نلبث كلانـــا أنقـــياء السيرة. لأنه لو وقع أحدنا في غمرة المتاعب وذاع اسمه عبر أجهزة كمبيوتر السلطات القانونية، فمن الممكن أن تزيد الأمور تعقيداً بشكل مهول على الطـــرف الآخر. فتحت حساب مصرفي في أطلنطا أيضاً، وسجلت السيارة باسمي الجديد، وما زلت كرئيس للهيئة التي امتلكت السيارة.

نـــادراً مـــا مكـــثت في مكان واحد أكثر من بضعة أيام، ولا يزيد أبداً عن أسبوع. بقيت غالباً داخل وحول منطقة أطلنطا العظمى، ولكني سافرت أيضاً من وإلى كليفلاند، عادة عندما كانت خالتي خارج المدينة كي يمكنني استخدام شقتها. أحـــياناً كنت أجد نفسي منجذباً بدون مبالاة تجاه الجنوب، لذا رسمت خطاً على خـــريطة الطريق وقطعت على نفسي وعداً أنني ما كنت أذهب إلى أسفله. كل ما يتحرك حولي كانت وطأته قاسية عليَّ. وأيضاً مثير للدهشة كما يبدو، كنت دائماً محـــباً للحـــياة العائلية من صميم وجداني. عشقت أن أحظى بمنـــزل جميل، مريح

مثير، بيئة مستقرة والتي من الممكن العودة إليها دائماً بغض النظر عن أي شيء آخر كان يحدث.

حيـــنما أبلغت ويللينج برغبتي في رؤية أولادي، تفهم ذلك، و لم يبالِ بمحاضرتي عن مدى ما انطوى عليه الأمر من خطورة. فقط عاونني في تدبر الخطط اللازمة.

أبلغته: "لا بد من أن أذهب إليهم. لو حملتهم بارب داخل السيارة وغادرت للقـــدوم إليّ، سيرون ذلك وربما يتتبعونها. ولكن لو أمكنني تدبر التسلل إلى هناك بطريقة ما، فربما لا يدركون حدوث أي شيء".

ويلليـــنج وزوجته وزوجان آخران أعدوا لقضاء إجازة في فلوريدا. استأجروا شـــقة علـــى بعد ميل شمال مسكني، ثم قاموا بزيارة بارب واستدانوا واحدة من سياراتي. في اليوم التالي قدت سيارتي متوجهاً لشقتهم والتي كانت تقع في الشارع 48 وعلـــى الطـــريق العلـــوي الفدرالي في كورال ريدج وأوقفت السيارة خلف العمـــارة. التزم ويللينج بالخروج بها يومياً كي لا يظن أحد أنها مهجورة، وهو أمر شـــائع لحدٍّ ما في جنوب فلوريدا، حيث يبتاع المهربون سيارة لاستخدامها لبضع ساعات ثم يتركونها في مكان ما.

أوصـــلني ويللينج بسيارتي إلى مسكني وأنا قابع بالمقعد الخلفي. تواريت على أرضية السيارة الخلفية بينما دنونا وانتظرت ريثما وصلنا المرآب قبل الخروج.

كـــنت في غاية السعادة برؤية بارب والأولاد. لم أتمكن من التحدث بصورة صـــحيحة في الدقـــيقة الأولى أو ما شابه. لبثت عدة أيام، و لم أبرح المنـــزل أبداً. داوم الجميع على اتباع روتينه اليومي الطبيعي خشية أن يثير ذلك الريبة، وانقضت تلك الأيام القلائل الرائعة بلا أي عارض.

حـــتى إن سوزي ألغت موعداً لتبقى معي في المنـــزل، والذي ربما يعد أكبر تضحية يمكنك تقديمها متى تكون في التاسعة عشرة.

أخـــيراً، في اليوم الخامس، سكبت الشراب لويللينج ولي وقلت: "حان وقت الذهاب".

لم أفكر أساساً في طول الفترة التي يمكنني قضاؤها. أعتقد أنني وثقت بنفسي وجدانـــياً لمعـــرفة متى كان الوقت صائباً. و لم يجادلني ويللينج الآن. عكفت على

احتساء المشروب المفضل طويلاً، وعندما دخلت بارب غرفة المعيشة بعدها ببضع دقائق، أدركت على الفور بأنني كنت مزمعاً على الرحيل.

"ماذا يجري؟" سألتني.

قلت لها: "ربما لا شيء، سيارة أو اثنتان من سيارات الشرطة في المنطقة أكثر من العادة خلال اليومين أو الثلاثة الماضيين".

"لكن ربما". شرعت في القول.

"أجل، ربما"، قلتها بشدة أكثر مما انتويت، بيد أني لم أرغب في مناقشة الأمر. لقد غادرت فنادقَ فقط لأن خادمات الغرف كن ينظرن إليّ بشكل غريب. "ليس أمامنا سبيل للمعرفة، رغم ذلك".

"متى؟"

"الآن، إنك في حاجة لتوصيلي للشقة".

"والأولاد؟"

"ستقرأينهم تحياتي ووداعي نيابة عني".

غادر ويللينج أولاً، ثم بارب وأنا بعد بضع دقائق. فلو كان يتعقبنا أي أحد، كان ويللينج سيحوّل انتباههم. كان آمناً لأنه لم يحرر ضده إنذارات أو طلبات حضور بارزة، وبالتالي كان مجرد مواطن شريف آخر. على الأقل على السجلات.

القيادة لشقته كانت مقهرة ومربكة لبارب وأنا. لم يكن ثمة ما يقال. لم أدرِ متى سأعود، ولم أكن حتى موقناً بالضبط من وجهتي. الأولاد كانوا أقوياء وبذلوا قصارى جهدهم للابتهاج، وذلك التحمل للألم والصبر عليه زاد من إحساس بارب بالألم في قلبها. ذلك لم يشعرني بأي تحسن أفضل لإدراك أن سبب كل هذه الآلام القلبية كان من جراء غلطتي.

ودعنا بعضنا البعض في السيارة على بعد بضع عمارات من مسكن ويللينج، وقادت السيارة حالما خرجت منها. ذهبت للخلف حيث كان ويللينج في انتظاري بساحة الانتظار (الموقف). لا أتذكر كم من الوقت أمضيناه معاً هناك، أو ماذا قلناه، لكن سرعان ما كنت خلف عجلة القيادة متوجهاً شمالاً

ســالكاً الطــريق 95-1. الخطة كانت أن تتوجه بارب مباشرة للمنــزل وأن أتصل بها حالما كنت خارج بروورارد كاونتي. لو نجحت في ذلك، فلربما سأكون على ما يرام.

وصلت لحدود بوكا راتون وعثرت على هاتف عمومي. لم يكن هناك مجيب بالبيت، لذا تريثت خمس دقائق واتصلت ثانية. ما زال دون إجابة. لم يكن بحوزتي رقــم هاتف شقة ويللينج، لم أستخدم هاتف منــزلنا وبالتالي لم أشغل بالي بمعرفة رقمــه. لم يكن هناك آخر يمكنني الاتصال به وكنت أشرع في القلق، لأن بارب كانت جديرة بأن يُعتمد عليها كشروق الشمس.

لا بــد من أن هناك شيء ما غير سليم في الأمر. ما كان يجب أن أعمله كان المواصلة والمحاولة ثانية فيما بعد، لأنه حتى لو ألم خطب ما، فماذا كان في الإمكــان فعله حيال هذا؟ كحل وسط مع ذلك، استدرت وقدت عائداً تجاه شــقة ويلليــنج، ظانــاً أنني سأستعين به ليقلني إلى شقتي ونرى ما الذي كان يحدث.

وصــلت عند الحدود عند جادة ويست كوميرشيال وتوجهت شرقاً. وبدافع مــن حاستي الفطرية قررت ألا أقرب الشقة مباشرة ولكن بدلاً من ذلك قصدت طيلة الطريق رقم 1 ثم مررت جنوباً بمستشفى هولي كروس حيث تمكنت من رؤية المبنى جيداً. كنت ما أزال على بعد نصف ميل حينما عاينت المتاعب: كانت هناك ســت سيارات مجتمعة بشارع ن. إي. مبنى رقم 46 على بعد مبنيين من المسكن. كلــها كانت طراز أولدزموبيل القديم العادي، وكانت في منتصف الشارع. كان الــناس يختــلطون ببعــضهم البعض، وبالتالي اقتربت أكثر، أبصرت العديد منهم يــتحدثون عــبر هواتفهم المحمولة. ربما كان مدوناً أيضاً كلمة "الشرطة" باللون الأصفر على ظهورهم.

لاحظــت ســيارة في وسط المجموعة بدت وكأنها محاصرة هناك، وبمجرد ما مــررت بهــا رأيت أنها كنت سيارة بارب. العديد من قوات الشرطة نظرت في اتجاهي بينما انطلق نفير سيارة، واستغرق مني ذلك لحظة لأدرك أن شخصاً ما كان يطلق نفيره لي لأنني انحرفت لداخل الحارة التالية.

رغم الارتعاد من الصدمة المباغتة وثورة الغضب، أعدت انتباهي بالقوة صوب الطريق وسرعان ما خرجت من طريق 1. تمكنت في النهاية أن أقف خلف العمارة السكنية دون اختراق مجال إبصار الشرطة.

صـــعدت لشقة ويللينج. كان فزعاً لرؤيتي عند الباب ولكن سرعان ما خطى للوراء وسمح لي بالدخول.

"ماذا بحق الجحيم..؟" شرع في كلامه بينما أوصد الباب ورائي. أبلغته بما قد رأيته، مما كان كله أنباءً جديدة عليه "لا بد من أن تذهب لمعاينة ما يحدث"، قلت ذلك. أومأ بالموافقة، واستل نظارته الشمسية وتركني نهباً للجنون المطبق المصحوب بقلق بينما خرج للتحقق من الأمور. عاد بعد حوالى ثلث ساعة.

"بارب جالسة في المقعد الخلفي لسيارة شرطة مُطارِدة (مُطوِّفة)"، أبلغني هذا، ثم رفـــع يـــده ليدرأ السؤال التالي الواضح "لم يكن حادثاً، أعرف ذلك، ولكن ما كـــان أحـــد من الشرطة ليقول أي شيء عن ذلك. كلهم واقفون فقط بالقرب، والبعض منهم مشهراً سلاحه".

جلـــست على أريكة غرفة المعيشة. كنت واقفاً طيلة الوقت دون إدراك هذا. "لا بد من أن الأمر له صلة بي". حاستي كانت صائبة مع كل هذا، طرأ شيء ما. لـــو تم إلقـــاء القبض على بارب ربما كان لإيواء هارب. أتراهم تعقبوا أثري طيلة اليوم ثم تاه عنهم الأثر في مكان ما؟

قـــبلما أكـــاد أجلس على الأريكة، وقفت وتوجهت صوب الباب. سألني ويللينج لأين كنت ذاهباً.

"لا بد من أن أخرج من هنا".

بـــدا ذلـــك مـــثيراً لدهشته في البداية، مظهري في التخلي عن زوجتي إنقاذاً لحياتي، ولكنه كان رجلاً ذا دراية وفطن واستغرق منه الأمر بضع ثوان ليدرك مبرر التزامي بالرحيل. "أجل"، قالها، ثم سار بي تجاه الباب. "بدونك لن يتوافر لديهم أي شيء يحملونه على بارب".

يـــبدو أن ذهـــني ينشط أفضل تحت وطأة الضغط وبدا الموقف كله واضحاً أمامي. كل ما قد أتمكن من عمله لو حاولت "معاونة" بارب كان إيصالها لمتاعب

أعمـــق. لو أبصرتنا الشرطة نحن الاثنين معاً، فذلك سيقوي ويدعم قضيتهم ضدها لإيواء هارب. ويقيناً سينالون مني. شيء واحد فقط كان مؤكداً: لم يكن هناك أي سيناريو يتصوره العقل يمكنني بمقتضاه إخراج بارب من سيارة الشرطة. ذهابي إلى هناك الآن سيزيد كل شيء سوءاً.

قال ويللينج: "ماذا سأفعله هو أن أتصل براي ليعرف ماذا يجري. ثم سأذهب لمناوشة الشرطة، وأسألهم عن مبرر احتجازهم لصديقتي".

كـــنت سأشـــرع في قول شيء حينما ترامى لأسماعنا طرق على الباب. رفع ويللينج إصبعه ليلزمني الصمت وذهب لإجابة الطارق.

استرقت السمع من المطبخ بينما كان يسأل عن الطارق.

وردت الإجابة "الشرطة. أيمكننا محادثتك للحظة؟"

وردّ ويللينج، "عن ماذا؟"

"عن متهم". وافوه بالإجابة، وتجمدت أوصالي.

اقتـــرب ويللينج من مدخل باب المطبخ وأشار تجاه السقف ثم تجاه البهو. لم أكن موقناً مما كان يقصده ولكني مضيت بأية حال، ثم أبصرت مجموعة من الدرج تفـــضي لأعلـــى. قاعدة قديمة هي متى كنت مطارداً ألا تعدو لأعلى أبداً، ولكن ويلليـــنج كـــان يعرفها أيضاً مثلي، إذن لا بد من أن لديه مبرراً في ذلك. صعدت لأعلى الدرج بينما سمعته يطلب رؤية بعض أوراق إثبات الشخصية مما جعل رجال الشرطة يقضون وقتاً عصيباً.

مؤكد تماماً، أنه كان هناك مدخل خلفي بالطابق الثاني. درج الخدم كان مهجـــوراً، لـــذا نـــزلت عليه وسرت عبر ممر ضيق إلى حيث كانت السيارة واقفـــة. لم يـــبدُ أن يكـــون هناك أي نشاط وكنت أتحرك حثيثاً، لذا لم يكن هـــناك ســـبيل للتوقف دون أن يبدو ذلك مريباً عندما انطلقت لداخل ساحة الانـــتظار في الوقت الذي أرى فيه شرطيين يقفان بجوار سيارتي تماماً. أحدهما كـــان يـــتحدث بجهـــازه اللاسلكي، وكانا ينظران مباشرة لي. لم يكن أمامي اختـــيارات كثيرة هنا. الركض كان حماقة ووضعاً خطيراً. كانت الشرطة تعم المكـــان بأســـره، ومـــا كنت قط أفلت وربما أصبت بعيار ناري إزاء متاعبي.

وربما أدخل ويللينج وزوجتي في غمرة المزيد من المتاعب بل وأكثر مما يعانونه بالفعل.

أدركت أنني أسرعت الخطى فعلياً في الوصول للزاوية البعيدة عن الممر، ولم يكن ذلك ردّ فعل غير طبيعي لمواطن أمين يحل بشرطيين دونما توقع. لذا استأنفت السير ببساطة.

لم يحركا ساكناً سوى مراقبتي بينما اجتزهما، ولكن كان لا يزال واحدٌ منهما يتحدث لاسلكياً. من الممكن أنه كان يطلب قوة معاونة، لأنه مع كل تلك القوى البوليسية الأخرى في المنطقة، فلِمَ المخاطرة بمحاولة اعتقالي بشخصين فقط؟ ربما قاما بأداء عملهما اليومي. وسمعا من قسم شرطة فورت لوديرديل أن شخصين يحاولان إلقاء القبض عليَّ بنفسيهما ليست بفكرة صائبة. (في الواقع، ذلك كانت تهمة جنائية غير منصفة وكانت مبنية على حدسهما بشأن قوتي البدنية بيد أنني قط لم أقاوم أية مرة تم اعتقالي فيها).

كان من المحتمل أيضاً أنهما لم يكونا متيقنين من شخصيتي. هذان الرجلان لم يكونا من بروورد كاونتي وربما لم يألفا وجهي باستثناء من صورة المجرم المشتبه به. سيقومان باستدعاء شخص ما آخر للموقع ويمدهما بمواصفات شخصية في ذات الوقت.

أياً كان السبب، فقد كانا ملتزمين الصمت. كان هناك حديقة تحوط شقة على بعد بضع ياردات (أمتار)، وسرت خلال المدخل الخلفي صاعداً للطابق الثاني وألقيت بسترتي. كانت أكثر الأشياء التي كنت أرتديها تميزاً وستكون أول شيء سيبحثون عنها. اجتزت المدخل الأمامي، ثم سرت داخل وخارج بنايتين آخرين ثم دلفت للثالثة.

كنت ما زلت بشارع (ن. إي. الثامن والأربعون)، ومن نافذة الدرج أمكنني رؤية رجال الشرطة وهم يغمرون أرجاء المكان، حوالى ثلاثين أو أربعين منهم ولم يعد يقف منهم واحدٌ على قُرب. كانوا لا يقر لهم قرار، رغم أن ذلك لم يبدُ منسقاً للغاية. لم يتبقَّ لي المزيد من البنايات السكنية، واضطررت للخروج في عجالة. لو تعقبوني بينما كنت بالداخل، لانقضى الأمر برمته. مثل تلك البنايات

كان من الميسور تماماً على الشرطة تأمينها. كان في إمكانهم تطويق بناية تماماً وما كان ليصبح هناك منفذ للهرب.

اضـــطررت لعـــبور الشارع بطريقة ما، ولكن من ممر الدخول لبناية أمكنني رؤية مخبريْن، وأسلحتهما مشهرة، واقفين منتصبين في الوسط. كانا ينظران بانتباه شديد تجاه شقة مسكن ويللينج، والتي كانت مواجهة لحيثما كنت. الشيء الوحيد الذي أمكنني عمله كان السير خلفهم بحوالى عشرين قدماً (6 أمتار) وأتمنى لو أنهما لم يـــستديرا. هـــذا كان سيصبح أسوأ من تحركي الوئيد قدماً لحافة أرماند هامر الـــزلقة، لذا لم أرغب في قضاء المزيد من الوقت مفكراً في ذلك، ودخلت فقط في الشارع وشرعت في التحرك.

في البداية داومت على رصد عينيّ على مؤخرة رؤوسهم، ثم أدركت أن هذا لم يكـــن منطقياً. سيبدو ذلك غير طبيعي لأي شخص آخر كان يرقب هذا، وما الجـــدوى التي ستعود عليَّ في معرفة إن كانوا عرفوني؟ لذا أشحت ببصري للأمام وسرت أكثر طبيعية قدر الإمكان. بتلك الطريقة، حتى لو كانوا أبصروني، فكانت ثمة فرصة ضئيلة في احتمال عدم إيقافي. كان هناك المزيد من ضجيج المرور المنبعث من روت 1، لذا فربما لم يسمعوني.

سلكت طريقي للجانب الآخر و لم يلتفت المخبران أبداً.

* * *

كـــان لا يـــزال هناك العديد من رجال الشرطة لأحاول مبارحة المنطقة، لذا اجتزت روت 1 وسرت داخل مستشفى هوللي كروس. صعدت عدة درجات من السلم ووجدت نافذة ضخمة بمنظر آسر لساحة الانتظار (الموقف) والباب الخلفي لـــشقة ويلليـــنج ولفيف من سيارات الشرطة المجتمعة. استدرت للخارج وسرت لـــداخل ردهة رعاية الأمومة. أشعلت سيجارة و لم أضطر للتظاهر بالعصبية حينما أقبلت ممرضة لتسأل عمن أتيت من أجلها.

اســـتغرق ذلـــك مني بضع ثوان للتخطيط لهذا. قلت وأنا أرتعد: "زوجتي. زوجـــتي.. اتصل بي صديق" أخذت نفَساً عميقاً من السيجارة ونفثت سحابة من الدخان الضار في اتجاه الممرضة. "إنها في طريقها إلى هنا".

أبعدت الممرضة الدخان عنها بغضب ومضت في طريقها. وذاك كان يماثل تماماً ما رغبت أن تعمله. ذلك كان الوقت الذي أدركت فيه أن التلفزيون في غرفة الاستراحة كان محولاً على محطة محلية وكان يبثون تقريراً عن نشاط البوليس في كورال ريدج.

"سمعت أن قوات الشرطة تبحث عن متهم، وهو ذكر أبيض يبلغ حوالى ستة أقدام (180 سم) طولاً، وله شارب وذقن مشذبان بترتيب، ويرتدي سروالاً بنيّاً وسترة بيج".

كانت الأمور تقريباً تزداد وطأها. لم يمكنني البقاء في تلك المستشفى للأبد ولم أرغب أن أقع في الشرك داخل مبنى بأية حال، ولكني أيضاً لم أرغب في المضي حيث إن رجال الشرطة كانوا يقررون الاتجاه للمناوبة في شارع مختلف ليستأنفوا بحثهم. لذا لبثت عند النافذة في هذا الوقت.

مما يثير دهشتي، بعد أقل من دقيقتين رأيت سيارة بارب تسير بعيداً. بينما انعطفت للزاوية بشارع روت 1، رأيت أها كانت على عجلة القيادة، وبمفردها. ماذا كان يحدث هنا؟ بعد بضع دقائق بذلك، ظهرت سيارتي الأخرى. ويللينج كان يقودها وكما بدا من بعد أن زوجته بالمقعد الأمامي والثنائي الوافد من فلوريدا معه بالمقعد الخلفي. ثلاث سيارات شرطة بلا علامات عرفتها قبلاً كانت تسعى ورائهم.

هل تم إلغاء البحث والتقصي؟ أي منطق في هذا؟ لقد أبصروني فقط منذ بضع دقائق.

اتصلت بشقيق بارب أوجي في هوليود من هاتف عمومي في ساحة الانتظار. أتى لاصطحابي، وبينما كنا نقود بعيداً قال إنه ما زال هناك العديد من الشرطة بالمكان. لم أتمكن من مبارحة المنطقة الآن، ليس قبل أن أدرك أن الأمور كانت على ما يرام مع ويللينج وزوجتي، لذا اختلفنا إلى حانة وشرعت في الاتصال بالبيت كل بضع دقائق ريثما أجابت بارب في النهاية. إبان ذلك الوقت كانت أعصابي منهكة تماماً وقلما أمكنني التفكير بصواب، لكن لم يكن هناك خطأ في تلمس الراحة في نبرات صوتها.

قالت: "ما كنت تصدق هذا. الشرطة كانت تراقب سراً لصاً مصرفياً. علموا بأنـــه كان في واحدة من تلك البنايات، ولكن دون معرفة أيها، وعندما أبصروني أنـــزلك من السيارة، راودهم الظن أنك ربما كنت شريكه".

لـــذا لم أكن أنا المقصود بالبحث عنه بعد كل هذا. "هل أنت على ما يرام؟"

"إنني بخير - أين كنت ذاهباً؟"

أبلغـــتها أنـــني كنت بشقة ويللينج عندما داهمته الشرطة بطرقها على بابه. "اجتزت طريقي ماراً بمخبرين في ساحة الانتظار".

أفـــادت بارب أن أجهزة الشرطة اللاسلكية أدركها الجنون في ذات الوقت تقـــريباً. الجميع كانوا يصيحون أنهم لم يكونوا موقنين من شكل المتهم، وأحدهم كان يصرخ بأنه توافر لديه المواصفات. عندما سأله شرطي آخر عن كيفية حصوله عليها، قال إن المتهم قد مرّ به. في ذلك الوقت كانت قد أقنعتهم بارب أن لا أحد منا كان له أدنى صلة بالسرقة، وذلك حينما تركوها تمضي بالسيارة.

حيـــنما استـــعدت بعض عقلي، قدنا أنا وأوجي عائدين إلى منطقة كورال ريـــدج. وخرج من السيارة على بعد بضع بنايات من البناية التي بها الشقة ثم سار بقـــية الطـــريق لاسترداد السيارة من ساحة الانتظار. عندئذ قاد طريقاً ملتوياً جداً عائـــداً إلى هولـــيود بينما تبعته في سيارته للتأكد من أن السيارة الكبرى لم تكن مُلاحَقة. ثم تبادلنا السيارات وتوجهت شمالاً في طريق (95-1) ثانية.

ذلك المساء خاطبت ويللينج من هاتف عمومي في موقف شاحنات. كان قد رفـــض أن يـــدلي للشرطة بأي شيء، مما جعلهم مرتابين للغاية. بعدما رحلوا جمع زوجـــته والثنائي الآخر وركبوا سيارتي، ثم توجهوا إلى باروت جانجل في كورال جابليز وورائهم الثلاث السيارات المجهولة المعالم. كانت مسيرة ثلاثين ميلاً.

"هل تعقبوك طيلة الطريق؟" سألته.

ضـــحك ويللينج "طيلة الطريق؟ لقد خرجوا من سياراتهم وتعقبونا سيراً على الأقدام طيلة أنحاء الغابة لثلاث ساعات".

فيما بعد اكتشفنا أن الشرطة لم تكن تحاول فعلاً الإمساك باللص، والذي كـــان قد سلب ثلاثة بنوك في المنطقة. لقد أعدوا أجهزة رصد ومراقبة وكانوا

يحاولــون أولاً تحديد شكله بالضبط، ثم أرادوا تعقبه لمعرفة لو كان معه شريك وضبطه بالمال المسروق في حوزته. بيد أنهم أفسدوا أجهزة الترقب بصورة سيئة جــداً حــتى إن نصف سكان فلوريدا الجنوبية أدركوا أنهم كانوا هناك - لذا قــرروا أنه لا بد من إلقاء القبض على الرجل في الحال وإلا لاذ بالفرار. أنذروا محطات التلفزيون والإذاعة، وأعطوهم مواصفاتي، ثم اكتشفوا بطريقة ما كيف كــان شــكله بالفعل، ربما استناداً إلى وشاية. أحسب أن العامة على اتساعهم ســيذهلون من عدد المتهمين المقبوض عليهم استناداً للوشايات وليس من عمل المخبر البارع.

حكم ببراءة الرجل في النهاية.

17

فضيحة لافمان

"فرانسين، لم نكن نعرفك حقاً..."



كنت أعيش هارباً من سلطات فورت لوديرديل ومكتب التحقيقات الفدرالية الكائن بفلوريدا لما يقرب من عام. صدقني، ليس ثمة شيء باهر أو رائع في كوني مطارداً شريداً من كل المهرة الحاذقين الذين يقبضون رواتبهم وحوافزهم بالإضافة إلى العوائد المعنوية من أجل القبض عليك. سيكونون في

موقـــع قـــيادة الأحـــداث، لأن كل ما تفعله هو دفاع معتمد أساساً على ما يفعلـــونه، وهربك لأبعد مدى من تحت طائلتهم هو مجرد خطوة تنأى بك عن اعتقالك.

كـــنت مـــا أزال ألجأ للاختباء في الفنادق الصغيرة بأطلنطا، وأدخل كل كل مـــنها بأسمـــاء متعددة مزعومة وأسدد فواتيري نقداً كي أتمكن من المبارحة بدون اقـــتفاء أثـــري من السجلات بالفنادق. ما زلت أرحل ذهاباً وإياباً إلى كليفلاند مـــراراً، وربما أكثر مما يجب، وأقيم إما بمنـــزل بيل ويللينج أو بصحبة خالتي نيل. إنها أقامت في شاكر سكوير في بناية دأبت على تولي إدارة شؤونها والتي ما زالت مملـــوكة لواحد من أبناء إخوتها. أتت بارب لقضاء رأس السنة، وقد كانت عطلة أســـبوع محفـــوفة بالقلق والاهتياج والإحباط من رحلات التسلل ما بين مسكن ويللينج وفندقين آخرين. وعلى قدر الألم على النفس عندما رحلت في النهاية، أظن أننا كلينا نعمنا بالراحة.

كانت تقيم أمي بقرب الزاوية من مسكن خالتي نيل، وأدركت أنني كنت ما أزال تحـــت وطأة المتابعة والمطاردة الحثيثة الفعالة حيث قامت السلطات الفدرالية بـــزيارتها. قامت بدعوتهم على الشاي وأوهنت عزيمتهم تماماً، رافضةً بصدق وعزم أن تمـــدهم بأية تفاصيل عن أماكن إقامتي بينما تصر على أنني كنت صبياً لطيفاً ما كان في وسعه اقتراف أي شيء سيئ. مما أبلغتني به، فالمحادثة سارت على ما يبدو على نحو كهذا:

"مسز ماسون، متى كانت آخر مرة رأيت فيها ابنك؟"

"حـــسناً، أتذكر أننا كنا معاً بحفل عيد ميلاد ابن العم تقريباً، لأتذكر، كان ذلك من ما يقرب من عام، أجل. نعم، رأيته منذ عام مضى".

"لكن أكانت تلك آخر مرة رأيته فيها؟"

"لا أتذكر لو كانت آخر مرة، ولكن من المؤكد أنني رأيته وقتئذ، لأنه أحضر معه أجمل دمية كهدية. ذلك هو بيل، مراعياً تماماً لشعور الآخرين".

"إذن، هل رأيته منذ وقتها؟"

"منذ ماذا؟"

"منذ حفل عيد الميلاد هذا".

"أترغب في قدح شاي آخر؟"

"يقيناً، هل رأيته منذ ذلك الحفل؟"

"لا يمكنني حقاً تذكر ذلك. كان هناك وقت آخر حينما أعددت وليمة غداء له ولسوزي. جاء بالزهور، باقة كبيرة".

"أكان هذا عقب الحفل؟"

"كلا، عقب الحفل ذهب الجميع لبيوهم مباشرة".

"مـــا كنت أقصده، هل تناول الغداء معك في أعقاب ذلك الحفل بفترة ما أم كان سابقاً للحفل؟"

"في الحقيقة لا أعرف، هل هذا مهم؟"

"في غاية الأهمية يا مسز ماسون".

"شيء مخزٍ حيث لا يمكنني التذكر - المزيد من الشاي؟"

وهكـــذا دواليك، لما يزيد عن ساعة. قد يبدو مضحكاً في رواية ذلك الآن، بـــيد أنه كان محطماً للأعصاب تماماً لمعرفة أن ضباط السلطات القانونية الفدرالية كانـــوا يحاولون حمل والدتي على تسليمي لهم. داومت على إخفاء شخصيتي عند زيـــاراتي إلى كلـــيفلاند. القليل من الناس الذين التقيتهم مصادفةً على نحو محتوم والذين كانوا يعرفونني لم تكن لديهم أدنى فكرة عن كوني مطارداً.

إنـــني أيـــضاً لم أركب الطائرة لهناك، فقط كنت أقود سيارتي. فالمطار أشبه بغربال متناهي الصغر يجمع أعداداً ضخمة من الناس في مكان واحد صغير قبل أن يفـــرغهم لمحطات وصولهم المتناثرة. وفيما يتعلق بنطاق اهتمام الهارب، فذلك أشبه بـــتجمعك عبر نقطة شيكبوينت شارلي، لأنه من السهل نسبياً على رجال الشرطة مـــراقبة مطار ما سراً. كل ما تحتاج إليه عند بوابة الدخول أو الخروج هو ضابط واحد يتفرس في الوجوه، ومن المستحيل تجنب إمكان رؤيتك، لأنه يتعين على كل مسافر في النهاية أن يمر خلال منطقة تحميل الركاب.

بيد أنه ليس هناك أسلوب عملي لوضع أجهزة مراقبة على كل طريق يفضي إلى داخل أو خارج المدينة، وطالما كان لديك سيارة خالية من الشبهات، فقيادها

هو أفضل طريق للترحال. كان ما زال لديّ الجديدة ولكن بخلاف السيارة الكبيرة فورد التي ليس لها صفة تذكر إطلاقاً، فبالرغم من أنها مسلوبة قانوناً إلا أنها كانت خالية بالكامل من الشبهات على الورق.

كان بحوزتي أيضاً مجموعة من مستندات إثبات الهوية القوية التي تميزني كجون ويلليــنج. لم تــوقفني الشرطة قط بيد أنني كنت موقناً أن حافظتي مليئة ببطاقات الهوية الشرعية والتي ما كانت تقتضي رفع حاجب لو اضطررت.

أكثر الأوقات إجهاداً على النفس قاطبة كانت عندما اضطرت والدتي لإجراء جراحة استئصال الثدي. تركت أطلنطا لأكون بصحبتها في كليفلاند حتى بالرغم مــن أن السلطات الفدرالية سوف تحفز يقيناً أجهزة مراقبتها لتوقعهم مجيئي. بغض النظر عن هذا، كنت أقوم بزيارتها في سانت لوك كل يوم برفقة خالتي نيل، مغيِّراً الساعات التي كنت أذهب فيها للمستشفى ومستخدماً مدخل الخدمات، البدروم (الــدَّوْر التحتاني) ومداخل غرفة الطوارئ كلما تمكنت. المستشفيات بوجه خاص ليست مدعمة أمنياً باستثناء حراسة الإمدادات المخدرة وكان من الميسور الاهتداء لسبل بديلة للدخول إليها.

عقب قضاء بضعة أيام موهنة للعزم من التخفي والتسلل ورفض اختصار فترة الإقامــة الخطرة في كليفلاند، أمرني ويللينج أن أُفرِّج عن نفسي قليلاً قبلما أنفجر. قــادني لوسط المدينة بصحبة شقيق زوجته وسيارة محملة بإيرلنديين مجانين، وذهبنا إلى مهرجان احتفال بيوم سانت باتريك. شرعوا في احتساء المشروب المفضل قرابة التاســعة صباحاً، وحالما انقضت مراسم الحفل، بدأنا في ارتياد الحانات واحدة تلو الأخرى، ونحظى بجلبة شديدة في كل واحدة منها.

تــركتهم قرابة السادسة، وكنت ثملاً للغاية. مواعيد زيارة المستشفى كانت تنتهــي في السابعة وهرعت إليها خلال النصف الساعة المتبقية، وكنت غير مهندم الهيئة. أمي كانت قد تماثلت للشفاء بما يكفي لتعرب عن استيائها لحالتي، والزيارة لم تكن مبهجة تماماً لكلينا. عندما غادرت كنت في حالة نفسية كريهة و لم أرغب في العــودة لمسكن خالتي. آخر ما كنت في حاجة إليه كان مشروب مفضل آخر، لذا فمن الطبيعي أن أزمعت الخروج لاحتساء مشروب مفضل آخر.

أنا وباربارا امتلكنا عقد إيجار الأرض القائم على جانبها الشرقي مطعم وحانة اسمهـــا جراوند فلور على أحدث طراز لجموع شاكر هايتس. كان المطعم بالطابق العلوي، لذا توجهت للطابق السفلي حيث الحانة وأدركت أنني كنت أرتكب خطأً لحظة ما فتحت الباب.

المكان كان مكتظاً بالناس، وكان جهداً شاقاً مجرد أن تستدر، وشخص ما في حـــالتي ما كان يقدر على الاختلاف إلى أي مكان قط بالقرب من البار لاحتساء المشروب المفضل. بعد انقضاء بضع دقائق من المناورة غير الملائمة التي لم تفض بي لأي مكان، بذلت قصارى جهدي لأتوجه للباب ووجدت طريقي مسدوداً بتلك الحسناء ذات الشعر الأحمر الرائعة الجمال.

حاولت أن أركّز عينيّ وتبينت خصلات شعر مموجة لامعة، ومعطفاً من فراء (المنك) وخاتماً ماسيّاً ضخماً. من الطبيعي أنني انجذبت تجاه الخاتم وركزت انتباهي بالكامل عليه، تقريباً لم أدرك أنني كنت من كانت تحادثه حينما صاحت في غمرة الضجيج: "إنني أعرفك!"

"كلا، لا تعرفينني!" غمغمت مجيباً، وحاولت مرة ثانية أن أحدد مكان باب الخروج.

أجابت بابتسامة مشرقة "يقيناً أعرفك. إنك بيل ماسون".

"لست المقصود" أصررت على ذلك وشرعت أضم مرفقي جاهداً للخروج.

ضحكت، ولوحت بيدها، "لا أظن ذلك، فرانسين. كنت في صف مدرستي الثانوية وتوليت إدارة العمارة حيث يقيم أصهاري. رأيتك في المرآب طيلة الوقت".

فرانسين؟ أممكن أن تكون...

نظـــرت إليها عن كثب. إذا كنا بنفس فصل المدرسة الثانوية، فلا بد من أنها كانـــت في مثل عمري الأربعين، ولكن هذه كانت أجمل امرأة تناهز الأربعين وقع بـــصري علـــيها من قبل. وجهها كان في جمال ما كانت عليه في المدرسة الثانوية وكـــان لها قوام عارضة أزياء، ولا تماثل أولئك الملصقات صورهن على الجدران، الـــلاتي يـــبدين كأنهن شماعات بشرية لتعليق الملابس. وعندما شرعت في التفكير بـــذلك، سمعت سابقاً أنها قامت ببعض عروض الأزياء، وسمعت أيضاً أنها كانت

مـــوفقة تماماً في زواجها من رجل صناعة بارز الشأن، مما جعل الأمر منطقياً، لأن فرانسين ولدت لعائلة ثرية جداً.

والدها، ميلتون كرافيتز، كان عصامياً أصيلاً وأصاب نجاحاً يُروى في المجتمع الأميركـــي. هو وشقيقه جولي بدآ بما لا يذكر واجتهدا في العمل، وصولاً لمستوى أمكـــنهما وصديق لهم من شراء سلسلة المحال التجارية بيك - ن - باي، أضخم المحال في كليفلاند بيد أنهم تصارعوا للبقاء أقوياء ماليّاً. أداروها ببراعة وفي النهاية حـــصلوا أيـــضاً علـــى أسواق فيناست. بالرغم من ثروته، تذكر ميلتون جذوره الأصلية، وكان ضد سجيته أن يرسل فرانسين لمدرسة خاصة. في عام 1956 انتقل هـــو وزوجـــته إلى شـــاكر هايتس كي تتمكن ابنتهما من قضاء عاميها الآخرين بالـــصف الثانوي في مدرسة رسميّة ذائعة الصيت لتحقق أعلى الدرجات. تذكرت أنهـــا كانت طالبة حاذقة، ولها أنشطة في العديد من النوادي وصديقة لنجم لاعب في فريق كرة القدم. بعدها بسنوات، أطلقت عليها صحيفة بلين ديلر في كليفلاند "الركيزة المتلألئة للدائرة الاجتماعية لبلدتنا".

حـــسبما فـــسرت سابقاً، مدرسة شاكر هايتس الثانوية الرسمية كانت ذائعة الصيت، والشيء الوحيد الذي كان يُعول عليه إن كنت تلتحق بها أم لا كان هو عـــنوان محل إقامتك. ولكن ذلك لم يعنِ أن الطلاب من كافة الطرق المتباينة قاموا بالمزيد من الاختلاط والامتزاج. لكل هذا اختلطت بأمثال فرانسين، وربما أيضاً كنا من كواكب مختلفة.

بعد انقضاء ذكريات العشرين عاماً بسرعة في غمرة ضجيج حانة كليفلاند، بـــات مستحيلاً الخروج من هذا الآن، لذا وقفت أتدافع وأنظر شاخصاً. "فرانسين كرافيتز؟"

"لقـــبي لافمـــان الآن"، قالتها بينما أخذت بيدها في النهاية. "كان هذا منذ حوالى عشرين عاماً".

"لافمـــان" كررتها بينما كنا نحاول أن ننأى عن الازدحام، رغم معرفتي تماماً بلقـــبها الحالي. بيد أني تظاهرت بخلاف ذلك، وما زلت لست موقناً أن كل ذلك وضعٌ آمنٌ بالنسبة لي. "رجل ثري، أليس كذلك؟"

كان ذلك شيئاً أخرق لأتفوه به. كان فقط منطقياً أنها كانت ستتزوج بشخص ما يرفل بثراء المولد. فرانسين لافمان كانت شخصية شهيرة في مجتمع كليفلاند، ويشار إليها عبر الصحف بأنها وريثة أو محبة لحفلات الأنس. أحياناً ما أثار تساؤلي حول ما يجب أن يكون عليه الحال حيال تقليص حياتك بأسرها إلى مجرد اختصارات مهينة، ولا سيما كتلك التي نادراً ما استخدمها الذكور المتماثلون.

لم تبدِ فرانسين أدنى اعتراض على ملاحظتي الفظة وضحكت متساهلة. وقتئذ تمكنا في النهاية من الوصول لجدار، واكتشفنا بالفعل أنه كان بيننا شيء ما مشترك. ابنة فرانسين الكبرى كانت في نفس عمر ابنتي سوزي، وكلتاهما بدأتا الحياة الجامعية منذ الخريف الماضي. في هذا اليوم على وجه الخصوص، كانت قد قررت فرانسين أن تنأى بحياتها عن المحافل الخيرية والأعمال الأخرى التطوعية المتصلفة الرفيعة المستوى وتتلمس ما كان عليه احتفال يوم سانت باتي في جراوند فلور.

"إنه جنون عارم هنا"، قالتها بتعجب. ولتجنب الازدحام انتزعت هي وشقيقتها وزوجها مائدة مدمج بها ماكينة باك - مان ولبثوا هناك ريثما وقع نظر فران عليَّ.

شيء ما جال بخاطري. "كيف يتسنى أنك لم تحيني قط عندما شاهدتني في المرآب؟"

ابتسمت في حياء: "حماتي أبلغتني بأنك كنت رجلاً سيئ الخلق".

عظيم. "كانت محقة"، قلتها وأنا أرد عليها بابتسامة محاولاً إعطائها الانطباع أنني كنت أي شيء سوى هذا.

رغم جرس الإنذار الذي يقرع في رأسي فيما يتعلق بسلامتي، وجدت نفسي منساقاً إليها. بدت وكأنها في حاجة للتحدث، وكنت سعيداً بالإصغاء. ذلك لم يكن سهلاً مع ذلك، وعقب بضع دقائق أخرى لم نتمكن من إطاقة الضجيج. شقيقتها وزوجها لم يكونا متأهبين للرحيل، لذا عرضت أن أوصلها لبيتها.

مع أنني كنت مرهقاً، ولكنها قبلت. خلال توصيلها ذكرت أن والدها، فضلاً عن امتلاكه لجزء وفير من فيناست، أيضاً امتلك قاعة بولِنْغ بمجاورة لهاي لاندر.

حاولت الاحتفاظ بمظهر صارم حينما قالت هذا؛ ما الذي كان من أمر ذلك الفندق الذي دأب على جعله يندفع غالباً في حياتي؟

بينما كنت أقود، أبلغتني أنها كانت سترحل إلى ولاية أوهايو عقب التخرج بيد أنها تركت الدراسة وهي بالصف الثاني الجامعي لتتزوج بحبيب قلبها من المدرسة الثانوية، من دارتماوث. منذ ذلك الحين وحياتها كانت في خضم زوبعة من المدينة والأنشطة الثقافية، العديد منها مع المنظمات اليهودية والتي كانت هي وزوجها تدعمها بنهم. وصحيح أيضاً ما سمعت عن قيامها ببعض العروض (التجسيم).

أعطتني رقم هاتفها قبلما تخرج من السيارة، وحفظته داخل جيبي، دون أن أفكر في أنني كنت سأتصل بها فعلاً. لكن عقب أسبوعين كنت عائداً إلى كليفلاند واتصلت بها، والتقينا لاحتساء القهوة. أحضرت فران شقيقتها كاتي معها، نموذج للحيوية المنطلقة وتصغرنا بأربع سنوات وكانت تقود سيارة جاجوار بارعة.

بطريقة ما تطرقنا للتحدث عن المأساة المروعة التي ألمت مؤخراً بالعائلة. فران وكاتي كانتا مولعتان بحب عمهما جولي والذي تم اختطافه، واحتجز مقابل فدية وتم اغتياله بواسطة موظف، وهو ابن مرتل الصلاة اليهودية لمعبدهم.

كنت على علم بالفعل بهذا، لأنه تصدر الأنباء العظمى في كل من كليفلاند وكافة الأرجاء، بيد أن الأنباء لم تأخذ قط بعين الاعتبار عن مدى وقع الحادث الأليم على العائلة. وصلت للبيت بينما كنت أنصت للتفاصيل من فران وشقيقتها، ولم يغب عن بالي أن هذه لم تكن نوع المحادثة التي أجرياها مع مجرد شخص تجمعهما به معرفة عابرة.

بعد بضعة أسابيع دعتني فران لحفل غير رسمي حول حمام السباحة بمنزل كاتي، بيت آخر ضخم في شاكر هايتس. تبادلت وفران بعض الكؤوس ولعبنا النرد، وتم تقديمي باسم "بيل" الذي كان يقيم في أطلنطا وكان بالمدينة لزيارة والدته. كنت بدأت في تلمس الراحة بصحبة أولئك الناس وأكثر انسياقاً إلى فران. صفارة الإنذار في رأسي كانت تعلو، ولكن حتى مع توصلي لحل ألا أسمح بتمادي هذه العلاقة، أدركت مع التسليم بالأمر المقدر أن المقاومة كانت عديمة الجدوى.

لم أكــن قــادراً على العودة إلى كليفلاند لبضعة شهور، ولكن عندما عدت إليها في النهاية، اتصلت بفران وسألتها إن كانت ترغب في الذهاب لحفل لدى ابن عمــي دان رينير. كان دان هو الجراح الذائع الصيت الذي أعادني لحالتي الصحية عقب تعرضي لإطلاق الرصاص، بيد أن فران لم تعرف أي شيء عن ذلك. "شيء واحد فقط يجدر بك أن تعرفيه، مع ذلك". أضفت قبل أن تتمكن من الإجابة "ابن عمــي وزوجــته الثانــية يستحمان عاريَيْن بالمسبح، فثمة الكثير عادة من العُراة يتــسكعون عــند حمــام السباحة لديهم، وتحدث أيضاً بعض الأمور الطائشة". تصورت أنه كان الفرصة الوحيدة وحاولت أن أتصور كيف كان ردّ فعل الوريثة ومحــبة حفــلات الأنس بالجانب الآخر من الخط التلفوني بينما كنت أروي بعض الروايات عن الطيش السالف. بالرغم حتى من أن شيئاً كهذا كان شائعاً للغاية في هــذا الــوقت على سبيل التحديد، لم يكن أمامي سبيل لمعرفة ما إذا كانت تشعر بالإهانة، أو يتملكها حب الاستطلاع، مصدومة أم فضولية.

"يبدو هذا كمتعة"، وافقتني بالإجابة.

* * *

عندما ذهبنا إلى منــزل دان الضخم في مجمع جيتس ميللز السكني الثري، لم يكن يحدث شيء على الإطلاق. أطباء وزملاء آخرون لابن عمي بالمستشفى كانوا يجلــسون، مرتدين ثيابهم ويتصرفون باحترام وربما كان هذا لاحتساء قهوة الصباح باجتماع للمحاسبين. استشعرت بعض الإحباط والكدر في فران وراودني القلق أنها قد تظن أن كل قصصي كانت محض لغو فارغ لا أكثر. انتحيت بدان جانباً إبان فترة الركود - ما الذي أتحدث عنه: الحفل اللعين بأسره كان فترة ركود - وقلت: "ماذا يجري هنا؟ أين عثرت على أولئك الناس؟"

هزّ رأسه، وهو متفهم تماماً. "نحن في حاجة لومضة ما لتحريك هذا الشيء".

في غــياب أي مرشــحين آخرين للقيام بعمل جريء طَفْرَةً واحدةً، إذا جاز التعــبير، خلعــت كافة ملابسي وقفزت داخل المسبح مع تطاير ضخم لرذاذ الماء حسبما تمكنت من حشده. كان ذلك كتحول طفيف طرأ على حين غرة، وخلال فترة وجيزة كان الجميع تقريباً عراة وفي المسبح، باستثناء فران، التي ساورني الشك

أنـــه لم يقع بصرها على رجل عارٍ سوى زوجها منذ أن تزوجت من عشرين عاماً قبلاً. بعد حوالى عشر دقائق بالمسبح ظهر عند الزاوية شخص ما وضع على رقبته شـــكالاً ودعامات. أخذ نظرة واحدة حيال كل الأجساد العارية بالمسبح وبدا أنه يعاني من حالة شفاء مُعْجِز. توقف قليلاً للنظر فيما حوله، كما لو كان يتأكد من عـــدم وجود أي أحد من شركة التأمين الخاصة به كان يتلصص عليه، وخلع عن رقبته الطوق، وأطاح بالدعامات بعيداً وقام بالغطس.

في تلك الليلة فيما بعد تطارحنا الغرام أنا وفران في غرفة نوم الضيوف لأول مـــرة. دون شك تفكّكت كل موانعها في النهاية نتيجة لوثب العُراة هنا وهناك في المسبح، فضلاً عن المغادرة المستمرة للعديد من الثنائيات لبعض الأفعال الفاحشة. لم أتمكن من معرفة إن كانت تسلمني نفسها لفكرتها عني، شخص ما كان بمنأى تماماً عـــن عالمها المحترم من الأعمال التطوعية، المناسبات والمحافل الثقافية والارتباطات الاجتماعـــية الرسمية. لو كانت لاحظت أثر طلقة الرصاص والندوب التي خلفتها الجـــراحة، بيد أنها لم تسل أو تتفوه ببنت شفة، وتساءلت إن كانت تجهل ببساطة آداب السلوك الملائم في مواقف كهذه.

وقد غمرني خضم من الحيرة والارتباك لأتعامل بمقتضاه. لا بد من أن أقر أن هـــذه لم تكن أول مرة كنت فيها غير مخلص لباربارا، ولكنْ التسكع الآخر المناف لـــسلوك الرشـــاد كان لا يعتد به عاطفياً. مع فران كان الأمر مختلفاً، رغم ذلكً، ولـــيس لأن بارب كانت تبعد عني بألف ميل وكنت شريداً ووحيداً. كان ثمة لمحة مـــن الاتصال الفعلي وآخر شيء رغبت أن أعمله كان تشجيع تلك العلاقة، مع معرفتي بأنني بينما زاولت هذا فكان لزاماً أن يكون شيئاً مؤقتاً.

أياً كانت الأمور الغريبة التي كان تمارس في ذلك الحفل، فران ما كانت تعبأ بها، ودبرنا الانفراد بنفسينا ريثما ودعنا بعضنا البعض ورحلنا. كنت نلتقي ببعضنا البعض باستمرار بعد ذلك، حتى بالرغم من معرفتها أنني كنت متزوجاً.

وكانـــت هي كذلك...، لم تكن تعرف كثيراً عني بشكل يثير الاهتمام ولا سيما لا شيء بالتأكيد عن أنشطتي الإجرامية، وقد يضيف هذا على نحو ما جديداً إلى العلاقـــة الغـــرامية السرية. ربما كانت خائفة من السؤال خشية اكتشاف أنني

كنت بائعاً لستائر الحمام أو ما شابه. فعلى أية حال، على قدر معرفتها من حماقا، كنت مجرد مدير بناية و"شخص سيئ" سابقاً.

بعد حوالي شهر عقب حفل دان اجتمعنا هناك ثانية، وانصرفت فران للعودة لمنـــــزلها بينما كنت نائماً. عندما أفقت، رأيت أها نسيت مجوهراقا بما فيها خاتم يزن أربعة قراريط من الماس النقي تركته على المنضدة. أحسست وكأنني سأضعف أمـــام الإغواء، اتصلت ها لتوافيني فيما بعد عصراً كي أتمكن من إعادة كل شيء لهـــا. تلاقينا لتبادل الشراب، وبينما كنت أسلمها الخاتم والسوار وقلادتين، قالت: "أتعرف أي شيء عن المجوهرات؟"

كظمت سعلة وقلت: "قليلاً - لِمَ؟"

"معي بعض المجوهرات أعطتني إياها حماتي وأريد اكتشاف شيء ما حيالها".

في هذه المرة بات جلياً أها كانت مهتمة بي نوعاً ما، وقد بادلتها الاهتمام أيضاً، لـــذا تصورت أنه قد حان الوقت لأنقي سيرتي قليلاً وأحطم رغبة السلب قبلما يخرج الأمر من زمام يدي. أبلغتها بمعرفتي بخبير حاذق في المجوهرات، وبصيغة مختصرة مغلفة بقالب مستساغ أبلغتها عن كيفية قبض الشرطة عليَّ ووقعت فريسة لادعاء متحمس غـــيور خلال ورطتي الحالية. توقعت تماماً أن القليل من المعلومات سوف يبث الخوف فيها مما يدفعها للفرار بأسرع ما يمكن، بيد أن ذلك تمخض عن عكس المقصود.

تملكها فضول وحب استطلاع أكثر وبعد ذلك بسرعة التحقت بدورة بمعهد علـــم المجوهرات في أميركا وبصفة خاصة في أحجار الماس. لم أتلقَّ قط دورات في المجوهـــرات، ولكـــن خبرتي العملية كانت من النوع الذي لا يمكنك استنباطه من الكـــتب، ولقـــد عاونتها أينما كنت في المدينة، والذي كان يصبح أكثر وأكثر في الغالـــب. بروز فران الاجتماعي كان ما زال يحمل ثقلاً ضخماً في المدينة، وذات مـــرة اســـتدانت بمجمـــوعة كاملة من أحجار ماسية أصلية من مارك جلوشوف، جواهرجـــي مـــن أقـــصى بيتش وود بلاس، حينما كانت تتأهب للحصول على شـــهادها. سمعـــت فيما بعد أن المسكين كادت تداهمه نوبة قلبية حينما اكتشف شخصية الرجل الذي كانت تقضي الوقت معه.

* * *

أخـــيراً تـــركت أطلنطا للأبد وعدت أدراجي إلى كليفلاند، رغم التوجس الخطـــير والذي ربما يحيق بي من جراء وضعي كهارب. بداية اتخذت غرفة بفندق صـــغير واســـتأجرتها علـــى أساس شهري. كانت فران تأتيني ثلاثة أو أربعة أيام أسبوعياً ولكن دائماً ما تعود لمنـــزلها ليلاً. لم نتمكن من التلاقي جهاراً و لم نخرج، باســـتثناء إلى شقة ويللينج أو ابن عمي دان، بيد أننا كنا متعطشين لبعضنا البعض حيث إن بقاءنا معاً لم يكن حملاً ثقيلاً للغاية.

عقـــب بـــضعة شهور من هذا أبلغتني فران أن صديقاً لها لديه سكنٌ يعرضه للإيجـــار مؤلف من غرفتيْ نوم خاصتين في جورج تاون فيللاس في لايندهورست. أدركـــت أن ذلك ليس مأمون العاقبة، لكني وقتئذ كنت مفتقراً إلى البيت الفعلي كـــثيراً، وخلت الأمر جديراً بالمخاطرة. اتخذت المكان منتحلاً اسم جون ويللينج وعيّنت مديرة للمنـــزل. أول شيء عملته كان الغرق في بارانويا (جنون الارتياب) منطقـــية فأحدثت ثقباً للفرار في حال أقبلت الشرطة عبر الباب الأمامي. أحدثت حفـــرة في سقف الحجرة الصغيرة التي ستفضي بي لارتقاء السقيفة، ثم حددت أين يمكـــنني معـــاودة الاقتحام بالمسكن المتاخم وألوذ بالفرار. هذا التدبير غير المتوقع جعلني أشعر أفضل حالاً نوعاً ما من الفرصة التي كنت أغتنمها.

كان من الرائع أن أحظى بمكان كهذا، وأحظى أيضاً بزوار. في هذا التوقيت كـــان دان يمـــضي إجراءات انفصاله عن زوجته الثانية، وكان زائراً متردداً بصفة دوريـــة لمـــسكني بـــصحبة صديقات متعددات. كان الرجل تحدوه شهوة جماع كحـــيوان قارض وذات مرة حظي بأربع نساء مختلفات هناك في أوقات مختلفة في نفـــس اليوم. لا أدري أين كان يعثر عليهن أو كيف يحمِّلهن على ارتكاب ما كن يفعلـــن. في الخارج كن يبدين كسيدات متزمتات ونقيات مع نصيب ما من المال ومنـــزلة اجتماعية مرموقة، ولكن فور ما يتوارين خلف بابي الأمامي الموصد كن أشبه بمخلوقات عجيبة انتزعت عقولهن منهن وكن يصررن على الجماع الجنسي في الحال مراراً. لا أدري؛ ربما فعلياً لسبب ما في كونه طبيباً.

في نفـــس الوقت، شرعت ملتمساً من باربارا الانتقال من فلوريدا مع الأولاد كـــي يلـــتم شملنا كأسرة ثانية. تصورت أنها فور ما تزورني وترى كيفية معيشتي

كإنسان عادي في شقة جميلة، سيتم إغوائها لنسيان كل ما كان يحدث وتهبنا فرصة أخـــرى. بينما كانت كليفلاند محالة، داومت على الوعد بمكان مثل المكسيك أو كاليفورنيا، والذي خلته سيكون مغوياً لها.

ذلك الصيف وافقت أن تأتي للزيارة. أقلتها أمي وخالتي هي وابنتي الصغرى لورا من المطار وأوصلاهما لمسكن خالتي. رغم أمنيتي المتوقدة أن أحافظ على المظهر الطبيعي المعهود، لم أتمكن من السماح لهن بالاقتراب مني في أي مكان ريثما أيقنت أنهـــن لم يكن متبعات. لورا كانت تناهز الحادية عشرة فقط، صغيرة تماماً لدرجة الاعـــتقاد أن كل هذه التدابير كانت متعة كبرى، وليست كبيرة بما يكفي لتدرك كافة الملابسات.

حيـــنما رأت مسكني فيما بعد، أعجبت به باربارا حقاً. كان شتان بينه وبين جنون وهوس زيارة رأس السنة، ومضت الأمور على ما يرام لبضعة أيام، لذا واتتني جـــرأة مـــا وقررت أن أثبت أنه في إمكاني الطواف بالمدينة كمواطن عادي. مثل المسكن، كان جزءاً من جهدي الدائب لأظهر لها مدى الاستقرار الوافر الممكن في حياتنا معاً.

"ما قولك لو خرجنا لاحتساء المشروب المفضل؟"

رفعت حاجبيها، بيد أنها لم تعلق بخلاف ذلك على استصواب رؤيتي علانيةً.

"لا مانع".

"أي مكان بصفة خاصة؟" عرضت عليها الاختيار كي لا يبدو وكأنني كنت مقيداً بشروط اختياراتي.

"ماذا عن جراوند فلور؟"

انقبـــضت فجأة في سريرتي ولكن كان يجب عليَّ توقع ذلك. فكرت ملياً في محاولة إعلام فران مقدماً ولكني تخيرت عدم إبلاغها. احتمالات وجودها هناك في نفس الوقت بدت مستبعدة.

كمـــا أنـــه رغـــم حياتها المستكينة بطريقة ما، لم تكن فران ساذجة ومن الممكـــن أن تولي اهتماماً مدهشاً بأمور كهذه. قدر الرعاية التي أوليناها ببعضنا الـــبعض وحظيـــنا بأوقات رائعة معاً، كانت تدرك أيضاً أن تلك كانت علاقة

عاطفية فقط ببساطة. لم أبذل جهداً يذكر لإخفاء ما أكننته من حب لزوجتي، ولم يكـن يبـدو فـران نية لتطلق زوجها. كانت مدركة أن مبرر طلبي مجيء باربـارا إلى كليفلاند كان لإقناعها للموافقة مع خططي لإعادة توحيد عائلتنا. وحـيث يـتم تسوية ذلك الأمر بنجاح، فإن هذا نهاية لفران وعلاقتي بها، ولم يحاول أحدنا التظاهر بخلاف ذلك، مما لم يجعلني أقل توتراً عصبياً حينما ظهرت في جـراوند فلور، وبصحبتها شقيقتها كاتي. حسبما افترضت كانتا في منتهى الهدوء بصورة غير معهودة.

جـنحا إلى باربارا في الحال رغم أن باربارا لم تكن سعيدة للغاية حينما جال بعـض الناس حول مائدتنا وقدما لنا عرضاً الكوكا بأظافر أصابعهن المطلاة بشكل خـاص. بـيد أنـنا احتـسينا بضع كؤوس ومضى الجميع متوائماً، وكنت حراً ومـسترخياً وحيـنما دعينا لمواصلة الحفل لدى شقة كاتي لم أبذل جهداً لمحاولة التنصل من ذلك. قد تبدو كمخاطرة مجنونة في الإقدام عليها، بيد أني تعايشت مع الخطـر طيلة حياتي وكان ذلك أشبه بصديق قديم. لم أدرك أنها كانت بادرة إنذار أنـني كنت أشرع في الإحساس بالغبطة كنتيجة لمراوغتي وتملصي من الإمساك بي حتى الآن.

بيـنما انقضت الأمسية، لا بد من أن بارب استشعرت تآلفي المريح بأولئك الناس، وأعتقد أنها ارتابت أن لي علاقة ما بإحدى الشقيقتين، ولكنها لم تتمكن من تحديد أيهن ولم تذكر ذلك قط.

في صباح الأحد قالت إنها رغبت في الطلاق.

ذلك أعجزني تماماً. كنا متزوجين منذ عشرين عاماً وحتى تلك اللحظة تقبلت صلابة زواجنا كأمر مسلم به، لم أفكر مرة قط أن كل الألم والعناء الشاق اللذين جلبـتهما عليها سيصل لهذا الحد. افترضت أولاً أن تعاطي المخدرات العارض في المساء السابق قد أطاح بي لدوامة، ولكن الجدل الذي استمر حتى الثلاثاء أثابني في النهاية عن إلصاق الخطأ بذلك الخاطر.

مـا أوصـل باربارا لهذا الحدّ كان واضحاً تماماً عند إرجاع النظر لما مضى كمثال بارز لقدرة الإنسان على إنكار الواقع.

مـــنذ يوم التقائنا تقريباً، كانت معرضة لوطأة جهد غير محتملة تقريباً. وكأن ضغوط الزواج الطبيعية، وتنشئة الأولاد والحياة العصرية في العموم لم تكن كافية، تحملـــت ضغطاً إضافياً من معايشة مجرم محترف ولا يعرف أبداً إن كان سيتراجع ويحيد عن إيداعه السجن. حتى بالرغم من رؤيتها لبعض المعجزات غير العادية التي تعلق بها المحاميان والتي كانت قادرة على إبقائي طليق السراح، لقد رأت ما أصابني مـــن جـــراء الأعـــيرة النارية. الرصاصات التي تم التعامل معها بشكل خاص أثناء العملـــية، وكمية لا حدّ لها من قدرات قاعة المحكمة العجيبة الممكن اعتراضها لو تمكـــن شرطي هداف بارع سريع أو حارس أمن أو أحد رفاق السوء من تصويب طلقة تصيب في مقتل. ومع ذلك فما زالت مرتبطة بي.

كـــان ذلك فقط عندما أضحيت هارباً ولاحت إمكانية أن الحياة لن تكون كسابق عهدها أبداً حيث إن آخر حلول معضلاتها بدأت في الاضمحلال. معيشتها المنفـــصلة عني منحتها المزيد من الوقت للتفكير وبصورة أكثر منظورية صحيحة، وكل ما كان يجب أن يكون مباغتاً لي كان كم الوقت الذي استغرقته في إدراك أن هذه لم تكن حياة ملائمة لها ولأولادها.

كـــل هـــذا كان غامضاً مبهماً في ذهني وقتئذ، وداومت على إنهائي للجدل بـــشروعنا حـــياة جديدة ريثما حسمت الأمر بمغادرتها عائدة إلى فلوريدا بصحبة ابنتنا. أدركت عند هذه النقطة أن طلبها الطلاق كان مبررها للمجيء إلى كليفلاند أولاً. لو كان هناك حتى أقل القليل من ظلال الشك يراود ذهنها، أقل احتمالات إقـــناعها أنـــني سأبدل الأمور على نحو أفضل، فقد أطحت بها بإظهار عجزي عن تجـــنب مخالطة الأوغاد الذين يمكنهم ببساطة وضع هارب مطارد في خضم متاعب جسيمة. كل ذلك انقضى.

كـــان أكثر الأيام حزناً وقتامة في حياتي وما زال باقياً هكذا، وكل اللوم وقع بحق على كاهلي.

* * *

لقد استوعبت تماماً من أين أتت بارب بهذه الفكرة، بيد أن ذلك لم يجعلني أشعر أقل إيذاءً أو غضباً. زهاء بضعة الأيام الأولى عقب مغادرتها، لم أرغب في

رؤية أي أحد و لم أرَ أحداً، ولكن اكتشفت رغبة ملحة في محادثة فران. لا أظن أن مـــشاعري حيالها عُمقت، ضرورياً، لأنها كانت مشاعر قوية للحظة وقتئذ، بيد أنه لا شك في أن طبيعة علاقتنا تبدلت فور ما استسلمت لواقع أن المستقبل الذي تصورته لبارب ولي لم يعد ممكناً. الافتراض الأساسي الذي عملنا بمقتضاه أنا وفران، أن ما كان يربطنا من وشائج العلاقة حتماً لا بد من أن ينتهي أخيراً علـــى ضوء الأوجه العملية لحياتنا المنـــزلية الخاصة، كان قد تبدل فجأة. لا أنا ولا هـــي أدركـــنا بالضبط ما كان يعنيه هذا، بيد أن كلينا أحس بالتحول في الشعور.

وجـــودي برفقة فران ثانية أسكن وأراح الألم، بيد أني ما زلت أطرق مغتماً زهاء أسبوعين. ثم نفذت ما أعمله بشكل أفضل حينما أكون في حاجة لاستراحة من وطأة ضغوط الحياة اليومية.

18

عملية السطو الكاملة

من صحيفة بلين ديلر بكليفلاند 25 أيلول/سبتمبر عام 1980:

لصوص يسرقون مجوهرات بمليون دولار

المحرر جون بي. كوين

وصـــفت بأنهـــا جريمة السطو الكاملة وأضخم عملية سرقة في تاريخ لايندهورست والمغامرة الطائشة ذات المليون دولار.

في مساء الثلاثاء، ترك جوزيف سي. مانديل، مسؤول تنفيذي بشركة برميير الصناعية، جناح شقته الفاخرة في مجمع "أكاسيا أون ذا جرين" ليصحب زوجته إلـــى العـــشاء. حيـــنما عادت أسرة مانديل في العاشرة مساءً، وجدوا قفل الباب موصـــداً مـــن الداخل. بعدما عاونه حارس الأمن لدخول شقته، اكتشف سرقة مجوهرات تقدر قيمتها بمليون دولار تشمل تحفاً متوارثة من جيل إلى جيل.

أفاد الرقيب أنتوني جي. سبسير من شرطة لايندهورست أن اللصوص قـــد أفلتوا من نظام أمني محكم. قال سبسير إن المجمع كان مزوداً بمكتب حراســـة يقوم بإيقاف جميع الزوار ما لم يكن لديهم تصريح بزيارة شخص مـــا ويراقب حراس الأمن الأبواب في كل مبنى عبر دائرة تلفزيونية مغلقة علـــى مـــدار أربع وعشرين ساعة يومياً. "على ما يبدو هؤلاء اللصوص كانوا يعرفون تماماً ماذا يفعلون" أفاد بذلك. "لقد كانت جريمة سطو كاملة".

عـــرض مانـــديل مكافأة بعشرة آلاف دولار مقابل إعادة المجوهرات والتي وصفت أغلبها بأنها "لا مثيل لها".

بعد مرور أربع سنوات (8 كانون الأول/ديسمبر 1984):

مكافأة بمقدار خمسمائة ألف دولار لسرقة مجوهرات لايندهورست

للكاتب دبليو. سي. ميللر

انتقل جوزيف وفلورانس مانديل للعيش في مجمع شقق فاخر ذي طابقين في لايندهورست بعد ربع قرن من امتلاك أحد المنازل لأنهم اعتقدوا أن المبنى الضخم أكثر أمناً. منزلهم السابق تم اقتحامه وسرقته ثلاث مرات على مدار سنوات عيشهم فيه، وأحسا بالأمن عقب الانتقال للمجمع عام 1977.

لكن في 23 أيلول/سبتمبر 1980، وبينما كانت أسرة مانديل تتناول العشاء بمطعم، اقتحم اللصوص سقيفة المجمع في منطقة "أكاسيا أون ذا جرين" وهربوا وفي حوزتهم مجوهرات قيمتها مليون دولار. لم يعثر أبداً على المجوهرات التي كانت من الماس والياقوت والزمرد وأحجار كريمة أخرى.

كانت أضخم جريمة سطو في تاريخ لايندهورست، جريمة مدبرة بإحكام ما زالت لم تحل حتى الآن.

قاضت أسرة مانديل مدراء المجمع وقتئذ، حيث زعمت أن السطو استفاد من تراخي الأمن، وبالأمس نالوا نصيباً من الراحة. المحلفون قدموا لهم مكافأة بمقدار أربعمائة ألف دولار فضلاً عن ما يقرب من مائة ألف دولار كفائدة. زعم محامو الشركة أن الإجراءات الأمنية كانت مناسبة.

"لا نزال نجهل بالفعل من ارتكبها" أضاف دونالد تريسي محام مانديل.

متابعة أخبار هذه السرقة جعلتني متوتراً كما كنت عندما كنت أقوم بهذه العملية في المقام الأول، رغم وجود بعض اللحظات المسلية التي خففت حدة التوتر.

أولاً، كان هناك الافتراض القديم بأن الجريمة ارتكبها لصوص وليس رجلاً واحداً. ثم كان هناك الرأي القائل بأنه من المستحيل أن الأنظمة الأمنية كانت تعمل بدقة، لأن ما من بشر كان في مقدوره اجتيازها.

كنت أشعر بالإطراء عندما أسمع أشياء كهذه. بعد التفكير ملياً قدرت أنه ربما كانـــت تعلـــيقات الإشادة بمهاراتي في السطو كانت تحمل انتقادات مخفية لزلات مهارات ضبط المجرمين الخاصة بقوات الشرطة.

رائـــد الفضاء السابق وكبير المدراء التنفيذيين بخطوط الطيران إيسترن، فرانك بـــورمان، ابتدع عبارة مذهلة شديدة الذكاء في عام 1967. وهو يشهد أمام لجنة شـــؤون داخلية كانت تحقق في مصرع ثلاثة رواد فضاء أثناء اختبار أرضي، أعزى بـــورمان الكارثـــة "للإخفاق في التخيل". قال إن الفريق الهندسي كان عاجزاً عن تـــصور حـــدوث واقعة كهذه في المقام الأول، وبالتالي كانوا غير مستعدين تماماً للحيلولة دون وقوعه أو للتعامل معه عندما حدث بالفعل.

وهكذا أدركت في النهاية أنه عندما استخدم مخبر أو رجل أمن حاذق عبارة إطراء مثل "فوق مستوى البشر" فيما يتعلق بواحدة من عمليات السطو الخاصة بي، كـــان في الواقع يداري فشله في التخيل. إذا عجز عن تصور كيفية قيامي بالسرقة، يختبـــئ وراء مـــبرر أن اللص حتماً كان "شبحاً" أو "الأفضل على الإطلاق". أي تفـــسير آخـــر قـــد يكون ممكناً بخلاف أن المخبر لم يتحلَّ بالمهارة الكافية لتخيل السرقة، وهذا شيء لا يود الاعتراف به محترف بأجهزة تنفيذ القانون.

يمكـــنك رؤية آراء متفاوتة بوضوح حيال هذا الموضوع في قضية مانديل. مدراء الوحدة السكنية، كركيزة أساسية لدفاعهم ضد اتهامات جوزيف مانديل عن القصور والهفـــوات الأمنـــية، احتجوا أن الأنظمة الأمنية كانت أكثر من كافية وكانت تعمل بـــشكل سليم. وبناء على ذلك، فالسحرة الذين نفذوا هذه المغامرة الطائشة لا بد من أنـــه كانت لديهم قدرات سحرية. كيف تمكنوا من الطفو فوق الجدران دون إطلاق أي جهاز إنذار؟ كيف جعلوا أنفسهم غير مرئيين وهم يمرون أمام أعين حراس الأمن؟ كيف لم تظهر صورة واحدة لهم في أي كاميرا من الكاميرات الموضوعة بكافة أرجاء المجمع؟ كانت هذه هي استراتيجية الدفاع الوحيدة لدى المدعى عليهم، لأن البديل هو الاعتراف بأن أجهزتهم الأمنية كانت غير كافية.

أضافت الشرطة إلى هذه الهالة السرية، على نحو مدهش مثل قولهم إنها "جريمة السطو الكاملة"، وأكدوا أنه كان هناك أكثر من مرتكب للعملية واعترفوا بحيرتهم

التامة بشأن كيفية تنفيذ السرقة. كجانب من تحرياتهم تخطوا حدّ الاستعانة بطاقمهم الداخلي وسألوا خبراء من كافة أرجاء البلدة بما في ذلك مكتب التحقيقات الفدرالية.

الشيء الذي لم يفعلوه هو استشارة لص محترف.

لقد اقتربوا من الحقيقة على نحو مثير دون الوصول إليها وظلوا معلقين بسبب الافتقار لأي دليل قاطع. حدث هذا إبان الدعوى القضائية المرفوعة من مانديل ضد شركة إدارة المبنى، حيث زعمت أسرة مانديل أن تراخي الأمن جعل السرقة ممكنة. أشار محامي الدفاع الذكي خلال المحاكمة أن ثمة ثنائيّاً آخر قد انضم إلى أسرة مانديل لتناول العشاء تلك الليلة. وقد كانا والديّ فرانسين لافمان، وألم يكن معروفاً عن السيدة لافمان أنها تلتقي بلص مجوهرات مشتبه به يدعى بيل ماسون؟ ألم يكن من الجائز أن فرانسين قد دبرت أمر خروج آل مانديل بصحبة والديها كي يتمكن ماسون من سرقتهم؟

إذا كان هذا ما حدث، فلا يمكن أن تسأل إدارة الشركة عن تراخي الأمن، لأنه حسب أقوال شرطة فورت لوديرديل، ماسون كان أفضل لص متسلل في المدينة، بل كان أفضل لص على الإطلاق، وكيف يزعم أحد أن الأمن كان غير كاف لمجرد أن بيل ماسون اخترقه؟ ذلك لكان أشبه بقول إن الزنزانة كانت غير وافيةً لأن الساحر هوديني تمكّن من الهرب منها. ما من عمارة سكنية ممكن تأمينها من بيل ماسون!

لست أتفاخر هنا. فقط أخبركم بما دار في أروقة المحاكمة.

كان مفهوماً بوجه عام أن هذه محاولة يائسة من محامي المدعى عليه. ولكن على الرغم من ذلك، كان الشخص الوحيد المتورط في القضية الذي توصل إلى نصف الحقيقة. لكن بتخيل أنني فوق مستوى البشر، ابتعد عن الحقيقة، وهي أن دخول هذه الشقة كان في منتهى السهولة، وسأشعر بالإحراج إذا أفصحت عن كيفية دخولي حتى لا أخذل الجميع الذين يعتقدون أنني كنت شبحاً بحق.

لي صديق يقوم بخدعة تحير العقول بأوراق اللعب. كل ما عليك أن تفعله أن تفكر في ورقة ما ثم تبلغه بمواصفاتها. أثناء مراقبتك لكل حركاته، سيخرج ببطء

مجموعة من الأوراق من صندوق ويكشفها، وورقتك ستكون مقلوبة بين المجموعة. هــذا هــو ألعن شيء رأيته في أي وقت. لا سبيل لفعل هذا إلا إذا كان وسيطاً روحانــياً. توسلت إليه لشهور لكي يخبرني بكيفية فعل هذا لأن هذا كان يقتلني. عندما تنازل أخيراً وأخبرني وجدت الأمر مخيب للآمال وندمت على سؤالي.

قضية مانديل مثال جيد لعدم اعتقادي في الأطباق الطائرة القادمة من الفضاء. عندما يواجه الناس أعاجيب وظواهر طبيعية في السماء لا يمكن تفسيرها على نحو فــوري، العديــد مــنهم ينتهون إلى أن هناك مخلوقات فضائية تزورنا. ولكن ما يظهــرونه بالفعــل هو فشلهم في تخيل تفسيرات أكثر قبولاً. نادراً ما تجد ساحراً محتــرفاً يــؤدي في المــسارح يعتقد في ظواهر الأطباق الطائرة القادمة من الفضاء والوســيط الــروحاني، لأنه يعرف كيف أن خداع الناس أمر في منتهى السهولة. ولكــن هــناك شيء لا أفهمه لسبب ما، ويعرفه كل ساحر محترف كما لو كان إنجيلاً، وهو أنه كلما كان الجمهور ذكياً كلما سهل خداعه.

ومع ذلك فهدفي لم يكن خداع حشد من المخبرين المقتدرين الأكفاء. كل ما أردت أن أفعله هو السطو على بعض المجوهرات.

* * *

عــصر ذات يوم في تموز/يوليو 1980 كنت أجلس في فناء كاتي مع بعض أصحابها، ألعب النرد مع توم، زوجها في ذلك الحين، وبين الفينة والفينة أستمتع بالغوص في حمام السباحة. كانوا قد ذهبوا جميعاً إلى حفل فاخر في الليلة الماضية وكانــوا يتبادلون النميمة عبثاً عن كل أعضاء المجتمع الراقي الذين تذكروهم. رغــم تفاوت درجات الصحو في الصباح التالي، كانوا يتذكرون بالتفصيل ما كان يرتديه الجميع.

ثم تطــرقوا إلى موضوع جوزيف وفلورانس مانديل. "كان يجب أن ترى هــذا الخاتم الماسي"K أحدهم قالها فجأة. "لا بد من أن حجمه كان يماثل كرة الجولــف". تــساءلت إذا كان هناك من يرى أذنيّ وهي تتقوّص لسماع ذلك، وخــسرت لعــبات النرد الثلاث التالية حيث أصغيت باهتمام بالغ وأنا أتظاهر بعدم الاهتمام عن قصد.

كـــان يـــشار إلى جوزيف مانديل في الصحافة بـــ "رجل صناعة"، وهو ما أفهمـــه على أنه "رجل أعمال"، ولكن على نحو أكبر وأعلى شأناً وهو بوجه عام يفعـــل شـــيئاً أكثر من مجرد جني الأموال. عائلة مانديل كانت واحدة من الأسر الأكثـــر بـــروزاً في كليفلاند. مورتون مانديل، شقيق جوزيف، كان رئيس مجلس الإدارة والـــرئيس التنفيذي لمؤسسة برمير الصناعية، وجوزيف نفسه كان رئيس مجلـــس إدارة اللجـــنة التنفيذية ومالكاً لعشرين بالمائة من أسهم الشركة. (برمير انـــدمجت منذ وقتها مع فارنيلل للإلكترونيات ليكونا شركة برمير فارنيلل بي إل. ســـي). في عام 1982 بذل مورتون جهداً ضخماً وناجحاً لتجديد قطاع ميدتاون كـــوريدور بكلـــيفلاند الذي كان منهاراً، وهذا كان واحداً فقط من العديد من المـــساعي الخيريـــة الأكثر ظهوراً التي كانوا مرتبطين بها، حيث كانوا يعملون من خلال عدد من المؤسسات الخيرية.

كانـــت هـــذه عائلـــة وفيرة المال. تعرضوا للسرقة ثلاث مرات في منـــزلهم بـــشاكر هايـــتس، ولم يكتنف ذلك الكثير من الغموض لمعرفة السبب: فلورانس كانت تستمتع بتزيين نفسها بالحلى النفيسة الغالية متى كانت وسط الناس. انتقلوا للعيش في شقة راقية في لايندهورست في سبيل مستوى أعلى من الأمن، لكن بينما كنت أستمع لمجموع من الناس حول حمام السباحة يصفون حفل ليلة الأمس، بدا لي أن السيدة مانديل ما زالت لم تفهم بعد. فما جدوى كثرة الحراس والحواجز إذا تجولت وأعلنت عن الجائزة التي بالداخل؟

أكاسيا أون ذا جرين (الذي أعتقد أنهم هدموه ليشيدوا المكان ثم أطلقوا عليه هذا الاسم بعد ذلك) كان مكاناً حصرياً وآمناً، بحيث لا يمكنك حتى الدخول إلى الـــردهة لتتفقد شخص ما على لافتة المستأجرين. كان الوقت قد حان لحشد كافة مهـــاراتي السحرية واتصالاتي الاستخباراتية العالمية... ولكنني قررت الذهاب إلى المكتـــبة العامـــة بدلاً من ذلك. هناك، بحثت عن العنوان وأخذت رقم هاتف آل مانـــديل ورقـــم الوحدة السكنية، ثم عقب هذا العمل المجهد الذي استغرق خمس دقائـــق، مضيت إلى مكتب البنايات الخاص بالمقاطعة وفتشت عن خطط الإنشاء الخاصة بالمجمع كله. كان الموظف الذي خلف المكتب مخبراً عادياً، عرض عليَّ أن

يعــد لي نسخاً لو كنت في حاجة إليها. لم أهتم بذلك، لأن نظام ترقيم الوحدات المفــردة كــان لم يتشكل بعد حينما رسمت الخطط، لذلك لم أتمكن من معرفة أية وحدة تخص آل مانديل من الرسومات وحدها. وكان يجدر أن أعرف هذا مقدماً.

يمكنني تحديد يوم زيارتي الأولى لأكاسيا أون ذا جرين بالضبط: كان ذلك في 29 تموز/يوليو. سبب تذكري هذا التاريخ هو أنه في اليوم الأصلي الذي قررت أن أذهــب فــيه، يوم 27 تموز/يوليو، تعرضت خمس عشرة ولاية في الوسط الغربي وقطاعات جنوب أونتاريو في كندا لزلزال مركزه شمال كنتاكي. انطلقت أجراس الإنذار في كافة أنحاء كليفلاند وكان هناك حشد من سيارات الشرطة والإطفاء في كــل مكان. رغم أن الأضرار كانت طفيفة، إلا أن المدينة بأسرها كانت متوترة بــشدة، ممــا كان يعني أن الناس كانوا أكثر حذراً من أي شيء غير مألوف. بعد ذلك بيومين فقط، أحسست أن الأمور استقرت بقدر كبير.

عمارتــا الشقة السكنية كانتا تشرفان على طريق سيدار المزدحم وكانا جزءاً مــن مجمع مبانٍ يطل من الخلف على ساحة جولف. أوقفت سيارتي ذات الستائر الداكنة عبر الشارع وشرعت في المراقبة.

لم أضطر للمراقبة طويلاً. الشيء الأول الذي أثار دهشتي هو أنه رغم أن كل طــرق المركبات الواردة والخارجة كانت مراقبة عبر بوابة حراسة واحدة افترضت أنهــا مزودة بطاقم حراسة على مدار اليوم، إلا أن الساحات ذاتها كانت مفتوحة على مصراعيها للمشاة.

بعــد عدة ليالٍ، دخلت العقار سيراً لألقي نظرة. لاحظت أن كافة الأبواب الخارجية للعمارة، حتى التي كانت على مرأى من الحراس، كانت مراقبة بكاميرات تلفزيونية والتي كانت بلا شك تسجل باستمرار. كانت معدة إعداداً بارعاً بحق و لم أتمكــن من التوصل إلى كيفية التغلب عليها بسهولة. وكنت لا أزال أجهل مكان الوحدة السكنية الخاصة بآل مانديل.

عدت أدراجي الليلة التالية، ولكن هذه المرة في زي اللص المراوغ، المؤلف من بذلــة عمــل مصنوعة يدوياً بدون أي علامة مميزة يسهل ملاحظتها. كنت حليق الــذقن وممشط الشعر، وانتظرت ظهور مجموعة من الناس. فور ما اجتازوا مكتب

الحراســة، انضممت إليهم بينما اقتربوا من الباب الرئيسي للعمارة. أحدهم فتحه لنفســه ببطاقة فتح، وآخر أبقاه مفتوحاً لي بأدب. صعدنا بالمصعد معاً. خرجوا في منتصف الطريق لأعلى تقريباً واستكملت أنا حتى القمة.

العــثور على جناح آل مانديل كان سهلاً - كان اسمهم موجوداً على الباب - وتوافرت لديّ فكرة جيدة عن مكان تواجد نوافذهم خارج العمارة. غالبية وحدهم الســكنية كانت مواجهة لساحة الجولف، وجزء منها كان مواجهاً للمساحة الشاغرة فيما بين العمارتين. عددت الخطوات من كل طرف لكي أحدد الموقع.

المحطــة التالية كانت السطح، وكنت بالفعل أفكر فيما سأحتاج إليه للوصول إليه فور ما اكتشفت كيف كان مؤمناً، ولكن لا يمكنني القول إنني كنت مندهشاً عــندما وجدت الباب غير مقفل. فشل في التخيل مرة أخرى: إن كنت لا تتصور دخول شخص ما المبنى، فلماذا تقلق نفسك بإغلاق الأبواب الداخلية؟

اهــتديت إلى الموقــع التقريبي لنوافذ آل مانديل عن طريق عدّ الخطوات التي اســترجعتها في ذهني من قبل، ثم بدأت في السير بمحاذاة الحافة وأنا أبحث عن أفنية على الجانب. لم أكن بالضرورة أحتاج إلى العثور على أفنيتهم، كنت فقط أحتاج واحــدة توفر لي ممراً سهلاً لأفنيتهم. كنت مركزاً تماماً على تفحص كافة الزوايا والأركان حتى إنني لم ألاحظ الردهة حتى كدت أقع فيها.

بإمعــان النظر من فوق الحافة، رأيت الردهة متصلة بمنتصف شقة ما. بسبب خــوفي من أن أنسى عدد الخطوات، عدت إلى الحائط الأقصى وبدأت مرة ثانية، وكنت حريصاً على أن أسير بخفة تحسباً لوجود شخص ما بالبيت أسفل مني، ولم أصــدق أنني وصلت إلى الرقم الصحيح في نفس اللحظة التي أدركت فيها الردهة: كانــت تفضي إلى وسط وحدة مانديل السكنية، ولم يكن هناك سوى باب منزلق زجاجــي يفــصل واحدة من حجراتهم عن المساحة الخالية أسفلي. أهذه كانت فكرتهم عن الأمن؟

الــسؤال الوحــيد الفعلي الذي بقي كان "متى". وتمت الإجابة عليه عندما ذكرت لي فران عرضاً بعد بضعة أيام لاحقة أن جوزيف مانديل قام بدعوة والديها على العشاء الثلاثاء القادم احتفالاً بعيد ميلاد زوجته.

"هل دعيت أنت أيضاً؟" سألتها.

"سأكون في نيويورك"، ذكرتني بذلك.

"حـــسناً. إذن أين يقام الحفل؟" سألت محاولاً أن لا أجعلها تراني أكتئب وأنا في انتظار إجابتها.

قالت: "في جراوند فلور".

إنه ليس في مسكن آل مانديل إذن.

تنفست الصعداء ببطء. "تبدو كفكرة رائعة".

* * *

كـــان ذلك مساء يوم ثلاثاء، ولذلك كان التوقيت رائعاً. يميل رجال الأمن المكلفون بحراسة المساكن الخاصة للاسترخاء في أيام الأسبوع غير العطلات، باعتبار أنه نادراً ما يخرج الناس من بيوتهم في هذه الأيام.

كانـــت هذه أول مرة أستخدم فيها لاسلكي الشرطة. كان جهازاً محمولاً، وأعـــددت قراباً كتفياً لكي أحتفظ به بأمان تحت ذراعي. كان هناك سلكٌ متصل بسماعة أذن تحت قميصي. الهدف من لاسلكي الشرطة كان كسب وقت لمغادرة المكان إذا تنبّه رجال الشرطة بطريقة ما لوجودي. كان الجهاز يتفقد كل الترددات الخاصـــة التي تستخدمها الشرطة، حيث يمر عليها كلها مرة كل ثانية. عندما كان يكتـــشف أن هناك تردداً مستخدماً يثبت عليه ويبثه عبر سماعة الأذن. عندما كان يتوقف ذلك الإرسال، يعود مرة أخرى لفحص جميع الترددات حتى يعثر على تردد آخر مستخدم.

بـــسبب مكانة مانديل، كان أدنى شك في خروج أي شيء عن النظام كفيلاً بإحضار نصف قوة الأمن ركضاً وسط زوبعة من المحادثات عبر اللاسلكي. كانت هـــذه واحدة من مخاطر سرقة الأثرياء: إذا كنت تعتقد أن الشخص الفقير العادي يتلقى نفس الاستجابة من قوة الشرطة المحلية التي يتلقاها سادة المجتمع، فإنك واهم. لـــيس هذا لأن رجال الشرطة والإطفاء يعتقدون أن الثري أفضل منك أو مني. بل على العكس تماماً، في الواقع، ولكن ما يعرفونه هو من الذي يستطيع أن يوقعهم في متاعب جمة إذا لم يظهروا في الحال.

كنت في منتصف الطريق بين ضاحيتين كبيرتين، لايندهورست وبيتشوود، وكانت كافة ترددات الشرطة لكلا المكانين معدة على اللاسلكي. كان الحصول على هذه الترددات بمثابة عمل متميز آخر من أعمال الجاسوسية. عندما ذهبت لشراء الجهاز، تصرفت وكأني مشتري معارض ومتردد، غير مقتنع أن هذه الأداة ستكون ممتعة على الإطلاق. مالك المتجر، الذي كان شرطياً سابقاً، قال "أتعرف؟ يمكنك التقاط كافة مكالمات الشرطة على هذا الجهاز". "هراء"، قلت له. فأجاب: "أنا أعني ما أقول. هاك - انظر".

جذب كتاباً نحيلاً من تحت الطاولة وأخذ يقلبه بإصبعه لعدة ثوانٍ باحثاً عن شيء ما، ثم أدخل كل ترددات شرطة لايندهورست في الجهاز. عبرت عن دهشتي على نحو طبيعي، وسألته إذا كان بإمكانه إدراج ترددات مدينة أخرى في نفس الوقت، مثلاً بيتش وود، "قطعاً"! قالها بسرور، راجعاً إلى الكتاب ثانية وهو يدخل جميع ترددات المدينة الثانية. "يا للروعة"! صحت بفرح غامر. ولكنني الآن رغبت في هذا الكتاب أيضاً.

نظرت حولي، متسائلاً عن مدى صعوبة اقتحام هذا المكان، وانتزاع الكتاب ثم الاختفاء. سأدخل وأخرج في لمح البصر، ومن المحتمل أن أخاطر بإطلاق جهاز الإنذار ثم ألوذ بالفرار في الوقت المناسب. كمنت المشكلة في أنه فور إدراك المالك لاختفاء الكتاب، فربما يتسبب هذا في بعض المشاكل. حسب خبرتي بهذه الأمور، ستبادر أقسام الشرطة بتغيير تردداتها في الحال.

ربما أمكنني الاقتحام بهدوء وأنسخ الصفحات التي كنت في حاجة إليها وأنسل للخارج دون أن يعرف أحد بما أخذته، أو حتى إنني كنت هناك إطلاقاً. كان المالك شرطياً سابقاً، وربما يكون هذا هو سبب حصوله على الكتاب في المقام الأول، لذلك فهو ليس غبياً فيما يتعلق بالأمن. أكان ممكناً أنه يأخذ الكتاب معه لمنزله كل ليلة لكي يجعله آمناً؟

بغض النظر عن كيفية إزماعي الخوض في هذا، كنت في حاجة لرؤية شكل غلاف الكتاب. التقطت اللاسلكي ثم رفعته عدة مرات كما لو كنت أتفقد وزنه. "هل لديك أية أدوات أصغر منها؟ فليس عندي مساحة كافية في شقتي".

"دعني ألقِ نظرة"، قالها ثم استدار بعيداً نحو صندوق عرض زجاجي.

ملت فوق طاولة المكتب وكأنني أتتبع نظراته، ثم نقفت الكتاب بسرعة وهو مغلق وأدرته نحوي لأقرأ ما على الغلاف.

"راديوشاك". دولار وخمسة وتسعون سنتاً.

كتمت ضحكة، ثم أبلغت الرجل أن اللاسلكي الذي أخرجه ربما يفي بالغرض، وسألته إذا كان يعرف من أين يمكنني الحصول على كتاب من كتب الترددات هذه؟

"من هنا" أجابني، مشيراً إلى رف لم ألحظه من قبل. كان هناك ما يقرب من ستين أو سبعين نسخة. النسخة التي كان يستعملها غطت منطقة الوسط الغربي وبها ترددات الشرطة، الإطفاء، التحقيقات الفدرالية وكل خدمة عامة أخرى يمكنك تخيلها.

بأقل من خمسة عشر دولاراً ابتعت مجموعة غطت المدينة بأكملها.

* * *

يجب أن أعترف أنني كنت أكثر توتراً عصبياً من المألوف بينما كنت أقود سيارتي نحو مكان على الناحية المقابلة للشقة من الشارع. حراس الأمن المدججون بالسلاح لديهم نزعة نحو عقدة البطل ولا سيما إذا كانوا في الخدمة منذ زمن طويل و لم تسنح لهم الفرصة لفعل أي شيء بخلاف الجلوس في كابينة. هم يدركون أنهم إذا كانوا أكفاء في مهامهم، فالحوادث الخطيرة ستكون قليلة ومتباعدة الحدوث والناس سيسلمون بذلك بدون وعي، أو يتساءلون إن كانوا يحتاجون إليهم على الإطلاق، أو ربما يعتبروهم مصادر إزعاج.

حراس الأمن، بعكس رجال الشرطة، ليس فقط لديهم نزعة للمبالغة في ردّ الفعل متى يطرأ حادث، ولكنهم أيضاً ليسوا على دراية "بقواعد الاشتباك" الملائمة. الرجل الذي أصابني بالأعيرة النارية في بومبانو كان مثالاً حياً: ما من شرطي يتحلى بصواب العقل سيصوب رصاصته تجاه شخص ما كان يركض بعيداً عنه في الردهة.

الآن لم يتسع لي الوقت للتقييمات المتأخرة. وجدت بقعة جيدة عبر الشارع ولكن بمنأى عن نظر كشك الحارس. أدواتي كانت في جعبة أنيقة من الجلد متعددة

الأغـــراض، وكان معي حبل نحيل ولكن متين جداً ملفوفاً حول خصري ومتخفياً عن النظر تحت سترتي الجلدية الباهظة الثمن.

لم أضـــطر لتفحص اللاسلكي، لأنني شحنته ببطاريات جديدة وكنت أصغي إليه طيلة النصف ساعة الماضية للتأكد أنه لم يكن هناك تواجد غير مألوف لقوات الشرطة في المنطقة الليلة.

في حوالى السادسة وخمسة وأربعين دقيقة أبصرت سيارة مانديل وهي تتوقف لمـــدة وجيـــزة عـــند الكـــشك قبلما ينطلق بها خارجاً للعشاء. تفحصت ساعتي واســـتقريت في مكاني لربع ساعة، وهي الفترة المسموح بها، حتى أحتسب إذا ما عادوا من أجل أي أشياء نسوها.

في السابعة تماماً تحسست أسفل ذراعي وقمت بتخفيض صوت اللاسلكي، ثم نـــــزعت سماعة الأذن وتركتها معلقة داخل سترتي. بعد أن وضعت قبعة رمادية علـــى رأســـي، وضـــعت مفـــتاح السيارة على ممسحة الأرجل والتقطت الجعبة وخرجت، ثم تأكدت من أن الباب ليس مقفلاً ثم أغلقته. المفتاح الذي تركته على الأرض لم يكـــن متصلاً بأي مفاتيح أخرى، حتى لا أرتبك وأنا أبحث عنه وسط المفاتيح إذا كنت في عجل من أمري.

ســـرت تجـــاه الممـــر الذي يفضي لكشك الحراسة، وكنت أنوي التوقف على مسافة ما يقرب من عشرين ياردة (18 متراً) قبلما أدركته. ذلك لكي أحظى بفرصة للانـــتظار دون أن يـــراني أحد حتى تأتي مجموعة متبرعة من الناس لكي أدخل معهم وأيـــضاً لكي آخذ بضع أنفاس عميقة وأملأ نفسي بالعزم والتصميم. وأيضاً سيكون لديّ وقت لدخول الساحة من طريق آخر والانضمام إليهم عند باب المبنى.

ولكـــن عندما بدأت في إبطاء السير، وقفت سيارة أجرة وخرج منها مجموعة من خمـــسة أفـــراد، وكانـــوا مناســـبين تماماً: شبان، صاحبين وليسوا بغيضين، يتسمون ويمازحون سائق التاكسي، ومن الواضح أنهم كانوا متوجهين لقضاء أمسية مرحة ممتعة.

كانـــت فرصـــة رائعـــة لا يمكن تفويتها. جذبت قبعتي لأسفل فوق جبهتي وانضممت إليهم بخفة بينما اجتازوا الكشك ولوحوا بمرح للحارس بالداخل، الذي بادلهم الابتسامة وأشار إليهم بدخول المبنى.

استدرت برأسي بمنأى عن الكاميرا الموجودة بالكشك، ثم تلك المعلقة على الباب الرئيسي للمبنى، وابتسمت ابتسامة مشرقة للشابة عن يميني لكي أتستّر على حركاتي. "يبدو أنكم جميعاً متوجهين لقضاء وقتٍ ممتعٍ الليلة".

"بل متوجهين للحظات ملل" قالتها بضحكة انعكس صداها على الآخرين. "لهذا ضحكنا قليلاً قبل أن نذهب".

وجّه شخص ما ورائي إبهامه تجاه الكشك في الخلف. "حقاً هذا المكان محكم الغلق"، قالها بينما ضغط على زر لمحادثة من سيزوورونه.

"شيء جيد"، قلتها، وأنا أهبط لأنظر حيث كان يشير. "لا يمكن أن تكون حذراً للغاية".

"بلا ريب"، قالها شخص آخر بينما فتح الباب مصدراً أزيزاً. ثم تركه مفتوحاً لي. بينما خطوت للداخل وشكرته، قال: "جميع أنواع الحثالة التي ترغب في سرقة الناس". أومأت بالموافقة بتعاطف مع ملاحظته اللاذعة.

"إلى أين أنت ذاهب؟" سألني ذات الشخص بينما دلفنا جميعاً إلى المصعد.

انتظرت ريثما يضغط رقماً، وكان الطابق الثالث، وقلت "الطابق العلوي، شكراً".

تبادلنا المزيد من بعض الأفكار عن الأمن حتى توقفنا بالطابق الثالث. تمنينا لبعضنا البعض قضاء ليلة سعيدة ثم خرجوا.

كان كل شيء يسير على ما يرام.

* * *

لم أتمكن من رؤية نافذة الشقة من الشارع وشعرت بالراحة عندما وصلت إلى الردهة ووجدت أن الشقة كانت في ظلام حالك. ذلك لا يجعل التحرك بالداخل أمراً سهلاً ولكن هذا معناه أنه على الأرجح ما من أحد في المنزل. على أية حال، لم أفعل شيئاً سوى مراقبة المكان لما يقرب من عشر دقائق، لأرى إن كانت هناك أي أنوار مضاءة أو إن كانت هناك أية علامات لوجود حركة.

أعدت وضع سماعة الأذن عقب مبارحة المصعد واللاسلكي واصل تفحص ترددات الشرطة، وكان يتوقف من وقت لآخر ليبث بعض من المحادثات الروتينية

فيما بين الدوريات ووحدات الإرسال. "تركت المكان هناك، إنني هنا الآن، سأذهب إلى مكان آخر، أين أنت، لم أرَ أي شيء".

كان ذلك مزعجاً للغاية. كل إرسال يبدأ وينتهي بتشويش مفاجئ، مما أحدث حالة من الصخب على السطح الخامد الساكن الذي كنت أحاول جاهداً ألا أحدث أدنى جلبة عليه على الإطلاق. إن محاولة توقع أجزاء الحوار مقدماً كانت أشبه بالتعذيب بالمياه الصينية، وذلك جعلني عصبياً. أسوأ الأمور قاطبة هو أنه كان يعيق أهم أداة في ترسانة أسلحتي، ألا وهي حواسي. دأبت على الاعتماد عليها، وبينما لم أقلق بشأن إضافة معلومات لهذا المزيج، ولكنني أقلق بشدة بشأن تعريض عيني وأذني للخطر. كنت أجهد نفسي لكي أسمع أي أصوات منبعثة من داخل المسكن، وفي كل مرة يلتقط اللاسلكي إرسالاً للشرطة، كنت أستغرق بضع ثوانٍ لإعادة "ضبط" جهازي السمعي كي أتمكن من الإنصات ثانية.

انصرمت عشر دقائق وقد حان الوقت للتحرك. شرعت في فك أزرار سترتي عندما انطلق تشويش آخر في رأسي. مددت يدي تحت ذراعي وخفضت صوت اللاسلكي تماماً. تشغيلها وتفحصها كل بضع دقائق أفضل من أن أصاب بالجنون في انتظار سماع هذه الضوضاء المزعجة مرة تلو الأخرى.

ارتديت قفازاً جلدياً خفيفاً وشرعت في حلّ رباط الحبل من حول خصري وكنت أدير جسدي مع كل لفة كي لا يلتف الحبل ويصبح من العسير التعامل معه. لففت طرفاً منه حول مدخنة بالقرب وأمنت الرباط بحلقة التسلق المعدنية التي ربطته فيها عصر ذلك اليوم. بالجعبة المتعددة الأغراض معلقة على كتفي، أنزلت نفسي فوق حافة الردهة وشرعت في التسلق لأسفل يداً بيد.

توقفت ثانية فور هبوطي، بيد أنه لم يكن ثمة علامة لحركة في داخل الشقة. كان الوقت قد حان للقيام بما كنت أحسبه أصعب جزء من المهمة، وهو اجتياز أجهزة الإنذار التي تحمي هذا المسكن فضلاً عن التي تحمي المبنى عموماً. لم أستطع أن أعتمد على أن آل مانديل تركوها بلا تشغيل، رغم أنني كنت أتمنى ذلك، و لم يكن هذا غير منطقيٍّ، طالما أن غالبية الناس الذين يتغيبون عن مساكنهم لأقل من بضعة أيام نادراً ما يبالون بتشغيلها.

الباب الزجاجي المنزلق الذي يصل داخل الشقة بالمنطقة في الهواء الطلق كان موصداً. هذا معناه أنه حتى لو كانت أجهزة الإنذار غير مشغلة، لم يكن لديّ سبيل لمعــرفة ذلك، وكان عليَّ افتراض أن كل شيء كان مشغلاً، لذا كنت في حاجة للتعامل مع هذا قبل أي شيء آخر.

لم أتمكن من العثور على إطلاق مغناطيسي. وكذلك لم أجد أية أسلاك ممتدة من القطعة المنزلقة، والتي لاحظت أيضاً، أنه لم تظهر صور مطبوعة لأي شركة من شركات أجهزة الإنذار التي تحب أن تنشرها في كافة أرجاء المكان، لكي تعلن عن نفسها أكثر من بث الخوف في نفس المقتحمين. لم أجد أي ومضات ضوئية ذات مغــزى على لوحة جدارية داخل الشقة. إما هذا كان من أكثر الأنظمة التي رأيتها من قبل تقدماً أو....

مــستحيل. أقنعت نفسي أنه لن يحدث انطلاق لجرس إنذار صاخب وأجش وفتحت الباب المنزلق بعتلة. كان ذلك سهلاً، مما جعل الأمر منطقياً تماماً، لأنه من عساه يضع قفلاً محكماً على باب من المفروض استحالة اختراقه في المقام الأول؟

مع ذلك، لبثت ساكناً لأنصت لأية علامات قد تشير إلى أنني أطلقت إنذاراً خفياً، وأخذت وقتي في النظر فيما حولي.

كانـــت الشقة مذهلة: ضخمة ومليئة بالأثاث الباهظ الثمن، والتحف الفنية تعم المكان كله وكان لها هذا المظهر الذي لا تخطئه العين لشقة تم تصميم ديكورها باحتراف حتى إنها بدت أشبه بمتحف وليس مسكناً يقطن به آدميون حقيقيون.

هـــدفي كـــان غرفة الملابس، ولكني فتحت اللاسلكي أولاً لتفحص إشارات لاسلكية غير مألوفة، ثم أغلقته، ومضيت إلى الباب الأمامي وأغلقت مزلاج البيت بإحكام. في حالة حدوث متاعب فذلك سيمنحني بعض الوقت.

المكـــان كـــان يغلفه السكون بشكل لا يصدق. الأنباء السارة والتي كانت طفيفة، كانت أنها ستسمح لي بسماع علامات المتاعب بسهولة. أما الأنباء السيئة، والتي كانت أعظم، أنه لم يكن ثمة جلبة لتستر أي أصوات ربما أحدثها. قد تظن أن غـــياب السكان في منطقة ما ميزة للص، والأمر كذلك فعلاً، لكن لا شيء يماثل النشاط والصخب لحجب أي صوت ينجم عن عملية السطو أثناء ارتكابها.

غرفة الملابس أيضاً كانت هائلة، وكان هناك أدراج وخزائن وخزانات ذات رفوف وأدراج في كل مكان. مع ذلك، لم أكن قلقاً بشأن تفتيشها جميعا، لأن أولئك الناس وضعوا علامة تقول "ما تبحث عنه موجود هنا": كانت هناك خزانة واحدة موصدة.

وجدتها على الفور وميزتها بسهولة (فيم وضع قفل محكم على خزانة من الممكن فتح جوانبها بعطسة واحدة قوية؟) وأوشكت أن يغشى عليَّ لرؤية الكنوز بداخلها. أحجار، ماس، زمرد وياقوت براق متلألئ مثل زينة عيد الميلاد، ويبدو أن الدرج كان يتأوه تحت وطأة وزن كل ما فيه من ذهب. أتذكر تفكيري، "مع كل هذه الكنوز الجميلة المودعة بالخزانة، فما الذي ترتديه على العشاء!" خاتم ماس واحد كان من السهل تجاوز وزنه لخمسة عشر قيراطاً، بالرغم من أن الحجر نفسه لم يبدُ عالي الجودة.

سارعت بوضع كل شيء في الجعبة ثم أعدت زلج الدرج وأعدت غلق الخزانة. قد يبدو هذا بلا فائدة، ولكن كان إحساسي دوماً أنه ليس منطقياً ترك علامات تشير إلى أنه حدثت سرقة. كلما زاد الوقت لاكتشافها، كلما زاد الوقت فيما بين توقيت عملية السطو وبداية أي تحقيق. بمرور الوقت يصعب على الشهود تذكر التفاصيل أو على الأقل تحديد أوقات معينة لأشياء شاهدوها، وإن كنت محظوظاً للغاية، فربما تصعب على الجميع تحديدً اليوم الذي ارتُكب فيه السطو، مما يجعل نفي المتهم تواجده في مكان السطو أيسر بكثير، لأن سؤال "أين كنت ليلة البارحة فيما بين السابعة والعاشرة؟" مختلف تماماً عن "أين كنت خلال الأيام الثلاثة الماضية؟" ربما تأتي فلورانس مانديل للبيت وتذهب من فورها للخزانة لترتب حليها المسائية وتكتشف ما قد حدث، ولكن أيضاً ربما لا تقرب الخزانة الليلة أو حتى الغد.

ألقيت نظرة خاطفة حول باقي الشقة بيد أنني لم أجد أي شيء ذي قيمة عالية يمكن أن أضعه بالحقيبة. أتفقد اللاسلكي مرة أخرى ثم العودة للردهة ثم لأعلى الحبل. استغرق الأمر مني ثانية لأدرك لماذا كان التسلق عسيراً، ثم ابتسمت حينما فهمت سرعة: كان هذا بسبب وزن المسروقات الزائد في حقيبتي والتي لم

تكــن مليــئة بها في طريقي للنــزول. (نشرت صحيفة بلاين ديلر بكليفلاند أن "اللــصوص" قاموا بتعبئة كافة المجوهرات في حقيبتين خاصتين بعائلة مانديل، لكن من أين واتتهم هذه الفكرة، لا أدري).

حيــنما هيأت نفسي فوق حافة الردهة ثم إلى السطح، أدركت أنني أغفلت إعــادة المــزلاج المحكم على الباب الأمامي إلى مكانه. وما كانت لتتمكن عائلة مانــديل من العودة للداخل بدون مساعدة، وهذا يعني معرفتهم بحدوث شيء ما. وهذا يؤثر كثيراً في محاولة إبطاء اكتشاف جريمة السطو.

ولكن كان من المستحيل أن أعود ثانية لأسفل. جذبت الحبل لأعلى وأعدت لفــه وإحكامه حول خصري، ورفعت الحقيبة مرة ثانية وهبطت على الدرج مؤثراً إياه على المصعد. انتظرت ريثما سمعت بعض الناس في الردهة قبيل خروجي من بئر السلم. وضعت الحقيبة على كتفي، والتي حمت وجهي من كل كاميرات الفيديو، ثم ســرت خارجاً من الأبواب الرئيسية، مجتازاً مكتب الحراسة ثم إلى الشارع وإلى سيارتي.

كان هذا سهلاً للغاية. لم تطرأ مفاجآت و لم تكن هناك لحظات توتر عصبي، وبــدت وكأنهــا غنيمة ضخمة. نشرت الصحف أن القيمة تقدر بمليون دولار. اســتناداً إلى ما كانوا يعرفونه، كان ذلك دقيقاً تماماً، ولكن "ما كانوا يعرفونه" لم يكن دقيقاً، حيث اكتشفت ذلك في غضون ساعات.

تــركت الحقيــبة بمتجر ويللينج الذي كانت معي مفاتيحه، وذهبت للبيت. عادت فران من نيويورك بعدها بيومين. لم أذكر ذلك قط لها، وبدت عليَّ إمارات الدهشة حينما طالعت النبأ في الصحف وأخبرتني بكل ما فيه.

* * *

في اليوم التالي استرددت الكيس وتأهبت لإلقاء نظرة على الغنيمة عن كثب في إضــاءة جيدة، وهنا كانت تنتظرني المفاجأة الأولى بشأن هذه المغامرة الطائشة: الخــاتم الماسي الضخم الذي تبين أنه تسعة عشر قيراطاً، تبين أيضاً أنه مزيف. كان تقلــيداً بارعاً، ولكن بمجرد التطلع إليه تحت عدسة الجواهرجي الخاصة بي لم يكن هناك أدنى شك في أنه مزيف.

مقاوماً شعوري بالغثيان، نبشت ما بداخل الحقيبة ثم أزلت الأدوات وقلبت الحقيبة فوق مائدة العمل. فور ما تم طرح كل المحتويات، شرعت في تفحص كل قطعة على حدة. كان هناك العديد من القطع المزيفة، بما فيها دبوس ماسي يزن عشرة قراريط، ولكن من دواعي راحتي الكبرى أنه كان هناك العديد من المجوهرات الأصلية أيضاً. بما يكفي لجعل العملية بأكملها تستحق العناء فعلاً.

لم يكن أمامي سبيل لمعرفة إن كانت أسرة مانديل تعرف بشأن القطع المقلدة، أم علمت بأنه تم سلبها الآن مرتين: مرة بواسطتي وأخرى عن طريق الذي باعهم المجوهرات المقلدة.

ما أعلمه أنها طالبت بالمليون دولار كاملاً في دعواها القضائية.

* * *

حسب جميع وسائل الإعلام، غضب جو مانديل بشدة بسبب تعرضه للسرقة. لم يكن ذلك بسبب الخسارة المالية أو بسبب أن بعض القطع كانت لا تعوض، ميراث أسري لا مثيل له، أو حتى لأن شخص ما تحلى بالشجاعة والوقاحة لغزو "فضائه". بل كان لأنه انتقل بعائلته إلى منطقة جديدة بالتحديد لأسباب أمنية، والآن سطا عليه بعض اللصوص مرة أخرى وكأن شيئاً لم يكن.

مانديل لم يصبح رجل الأعمال الناجح بتلقي الضربات وهو ساكن. لقد أقام دعوى قضائية ضد مدراء مجمع الشقق، ودعواه كانت صريحة وسهلة: لو كان نظام الأمن يعمل كما يجب، لما أمكن لأحد أن يسرقه. حقيقة أن هناك سرقة وقعت كانت بمثابة دليل على أن النظام إما كان غير كفء أو لا يعمل وقتها وبناء عليه فإدارة الشركة كانت مسؤولة.

كفالة الأمن نقطة هامة في بيع الأملاك العقارية، ولكن أغلبها، مثل منطقة أكاسيا أون ذا جرين، كانت بلا فائدة. إذا أردت معرفة مدى تأمين ملكية ما، فلا تسأل شرطياً، بل اسأل لصاً. انظر إلى بعض كتيبات مبيعات الأنظمة الأمنية وستدرك أن الهدف الأكبر لمعظمها هو حمايتك من نقاط ضعفك البشرية، مثل النسيان والكسل والرغبة في عدم الإزعاج. كل شيء يكون

أوتوماتيكياً قدر الإمكان، حتى لا تضطر لتذكر قفل الباب أو إرهاق نفسك بضغط زر ما في كل فترة. من المستحيل عمل هذا على نحو كامل، ويعتمد اللصوص بشدة على الرضا الذاتي وعدم المبالاة عند ضحاياهم. غالبية الناس الذين يقيمون في مناطق مزدحمة بالسكان لا يعيرون الأمر اهتمامهم إذا انطلق جهاز إنذار سيارة، مفترضين أن مالكها قد شدّ اللولب (أو الصُمولة) ثانية. تستشيط الشرطة غضباً من الإنذارات الزائفة، وهذا يخيف العديد من الناس فلا يشغلون أجهزة إنذاراقم على الإطلاق. (أعلنت شرطة لوس أنجلوس حديثاً أنها لم تعد تستجيب بعد الآن لإنذارات السرقة التي لم يتم التحقق منها). الأمر الأسوأ والأكثر جنوناً هو أن الناس الذين لم يتعرضوا للسرقة لفترة طويلة يأخذون انطباعاً بأنه ليس من المحتمل أن يتعرضوا للسرقة في المستقبل، لذا فلِمَ المبالاة بعناء الأمن؟ كل هذا يلعب عليه اللص بإحكام، والجلوس للتناقش بشأن "الأنظمة" يفتقر إلى المغزى الكلي.

لم أتمكن من متابعة محاكمة مانديل عن كثب. كانت وقائعها مغطاة بالصحف تفصيلياً، لكن، بينما كنت بالسجن في تلك الآونة بشأن لا علاقة له بهذا الأمر (استغرق سير إجراءات المحاكمة أربع سنوات بعد السرقة)، لم أكن بالفعل متابعاً للتفاصيل واضطررت لتجميع مفرداتها بعد ذلك. لا يمكنك تخيل كم كنت مصدوماً باكتشاف أنني كنت عنصراً أساسياً في محاكمة عن جريمة، على قدر ما أعلم، لم تشتبه الشرطة حتى بأني اقترفتها.

هذا الكلام مبسط للغاية، لكن حجة محامي أسرة مانديل الأساسية، دونالد تريسي، كانت أن الأمن بأكاسيا أون ذا جرين كان متراخياً للغاية حتى إن أي شخص يستطيع الدخول بدون اكتشافه. واستشهد بباب السطح غير الموصد كمثال.

محامي إدارة الشركة، جون مارتينديل، دافع بأن الأمن كان ممتازاً وباهراً، وأن الشخص الذي يتحلى بمهارة غير عادية فقط يمكنه الدخول. هذا بالقطع كان هراءً، كما تعرف الآن، وليس بسبب باب السطح غير الموصد وحسب. بصراحة، كانت هذه هفوة في منتهى الصغر. إن كان مغلقاً، فربما منعت مراهقاً من

الدخـــول، ولكن بالنسبة للص خبير حتى وإن كان بمهارة عادية، كل ما عليه فعله هو إضافة بضع دقائق لوقت العملية.

إنـــي لا أحـــاول التقلـــيل من شأن ما أنجزته بتنفيذي للعملية دون أن يتم اكتشافي. كانت عملية جيدة، واحدة من أفضل ما أحرزته، ولكن ليس لكوني أنا الفاعـــل فهـــذا يعني أنه لم يكن في وسع أحد آخر القيام بها. لا يمكن غفران عدم تزويد الباب الزجاجي المنزلق بشقة مانديل بجهاز إنذار، ولا سيما أنه كانت هناك ردهة ضخمة متصلة بالكامل بالسطح وتفضي إليه. أيضاً كان عدم وجود أجهزة استـــشعار الحركة بمثابة ثغرة خطيرة. بدا أن الافتراض الذي وراء كل ذلك هو أنه لم يكن هناك من داعٍ لفعل كل هذا إذا كان من المستحيل لأي شخص أن يدخل الـــسطح في المقام الأول، وهذا الافتراض كان هراءً. لو كنت أعلم في وقت مبكر أن الحـــراس كانـــوا منتبهين أكثر مما كانوا، مما يجعل في الدخول العرضي للمبنى مخاطـــرة، لكـــنت وجدت طريقة لتسلق الجدران الخارجية، حيث إنني فعلت هذا مراراً، أو دخلت إلى المرآب في سيارة خدمات.

طرأ لي أيضاً فيما بعد أنني إذا لم أغفل فتح مزلاج باب الوحدة، فربما حاول محامـــي إدارة الـــشركة إلصاق تهمة السطو بآل مانديل أنفسهم. بعد كل شيء، بجانـــب تأكـــيد الحارس أن أسرة مانديل عادت للبيت لتجد شقتها موصدة من الداخل، لم يكن هناك أي دليل يثبت أن أي أحد خلاف جوزيف وفلورانس كان دخل بالفعل الوحدة السكنية. لم يتم اكتشاف أي أثر لوجودي.

لم يتم إدانتي بالسطو أبداً. لم يستجوبني أحد بشأنها، و لم يقدم أي دليل على أنـــني كنت حتى بالولاية وقت ارتكاب الجريمة. وهذا كان ينطبق على فران، التي كانـــت في نيويورك و لم تعرف ما حدث إلا حينما عادت. على الرغم من ذلك، مـــن الناحـــية النظرية، المحاكمة كانت مدنية، وليست جنائية، والمدعى عليهم لم يكونوا ملزمين بقواعد الإجراءات الجنائية في محاولة لعمل القضية ضدي. لو أمكن لمحامـــيهم إقناع المحلفين أنني ربما أكون قد اقترفتها، لكان ذلك كافياً لإخراج إدارة الـــشركة مـــن الإدانة. وبعد كل شيء، ليس لأن أعظم لص متسلل في العالم قام بالسطو على المنـــزل فهذا يعني أن الأمن كان سيئاً.

يجب أن تحب النظام القانوني الذي يعطي الحق للمدعى عليه أن يبني حجته على ذنب شخص ما لم يكن حتى مداناً باقتراف الجريمة. كان ذلك أشبه بإدانتي بقبول رشوة في حين أنك بريء من إعطائها لي.

أيضاً إنه النظام الوحيد الذي فيه يمكن لقضية كهذه أن تستغرق أربع سنوات لكـــي تحال إلى المحاكمة. في الواقع ذلك الإبطاء أعان الدفاع. تم إلقاء القبض علينا أنا وفران في أيلول/سبتمبر 1984 (سنتطرق لهذا لاحقاً)، والتحقيق الذي أدى إلى ذلـــك أظهـــر دلـــيلاً مادياً على أننا عرفنا بعضنا البعض وقت سرقة آل مانديل. اســـتدعى مارتينديل رئيس شرطة ليستر لاجاتا المدعى شاجرين فولز – إلى منصة الـــشهادة، الـــذي أورد صـــوراً فوتوغرافية مؤرخة والتي تم التقاطها أثناء مداهمة وظهرت فيها أنا وفران معاً مبكراً عام 1980.

الجزء المفضل لديّ على الإطلاق كان عندما أشرك مارتينديل عدوي القديم، نائـــب رئـــيس شرطة فورت لوديرديل، جوزيف جيروينـــز، الذي سرد روايات مـــثيرة عن مهارتي وجرأتي ولقبني بـــ "اللص الأستاذ الذي يجعل جاك مورفي يبدو كهـــاوٍ" (كان يشير إلى "مورف ذا سيرف" الذي سطا على الياقوتة الزرقاء ستار أوف أنـــديا من متحف في نيويورك ولكم كرهت المقارنة لأن مورفي كان فاسداً ومـــنحلاً، ورغم ذكائه الحاد إلا أنه غالباً ما كان يتصرف كأحمق. لقيته بعد ذلك ببضعة أعوام وأعجبت به شخصياً حتى أقل مما كنت وأنا لم أره). قال جيروينـــز إنـــي كـــنت الشخص الوحيد الذي يمكنه القيام بهذه العملية، وكنت لأعتبر هذا إطـــراءً لولا أنه كان هراءً، فشل آخر في التخيل. على الأرجح لم يكن جيروينـــز غاضـــباً لأنـــي أفلت من قبضته، ولكن أسوأ، لأنني قد أكون عدت أدراجي ثانية لممارســـة السطو. بالتطلع للماضي الآن، لا أظن أنه كان يكرهني بالفعل شخصياً؛ كـــان يكـــره المجـــرمين وحسب، ولا سيما الذين تمكنوا من الإفلات والاستهزاء بالقانون وسلطاته. عندما أدلى بشهادته في محاكمة مانديل، ابتسم خلالها كثيراً على ما يبدو، وأخبرني المشاهدون أنه لم يبين قط ذرة عداء تجاهي.

خطة الدفاع لم تنجح تماماً – رفضت هيئة المحلفين تصديق إمكان أن شخصاً ما اقتحم المكان في حين أن النظام الأمني يعمل بإحكام ودقة – لكن ربما وفّر ذلك

على إدارة الشركة بعض المال. مانديل كسب قضيته، ولكن بدلاً من المليون دولار الـــذي رفع دعواه مطالباً به، منحه المحلفون خمسمائة ألف دولار. تخميني هو أنه، بالأخـــذ في الاعتبار الجواهر المقلدة، النصف مليون غطى الخسارة الفعلية تقريباً، رغـــم أنه ربما يكون ذلك ليس المبلغ الذي دفعه إذا كان لا يعرف بأمر المجوهرات المقلدة.

كما قلت في فصل سابق، تقريباً كل من سرقته حقق مكاسب في العملية. آل مانـــديل كان من الممكن أن يحققوا أيضاً مكاسب لو كانوا قد قاموا بالتأمين على المجوهرات. بدلاً من ذلك، لم يحققوا مكاسب أو خسائر، وهذا لأجل حظهم، لأن هناك منحنى ساخر بشدة في هذه العملية كلها لا يعرفه المشاركون.

واصـــلت المحاكمة سيرها بمعرفة القاضي جون. جي. ماكمونجيل الذي سمع ذكـــر اسمي بيد أنه لم يرَ وجهي وفيما يبدو أنه لم ينظر للصور التي أوردها الرئيس لاجاتـــا بعناية. كان هو أيضاً القاضي في الدعوى القضائية التي تورطت فيها فران منذ عامين ماضيين، والتي أدليت فيها بشهادتي. وقتها كان أبصر وجهي ولكن ظن أن اسمـــي جـــون ويللينج. القاضي كان الشخص الوحيد في محاكمة مانديل الذي كـــان بإمكانه الربط بين العناصر واكتشاف الأمر برمته، لكن لم تكن لديه فكرة عن أن الرجل الذي امتدح جيروينـــز مهارته لحدٍّ يفوق الوصف كان ذات الرجل الذي التقى به في قاعة محكمته منذ عامين فقط.

القسم الرابع

19

هدوء عائلي

شـــرعت بارب أخيراً في إجراءات الطلاق. كنت لا أزال هارباً و لم أستطع الظهور في أي من جلسات الاستماع بدون أن يلقى القبض عليَّ، ولكنني لم أكن في حاجـــة للتواجد هناك بأية حال، لأنني لم أكن معارضاً سواء في الطلاق ذاته أو في تقـــسيم الأملاك. ظفرت بكل ما كنا نمتلكه، بما في ذلك منـــزلان في فلوريدا، كل حسابات البنوك، العديد من السيارات، الأرض التي في أوهايو وما إلى ذلك. بالنـــسبة لي، كانت تستحق كل ذلك، وأنا أردت أن تسير الأمور هكذا، رغم أن هذا جردني من كل شيء.

كـــنت قد عشت في شقة في جورج تاون فيلاز لعام ونصف تقريباً، وعندما كنت بالمدينة، كانت تأتيني فران بصفة يومية تقريباً. حينما سافرت إلى أماكن مثل فلوريدا وكاليفورنيا وساراتوجا سبرينجز وأطلنطا وتورونتو، كانت ترافقني عادةً. على قدر ما أحببت البقاء معها، لم أرغب في رؤية الحياة التي هيأتها لنفسها تنهار، ودأبت على حثها للعودة لمنـــزلها. لم أكن أعرف كيف كان زوجها يتحمل غياها الدائم.

بالـــتدريج عرفت كل ما يتعلق بي، ورغم ذلك ما كانت لتتركني. في نفس الـــوقت، أصبحت ستاراً كبيراً يواريني، بدون أن تدرك ذلك. عاشت فران وسط علـــية القوم طوال حياها وتحركت بسهولة وسط دوائر ذوي المال الوفير. بسبب وجـــودها بجانبي، لم يكن هناك مكان أعجز عن الوصول إليه. أيضاً كانت لديها مقـــدرة غـــريبة علـــى معرفة قصة حياة امرأة بالكامل في صعود أو هبوط واحد

بالمـــصعد. لكم أحب الناس محادثتها، وكانوا يتفوهون بأشياء ما كانوا ينطقون بها لأعز أصدقائهم.

اكتـــشفت هذه الموهبة بفضل محامية كانت تسكن في الشقة التي أمامي عبر ردهة. كانت تدعى كارولين ستراشير وكانت معرفتنا ببعضنا البعض طفيفة خلال بضعة الأسابيع الأولى التي أعقبت انتقالي لهذا السكن- مجرد ابتسامة وتحية ترحيب عابـــرة ســـواء في الدخول أو الخروج، هذا النوع من المعرفة. بدت ذكية ولطيفة المعشر وذلك ما كان في الأمر.

ثم الـــتقت بها فران مصادفة. في تلك الأمسية على العشاء أخبرتني عرضاً عن طفـــولة كارولين وصديقها الأول وكيف قررت الالتحاق بكلية الحقوق ووظيفتها الأولى والنجاحات والكبوات التي مرت بها كمحامية. فران استمرت لما يقرب من ساعة في إعطاء تفاصيل و لم تلبث مع المرأة سوى ثلث ساعة فقط.

بعد بضعة شهور لاحقة، ذات يوم رأيت فران وأبلغتني عن فحوى محادثة غير مـــريحة جـــرت مع والدها. أبلغه شخص ما أنه رأى سيارة فران الكاديلاك واقفة بجـــورج تـــاون فيللاز كل يوم لمدة شهر، ما الأمر؟ لا أعرف من كان هذا، لكنه كـــان أمـــراً مثيراً أنهم ذهبوا إلى والدها بدلاً منها. أحسب أن ذلك ما تفعله في المجتمع المهذب.

لم تحـــاول فران المراوغة في الأمر، ولكنها أبلغت والدها بأنها وقعت في هوى شـــخص مـــا وكانت هناك مشكلة. والدها لم يتطرق للتعنيف التقليدي الذي قد تكـــون توقعـــته، بل تطرق مباشرة للجانب العملي. "لا بد من أن تتخذي قراراً ولـــيكن عـــاجلاً، لأن هذا أسلوب محال العيش به"، أبلغها بذلك، و لم يكن هناك جدال حيال ذلك. فقد كنا كلينا نناهز الثانية والأربعين وقتئذ.

بيـــنما كنت أصغي لها وهي تروي القصة غاص قلبي في تجويفه، لأنني كنت موقـــناً أنها كانت ستفصم علاقتها معي، ثم تعود لمنـــزلها وتتصالح مع زوجها ولن تـــراني قط ثانية. أدركت أنه الشيء الصائب الذي يجب أن تفعله، بيد أن ذلك لم يخفف الألم.

"لذا سأحصل على الطلاق"، أتمت قولها.

حاولت جاهداً أن أثنيها عن عزمها، بالرغم من رغبتي الشديدة لمواصلة الحياة معها. مثل والدها، كنت أحاول أن أكون عملياً. "لست مديراً تنفيذياً أو طبيباً"، قلت هذا مذكراً إياها بذلك. "إنني لص، وأصرخ بذلك عالياً". لم أتمكن من مواصلة تلقيب نفسي بمستثمر عقارات، حيث إنني لم أعد أعمل بذلك المضمار إطلاقاً بعد الآن.

لم يبدُ أن هذا أزعج فران، لذا ذكرتها بأنني أيضاً هارب يعيش تحت اسم مزيف، وما الذي يتضمنه هذا. "ماذا يحدث لو أطحت بحياتك مع زوجك"، سألتها غير منتظر إجابة. "وبعد ذلك بأسبوع يتم إلقاء القبض عليَّ ويحكم عليَّ بعشرين عاماً؟"

بالنسبة لشخص ما عاش دائماً حياة الرخاء والرفاهية، فإنه يصاب بالهلع لفكرة أن يترك في البرد وحيداً هكذا، ولكن فران كانت عنيدة كالحجر، ولا شيء مما قلته كان في إمكانه إثنائها عن عزمها. على الأقل جعلتها تتريث في هذا الأمر وتترك التفكير إلى الغد، محتسباً أن ضوء اليوم الجديد سيحثها على التفكير الواضح، لكن كل هذا منحها وقتاً للتخطيط للتعامل مع هذه الأمور بيسر قدر الإمكان. "سأذهب لمحادثة كارولين قبلما تغادر"، قالت ذلك ونحن نحتسي قهوة الصباح. اجتازت الردهة وأوكلت جارتي كمحامية عنها، ثم قدمت المستندات بعدها ببضعة أيام.

بدت الأمور وكأنها تسير بيسر، وكان انفصالاً ودياً تماماً. العقبة الوحيدة كانت مقدار أتعاب كارولين لمباشرة القضية، الذي بدا وكأنه تضخم بعد ما عرفت من هي فران وكم امتلكت عائلتها من مال وفير. فران أخذتها الدهشة تماماً بيد أنها بدت وكأنها لم تجعل من الأمر مسألة هامة. حتى اكتشفنا أن كارولين تعلقت بزوج فران أثناء سير إجراءات الطلاق.

لم يكن بشيء ذي بال أن زوج فران السابق كان يواعد أحداً. ولكنها اعتقدت أن كون محاميتها تذهب إلى الأوبرا بمرافقة خصمها في القضية يعتبر إخلالاً لا يغتفر بالأخلاق، ولتحل بها اللعنة إذا دفعت أتعاب مالية ضخمة بعد ذلك.

قامت كارولين برفع الدعوى، ومن يتم استدعاؤه للشهادة سوى المخلص. أقسمت بأن أقول الحق والحق كاملاً، وهلم جرا، كنت أدلي بالقسم باسم جون

ويللينج وشهدت أمام القاضي جون جي ماكموناجل في صالح فران. بغض النظر عن اسمي، قلت الحقيقة فعلاً، وكسبت فران القضية.

* * *

في هذه الآونة لم أعد مقيماً في جورج تاون فيللاز.

سوزي ابنتي كانت في كنت ستيت، على بعد ساعة من لايندهورست، وقد تواءمت تماماً مع فران وكانت زائرة مستديمة للشقة. بعد أن بدأت في عامها الثالث بالكلـــية، أخبرتني أنها رغبت في ترك المدرسة والسفر.حاولت جاهداً أن أثنيها عن عزمها، ولكني خسرت ذلك النقاش أيضاً. أقنعتها بالموافقة على عدم ترك الدراسة رسمياً، وقد وعدت بأنها ستعود في النهاية لإتمام دراستها.

ســـوزان، ابـــنتي البكر، امرأة متميزة وكانت طفلة مميزة. رغم أنها عصبية المـــزاج، إلا أنها تكون هادئة بشكل غريب في المواقف التي تسبب ضغوطاً على الفرد وتقتضي التفكير بذهن صاف. مخلصة بشدة لعائلتها، تفعل أي شيء يطلبه مـــنها أي مـــنا بلا مناقشة. لم أدرك وقتها أنني كنت سأعتمد على هذه الصفة المميزة قريباً.

أعـــددنا خطة رحلتها معاً، ثم ذهبنا نحن الاثنين إلى نيويورك. بعد بضعة أيام من تفقد المكان، وضعتها في طائرة متجهة إلى لندن.

مؤخـــراً في ذلك اليوم، بينما كنت أتجول متحسراً على مغادرة ابنتي الكبيرة، اتصلت فران لتبلغني أنها عثرت على منـــزل رائع للإيجار. كان يقع في ميل كريك لاين في موريلاند هيللز والتي كانت جزءاً من مدينة شاجرين فولز على بعد مسافة نـــصف ساعة تقريباً خارج كليفلاند، وكانت على صواب؛ كان رائعاً. كان يقع عند نهاية زقاق خاص طويل في منطقة كثيفة الغابات وكان يطل على مسيل (واد ضـــيّق عميق). كان المكان بهياً، وفران، التي كانت إجراءات طلاقها قاربت على النهاية الآن، لم تبدد وقتاً في أن تخطفه وتنتقل للإقامة فيه مع ابنتها الصغرى.

عاونتهما في الانتقال للمسكن وانغمسا بسعادة في بضعة مشروعات لتصليح المكـــان وفـــق هواهما. فور ما استقرتا وارتاحتا، كنت عندهن هناك طيلة الوقت، أتناول العشاء أو لمجرد المكوث وأنعم بالهدوء في صحبتهما.

همـــي الوحـــيد كان موشكا، القط الذي اتخذني أباً له. كان يتبعني في كل مكـــان، وكنت متعلقاً به تماماً. المشكلة أنني ابتعت لابنة فران جروة "الإسْبانيل" (نـــوع من الكلاب) بمناسبة عيد ميلادها. أطلقنا عليها كيللر، مما كان ممتعاً بحق لأنهـــا كانت صغيرة جداً ورقيقة. لم نعرف كيف سيتعايش الحيوانان معاً في نفس المنـــــزل، ولكن أول مرة وضعناهما سوياً تكورا معاً وكونا كرة واحدة من الفراء واستـــسلما للـــنوم. كانا يفعلان ذات الشيء كل ليلة فيما بعد، وبعد شهرين من اســـتئجار فـــران للمنـــزل، تركت شقتي وانتقلت للإقامة معها ومع ابنتها، للمرة الثانية أجد نفسي داخل منـــزل دافئ وسط أسرة أحببتها.

عـــشنا كأسرة طبيعية لما يقرب من عام ونصف، والمنـــزل كان دائماً مليئاً بالزوار. وكان هناك أصدقاء أولاد عديدون لابنة فران بالمكان طيلة الوقت، عادة مـــا يكونـــون بالقرب منها ولكنهم دائماً بالقرب من الثلاجة. ابني مارك وابنتي الـــصغرى لورا أمضيا وقتاً طويلاً معنا في الصيف، وزارنا أيضاً ابن عمي دان عدة مرات. (سوزي في هذا الوقت كانت قد سافرت لكافة أنحاء أوروبا ثم ذهبت إلى نيوزيلندة لتعمل في جز صوف الأغنام، كان أعتقد أن هذا عمل لا يليق بها بعد ما صرفت عليها لمدة عامين بالكلية، ولكن بدا أن العمل أسعدها).

تواءمت مع أبناء فران وحتى مع والديها، اللذين طالما ترددا علينا. بالرغم من أنـــني لم يكـــن لديّ وسائل ظاهرة للدعم المادي، إلا أنهما لم يسألا أسئلة كثيرة. أخـــبرهما فـــران أن عندي ملكية تدر عليَّ دخلاً فاكتفا بهذا القدر. بدأت أحب والـــدها بصفة خاصة، شخصية عظيمة ورجل أعمال ذكي. كان مهتماً بالأملاك العقاريـــة وإدارة الأملاك، وطالما كنت على قدر من الدراية بالأمرين، كنا نقضي ساعات بلا نهاية نتحدث وسرعان ما أضحينا صديقين حميمين.

علمت فران عن عملي الإضافي الخاص بالسطو، بيد أنني مارست القليل منه في هذه الآونة. نادراً ما كنت أخرج في المساء، لأنني لم أرغب أن يراني أحد داخل وحـــول أرجاء كليفلاند. كنا نذهب من وقت لآخر إلى عائلة دان أو بيل ويللينج أو كـــاتي، ولكن لمرة واحدة فقط ذهبنا إلى مناسبة اجتماعية ضخمة، حفل عشاء بمناســـبة تـــزكية الرجل الذي أعقب عم فران جولي في تولي منصب رئيس مجلس



حينما نشرت صورتنا فران وأنا في صحيفة اجتماعية، كنت معروفاً باسم جون ويللينج.

إدارة بيك أن. باي. وانتهى بنا الأمر بظهور صورتنا في الصحيفة (التعليق أسفل الصورة عَرّفني كجون ويللينج) مما أزعجني بشكل بالغ. لم نقدم على أي شيء علني كهذا ثانية، على الأقل ليس عمداً، لكني كنت لا أزال في غاية السعادة لأنني أحظى ببيت أحب البقاء فيه.

كاتي الشقيقة الصغرى لفران كانت واحدة من المفضلات لديّ بعائلة كرافيتز. مثل فران في البداية، كاتي كانت راضية بالحياة التي رسمها لهما والدهما. حتى حينما عانت من زواج ثاني سيئ، كانت تتحاشى التعامل مع قضية ما إذا كانت هذه هي الحياة التي أرادتها حقاً.

في بداية علاقتي بفران، هي وكاتي أبلغاني عن تاجر مخدرات كبير يدعى ريتشارد ديليسي التقيا به في لاس فيجاس. كان في الأصل من فورت لوديرديل، وكان وقتئذ يعمل في نيويورك.

كـــان يلعـــب بلاك جاك (ضرب من لَعِب الورق) ويقامر بمراهنات ضخمة وكانـــت لديه طائرات خاصة تطير وتجلب له أموالاً زائدة عندما يخسر. توطدت علاقـــة فـــران وكاتي به، وحيث إنهما كانتا تتحدثان لأسابيع عن زيارة إلى مدينة نيويورك بأية حال، فكرن في أنه قد يكون ممتعاً إذا تقابلنا نحن الأربعة هناك. لم يبدُ هـــذا الـــشخص من الطراز الذي يروقني، وعلى الأرجح إن فكرة اللقاء مع تاجر مخـــدرات لم يكن أذكى شيء يتخذه هارب، ولكن كان لديّ مبرر آخر للذهاب إلى نـــيويورك، وقـــد كانت بعيدة بشكل كافٍ عن طريق السلطات التي كانت تبحث عني.

وقـــتها كانت فران ما زالت متزوجة وتقيم في منـــزلها وكنت أقضي أوقاتاً طويلة في سانت بيترسبرج وفلوريدا، لكني كنت في بويرتو فاللارتا حين بدأنا عمل التـــرتيبات لهذه الرحلة. الخطة كانت أن نبقى ثلاثتنا في شيري نيذرلاند في مدينة نيويورك، وكان ديليسي سيلقانا هناك.

مـــبرر رغبتي في الذهاب إلى نيويورك، على الأقل الولاية إن لم تكن المدينة، ارتبط بفرصة عمل، لذلك دعني أعود للوراء أسبوعاً تقريباً.

* * *

ســـاراتوجا كانت مدينة ممتعة. لأغلب أوقات السنة هي مدينة ناعسة ينتابها الركود، ولكن لشهر واحد كل صيف تصبح واحدة من أزهى الأماكن في العالم. حيـــنما يتم افتتاح موسم سباق الخيل، أثرياء كثيرون أتوا إلى المدينة، بحيث يمكنك تبين الفرق بين مَن معهم مال وبقيتنا.

في مركز كل هذا كان فندق جيديون بوتنام الواقع خارج الطريق الممهدة في وســـط منتـــزه عـــام خـــارج المدينة بمسافة قصيرة. تم تسميته على اسم مؤسس ساراتوجا سبرينجز الذي استقر هناك عام 1795، والفندق لم يلعب فحسب دور المـــضيف للزوار الوافدين لمدة وجيزة ولكن كان أيضاً المكان المألوف للقدامى من محبي سباق الخيل والملاك ومربي الخيول والمشترين والمشجعين من كافة الأنحاء الذين قامـــوا بـــتأجير منازل في ساراتوجا وأمضوا الشهر بأكمله يذهبون إلى الحفلات والمراقص وساحة سباق ساراتوجا الخيالية.

كـان للفندق حانة ذات فناء بالقرب من المدخل الأمامي كانت تهيئ منظراً مثالـياً علـى الإطلاق لكل الوافدين والخارجين من المكان. يمكنك الجلوس هناك لاحتـساء شـراب مفضل ما لساعات وتشاهد وحسب، دون أن تثير أدنى ريبة. بوجود فران لجانبي، ذلك ما حضرت لساراتوجا لأجله.

ماريلـو ويـتني كانت تشرف على المحافل الاجتماعية بأكملها، أقرب شيء حظت به هذه المدينة للملكية. إنها لم تولد ثرية، مع ذلك. في عام 1958 أصبحت عـضوة بأثـرى عائلتين في الدولة حينما تزوجت كورنيليوس فاندربيلت ويتني، السليل المباشر لإيلي ويتني الذي اخترع محلج القطن وكورنيليوس فاندربيلت الذي حقق ثروة ضخمة في السكك الحديدية. وماريلو كانت تدخل وتخرج من جيديون بوتـنام طيلة الوقت، وبالتحديد في عصر يوم أحد وصلت في عربة يجرها جواد، مـزدانة بالوفير من المجوهرات، و لم يسعني سوى أن أمنع نفسي من أن يسيل لعابي فـوق طاولتـنا. كانت أكثر هدف مغرٍ حظيت به، وكان لديها منـزل خرافي خـارج المديـنة، ولكن حينما ألقيت نظرة، كان المكان مليئاً بالخدم، الأمر الذي استبعد تماماً إمكانية دخوله.

قـبل ذلـك بأسـبوع كنا سنلتقي بكاتي في نيويورك، طرت من بويرتو فاللارتا ولقيت فران في ساراتوجا. نـزلنا في أرخص غرف في جيديون بوتنام، ومـع ذلك لم يؤثر هذا في كونه أغلى فندق مكثت به. وحيث إنه لا أحد منا يعرف أي شيء عن الجياد، أمضينا أيامنا في حلبة السباق على أية حال، بصحبة ثمانـية وعـشرين ألفاً من أصدقائنا المقربين، نراهن على أسماء خلناها ماهرة أو علـى جياد بالغت في تصرفاتها أثناء مضيها خارج الإسطبلات أو التي وردت ذكرها في المحادثات الجارية حولنا. غني عن القول، لقد كنا نخسر على الدوام ثم كـنا نعـود إلى الفندق لمراقبة الوافدين والراحلين. حتى لو لم أتمكن من تنفيذ عملية سطو في هذه الرحلة- ورغم أن نقودنا كانت تنفد بمعدل مخيف- كنت لا أزال أجمـع قائمـة ذهنية مذهلة لفرص مستقبلية في أماكن مثل بالم بيتش ومونت كارلو والشرق الأوسط. أعتقد أن فران كانت لديها فكرة جيدة عما كان يجول بذهني، بيد أننا لم نناقش هذا الأمر قط.

كان جيديون بوتنام يتمتع بأقل قدر من الأمن وفقاً لجميع فنادق الأغنياء التي رأيـــتها. بدا المكان وكأنه يدار بواسطة طلبة جامعيين يشغلون تقريباً كل المناصب مـــن مكـــتب الاستقبال مروراً بالمعاونة في المطبخ إلى خدمة الغرف. ولأن الفندق كـــان يقع داخل المنتزه العام، كان رجال الشرطة الوحيدون الذين أتوا إلى المكان هـــم من حراس الغابات. مما أصابني بإحباط شديد لأنه حينما نفد المال مني ومن فران واضطررنا في النهاية للمغادرة، لم أتمكن من إيجاد وسيلة لسرقة ماريلو ويتني.

مـــن ناحية أخرى، كانت لديّ مجموعة من المفاتيح العمومية للفندق بأكمله والتي سرقتها من عربة تنظيف الغرف الخاصة بأحد الشباب الجامعيين.

تركت وفران الفندق وعدنا إلى كليفلاند معاً. في الأسبوع اللاحق عدت إلى ساراتوجا سبرينجز وحدي، دون أن أخبر فران بوجهتي. أثناء توجهي إلى فناء البار في جـــيديون بوتنام في أول يوم لي هناك، رأيت سيدة شديدة الأناقة تبرح الفندق بصحبة الحاشية، وهي تتوجه لقضاء الأمسية بالخارج على ما يبدو. كانت ترتدي بعـــض المجوهرات الفاتنة، وحيث إنه لا يوجد أحد هناك يرغب في أن يراه الناس مـــرتدياً نفس الحلي مرتين، وكان هناك العديد من الحفلات، لا يسعني سوى أن أفتـــرض أن هـــناك مجموعة لا بأس بها من المجوهرات كامنة بغرفتها. كانت لحظة نـــادرة لا تفوت. بدون تخطيط أو إعداد. كنت حتى لا أعرف أية حجرة كانت تقيم بها. لكني كنت أتوق لاستخدام المفاتيح العمومية الرابضة في جيبي.

كـــم كان نظام الأمن مضحكاً في هذا الفندق؟ في المدخل الأمامي بالضبط كانـــت هـــناك لـــوحة ضخمة مثبتة بالحائط بخطاطيف تستخدم في تعليق أقداح الـــشاي. عـــندما يصل الناس ويتركون سياراتهم مع خادم الفندق، فإن من يوقف السيارة يعلق المفاتيح على خطاف وعليها بطاقة صغيرة تحدد اسم الشخص وموديل السيارة وأرقام لوحة الترخيص. إن كانوا مقيمين بالفندق، يدون أيضاً رقم الغرفة ويترك البطاقة على اللوحة أثناء فترة إقامتهم. كل هذا كان على مرأى من الجميع. عندما أقبلت هذه السيدة في سيارة طويلة بطول الشارع بصحبة حاشيتها، دونتُ رقـــم لـــوحة التـــرخيص، وانتظرتُ ريثما انصرف جميع خدم الفندق، ثم تحولت بالقرب من اللوحة وألقيت نظرة. عثرتُ على البطاقة المدون عليها ذات رقم لوحة

الترخيص، وبالطبع كان هناك رقم جناح مدون أيضاً. وكان هناك أيضاً اسم، وغمرني إحساس بالإثارة بينما قرأت الاسم: "دوبون".

استخدمت الهاتف للاتصال بالجناح. تركت جرس الهاتف يرن لعدة مرات ولكن ما من مجيب. ثم ذهبت إلى هناك وقرعت الباب، ثم قرعته مراراً وبصوت أعلى في كل مرة. ما زال ما من مجيب. دخلت الجناح بواسطة مفاتيحي العمومية وسرعان ما وجدت صندوق مجوهرات في غرفة النوم خارج غرفة المعيشة. كان مليئاً بالمجوهرات المبهرة، بيد أني لم أحضر أي شيء لحملها بداخله. لم أتمكن من الاستعانة بكيس وسادة، حيث إنني سأمضي في طريقي للخروج عبر الردهة الرئيسية، ولم أتمكن من استخدام أي من حقائب مس دوبون، لأن جميعها كانت مصنوعة حسب الطلب وكان هناك احتمال أن يتعرف عليها شخص ما. لذلك التقطت فقط بعض من أفضل الحلي، سوارين من الماس ومجموعة من المشغولات الذهبية وخاتم من الياقوت ومجموعة من أضخم اللآلئ ولكن كانت من أقبح ما رأيته في أي وقت مضى، ووضعت كل ذلك في جيوبي.

عدت إلى سيارتي وتوجهت إلى مدينة نيويورك بعد ثلث ساعة. حتى هذا اليوم لا أعرف أي دوبون كانت.

* * *

أحضرت معي بعض البضائع التي اضطررت للتخلص منها (ليس من ضمنها مسروقات دوبون. كان الوقت مبكراً جداً على هذا، رغم أنها كانت بحوزتي). كانت نيويورك واحدة من أكثر الأماكن أماناً بالنسبة لي لكي أفعل ذلك لعدة أسباب. أولها، كانت المكان الأفضل بالنسبة لشخص مطارد. أي مواطن عادي من نيويورك كان يرى وجوهاً في اليوم أكثر مما يراه شخص ما من الوسط الغربي في شهر، ولكن نادراً ما كان يلاحظ أي منهم. كانت واحدة من الأماكن القليلة التي يتمكن المشاهير من التجول فيها دون أن يتم إزعاجهم إلا نادراً، مواطنو نيويورك رأوا كل شيء.

السبب الآخر كان الأماكن العديدة لبيع المجوهرات بدون طرح أسئلة محرجة. ادخل أغلب المتاجر بماسة واحدة لبيعها وستجد الأمر يسيراً، ولكن ادخل بحقيبة

مليئة بأحجار نفيسة وستجذب إليك بعض النظرات الشكاكة. ومع ذلك، في نيويورك، يمكنني بيع مائة حجر كريم، حجر أو اثنين في كل بيعة، في متاجر مختلفة بدون حتى أن أبرح الشارع السابع والأربعين. بالنسبة للقطع الكاملة من المجوهرات مثل القلادات والأساور المعدة بإتقان كان متجرا سوذباي وكريستي هما المتجران الموثوق بهما لديّ. أتساءل، كم باعت صالات المزادات القديمة الرفيعة الشأن تلك من الأشياء المسروقة على مر السنين؟ (سيستغرق الأمر أعواماً عديدة قبلما يبدأ المتجران في تحديد رسوم العمولة، مما يعد تواطؤاً فاضحاً يكبد بائعي التحف حوالى أربعمائة وخمسين مليون دولار خلال سبع سنوات). اللجنة الأوروبية في النهاية قضت بتغريم سوذباي بغرامة قدرها عشرون مليون دولار، أقل من عشرة بالمائة من غنائمهم غير المشروعة، مما يجلب عائداً ضخماً كحصيلة استثمار. أما كريستي، المبادر بالكشف عن الإيذاء، لم يدفع فلساً قط كغرامة. وتقولون إنني لص؟)

حينما توقفت عند شيري- نيذرلاند، لاحظت مرسيدس سوداء واقفة أمامي مباشرة، في منطقة مشار بوضوح أنه ممنوع الوقوف بها، لكن لم يهتم أحد بذلك. لم يكن هناك سائق بالسيارة، بل مجرد كلبين بشعي المظهر. كان هناك شيء ما مألوفاً جداً حيال تلك السيارة، لكني لم أتمكن من معرفة ما هو.

وصلت فران وكاتي بالفعل. حينما صعدت إلى الطابق العلوي والتقيت ريتشارد ديليسي، عرف كلانا فوراً أننا كنا قد التقينا من قبل، واستغرق الأمر أقل من خمس دقائق لمعرفة أين إلتقينا: كان الرجل الذي يتلف سيارة زوجته بمضرب بيسبول عند العمارة السكنية التي بجانب منزلي في كورال ريدج بفلوريدا.

ليس هذا وحسب، فقد أبلغني أن الشرطة كانت تجلس بالفناء الأمامي لمنزله لمراقبة منزلي حينما كنت أناصبهم العداء. لم تكن لديه فكرة عمن كنت أو لماذا كانوا يراقبونني، ولكنه كان يخرج من منزله غاضباً يأمرهم أن يبتعدوا عن حديقة منزله. أحياناً كانوا يعودون بلا مبالاة، لذلك كان يفتح عليهم مرشات المياه. وبشكل طبيعي، هذا جعله على قائمة المواطنين العشرة الأوائل غير المتعاونين مع قسم الشرطة، لذا كان بيننا شيء مشترك، ألا وهو حقيقة أننا كنا كلانا فارين.

بعد سنوات، تم إلقاء القبض على ديليسي بتهم كان قد أفلت منها وقضى مدة خمس سنوات بالسجن. بعد ذلك كان متقد الحماس للعودة لمضمار المخدرات، ولكن بعد قضائه مدته، قرر العودة بسلام إلى فلوريدا. وقت إلقاء القبض عليَّ في عام 1984 كان يتولى إدارة متجر هياكل السيارات في بومبانو مع والده. بينما كنت في السجن، أجرى عملية ترميم كبيرة لسيارة فران المارسيدس (كانت قد تخلصت من سيارتها الكاديلاك آنذاك). في يوم إطلاق سراحي، كان هناك بالسيارة ورغب في محادثتي.

لم يكن قادراً على معاودة تشغيل نمط حياته بما يكفي لكي يتماشى مع دخله الجديد المشروع. كان قد أفلس تماماً، كانت لديه خطة لجلب شحنة واحدة أخيرة. وطلب مني معاونته وشقيقه وأكد لي أننا سنغنم مليون دولار لكل منا. كل ما كان علينا عمله هو استلام شحنة من الماريجوانا، ونشحنها إلى نيويورك ونبيعها في صفقة واحدة. كنت في حاجة للمال بعد فترة السجن وكان من الصعب تماماً مقاومة هذا، لذلك أمعنت التفكير لبضعة أيام ولكني في النهاية رفضت. كان هناك العديد من الناس الضالعين في الأمر، وقد تم خداعي في صفقة مخدرات مرة من قبل، حينما سلبني جاري بيرس مبلغ خمسة وعشرين ألف دولار وكاد أن يزج بي في السجن. كما أنني لم أنتزع من مخيلتي قط صورة ديليسي وهو يخرب السيارة المرسيدس بمضرب بيسبول، و لم أحب أن أعمل مع شخصية متقلبة الأطوار كتلك.

وجد شخصاً آخرَ لمشاركته وشرعا في تنفيذ الصفقة. بالطبع كان هناك واشٍ، والشرطة كانت في الانتظار حينما هبطت الطائرة. ديليسي الآن يقضي مدة عقوبة إجبارية في فلوريدا. كنت أتصل بأبويه من حين لآخر للاطمئنان على أحواله. كانت الأمور ليست على ما يرام تماماً كما تبين، ولكن ما زال هناك أمل في قبول التماسه. لقد أمضى اثني عشر عاماً الآن، وتاريخ إطلاق سراحه المتوقع في عام 2034. أتمنى من صميم قلبي ألا يدرك هذا الرجل المنية في السجن بسبب بيع الماريجوانا بالجملة بينما لم يعد امتلاك كمية صغرى منها جريمة في بعض الولايات. وفي نفس الوقت، يقضي المغتصبون والذين يتحرشون بالأطفال والقتلة مدداً أقل بشكل نمطي.

* * *

كان هذا بمثابة إنذار لي -لقد أمعنت النظر جدياً في عرضه - ولكن أن ينتهي بي المآل مثل ديليسي يكون من جراء أفعالي وأخطائي. كان هناك أمر وشيك آخر يتعلق بكاتي، ومع ذلك، كان حادثاً عارضاً تماماً لم أتوقعه قط.

كـــاتي كانـــت مقطـــوعة الأنفـــاس لفـــرط الشعور بالإثارة لأن كريس كريـــستوفرسون كـــان وافداً إلى كليفلاند لتقديم عروضه. كانت مولعة من قديم الـــزمن بحب الرجل وتتحرق شوقاً لمقابلته. بيد أنها لم تفكر أبداً في إمكانية مقابلته بالفعل. حينما أبلغتني وفران عن ذلك، وهما يقهقهان كفتيات المدارس، قلت "على سبيل المزاح، لم لا تكتشفان مكان إقامته؟"

ذهبا إلى العمل واكتشفا أنه وحاشيته كانوا يقيمون بماريوت في بيتش وود. ذهبت إلى هناك وعاينت بعض أعضاء الفرقة عند حمام السباحة، وفي غضون عشر دقائـــق كـــنت قد صنعت محادثة. كانوا ودودين للغاية وتواءمنا تماماً، لذلك بعد انقـــضاء ساعة واحتساء بعض الشراب على حسابي، ذكرت أن لي صديقة ترغب في ملاقاة كريس.

"ما من مشكلة"، قالها واحد من عازفي الجيتار" تعال إلى باب المسرح الخلفي بعد انتهاء العرض".

حينما قمنا بذلك، دَوَن حارس الأمن اسمي وسمح لنا بالدخول.

رحـــب بي الـــشبان كصديق حميم، ثم قدمونا إلى كريس. فران وكاتي تصرفا بكياسة، وأحسب أن ذلك حتماً أحدث انطباعاً جيداً، لأنه بعد العديد من مقاطعات المعجبين والمديرين والمعجبين والعديد من الطفيليين، قال "لِمَ لا تأتون إلى الفندق؟"

أقـــام كـــريس بجناح ضخم في ماريوت تم تزويده بطعام كاف لبدء مطعم صـــغير. بعدما نعمنا بالراحة، أخرج كريس بعض الماريجوانا الشديدةً التأثير، ولم يمضِ وقت طويل حتى نتصرف وكأننا كنا أصدقاء حميمين منذ المهد.

ســـرعان ما توافق كريس وكاتي تماماً وأضحيا صديقين حميمين. كان الاثنان يأتيان لمنـــزلنا في مورلاند هيللز كلما كان في المدينة. دائماً ما أحضر كريس شيئاً لندخـــنه معـــاً. كـــان دافئاً ويأخذ الأمور بسهولة. كنت أنسى دائماً كم كان مشهوراً، وذلك ما كاد يوقعني في المتاعب.

حدث ذلك في واحدة من حفلاته الموسيقية في كليفلاند. كان قد منح ثلاثتنا تذاكر للجلوس في وسط الصف الأول، ولسبب ما تأخرت في الوصول إلى هناك. كـــان العرض قد بدأ بالفعل، لكن عندما أبصرني كريس اتخذ طريقي وسط الممر، توقـــف فجـــأة عـــن أداء العرض وأشار بذراعه لعمال الإضاءة. قبل أن أدرك ما يحدث، كانت هناك هالة من الضوء تومض حولي، ثم سمعت كريس يناديني لأصعد فوق خشبة المسرح. بالطبع لم تكن لديه أدنى فكرة عن كوني هارباً يحاول التخفي بقدر الإمكان.

اتخذت طريقي صاعداً وحاولت أن أقف وظهري للجمهور، لكن كريس دار حولي وقدمني كصديقه جون ويللينج. مقاوماً هلعي، لم يكن لي خيار سوى إظهـــار وجهـــي لـــلآلاف من معجبيه، وتمنيت ألا يكون هناك أحد من "غير المعجبين" بي ويتعرف عليَّ. بعد عناق حميم تركني كريس في النهاية لأعود إلى مقعدي، كنت في شدة الخوف، سأكون كاذباً لو قلت إنني أذكر أي شيء آخر مـــن العـــرض على الإطلاق. لم أكن أعرف إلا فيما بعد أن والدي فران كانا أيضاً ضمن الحضور.

لـــذلك، فضلاً عن بعض اللحظات المثيرة هنا وهناك، مارست حياتي بشكل طبيعي لما يقرب من عام ونصف.

ثم قررت أن أسطو على فيلليس ديللر للمرة الثانية.

20

إحراز الهدف مرتين
(أو لا شيء على الإطلاق)

فيلليس ديللر كانت تؤدي على مسرح ومطعم كاروسيل الذي تم تشييده بمركز تجاري تم تعديله في رافينا بأوهايو يبعد حوالى ثلاثين ميلاً جنوب شرقي كليفلاند. فيما بعد انتقل إلى أكرون، حيث أصبحت أبنيته أكثر فخامة، وأضحى أضخم مسرح ومطعم في البلدة، وحتى في الماضي حينما كان برافينا، كان لا يزال مكاناً رائعاً لمشاهدة العروض.

مشكلتي في التخطيط لهذه العملية كانت أن رافينا لا تماثل تماماً تايمز سكوير. مع انتهاء العرض في كاروسيل وخلو المكان من السيارات، كان المكان يبدو كمشرحة، باستثناء سيارات دوريات الشرطة. لم أتمكن من إيقاف سيارتي بالشارع وانتظرت مغادرة سيارها الليموزين لأتعقبها، لأن سيارتي كانت ستصبح السيارة الوحيدة الواقفة هناك.

عثرت على كشك هاتف عمومي على بعد حوالى ربع ميل في الطريق. أستطيع التوقف والتظاهر بإجراء مكالمة هاتفية بدون إثارة الشك، طالما إنني لم ألبث هناك مدة طويلة. اتصلت بالمسرح وادعيت أنني سائق ليموزين بصحبة رئيس سيئ الطباع واحتجت إلى معرفة متى ينتهي العرض بمنتهى الدقة كي أتمكن من التواجد هناك في انتظار خروجه. من حسن حظي أنني حظيت بعامل بسيط في قاع السلسلة الوظيفية بدلاً من موظف عالي الشأن. يعرف الموظف الإداري الموعد

المحدد لانتهاء العرض، ولكن العمال الكادحون الذين يعدون الدقائق والثواني يعرفون متى ينتهي بالضبط، بالثانية.

افترضت أن سيارة ديللر ستكون خارج ساحة انتظار كاروسيل قبل خروج الجمهور وحدوث الازدحام، لذا وقفت في كشك الهاتف بضع دقائق قبل ذلك. حالما رأيت الليموزين على مدى بصري، تركت الكشك ودلفت إلى سيارتي، متأهباً لتعقبها على الفور عندما تجتازني. لم يخطر ببالي قط أنها ستمضي لأي مكان سوى كليفلاند، طالما لم يكن هناك أي أماكن راقية تصلح للإقامة في رافينا، وكنت مندهشاً حينما استدارت السيارة يساراً إلى براين ماور، شارع جانبي في الجانب الآخر من كشك الهاتف.

انتظرت حوالى نصف دقيقة قبل الملاحقة، وحالما استدرت، أبصرت الليموزين وقد وقفت على جانب الطريق على بعد حوالى مائة ياردة (91 متراً). تمكنت من رؤية ديللر تمضي إلى مبنى ذي أربع أو ست شقق صغيرة، وحالما أحسست بالأمان بالداخل، استدارت الليموزين بشكل نصف دائري وعادت متوجهة في طريقي. واصلت السير مجتازاً العمارة السكنية بدون إبطاء، ريثما أيقنت أن الليموزين ذهبت، ثم استدرت.

كانت هناك وحدة سكنية مجاورة أضخم وبها ساحة انتظار كبيرة. تركت السيارة هناك وعدت أدراجي للمبنى الأصغر. كانت هناك أنوار منبعثة من داخل وحدة سكنية على يسار الباب الأمامي وبضع خطوات لأعلى. الستائر كانت مسدلة، لذا لم أتمكن من رؤية ما بالداخل، لكن كان لا بد من أن هذه كانت شقتها، لأنني سرت حول المبنى و لم يكن هناك أضواء بأية شقة أخرى. نظرت حولي قليلاً لكي أعتاد المكان. كانت هناك عمارات على طول جانب الشارع، ولكن في الجانب الآخر من الطريق كانت هناك مزرعة ذات مساحة أكرية، وكانت جرداء الآن لأننا كنا في أواخر شهر تشرين الثاني/نوفمبر.

في المساء التالي عدت حوالى الخامسة بمنظار مكبر مرتدياً ملابس سوداء، وتوجهت إلى الحقل. أتيت مبكراً لأنني لم أكن أعرف ما إذا كانت ستذهب لتناول العشاء أولاً أم ستذهب إلى المسرح قبيل موعد العرض تماماً، وتجمدت أوصالي في

انتظار وصول الليموزين لتقلها. تجولت بالمكان ووثبت لأعلى وأسفل قليلاً حتى أشعر بالــدفء، وأبقــيت ذهني منشغلاً بأخذ ملاحظات عن أكبر قدر من التفاصيل، مثل صندوق وصلات الهاتف القابع وسط الحقل الخاوي من شيء سواه.

ظهــرت الليموزين أخيراً في السابعة والنصف وركبت ديللر السيارة. كانت قد تركت الأنوار مضاءة في شقتها، لكن باقي العمارة كان لا يزال في ظلام. وأنا أتجمد من البرد، انتظرت نصف ساعة أخرى في حالة ما إذا كانت قد أغفلت شيئاً واضطرت للعودة، ثم اجتزت الشارع وأمضيت عشر دقائق في محاولة تليين أصابعي المتصلبة لكي أعالج القفل الذي على الباب الأمامي. سرت مسافة الست خطوات حتى شقتها ووقفت هناك أسترق السمع. كانت هناك شقتان في طابقها. الموسيقى كانــت منبعــثة من شقتها، ولا شيء صادر من الشقة الأخرى. تذكرت كيف تركت المذياع مفتوحاً في هاي لاندر حينما سطوت عليها أول مرة، واطمأننت أنه لا يوجد أحد بالشقة.

بدا باب الشقة محكم الغلق، ولكني أحببت أن أغطي كل أساسياتي. تذكرت صــندوق وصــلات الهاتف، وقررت العودة إلى الحقل واتخاذ بعض الاحتياطيات الأمنــية. حتى لا أضطر للتعامل مع القفل الأمامي ثانية، تركت الباب موارباً قليلاً في طريقي للخروج.

كنت أنوي قطع أسلاك الهاتف كي لا يتمكن أحد من الاتصال بالشرطة إن وقــع بصرهم عليَّ. لم أجابه أي متاعب في الوصول لصندوق الوصلات، بيد أنني فوجــئت بكــم الأسلاك المحشورة داخل الصندوق. خمنت أن ذلك الصندوق تم تــركيبه حينما كانت المنطقة أصغر، وبدلاً من استبداله بينما زاد التعداد السكاني، اكــتفوا بحشوه بالمزيد من الأسلاك. لم يكن أمامي سبيل لمعرفة أي سلك يقود إلى أي مكان، لذا قطعتها جميعها.

في طــريق عــودتي للعمــارة، حشرت دبوس صغير في اسطوانة قفل الباب الأمامــي وأغلقت الباب ورائي. كان لا يزال في إمكاني الخروج، ولكن لم يكن بمقــدور أحد الدخول أثناء وجودي بالداخل، مما يتيح لي بضع ثوانٍ قيمة في حالة حدوث متاعب.

استغرق الأمر أقل من خمس ثوان لفتح باها عنوة باستخدام شريط نحيل من السليوليد. خطوت إلى الداخل وأغلقت الباب ورائي، وابتسمت رغماً عني حينما نظرت حولي. المكان كانت تعمه الفوضى العارمة مثلما كانت غرفتها بالفندق في هاي لاندر. المجوهرات أيضاً كانت بادية للعيان ثانية، أخذها جميعها بسرعة، بالإضافة إلى ما بدا كدفتر عناوين شخصي في حجم رواية ورقية الغلاف تقريباً. ثم كنت بالخارج خلال بضع دقائق.

وفي الطابق السفلي، لم أتمكن من إخراج الدبوس من القفل. لم أكن أحاول أن أكون لطيفاً وخدوماً بمحاولة إخراجه، بل الأمر أنك لا يجب أبداً أن تترك إنذارات خطر في المكان أكثر مما يجب. كلما قلت الأدلة التي تتركها، طالت المدة التي يستغرقها الشخص لإدراك ما حدث أثناء تغيبه عن شقته. هذا قد يعطي بعض الوقت الثمين إذا أوشك أمرك على الافتضاح بينما أنت لا تزال تحاول الهروب.

ولكن لم يبدُ لي أنه من الصواب أن أقف وأعبث بقفل الباب وفي حوزتي الآن بضائع مسروقة، مما سيصعب الأمر أكثر إذا قرر شرطي يقظ أن يقدم ليستطلع الأمر. لذا تركت القفل وشأنه وخرجت من فوري من هناك.

* * *

قبل أن أتطلع إلى الغنيمة لأجري بعض التقديرات التمهيدية لقيمتها، وجدت الصحف الصباحية وقد فعلت ذلك بالنيابة عني. كانت قيمتها حوالى خمسة وستين ألف دولار، وإذا كانت ديللر أمينة في مطالبتها بقيمة التأمين هذه المرة كما كانت حينما سلبتها أول مرة (تبين أنها ذلك) لكان هذا الرقم دقيقاً تماماً. على الأقل من ناحية البيع بالتجزئة. تصورت أنني ربما سأحصل على ثلث هذه القيمة من تاجر المسروقات، لذا فكانت غنيمة مخيبة للأمل.

استأت عند قراءتي أنها اضطرت لتسلق النافذة العليا- أفادت الجريدة أن ذلك كان بسبب أن مقبض الباب قد انخلع في يدها، وهذا هراء- وأراهن أنها وبخت سائق الليموزين لعدم انتظاره ريثما دخلت الشقة هذه المرة. يبدو أيضاً أنها قطعت مسيرة طويل لتجد هاتفاً وتبلغ عن السرقة، لأنني قطعت كل الاتصالات الهاتفية على ما يبدو عن ثلاثة أرباع رافينا.

أولـــت الـــصحف أيضاً اهتماماً بالغاً بحقيقة أن هذه كانت المرة الثانية التي تعرضت للسطو فيها بينما تقدم عروضها في المنطقة. وقد تم اعتبار ذلك على سبيل المصادفة، قطعاً لم يخطر ببال أحد أن عمليتي السلب اقترفت بواسطة نفس اللص. (أو اللصوص كما يتوقع ويشير إليّ رجال الشرطة ومحرري الصحف بصفة الجمع مرة أخرى).

عرضت دفتر العناوين على فران بعد بضعة أيام لاحقة. كان كنـــزاً ثميناً من العـــناوين الخاصة والأرقام السرية لمئات الأثرياء والمشاهير- آن بانكروفت، روك هدسون، كارول بيرنت، جورج بيرنـــز، بوب هوب- وفران كانت مبهورة تماماً بينما فحصته بدقة صفحة بصفحة وسطراً بسطر.

كانـــت العملية في منتهى السهولة، لكن لم ينقضِ أمد طويل بعد ذلك حتى تمنيت لو لم أرَ في حياتي ذلك الدليل الهاتفي اللعين.

* * *

قد أعطى الانطباع أن كل ما خططته تم تنفيذه بلا عراقيل وإنني دائماً كنت أهـــرب بحقيبة مليئة بأحجار كريمة مبهرة. ربما هذا هو الموضع الملائم لإبعاد هذه الفكرة.

كـــثيراً، وعلى نحو مثير للدهشة، كنت أنفق من مالي ووقتي للتخطيط لعملية سطو لأكتشف في النهاية أنه لا يوجد شيء يستحق السرقة في المقام الأول. ذات مـــرة حينما كنت وباربارا ما زلنا معاً، صحبتها إلى كي ويست لقضاء عطلة نهاية الأســـبوع. أقمنا بمنتجع بيير هاوس، مكان رائع يفضل الإعلان عن عنوانه كالتالي "ركـــن دوفال ستريت وخليج المكسيك". في مساء السبت ذهبنا إلى حانة شارت روم الأســـطورية لتناول بعض المشروبات المفضلة قبل التوجه للعشاء. كان يجلس بالحانة ترومان كابوتي ورجل آخر لم نتعرف عليه ولكنه بدا أنه صديقه. كان ذلك في حـــوالى السادسة تماماً، ولكن كابوتي كان ثملاً للغاية بالفعل. جلست وباربارا بالبار وبدأنا في محادثة. على ما يبدو، بالكاد عرف كابوتي أنني كنت هناك، ولكنه كـــان مـــبهوراً بباربارا وكان يفرط في التحدث إليها. صديقه من جهة أخرى، بدا معجباً بي. كان واضحاً من سياق المحادثة أن حانة شارم روم كانت ملتقاهما الرئيسي.

عكف كابوتي، الذي كان يرتدي مجوهرات ذهبية مبهرجة، على احتساء المشروب المفضل وأخذ يروي قصة تلو أخرى. كان ينظر في ساعته من حين لآخر ويقول إن عليه لقاء تينسي ويلليامز فيما بعد على العشاء. بعد ساعتين لم يقوَ على السير، لكن صديقه تمكن من سحبه بعيداً عن الحانة. أنا وباربارا عاوناهما للخروج إلى ساحة انتظار السيارات، حيث دونت ملاحظة عن سيارة كابوتي.

عدت إلى كي ويست وحدي بعد أسبوعين لاحقين وأبصرقما عند الحانة في مساء الجمعة. انتظرت بساحة الانتظار لما يقرب من ساعتين بدلاً من دخولي البار، ثم تتبعتهما وهما يذهبان لتناول العشاء بالجانب الآخر من الجزيرة. انتظرت بساحة السيارات ثم تبعتهما إلى البيت، الذي كان متاخماً للمطعم لحد ما. ذهبت إلى هناك عصر اليوم التالي، وانتظرت حتى يتوجها إلى الحانة وكنت بداخل المنزل ربما قبلما يحتسيان شرابهما المفضل الأول. تبين أن كابوتي إما كان يرتدي أغلب الحلي الذهبية التي كان يمتلكها أو كان لديه مخبأ مخفي بذكاء لا يمكنني الاهتداء إليه. بالكاد تمكنت من دفع مصاريف الغرفة وبنزين السيارة بما سرقته.

لم أتوقع حدوث هذا حتى عندما اقتحمت غرفة بوب هوب في منتجع فاخر خارج طريق ديكسي السريع في بومبانو بيتش. كان يؤدي عرضاً بمكان ما بالجوار تم الدعاية عنه بشكل مكثف، بصحبة زوجته، دولوريس، التي كانت ترتدي كمية مهولة من المجوهرات كما في الصور. كنت أجهل الغرفة التي يقيمان بها ولكني خمنت أنها كانت الجناح الرئاسي، الذي كان من السهل العثور عليه لأن عبارة "الجناح الرئاسي" كانت تزين الباب بأحرف ذهبية ضخمة، (دعوة أخرى للسرقة على غرار "تعال اسرقني"). عالجت القفل ورغم إنني أصبت الغرفة الصحيحة إلا أنه لم يكن هناك شيء واحد جدير بالسرقة.

في مناسبة أخرى كانت فران وكاتي تمكثان بنفس المنتجع. بعد قضاء يوم يفعلان ما يفعله أي شخص في المنتجعات، كانا سيتناولان العشاء برفقة كافة الضيوف الآخرين، ثم يذهبان إلى غرفة الاستراحة. ريتشارد ديليسي وأنا رافقناهم

ذات مـــساء على العشاء. كانا يتبعان حمية خاصة، بيد أننا كضيوف أمكننا تناول كـــل مـــا كنا نرغبه. بعد يوم من تدبر الأمور، كانت كاتي شديدة النهم وعلى استعداد لقتلي أنا وريتشارد بسبب كل الطعام الجيد الذي كنا نلتهمه بشراهة بينما كانـــت تأكـــل أشياء مثل أجنحة الفراش والعشب المنفوخ بالطّهو. عقب العشاء ذهبـــنا جميعنا إلى قاعة الاستراحة وتم تقديمنا لبعض الناس. إحداهن كانت مارجو هيمنجواي وبينما لا يرغب المرء في قدح شخص متوفي، إلا أنها كانت أكثر النساء اللواتي قابلتهن عجرفة.

مـــن ناحـــية أخرى، لقينا يولاندا بيتبيز، ملكة جمال أميركا لعام 1951 التي رفضت التقليد الخاص بعرض ارتداء التاج بملابس الاستحمام لأجل كاتالينا، الذي كان من كبار رعاة للمهرجان. من هنا، اعتبرت ملكة جمال أميركية رائدة. يولاندا كانـــت نشطة للغاية أيضاً في حركة الحقوق المدنية. كانت متواضعة جداً ولطيفة المعشر حيث لم يرغب أحد في قطع المحادثة معها طوال المساء. كان لديها شقة في بـــارك أفينيو ومنازل في جورج تاون وبالم بيتش. اتصلت بها أنا وفران ذات مرة حينما كنا في واشنطن وأصرت أن نقيم في واحد من منازل الضيوف لديها. كانت كريمة بحق، سيدة ممتازة لم يخطر ببالي قط أن أسرقها. حسناً، لقد خطر ذلك ببالي، ولكني لم أفكر في الأمر بجدية.

مارجـــو كانـــت تتحلـــى بمجموعة من المجوهرات في المساء وافترضت أنها ســـتتركها في غرفتها في النهار. بقيت بعدما رحلت فران وكاتي عن الفندق، وأنا عـــدت أدراجـــي للمنتجع. وحيث إنه كان هناك عدد قليل من الضيوف وكلهم ألفوا وجهي وقتئذ، لم تجابهني متاعب في التجول بالمكان. أثناء التدليل اليومي مثلاً حيـــنما تكـــون مارجـــو محاصرة تماماً تحت الطمي أو أي من ذلك، عالجت قفل غـــرفتها. لا وجـــود لأحجار كريمة من أي نوع، مجرد قطعتين من الذهب، ولا واحدة منهما جديرة بمخاطرة لفت أنظار الشرطة لوجود لص.

عندما كانت الأختان ماكجوير، اللتان كانتا تمثلان أشهر فرقة غنائية نسائية في الخمـــسينيات والـــستينيات مـــن القرن الماضي، تقدمان عروضهما في كانتون أوهايـــو، طالعت في الصحيفة أنهما كانتا على موعد لإجراء حديث إذاعي سابق

لأداء عروضهما. تعقبت سيارهما الليموزين من المسرح لأكتشف أين تقيمان، ثم مكثت ريثما عادت السيارة لاصطحاهما لمحطة الإذاعة. كانت لهما ثلاث حجرات ضخمة مجاورة لبعضها البعض، واستعنت بقطعة من السليولويد لاجتياز الأقفال الرخيصة للحجرات الثلاث. لم تملك واحدة منهما أي شيء سوى حلي تزيين الملابس، والتي لم أرغب في سلبها. أشك أنه كانت لديهما أدنى فكرة أن أحداً دخل حجراهما.

كانت هناك مرة لم أتعقبها ببساطة لأنني لم أملك الحماس لذلك. كارول شانج كانت تؤدي عرضها في موزيك كارنيفال بكليفلاند وكانت تقيم في بلو جراس. أجريت بعض التحريات وقررت أنها ستكون مهمة مباشرة، بيد أني رأيت عرضها وكانت رقيقة جداً. لقد فاجأتني برقتها. تصورت إنه ربما كان ذلك مجرد جزء من عرضها، لذا تبعتها قليلاً لكن لتحل عليَّ اللعنة لو لم تكن ودودة ورقيقة في كل لحظة بعيداً عن خشبة المسرح كما تبدو عليه. لذا لم أتمكن من حمل نفسي على فعل هذا.

كان ثمة هدف سطو لم يتحقق وأندم عليه حتى اليوم. فران وأنا أخذنا رحلة من أكابولكو إلى لوس أنجيلوس، ثم أقمنا بفندق لقضاء بضعة أيام داخل وحول سانتا مونيكا. كما هي عادتي، التقطت جريدة لألقي نظرة على صفحات المجتمع، حيث أتابع تغطية الصناعة الترفيهية بقسم "كاليندر" بصحيفة لوس أنجيلوس تايمز. قرأت أنه كان هناك احتفال بنيل دياموند في فندق بيفرلي هيللز، وأحد الضيوف سيكون مارفين ديفيس، بليونير وهو أحد ملوك صناعة النفط الذي كان يتحول تحولاً كبيراً إلى صناعة الترفيه. على الطريقة الهوليودية الرائعة، التُقطت صورة زوجته ونشرت بالعمود مرتدية عدد وفير من المجوهرات.

خرجت وفران من فندق سانتا مونيكا إلى فندق بيفرلي هيللز. انسجمَتْ تماماً فيه، وكانت تبدو كواحدة من الذين يظن الناس أنهم مشاهير ولكن لا يستطيعون تحديد من هم، مما كان بمثابة غطاء جيد لي لكي أتجول بحرية في الفَندق وأدرس التخطيط. وصلت عائلة ديفيس يوم الجمعة لحضور حفل ليلة السبت، حيث شغلا

واحـــداً من تلك المساكن الشهيرة ذات الطابق الواحد المنفصلة عن المبنى الرئيسي. أبصرناهما يدلفان للردهة مرتين، وشيئان جذبا انتباهي. أحدهما أن السيدة ديفيس دائماً ما كانت تتحلى بمجوهرات باهظة الثمن، حتى أثناء النهار، بيد أنها لم تتوقف أبداً عند صندوق خزنة ودائع الفندق لترك حليها به أو لأخذها منه. الشيء الآخر أنهمـــا أحـــضرا معهما بعض أفراد الأمن. كان الحراس حذرين والتزموا أماكنهم، ولكـــنهم كانـــوا لا يخطئون و لم يكن هناك سبيل آمن لي لإتباع الثنائي لمعرفة أي مسكن كانا يقيمان به.

أقـــبل مساء السبت وجلست أنا وفران بالقرب من ردهة البولو لمراقبة استعراض الوجهاء: بيرت باشاراش، جوردون لايت فوت، ديانا روس وروبرت واجنر.. وكمية مـــن المجوهـــرات كفيلة بفتح محل توكيل لهاري وينستون. حينما أقبلت أخيراً السيدة ديفيس، قلادتها وحدها كانت تستطيع إطعام بلدة صغيرة لمدة عام.

كـــان للحفـــل رجال أمن خاصون، لذا تراجع حراس ديفيس وخرجوا في النهاية. تبعتهم على أمل أن يقودوني إلى المسكن، ولكن ذلك لم يحدث. الاهتداء إليه سيكون محفوفاً بالمخاطر، شرعت في التفكير في أن السيدة ديفيس ارتدت كل شـــيء أحضرته معها وأن الأمر قد لا يستحق المخاطرة لإمكانية عدم وجود شيء بـــاقٍ في غرفتهما. الأمان كان دوماً يتصدر أعلى أولوياتي، وكانت هناك طريقة جديـــدة هذه المرة: فران كانت بصحبتي، و لم أقم قط بعملية سرقة وهي في الجوار مـــن قبل. لو تم إلقاء القبض عليَّ، هناك فلا بد من تجنُّب تورطها في الأمر. لذلك اتخذت قراراً بالتراجع.

بعـــد فتـــرة وجيزة داهم لصوص غرفة أسرة ديفيس في جنوب فرنسا بينما كانـــت تتـــناول العشاء بالخارج ولاذوا بالفرار بمجوهرات تقدر قيمتها بعشرين ملـــيون دولار. كـــان يجب أن تكون تلك مجوهراتي. ويعلم الله وحده ما كنت سأجده في مسكنهم في فندق بيفرلي هيللز تلك الليلة.

علـــى الأقـــل لم يكن ذلك بمثابة جهد شاق بالنسبة لي، والحملقة في النجوم كانت ممتعة. ومع ذلك لم يكن من السهل دائماً تفويت واحدة.

* * *

كـــنت مهتماً بإليزابيث تايلور منذ زمن طويل. مجموعتها من الحلي الباهظة الـــثمن كانـــت أسطورية، وأدركتُ أنها (أو أزواجها ووكلاء أعمالها العديدين) كانـــت تـــولي اهـــتماماً فائقاً بالأمن. هذه التركيبة صنعت تحدياً مغرياً لي. عبر الـــسنوات قرأت باستفاضة عنها. أحد الأشياء التي دونت ملاحظة عنها كانت إنه عندما كان ريتشارد بيرتون يصور فيلمه ليلة الإجوانا وقع هو وليز في غرام بورتو فاللارتا وابتاعا منـــزلاً هناك. في ذلك الموقع المنعزل نسبياً، يكون السلب أيسر مما لو كان في واحد من المواقع الشهيرة والتي تعج بالسكان والتي كانت تجنح إليها ليز باستمرار.

كـــنت أتحرك داخل وحول سانت بيترسبورج، وفلوريدا، متخفياً تحت اسم جون ويللينج. ارتدت العديد من النـــزل وأقمت أيضاً مع شقيق باربارا، أوجي، الـــذي كان ما زال صديقاً حميماً رغم الطلاق. كان يحضر كميات الماريجوانا في المناســـبات، ولقـــيت بعض الناس الذين كان يعمل معهم بيد أنني لم أعجب بأي منهم بوجه خاص. دأبت على إبلاغه بمدى ارتيابي حيال أولئك الأشخاص وكيف أنـــني لم أثـــق بهم كثيراً، ولكنه كان يجني أكواماً من المال و لم يكن يبالي بشركائه حـــسبما كـــان يجدر أن يكون. بكلمات أخرى كان ينصت لي في ذلك بقدر ما كـــنت أصغي له، (بالطبع، واحد من أولئك الأشخاص تبدل ليكون واشياً حينما مـــارس رجال الشرطة ضغطهم عليه، وأمضى أوجي وقتاً طويلاً نادماً أنه أضحى متورطاً مع هذا الشخص).

اتخـــذت عـــادة الاختفاء كلما كان أصدقاء أوجي بالقرب، وخلال مرة من الأوقـــات الذي كان يخطط فيها أوجي لجلب قاربين محملين بالمخدرات، أزمعت الـــتوجه إلى بورتو فاللارتا للتحري عن مساكن ليز. كنت لا أزل غير محبذ لفكرة الـــسفر بالطائرة، لكن ذلك كان أفضل من الانحباس على متن قارب، لذا طرت خـــارج تامـــبا بجـــواز سفر جديد. حتى قبلما أصل إلى غرفتي بالفندق الصغير، اكتشفت بالفعل مكان مسكن ليز. كل ما احتجته هو القليل الذي أعرفه عن اللغة الأسبانية: كان الجميع في المدينة يعرف مكان المسكن وقد اعتادوا سماع السؤال من السياح. أدركت أنه في إمكاني طرح كافة الأسئلة التي رغبت فيها بدون إثارة أدنى

شك، وعدد كانت رفاهية فعلاً السائقون العاملون بقرب مسكنها كانوا مصدر هائل للمعلومات ولقاء بضعة دولارات يكونون على أهبة الاستعداد للتحدث طيلة الليل. الجزء الأصعب كان فصل الواقع عن الخيال، بما أن أولئك الأشخاص يحبون إضفاء الطابع الدرامي على رواياتهم قدر الإمكان، لكن عندما تطابقت روايات من سائقين مختلفين، افترضت أنهم اقتربوا من الحقيقة.

لا أتذكر إن كانت وبوتون ما زالا متزوجين وقتها، لكن المجادلات بينهما كانت مشهورة ومنتشرة في بورتو فالارتا، ومباريات الصياح كانت تخرج من المنزل إلى الشارع. كان هناك المزيد من حملات المشروب المفضل والمليئة بالمخدرات أيضاً، وكانت كلها علنية مما جعل من السهل للجميع معرفة إن كانت بالمدينة أم لا. الآن لم تكن موجودة، ولكن المنزل كان مملوءاً بالخدم الذين كانوا يقيمون بالطابق السفلي بمكان ما خلف المسكن.



كان المنـــزل بمنطقة كثيرة التلال، وكان ثمة شارع متعرج وكان يعطي منظراً رائعـــاً للمبنى والساحة. كنت أرتدي شورتاً وقميصاً زهرياً، وبدوت أشبه بسائح آخـــر بينما التقطت صوراً من كل زاوية. كان هناك فناء مركزي ضخم بالخلف بحجـــرات علـــى ثلاثة جوانب. المنـــزل الرئيسي كان متصلاً بمنـــزل أصغر عبر الـــشارع بطريق علوي. عندما فكرت كمدير عقاري، قدرت في النهاية أن غرفة الـــنوم الأساســـية كانت في مقدمة المنـــزل، حوالى ثلاثين قدماً (9 أمتار) أعلى الـــشارع، لـــوها شـــرفة صغيرة تواجه المحيط. ما المزيد الذي يمكن أن يطلبه لص متسلل يمتلك قدراتي؟

بالـــبدء علـــى الطريق العلوي، تمكنت من الوصول بسهولة إلى سطح المنـــزل المجاور، متخذاً طريقي عبر الجدار، ثم أنـــزل بواسطة حبل على سطح ليز ثم أهبط إلى الشرفة الصغيرة المواجهة للمحيط. مهمة في منتهى السهولة. كل ما بقي كان ألا أثير انتـــباه الخـــدم سواء في مسكن ليز أو المنـــزل المجاور، وألا أسمح لأي عابر أو جيران آخـــرين بـــرؤيتي، ثم أعرف من ليز متى ستكون مجوهراتها في غرفة النوم وهي ليست موجـــودة بهـــا. ذلك كان شيئاً يجب أن أجمع شتاته بالعكوف على صفحات المجتمع وأعمـــدة أخبار النجوم، وأدركت أن ذلك قد يستغرق شهوراً. لذا بعد انقضاء بضعة أيام من التحري الكثيف، طرت عائداً إلى تامبا، ثم إلى ساراتوجا لملاقاة فران.

انصرم شهران بدون أي شيء يوضح مواعيد سفر ليز. ثم اتصل ابن عمي دان ريـــنير ليبلغني أنه كان سيرحل لحضور مؤتمر طبي في بورتو فالارتا. كان قد طلق تـــواً من زوجته الثانية وكان يصحب دينيس صديقته حينها، وأراد أن أرافقهما أنا وفـــران. قام دان بتأجير مسكن في مجمع برجي راقٍ، واتخذت وفران مسكناً أهدأ بعـــيد قليلاً عن المدينة. لم يمضِ وقت طويل لاكتشاف أن ليز لم تكن بمسكنها- بعض الناس لا يفكرون بالعمال- ولكني فكرت في أنني ربما أيضاً أرسم الخطة حتى أكـــون متأهباً للوصول هناك في لمح البصر عندما تحين الفرصة وأتم السرقة بدون إثارة المزيد من الجلبة.

عـــادة مـــا كنا نمضي الأمسيات نحن الأربعة في حانة فران بالخارج وفي فندقي لنرقب الغروب المذهل. ذات أمسية أفل فيها ضوء القمر، تظاهرت بنوبة

صـــداع وأرســـلت الآخرين للعشاء بدوني، ثم أخذت سيارة أجرة إلى المدينة وقطعت ميلاً تقريباً إلى مسكن ليز. لم يكن هناك أي أحد بالمنـــزلين. ارتقيت ســـطح الجـــيران واتخذت طريقي عبره، وفي النهاية هبطت إلى الشرفة، حيث واجهت بابين فرنسيين مغلقين بقفلين. نظرت في الغرفة باستخدام مصباح القلم وأبصرت جدران بلون أزرق فاتح، وفراش مظلل ولوحة أو صورة هائلة الحجم لليـــز ذاتهـــا على الجدار. بعد دقيقة تسلقت هابطاً الثلاثين قدماً (9 أمتار) إلى الشارع السفلي وانصرفت. كنت مستعداً الآن، لو أن ليزا ستتعاون معي وتتبع البرنامج المرسوم.

كـــنت أستطيع الدخول إلى غرفة النوم تلك وتفحُّصها بأية حال، بيد أنه ساورني الشك بجدية في أنها كانت لتترك أي شيء له قيمة أثناء غيابها الطويل، وبسبب طريقة بناء الأبواب هناك كان مستحيلاً عدم ترك دليل أنه كان هناك اقـــتحام. وفـــور اكتشاف ذلك، سيقومون إما بتزويد المكان بأجهزة إنذار أو جعـــل الأبواب أكثر أماناً وإحكاماً، وبالتالي يدمرون فرصة محاولة دخولي في المستقبل.

ذهبت إلى بورتو فاللارتا ثلاث مرات حينما ظننت أنه كان هناك احتمال أن تكون بالمدينة، بيد إنها لم تكن هناك أبداً.

21

النجاة العسيرة الثانية

اعــتادت عمــتي نــيل زيارة منــزل ميل كريك طيلة الوقت، ولكن أمي رفــضت. رغم أننا كنا ما زلنا على وفاق ونتحادث طيلة الوقت، إلا أنها كانت تــرى أنــني كنت لا أزال زوجاً لباربارا وذلك كان كل ما في الأمر. وكان من المستحيل أن تخطو بقدمها في منــزل الخطيئة الخاص بي.

بعــد طلاقي بفترة وجيزة اتصلت أمي لتسأل عن أحوالي، وبعد حوالى عشر دقائق من المحادثة قالت عرضاً "كدت أنسى، مكتب التحقيقات الفدرالي اتصل بي أمس".

"مكــتب التحقــيقات الفدرالي؟" قلتها بصوت خفيض، وتسلل الخوف إلى أحــشائي. لكــن طالما أنهم اتصلوا بها أمس و لم تبلغني إلا الآن، إذن إلى أي مدى الأمور سيئة؟ "ماذا كانوا يريدون؟"

"يــريدون المجيء لمقابلتي ثانية"، قالتها بابتهاج. "ليتحدثوا بشأنك، مثل المرة الماضية وحسب".

هذا هو مدى سوء الأمور. "رفضت طلبهم، أليس كذلك؟" سألتها على أمل أن تجيب بالإيجاب محاولاً الاحتفاظ بهدوء صوتي قدر الإمكان كي لا أنبهها.

"لم أرفض طلبهم بتاتاً"، قالتها بتحدٍّ "إنها فرصة لإبلاغهم عن دماثة خلقك".

أحــياناً تكون العذوبة وسلامة النية أكثر مما ينبغي. أمي كانت امرأة عطوفة ومحبوبة، ولكن كيف يمكنها في هذا اليوم وفي هذا السن أن تعتقد بصدق أن محادثة واحــدة بينها وبين مكتب التحقيقات الفدرالي ستجعل رجال مكتب التحقيقات

الفدرالي يعرفون أهم مخطئون ويتركونني وشأني؟ وكيف عساي ابدأ في شرح مدى خطورة أن تقابلهم أصلاً، عندما في آخر مرة أتوا فيها لمقابلتها قدمت إليهم الشاي ووجدهم جميعاً ساحرين ويتسمون بحسن السلوك والتصرف؟

"لا تلاقيهم". طلبت منها، "من حقك ألا تخبريهم بشيء".

قالت: "أتظن أنني لا أعرف هذا؟"

"إذن فلا تلاقيهم! أخبريهم أنك لا ترغبين في تحديد موعد و...".

قالت، "لكنني حددت الموعد بالفعل".

"متى؟" "لِمَ، عصر اليوم، الثانية".

في أقــل من ثلاث ساعات من الآن. توسلت إليها بالفعل لكي تلغي المقابلة، لكــن دون جــدوى. رأت أن اللقاء ضروري وأنه فرصة سانحة، كما أها أعطت كلمتها بالفعل.

"أين ستلاقيهم؟" سألتها، مستسلماً ومهزوماً.

"ولا مكان"، أجابت، وكنت سعيداً إذ لم أعد أناضلها.

"إهم سيأتون إلى هنا، سأعد لهم الشاي"

شيء جميل.

والــدتي كانت من الجيل الذي تربى على سماع جانجباسترز في الإذاعة ويكن لجــي.إدجــار كــل الاحتــرام بدلاً من الشك أو الازدراء. اعتقدت أن مكتب التحقــيقات الفــدرالي لم يخفق قط في التوصل إلى من يبحثون عنه، وبالتالي كان مــصيري أن يطاردوني ما دمت حياً حتى يقبضوا عليَّ أو يقرروا أهم لا يريدونني. كانــت على يقين أن فرصتي الوحيدة هي أن تقنعهم بأنني مواطن صالح وشريف، رغم الخطأ الواحد أو الاثنين اللذين ارتكبتهما على مدار حياتي.

في حــوالى الواحدة وخمسة وأربعين دقيقة أوقفنا أنا وفران سيارتنا المرسيدس على بعد نصف عمارة من شقة والدتي وراقبت المكان عبر منظار مكبر بينما دلف الــوكلاء إلى العمارة وخرجوا منها. على الأقل رأيت من كان يتعقبني. كان لديّ ذاكرة قوية لحفظ الوجوه وكنت أستطيع أن أتعرف على أي من الأشخاص الذين يلقون والدتي إذا تصادف ظهورهم في مكان ما في الجوار.

كمــا الحــال مــن قبل، لم يسفر اللقاء عن أي شيء. بعد شهرين آخرين اضــطرت والدتي للذهاب إلى المستشفى لإجراء جراحة. كانت قد أصيبت بنوبة ســرطانية مــن قبل، ولكن تلك كانت أسوأ. أخذها أنا وعمتي نيل لهناك وبقينا خــلال وقــت العملية. حين انتهت الجراحة، خرج الطبيب وأدركت قبلما يتفوه بكلمة أن الأمر كان سيسفر عن أنباء سيئة.

قــال الطبيب، "لقد انتشر كثيراً بشكل يعجزنا عن أداء أي شيء ذي فائدة. أفضل ما في وسعنا هو أن نريحها قدر الإمكان". أثناء احتضارها، لم يكن عليه أن يخبرنا بهذا.

كانــت لا تزال تحت تأثير المسكن القوي حينما ذهبنا لرؤيتها، وعندما عدنا في الــيوم الــتالي، كانت في غيبوبة. قاموا بنقلها إلى غرفة العناية المركزة وأمدوها بجهاز تنفس صناعي.

كــان من المفروض أن أذهب أنا وفران إلى ويمبلدون، ولكننا ألغينا الرحلة. كــنت أزور والدتي وأجلس معها يومياً، وأمكث معها أطول فترة ممكنة. كنت في بعــض الأيام أحضر عمتي معي، ولكن عندما كنت آتي بدونها، كنت أتحدث إلى والــدتي وأحاول تصديق أنه في إمكانها سماعي. أعربت لها عن مدى ما أكننته من حــب لهــا ومــدى ندمي وأسفي على كل الألم الذي ألحقته بها. لم أخبرها عن المسدس الذي حملته معي في كل زيارة.

نــادراً ما ذهبت لأي مكان مسلحاً، ولكن كان لا بد من أن أذهب لأرى أمــي في أيامهــا الأخــيرة وكنت متوتراً للغاية بسبب رجال مكتب التحقيقات الفــدرالي. لم أتمكــن من اتخاذ أغلب الاحتياطات العادية التي كنت أعتمد عليها، وقلة الحيلة المفاجئة هذه في وجه الخطر الوشيك كانت مربكة وتثير الخوف بشدة. كــنت أوقف السيارة بمنأى عن المستشفى وأحاول السير في الطرقات التي تجعلني بمــنأى عــن الــشوارع حتى لا أبدو مرتاباً للناس الذين اضطررت للمرور أمام أملاكهــم. اكتشفت عدد ضخم من الطرق الخلفية المؤدية إلى داخل المستشفى، بعضها كان يقتضي فتح أقفالها بالعتلة دون كسرها أو ترك أي علامة أخرى تدل علــى أن أحــداً عبث بها. بعد دخولي، كان عليَّ دراسة كل الوجوه باحثاً عن

علامـــات تعـــرف عليَّ أو علامات خطر، وكان عليَّ أن أبقى منتبهاً لإشارات التحذيـــر التي ستخبرني إذا ما كان هناك من يعرف بأمري ويحاول ألا يظهر هذا، وكان عليَّ أن أفعل هذا دون أن أحملق. بعد جلوسي مع والدتي ومحاولة مخاطبتها دون أن أظهر قلقي وارتيابي، اضطررت للالتفات وفعل هذا كله ثانية لأخرج من هـــناك وأعود أدراجي لسيارتي. بالنسبة للمسدس، لم تكن لديّ فكرة عما كنت ســـأفعل لو جوبهت، وشكراً لله أنني لم أضطر لاكتشاف ذلك. حتى هذا اليوم، ما زلت لا أعرف لماذا لم يراقب رجال التحقيقات الفدرالية المستشفى سراً استناداً إلى الاحتمال الكبير لحضوري لزيارة أمي.

ســـارت الأمـــور على هذا المنوال زهاء عشرة أيام وكان ذلك من أكثر أوقات حياتي هولاً. كنت آتي المنـــزل أتصبب عرقاً وأرتعد بلا قدرة على التحكم في نفسي، وبالنسبة لشخص ما كان معتاداً على الزحف على الأفاريز والتدلي من الأحبال، كان هذا جديداً عليَّ ومرعباً. شربت بإفراط حتى في محاولة للتقليل من توتري العصبي.

لم أتمكن من إعطاء المستشفى رقم هاتفي، لذا كان لديهم رقم هاتف عمتي، وكانـــت هـــي التي اتصلت بي لتبلغني بوفاة أمي. ذهبت إلى المستشفى في الرابعة صـــباحاً، لكـــن عندما سألوني إن كنت أرغب في رؤيتها أبيت. رغبت أن تكون ذكراي الأخيرة لها عندما كانت على قيد الحياة، بغض النظر عما كانت عليه من ثبات وعدم استجابة.

حينما وصلت البيت، لم أتمكن من العثور على قطتي الصغيرة موشكا.

* * *

اتصلت بسوزي في نيوزيلندة وبارب في فلوريدا وسألتهما المجيء للمعاونة في اتخـــاذ الإجراءات والترتيبات. (لم يكن الاتصال ببارب غريباً كما يبدو؛ بعد إتمام الطـــلاق، بقيـــنا أصدقاء حميمين وتحدثنا باستمرار). وصلت سوزي أولاً. برغم السبب الحزين لزيارتها، كنا سعيدين برؤية بعضنا البعض و لم نحاول إخفاء ذلك.

عـــندما أخـــرجت أمتعتها، لاحظت جواز سفرها وطرأ شيء ما على بالي، ولكـــنني لم أذكر أي شيء فوراً. أمضينا اليومين التاليين بشقة والدتي ونحن نرتب كافة متعلقاتها ونقرر ما نفعله بها وحينها فاتحتها في الأمر.

"قد تواجهنا مشكلة". قلت ذلك.

"ماذا؟" سألت سوزي، ولكن واصلت العمل.

"يراودني إحساس بأن مكتب التحقيقات الفدرالي يحتفظ برقم جواز سفرك في مذكرة. لعلك أثرت إنذاراً عندما هبطت في الولايات المتحدة".

توقفت عما كانت تعمله واستدارت قبالتي. "أتظنهم تعقبوني للوصول إليك؟"

هززت رأسي موافقاً. "لا يكن بمقدورهم التدبير لهذا بتلك السرعة. ففي الوقت الذي يستغرقونه لكي يستعدون لاقتفاء الأثر، تكون أنت رحلت منذ أمد طويل".

أمعنت سوزي التفكير في ذلك ملياً ثم قررت أنني كنت مصاباً بوسواس قهري. "كانوا يعلمون بأن الجدة كانت مريضة و لم يراقبوا المستشفى سراً أليس كذلك؟" ضحكت ولكزتني بخفة في كتفي. "أنت لست بهذه الأهمية، أيها الرجل العجوز".

كانت محقة في ذلك ولكنها كانت أيضاً مخطئة. "لهذا السبب ربما كان هناك إبطاء"، شرحت لها، "ربما لست مهماً بما يكفي بالنسبة لهم حتى يراقبوا الجدة أو مراقبة المطار طيلة الوقت، ولكن مراقبة رقم جواز سفرك فهو أمر لا يحتاج لمشقة. فهم قد يراقبون آلافاً في أي وقت.

لم يكن أمامي سبيل لمعرفة أي من ذلك كان يقيناً، لكني كنت أعرف أن عمل الكمائن كان في منتهى السهولة. يستطيع رجال التحقيقات الفدرالية فعل ذلك بالبطاقات الائتمانية أيضاً. فلو كان هناك شخص ما يودون الإمساك به وكان يستخدم بطاقة ائتمانية، فلبادروا بوضع أجهزة إنذار على مركز توثيق البطاقة، وإجراء مكالمة تلفونية للوكالة المناسبة - مكتب التحقيقات الفدرالي، وكالة المخابرات المركزية، وكالة الأمن القومي، وكالة الاستخبارات الدفاعية، مكتب مكافحة المخدرات- فيخرجون على الفور وهم يحددون الموقع المضبوط والذي تم فيه استخدام البطاقة.

لم تكن سوزي تتقبل ذلك تماماً ولكنها لمست الحكمة في افتراض أسوأ الأحوال. "ماذا تظنهم سيفعلون إذن؟"

لم أكـــن موقناً في الواقع، وفكرت في الأمر بصوت عالٍ. "ذهبوا للقاء الجدة منذ شهرين ماضيين.." بدأت..

"الجدة!" صاحت، "لماذا؟"

"كانوا يبحثون عني".

"وهل اعتقدوا أنها كانت ستبلغهم؟"

"مـــن يـــدري مـــا كان يدور في خلدهم؟ بيد أنها ذكية. أعدت لهم الشاي وأبلغتهم كم كنت شاباً صالحاً حتى استبد بهم الضجر وتركوا المكان".

ابتـــسمت ســـوزي بيـــنما ثارت في ذهنها صورة جدتها وهي تحبط رجال التحقيقات الفدرالية. ثم اختفت الابتسامة. "سيعرفون أنها ماتت لتوها".

"أجـــل، ثم ظهرت أنت، لذا فهم يعرفون أن العائلة ستأتي". تركتها تفكر في ذلك لبضع ثوانٍ، ثم قلت: "يجب أن نأخذ والدتك وشقيقتك من المطار غداً".

أدركـــتْ ســـوزي ذلك فوراً "أتظنهم ربما ينصبون شركاً". حينما أومأت بالموافقة، هزت كتفها بلا مبالاة وقالت "إذن سآخذهم بنفسي. ليس التملص من المراقبة بالأمر الصعب هنا".

"إنـــك تشاهدين العديد من برامج الشرطة على التلفزيون"، أجبتها، ولكنها كانت على حق. فمن السهل اقتفاء أثر شخص ما في مدينة كبرى، حيث يتمكن المقتفي من إخفاء نفسه وسط الجماهير. أما في الأماكن الأقل سكاناً، فالأمر أكثر صعوبة، إلا لو حظيت بفرق مطاردة وطائرة أو اثنتين مروحيتين، وكانت سوزي محقة في شيء آخر: لم أكن مهماً بما يكفي كي أستحق كل هذا العناء.

لكن إن كانوا يريدونني بشدة لدرجة مضايقة والدتي، لأمكنهم يقيناً مراقبة المطـــار. كـــان يجـــب أن أصل لتسوية أفضل عن كم كنت مهماً، وما كنت لأعـــرف أي شيء لو ذهبت سوزي لإصطحاب باربارا ولورا بنفسها. أردت أيـــضاً التأكد أنها لم تعد رجال التحقيقات الفدرالية إليّ ثانية إن كانوا يراقبون المطار فعلاً.

"إليك ما سنفعله.."، قلت لها.

* * *

قدنا صوب مطار كليفلاند هوبكنــز الدولي في سيارتين منفصلتين. بما أنني كــنت أعرف وجهة سوزي، تمكنت من متابعتها على مسافة آمنة بدون أن أقلق بشأن غيابها عن نظري وكنت في وضع جيد لكشف أيا كان من يتعقبها. لم أتوقع بالفعــل رؤية أي أحد يفعل ذلك، لأنه كان من المستحيل أن يعرفوا من أين أتت، ومــتى ســترحل، أو حتى إن كانت هي. لو كان هناك أي شرك، لكان محصوراً بالمطار. أي شيء آخر يستلزم مجموعة كبيرة من الأفراد. ولكن لكي نطمئن، حملنا أجهزة لاسلكية للاستقبال والإرسال.

عندما وصلنا المطار، قادت سوزي صوب ساحة الانتظار. لبثت تماماً بالخلف وبمــنأى عن الجوار المباشر ولكني كنت أرى جيداً المكان الذي أوقفت فيه سيارتها وأيــضاً البوابة المفضية لساحة الانتظار. دلفت إلى صالة المطار الرئيسية، ولكني لم أتمكــن من رؤية أي شيء غير مألوف وسط الناس الذين يتحركون هنا وهناك أو المــركبات المنتظرة عند حافة الطريق أو التي تمر ببطء. إما أولئك الرجال كانوا في منتهى البراعة أو أنهم غير موجودين.

تلقــيت إجــابتي بعد قرابة ثلث ساعة لاحقة، عندما أقبلت سوزي وبارب ولورا خارجات من الصالة. أحصيت ستة رجال يقتفون أثرهن وهم سائرون على أقــدامهم، ويعطــون إشارات علنية لبعضهم البعض، حيث كانت النساء تعطين ظهورهن لهم. اثنان من الرجال أيضاً كانا يتحدثان بأجهزة لاسلكية في أيديهما.

تعقــب الشخصان ذوا الأجهزة اللاسلكية أسرتي في ساحة الانتظار بينما أســرع الآخرون لمكان ما، وبعد مضي دقيقة برزت فجأة أربع سيارات بدون علامــات مميــزة عند البوابة وسدوها تماماً. لا بد من أنهم افترضوا أنني كنت منتظــراً بالسيارة وكانوا يقطعون على فراري. كنت أشعر باندفاع الدماء في شــرايينهم حــين ترقبوا انتصارهم الوشيك، وأعترف بأنني شعرت بالقليل من الفــرحة الخبيــثة حينما كنت أراقب لأرى ما سيحدث حينما يكتشفون عدم وجودي بالسيارة.

أحجــم العميلان بينما توجهت الفتيات للسيارة. اجتذب عميل منهم منظار صــغير من جيبه ووقف ساكناً يراقب لبضع ثوانٍ. ثم أنــزل المنظار فجأة وانتزع

جهازه للاسلكي. من الواضح أنني لم أتمكن من سماع ما كان يقوله، ولكن أمكنني التخمين أنه كان يبلغ عن عدم وجود هدفهم، الذي هو أنا.

سمعت صرير بعض الإطارات ونظرت نظرة خاطفة عبر بوابة ساحة الانتظار. بالطبع كان سائقو السيارات الأربع يتدافعون في محاولتهم إفساح المجال. في استعجالهم هذا، اصطدم اثنان منهم ببعضهما وأصدرا أصواتاً غاضبة، وأعقب ذلك صياح السائقين المصطدمين في وجه بعضهما البعض بينما توقف المارة في محاولة لفهم ما كان يحدث. خرج سائق واحد من السيارات الأخرى وأشار لهم بشدة بالسكوت والخروج من طريقه، وفعلوا ذلك بينما دلفت سيارة سوزي في الممر الأوسط وتوجهت صوب البوابة. عندما وصلت إلى هناك، كانت كل السيارات الأربع تتسابق مسرعة وإحداها ارتطمت مؤخرها بالرصيف، مطلقة وابلاً من الرذاذ وضجة مروعة.

بالرغم من إرهاق للأعصاب، كان ذلك مضحكاً أيضاً، على طريقة كيستون كوبس. لكن بواقع خبرتي الكافية مع قوات السلطة التنفيذية المحرجين كنت أدرك أنهم سينتقمون مني بسبب ما حدث لو تمكنوا من إلقاء القبض عليَّ.

كانت هناك عربة كبيرة تتعقب سوزي التي لم يكن بوسعها أن تعرف ذلك، ولكننا كفلنا ذلك في تخطيطنا. انتظرت ريثما خرجت من المطار نهائياً وشغلت جهاز الاستقبال والإرسال ثم قلت: "إنهم هناك"، ولا شيء آخر. شغلت سوزي جهازها لثانية بدون أن تنبس بأي شيء، ولكن صوت التشويش الذي تلقيته أعلمني أنها سمعتني وفهمت وأنها ستقود مباشرة صوب شقة والدتي بدون الذهاب إلى منزل ميل كريك أولاً.

* * *

ساعدنا أحد أصدقاء فران على إبعاد خبر وفاة والدتي عن الصحف، ولكن اكتشفنا أيضاً أن الفدراليين اكتشفوا الأمر بأية حال. لم يكن هناك شك في أنهم كانوا يتطلعون للجنازة، وهم على معرفة يقينية بعدم إمكاني الابتعاد عن حضورها، ولكن والدتي كانت قد قررت منذ سنوات من قبل أن يتم حرق جثمانها بدون إقامة شعائر جنائزية. (أتساءل عما كانت ستظنه لو عرفت أنني كنت أعد لذلك

بدار جنائزي يهودية). نقلنا رفاتها إلى ويست فيرجينيا ليتم دفنها إلى جانب رفات والدي، وبالتالي قطعنا على الشرطة طريق آخر للملاحقة.

لم أمضِ وقتاً طويلاً في تهنئة نفسي على مهارتي رغم أنني كلما أصبحت أكثر قدرة على المراوغة، كلما زاد الفدراليون في جنونهم وغضبهم على الأرجح. ذلك جعل صورتهم سيئة، وبالطبع لم يكونوا ليستسلموا ويعودوا لمنازلهم. في تخميني أنهم كانوا يعملون بالنيابة عن عدة منظمات سلطة تنفيذية محلية والتي اتفقت على نفض أيـــديها والسماح لهم بالقبض عليَّ. لو أقبلوا ثانية خاليي الوفاض.. في الحقيقة لم يكـــن هـــناك مجال لـــ "لو". سيدأبون على ذلك ريثما ينالون مني أو أموت، لأن البديل سيكون مهيناً جداً لهم.

بـــسبب كـــل الجهد الذي بذلته أنا وسوزي بشقة والدتي على مدى يومين، تـــصورت أنـــه لم يكن هناك الكثير لكي تفعله بارب بعد أن أصبحت معنا هنا، باســـتثناء خـــوض غمار كل شيء بنفسها وللتأكد من أنه لم يكن هناك شيء في كـــومة الهـــدايا يجب أن لا يهدى. خلت أن الجنون قد يستبد بي لإقناعها بإنجاز العمل كي أتمكن من الخروج من هناك.

بقيت هي وسوزي بشقة والدتي، ولكن لورا رغبت للبقاء مع فران ومعي في مـــوري لاند هيللز. وفي حالة ما إذا كان شخص ما يراقبها، رتبت طريقاً ملتوياً معقـــداً لها لكي تصل إلى هناك. أركبتها سوزي قطاراً، الذي هو جزء من جهاز الـــنقل الإقليمي الأكبر بكليفلاند والمعروف باسم السريع. ومن هناك انتقلت لورا إلى حافلة وكان هذا جزءاً من الخطة، ثم حافلة ثانية سريعة. ثم أخيراً استقبلتها في فان أكن بوليفارد وصحبتها إلى المنـــزل.

جميلة وتفيض حماساً، عنيدة ومتقلبة المزاج، لورا أيضاً مخلصة بضراوة وملتزمة بالأســـرة: الطـــراز الجيد الذي تقاسمه كل أولادي وربما كان الشيء الطيب الذي تلقـــنوه مني. هي أكثر أولادي تعقيداً، وأحسب أن هذا مرجعه أنها الوحيدة التي أمضت أقل وقت ممكن مع والدها؛ كنت متغيباً كثيراً عن طفولتها.

لورا متيمة بالحيوانات أيضاً. وأرادت أن تلعب مع كيللر وموشكا، بيد أني ما زلت لم أبصر قطتي منذ يوم وفاة أمي. عندما ذهبنا إلى المنـــزل، أمضيت ساعات

مـــع لـــورا نفتش في الغابات المحيطة والوادي الصغير و لم نعثر عليها أبداً. افتقدت كيللـــر صديقتها وتسكعت في أنحاء المنـــزل كله حيث كانت لورا هناك، وهناك شـــيء ما حيال حزن تلك الكلبة المسكينة الذي بدا شديداً وتعدى مشاعر الفراغ لفقدان والدتي.

كان جهداً عصبياً مبرحاً ومؤلماً زهاء الأسبوعين، بيد أننا في النهاية استجمعنا شتاتنا وسوينا كل شيء. لم نرَ أي رجل آخر من مكتب التحقيقات الفدرالي منذ وقت المطار وافترضت أنه أخيراً حان وقت الخلود للراحة قليلاً.

ولكنه كان افتراض سيئ.

22

آجلاً أم عاجلاً

عادت الأمور ببطء إلى وضعها الطبيعي.

عادت بارب ولورا إلى فلوريدا. قررت سوزي القيام بجولة سياحية في أرجاء الـولايات المتحدة بالسيارة بدلاً من العودة إلى نيوزيلندة وكانت على الطريق، ومارك كان بالجامعة في فلوريدا في تالاهاسي. وزعت ميراث أمي النقدي على بارب والأطفال، وكان هذا آخر شيء يتعلق بوفاتها، وعدت لأعيش حياة الضواحي وأحاول زرع حديقة طماطم.

عقب وفاة أمي بعام تقريباً، كان عليَّ الذهاب إلى متجر الخردوات. ركبت سيارة فران المرسيدس، السيارة الوحيدة التي كانت لدينا وقتها، وحالما دخلت المتجر، تعرفت على شخص ما عرفته منذ سنوات مضت اسمه رود سميث. كما هو الحال في عدد من المناسبات، عندما أشاهد أناساً اعتدت معرفتهم، كنت أتحاشى التعرف إذا كان ذلك ممكناً. لم أظن أن رود قد رآني، إذ كانت لي لحية جعلت من الصعوبة التعرف عليَّ من بعد، لذا لم أكن قلقاً. تأكدت من إعطاء ظهري له دائماً بينما ابتعت ما كنت في حاجة إليه، ودفعت القيمة ثم برحت.

فور خروجي، أبصرته جالساً بسيارة على بعد سيارتين مني، يطالع شيئاً ما. فور ما وصلت سيارتي، رأيت أن ما كان يطالعه بعض الورق المرمَّل. من الواضح كان ثمة شيء ما ليس على ما يرام هنا، ولكنني كنت بالفعل واقفاً عند باب السائق

لسيارتي ولم أرغب في الابتعاد على عجل، لأن ذلك سيجعلني أبدو مريباً. ربما كان يجدر بي فعل ذلك بأية حال.

حسناً، تعرف عليَّ سميث، وأدرك أنني كنت أيضاً مطارداً. دوّن بسرعة رقم رخصة سيارة فران، ثم اتصل بصديق له يدعى آرثر كرينسكي، عميل بمكتب التحقيقات الفدرالية. سخر كرينسكي في البداية، ثم أجرى بضع مكالمات هاتفية. بعد أقل من ساعتين بعد ذلك أمر بمراقبة منزل موريلاند هيللز على مدار أربع وعشرين ساعة وشرع يعد للقاء بالعديد من وكالات السلطات التنفيذية.

انعقد ذلك الاجتماع بعدها بيومين. أبلغ كرينسكي أن فريق المراقبة الخاص به، الذي كان عبارة عن موظفي شركة هاتف زائفة يقبعون عند أعمدة الهواتف المحيطة بممر ميل كريك، لا يزال لم يبصرني وهم ليسوا متأكدين مما إذا كنت بالفعل في المنزل. كان هذا لسبب واحد، وهو أن سيارة فران كانت لها نوافذ مصبوغة بشدة وكان العملاء المحليون عاجزين عن تمييز من كان بالسيارة بينما كانت تغدو وتروح. شخص ما آخر، ولا أعرف من هو، أقترح أنه حتى لو تأكدوا وجودي بالداخل، فالمنزل كان مكاناً سيئاً لمحاولة القبض عليَّ، لأنني ربما أكون قد أعددت سبيلاً بالفعل للفرار عن طريق الوادي الصغير. قرروا في النهاية أنه يجب استدراجي إلى مكان آخر، حتى لو استغرق الأمر المزيد من الوقت والنفقات في انتظار تحركي. (بالطبع، كنت أجهل أي من هذا وقته. استجمعنا ذلك من مصادر متباينة فيما بعد).

سوزي وأنا أعددنا خططاً للالتقاء في أطلنطا ثم نقود السيارة إلى تاللا هاسي لزيارة مارك بالمدرسة. كانت فران ستطير إلى نيويورك في نفس اليوم لقضاء عطلة الأسبوع بصحبة ابنتها الكبرى، والتي كانت تدرس بمدرسة دالتون المرموقة. في المطار، انفصلت أنا وفران ليركب كل منا طائرته بعد الاتفاق على التلاقي وإلقاء تحية الوداع قبيل ركوب الطائرة.ذهبت إلى ديلتا وفران إلى كونتيننتال. بينما كنت واقفاً في الصف، أحسست فجأة بأيدي تطوقني من الخلف. تنبهت وتمالكت نفسي بسرعة. لا يمكن أن تكون عملية سلب قهري، ليس في وسط مطار مزدحم، ولم تكن هناك ثغرة في طريقة إمساك أولئك الأشخاص بي. كان هناك على الأقل أربعة

مـــنهم، لأنـــني أحصيت ثلاثة أيدي على كل ذراع، يد على عنقي وأخرى على ظهري. حتى لو تمكنت من إلحاق القليل من الخسائر بهم، لم أكن لأهرب.

"ويليام ماسون؟" جائني صوت من الخلف يسألني. ما زلت لم أرَ أي وجوه.

كلا، أنت مخطئ.

أدركـــت أن الحياة كما عرفتها قد انقضت، وكان ذهني في سباق مرير بينما أداروني وكبلوني بالأصفاد، ولم يتركوني قط بينما أقدموا على هذا. أولئك الرجال كانـــوا في حجـــم الثلاجات، وكنت سعيداً لأنني لم أحاول فعل أي شيء. لأنهم كانـــوا أربعة، خمنت أنهم حادثوا قسم شرطة فورت لوديرديل وكانوا على دراية بسياسة التعامل مع اعتقالي. خمنت أيضاً أنهم لم يكونوا تابعين لقسم شرطة محلي، ولكنهم كانوا يرتدون ملابس غير رسمية، لذا لم أتمكن من معرفة من أين جاؤوا.

بيـــنما كانوا يهرعون بي للخارج، أحصيت ثلاثين آخرين بملابسهم المدينة، الـــبعض ممـــن كانـــوا يجذبـــونني كان مدوناً على ظهورستراتهم الزرقاء مكتب التحقـــيقات الفدرالـــية باللـــون الأصفر. علمت فيما بعد أنني لم أخطأ كثيراً في إحصائهم، فقد كان عددهم خمسة وعشرين شخصاً بالفعل- وفران كانت تحاول الاهـــتداء إليّ لتوديعي واضطرت إلى ركوب طائرتها بدون أدنى فكرة عما ألم بي. لأنه لم يكن دأبي تماماً ألا أكون في مكان قطعت عهداً أن أكون به، تملكها القليل من الفزع. كنت سعيداً لأنها لم تهتدِ إليّ ورأت ما كان يحدث. كان العملاء قطعاً يعرفون بالضبط أين كانت، ولكنهم تركوها تستقل طائرتها بأية حال.

"مـــن حقـــك أن تلـــزم الـــصمت"، قالها أحد الرجال الممسكين بي، وقد استخدمت هذا الحق إلى أقصى حد.

لم أنبس بكلمة، ولا حتى باسمي. لم أجب حتى عندما سألوني إن كنت أفهم حقوقـــي- كان سؤالاً أخرقَ بأية حال لشخص أخبرته من قبل أنه ليس عليه أن يجيب على أية أسئلة- مما أثار غضبهم وحنقهم بالفعل، ولكن ماذا كانوا يتوقعون؟ أنـــني كنت سأنهار على الفور وأعترف بكل شيء كي يتمكنوا من الحصول على بعض الأوسمة الذهبية على بطاقات قيد الفوز جي إدجار؟ مع ذلك أقول في حقهم أنهم لم يعاملوني بخشونة حتى عندما لم يكن هناك أحد في الجوار.

اقتادوني إلى مبنى فدرالي ما في وسط مدينة كليفلاند ووضعوني في زنزانة حجز مزودة بهاتف. لم أدرك لكم من الوقت استغرقت لأصل لذلك الهاتف، لذا فالمكالمة الأولى التي أجريتها كانت لكاتي. أبلغتها أن تتصل بفران في نيويورك وتخبرها بما كان يحدث، ثم اتصلت ببيل ويللينج، ثم طلبت أن يُنادى على اسم سوزي بمطار أطلنطا ويطلب منها المجيء إلى هنا. فور إتمام ذلك، كنت قادراً على تلمس الراحة لقليل من الوقت وشرعت في إجراء مكالمات لإنجاز بضعة أمور لحسابي.

في عصر ذلك اليوم مؤخراً وصلت سوزي ومارك بالفعل وكانت فران في طريق عودتها، ولاح لي شيء ما. هأنذا، بلا حول ولا قوة، رجل كان قد قضى حياته يسلب الناس، خاصة النساء، ومع ذلك كنت في خلال دقائق وجيزة قادراً على تعبئة جيش من الناس المخلصين بشدة والتواقين لمساعدتي. مستحيل أنني كنت أستحق أي من ذلك، ولكن هكذا كان الحال الآن، مما جعل تلك الساعات المجهدة للأعصاب للغاية محتملة قليلاً.

كان لديّ الكثير من الوقت للتفكير في وضعي. كف رجال التحقيقات الفدرالية تماماً عن محاولة مساءلتي، طالما أنني لم أكن متعاوناً أو حتى أنبس بكلمة لهم. كان آرثر كرينسكي أحد العملاء الصغار الكثيري التذمر. كما أ ني أيضاً لم يكن لديّ أي شيء لأفعله بعد أن حشدت حولي أصدقائي وعائلتي. كل ما أمكنني فعله كان إصدار التعليمات ثم أستريح. كل ما فعلته في الغالب عندما استرحت كان هو أن أقلق، خاصة عندما كنت أضطر لمحادثتهم عبر الهاتف بدلاً من مقابلتهم. إذا كان رجال التحقيقات الفدرالية يسمعون، لكان لديهم مائة سبيل لاستخدام المعلومات ضدي دون أن يبينوا أهم قد استرقوا السمع.

كانت فران والآخرون من المنحازين لجانبي في منتهى التوتر العصبي في البداية، ولكن في الصباح التالي تصدر خبر اعتقالي الصفحات الأولى في كل جريدة في الغرب الأوسط. لم يكن لديّ شك في أن السلطات كانت في مرحلة الحصول على إذن تفتيش للمنزل. أخبرنا محامينا أنه لم يكن هناك مبرر للتفتيش- المنزل كان مسجلاً باسم فران فقط و لم يكن هناك مبرر محتمل ممكن الاعتماد عليه- ولكنني لم

أكـــن أعتقد أن الجميع يتبعون القواعد. لم أعرف كم بقي لدينا من وقت، لذا لم أبدد وقتاً في الشروع بإخلاء وتمهيد المنـــزل.

مبكراً في ذات اليوم، سحبت سوزي مبلغاً نقدياً كبيراً من خزينة البنك والتي كانـــت باسمها واسم جون ويللينج. كنت الآن أريد إخراجها من المنـــزل. طلبت مـــن فران أن تضعها في كيس بقالة بني، حينها توجهت هي وسوزي ومارك إلى مكان يدعى Private Safe Place مجهز لتأجير صناديق خزائن ودائع. قاموا باستئجار صـــندوق بأسمـــاء مستعارة، وأودعوا الحقيبة بداخله. وأبلغ بعض كتاب المجلات المـــصورة فـــيما بعـــد أنه كانت هناك على الأرجح بعض أدلة الإدانة في الكيس الورقي، بيد أن ذلك لم يكن صحيحا.

ودون علـــم أي مـــنا، قامت فران بترك مائة ألف دولار نقدياً في المنـــزل، كانت قد اعتقدت أنها قد تحتاج إليها لدفع كفالتي. ولم تكن ترغب أن يكون ثمة تأخـــر في دفـــع الكفالة بعد تحديدها، وقد قدرت صنيعها، ولكنني وددت لو أنها ناقـــشت الأمـــر معي أولا. كان من الممكن لها أن تحصل على المبلغ من صندوق الودائـــع الخـــاص، ولم يكـــن ليضيرني أن انتظر ساعة أخرى، أو ساعتين. وكان المنـــزل هو المكان الوحيد الذي لم ينبغِ حفظ المال به.

كـــان احـــتفاظ فران بالمال في متناول يدها أمراً متعمداً من جانبها، بيد أنه كانت هناك بعض الأشياء التي تم غض الطرف عنها ببساطة، ومن بينها قصاصات الـــورق الخاصـــة بمصرع جوي كام، والتي أرسلتها لي بارب من فلوريدا، ومقال صـــحفي عـــن سرقة مليون دولار من آل مانديل، والذي تصدره عنوان "الجريمة الكاملة" بأحرف بارزة ضخمة، ومجموعة من القصاصات الأخرى التي على الرغم مـــن أنه ليس من غير المشروع امتلاكها، إلا أنه من البديهي أن وجودها لم يكن بالأمر الجيد.

طبقا لما أفادت به جريدة سان-سينتينيل، كان هناك دفاتر شيكات "أظهرت أن ماســـون كان يحوِّل كميات هائلة من النقود بصفة دورية من بنك إلى آخر. لم يكن ثمة دفاتر شيكات، ولكن هيهات؛ فإنك تحاول مجادلة شخص لا يقبل بتلويث اسمه، وتحاول فعل ذلك من داخل السجن.

وعلـــى الـــرغم مـــن ذلك، فقد أصابوا بشأن أمر واحد، وهو الأسوأ على الإطـــلاق: دليل الهاتف الخاص بفيلليس ديللر، الذي كانت فران تحتفظ به أسفل الفراش.

* * *

كان إذن تفتيش خاص بفترة النهار فقط، ولا أعلم لِمَ ذلك.

كنت أحادث فران هاتفيا صباح السبت، حينما وصل إلى المنـــزل عدد هائل مـــن الـــسيارات الرسمية التي تحمل عملاء مكتب التحقيقات الفدرالية، ومكتب مكافحة المخدرات، وجمارك الولايات المتحدة، ومصلحة إيرادات الدولة الخارجية، وشـــرطة شاجرين فوللز.لبثت فران تحادثني على الهاتف، وقرأت لي إذن التفتيش الذي قدموه إليها، والذي كان مفاده أنني كنت متهما باقتحام وسرقة منـــزل في شـــاجرين فوللز، على الرغم من أنني لم أسطُ قط على منـــزل آهل بالسكان في حياتي: على الأقل إن لم تضع في الحسبان تلك الثملة النائمة في بلير هاوس. وحيث إنـــني تـــوقعت التفتيش، فقد دبرت وجود محامينا في المنـــزل، والذي قام بدوره بمـــراجعة الإذن، وأخبر فران أنه كان ملائما، وأن عليها أن تسمح لرجال الشرطة بالدخـــول. اســـتغرق التفتيش اليوم بأكمله، وكنت أتصل بها بين الحين والآخر، واحتقر نفسي لدى علمي بما كانوا يعثرون عليه.

وجدوا قصاصات الصحف، ودليل الهاتف الخاص بديللر، ومائة ألف دولار نقـــدا، وصندوق ذخيرة عيار 0.38، وألبوماً حافلاً ببعض الصور الماجنة التي كان المقـــصود بهـــا أن تكون هزلية وليست داعرة. كانت هناك صورة واحدة أثارت القلـــيل من الضجة، وهي صورة لابن عمي، دان رينر، بصحبة امرأة تعرفت عليها الشرطة المحلية في الحال. كانت تلك المرأة قد اعتادت أن تصل في إحدى سيارتيها مـــن طـــراز رولـــز رويـــس، لتبدو وكأنها سيدة افترض مجتمع كليفلاند تأنقها، وحشمتها. لم تكن في الحقيقة كذلك، ولكن لم يكن لدى الشرطة أي مبرر للرغبة في الحصول على هذه الصورة، إلا لاستخدامها لممارسة المزيد من الضغط. تحدثت إلى المحامي، وأصررت على أن يطلب استعادة كافة الصور، ومن المثير للدهشة أنه نجح في مهمته في النهاية، ربما لأن قوات الشرطة كانت عاقدة العزم تماماً على عدم

تسوية القضية بارتكاب فعل لن يبدو واضحا تماماً أمام المحكمة. في ذلك الوقت، اختلقت الصحافة الأمر ليبدو وكأننا كنا نصور أفلاما داعرة.

عثروا أيضاً على المزيد من المجوهرات. وأخبرهم فران أنها كانت ملكها، وأن بإمكانها إثبات ذلك، ولكنهم أخذوها كلها على أية حال، وحاولوا إجبارها على التحدث، بإخبارها أنها لن توجه إليها أية اتهامات إذا ما أخبرتهم بكل ما تعلمه عني. ولكنها رفضت، مثل مارك وسوزي، على الرغم من أن فران كانت فزعة من فكرة توجيه أية اتهامات ضدها.

أخبرتني فران أيضاً أنهم رأوا إيصال صندوق الودائع المستأجر، وأخبرت أنا بدوري مارك أن يذهب إلى هناك، ويفرغ الصندوق، ويرسل محتوياته بالبريد إلى بارب في فلوريدا. وقد فعل، كما قام بدوره بترك رمز وجه مبتسم داخل الصندوق من أجل مفتشي مكتب التحقيقات الفدرالية. من شابه أباه فما ظلم، على الأقل ببعض الطرق. أحسبه ورث بعضا من أساليبي الملتوية، بيد أنه تحلى بالعقل بحيث لم يعمل بها.

في الوقت الذي تركت فيه السلطات المنزل في وقت متأخر بعد الظهر، كانت حارة ميل كريك مكتظة بالجيران والصحفيين. ولكن ما يثير الدهشة أن أحداً من هؤلاء الجيران لم يظهر أبدا على شاشة التلفزيون، أو استشهد بأقواله بالصحف. أحسب أن رجال الصحافة كانوا يبحثون عن التعليق المعتاد: "كنت أعلم دائما أن هناك شيء مريب بشأن هؤلاء الناس"، ولكنهم لم يظفروا بتعليق واحد من هذا القبيل.

أما ما أتذكره بشدة عن هذين اليومين فهو أبنائي. خلت أنني أعرفهم تماماً بالفعل، ولكن أسلوب تدبرهم الأمور بأنفسهم عصف بي. أدرك أنني أسوق بعض السخرية هنا - فقد كانوا على كل حال يحاولون مساعدة مجرم على تجنب الإدانة - لكن عليك أن تتذكر أنهم، على قدر علمهم، كانوا يبذلون قصارى جهدهم لمعاونة والدهم، وأي أبناء هؤلاء الذين لن يفعلوا ذلك من أجل والدهم الذي يحبونه؟

تم نداء اسم سوزي بمطار أطلنطا، حيث كانت في انتظار اصطحابي. اتصلت بمارك، ثم صارعت لتجد لنفسها مكانا على رحلة جوية. ووصلا الاثنان إلى

كلــيفلاند في ذات اليوم، دون أي تفكير أو تردد... كان والدهما يواجه مشكلة، وببــساطة أتيا، ولم أكن أعلم حتى بمجيئهما في ذلك الوقت، لأن هواتف السجن كانت تقطع في تمام الساعة الثامنة.

في باكورة الصباح التالي، أقبلا إلى سجن مقاطعة كوياهوجا، وسلكا سبيلهما بــبراعة للحــصول على زيارة في غير أوقاتها، وهو أمر بالغ الصعوبة. وعندما تم إحضاري إلى حجرة الزائرين ورأيتهما، كنت مذهولاً للغاية، ولم أدرِ إن كان عليَّ أن أضحك أم أبكي؛ لذا استغرقت دقيقة، أو دقيقتين لفعل الأمرين معاً.

نظــر مــارك حوله، وقال بهدوء: "لا أدري كم لدينا من وقت، بل ولست موقنا حتى من مبرر سماحهم لنا بالدخول في هذا الوقت المبكر".

سألتني سوزي: "ماذا تريدنا أن نفعل؟"

حملتها في ذلك الوقت على إخراج النقود من صندوق الودائع، وقلت: "لقد حــصلوا علــى الأرجح على سجلات البنوك الخاصة بنا جميعها، وسوف يعلمون بشأن الصندوق".

فعــل أبنائــي كــل ما طلبته منهم دون خطأ، أو تردد، بل ودون حتى أن يــسألوني، وكــنت أحاول التأكد من أنني لم أحملهم على فعل شيء يوقع بهم في المــشاكل - اعــتمدت على المحامي الخاص بي، وعلى امتياز استفادة الموكل من المحامي في أكثر الأمور حساسية - بيد أنني أيضاً لم أخدع نفسي بحقيقة أن رجال الــشرطة المتحفزين بما يكفي، والمدعين قد يفعلون أي شيء لمساعدتي والتحريض علــيَّ. كــان أبنائي في المنــزل مع فران وقت التفتيش، وكانوا مصدر قوة هائلة بالنسبة لها.

في الــسجن يكــون لديك متسع من الوقت للتفكير. وقد قررت أن استغل الــوقت في إرهاق نفسي في التفكير في أي نوع من الأوغاد العديمي الرحمة كنت لأضع أبنائي الأبرياء تماماً في هذا الجحيم.

* * *

قامــت الــصحف بعمل جيد في تناقل أخبار رغبة السلطات في إبراز مهمة التفتيش.

ونقـل أنـه قد تمّ العثورعلى الجواهر مخبأة في صناديق، وأكياس بلاستيكية، وعلبة زيت محركات، وأن الشرطة ظنت أن القطع تلاءمت مع مواصفات العناصر التي تم الإبلاغ عن سرقتها في المنطقة. ولكنها في الحقيقة كانت كلها تخص فران.

ربطـت الشرطة بين دليل الهاتف الخاص بديلر، وبين السرقة التي حدثت منذ عـامين، وأُعطيت تلك المعلومة للصحف، مصحوبة بالكثير من تهنئتهم لأنفسهم بفخـر حـيال براعة المباحث الفدرالية في اقتفاء أثري عقب "خمس سنوات من الـبحث الدقـيق في جميع أنحاء البلاد"، وبشأن فريق العمل الممتاز الذي جمع بين الـشرطة الفدرالـية، وقسم شرطة شاجرين فوللز لإلقاء القبض عليَّ. بيد أنهم لم يذكروا أن براعتهم شملت المعلومة التي حصل عليها العميل الخاص آرثر كرينسكي مـن رود سميث، ووجدتني مدفوعا للضحك عندما نشروا أن المبلغ النقدي الذي عثـروا عليه كان ثمانية وتسعين ألف وخمسمائة دولار، بدلاً من مائة ألف دولار. كانـت الدقة الزائفة حيلة قديمة لجعل الأرقام التقريبية المشكوك بها لا تبدو وكأنها مختلقة.

كما كانوا متساهلين بشدة أيضاً بشأن تفسير مبررات أمر التفتيش. وكانت المشكلة التي جابهوها أنني كنت مطلوبا بتهمة الهرب من العدالة فقط، وكان السبيل الوحـيد لتبرير تفتيش أي شيء بشكل قانوني هو أن يكون لديهم "مسوغ محتمل" للاعتقاد أن بإمكانهم العثور عليَّ. وبعد إلقاء القبض عليَّ، لم يعد لديهم أي مبرر للقـيام بالتفتـيش. فعلى الرغم من الاشتباه بكوني لص جواهر، لم يكن هناك أي تفتـيش، ولم يـتهمني أحد بشكل رسمي بالقيام بأية سرقة. لذا، لم يكن هناك أي مسوغ محتمل يبرر التفتيش عن مسروقات.

ومـع ذلك، فقد كان لديهم الحق في تفتيش الشخص الذي تم إلقاء القبض علـيه حديـثا. وأبلغ محققون مجهولو الأسماء صحيفة بلاين ديلر في كليفلاند أنهم قامـوا بتفتـيش أمـتعتي حينما تم إلقاء القبض عليَّ بالمطار، وعثروا على "دفاتر ملاحظات تحتوي على أوصاف تفصيلية للمنازل والممتلكات المسلوبة من الضحايا في شاكر هايتس، ولايندهورست، وشاجرين فوللز". حصلت الصحيفة بعد ذلك علـى شهادة المحكمة مرسلة من قبل رئيس شرطة شاجرين فوللز، ليستر لاجاتا،

لدعم إذن تفتيش المنـــزل، والتي يشير فيها إلى تلك الدفاتر، ويفيد بأنني كنت أحد رجلــين اقتـــرفا سلسلة من جرائم السطو. وقال إننا ظهرنا في شاحنة، وقد قيدنا وثـــاق الـــضحايا، ثم "مـــضينا قدما لسرقة المنازل، وسلب الأغراض الثمينة التي اشتملت أساسا على الجواهر، والفراء، والنقد السائل".

تعـــرف الآن أنـــني لو كنت ارتكبت أي من تلك الأمور لاعترفت بها، لذا صـــدقني حيـــنما أقـــول لك أن أساس ذلك التفتيش كان محض لغو. فلم أستعن بـــشركاء قـــط، ولم أستخدم شاحنات، ولم أقيد وثاق أحد قط طيلة حياتي، وما كنت لأعرف ما الذي سأفعله بفراء إذا ما وجد. أما بالنسبة لدفاتر الملاحظات التي يفتـــرض أنهـــم عثروا عليها في أمتعتي، فقد كان الأمر مختلقا تماماً؛ فلم أشعر أبدا بضرورة إخبار أحد بشأن عمليات السطو التي ارتكبتها، وكنت لصا بالغ الحرص بحيث لم أكن حتى اضع معطراً ما بعد الحلاقة عند قيامي بأية مهمة خشية ترك أي أثـــر يشي بي. فلِمَ بحق السماء قد يقوم شخص مثلي بتدوين عمليات السطو التي ارتكبها، ويحملها معه؟ فور نشر مقالات المجلة المصورة المتعلقة بي، بدأت مبررات طريقة إجرائي للسرقة في الظهور، وأتخيل أنه أياً كان من قام بنشر تلك المعلومات المغلـــوطة بشأن دفاتر الملاحظات، فقد شعر بأنه أحمق؛ فلم يذكر أي شيء بشأنها في الإجراءات القانونية التالية.

وجـــدنا لاحقـــا أن رجـــال مكتب التحقيقات الفدرالية قد قاموا بالاتصال بالـــرئيس لاجاتـــا، وسألوه إن كان لديه أية قضايا لم يتم حلها قد تطابق أسلوبي المعـــروف في السرقة، فتقدّم لاجاتا بحادث سرقة قام فيه رجلان بتقييد وثاق اثنين مـــن المسنين، وقتلا كلبهما من طراز دوبرمان رميا برصاص مدفعهما الرشاش، ثم لاذا بالفـــرار بمجوهرات تقدر قيمتها بمائتي ألف دولار، وبعض العملات النقدية. ورغم أن الضحايا الكبار السن قررا يقيناً أن المعتدين كليهما كانا أسودي اللون، وأن رجـــال التحقيقات الفدرالية يعلمون أنني لم استخدم سلاحاً قط - أو أستعن بـــشريك - إلا أنهم أعلنوا أنني متهما على أية حال، وكانت تلك هي الكيفية التي حصلوا بمقتضاها على مسوغهم للتفتيش.

* * *

كان القاضي بمحكمة الدعاوي العامة بمقاطعة كوياهوجا قد قرر التزاماً بدفع مبلغ مائتي ألف دولار نقداً، والذي بدا مرضياً للجميع. ولكن حينما اكتشف ممثل الادعـــاء في المقاطعة في اليوم التالي أنني أملك المال، وعلى استعداد لإيداعه، هرع مـــن فـــوره إلى المحكمـــة وطالب بزيادة الكفالة إلى مليون دولار. وبعد تفتيش المنـــزل، رغب في مضاعفة المبلغ إلى مليونين. سأله القاضي إن كان يمزح، وانبرى ممثل الادعاء في خطبة عن كيف أثبت أنني بالفعل خطر هارب. وأنهى حديثه قائلاً: "في الحقيقة، فإن التهمة الأولى التي نعرضها في هذه القضية هي الهرب غير القانوني من المثول أمام القضاء". لم يسأل القاضي من أين تم الهرب - كان ذلك من فورت لوديرديل، حيث كان الأمر خارج نطاق سلطته. ولكن محامينا، جاك ليفين، لبث ســـاكنا لـــسبب وجيه: كان ممثلو التحقيقات الفدرالية بالقاعة، وكان أي جدل بسيط من جانبي في إجراءات الدعوى كفيلاً بحثهم على إدانتي بتهمة فدرالية، وهو مـــا كـــنا نحاول تجنبه. قبل القاضي طلب الكفالة الذي قدمه ممثل الادعاء، وهرع المـــتحدث باسم المحكمة إلى الدرجات الأمامية ليعلن ذلك للصحافة، وليتأكد من علمهم بأن الكفالة سجلت رقما قياسيا بالسجلات كأعلى كفالة سبق تحديدها في تاريخ المقاطعة. تبعه ليفين ليدلي بجملته هو الآخر قائلاً في غضب: "إن مبلغ المليوني دولار هو مبلغ مجاوز للحد. إنهم يعاقبونه قبل أن تثبت إدانته بأي شيء".

بينما كان هذا يحدث، حملت الشرطة الفدرالية محامي الولايات المتحدة على تقـــديم تهـــم فدرالية بأي سبيل، بما فيها تزوير هويتي في جواز السفر الذي كان بحوزتي في المطار؛ حيث كان اسمي المدون به هو جون ويللينج.

ذاعـــت القصة سريعاً في فلوريدا، ونقلت صحف فورت لوديرديل أن العديد من الوكالات الفدرالية الأخرى كانت تحقق معي في جرائم محتملة وقعت فيما بين الـــولايات، وأفادت أيضاً أن رجال تسعة من أقسام شرطة أوهايو كانوا يتحرون ســـجل الجرائم التي لم تحل لمعرفة إن كانت لها صلات بي. توقعت ذلك؛ فالبوليس يكره أن تكون لديه قضايا مفتوحة بالملفات، وها قد واتتهم فرصة لإزاحة العبء الثقيل برمته عن السجلات بإلقاء اللوم عليَّ في كل تلك الجرائم. كان أفضل جزء بالنسبة لهم هو أنهم لم يتعين عليهم حتى ان يثبتوا وجود صلة لي بها، فقد تصوروا

أنـــني قد تمت إداني تماماً في دوائر قضائية أخرى، وسوف أنال ما كنت أستحقه هناك، فلماذا يضيعون الوقت والمال في مضاعفة تلك الجهود؟

اســـتمر الـــصحفيون في تناقل تلك المقولة من شرطة فورت لوديرديل، وهم يقارونني بمورف ذا سيرف، واكتشفوا أيضاً أن رجال الشرطة أشاروا إليّ على أنني "لص الشاطئ". (لم ينجح أحد هؤلاء المحققين البارعين في اكتشاف أنني الشخص الـــذي أخبر الشرطة بأن كل تلك المهمات تمت على يد الشخص نفسه، وبعدها فقط جاؤوا بلقب "لص الشاطئ"). وكلما مضت شرطة فلوريدا في وصف مدى بـــشاعتي كلـــص، كلما تيسر لكل تلك الدوائر القضائية أن تلقي عليَّ اللوم فيما يتعلق بكل جريمة عجزوا عن حلها.

تمـــتع الفدراليون بامتيازات كثيرة داخل السجن، وقد جعلوا الأمور أسوأ وأسوأ بالنسبة لي، ربما لأنهم كانوا على اتصال بشرطة فورت لوديرديل التي لم تـــزل تكـــره جسارتي. وعلى الرغم من أن الأجناس كان يتم فصلها، كما هو الحـــال في جميع السجون (السجن هو المكان الوحيد الذي تسود فيه الأحكام الواقعية، لا السياسات الرومانسية)، تم وضعي في زنـــزانة واحدة مع ثلاثين من الـــسود، علـــى الرغم من أن زنـــزانة البيض كانت عبر الردهة مباشرة. ربما افترض السجانون أنني سأتعرض لضرب يفضي إلى الموت، أو ما شابه، ولكنهم لم يأخذوا في الحسبان حقيقة أن القليل من رفاق السجن السود هؤلاء كانوا قد قـــرأوا عني. من خلال تجاربهم العديدة، والمتنوعة في النظام، علموا أن السجناء الكوبـــيين في فلوريدا يشيرون إليَّ بلقب "القط"، وظنوا أنني لص هادئ بطريقة مـــا، فأمطروني بوابل من الأسئلة تفوق تلك التي ألقتها عليَّ الشرطة الفدرالية. كـــنت أعلم باحتمال بوجود واشٍ واحد على الأقل دسه الفدراليون بينهم؛ لذا فقد كنت حريصا على الالتزام بقول ما تعرفه الشرطة عني بالفعل. إن قلت أنني كنت أحظى بمعاملة محترمة من قبل هؤلاء الرجال، فهو أقلّ ما يُمكن أن يُقال في الأمـــر. كنت في تلك الزنـــزانة عندما تم اعتقل فران، وكانوا رائعين فيما يـــتعلق بالابتعاد عن الهاتف بحيث يمكنني الاتصال بالمنـــزل مراراً وتكراراً حتى أجابتني في النهاية، وأخبرتني أنه قد تم اطلاق سراحها.

كـــان الملف الخاص بي يحمل أحرف حمراء كبيرة على مقدمته تقول: "جريمة مـــنظمة"، و"خطـــر الهروب". قد لا يبدو هذا سيئاً جداً، ولكنه كان في الحقيقة كـــذلك. إن القـــائمين علـــى الـــسجن هم موظفون مدنيون يتبعون القوانين، والتـــشريعات، ويخـــشون ارتكاب أي خطأ. وليس شغلهم الشاغل هو مصلحة المـــساجين الـــذين يقومون على رعايتهم، وإنما الحفاظ على وظائفهم ورواتبهم. وعـــندما يوصـــم سجين زنـــزانة بـــ "خطورة الهروب"، فإن كل ما يعنيه ذلك لحـــراس السجن هو العواقب الأكثر من وخيمة بالنسبة لهم إذا ما هرب، أو أخذ رهيـــنة، أو أمـــن لنفسه امتيازات خاصة، أو قُبض عليه وهو يتاجر في المخدرات داخل السجن. عندما يكون لديك تلك الأحرف الحمراء الكبرى على ملفك، فإن حراس السجن يأخذون على عواتقهم بشكل خاص التيقن من عدم قيامك بأي من هـــذه الأشياء، ولا يبالون البتة بمدى تسبب ذلك في إشقاء حياتك، كما يعلمون تماماً أن مراقبيهم لن يبالوا أيضاً.

علـــي أن أقر بأنني لم أكن أساعد كثيراً، فكما قلت من قبل، لم أكن متعاوناً للغايـــة حينما تم إلقاء القبض عليَّ، والتعاون لا يكون بالتحلي بالصمت فحسب. اقتادوني إلى الطابق السفلي لأخذ بصماتي، وهو أمر طبيعي، بيد أنهم أخبروني أنهم سوف يستعينون بإجراء خاص يشمل جوانب، وأنامل أصابعي، وراحتي يدي من مختلف الزوايا...

قلت: "انسَ ذلك".

سألني أحدهم: "ماذا تقصد بنسيان ذلك؟ يجب أن يتم رفع بصماتك!"

"إذن ارفعوا بصماتي، ولكن انسوا أمر تلطيخ يدي كلها بالحبر".

"اسمع...".

رفعت يدي من على المنضدة قائلاً:"احصلوا على أمر من المحكمة".

لم أكن أبالِ كثيراً بالفعل بكيفية رفع بصماتي، لكني كنت حانقا و لم أرغب في أن أكون منساقاً لشيء ما لم أسمع به قط لمجرد أنهم قالوا ذلك.

غلطـــة حمقاء. ألقوا بي في زنـــزانة، وأبقوني هناك ريثما وصل أمر المحكمة. وبعد ذلك كان من اليسير جداً التعامل معي، ولكن بعد انقضاء يومين وضعوني في

سـجن انفرادي - بلا زوار، ولا مكالمات هاتفية، حبس لمدة أربع وعشرين ساعة - واسـتمروا في ذلك لمدة أربعة أيام. لم يقدموا لي مبرراً أبداً، ولم يبلغوني قط إلى متى سيستمر هذا. ودمرني ذلك، وكانوا يعلمون أنه سيدمرني، لأنه لم يكن أمامي سـبيل لمعرفة إذا ما كان من بالخارج على علم بما يحدث لي (لم يعلموا)، ولم يكن بإمكـاني أعـرف ما يحدث بالخارج. استحضرت في ذهني كل أنواع الخيالات المجـنونة لمنـزلي وقـد تمـت مـصادرته، وأصدقائي، وأسرتي وقد تم أخذهم للاستجواب، وعقد مساومات دون علمي، بل والإبلاغ عن هروبي، واعتباري في عداد الموتى بحيث يمكن لإدارة السجن فعل ما يحلو لها بي.

بالطـبع كـان هـذا جنوناً، ولكن عندما يكون كل ما لديك هو خيالك وقلقك، يمكنهما أن يتعاونا ليصبحا أسوأ عدو لك على الإطلاق.

* * *

في الـوقت نفـسه عكـف الفدرالـيون على فران. بداية، أقبل الرئيس الميداني لشرطة كليفلاند الفدرالية إلى المنـزل في موريلاند هيللز ليعرض عليها اتفاق.

تحدث إليها قائلاً: "إن صديقك لن يخرج من السجن ابدا، وقد يمكنك إنقاذ نفسك أيضاً، بإخبارنا بما نود معرفته".

اندفعت فران قائلة: "طالما أنه لن يخرج قط... فما حاجتك إلي؟"

وكان ذلك ختام تلك المحادثة.

لذا ذهبوا للقاء والديها وأبلغاهما بمدى حمقي. حتى إنهم قالوا أنني كنت متهما بارتكاب أربع جرائم قتل، والتي دعموها بإظهار نسخ من قصاصات الصحف التي عثـروا عليها في المنـزل، تلك التي كانت بارب ترسلها إليَّ في كل مرة يتم فيها توجـيه ضربة إلى أحد أفراد عصابة أطلنطا القديمة. حاولوا حمل والد فران بوجه خـاص علـى الـتأثير عليها للوشاية بي، في مقابل كسب حريتها، وأوضحوا أن منـزل موريلاند هيللز الذي اكتُشفت فيه أدلة الإدانة كان مسجلاً باسم فران وليس اسمي. إن كان هدفهم هو بث الخوف في نفس أبويها، فقد نجحوا، بيد أنهم لم يتمكنوا من زعزعة موقف فران.

بعـــد انقضاء عشرة أيام، وفي عشية يوم الغفران، وهو أكثر الأعياد قدسية في الديانـــة الـــيهودية، كانـــت فران بمفردها في منـــزل ميل كريك برفقة الكلب. وتصادف إجرائي محادثة هاتفية معها من السجن، حينما شهقت فجأة، وأبلغتني أن طاقم من سيارات الشرطة كان يقف قبالة المنـــزل.

قلت لها: "سيلقون القبض عليك".

قالت بصوت هامس:"ماذا أفعل؟"

قلت لها: "لا تسببـــي لهم متاعب على الإطلاق، ولا تنبسي ببنت شفة".

"إنهم يحاصرون المنـــزل!"

مـــاذا ظـــنوها فاعلة...هل ستتبادل اطلاق النار معهم؟ أغلقت الهاتف، ثم اتصلت بجاك ليفين لأبلغه بما كان يحدث، وطلبت حضوره إلى قاعة المحكمة لملاقاة فران.

استغرق المحامي في التفكير بصوت مرتفع قائلاً: "ليلة الجمعة. لقد تصوروا أن بإمكانهم احتجازها بالسجن طيلة عطلة الأسبوع وقتلها رعبا".

"أيا كان حجم المشكلة، أود إخراجها بكفالة".

كـــان ليفين في قاعة المحكمة حينما وصلت الشرطة بفران. احتجزوها هناك بـــتهم إيواء هارب، وتسلم ممتلكات مسروقة، وحيازة دفتر وصفات طبية علاجية خاوٍ، وحيازة مخدرات. كانت هناك تهمة غريبة على وجه الخصوص أوضحت إلى أي مـــدى هـــم مستعدون للتمادي في تضييق الخناق عليها: سرقة أسرار تجارية. كانت تلك "الأسرار التجارية" هي محتويات دليل هاتف فيلليس ديللر، وهو أيضاً الممتلكات المسروقة التي يفترض أنها تلقتها. سألت ليفين كيف يمكن اتهامها بتسلم شيء، وقيامها بسرقته بنفسها.

فسر قائلاً: "لا مدعاة لأن يقلقوا حيال ذلك الآن. فيما بعد سيكتشفون أي القضايا أسهل لتناولها، ثم يسقطون الأخرى".

نشرت الصحف كل هذا في اليوم التالي، بيد أنها أغفلت بضعة أمور. أولها أن تهمة حيازة المخدرات كانت مستندة إلى ثلاثة في المائة من جرام كوكايين منثورة داخـــل قـــارورة زجاجية متناهية في الصغر عثر عليها أثناء تفتيش منـــزل فران،

وكانـــت الأخـــرى هي دفتر الوصفات العلاجية الخاص بالطبيب دانييل رينر، ابن عمـــي، والذي كان اسمه مطبوعاً بوضوح على كل صفحة. كان دان في منـــزلنا طيلة الوقت ولا بد من أن هذا الدفتر وقع منه، ولم أعلم أنا أو فران بوجوده حتى في المنـــزل.

أبلـــغ لـــيفين قاضي الدعاوى العامة أن فران لديها سجلاً ناصعاً تماماً، وأنها كانـــت ذات نـــشاط ملحوظ في المجتمع اليهودي في كليفلاند، وأنها كانت تدير مركـــز رعايـــة صحية نهاري، وترعى المعارض الفنية، وعدداً كبيراً من الأحداث الخيرية. أي قاضٍ آخر بالبلدة كان ليعرف أن إلقاء القبض عليها كان تخطيطاً من الـــشرطة لممارســـة الضغط عليها، وأنها لم تكن فارة من العدالة، ولأطلق سراحها بكفالـــة تُقـــدَّم عند إعطاء تعهُّد رسمي. ومع ذلك، فإن هذا القاضي لم يحدد فقط كفالـــة لإخراجها بمبلغ خمسة عشر ألف دولار، بل وفرض عليها ألا يكون لها أي اتصال بي على الإطلاق، وقد وافقت بناء على نصيحة ليفين، وأطلقوا سراحها في نفـــس اللـــيلة. إن لم أكـــن معها على الهاتف حينما تم إلقاء القبض عليها، فلربما أمـــضت الليلة بالسجن، وقد كان ما حدث من أمر احتجازها لبضع ساعات أمراً عسيراً على النفس بما يكفي بالنسبة لأميرة يهودية.

حينما تم اطلاق سراح فران، تحدثت إلى الصحفيين المجتمعين أمام دار المحكمة قائلـــة: "كـــل قطعة من الجواهر تم أخذها من ذلك المنـــزل كانت ملكاً لي من زواجـــي الأول الذي دام لمدة واحد وعشرين عاما"، ومضت قدما لتفسر لهم أن العديد من القطع كانت ميراثاً عائلياً. "في الحقيقة، فإن الساعة الماسية التي أخذوها تحمل على مؤخرتها الأحرف الأولى من اسم جدتي". وأخبرتهم كيف أنها حاولت أن تعطـــي الـــشرطة نسخة من قائمة بكل مجوهراتها، والتي حررتها لشركة التأمين الخاصـــة بها منذ سنوات، وأن تلك القائمة كانت ستقطع شوطا طويلا في إثبات ملكيتها للجواهر جميعها، ولكنهم لم يقبلوا بها".

أصرت أيضاً على عدم معرفتها بارتكابي لأية جرائم، وأكدت لهم قائلة: "كنا نـــصنع أكاليل من أوراق العنب، ونـــزرع الطماطم، وكنا نمكث بالبيت كثيراً". كمـــا قالـــت أيضاً أننا كنا نهوى الذهاب إلى الريف لمشاهدة الطيور. "أعرف أن

ذلـــك يبدو ساذجا، ولكنها الحقيقة". كان حديثها مقنعا، بيد أن شخصاً ما داوم على تسريب أخبار للصحف، مثل محتويات الرسائل من فران إليّ، والتي تشير فيها إلى أنني "شريرها"، كما لو كان هذا دليل إدانة. إنني مندهش من عدم نشرهم أن اسم كلب ابنتها الذي هيم به هو "القاتل".

زادت الأمـــور سوءاً. فقد كانت جلسة سماع اقوالي أمام القاضي نفسه، في محاولة للتقليل من مبلغ المليوني دولار السخيف وكان قد نقص بالفعل إلى الصفر؛ فقـــد ألغـــاه تماماً، وطلب حبسي دون كفالة، وبالطبع في أعقاب ذلك، نشر أنه "يعـــتقد أنني كنت مسؤولاً عن اقتحام منـــزل سي. إس. هاريس، جنوب شارع فـــرانكلين، حيث قمت بتقييد وثاق القاطنين، وكممت أفواههما، وأرديت كلب العائلـــة قتيلاً. الآن، لا بد من أن أعترف أن استخدام تلك الواقعة للحصول على إذن تفتيش لمنـــزلنا كان في منتهى المهارة. فعلى الرغم من أنه كان بالغ السخافة، وغـــير دستوري، ولا يختلف كثيراً عن أنماط الأفعال الخبيثة الذي تقذف بالمجرمين داخل السجن، فعليك أن تقر أنه كان في منتهى الإبداع.

لكـــن فيم إمداد الصحف بلغو كهذا؟ كان ذلك مجرد حقد، ومحاولة لحشد الـــرأي العـــام ضدي. لقد كان رجال الشرطة والفدراليون على الأرجح حانقين بـــشأن تلقيبـــي بـــ "اللص المهذب"، وأرادوا وضع حد لهذا. عادوا للعمل على فـــران ثانـــية، والتي كانت لا تزال غير مسموحٍ لها برؤيتي، وحملوها على القبول باللقـــاء بهـــا. اصطحبت معها والديها، ومحاميها، وجلست على مائدة قبالة بعض العمـــلاء، وممثلـــي الادعاء الفدراليين، الذين عرضوا عليها حصانة كاملة في حالة الإخبار بكل أنشطتي الإجرامية في أثناء الجلوس على جهاز كشف الكذب. ولكي يحفزوها، سردوا عليها كل شيء يعرفونه، أو يشكون فيه، أو يمكنهم اختلاقه بشأن الماضي الإجرامي. أيقن والدها أنها تفهم النتائج، لكنهم توقفوا عن محاولة الضغط عليها بالأسلوب الذي رغبه الفدراليون. ولكن فران أخبرتهم أن يتوقفوا عن ذلك، بطريقة تتلاءم والسلالة التي تنحدر منها.

بعد ذلك وجهت جاك ليفين لمحاولة فعل شيء ما حيال أمر المحكمة بمنعها من ملاقاتي. فحرر ليفين التماساً رومانسياً عن "العاشقيْن السيئ الطالع"، والذي كان

معسولاً للغاية عندما تطالعه، ولكنه نجح. ذهبت فران إلى صالون التجميل، وأرتدت أبهى حلل أيام السبت، ثم وقفت في صف بالسجن لمدة ساعتين تلقت فيهما النظرات المرتابة، والهمسات من نواب السجن، والزائرات الأكثر تصلبا بينما كانت تنتظر رؤيتي. وعلى الرغم مما كانت تسببه زيارتها لي من إحساس مريع، إلا أنها داومت عليها أسبوعاً تلو الآخر دون تذمر.

لم تخف وطأة الضغط الممارس على أصدقائي، وعائلتي قط. ذات ليلة حينما أقبل بيل ويللينج وسوزي لزيارتي، أوقفهما بعض رجال الشرطة بينما كانا مغادرين وشرعوا في طرح الأسئلة على سوزي، وأمروا ويللينج بالانصراف، مهددين إياه ببعض التهديدات الجادة، بما فيها إلقاء القبض عليه، ولكنه ما كان ليترك سوزي وحدها، وما كانت هي لتنبس بكلمة، لذا تركوهما يمضيان. وكما تبين بعد ذلك، فقد كانت الشرطة تحاول كسب الوقت: إذ اقتحموا سيارة سوزي وفتشوها بينما كانا يتحرشان بها وبويللينج.

شيء واحد فقط أثار دهشتي بطريقة إيجابية، فقد قام جيمس نيف، الصحفي بجريدة بلاين ديلر في كليفلاند، بإجراء لقاء صحفي مع عدوي اللدود، نائب الرئيس جو جيرونيز بقسم شرطة فورت لوديرديل. أقنع جيرونيز نيف بقصص عن كيفية دأبي على ارتكاب جرائم سطو داخل نطاق سلطته. استشهد نيف بقوله: "كان يتجول حول المباني العالية المشيدة من طابقين، والتي كانت تحوي حراساً، وأنظمة أمنية فائقة الجودة"، بينما لم أوقف قط أيًّا منها. ذكر نيف أن جيرونيز ضحك على أمر واحد قائلاً: "الشيء الطريف، أن الجيران اعتادوا رؤيته يتسلق، وينزل على حبل مربوط بشجرة، وقد وضع يده فوق الأخرى تماماً كما يفعل أثناء سطوه، وظنوا هم أنها الطريقة التي يمارس بها رياضته البدنية". وصف أيضاً كيف تعاونت مع الشرطة، وأمطت اللثام عن حوالى "أربعين عملية سطو"، بيد أنه، وهو أمر مفهوم، لم يذكر أبدا كيف خدعتهم، وأفلت بتلك الجرائم.

في الفقرة الأخيرة من الحديث الصحفي، استشهد نيف بأقوال جيرونيز ثانية: "شخص لطيف، طلق اللسان، حسن المظهر، شديد الجاذبية للحديث معه. كان من الممتع أن أعمل بقضية معه". ولساورك الظن من الطريقة التي تحدث بها عني أننا

كـــنا أصدقاء قدامى، أو ما شابه، لا مجرد شرطي ومجرم يمسك أحدنا بخناق الآخر لمدة عامين.

بعـــد أقل من شهرين لاحقين، كان جيرونيز يزمع المجيء من فلوريدا ليخبر هيـــئة المحلفين في دعوى جوزيف مانديل أنه كان في إمكاني سطو منـــزلهم بغض النظر عن مدى كفاءة جهاز الأمن. كان من المفترض أن تدعم زعم إدارة المبنى أن أفضل نظام أمني في العالم لا يتوقع أن يتمكن من إبعاد لص محترف. حينما أوضح محامـــي مانـــديل عدم وجود دليل على معرفتي بفران في ذلك الوقت، تم استدعاء لاجاتـــا، رئيس شرطة شاجرين فوللز ليدلي بشهادته، وقام بتقديم صورٍ عشر عليها البولـــيس أثناء تفتيش منـــزل موريلاند هيللز تظهر أنني وفران قد عرفَ كل منا الآخـــر بالفعل في الوقت الذي ارتكب فيه السطو. عارض محامي مانديل بقوله أنه لـــيس في إمكان أحد حتى أن يثبت أنني كنت بكليفلاند في ذلك الوقت، والذي أجابت إدارة الشركة عليه بانهم لم يهدفوا إلى إظهار أنني من قام بارتكابها فعليا - هـــم لم يعرفوا بالفعل - بل أنه كان في مقدوري، وبالتالي، فالنظام الأمني لم يكن بالضرورة قاصرا.

مع وجود معجبين كهذا...

* * *

اندلعت ما عرفت بـــ "فضحية لافمان" في أعقاب تفتيش المنـــزل، ثم بلغت ذروتهـــا بعـــد إلقاء القبض على فران. لقد كانت زاوية "الفتاة الجيدة التي صارت سيئة" مثيرة جداً لتستغلها وسائل الإعلام على أتم وجه، وقد هزت مجتمع كليفلاند الراقي المعتاد على الاستقرار.

كانت تتصدر غلاف جريدة ستار كل يوم لمدة أسبوع، وفي كل مرة كانت تـــذهب فيها إلى متجر البقالة كان عليها أن تتواكب مع العملاء الفدراليين الذين يقـــتفون أثرها (كان من اليسير بشدة ملاحظة الرجال الذين يرتدون زي العمل، وقـــد مكثوا يقرأون ما هو مكتوب على علب حبوب الإفطار لمدة نصف ساعة)، وكـــذلك العناوين الرئيسية الصارخة للصحف المصطفة على الرفوف بالقرب من طاولات الحساب على البضائع. أحد العناوين صرح قائلاً: "وريثة من أصل شريف

ولــص مجوهــرات دولي" مع صورة لفران تكاد تملأ الصفحة. كانت قد عملت لبعض الوقت كفتاة غلاف، و لم تواجه الصحف مشكلة في وضع يدها على العديد مــن اللقطات المصورة بطريقة محترفة. الدقة لم تكن واحدة من أولوياتها القصوى. داومــت على نعتي بصفة "الدولي"، بالرغم من أنني لم ارتكب عملية سطو خارج الــبلاد. عندما أفكر في الأمر، أجد أن الدول الأخرى التي قمت بزيارتها حتى هذه اللحظة هي كندا، والمكسيك وكان ذلك باسم "جون ويللينج".

ممــا جعل الأمور تزداد سوءاً بالنسبة لفران أن الجميع في متجر البقالة كانوا يعــرفونها، ولكنها قلما تمكنت من التسوق في مكان آخر، لأن والدها كان يمتلك المكان.

أولى جــيمس نــيف، محرر بلاين ديلر، اهتماماً خاصا بقضية فران، وكتب سلــسلة مــن المقالات بعناوين مبهرة مثل "الجوهرة الملطخة؟" كان بالفعل يدلل ضــمنيا على أمور بوضع أسئلة مثيرة مثل "كيف تسنى لفرانسين التي كانت تحظى في وقــت من الأوقات بمركز مرموق في دائرة مدينتنا الاجتماعية أن ترتبط بلص مجوهرات دولي مطارد؟" و"ماذا كانت فرانسين لافمان تعلم عن أنشطة حبيبها؟" بــيد أنه على الأقل كان يمكنه الكتابة، و لم يكن أحمق، وأقر بأن تلك الأسئلة التي ســألها لم تكــن عابثة. فقد كان نيف هو الصحفي الذي فجر قصة أن سرقة آل ماندل قد تمت بينما كانا يتناولان العشاء بصحبة والدي فرانسين.

أما الصحفيون الآخرون، فلم يكونوا مراعين لشعور الغير، أو منصفين. أحد تلك العناوين الرئيسية التي لا تنسى من صحيفة ستار كان "لص المجوهرات الساحر سلب ثروة - وخلب لب الوريثة التي ضحت بكل شيء من أجل حبه". جعل مني ذلــك الصحفي، الذي لم يذكر اسمه، كازانوفا الذي لا يقهر، وصور فران كفتاة رزينة، مستكينة، في ريعان الشباب، وقعت في حبائل فتنتي، لا امرأة مستقلة، واثقة اتخذت قراراً جريئاً، محفوفاً بالمخاطر بترك حياتها المريحة. ومن ضمن كافة الأشياء التي أنجزتها فران في حياتها، كان لقب الوريثة هو الذي اختاره الصحفيون لينعتوها بــه. في الــشهر نفسه كان عنوان غلاف مجلة كليفلاند "لم أحبت السيدة الراقية الخــارج عن القانون: قصة مطلقة شاكر هايتس، وعلاقتها العاطفية الخطرة بلص

بجوهرات أميركي بارع". بذلك الأسلوب ذي الاختلافات البسيطة الذي تتمتع به المجلات كانت القصة تقدم على أنها لشخصية اجتماعية بارزة تأوي مجرماً كان محط الأنظار كمطارد لخمس سنوات في جميع أنحاء البلاد. قالوا أنها كانت مهووسة بي، وذكروا ضمنياً أنها قد جنت. لقد بدا أي شيء مقبولاً ما عدا فكرة تحلي فران بالعقل والإرادة المستقلة.

وكنت موضوع "المطارد في جميع أنحاء البلاد"، ولكن على الأقل ليس بالمعنى التقليدي، وكانت تلك هي نفس الجملة التي تستخدمها الشرطة الفدرالية عندما تحاول الضغط على فران للتخلي عني. قطعاً كانوا يبحثون عني، وكانوا على استعداد لأن يستعينوا بأية معلومات جديرة بالثقة، ولكن ذلك لم يكن وكأن لديهم ألف رجل موزعين في كافة أنحاء البلاد، وقد عقدوا العزم باستماتة على الامساك بي. لسبب واحد، لم أكن عنيفاً، مما أسهم تلقائياً في تقليل أولويتي. كان أسلوبي في السرقة معلوماً لدى قوات الشرطة على مختلف المستويات، وكانوا يزمعون فيما بعد إخبار الصحفيين أن العمل على قضيتي كان مهمة مرغوب فيها، ولم لا؟ فبدلاً من التواري في أماكن عفنة، أو تحديد منازل متصدعة قذرة، كان الرجال الذين يتعقبونني يذهبون إلى حفلات راقية، ويتجولون في القوارب لأيام كل مرة، ويقفون جنبا إلى جنب مع رئيس الولايات المتحدة، ولم يعتريهم القلق أبدا حيال إصابتهم بالرصاص، على الأقل ليس على يدي.

كان لكل تلك التغطية الصحفية المنحرفة أثر مدمر على نفس فران، بيد أنها كانت ترفع رأسها، ولم تكن لتسمح بظهور ذلك الأثر عليها أبدا. ومما أثار دهشتي، أن أصدقاءها القدامى من ذوي المال والنفوذ التفوا حولها، وفي استثناء نادر الحدوث، وارتبطوا بها بشجاعة، كما ساندها والداها أيضاً، على الرغم من ألمهم الشديد في البداية من التلميحات بأن فران قد عاونت في تدبير السطو على أسرة مانديل. كانت الدعوى القضائية المرفوعة من قبل جوزيف مانديل ضد إدارة المبنى تتخذ مسارها في الوقت الذي كانت فيه قضية فران تتخذ إجراءاتها في المحاكم. وكان نائب الرئيس جيرونيز من فلوريدا بالمدينة ليدلي بشهادته لصالح الشركة التي تدير العقار، وكانت الصحف تغطي المحاكمة كما لو كانت قضية

الجاســوس الذري روزنبرج. وعلى الرغم من أنني لم أدن بالسلب، أو حتى أتهم به من قبل الشرطة، فإن الصحافة لم تملك أن تفوت زعم الدفاع بأنني يمكن أن أكون قد ارتكبت السطو. لم أكن ألوم المحامين، فقد كان ذلك هو الدفاع الوحيد لديهم؛ لــذا فقد مضوا قدما به و لم تكن غلطتهم أن الصحف كانت مصرة على مواصلة الاحتمال المثير بأني قد قمت بالفعل بالسطو.

لكــن سرعان ما تغلب والدا فران على ألمهما المبدئي، وصدقوها حين قالت إنهـا لم تكن تعلم شيئاً إطلاقاً عن ذلك السطو. وكانت إلى جانبها حقيقة أنه لم يكن هناك دليل واحد يصلني بالجريمة، وأنني لم أدان أبدا بها. كان هناك الكثير من الــتخمين، ووجــدت قصاصة من صحيفة تتعلق بالسرقة في أثناء تفتيش منــزل موريلاند هيللز. والأكثر من ذلك أن فران لم تكن تعلم بالفعل أي شيء عن ذلك، ولا بد من أن إخلاصها قد انتقل إلى أهلها.

حظت فران ذلك الربيع بصفقة هائلة مذهلة، بيد أنها جاءتها بأسلوب غريب.

* * *

لم تكــن بدايــة واعــدة؛ فقد كانت قضيتها مطروحة أمام القاضي تيرينس أودونيل، الذي كان معروفا بإصدار الأحكام الصارمة. وبدلاً من اعترافها بالذنب لعــرقلة العدالة، واستلام ممتلكات مسروقة، أسقط ممثلو الادعاء كل التهم، بما في ذلــك مــساعدتي وحمايتي. وانطوت الصفقة أيضاً على حكم مخفف، على أن يتم تحديده بعد أن يتسلم القاضي أودونيل تقرير ما قبل النطق بالحكم من إدارة مراقبة الــسلوك. كجــزء من إعادة النظر في قضيتها، قرر مشاهدة شريط فيديو قامت الــشرطة بتسجيله عن تفتيشهم لمنــزل موريلاند هيللز. لم يكن التصوير أمراً غير مألوف؛ فعادة ما يقوم رجال الشرطة بتصوير أنفسهم أثناء عمليات التفتيش، ليس فقــط لإظهــار الأماكن التي عثر فيها على الدليل، بل ولإثبات أنهم قاموا بعملهم على أكمل وجه أيضاً.

بينما كان أودونيل يشاهد الشريط، ظن أنه تعرف على شيء ينتمي لشخص يعــرفه تم إخراجه من صندوق ما. فاتصل هاتفيا بالشرطة، وأخبرهم بالأمر، مبلغا إياهم عن احتمال وجود سرقة، ومصرا على التحقيق. تشبث محامي فران في الحال

بهـــذا الأمـــر كطـــريقة للتخلص من أودونيل، واستبداله، كما يأمل، بقاضٍ أكثر سماحـــة، واستخدما تقرير أودونيل للشرطة كدليل مادي على أنه يعرف الشخص الـــذي يمكـــن أن يكون من ضحاياي، مما سيجعله متحاملا على فران بشكل غير منـــصف. قـــال أودونيل أن هذا الكلام لا طائل من ورائه، بيد أن حقيقة إبلاغه للشرطة باحتمال وجود سرقة كان كفيلا بوضعه في مأزق لا يستطيع الخروج منه. وقـــوله بـــأن زوجته كانت قد شاهدت الشريط معه لا يدعم دفاعه عن نـــزاهته القضائية.

كانـــت تلك محاولة طويلة المدى، لكن سرعان ما أعلن أودونيل أنه سوف ينـــسحب، بالـــرغم حتى من أنه أصر على عدم معرفته شخصيا بمن ظنهم الملاك الحقيقـــيين للمـــسروقات. وقـــال: "لتجنب ظهور عدم اللياقة، ولتعزيز نـــزاهة القـــضاء"، سيـــسمح لفـــران بإبطال الإقرار بالذنب الذي تقدمت به كجزء من الاتفاق. وقد رفض بصورة قاطعة مناقشة ذلك القرار مع أي شخص، بيد أنه بات رهانـــاً مـــؤكداً من هيئة المحكمة أنه كان ينوي إرسال فران إلى السجن، رغم أن تقرير ما قبل إصدار الحكم أوصى بفترة مراقبة.

كان القاضي الجديد هو فرانسيس سويني الذي لم يأخذ قط بتوصيات إدارة مراقبة السلوك، وفي ذلك الوقت اتخذت فران محامياً جديداً، هو جوردون فريدمان، الذي دون سيرة ذاتية مصغرة لها جعلها تبدو أشبه بالترشيح لأن تكون قديسة، لا للحـــصول علـــى حكـــم مخفف. فقد أوضح أنها كانت رئيس مجلس إدارة حملة صندوق السرطان، وقامت بالكثير من العمل التطوعي في مستشفى ماونت سيناي، كمـــا قامت برعاية باليه كليفلاند، وعملت مع الأطفال المعوقين. واختزن الأفضل للـــنهاية، ألا وهو: أن فران قد نظمت جماعة للنساء اليهوديات في جامعة برانديز بصحبة زوجة هوارد ميتزينبوم، عضو مجلس الشيوخ عن ولاية أوهايو.

لم يعلم أحد ما الذي أثر في القاضي سويني على وجه الخصوص، ولكنه تأثر فعـــلاً. فقـــد حكـــم عليها بفترة مراقبة لمدة عامين، وقضاء مائتي ساعة في خدمة المجـــتمع. وعلـــى الرغم من رفض فران للتعاون مع السلطات، لم تكن هناك فترة تُقـــضى بالسجن، ولا غرامة. ولكن رجال الشرطة المشتركين في الأمر استشاطوا

غـــضباً، وبينما لم يصروا على أن تقضي فترة طويلة بالسجن، فقد عادوا للإصرار ثانية على أن تقضي على الأقل بضعة شهور حينما كانت القضية تنظر أمام القاضي أودونـــيل. وأبلغـــته الشرطة أهم ارتابوا في ارتكابي لعدد ضخم من جرائم سرقة المجوهـــرات من منازل، وعقارات خاصة بالمشاهير، وأن العديد من الضحايا كانوا أصـــدقاء فـــران، أو والديها، مدللين ضمنيا أن فران قد عاونتني على دخول تلك الأمـــاكن. أبلغت الشرطة أودونيل أيضاً بأهم شاهدوها تحمل أكياساً تحوي "أدلة محتملة" من منـــزل موريلاند هيللز إلى مركز صناديق ودائع خاص. وأوضح محامي فـــران ساخراً أنها كانت أيضاً أكياس بقالة "محتملة" - وما هي احتمالية قيام القاضي بإسناد حكمه على ذلك؟ - بيد أن أودونيل بدا يقيناً وكأنه كان يتقبل مزاعم الادعاء.

إلا أن القاضي سويني لم ينطلِ عليه أي من ذلك، فقد كان واحداً من أولئك القـــضاة الحازمين، والمنصفين، الذين لا يمكن إجبارهم على الإقدام على فعل شيء يعتمد على مزاعم لم يقدم عليها دليل واحد. وقد أزاح جانباً كل تلك التخمينات التي كانوا يلقون بها إليه واستشهد بدلاً من ذلك بعدم وجود سجل إجرامي لفران وبالأعمـــال الخيريـــة التي سبق أن قدمتها للمجتمع، وقال: "لقد خدمت العدالة، وليس هناك مبرر واحد للإلقاء بها في السجن". ومع ذلك، يجب أن أذكر أن ذلك القاضـــي الـــذي لا يمكن إخافته قد نطق بالحكم في الصباح الباكر قبل أن تتمكن سلطات الشرطة من الوصول إلى هناك، ومشاهدته يفعل ذلك.

حدث أنه قد اتخذ القرار الصائب. فقد أدركت فران يقيناً أنني كنت هارباً، وشـــاركت في مراوغتي للسلطات، بيد أنها لم تعاونني في اقتراف أية سرقات، على الأقل ليس عن علم.

كان للشرطة وجهة نظر أيضاً. فقد اقترفت بعض - وليس كل - السرقات الـــتي ارتابـــوا في قيامي بها. ولكن في أميركا ليس مفروضا أن تعاقب على كونك موضـــع شك. تباً لذلك، فإن كان مسموحاً به، لأودع الجميع بالسجن. كما أن جلـــسة الاســـتماع تلك على وجه الخصوص لم يكن لها أدنى صلة بي، بل كانت تـــتعلق بفران. رغم أن رجال الشرطة كانوا مقتنعين بارتكابي للعديد من عمليات السطو تلك، إلا أنهم لم يتوافر لديهم أي مبرر للارتياب في علمها بها.

كان هناك جانب آخر من كل تلك الدعاية التي داهمتني بأسلوب خاطئ. بدا الأمر كما لو كان كل من فقد القليل من أدوات المائدة في منطقة كليفلاند في أي وقت على مدى الأعوام القليلة السابقة، أو التُقطت عُصِيّ الجولف من سيارته، أو سُلب جهاز التلفزيون الخاص به من غرفة معيشته، افتُرض الآن أنني كنت من أعد لذلك. و لم يبدُ أن أحداً قد انتبه إلى أن كل سرقاتي ذات قيمة عالية، وخطر كبير، وأكثر تعقيدا من مجرد عملية مداهمة بسيطة من أجل سرقة ما في الجيب. لقد كان الخـيط الـشائع الـذي يـربط بين عمليات السطو التي قمت بها هو تحدي حل المعـضلات، والتغلب على العقبات الهائلة، و لم أكن استمتع بأن يساء فهمي على أني مجرد شخص مصاب بجنون السرقة.

لم يـبدُ أن أحداً انتبه إلى شرط إضافي فرض على فران، كما لو كان من غير المهم وغير القاسي أن يتم استبدال عدم قضائها لأي فترة بالسجن بمنعها من أن يكـون لهـا أي اتصال بي على الاطلاق لفترة المراقبة التي تتكون من عامين كاملين.

* * *

بـدا أن الـصحف تعلم بأي شيء كانت السلطات تخطط له قبل حتى أن أكتـشفه أنا، أو المحامان. فبعد بضعة أيام من إعداد اتفاق فران، قرأنا في الصحف أنه بالإضافة إلى ملاحقة التهم القديمة من فلوريدا، أراد مكتب التحقيقات الفدرالية ضم مسألة جواز السفر المزيف لقضيتهم. وبعد ذلك بفترة وجيزة تم إعلامنا – في الـوقت نفسه الذي أعلمت فيه الصحف – أنه كان يتم التحقيق معي في مصرع جـوي كام، بسبب القصاصة التي أرسلتها لي باربارا، والتي تم العثور عليها أثناء التفتيش. أقر بأن الشرطة كانت على صواب حيال جواز السفر، ولكن أمر جريمة القتل كان مجرد شيء لفقوه لتقوية موقفهم التفاوضي في أي اتفاق رتبوا في أذهانهم الطلوع عليَّ به لتجنب محاكمة طويلة الأمد.

أمـضيت حوالى ثلاثة أشهر في سجن مقاطعة كوياهوجا بينما كان ذلك يجـري، ثم فكـر المحاميان المتهوران الخاصان بي في فلوريدا، راي ساندستروم وفريد حداد، في أفكار جنونية، نـزقة. ظنا أنهما لو أعاداني إلى فلوريدا، فمن

المحتمل إخراجي بكفالة، كما اعتقدا أيضاً أنه من الممكن أن أناضل في القضية الأصلية، وأتغلب عليها. قاومت لفترة، إذ لم أرغب في العودة للمثول أمام دائرة قضائية أعلم أن الشرطة تحيك لي المكائد فيها، ولكني وافقت في النهاية. كان فريد هو من أشار أنني كنت بالفعل أكثر أمنا داخل النظام القانوني ذي القواعد الصارمة، من كوني حراً طليقاً، وبالتالي تحت رحمة أي مكيدة يمكن للشرطة تلفيقها.

في أحد أيام الأحد، عقب إنهاء كم هائل من الأعمال الكتابية اللازمة، كنت مكبلا بالأصفاد، وكنت أبدو كهانيبال ليكتر، وقد اصطحبني إلى مطار كليفلاند هوبكينز الدولي اثنان من ضباط شرطة فلوريدا، واثنان من العملاء الفدراليين بحجم ظهيري فريق إن. إف. إل. للكرة. وقع الفدراليون على بعض المستندات، بينما طرت أنا، والشرطيان من فلوريدا إلى فورت لوديرديل.

كان راي قد أعد جلسة الاستماع للكفالة في صباح اليوم التالي، وظهرت بارب، وعرضت كدليل (كضمان إضافي) ذلك المنزل الخالي من الرهن، والذي حصلت عليه مني بالطلاق. ولكن للأسف، فقد حضر عشرة ضباط فدراليين من كليفلاند أيضاً، ونجحوا في إظهار قوتهم: فقد رفض القاضي الكفالة، وأعادني إلى الحجز، واجتمع راي، وفريد للتفاوض سراً مع الولاية، وممثلي الادعاء الفدراليين والمقاطعة.

دامت "المفاوضات السرية" زهاء الثلاثة شهور، ثم أتاني فريد ليعرضها أمامي. بدأ بإخباري أن المشاعر ضدي لم تعد بالحدة التي كنا نظنها.

قال فريد: "إن ممثل ادعاء المقاطعة هو الذي يمسك بزمام القضية؛ لأن المسوغ الأساسي يتعلق بتهمة الهروب، وذلك من شأن المقاطعة، ولا يبدو أنه سيئ الطباع، كما أن مساعد محامي الولايات المتحدة ليس عنيفا أيضاً".

نظرت إلى فريد باحتراس قائلاً: "وماذا عن رجال الشرطة؟"

"رجال الشرطة؟ آه. إنهم يودون النيل منك".

ضحكنا كلانا، وشرح لي أن رجال الشرطة ليس لديهم قول فصل رسمي في كيفية التعامل معي.

ثم هــدأ قــائلاً: "من ناحية أخرى، يجب أن يعمل كل هؤلاء الرجال معاً، فعندما يركل، رجال الشرطة، ويصرخون، فعلى ممثلي الادعاء أن يصغوا لهم. فما هي مشكلتك؟"

كنت أعلم ما هي المشكلة. "لقد أضجرهم".

قــال فريد: "بل ما هو أسوأ من ذلك؛ لقد جعلتهم يبدون في منتهى الحمق، وليس هناك سبيل للإفلات بهذه الفعلة".

سألته: "إذن فيم كنت تتحدثون زهاء الثلاثة شهور".

"كنا نتحدث عن كيفية الخروج من هذا الأمر بأقل ألم للجميع".

أردف فريد قائلاً أن ممثلي الادعاء اعترفوا صراحة أن قضيتهم ضدي لم تكن بالإحكــام الذي أرادوه. كان مقضيا عليَّ لا محالة في مسألة جواز السفر المزور، ولكــن مثلما استطعت الإفلات سريعاً من محاكمتي منذ خمس سنوات، فلو تمكن راي وفــريد مــن معاودة فتح جلسة سماع انتهاك فترة اطلاق السراح المشروط الأصلية، لكانت هناك فرصة للنجاة من هذا الأمر أيضاً.

قــال فــريد أنه من ناحية أخرى، يمكن أن تخفق هذه الاستراتيجية، وتكون النتيجة "قضاء عشرين عاماً بالسجن".

كــان مــن السهل تلمس كيفية تطور الأمر. فلم يكن هناك من سبيل لقيام ممثلي الادعاء بإسقاط التهم، بيد أنهم قد لا يحصلون على فرصهم في المحاكمة أيضاً. وهــذا عــنى أن هناك مجالاً للبعض للتحرك هنا وهناك للتفاوض، وكان ثمة شيء واحد لا بد من أن أعرضه. "كم من الوقت إذن يريدونني أن أمضيه؟"

كــان ذلك فعلاً هو لب الموضوع. ما أبلغني به فريد بالفعل كان من الممكن أن يتم في خمس دقائق من بداية تلك المفاوضة السرية التي استغرقت ثلاثة شهور.

قال: "خمس سنوات" ثم رفع يده قائلاً حينما شرعت في الانفعال: "سيقرون رسميا بالوقت الذي أمضيته بالفعل...".

"بما في ذلك الثلاثة شهور انتظاراً لهذا العرض؟"

أومــأ فــريد بالموافقة. "وفور أن يسكن كل هذا، ولا تنظر إليه الصحف بمنتهى الضراوة، وبافتراض حسن سلوكك في السجن، سينصتون إلى التماس العفو المشروط".

"وهل يوافق الجميع؟" بمعنى الجميع بالولاية، والمقاطعة، والمستويات الفدرالية.

"أجل".

لم يبالِ فريد بإبلاغي عن مدى جودة الاتفاق، فقد كان جليا. كان بإمكانهم الحكــم عليَّ بخمس سنوات عن كل من تهمة جواز السفر المزور، ورخصة القيادة كل على حدة. ولكن بمقتضى هذا الاتفاق، سأمضي أقل من عامين، وحينما يطلق سراحي ستكون صحيفة سوابقي ناصعة تماماً، ولن يكون هناك المزيد من الركض، والحذر، والهويات المزورة...

ومع ذلك قلت: "بشرط واحد".

ظهــر التوتر على فريد، فقد حصل على كل شيء ممكن بالفعل من أولئك الرجال، وقد نضب المعين، "ماذا؟"

"لا بد من أن يكون سجن بالولاية، وليس فدراليا".

ســجن الــولاية أكثر صعوبة، بسبب ميزانياته المحكمة، وتكدسه بالمساجين الــدائمين، ووجــود القلــيل من الحماية التشريعية، والمراقبة الأقل حدة. بيد أن التكدس، والميزانية المحكمة يعني أيضاً أنك في العادة تقضي وقتا أقل، خاصة إذا لم تتــسم بالعنف، لأنهم يودون إخراجك من هناك بأسرع ما يمكن. وكنت مستعدا لتحمل أي شيء إن كان هذا يعني أن أخرج سريعاً.

كان لديّ مبرر آخر لتجنب السجن الفدرالي، وهو أن الشرطة الفدرالية التي بدا وكأنها أكثر قسوة عليَّ كان لها نفوذ أقل في سجون الولاية. كان أمراً مؤكداً أنه بدون تدخلهم، فإن شخص قضى مدتي بالفعل يمكن أن يحظى بالحد الأدنى من الأمن، ثم يُطلق سراحه في غضون شهرين.

ســيكون هذا حلقة أخرى في سلسلة افتراضاتي السيئة. بيد أنه لم يكن لديّ حيلة في معرفة ذلك مسبقا، لذا فقد عاد فريد بإجابتي إلى ممثلي الادعاء، ولم يضف أي منا كلمة على حقيقة أنهم وافقوا تقريباً قبل حتى أن ينهي فريد كلامه.

23

عودة ثانية إلى غياهب السجن

كان السجن مفضلا في بعض النواحي عن الحبس.

والحبس هو نظام للاحتجاز، وهو العذاب الناتج عن إحساس مستمر بعدم اليقين من ذلك النوع الذي يعرفه التلميذ عندما يمضي يوماً كاملاً يتساءل عما سيفعله به والده عندما تبلغه أمه بما اقترفه. وحتما فإن العقاب، وما يصاحبه من ختام لذلك العذاب يكونان بمثابة راحة مرغوب فيها من كل ذلك التخمين المؤلم.

ليس بالحبس ذريعة بإعادة التأهيل، وليس هناك من اعتبارات الحياة الجيدة إلا النذر اليسير. فمن الناحية الفنية، لا تزال بريئاً، وقد تم احتجازك للتأكد فقط من أنك لن تلوذ بالفرار، أو تسبب المزيد من المتاعب قبيل محاكمتك الشرعية التالية. وليس هناك برامج تساعد على أن تصبح شخصاً أفضل؛ لأنك، من الناحية الرسمية، لا تشوبك شائبة بالضرورة. حتى التمرين لا يتوفر لك، ويكون الوقت الوحيد الذي ترى فيه الشمس هو عندما تكون هناك حاجة إلى نقلك لمباشرة إجراءات مقاضاتك. ومع ذلك ففي مقاطعة بروورد، يقع الحبس والمحكمة في البناية نفسها. فلم تطأ قدمي الخارج ولو لمرة واحدة طيلة فترة مكوثي هناك. ولكن الشيء الجيد الوحيد في الحبس هو أن الكثير من الرجال المحبوسين قد قضوا بالفعل فترة سجن في الولاية، وقد تعلمت منهم الكثير عما يجب أن أتوقعه.

والمساجين الذين يتحدد نقلهم لا يبلغون بذلك إلا بعد الحادية عشرة ليلا، بعد أن تقطع خطوط الهواتف، وبالتالي لا يتمكنون من التخطيط لجعل شخص ما

يتربص بالحافلة لاختطافها. وصلني الرد في يوم الأحد، في الثالث عشر من كانون الــثاني/ينايــر، أي بعد يومين من إبرام الاتفاق. وفي حوالى الساعة الحادية عشرة والنــصف تم جمــع عشرين منا، واقتيادهم إلى الطابق السفلي، ثم تعرضنا للتفتيش الدقــيق، ونحن مجردون من الملابس، وتم وضعنا في زنــزانة حجز، حيث كنا في انتظار وصول الحافلة بعد إحضار بعض المساجين من مقاطعة ديد. مضى كل شيء بشكل سلس حتى وجدوا مفتاح الأصفاد مع شخص ما. فأخذوه ثانية إلى السجن لنــسب تهم جديدة إليه، ثم أخضعوا بقيتنا للمزيد من التفتيش المحكم ونحن عراة. وفي الثانــية والنصف صباحا، تم تكبيلي بالأصفاد مع سجين آخر، وتم وضعنا في الحافلة.

كانــت أولى محطات توقفنا بمركز استقبال شمال فلوريدا في بحيرة باتلر، وهو مــرفق للإجراءات القضائية يقع خارج أورلاندو للمساجين الجدد قبل إيداعهم في ســجون أخــرى. كانــت "البحيرة" عبارة عن بركة من المياه الراكدة أكبر من الــبحيرات المحــيطة بها وكان "المركز" غرفة مبنية من الطوب والخرسانة، ومملوءة بالمقاعد الخشبية، ومضاءة بمصابيح النيون القوية، وقد اكتظت ببعض من أحقر من رأيــتهم في حــياتي من الأوغاد خارج القضبان. كان أشبه بمركز تدريب بحري، باستثناء أن أولئك الرجال كان مسموحاً لهم بضربك، وهو أمر يسعدهم إن كنت ممــن يرمشون سريعاً. كان أول شيء فعلناه هو الوقوف في صف لتسليم ممتلكاتنا الشخــصية، وكان من ضمن الأشياء التي سلمتها ساعة من طراز سايكو كنت قد سرقتها من روبرت جوليت. حملق فيها الكاتب الذي أخذها طويلا قبل أن يضعها في مظــروف. ثم تم اصطحابنا بعيداً لنتجرد من ملابسنا، ويُقاس وزننا، وأطوالنا، وتُحلــق رؤوســنا في فترة عشر ثوان بحيث بدونا جميعنا صُلعاً تقريباً. بعد ذلك، وقفــوا منتــصبين ساكنين لمدة ساعتين تقريباً، بينما تناوبت مجموعة من الحراس الصياح فينا قبل أن يتم وضعنا أخيراً في زنازين الحجز.

شــهد اليوم التالي مجموعة متنوعة من الأنشطة المثمرة؛ إذ تم تكليفي بكشط الأرضية بفرشاة أسنان، ولكن سرعان ما أدركت أنها كانت من المهام الجيدة. فقد أجــبر الــبعض على الوقوف في انتباه (منتصبين ساكنين) وأنوفهم مضغوطة قبالة

الجـــدار. وكـــان تحركهم يعني الحصول على صفعة شديدة على الرأس، أو ما هو أســـوأ. وقد رأيت اثنين من السجناء ينهاران، وتم نقلهما بعيداً. كان أحد أنشطة الحراس المفضلة هو البصق على وجه السجين، وتذكيره بأنه ما من أحد يحميه.

كنت في شدة الهلع. فقد كانوا يتناقلون كافة أنواع الروايات، بما فيها واحدة عـــن كيفـــية ضـــرب الحراس لسجين، ثم تقييده في سريره، وتركه ينـــزف حتى المـــوت. ولكن من خلال ما كنت أشاهده بعيني، لم تكن تلك قصة يمكن تصديق صحتها. كان بعض الحراس يعمل في بحيرة باتلر وهم من الجيل الثالث في أسرهم، وبدا لي أن الوحشية التي ترتكب يوميا ضد أناس لا حول لهم ولا قوة للدفاع عن أنفسهم أمر مدمج في ثقافتهم.

كـــنت أحـــد السجناء الذين لا يتسمون بالعنف في المكان. وكان رفيقي في الزنـــزانة رجلاً هادئاً كبيراً في السن، و لم استطع معرفة الكثير عنه، ولكن بعد عدة سنوات رأيت صورته في الجريدة عندما بدأت الشرطة في استخراج جثث إناث من مزرعته في ألاباما. يبدو أن فكرة ولاية فلوريدا عن الخطوة الأولى الجيدة في إعادة تأهيلي كانت وضعي في زنـــزانة واحدة مع قاتل قام بسلسلة من جرائم القتل.

كـــان يتم إحصاء عشرة مساجين في اليوم. وكنت أنال حماماً بارداً مرة في الأســـبوع. باقـــي الوقت كنت أحاول تجنب الحراس الذين كانوا يبذلون قصارى جهـــدهم لإيجاد مبررات إنهاك سجين ما، وعادة ما يجدوها. كان هناك صفوف لكل شيء، حتى في الذهاب للتبول، وقد حدث في أحد هذه الصفوف أن تعرضت لمواجهتي الخطيرة الأولى.

كـــنا في انتظار ولوج قاعة الطعام. ورغم أنني كنت مطأطئاً رأسي، إلا أنني اســـتطعت أن أرى أن الشخص الواقف أمامي كان ضخم الجثة، فقد كان ظهره أشـــبه بجـــدار هائل الحجم. وفجأة التفت ونظر إليَّ، وكان شخصاً أسود، ويبدو رأسه في حجم كرة البولينج.

قال: "ما الذي فعلته؟"

نظرت إلى أعلى.

"لقد سعلت علي".

لم أفعل ذلك، لكنني لم أنبس ببنت شفة.

ضاقت حدقتا عينيه، وتوقفت الحركة حولنا. "قلت لك أنك سعلت علي".

ما زلت رافضاً أن أنطق بكلمة.

طالب ملحا: "أسمعت ما قلته؟"

لم يكـــن ثمة جدوى في الجدال، فلم يكن يتطلع لمناظرة فعلية، وكان كل ما ســـأفعله بحديثي هو أن أزيد الأمر سوءاً. وإن لبثت ساكناً، ربما كان سيهينني، ثم ينـــصرف وينتهـــي الأمر. لم أصدق أن هذا الشخص كان سيخاطر بإثارة غضب الحـــراس، أو أنهم لن يتدخلوا لفض النـــزاع عندما رأوا ما كان يحدث. ولكن في تلك المرحلة الأولية من خبرتي في بحيرة باتلر لم أدرك أن الحراس كانوا يحبون رؤية سجينين يتنازعان، ولهذا كان اثنان منهم يقفان جانباً، وهما يبتسمان دون أن يبادرا بالتدخل.

همهم الرجل الضخم قائلاً: "أيها الحقير"، ثم بدأ في جذب قبضته إلى الخلف، بينما ابتعد الرجال الواقفون حولنا.

كانت تلك إحدى اللحظات الحاسمة في حياتي التي عرفت أنها ستؤثر في الحال في تجربتي في السجن برمتها، وليس فقط الوقت القصير الذي أقضيه في بحيرة باتلر: فـــأي شيء سيرتبط بي في غضون الثواني القليلة القادمة، سوف يظل معي، ويحدد الكيفية التي سيتم التعامل بها معي أيا كان المكان الذي سأنتهي إليه في هذا النظام. لذا، فعلى الرغم من أن ذلك الرجل كان يفوقني قامة، ويزيد عليَّ في الوزن بأكثر مـــن مائة رطل (45 كلغ)، و لم يكن حديث عهد بالعنف، فلم يكن أمامي بالفعل الكثير من الخيارات.

اتخذت خطوة بسيطة إلى الوراء وركلته في رأسه.

أحســـست بالعديد من الأعين المذهولة تحملق في بينما هوى هو على الأرض ككيس دقيق، ونظرت إليه، مبعدا أي أثر للعاطفة عن وجهي، كما لو كنت أقيم بـــبرود مـــا إذا مـــا كانت ضربتي شديدة بما يكفي للحيلولة دون نهوضه، أم أنني سأحتاج إلى ضربه ثانية. ثم خطوت فوقه، وعدت إلى مكاني بالصف، كأن شيئاً لم يكـــن، وكـــأنني كنت لأعير الأمر اهتماماً أقل مما لو كانت بعوضة قد اعترضت

طريقـــي. وخلال الحادثة برمتها لم أقل كلمة واحدة، ويروقني أن أفكر أنني لم أبدِ على الاطلاق أي علامة على الخوف.

لم يكـــن هـــدفي أن أظهر مدى قوتي، بل أن أثبت أنني متقلب المزاج، لا أهاب أحـــداً، ولا يمكـــن توقـــع رد فعلـــي، وأنه بالرغم من أنه قد يكون هناك العديد من الأشـــخاص الـــذين يمكنهم الاشتباك معي في عراك، فلم البدء بقتال مع شخص من المضمون أن يسبب لك مشاكل؟ كنت أعلم أنني سوف أبلي البلاء الحسن طالما لم يتم تحويلي إلى المؤسسة نفسها التي سينقل إليها ذلك الضخم الذي يئن على الأرض خلفي.

كان الأمر بهذا السوء كل يوم، ولكن دام ذلك لمدة أسبوعين فقط، ثم نقلوني إلى مـــرفق بـــه القليل من القيود بوسط الشارع. كان كل ما يحيط به هو جدار بارتفاع ستة أقدام (1.8 متر)، وكان الحراس لطيفين تماماً. خلت أنه لا بد من أن أحـــدهم قد اكتشف أنني لا أنتمي إلى الأشخاص الشديدي المراس، ولكن عقب ستة أيام تم نقلي ثانية إلى أكثر السجون تشدداً في رايفورد، على بعد حوالى أربعين ميلا جنوب جاكسونفيل. شيء ما كان يحدث لم أكن على علم به.

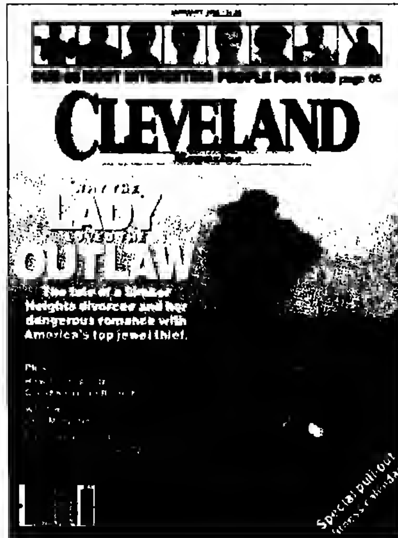
الآن قد يخالجك الظن أنه لم يكن لديّ شكوى مشروعة – على كل حال، فقد كـــنت مجـــرماً مداناً، والسجن هو السجن، صحيح؟ لكن السجن ليس هو السجن، وهناك بعض البروتوكولات الصارمة عندما يتعلق الأمر بسجن الأشخاص. كان أحد تلك البروتوكولات يقول إن المذنب غير العنيف الذي يقضي أقل من عامين من مدة حبـــسه البالغة خمس سنوات يجدر أن يكون طليق السراح، أو على أسوأ تقدير يوضع في سجن به الحد الأدنى من القيود. لماذا إذاً يتم احتجازي بصحبة منتهكي الأعراض، والقتلة المدانين في سلسلة من جرائم القتل، واللصوص المسلحين؟

كـــان المبرر، كما اتضح، هو أن الشرطة الفدرالية كانت تدخل التهم المعلقة ضدي في أجهزة الكمبيوتر الخاصة بمركز معلومات الجريمة القومي. و لم يكن هناك شيء يمنعهم من فعل ذلك، حيث إن معنى ذلك هو أنهم كانوا يفكرون في اتهامي بـــشيء مـــا، ومن قال إنهم لم يفعلوا؟ ولكن الأثر الناتج عن ذلك، والذي كان مقصودا، هو أن يوضحوا لسلطات السجن أنني كنت شخصاً سيئاً، ولا بد من أن أعامل وفقاً لذلك. وحيث إن أسلوب معاملتي لم يكن يتعلق بالقانون، ولكن وفقاً

لتقدير نظام السجن، فلم يكن في مقدور المحامين، أو مقدوري فعل أي شيء حيال ذلــك، باســتثناء المجادلة لمحو التهم من مركز معلومات الجريمة القومي. سيتم محو التهم، ثم ستدرج تهم جديدة. لم يكن لدى الشرطة الفدرالية أية مشكلة حيال هذه اللعــبة الــصغيرة. وطالما بدت حالتي وكأنها غير مقررة، فقد كان لدى سلطات السجن مسوغ لافتراض الأسوأ بالنسبة لي.

ما قلته عن مدة سجني السالفة ما زال قائما: الملمح الغالب على حياة السجن هو الملل المفضي إلى الجنون، القاتل للإرادة. كان سجن رايفورد مقسما إلى عنبري نــوم، يمكث في كل منهما مائتان وخمسون نــزيلاً. لم يكن هناك ما يفعل طيلة الــنهار سوى التجوال في طريق صغير، والانتظار في الصف لإجراء مكالمة هاتفية. بخــلاف العراك العارض، كانت الوجبات هي الشيء الوحيد الذي يضيع اليوم. لم يشكل العراك مشكلة بالنسبة لي، على الرغم من أن: الحديث قد تناقل عن انفعالي القليل في بحيرة باتلر، كما انتويت، وانتشر في أرجاء نظام السجن، و لم يعتقد أحد أن من مصلحته اكتشاف ما إذا كنت سأنفجر ثانية لو تعرضت للاستفزاز.





تعرضــت للكثيــر من الاستهزاء من رفاق السجن حينما نشرت تلك المجلتان، واحتلتا منصات البيع. بالنسبة لأسرة فران وأصدقائها، لم يكن أثرهما مسلياً، وكذلك لم تضحك كثيراً لجنة إخلاء السبيل المشروط التي تدرس قضيتي على ذلك.

كـــنت محظوظاً في أن بإمكاني القراءة (لا تضحك... فقد وضعني ذلك على رأس مجمـــوعة صـــغيرة من الرجال هناك)، وقد تدبرت فران إحضار مجموعة من الكـــتب لي. قضيت الكثير من الوقت منغمسا في قراءة أكثر الكتب مبيعا وقتها، وكـــذلك في كـــتابة الخطابـــات، وكان السجناء الذين يعرفون القراءة ممتنين لي لإعطائهم الكتب التي انتهيت من مطالعتها.

كانـــت العديد من الرسائل التي كتبتها إلى راي، وفريد، والتي أطلب منهما فـــيها التركيز على إخراجي من السجن ذي الحد الأقصى من القيود. عكفا على عملهما بحماسهما المعهود، وبعد حوالى أربعة شهور من دخولي رايفورد، تم نقلي إلى مؤســـسة زيفيرهيلز التقويمية، وهي مؤسسة ذات حد متوسط من القيود، وتقع في منتصف الطريق تقريباً بين أورلاندو وسانت بيترسبرج. كانت محاطة بسياجين يـــبلغ كـــل مـــنهما عشرة أقدام (3 أمتار)، ويعلو كل منهما سلك شائك، وقد تمركزت في كل زاوية سيارة من طراز جيب بها حراس مدججون بالسلاح. كان هناك العديد من المساجين الذين يقضون عقوبة بالسجن مدى الحياة معتقلين هناك، ولكن مستوى العنف كان أقل بكثير.

كانت آخر مرة رأيت فيها فران حينما زارتني في السجن بكليفلاند، قبل أن توضـــع في فترة المراقبة، وتمنع من إجراء أدنى اتصال بي. كنت حزينا بشدة حينما حملـــوها على الرحيل، فلم أتمكن من تناول الطعام لمدة يومين تقريباً، ويمكنني فقط تخيل ما كان سيؤول إليه حالي من السوء إذا ما علمت في ذلك الوقت أنها ستكون آخـــر مـــرة أراها فيها لأمد طويل. وعلى الرغم من ذلك، فإن بإمكاني الآن أن أحادثهـــا هاتفياً مرتين يوميا. من الناحية القانونية، بينما كان غير مسموح لفران بالاتـــصال بي، فلـــم أكـــن أنا أندرج تحت حظر مشابه، لذا فلم تبالِ سلطات زيفيرهيلز لو حادثتها. وكذلك، فمنذ عادت هي، وابنتها إلى منـــزل والديها، لم يكن ثمة ما يبرهن على أنني لم أكن أحادث والدها، أو والدها إلا أن تقوم الشرطة بتـــسجيل الاتصالات التلفونية، وهو أمر لم يعتقد أحد أن هناك مبرراً لفعله. فلم تكـــن فران موضع اهتمام، وقد نسيها الجميع على الأرجح فيما عدا ضابط المراقبة المكلف بالإشراف على خدمتها للمجتمع. كانت فواتير الهاتف عن كل النداءات

الـــتي تدفع رسومها عند الوصول ذات أرقام فلكية، ولكن والد فران سددها كلها دون حتى أن يذكر ذلك.

* * *

قـــبل وصولي بشهر تقريباً، تم إصدار العفو (إخلاء السبيل) المشروط عن سجين آخر. كان اسمه هو جاك مورفي، ولكنه كان معروفا بشكل أفضل للعالم باســـم "مورف ذا سيرف"، أشهر سارق مجوهرات أميركي على الإطلاق، وقد كـــان ذلك المدعو جو جيروينـــز بشرطة فورت لوديرديل يقارنني به. وقد قام مـــورف، واثـــنان من مجموعات متسكعي الشاطئ باقتحام المتحف الأميركي للتاريخ الطبيعي في مدينة نيويورك عام 1964، وسطوا على نجمة الهند الشهيرة، وهي أضخم قطعة ياقوت أزرق في العالم، وتزن خمسمائة وثلاثة وستين قيراطا (القـــيراط وزن يعادل 200 مليغرام). تم القبض عليه بعد أقل من ثمان وأربعين ســـاعة (وشـــى به أحد شركائه، هل تفهم ما أقصده؟) ثم أمضى عامين تقريباً بالسجن، وفي عام 1969 عاد للسجن بتهمة قتل امرأتين. صار مسيحياً مولوداً مـــن جديـــد، وأطلـــق سراحه من زيفيرهيلز بشرط أن يعود لوعظ المساجين بالإنجيل.

كـــان قد منحني ضباط السجن مهمة العمل كبستاني، وعهدوا لي بالاعتناء بقطعـــة صغيرة من الأرض مساحتها عشرة أقدام (3 أمتار) في عشرة أقدام (3 أمتار)، واســـتمر ذلـــك شـــهراً، لأنني سمعت أنه في الإمكان حسم عشرين يوماً من مدة عقوبـــتك لـــو تلقيت دورة "جو لاب" التدريبية لمدة أسبوع، والتي تعلمك كيفية كتابة السيرة الذاتية، والتوافق مع العاملين، والبدء في عمل الخاص، وأشياء من هذا القبيل. أتممت الدورة التدريبية، وعندما برهن ماضي عملي عن نفسه، عهدوا إليّ بتدريسه. وفي غضون أسبوع أو ما شابه خلال الاضطلاع بهذه المهمة، قام مورفي بإحدى زياراته المتكررة إلى زيفيرهيلز.

لم أتمكن من احتمال الرجل من أول مرة أتاني فيها. لا بد من أن أقر بإعجابي بمهمـــة السطو على نجمة الهند عندما حدثت، على الأقل السطو في حد ذاته. وقد قـــال العديد من الناس أن مورفي كان محظوظا، لأن أجهزة الإنذار تم فصلها لتوفير

الكهـــرباء، كما أن البطارية التي تدعم جهاز الإنذار الخاص بصندوق العرض قد تـــوقفت عن العمل، بيد أني أدركت أن الحظ دائما ما يلعب دورا، و لم آخذ عليه ذلك. وإنما كانت تبعات ذلك، والتي تسببت في القبض عليه - تلك الفوضى من أخطـــاء الهواة، والتخطيط دون إتقان - هي التي قللت من شأنه في نظري. كان شخـــصاً أنانيا، مزهوا بنفسه بشكل صارخ، بدءاً من حقيقة أن السطو على نجمة الهند كان شيئاً لا قيمة له، لأنه ليس من سبيل لبيع شيء شهير كهذا.

ثم سمعـــت عن مقتل الشابتين اللتين خلبهما أسلوب مورفي الناعم، وذكاؤه، وموهبـــته الفطرية في طلاقة اللسان. فجأة لم يعد لص المجوهرات الرقيق، وراكب الأمواج، وعازف الكمان، ذلك الوغد المحبوب، وإنما تحول إلى وحش حقير، ذائع الصيت، فلم يكتف بإنهاء حياة شابتين وحسب، بل أسقط جثتيهما في مياه عمقها ستة أقدام (180 سم) على بعد بضع مئات من الياردات (الأمتار) من المكان الذي أبصرهم الناس تخرجان منه على متن قاربه.

لهذا السبب لم ترق لي مقارنة جيرونيز لي بـــ "مورفي" أثناء محاكمة مانديل. بالطبع كان جيرونيز يشير فقط إلى مهارات سرقة المجوهرات، بيد أنني لم أرغب في أن يقترن اسمي بأي شكل باسم مورف ذا سيرف.

وهـــا هو الآن، يفترض به أنه مسيحي مولود من جديد، وبالتالي يسمو علينا جميعا نحن الكفار من الناحية الأخلاقية حتى إنه سوف يرشدنا للنهج السليم لعيش حياتـــنا. ما زال يبدو منحطاً بالنسبة لي، و لم أرغب في أن يكون لي صلة به، لكني حظـــيت باهـــتمامه لـــسبب ما. كان صف دورة جو لاب في مبنى صغير مشيد بالطـــوب، ويقع في وسط الفناء، وكان يداوم على المجيء طيلة الوقت، محاولاً بدء محادثـــة. كل ما كنت أقوله له هو "مرحبا"، ثم أواصل ما كنت أفعله، ولكنه كان يحملـــق في، ثم ينصرف، ويطرح أسئلة على مساجين آخرين بشأني. في العادة لم يكـــن أولئك الأشخاص يستجيبون لأشياء كهذه، ولكن مورفي كان ذائع الصيت في جميع أنحاء نظام سجن فلوريدا، مما يبرر كيفية كسبه لزملاء سجن يصغون إلى وعظـــه: لم يكـــن أغلـــبهم يبالي بما يقول، ولكنهم رغبوا في أن يقال عنهم أنهم يتسكعون مع مورف ذا سيرف.

أبلغني اثنان منهم أنه كان يسأل عني، وسألت أحد الأشخاص الذين اعتادوا حضور محاضرات مورفي: "ما سر اهتمامه البالغ بي؟"

"ربمـــا يود أن يسبب لك المتاعب"، ثم رفع يديه عاليا صوب السماء قائلاً: "باسم الله".

أضجرني مورفي، وحاولت جاهدا أن أكون في زنـــزانتي كلما زار السجن. ونجح ذلك، و لم أضطر قط لمخاطبته ثانية.

* * *

كان أحد الأيام التي أتذكرها بوضوح هو يوم 28 كانون الثاني/يناير، 1986.

قد تكون من قبيل العبارات المبتذلة أن أقول إنه بإمكانهم اعتقال بدني، وليس عقلـــي، لكنه تصور أقدره كثيراً. كان العديد من الأشخاص بالداخل مستسلمين نـــوعاً ما، ولا يبالون البتة بأي شيء، كما لو كانت مدة سجنهم نوعاً من الندم المطلق والمرهق بدرجة تجعل من غير المنطقي محاولة الاستفادة منها.

لا أقـــول إنني صرت أصنع المعجزات، أو تحولت إلى شخص فاضل، أو هراء مـــن هـــذا القبيل - فالسجن جحيم أيا كان الموقف الذي تتبعه - ولكني لم أكن لأسمح بالتدهور بهذه السهولة.

كنت واحداً من اثنين من المساجين في المكان بأكمله اللذين يشتريان جريدة تامـــبا تـــريبيون كـــل يوم. كان السجن يكبدنا ضعف مبلغ بيعها على منصات الـــصحف، وهو جدير بالاهتمام عندما تفكر فيه - كان يجدر بهم منحنا إياها بلا مقابل، وجعل من يعرفون القراءة من السجناء يقرأونها بصوت عال لأولئك الذين لا يمكـــنهم القـــراءة بأنفسهم - ولكن أعتقد أن الجريدة تستحق أن تُقرأ على أية حال. فالإلمام بما يحدث خارج جدران السجن كان يجعلني أشعر بأنني أقل انعزالا، وتفككا.

كـــنت قد قرأت أن المكوك الفضائي قد تم إطلاقه في 22 كانون الثاني/يناير، وشـــرعت أتساءل إن كان من الممكن أن ألقي نظرة عليه. كانت كيب كانافيرال علـــى بعد مائة ميل صوب الشرق، ولكن مركبات الاطلاق تلك أصدرت دخانا كثـــيفا انتـــشر لمئات الأميال في السماء، لذا اعتقدت أن بإمكاني رؤيته. ودعت

الـــصحيفة إلى تنقـــية الجو في أرجاء وسط فلوريدا أيضاً، لذا فإن كان من الممكن رؤية أي شيء، فسوف يكون اليوم هو المناسب.

كان من المقرر أن يكون موعد الاطلاق في وقت متأخر بعد الظهر أثناء تأدية العمل في دورة جو لاب. كان هناك خمسة منا يقومون بالتدريس، ولكن واحد منا فقـــط كان يعمل في كل مرة، لذا كان على الآخرين الوقوف في انتظار دورهم، وكانت تلك بالفعل واحدة من أفضل المهام المتاحة في سجن زيفيرهيلز. رتبت لأن أكون واحداً من الأفراد خارج الفصل الدراسي وقتئذ، وقبيل عشر دقائق من وقت الاطلاق اتخذت مكاني ناظراً باتجاه الشرق. كان من المهم أن أحداً من الواقفين في الفـــناء في ذلك الوقت لم يعتريه ولو حتى فضول بسيط لمعرفة السبب الذي يجعل شخـــصاً مـــا يقف هناك محملقاً عن عمد في لا شيء. ولكن كما قلت، فلا أحد منهم يبالي.

كان هذا ما حدث في تلك التجربة. و لم أتمكن من رؤية شيء، وكانت تجربة فاشـــلة، فيما عدا أن جريدة تريبيون نشرت في اليوم التالي مقالا عن كيفية إخفاق الاطـــلاق نتيجة لبعض المشاكل الفنية، وتأجيله إلى اليوم الذي يليه. بيد أنني لم أرَ أي شـــيء وقتها أيضاً، ويقينا تم إلغاؤه ثانية، لذا فقد حاولت مرة أخرى في اليوم الـــرابع والعـــشرين. هـــذه المـــرة كان هناك طقس سيئ في أحد مواقع الهبوط الاضـــطراري في مكان ما في أفريقيا، وعلى ذلك تم تأجيله إلى الخامس والعشرين، إلا أنـــه كـــان من المتوقع أن يسوء الطقس وقتها في موقع الإطلاق، ثم كان هناك مـــشاكل أخـــرى. ولكنني لم استسلم، على الرغم من أن زملائي في التدريس في دورة جو لاب بدأوا ينـــزعجون من التأجيل المستمر لمواعيد الجدول.

في اليوم الثامن والعشرين، وقبل موعد الغداء تماماً، كنت أقف هناك ثانية في الفـــناء وحـــدي، محملقاً نحو جهة الشرق. ولا بد من أن الحراس قد اعتقدوا أنني تحولت إلى الإسلام وقتها، بيد أنني فجأة رأيت خط رفيع من الدخان الأبيض على شـــكل ريشة يتكون في الفضاء البعيد. كان أكثر وضوحا، وإشراقا مما اعتقدت، وكـــنت مذهـــولا. فإن كان بإمكاني رؤية الشيء من مثل تلك المسافة، تساءلت كـــيف سيكون وأنا أقف على بعد بضعة أميال منه فقط. ثم بدأت أفكر في رواد

الفضاء الذين يُلقون في الفضاء متحررين من قيود الجاذبية، بينما لا أستطيع أنا عبور الشارع.

بعد دقيقة، أو اثنتين من تحديد موقع ذيل ريشة الدخان، كان هناك دفعة من الدخان في مقدمة الريشة. افترضت أنها الصواريخ المدعمة وقد تم إسقاطها، ولكن ظهر وهج شديد الإشراق يشبه كرة نارية، وتبعه ذيول دخانية تكونت باتجاه الأسفل. وعندها لاحظت أن الريشة الأصلية لم تعد تزداد حجما. على الرغم من أنني لم أرَ إطلاقاً من قبل، إلا أنني عرفت على الفور أن شيئاً بشعاً قد حدث. وسرعان ما اختفى كل شيء إلا من دخان متبدد.

لم يكن هناك من صوت على الإطلاق، وكان ذلك بعيداً جداً. نظرت حول الفناء، و لم يبدُ أن أحداً لاحظ الأمر سواي، فاتجهت نحو الشرق ثانية، وجاهدت للعثور على أية إشارة تفيد بأنني كنت مخطئاً، وأن كل شيء على ما يرام، ولكني كنت أعلم بطريقة ما أنه لا أمل في ذلك.

لم أكن أعلم إذا ما كان هناك نظم للطوارئ لإبعاد طاقم العمل في حالة حدوث خطأ ما. هل من الممكن أن يكون هؤلاء المساكين هناك قد لقوا حتفهم؟ فجأة بدت اهتماماتي الشخصية صغيرة، وتافهة، ورغبت بشدة مثل ملايين الأميركيين في معرفة تفاصيل ما حدث، إذا ما كانت هناك أية احتمال أن يكون الأمر قد سار أفضل مما بدا.

لم يكن هناك الكثير من الأمور التي بإمكانها أن تغير الحياة داخل السجن. كان جهاز التلفاز الموجود في مبنى الزنزانة قد تم ضبطه، كما كان دائما في ذلك الوقت من اليوم، على برنامج تمارين رياضية. لم يكن المساجين الذين يشاهدون يبالون بالرشاقة، وإنما كانوا يشاهدون النساء اللاتي يرتدين الأزياء الرياضية اللاصقة، وبدوا على استعداد لقطع رأسي إذا ما طلبت منهم تغيير المحطة لثانية واحدة.

كان عليَّ أن انتظر للظهر، عندما يتم تشغيل الهواتف التي تعمل بالعملات كي اتصل بفران. كانت تمكث في منزل والدها، وقد أعلمتني بالكارثة. كل ما أمكنني التفكير فيه في البداية هو معلمة المدرسة، ثم أسرتها، ثم الأطفال الذين كانوا

يدرسـون لـديها، ثم أطفالي أنا. كم كانت الحياة ضعيفة، وها أنا أضيع حياتي. شعرت بتلك الرغبة التي كان يشعر بها أولئك الذين هزتهم الكارثة، وهي أن أكون مـع الـناس الذين أهتم لأمرهم، بيد أن كل ما كان حولي هو حفنة من المحتالين الأغبياء، فاقدي الإدراك، الذين لا استطيع حملهم حتى على تغيير محطة تلفزيونية. لم أكن أعلم إن كانت كارثة تشالنجر قد نقلت إليّ الرثاء لحالي أم ماذا، ولكن تلك الكارثة قد صدمتني بشدة أكثر مما كنت أصدق أن يحدث، وكان عليَّ أن أتعامل مع ذلك وحدي.

* * *

كان في دورة جو لاب تشتيت لطيف للذهن، بيد أنها لم تجعلني أنسى إلى أي مـدى تكـون الثقافة في الداخل مختلفة ومهينة. وبدا كما لو كانت كل القوانين الطبيعية قد تركت على البوابة الأمامية، وأنا لا أتحدث فقط عن الأنواع الواضحة مـن الأشياء التي يجب أن تظل مكانها عندما يتم اعتقال الأفراد ضد رغبتهم، وإنما أتحدث عن طبيعة التفاعل بين البشر في حدّ ذاتها.

كـان هـناك سجين يتسم بتخلف عقلي بسيط في صفي الدراسي، ويدعى بـرني، وكان يعمل في المطبخ. كان يزن ما يقرب من ثلاثمائة رطل (136 كلغ)، وقـد أودع السجن بتهمة القتل، وكان شخصاً مخيفاً إلى حد ما حتى تعرفه. كان يقيم في مبنى الزنـزانة الذي أقيم به، وقد راق كل منا للآخر. كان دائما يأتي إلى زنـزانتي، وكنت أساعده في عمله المدرسي، وفي كتابة الخطابات، حتى إنه أتى بي إلى غرفة الزائرين مرتين لألتقي والدته.

ملحـوظة جانبية هنا: كل من كان داخل السجن أودع فيه بسبب ارتكابه للقتل، أو السطو المسلح، أو تهريب المخدرات. اسألهم فقط، وسوف يخبرونك. أما ما لن يخبروك به هو إذا ما كان أحدهم قد دخل السجن بسبب ضرب الزوجة، أو التحرش بطفل. فالسجناء المخلصون للسجن يميلون إلى التحلي الشديد بالأخلاق، والاستقامة فيما يتعلق ببعض الأشياء، غالباً لأن السجن مهين، ومذل بدرجة تجعل الشعور بالتميز على الغير إحدى الطرق التي تقنع نفسك بها بأنك لست الشخص الحقـير الذي يحولك إليه نظام السجن. ويكون المتحرشون بالأطفال ضمن أكثر

السجناء المبغوضين، ويرتعدون لمجرد التفكير في أن حقيقة تهمهم قد تسربت إلى الفناء. وهم ينزعون لإخبارك بأكثر قصص القتل والتشويه غرابة، والتي لم يرتكبوها بالفعل أبداً.

نظراً لكوني معلماً في دورة جو لاب، فقد كان لي الحق في الدخول على الملفات الشخصية للسجناء، ويمكنني أن أخبرك أن برني كان في السجن بسبب ارتكابه للقتل فعلاً.

ولأنه كان عليَّ أن أبدأ بالتدريس في وقت مبكر من اليوم، كان الحراس يرفعون القفل عن الباب الرئيسي لمبنى الزنزانة كل صباح من أجلي، ويسمحون لي بالسير عبر الفناء لتناول الإفطار قبل غيري.

لكم أحببت فعل ذلك، لأن قاعة الطعام كانت هادئة، وأمكنني القراءة بها. لكن ذات صباح، وقرابة الساعة الخامسة والنصف لم تكن ساكنة، فحينما دلفت إلى قاعة الطعام، كان ستة من الحراس قد حاصروا بيرني في أحد الأركان. كان مهتاجا، وينظر في شراسة، وكان يلوح في وجوههم مهددا بكتلة ضخمة يبلغ حجمها 2 متر في أربعة أمتار في كل مرة يتخذ فيها أحد الحراس خطوة إلى الأمام. وبينما كنت أحاول أن استوعب كل هذا، كان اثنان من الحراس يحاولان الوصول إلى جوارب العصي المعلقة بأحزمتهم، وأدركت أن بيرني كان يجابه متاعب خطيرة. كانت إحدى القواعد التي لا يمكن خرقها بين الحراس ألا يسمحون لسجين بأن يتغلب عليهم أبدا، وإذا حاول أحدهم ذلك، فعلى الحارس أن يوضح للآخرين تماماً أن ذلك كان خطأ فادحاً.

لم يكن من دأبي التدخل في شؤون الغير، ولا سيما داخل السجن، لكن كان هناك احتمال كبير بأن يقتل صديقي بيرني في غضون الدقائق القليلة التالية. لم يكن بمقدوري أن أكتفي بالوقوف هناك، ومراقبة حدوث هذا، أو أن أمضي في طريقي، وأتظاهر بأنني لم أكن أعلم بذلك. قبل أن أفكر كثيراً في الأمر، وأغير رأيي في الغالب، أسرعت الخطى تجاه الحراس. أحد الحارسين اللذين كانا يحاولان الوصول إلى العصي رآني من زاوية عينه، واستدار نحوي. فرفعت يدي سريعاً، وتراجعت خطوة إلى الوراء، مدركاً أنه كان يجدر بي أن أصرخ، أو فعل شيء ما لأعلمه بقدومي، بدلاً من أن يبدو الأمر كما لو كنت أحاول التسلل إليه خفية.

قلت له: "إنه صديقي، دعني أخاطبه".

حملق في الحارس، ثم أومأ إليه حارس آخر. وبينما كانا يتراجعان للوراء، كان بيرني يجهش ببكاء متقطع، غير مدرك لما كان يحدث.

دعـــوته إليّ، وســـألته عن حاله. كان يتنفس بصعوبة، و لم يجبني بأي شيء، ولكنه على الأقل توقف عن التلويح بقطعة الخشب التي بحوزته. تحدثت إليه مهدئا مـــن روعـــه، وبينما كنت أقوم بذلك، شرع الحراس في التراجع، وكلما تراجعوا لمسافة أبعد، أضحى بيرني أكثر سكينة وهدوءا. في النهاية، كنت قادراً على المضي بـــه قدما تجاه الباب، وبينما نسير نحو الفناء، همس لي أحد الحراس بأن أوصله إلى المستشفى.

فـــور ما وصلنا هناك، أجلست بيرني فوق سرير صغير. و لم يعد يبدو مهدداً، وإنمـــا حـــزيناً ووحـــيداً، وسرعان ما رقد وألقى بذراعه فوق وجهه. عند ذلك أخرجني اثنان من الحراس، وقال لي أحدهم بينما أعبر الباب: "في المرة التالية، إياك والـــتدخل في شـــؤون غـــيرك". كان درساً جيداً في عدم إظهار التميز على أحد الحراس قط، حتى ولو كان ذلك لمصلحة الجميع.

في الـــصباح تم نقل بيرني إلى شاتاهوشي. لم يكن هناك فرصة ثانية في نظام الـــسجن، و لم اكتـــشف أبدا ما الذي دفع بيرني إلى التقاط قطعة الخشب تلك في المقام الأول، أو إن كان ذلك خطأه. كل ما عرفته أنه حالما لوحظ أنه مثير محتمل للـــشغب، تم إقـــصاؤه إلى سجن أكثر قسوة، مكان من الواضح أنه لا ينتمي إليه بوضـــوح، وبهـــذه الطـــريقة لن يكون على الحراس أن يخاطروا بنقطة سوداء في سجلاتهم إذا ما أثار المشاكل ثانية.

قمـــت بالـــتدريس في جو لاب لمدة شهرين، ثم عملت بغرفة تخزين خارج الـــبوابة الأمامية. وإن كنت تتطلع لأعمال أكثر إثارة، فلا وجود لأي منها. فقد كان العمل الأكثر إثارة في نهاري هو تنظيف أسناني بالفرشاة. لا أدري كيف أنقل لـــك مدى بشاعة ذلك الملل القاسي. تخيل نفسك قابعا في عرقلة مرور سيئة لمدة عام، ثم حاول أن تتصور شخصاً رفيع المقام يدلي بشهادته أمام لجنة الكونجرس عن مـــدى براعة إدارته في العمل على تحريك المرور إلى الأمام، وهو ما شعرت به تجاه

مـــسؤولي السجن الذين يتفاخرون ببراعتهم في إعداد المساجين لإعادة الدخول في العالم الحقيقي.

قـــم بقـــضاء بعـــض الوقت في السجن ولا يعد الارتداد المزمن إلى ارتكاب الجرائم لغزاً.

* * *

بعـــد مضي عام على ترحيلي إلى زيفيرهيلز، تم اطلاق سراحي بعفو مشروط لمـــدة عام. كان يوماً مجيداً بوضوح، ولكنه كان غريباً إلى حدٌ ما، لأنني واجهت مشكلة في اعتياد فكرة أن بإمكاني السير بحرية مستخدما اسمي دون الخوف الدائم من أن يتم اعتقالي، واحتجازي ثانية. بات لديّ إحساسٌ راسخٌ بأنني سألتقي بحفنة من العملاء الفدراليين يحيونني على البوابة الأمامية بتهم جديدة مقدمة ضدي، بيد أن ذلك لم يحدث.

منحني ضباط السجن مائة دولار، معتقدين أنني كنت سأحصل على تذكرة حافلة إلى فورت لوديرديل. ولكنني بدلاً من ذلك استأجرت سيارة تقلني إلى مطار تامـــبا، حيث أعدت فران للحصول على تذكرة سفر مدفوعة مقدماً في انتظاري. تقـــع تامبا على الساحل الغربي لفلوريدا، بجانب خليج المكسيك، حوالى منتصف طـــول الـــولاية، وكانـــت على مسافة طيران ما يقرب من مائتي ميل إلى فورت لوديـــرديل، حيث استقبلتني ابنتي لورا. إنه اجتماع مبهج لشمل العائلة، ثم توجهنا للقيام ببعض الأعمال الروتينية المملة.

أول خطـــوة كانت مكتب السيارات لاستخراج رخصة قيادة جديدة باسمي هـــذه المـــرة. حينما ذهبت إلى الشباك، شرعت الموظفة في جذب نماذج من فوق الرف، وسألتني إن كنت سأجدد رخصتي.

قلت لها: "كلا، لقد انتهت صلاحية رخصتي".

نظرت إليّ في ارتياب من فوق نظارة قراءتها سائلة: "ألم تكن تقود طيلة كل تلك السنين؟"

"كلا".

كان الأمر يزداد إرباكا. وعندما استمرت في النظر إليّ قلت لها: "كنت بالسجن".

قالـــت دون أدنى أثـــر للمفاجأة: "آه"، ثم عادت لجمع النماذج الضرورية، وقالت: "لا بد من أن تجتاز كافة الاختبارات ثانية. ألديك بطاقة هوية؟"

كانت لورا قد أخذت بالفعل شهادة ميلادي من باربارا، وقد منحني السجن بطاقة تأمين اجتماعي برقمي الصحيح مدونا عليها. أجريت الاختبار التحريري، ثم خـــرجت وأجريت اختبار القيادة، وسرعان ما خرجت من هناك بعد ذلك بهويتي الفعلية السليمة لأول مرة منذ سنوات. كم كان غريبا أن يكون عليَّ الاعتياد على عـــدم الـــتفكير بعناية قبل قول اسمي، وسائر المعلومات المحددة للهوية حينما يتم طلبها.

الخطـــوة التالية كانت في متجر ريتشارد ديليسي لهياكل السيارات في بومبانو لجلـــب سيارة فران المرسيدس. كان قد قام بإصلاحها بشكل كامل، وعلى الرغم مـــن رغبتي في التوجه إلى منـــزل بارب ولم أشأ الابتعاد عن لورا الآن، فبعد كل الجهد الذي بذله ديليسي في مهمة إصلاح السيارة، أحسست بالالتزام بالبقاء معه، ومحادثته لفترة. قدمت لورا إليه، ثم أرسلتها إلى البيت.

مـــا كان ديليسي ليقبل بأية نقود إزاء العمل الذي قام به، ولكنه أعلن قائلاً: "لكن لا بد من أن نحتفل باطلاق سراحك"، ثم استل حقيبة من المخدرات. التف حولـــنا بعض الأشخاص، وأشعلوا السجائر، بيد أنني رفضت. كنت أتخيل أنه من الممكن أن يتم اعتقالي بتهمة تجاوز السرعة نتيجة للوقوع تحت أثر المخدر في اليوم نفـــسه الذي خرجت فيه من السجن. لم أرغب حتى في أن اقترب من المخدرات، بـــيد أني لم أرغـــب في إنهاء حفل مقام على شرفي أيضاً، لذا جلست معهم قليلاً. كان ذلك عندما عرض عليَّ ديليسي الانخراط في العملية التي حدثتك عنها سلفا، والتي كان يفترض فيها بكل منا أن يظفر بمبلغ مليون دولار.

قـــال: "عملـــية ضخمة، عملية واحدة وحسب، ثم نكون مؤمنين ماديا للأبد".

قلت له أنني سأفكر في ذلك، وخرجت بأسرع ما يمكن بعد ذلك. بعد مضي ستة ساعات من خروجي من بوابة زيفيرهيلز، كنت أجوب وسط الولاية في سيارة مرسيدس لامعة.

كـــان رد فعل بارب عند رؤيتي ثانية أقل حماساً مما قد كنت أود، ولكن ما كان يجب أن أندهش لذلك. فبادئ ذي بدء حضرت في سيارة امرأة أخرى، الذي بيــنما كـــان مقـــبولا مـــن الناحية المنطقية، ربما لم يكن أكثر الأمور التي رتبتها حساسية. والأهم من ذلك أنه منذ عرقلت حياها للمرة المائة، صارت مرتاحة تماماً لكـــونها تتحمل مسؤولية نفسها، وتدبر أمورها على أكمل وجه. وآخر ما كانت في حاجـــة إليه هو ظهور مثير المتاعب غير المتوقع ليفسد كل شيء مرة ثانية. كما أنها لم تكن في حاجة إليَّ لانتقادي لكيفية حفاظها على المنـــزل، وعلى الرغم من أنـــني بـــذلت جهدا ملموسا كي لا أزعجها، أفترض أنني لا يمكن أن أخفي دائما استهجاني لبعض الأمور. ورغم أنها ربما كانت شديدة الانـــزعاج، إلا أنها لم تصر على تذكيري أننا كنا مطلقين الآن منذ أربع سنوات، و لم يكن من شأني أن أتدخل في كيفـــية تدبيرها للأمور. سواء كنا متزوجين، أم لا فلا يمكن إنكار أنني ما زلت أمثل أهمية كبيرة في حياها.

لا يعـــد العفـــو المشروط جواز مرور حر بسيط من السجن، بل إنه يشمل العديد من الشروط. كان العفو المشروط لفران مثلا يشترط عليها عدم التمكن من رؤيتي. لم يكن هناك شيء في إمكانهم عمله لي إذا ما ضبطنا معاً، لكن فران كان مـــن الممكن أن ينتهي بها الأمر إلى السجن. في ظل ظروف أخرى، قد تبدو مثل تلك القيود ليس فقط قاسية، بل وغير أميركية تماماً، لأن هناك القليل من المواقف فقط في هذه الدولة تسمح للناس بالتدخل بتطفل زائد في الحياة الشخصية للآخرين دون اتخاذ بعض الإجراءات الملائمة. ولكن بالمفاضلة بين تلك القيود المثيرة للجنون أحيانا، وبين كونك في السجن، فإن الأمر يكون هينا.

كـــان من ضمن الشروط الأخرى أن أقيم بمنـــزل شقيق بارب الأكبر في هوليود. وكان هذا شرطا غريبا على الرغم من ذلك، لأن لجنة العفو المشروط على ما يبدو لم تملك وقتا كافيا لاكتشاف أنني وبوب قد تم إلقاء القبض علينا معـــاً منذ سنوات لمحاولة السطو على محطة بنـــزين. أتساءل إن كانوا سيقرأون هذا، ويعلمون أنهم أمروا المفرج عنه بعفو مشروط بالعيش بصحبة شريك سابق في الجريمة.

لم أكـــد حتى أن أصل إلى باب مسكن بوب حتى أدركت أن كل ذلك لن يجدي إطلاقاً. تباً لشروط العفو. لقد كان ولداه يقيمان معه، وكانا كلاهما جانحين للغاية. فمع وضع مشاكلهما الأخرى في الاعتبار، كان تدبير المنـــزل يأتي في أدنى قائمـــة الأولويات في موضع ما أسفل التمرن على الإنشاد. كانت هناك سيارات خردة منثورة في كل أرجاء ممر السيارة والفناء، وبدا المنـــزل ذاته وكأن شخصاً ما قـــد قاد بلدوزر إلى الخارج، ثم طرح قنبلة يدوية على المدخل. والآن أقر فعلا أنني مجـــرم مـــدان، لا شخص من حقه انتقاد الآخرين قليلاً، بيد أنني كنت دوما أهتم بأناقتي الشخصية، وقد أبلغتك سلفا كم كنت أعجوبة في أعمال الصيانة متى تعلق الأمـــر بالمساكن. وبالرغم من أنني نمت في بعض من أسوأ المساكن التي يمكن أن توفرها ولاية فلوريدا، إلا أن هذا المكان أصابني بالغثيان. كان الطلاء يتساقط من كـــل مكان، وحتى بلاط الأرضية القذر كان ينخلع ويتجعد. هل كانت هذه هي المديـــنة الفاضلة التي حلمت بها كل ليلة لعام كامل؟ لقد كانت زنـــزانتي الفردية الصغيرة أكثر نظافة منها، وأقل ضجيجاً.

كانـــت نهايـــة قذرة ليوم كريه. في السجن تمضي أغلب أوقاتك متصورا كيف سيبدو عليه الحال حينما تخرج، ورغم حتى إنك لست غبيا، أو ساذجا، وتـــدرك أنه لن يكون بالضبط مثلما تذكره، فلا تزال تعلم أنه سيكون عجيبة الدنـــيا الثامنة مقارنة بالسجن. بالداخل، يملي عليك الناس متى تستيقظ، ومتى تأكـــل، ومتى تخلد للفراش، بل وأحيانا متى تقضي حاجتك. إنك تتحرق شوقا لحـــرية اتخاذ خياراتك حيال أمور صغيرة، لدرجة أن التفكير في شيء سخيف مـــثل الـــتمكن من السير إلى داخل مطعم الوجبات السريعة بالسجن، وطلب بيرجـــر كفـــيل بجعلك تشعر بالدوار. ثم أخرج بالفعل، وأكتشف أن زوجتي السابقة ليست سعيدة برؤيتي، ويُطلب مني الإقامة بمسكن بغيض. لا أزال أتذكر تفكـــيري، كيف سيكون الأمر بالنسبة للأشخاص الذي يطلق سراحهم، وليس لـــديهم مـــن أحد، أو شيء يعودون إليه؟ لا عجب أنهم يواصلون العودة إلى الـــسجن. فماذا تتوقع حينما توفد محتالين سابقين إلى البيئات نفسها التي زجت بهم في المتاعب في المقام الأول؟

كان مفروضاً أن أقدم نفسي إلى ضابط المراقبة خلال أربع وعشرين ساعة من اطـــلاق سراحي، وقبعت يقظا طيلة الليل متهيباً ذلك اللقاء، مما شتت ذهني على الأقـــل عن حظيرة الخنازير التي كنت أقبع فيها. كيف سيبدو ضابط المراقبة؟ هل ســيكون مـــستغرقاً في عملـــه بدرجة تمنعه من الانتباه إليَّ، مما سيكون نعمة، أم سأحصل على أحد رؤساء حفظ النظام غير مأموني الجانب، والذين أحبوا التسيد على الناس الذين لا يملكون المقاومة؟ من هذه النقطة بدأ ذهني يقفز إلى كافة تلك المشاكل الجديدة التي قد أواجهها، وأتذكر شدة قلقي وقتها، حتى إنني بدأت أفكر في كم كانت الحياة أسهل في السجن حيث قايضت ألف مشكلة صغيرة بهم هائل ليس بمقدورك فعل شيء حياله، فلِمَ القلق إذن؟

كـــان لـــديّ ورقة رابحة بيدي، وهي أن لديّ بالفعل وظيفة تنتظرني، وهي مـــندوب مبيعات لشركة برودواي بريهانج دور. كان من يملكها هو بيل ويللينج بعيـــنه الـــذي كان يثير الجلبة الحقيقية حينما دعاه ضابط إخلاء السبيل المشروط للتعرف عليَّ. وبالنسبة لضابط المراقبة، فكون المفرج عنه بعفو مشروط لديه وظيفة جـــيدة، فـــإن هذا أفضل شيء يلي دخوله في الكهنوتية. كان ذلك هو الأسلوب المثالي لإبعاد ضابط المراقبة عن قضيتك، وقد كان همي الوحيد فيما يتعلق بهذا الأمر هـــو هل سأتمكن من النجاح في خداع الرجل لكوني بعيداً عن ممارسة المهنة لفترة طويلة، وكذلك لعدم وجود تلك الوظيفة في الحقيقة.

في الصباح التالي لبثت نصف ساعة في انتظار هذا اللقاء محاولاً عدم إظهار انـــزعاجي. فكرت في إبلاغ ضابط المراقبة أنني حصلت على وظيفة، بيد أنني كـــنت علـــى وشك أن أطرد منها لأنه أخرني، لكن هذا لم يكن وقتاً مناسباً للتذاكـــي. لقـــد عرفت أساليب اللعبة: كان عليك أن تبدو مستقيماً، وشديد الأســـف، ومحترماً، على الرغم من أن الجميع في نظام السجن يعلمون أن ذلك هراء.

وأخيرا، خرج ذلك الحقير، ودعاني إلى مكتبه. وهناك كان يقبع أمامه الملفان الخاصان بي بعنوان "خطر الهروب"، و"جريمة منظمة". لم استطع أن أصدق أن تلك الأشـــياء اللعيـــنة كانت لا تزال بتلك العناوين نفسها، ولا سيما الجريمة المنظمة.

افترضت أن بإمكاني فهم عنوان "خطر الهرب"، فعلى الرغم من أنني لم أهرب قط، فإنني لم أظهر نفسي تلك المرة الوحيدة.

دون أن يـتفوه بـسؤال واحد عن حالي، بدأ هذا الرجل بقراءة مؤثرة عن حـدث الـشغب، محـذرا إياي بشأن مدى الاستقامة التي يجب أن أكون عليها، وكـيف يجـب أن ابتعد عن المشاكل إلى آخره. وكلما استرسل في الكلام، زاد شعوري بأنني أفضل حالا، فعلى الرغم من أن كلامي قد يبدو غريبا، إلا أنه يسهل خـداع مـن هـم مثله من الأشخاص. فمثل ذلك النوع يكون متباهيا، مدعي للمعرفة، وأهم شيء بالنسبة له أن يشعر بأهميته. لذا فقد حاولت أن أبدو خاضعاً ومتأثراً، وأومئ بالموافقة مراراً وتكراراً بينما أصغي بانتباه بالغ، متعلقا بكل كلمة من كلماته. وعندما ازداد قوة، حملقت فيه، وانتهزت الفرصة كي أكون رأيا أفضل عـنه. كانـت ثمـة ملفات مكدسة بكل مكان، والتي أنبأتني أن هذا الرجل على الأرجح يغرق نفسه في العمل بشكل سخيف، وليس لديه وقت للتعمق في الموقف الخـاص بكـل عميل. كنت سأبلغه بالوظيفة، وعن مدى احتياجي للقيام ببعض السفريات لأجلها، لكني أحسست أنه لا يرغب في تولي عمل، أو أن يفكر بشأن أيـة تفاصيل تزيد عما هو ضروري، وأن أفضل سياسة انتهجها هي أن أكون أقل تدبيرا قدر الإمكان، لذا فقد لزمت الصمت، وداومت على الإيماء.

عـندما خرجت إلى الشارع قررت أن لم يكن هناك من سبيل لقضائي ليلة أخرى بمسكن بوب، لذا فقد خاطرت بإبطال عفوي المشروط بالنـزول في فندق صـغير أمـام الشاطئ. خلت أنه من المستبعد أن يقوم ضابط مراقبتي المستغرق في عملـه بالتحري عني، بيد أني اتصلت ببوب وأبلغته أن يقول أنني خرجت في حال أتى أحدهم يسأل عني، وهو ما لم يحدث قط.

خـلال الأسابيع القليلة التالية قمت بالكثير من الأعمال في منـزل بارب، وكانـت أغلـبها أعمال نجارة وطلاء. إنها أحد الأشياء الوحيدة التي فكرت فيها لمحاولة تخفيف ما أحسست به من الذنب، كما إنها أتاحت لي أيضاً قضاء المزيد من الـوقت مع لورا. كان مارك في الجامعة، وكانت سوزي في جنوب أفريقيا، ولكن لورا كانت بالمدرسة الثانوية، ولا تزال تقيم في المنـزل.

رغم أنه لم يكن مسموحاً لي أنا وفران بالتلاقي، فلم يكن هذا الشرط مطبقا على والديها، اللذين كانا في فلوريدا. كنت أحبهما كثيراً، ورغم أنني أدركت كم كانت المخاطرة الانفعالية التي كنت أقوم بها، فقد قررت أن أتصل بهما. مما أثار دهشتي - على الرغم أنه كان يجب ألا أدهش فعليا نظرا لمعرفتي قبلاً بهما - كانوا في منتهى التحضر في معاملتي. فيما بعد اجتمعنا معاً، وشرعنا في التلاقي بانتظام لتناول الإفطار. وكانت محادثتي لوالد فران عن العقارات والعمل يجعلني أشعر أنني طبيعي تقريباً.

بعد ذلك بشهر، حان موعد مثولي أمام ضابط المراقبة ثانية، ولكنه لم يكن الشخص السابق نفسه. فقد كان الضابط الجديد شابة مكتنزة غير معتادة على التعامل مع رجال رقيقي الحديث، تم إبراء ساحتهم، وقبولهم في مجتمع مهذب. بعد حوالى ثلث ساعة من الممازحة العرضية، والكثير من الابتسامات الودية، بدأت أتساءل عما إذا لم يكن هذا ربما الوقت المناسب للحديث عن السفر لأجل عملي، عندما سألتني فجأة:

"كيف هي الأحوال بالعمل؟"

قلت: "إنها على ما يرام"، ثم أطرقت بوجهي، ونظرت إلى حذائي قائلاً: "فقط...".

"فقط ماذا؟"

"لدي فقط مشكلة صغيرة"، ثم هززت كتفي في لا مبالاة قائلاً: "لا تشغلي بالك بها".

بيد أنها أصرت قائلة: "ربما أمكنني المساعدة، فلدينا بعض النفوذ في مضمار الأعمال المحلية".

"الأمر وما فيه، أنني أبيع لهم، وأبلي بلاء حسنا، لكنهم يريدونني أن أسافر. ويقولون إن مندوب المبيعات الذي لا يتمكن من الذهاب إلى حيث توجد الزبائن ليس فيه نفع كثير، و.." لوحت بيدي حول الغرفة، أقصد أن يستوعب كلامي نظام العفو المشروط بأكمله - "مع وضع كل ذلك في الاعتبار، وكل...".

"حسنا، تباً، ليس هناك مشكلة".

نظـــرت إليها محدقا، وكلي دهشة، وارتباك قائلاً: "حقا؟ ولكني اعتقدت – أعني، أنني من المفترض أن أبقى...".

"ظفـــرت بوظـــيفة بارعة، وتحاول الحفاظ على حسن سلوكك؟" ثم لوحت بـــيدها أمامـــي، وفتحت أحد الأدراج، وشرعت في البحث عن شيء ما قائلة: "مستحيل أن نعرقل ذلك".

راقـــبت بيـــنما عثرت على ما كانت تبحث عنه، وهو القليل من النماذج. بـــدأت في الكتابة عليها، وقالت "سأمنحك بعض الرخص التي تسمح لك بالسفر من أجل العمل، ولكن في الجزء الشرقي من البلاد فقط، اتفقنا؟"

أبلغتها أن ذلك سيكون رائعاً، ومضيت إلى الخارج ومعي الرخص التي يمكنني أن أريهـــا للـــشرطة إذا ما حدث، واستوقفوني، ووجدوا اسمي مدرجاً في مركز معلومات الجريمة القومي.

في الـــيوم الـــتالي كنت راحلا إلى كليفلاند لملاقاة فران، وسرعان ما حددنا روتين للقاء. في كل شهر أصل إلى أوهايو، وألبث معها لأسبوع، أو اثنين. كانت مـــا تزال في فترة المراقبة، لذا فحتى مع حريتي المكتشفة حديثا استمر الخطر بالنسبة لنا أن نقضي كل ذلك الوقت معاً في كليفلاند، ولكي لا تتم رؤيتها بصحبتي، لم أكـــن أبرح المنـــزل قط، وكان الزوار الوحيدون الذين نستقبلهم هما بيل ويللينج وكاتي. ثم كنت أتوجه عائدا إلى فلوريدا لأملأ تقاريري الشهرية المختلقة، وأجدد رخـــص ســـفري، وأرى لورا. أحيانا كنت أتوقف في تالاهاسي لزيارة مارك في الكلـــية، أو في فرانكلين، في ولاية تينيسي، لرؤية خالتي التي انتقلت إلى هناك بينما كنت بالسجن.

عقب بضعة تكرارات لهذا الروتين، قمت باستئجار شقة صغيرة من حجرتين في نـــيو ريفر بشكل أسبوعي، وداومت على الانتظام في السفر إلى فلوريدا جيئة وذهابـــا، بينما نضيع الوقت في انتظار انتهاء فترة مراقبة فران. كنا نفكر أن ننتقل بعد ذلك إلى مدينة نيويورك، ونتوارى داخل ذلك العدد الهائل من السكان.

عقـــب بـــضعة شهور من اطلاق سراحي، اتصلت سوزي قائلة أنها قد تمت خطبـــتها، وتـــزمع الزواج في جنوب أفريقيا. أرادت أن نحضر أنا وبارب، بيد أن

المسؤولين عن العفو المشروط الخاص بي رفضوا مبارحتي البلدة. وكانت لورا بالمدرسة، ولا تستطيع الذهاب، لذا عرضت أن ألبث معها وتركت بارب تذهب لحفل الزفاف بمفردها. خلال هذين الأسبوعين، أمضيت ولورا وقتاً رائعاً، وبينما كانت بالمدرسة وقت النهار، نجحت في إعادة طلاء المنزل بالكامل من الداخل، وباشرت الاعتناء ببعض الإصلاحات المستلزمة - كنت أحاول التعويض بكل سبيل ممكن.

لو تلاعبت بالقواعد، في العادة "ينحيك" مجلس العفو المشروط مبكرا، ولكن بدا أن هذه المجموعة لم ترغب إثارة حنق أي سلطة قانونية عليها، لذا تركوني تحت المراقبة العام بأكمله. ثم تم إعلان إعادة تأهيلي، ومنحت اطلاق سراحي الدائم. كنت ما أزال أعيش على ما كسبته من السرقة، وكنت في سعادة هائلة أنني لم أتورط في تلك الصفقة مع ريتشارد ديليسي، الذي كان يقبع بسجن مقاطعة بولك بلا كفالة في الوقت نفسه الذي انتهى فيه عفوي المشروط. وليس معنى هذا أن فكرة "القيام بسرقة كبيرة واحدة" لم تكن تجول في مكان ما برأسي.

إن العادات القديمة لا يتم التخلص منها بسهولة. فقد شرعت في كل يوم أقضيه في فلوريدا في الذهاب إلى مكتبة قريبة، وشراء الصحف جميعها الخاصة بفورت لوديرديل، وميامي، وبالم بيتش، ونابلس. وبينما أحتسي القهوة، كنت أتفحص بعناية صفحات المجتمع، مثل الأيام الخوالي، ولكن لمجرد التسلية الآن. ووجدت بضعة أشياء بدت مثيرة للاهتمام بشدة، ولكن فيما يجاوز المطالعة، لم أباشر أي من الأنشطة البحثية المعتادة لرؤية ما إذا كانت إحداها تفي بغرض العملية الكبرى الأخيرة. ومع وضع كافة الاعتبارات الأخرى جانباً، فقد كنت الآن معروفا تماماً لدى السلطات المحلية على الساحل الشرقي لفلوريدا.

طبعاً، كانت نابلس على الساحل الغربي.

24

لا مزيد من السرقات

تقـــع نـــابلس على خليج المكسيك، ويعتبرها الكثيرون جوهرة التاج بالنسبة لجـــنوب غربي فلوريدا. ونظرا لأنها مقر مقاطعة كولير، فإنها تعد ملعباً للموسرين الـــذين يتـــباهون على لاعبي الجولف في البلدة بأسرها بامتلاكهم لأعلى نسبة من ســـاحات الجولف. كما أن بها مواقع صيد مبهرة، ومراكز تسوق رائعة، وشواطئ نقية، وهي نقطة بداية ملائمة لزيارة إيفرجليدز. تأسست المقاطعة عام 1923 على يـــد رجل الأعمال البارون جيفت كولير، وبدا أن اسم العائلة يظهر في كل مكان أذهب إليه.

كان من الأماكن التي ظهر فيها الاسم كثيراً صفحات المجتمع الخاصة بنابلس وذلك في صورة سيدة لم أعد أذكر اسمها بعد الزواج، ولكنه كان جزءاً من أسرة كـــولير. لم يكـــن هناك حفلٌ، أو حفل رقص، أو مهرجان خيري قرأت عنه لم تحضره السيدة، وكانت معظم قصص الصحيفة تحوي صورة لها على الأقل، وهي تـــرتدي الكـــثير من الحلي. استطعت أن أشعر بالأفكار القديمة تتدفق إلى عقلي، ولكـــني لم آخذها على محمل الجد، لأنني، مع كل هذا، كان قد تمّ إعادة تأهيلي. ومع ذلك، أزمعت القيام بجولة في المكان لمجرد أن أتشمم الأخبار، وأرى شعوري عند تقييم الهدف المحتمل من جديد. لمجرد المزاح وحسب، بالطبع، ولأرى إن كنت سأتحلى بالشجاعة لو كان الأمر حقيقيا، لأنك لا تدرك فعليا ريثما تكون بالموقع.

حيـــنما وصلت إلى نابلس، كان أول توقف لي بالمكتبة العامة لإلقاء نظرة على صـــديقي القديم دليل المدينة. عثرت على السيدة التي كان اسمها مدونا هي وزوجها

كمقـــيمين في بناية شاهقة تقع فعليا في جزيرة ماركو، أقصى شمال جزر تن ثاوزاند، والتي كانت شبيهة بجنة شبه استوائية أكثر من نابلس، وعلى مسافة اثني عشر ميلا إلى الشمال. كان مدونا بالدليل الصغير السهل الاستعمال رقم جناحهما، وأرشدني القليل من البحث إلى أسماء، وأرقام أجنحة كل جيرانهم أيضاً. ثم انطلقت إلى جزيرة ماركو.

كانت البناية شاهقة الارتفاع بشكل هائل، تتكون ربما من ستة عشر طابقاً، ومـــن خلال رقم الجناح الذي حصلت عليه كانوا يقيمون في مكان ما قرب قمة المـــبنى. كـــان المبنى يواجه خليج المكسيك، وكان هناك فندق ضخم، خيالي على مسافة بنايتين تقريباً، وهو أمر ممتاز، لأنه كان هناك الكثير من المارة داخل المكان وحوله. وكما هو الحال في منتجعات فلوريدا البديعة، كانت المنطقة تزخر بالعديد مـــن الفـــنادق المنخفـــضة التكلفة. أقمت بواحد منها على مسافة ميل في وسط الطريق، مفكراً أنه ربما أعود ثانية، وأرى كيف يبدو المبنى عقب حلول الظلام.

لبـــثت في الغرفة لبقية فترة العصر دون تفكير، وهو أمر من الغريب فعله في مكـــان جمـــيل كهـــذا. بيد أنني لم أرغب في التجول، والتعرض لفرصة ملاحظة شـــخص مـــا لوجهي. أحسست وكأنني مخدر وأنا مستلقٍ هكذا، حيث إن تلك الرحلة بأكملها مجرد فكرة سخيفة في المقام الأول، ولكن، كما قلت، فإن العادات القديمة يصعب التخلص منها. ومع ذلك، فقد انتهكت إحدى تلك العادات عندما حملت أدوات المهنة معي. وقد اعتدت ألا أقلق بشأنها، لأنني كنت أعمل في إدارة العقارات، ويمكنني أن أن أختلق عذرا لحمل كثير من الأدوات، بما فيها أداة معالجة الأقفـــال، كأشياء ضرورية لوظيفتي. وعلى الرغم من ذلك، فإنني الآن أعمل كما هـــو مفترض على "الأبواب قبل تعلقها"، بل كنت أبيعها، لا أصنعها، لذا سيكون مـــن الـــصعب تفسير حمل أدوات مثل المناشير، والأزاميل. وكان كل ما بحوزتي مفكاً، وقفازاً قديماً، وبطارية جيب.

حـــل الليل وكانت الليلة غير مقمرة. ولا أذكر إن كنت قد خططت لذلك، أم أنه كان مجرد حظ. قدت عائدا، وأوقفت السيارة بساحة الفندق، والتي كانت مكتظة تماماً، ثم مضيت إلى الشاطئ، وقمت بجولة عارضة صوب البناية الشاهقة. فـــور مـــا وصلت إلى هناك، استدرت إلى البر مجتازا حمام السباحة، ومتجها إلى

الأمـــام. وكـــان مما أثار دهشتي عدم وجود بواب، بل مجرد وسيلة اتصال تلفوني داخـــل المـــبنى مع نظام إصدار الطنين. أبطأت الخطى قليلاً، وأنا أحاول استيعاب كافة التفاصيل، بيد أنني لم أتوقف عن السير. وفي الوقت الذي وصلت فيه إلى باب الـــردهة الزجاجي، أخرجت مفكي. وبضغط بسيط من المفك على جهتي عضادة الباب تحرر المزلاج، وانفتح الباب بسهولة. قمت بفحص عاجل لدليل الردهة، ثم استقليت المصعد متجها لطابق السيدة، الذي هو حقاً في أعلى القمة.

ثمة جناح آخر مواجه لجناحهم عبر الردهة، لكن ما من أجنحة أخرى بالطابق، لذا أخمن أن تلك الوحدات السكنية ضخمة. تبدو الأقفال المعلقة على الباب منيعة، لا ســيما وليست معي أية أدوات، لذا يجب أن أصعد الدرج ميمما شطر السطح، الذي لم يكـــن موصدا بالطبع، لأحظى بمنظر إجمالي لرواقهم. حينما خرجت في هواء الليل الطلـــق، أدركت أنه مضى وقت طويل منذ أن كنت بذلك الارتفاع الشاهق في عنان الـــسماء دون طائرة تحوم فوقي. إنه لشعور يصيب بالدوار، بيد أنه يثير النشوة عندما أنظـــر إلى أســـفل من ارتفاع حوالى مائة وسبعين قدماً (51 متراً)، وقد بدت أضواء جزيرة ماركو مبهرة مقابل عتمة السماء، والظلمة الأكثر شدة للخليج.

كـــان الـــرواق الذي يقع أسفلي بحوالى عشرين قدماً (6 أمتار)طولاً، وقد تغطت المساحة كلها تقريباً بطنف خرساني، تاركة السياج الأمامي فقط مكشوفاً. كانت الكتلة الناتئة على بعد أربعة أقدام (120 سم)فقط من حيث أقف، وبالتالي فلم تكن تلك مشكلة على الإطلاق. فعلي أن أقفز فوقها، ثم استخدم حبلا لأتدلى عـــن طريقه إلى الرواق. أمر يسير جداً بالفعل، فيما عدا أنه ليس معي حبل، وهو أمـــر مخزٍ، وتحدٍّ، وفجأة شرع ذهني في العمل سريعاً. هل أعود أدراجي إلى الطابق السفلي وأبتاع حبلا؟ حتى لو أمكنني العثور على حبل من النوع المناسب في ذلك الوقت من الليل، فإن ابتياع واحداً سيبدو مثيرا للريبة، وهناك احتمالات كبيرة أن يتذكرني البائع، أو موظف الخزينة إذا ما تم الإبلاغ عن جريمة سطو بالمبنى الشاهق في اليوم التالي. في إمكاني دائما العودة في وقت لاحق، بيد أن ذلك يعني أنني عدت إلى ممارســـة السطو جيد التخطيط، وهو أمر لست مستعداً للاعتراف لنفسي به. كلا، ربما كان هذا ممتعاً، بيد أنه انقضى الآن.

إشـــارة أو لا إشـــارة، فما زلت محترفا، لذا عدت صوب الدرج، ومنه ـــصعد بأســـفل، ثم إلى خارج الردهة، وصوب الشاطئ. بالنظر إلى أعلى رأ معظم السكنية بأسرها غارقة في الظلمة. جلت حول المبنى، ومنه إلى الشارع، ـــيت نظرة أخرى إلى أعلى، وتبينت أن الوحدة السكنية عبر البهو مظلمة أيض كذلك الوحدات أسفل السطح على كلا جانبي البناية.

عـــدت إلى الفـــندق الكـــبير، واستخدمت هاتف الردهة العمومي للاتص فمهم، وتركته يدق عشر مرات قبل أن أغلق الخط، وأتصل ثانية، متفحصا ـ تم بعناية، ولكن لم يكن هناك من مجيب.

الآن بــدأ يتملكني الغباء فعلا، ويحدوني شعور بأنني أزداد غباء، لكن ما من شيء يوقف ذلك الإحساس.

كــنت أفكــر: لا تــزال الساعة الآن حوالى التاسعة، لذا فمن المحتمل أنهم سـيظلون بالخــارج لساعتين إضافيتين، أو ربما ليسوا حتى في المدينة من الأساس اللــيلة، وإذا استطعت وضع ذلك السلم بطريقة ما، فربما لا أحتاج إلى حبل، وإذا كان باب الرواق موصداً، فسوف يفتحه المفك، وإذا حدث وعادوا إلى المنــزل، فيمكــنني أن أتسلق السلم، وأجذبه إلى أعلى خلفي، قبل حتى أن يعلموا بوجود شــخص مــا هناك، ولكن لو نجح كل هذا، فمن الممكن أن تكون غنيمة رائعة، وسوف أعود محملا بثروة طائلة، وستكون هذه بالفعل آخر عملية سطو كبرى...

لا شــيء يــضاهي الخطة المدروسة جيداً، والمخططة بعناية. إن الاندفاع في الــتفكير يجعلني متوتر الأعصاب، لأن جزءا مني ما زال عاقلاً، ويعرف تماماً مدى عــدم معقولية وحماقة الجانب الآخر، لكنه لا يزال مجرد لهو، وأرغب في الاستمرار في دفع نفسي وحسب لأرى ما سيحدث. يمكنني إلغاء العملية في أي وقت أريده، والعودة ثانية فيما بعد بالأدوات المناسبة.

أعــود بالأدوات المناسبة؟ فيم عساي أفكر؟ بحق السماء لقد تم إعادة تأهيلي وإصلاحي.

حسناً. سرعان ما عدت إلى أعلى السطح، وأنــزلت السلم بعناية إلى الطُّنُف البارز (الكتلة الناتئة) فوق الرواق، ثم قفزت وراءه، وسرت إلى الحافة، ونظرت إلى أســفل. كان الرواق الذي هو أبعد مدى مما توقعت، يبرز من المبنى بمسافة قدمين (60 سم) تقريباً أكثر من طول الطنف الذي أقف عليه. ويمكنني أن أرى أنه مغطى بقــرميد ذي مظهر زلق، بيد أن قائمتي السلم كانت لهما قاعدتان مطاطيتان ربما تحــول دون انــــزلاقه. كما أن هناك سياجاً واقياً يمكن إلصاق قائمتي السلم فيه حيث يلتقي بالأرضية المصنوعة من القرميد، مما سيحول دون تحرك السلم.

عــدت أدراجي لجلب السلم، وقمت بأرجحته فوق حافة الطنف، ثم بدأت بتدليته. كنت أحاول أن ألا أعير انتباهي للممر الأسمنتي الذي يبعد عني بمسافة ستة عــشر طابقا إلى أسفل، وهو أمر عسير، لأنه لكي أمنع وزن السلم من الانــزلاق

بي إلى أسفل، فعلي أن أربض على نحو غير مريح فوق حافة الطنف تماماً. ولا يمكنني تثبيت نفسي بيد واحدة أيضاً لأنني أحتاج لكلتا يدي لخفض السلم درجة بدرجة، وفجأة واجهتني مشكلة حقيقية: يبدو أن الطنف يرتفع فوق الرواق بشكل أكبر مما افترضت. ففي الوقت الذي أمسكت فيه بالدرجة العلوية للسلم فقط، لم تكن الدرجة السفلية قد لمست الأرضية بعد. لم يكن هناك منطق في إنزاله إلى مدى أبعد؛ لأنه لن يكون هناك شيء لإسناد قمة السلم إليه إذا ما أنزلته إلى أسفل حافة الطنف. ربما تكون تلك إشارة من الله.

كنت رابضاً هناك، ومعلقاً بذلك السلم غير المجدي، حينما قفزت إلى ذهني واحدة من أغبى الأفكار التي واتتني طيلة حياتي. ربما لا يصل أسفل السلم إلى سطح الرواق، لكنه سيدرك قمة السياج الواقي، وحيث إن ذلك السياج يزيد بروزاً على السطح الذي أقف عليه بمسافة قدمين (60 سم)، فسوف يكون للسلم مكان يستند إليه، ويستقر عليه، ولكن لا بد من أن يميل السلم قليلاً لكي يثبت توازنه، ولكن ليس ذلك مكاناً كبيراً، مما سيجعل أسفل السلم عرضة للانزلاق من فوق السياج. ربما سيعين تحميل وزني عليه في تثبيت قائمتي السلم فوق السياج. بالتأكيد، تلك فكرة رائعة.

كنت أمسك بالسلم فوق الحافة بيد واحدة، وذراعي الأخرى ممتدة إلى الوراء تجاه المبنى لأوازن نفسي، وقد حاولت أن أستند إليه قدر ما أستطيع دون أن أميل. وكان هذا كافيا لوضع قاعدة السلم فوق السياج، فأنزلته ببطء حتى لامس الأرض، ثم أرخيت ذراعي لأحمل بعض من وزن جسمي على السياج. وعندما لم أعد ممسكا بالسلم، بل أوازنه فقط، أزحته إلى الأمام قليلاً لأتأكد من رسوخ قاعدته بثبات، ثم دفعته إلى أسفل، وهززته أكثر لأختبر كفاءة تثبيته، ثم تركته يستند إلى حافة الطنف بالقرب من ركبتي، وأفلته. حتى الآن كل شيء يسير على ما يرام.

نهضت. وبوضع إحدى يدي فوق الطنف، والأخرى فوق السلم، تأرجحت بساقي، واستطعت وضع إحدى قدمي على الدرجة الثالثة بأعلى السلم، وحملت القليل من وزني عليها. بدا أن السلم مثبت جيداً، لذا فقد التفتت قليلاً، وصرت

الآن أقـــف بكلتا قدمي على درجة السلم. كنت لا أزال أستند بيدي على حافة الطـــنف، بينما أتخذ خطوة إلى أسفل، ثم خطوة أخرى، ثم أتشبث بالطنف بكلتا يـــداي. لا أخطط لإفلات قبضتي عن تلك الكتلة الأسمنتية ريثما أضطر إلى ذلك تماماً.

نـــــزلت خطـــوة ثانية إلى أسفل، ثم أخرى، ثم صارت يداي فوقي الآن، فاتخـــذت خطوة أخرى، وأخيرا، أفلت يدي عن الطنف، ولكن هكذا، ودون أي مـــبرر ظاهري ترنحت قمة السلم على الجانبين، وفي الوقت الذي أدركت فيه أن إحدى قائمتي السلم قد انـــزلقت عن السياج، كنت أترنح على الجانبين، ثم أسقط إلى أسفل.

كان السلم يسقط، وأنا فوقه.

دون تفكير أفلت السلم من يدي، ومددهما محاولاً الوصول إلى الشيء الوحيد الثابت الذي تطاله يدي، وهو حافة الطنف، والذي يعلوني الآن. استطعت بالكاد أن أصـــل بأصـــابعي إليه حينما ارتطم أعلى السلم بيدي، وقد كاد الألم الشديد يفقـــدني قبضتي على الأسمنت. كنت أتأرجح بشدة إلى الأمام والخلف بينما يرتد السلم بعيداً عني ليختفي فجأة. كنت أتشبث بأناملي حينما سمعت الصوت المقزز لطقطـــة المعدن، ونظرت من فوق كتفي، وعندها أدركت أنني طرحت حتى الآن إلى الجانب بحيث لم أعد فوق الرواق. كانت قدماي تتدليان فوق ستة عشر طابقا في الفـــضاء، ورأيـــت السلم أسفلي يرتد بشدة أسفل الرواق بطابقين، ليلتف في اتجـــاهين في وقت واحد، ثم يتحطم داخل رواق آخر بصوت أعلى دويا، ثم يتبعه صـــوت أعلـــى، وأعلـــى، ثم بالحركة البطيئة يقل الصوت شيئاً فشيئا بينما يلف كالشفرة حتى يصطدم في النهاية بالممر الأسمنتي، وتتطاير أشلاؤه في كل اتجاه محدثا دويا كنت على يقين من إمكان سماعه في ميامي.

كانت فكرة واحدة تتردد داخل رأسي: *كان من الممكن أن أكون أنا الذي أســـقط*. كانـــت الصورة تشل الحركة، لكن ليس هذا بوقت إعاقة الحركة. لذا ناضـــلت الفـــزع، واســـتجمعت قواي ريثما تمكنت من طرح ساقي فوق حافة الطنف، وتسلقته سريعاً بالاستعانة بها.

لا أظنني كنت أكثر تعرضا للضرر من قبل، فلم يمكنني حتى النهوض، لكنني كنت أقبع هناك وحسب، رغم معرفتي أن كل تلك الضجة كانت ستجعل العديد من الناس يهرعون إلى المكان. كنت أشعر وكأن أطرافي مرتخية كالحبال، وكان رأسي يدور بشدة بحيث كنت أتذكر بالكاد أين أنا. ناضلت لأفكر بوضوح، ونهضت في النهاية، وتسلقت الأقدام الأربعة وصولا إلى السطح الرئيسي، وسرت مترنحا إلى الدرج، ولكنني واصلت المضي هذه المرة بدلاً من استخدام المصعد. لم أكن أود أن أعلق إذا ما حدس أحدهم أن الضجيج قد صدر عن خلل في المصعد، وقررت فصل التيار الكهربي.

بعد أن نزلت ما يقرب من خمسة طوابق، أتت امرأة شابة، ورجل مسن عبر المدخل، ومنه إلى الدرج.

قال الرجل في انزعاج: "ماذا كان ذلك؟ ماذا كان هذا الصوت؟"

قلت له: "ليست لديّ فكرة. يبدو وكأن شيئاً ما هوى من إحدى الشرف".

قالت السيدة "أعتقد أن الصوت آتٍ من جهة الخليج".

أومأت برأسي، وهرعت هابطا الدرج أمامهما. كان هناك حوالى اثني عشر فرداً يتحركون في الردهة، ويحملقون من خلال المدخل الزجاجي، وهم يخشون الخروج.

قلت بينما كنت أمشي تجاه الباب الأمامي: "أعتقد أن الصوت صدر من الجهة الأخرى. سأذهب لتحري الأمر".

دوت أصوات عديدة تقول: "توخَّ الحذر!"

أجبت بشجاعة: "سوف أفعل"، واتجهت إلى خارج الباب، وسرت حول مؤخرة البناية، وواصلت المسير إلى الشاطئ ريثما بلغت الفندق، وعثرت على الحانة، وتجرعت كأسين من المشروب المفضل قبل حتى أن أستقر بثبات على مقعد الحانة.

فقط بعد ما هدأت ثورة أعصابي، خطر ببالي أن ذلك السلم ربما كان إشارة من الله على كل حال.

* * *

أنهت فران فترة مراقبة أخيراً، وانتقلنا إلى مدينة نيويورك لبدء حياة جديدة.

كـــنا نعـــيش بشكل مشروع تقريباً، فقد بدأنا في شراء كميات ضخمة من المجوهـــرات غير الثمينة، ثم أعدنا بيعها في متاجر العاديات الأثرية في أرجاء منطقة الـــولايات الثلاث: نيويورك، ونيوجيرسي، وكونيكتيكت. عندما تفكر في الأمر تجـــده مثيرا للسخرية: فقد اعتدت أن أدس مجوهرات زائفة وسط أكياس البضائع عـــندما كنت أجد بعضها وسط البضائع المشروعة عقب عملية السطو، وها أنذا "القط" العجوز بنفسي أجول بائعا البضاعة المقلدة للسائحين.

شرعت أيضاً في ترميم الأثاث، وهو هواية ممتعة، وجيدة الربح عندما لم أهدِ البـــضائع لـــلأولاد. كما اشتريت أنا وفران متجراً في كونيكتيكت، حيث يمكنني العمـــل، وتخزين البضائع التي أنتهي منها، وسرعان ما صار لديّ فيض من الزبائن الذين يفدون لرؤية ما كنت أعكف عليه. كنت أبيع كل قطعة قبل حتى أن أنتهي من نصفها. كان مارك متزوجا الآن، وكان بصدد البدء في مشروعه، وكانت لورا بالجامعـــة في تالا هاسي، وكانا يزورانا مرارا، ولا سيما متى كنا في المدينة، لكن ســـوزي كانـــت تعيش في جنوب أفريقيا، مما جعل زيارتها لنا أمراً عسيراً بعض الشيء.

فاجئـــنا مارك جميعا عندما قرر أن الوظيفة العادية لم تكن ملائمة له، وأعلن عن رغبته في الاعتماد على نفسه، وأنه سيصبح مثالاً على الرمال. لا يمكنني القول إنـــني كـــنت سعيدا جداً بقراره هذا، فقد كان شابا خارق الذكاء، وقضى أربع سنوات بالكلية يدرس تخصصه، وشعرت بأنه على وشك إضاعة حياته سدى. بدأ عملـــه الخاص، وحقق فيه نجاحاً هائلا. كان هو، وفريقه من النحاتين على الرمال يجوبـــون أرجـــاء العالم لصنع تماثيل من الرمل والجليد للمؤتمرات، والمهرجانات، والاحـــتفالات، والمتنـــــزهات الخاصـــة بالنيابة عن المؤسسات الدولية الكبرى. وبعكوفه على هذا لما يزيد عن أربعة عشر عاماً، فاز بلقب في بطولة العالم، وأحرز ثلاثة أرقام قياسية عالمية في موسوعة جينيس.

ســـبق أن قلت أنني وفران مضينا بشكل مشروع "تقريباً". كانت مشاريعنا ممتعة، ولكننا لم نجنِ منها الدخل الذي كنا نبتغيه. كان ما يزال بحوزتي العديد من

المجوهـــرات المسروقة المخبأة في كليفلاند، وفلوريدا، وبصورة دورية كنت أغوص داخـــل المخزن، وأبيع بعض القطع في الشارع السابع والأربعين في نيويورك، وأبيع بعض البضائع الأثمن في شارع كريستي وسوذيباي.

كـــان أوجي شقيق بارب يعيش في ذهبية (مركب مُعَدّ للسكن) على خليج بيسكين في فلوريدا. وكنا نـــزوره مرارا، وكم عشقت أسلوب معيشة الاسترخاء بجانب الماء تماماً. بعد مضي حوالى عامين من انتقالنا إلى نيويورك، اتصل قائلاً أنه، وصـــديقته ســـيبتاعان ذهبية أكبر حجماً، وما إذا كنت أنا وفران نرغب في شراء منـــــزلهما. استغرق الأمر مني قرابة الخمس دقائق كي أتخذ قراري، بيد أن فران كانت أصعب في مسألة البيع والشراء. فقد قالت في ازدراء: "اليهوديات الراقيات لا يقمن في ذهبيات".

أوضحت لها قائلاً: "واليهوديات الراقيات لا يهربن بصحبة لصوص مجوهرات أيـــضاً". في الـــنهاية، كنت قادراً على إقناعها بنقل عملنا إلى هناك خلال فصول الشتاء، والعودة خلال فصول الصيف، لذا حزمنا أمتعتنا، وانتقلنا. صرنا مباشرة في قلـــب واحدة من أرقى مناطق شاطئ ميامي، وهي منطقة مكتظة بالمعارض الفنية، والمطاعم الفخمة، والقصور المبهرة، وكان الأصدقاء وأفراد العائلة يزوروننا دائماً.

بعـــد انقضاء حوالى عامين من استقرارنا هناك، ظهرت ذهبية أخرى في السوق، وكانت مملوكة لوالدي بي - جي، وخيل إليّ أن مارك، الذي انتقل حديثا إلى سانت تـــوماس، قد يكون مهتما بذلك. كان مارك يحب فكرة العيش في ذهبية بالقرب منا، لذا آتي إلى فلوريدا، وابتاع القارب، وعاش معي وفران بينما كنا نجدد بناءها تماماً. في ذلـــك الوقت، كانت بارب وفران قد تعرفتا على بعضهما بعضاً تمام المعرفة، وكانتا على وفاق تام، لذا كانت بارب تزورنا مرارا لرؤية شقيقها، وولدها، ورؤيتي.

بعـــد إتمام عملنا بفترة وجيزة داهم إعصار أندرو أنحاء فلوريدا، وطلب منا إخـــلاء المكان. كان مارك بعيداً بالفعل في مهمة نحت، وقد أرسلت زوجته وفران وبارب للبقاء مع لورا في أورلاندو، بيد أنني لم أتمكن من التخلي عن القاربين. ثم شرعت الشرطة في الحضور بمكبرات صوت آمرة الجميع بمبارحة المكان، وكان في ذلك تحديد لقرار بلا رجعة بالنسبة لي: لن أذهب إلى أي مكان.

تحركت العاصفة بشكل طفيف صوب الجنوب، وأزاحت عنا غضبها العارم. وعند بزوغ الفجر نجت ستة من القوارب السبعة التي كانت مقيدة بمرفأنا، رغم أن المرفأ ذاته قد تم تدمير ما يقرب من تسعين في المائة منه. بيد أن قارب مارك، وقارب أوجي، وقاربي لم يلحقها سوى بعض الأضرار البسيطة، بيد أن القوارب قد غرقت جميعها في الخليج. واصلت المدينة عملها على قضيتنا لإغلاق المرفأ، وعلى الرغم من أننا أصلحناه أفضل ما يكون، رغم أننا لا نملكه، إلا أنهم استمروا في التذمر. مر عام من المنازعة القانونية، وبعدها أهداني مارك بحفيدي الأول، وفي يوم مولدي أيضاً. (حتى وقت كتابة هذه الأسطر فقد أنعم الله عليَّ أنا، وفران بتسعة أحفاد بين ظهرانينا). قرر مارك أنه قد حان الآن وقت الرحيل، وقد وافقت، لذا عرضنا قواربنا للبيع بالسوق. تم بيع قاربي أولاً، وكنا في شدة الحزن ونحن نرقب جذبها بعيداً.

* * *

بعد أن حاصرت راي ساندستروم الالتزامات المالية الناتجة عن طلاقه عدة مرات، أحس بضرورة مبارحة فلوريدا الجنوبية، وقصد ويومينج، وقتل هناك عندما اعترضت طريق سيارته شاحنة تحمل قطع الأخشاب. ومع ما رأيته من ولع راي بإخفاء أرصدة نقدية ضخمة، فلم يعد في مخيلتي أدنى شك أنه في مكان ما في هذه الولاية مترامية الأطراف توجد نقود طائلة مخبأة تحت الأرض داخل خزائن مؤمنة جيداً. وقد أنفقت العديد من مطلقاته مالا وفيرا على العلماء الروحانيين في محاولة لاكتشاف مكمن هذه الأموال.

أما شريك راي، فريد حداد، فما زال على قيد الحياة، وليس هذا فقط بل لقد عدل مسار حياته بدرجة تثير تساؤلي أحيانا عمن احتل جسده، وماذا فعلوه بشخصية فريد الفعلية. كانت لديه ممارسة مهنية ناجحة بشكل هائل في فورت لوديرديل، وتم إدراج اسمه في الطبعة الحالية من كتاب *أفضل المحامين في أميركا*. ويسرني أن أقول إننا لا نزال صديقين حميمين.

انتقلت أنا وفران عائدين إلى نيويورك بصفة دائمة، وسارت بنا الحياة مباركة بنعمة الهدوء. لا نزال نعمل في تجارة المجوهرات غير الثمينة والآثار القديمة،

ونمضي وقتاً هائلا في السفر، غالباً لرؤية العائلة. وقد كان الفضول الفائق الحد لأبنائنا الناضجين تماماً الآن، وبعض الأصدقاء المقربين هو السبب الذي دفعني لأقرر كتابة هذه التفاصيل على الورق.

قصة واحدة أخيرة:

في عام 2002 استعانت لجنة الولايات المتحدة الأوليمبية بمارك لبناء متاهة ضخمة مصنوعة بأكملها من الجليد للألعاب الشتوية في مدينة سالت ليك، بولاية يوتاه. وبالإضافة إلى فريقه المعتاد، قرر الاستعانة بموهبة جديدة، ألا وهي بيل ويللينج وأنا. قام مارك بإعداد التصميم بنفسه، ثم عكف سبعة منا على العمل لساعات طوال في إعداد نماذج خشبية، واجتراف الجليد، وسكب الماء، ثم نسجل النماذج، ونقوم بالنحت اليدوي للمسات الأخيرة. كان أضخم متاهة جليدية تم تشييدها من قبل، وكانت مساحتها الكلية اثنتي عشرة ألف قدم مربع (القدم المربع يساوي 0.09 متر مربع، مع ما يزيد على ألف قدم متتابعة من الجدران التي يبلغ ارتفاعها سبعة أقدام (القدم يساوي 30 سم). وبينما كنا نشيدها، جذبنا انتباه الصحافة المحلية فقط، ولكن فور ما كانت الألعاب على وشك البدء، أضحت المتاهة مصدر الجذب الضخم الوحيد تقريباً، فضلا عن الاحتفالات الرسمية، والمتبارين أنفسهم. احتشد جمع غفير من الناس في كافة أرجاء المكان يطلقون عبارات الإعجاب والدهشة، وانبرى خمسون ألفا تقريباً في التقاط الصور بينما كانوا يجوبون جدران الجليد. صوّر برنامج عرض *اليوم* التابع لمحطة إن. بي. سي فيلماً عظيما مع كاتي كوريك، وآل بوكر، ومات لور، وبحوزتهم كرة، وهم يركضون داخل المتاهة في محاولة لتلمس طريق الخروج.

أتساءل ماذا سيظنون لو علموا أن المتاهة الهائلة الشهيرة تم بناؤها على يد لص مصرفي وسارق مجوهرات.

الخاتمة

أحــــسب أن الـــسؤال الكبير، عندما أنظر إلى حياتي فيما مضى، هو نفسه بالنـــسبة لأي فـــرد عاش حياة صعبة، ويتأمل في ماضيه: لماذا فعلت الأشياء التي ارتكبتها؟

حيـــنما ألح علـــيَّ الأصدقاء كي أسطر كتابا (رفضوا بأدب أن يضيفوا جملة "قبل أن تقضي نحبك")، بالطبع كان يدور في خلدهم سرد بعض من أكثر عمليات الـــسطو الـــتي قمت بها إثارة، لأنه بغض النظر عن تلك العمليات المثيرة، فإنني لا أختلف كثيراً عن ملايين اللصوص العاديين. وحتى الوقت الذي شرعت فيه بتدوين مذكرات، وذكريات الماضي، بدا أنني أنا نفسي فكرت في أن هذا هو المحور الذي دارت حوله حياتي. والآن، وقد مررت ببعض من التجارب المؤلمة بحق للبحث عن الـــذات، وبما أنني قد اضطررت إلى تجميع الكثير من الذكريات التي دائما ما كنت أفكـــر في أنها من الأفضل أن تظل في طي الكتمان، أدرك أنه كان هناك الكثير من الأمور التي لم أقدرها حق قدرها في وقتها. إنني ظننت أن هذه كانت كل ما تعلق بحياتي. ومن دواعي ندمي الأبدي أن أغلبها يبدو أنه يتمركز حول باربارا.

كانـــت عملـــيات السلب بالتأكيد مواضع مثيرة، ويجعلها تدوينها في كتاب تـــبدو وكأنها كانت سلسلة متوالية من عمليات السطو الماهرة. ولكن الحقيقة هي أنها حدثت على مدار ما يزيد على ثلاثين عاماً، وبالتالي فقد كانت قليلة، وتخللتها فترات طويلة. وأغلب الوقت كانت أسرتنا تبدو عادية جداً، بل وقد كانت بالفعل كـــذلك، كمـــا كانت بمنأى عن أي خلل. وقضينا الكثير من الوقت معاً كأسرة



أنا وفران عام 2003.

متـــرابطة يجمعهـــا الود، وقضينا العديد من العطلات الأسرية، لذا فلم يكن مثيرا للدهـــشة أن تواصـــل بارب أملها في أنني سأصبح إنسانا آخر قبل انقضاء وقت طويل، وسوف أقدر ما لديّ، وأتجنب المجازفة به.

للقول إن بارب كانت سيدة بحق، وأما رائعة لثلاثة أطفال هائلين لا يعني أنني قـــد بـــدأت حتى في أن أتحدث عن شخصيتها. إنني لم أرشحها للقدسية - فقد كانت لها عيوبها، مثلنا جميعا - بيد أنها كانت زوجة محبة، ومخلصة استحقت زوجاً أفـــضل مما كنت. كانت تعلم أن بإمكانها الاعتماد عليَّ في أي شيء، لكن كان يجـــب أن يكون الأمر بالنسبة لها في كل مرة أخرج فيها من الباب، ولا تعلم إن كـــنت سأعود، أم لا؟ أظن أن أمر جلوسها بالبيت منتظرة لترى إن كنت سأعود إلى المنـــزل، أو أنـــه قد تم إيداعي بالسجن أو أصبت بجرح أو قتلت كان أكثر صعوبة من قيامي بالسرقة. فعلى الأقل كان لديّ بعض السيطرة على الموقف، أما هي فلم تكن تملك من الأمر شيئاً. وحيث إنني لم أخبرها قط عن عمليات السطو،

الوشـــيكة الحـــدوث أو التي قمت بها بالفعل، فلم تعرف أبدا عندما أرحل ما إذا كنت ذاهبا لشراء علبة سجائر، أم أنني كنت في طريقي لسرقة كبرى كنت أخطط لها منذ شهور. ومن الجدير بالذكر أننا لا زلنا قريبين جداً من بعضنا البعض، ونرى بعـــضنا من حين لآخر (بارب وفران صديقتان حميمتان)، مما يزيد من حدة الذنب الهائل المتعلق بمدى سوء قيامي بواجبي حيال زواجنا.

بالطبع كانت هناك اكتشافات ظهرت مؤخراً في حياتي. فبعد فترة قصيرة من بيعـــي للقـــارب (الذهبية)، أغرى محتال يعمل لحساب إدارة مكافحة المخدرات أوجي، شقيق بارب الأصغر بشراء بعض الكوكايين. كانت خطة محكمة الإعداد مـــن الـــبداية إلى النهاية، وواحدة من أبرز قضايا الفخاخ الصارخة التي رأيتها في حياتي. فلم يكن أوجي ساذجا، وكان قد أمضى عامين بالسجن الفدرالي، لكن لم يكن ثمة سبيل إطلاقاً لمضيه في إتمام الصفقة، ومخاطرته بإلقاء القبض عليه مرة أخرى إن لم يكـــن قـــد تم استمالته، وحثه على الانخراط فيها. والآن، فإنه كان يواجه حكما محتملاً بالسجن مدى الحياة لارتكابه ثلاث جنايات.

مـــبرر ذكري هذا هو أنه منذ وقت لقائي الأول به تقريباً حينما كنت أواعد باربـــارا، كان أوجي بمثابة شقيقي الأصغر، ودائما ما كنت أحاول فعل كل شيء - مـــشروع، أو غير مشروع تماماً - لمعاونته. وكانت هذه هي أول مرة أدركت فيها بصدق مدى عذاب وألم العجز الذي يمر به هؤلاء الناس الذين يحاولون بكل مـــا أوتوا من قوة إخراج من يحبونهم من قبضة "نظام السجن". إن فكرة قيام مجرم رخيص بدفع أوجي إلى الاتجار في المخدرات بتوصية من السلطات الحكومية لمجرد أن يـــنجو هـــذا المجرم بنفسه دفعني إلى الغضب العارم. كنا نصطدم بصعوبة تلو الأخـــرى أثناء تحركاتنا في محاولة لفعل شيء ما لمساعدته، ولكن ذلك كان يزيد الأمر سوءا، وعندما انتهى كل ذلك - حكم على أوجي بخمس سنوات - شعرت في داخلي أخيرا كيف كان الأمر بالنسبة لبارب وبيل ويللينج وأطفالي وأمي عندما نـــصبت لي شرطة فورت لوديرديل كمينا للإيقاع بي. تكون الليالي أسوأ عندما لا يكون لديك ما تفعله سوى أن ترقد في فراش دافئ وثير، وتعذب نفسك بما يعانيه الشخص الذي يقبع في السجن.

إنني مختلف تماماً الآن، ومن الصعب أن أصدق بعض الهراء الذي دار في عقلي عــندما كنت أقدم لبارب والأبناء تأويلاً عقلانياً للمخاطرة عندما أرغب في القيام بعملــية ســرقة وشيكة. كنت أنانيا، وعشقت الإثارة، وكانت لديّ العديد من الأساليب لطمأنة نفسي. وبعد فترة أضحى من الأسهل والأسهل أن أغادر البيت، وأن أبعــد عن ذهني الأسرة، وأن أركز كل تفكيري في العمل. ليس فقط أسهل، بــل خطيراً تماماً؛ فقد كان نوع عملي يتطلب ألا أسمح لعقلي بالشتات للحظة في الوقت الخاطئ.

كــان لدى فران أيضاً فرصة كافية ومبررات عديدة للابتعاد عني، بيد أنها مــا لبثت تواصل الحفاظ عليَّ. وقد آزرتني أسرتي الثانية، وأحبتني كأنني فردا منها.

وأشكرهم على ذلك، كل يوم، ولا يسعني إلا أن أعتذر منهم فقط عن الألم الذي سببته لهم، وأعتذر لكل شخص تسببت في إيذائه.

طالما أنني أقوم بالدعاية لنفسي هنا، فربما أشير أيضاً إلى شيء قد لا يكون جليا. أعاود التفكير في رائعة تشارلز ديكينــز الخالدة، ترنيمة عيد الميلاد. فعلى الــرغم من كل ما يمر به سكروج عندما يجبره الأشباح الثلاثة على إعادة النظر في حــياته، فإن الشيء الوحيد الذي جعله يلتفت في النهاية هو مواجهة حياته الفانــية. بالطبع كان يشعر بالسوء حيال كل ذلك الأسى الذي سببه للآخرين ولنفسه، ولكن فقط عندما يرى قبره يسقط في النهاية أرضا، ويتوسل للحصول علــى فرصة لتغيير أساليبه. وعندها فقط يتمثل أمامه حقا مدى البشاعة الهائلة التي كان يتسم بها.

كــان الأمر أشبه بذلك معي. فقد كنت أعي مدى الفوضى، والحسرة التي كنت أسببها لمن يحبونني، ولكن فقط عندما انــزلق السلم من تحتي، وأنا على قمة مبنى شاهق الارتفاع نبذت السرقة. والآن، بالطبع، وبعد أن فكرت في الأمر مليا، وتوصــلت إلى فهــم مدى جسامة الألم الذي سببته، أجد أنه من غير المتصور أن أعود ثانية إلى ممارسة السرقة، بيد أن الاحتمال المباشر لموتي العنيف كان هو الذي ردعني في المقام الأول.

اعتدت أن أقول إنه من بين كل الأشياء التي ندمت عليها في حياتي لم تكن سرقة الجواهر من الأثرياء أحدها. ولكن هذا لم يعد صحيحا، إذا ما كان صحيحا في أي وقت من الأوقات. ربما كان السلم الساقط هو الذي حملَني على التوقف عن السرقة، بيد أن تدوين هذا الكتاب هو الذي جعلني أبدأ في التفكير.

كان تدوين كل هذا على الورق تجربة مرهقة، بل ومرعبة نوعاً ما. فبالإضافة إلى الألعاب الذهنية التي مارستها طيلة حياتي لتجنب التعامل مع الأثر الذي كنت أخلفه على أسرتي، كانت هناك حقيقة أنني لم يكن لديّ مراعاة للناس الذين سرقتهم. كنت أدفع نفسي للقول بأنني أبغض امتلاكهم للكثير من المال، ولكنني لم أكن كذلك. بل في الحقيقة لقد أعجبت بالأثرياء، على الأقل هؤلاء الذين بنوا ثرواتهم بأنفسهم. فعلى كل حال، ألم أكن أنا نفسي أسعى بشكل ما لمحاكاتهم بمشاريعي العقارية؟ بيد أنه كان ضروريا ألا أسمح لنفسي أن أراهم كأناس طيبين، وإلا، فلم أكن سأتمكن من سلبهم.

والآن وقد ألقيت نظرة شديدة الألم على حياتي، أجد نفسي أقل تجاهلا، ولا مبالاة بكثير من الأشياء التي فعلتها. وكون بعض الأشياء التي سلبتها كانت لها قيمة تتعدى القيمة المادية بالنسبة لأصحابها الأصليين، فإن هذا الأمر لم أفكر فيه كثيراً، ولكنه يصبح من العسير بمرور السنين أن أغفل تلك الاحتمالية. وهذا شق من سبب تبرعي بجزء من عائدات هذا الكتاب لمؤسسات تعويض الضحايا في أوهايو، وفلوريدا.

أما الشق الآخر من السبب فهو أن هناك أمراً آخر يتعلق بالسطو قد لا يكون ظاهرا في الأحاديث الإخبارية المثيرة: وهو شعور الضحايا الكئيب المزعج بالانتهاك.

فإن كان قد سبق لك أن سرقت حقيبتك من ناقلة الأمتعة بالمطار، تدرك أنها على الرغم من أن في ذلك غضباً عارماً، ويمكن أن يتبعه نفقات هائلة، ولكنك لن تأخذ الأمر على الأرجح على محمل شخصي، أو تشعر بأنك منزعج بشأنه بشكل خاص، بغض النظر عن غضبك بسببه. بل في الحقيقة فإنك من المحتمل ألا تفكر كثيراً بشأن السارق، وإنما ستوجه أغلب حنقك على الخطوط الجوية لفشلها في حماية أمتعتك.

أما اقتحام منزلك فهو شيء مختلف تماماً. فهناك إحساس راسخ بالاضطراب لفكرة أن شخصاً غريباً قد تجول في غرفة معيشتك، أو غرفة نومك، وعبث بحاجياتك. من المثير للاهتمام، أن العديد من الضحايا يكونون أكثرا انزعاجاً لاكتشاف زجاجة فارغة على المنضدة، ويدركون أن المقتحم قد فتح الثلاجة، وأخرج زجاجة من المشروب المفضل، وجلس *على مائدتهم*، وسكب لنفسه كأساً مثلجاً، وهو أمر لا يشعرون به عند اكتشاف أن مجوهراتهم وأموالهم قد سلبت. إنه أمر يصعب تفسيره، ولكنه يؤثر في جميع من تعرضوا للسطو تقريباً، وليس الخوف فعليا من احتمال عودة اللص ثانية. إن لذلك صلة بنوع من الحاجز المقدس الذي تم خرقه، وجعل الناس يشعرون بذلك هو أكثر الأمور التي أندم عليها فيما يتعلق بسرقتهم.

ومع ذلك، فإن هذا الأمر يبدو بسيطا مقارنة بالأذى الذي سببته لهؤلاء الناس القريبين مني، والذين سرقتهم بطرق أكثر عمقا، وأهمية.

لقد أدركت أشياء أخرى كذلك. وكنت أود أن أشير في هذه الصفحات إلى ما كان يدور في عقول أسرتي وأصدقائي، ولكنني وجدت أني لا أستطيع فعل ذلك. فلدي ما يكفي من المشاكل في محاولة اكتشاف نفسي، وكلما عدت بذاكرتي إلى الوراء أكثر، يزداد إدراكي لمدى أنانيتي، وتدني سلوكي. كان من الصعب عليَّ التعرف على أي شخص آخر؛ حيث كان همي الأول هو إرضاء الذات، باستثناء عندما كنت في السجن، ثم تحولت تلك الأولوية لجعل كل فرد يعمل لتحقيق تلك الغاية. لقد كنت منغمساً في ذاتي جداً بدرجة منعتني من التفكير فيما يفكر فيه الآخرون. ربما نجم هذا عن ذلك المزيج بين كوني طفلا وحيدا، ثم تحولي إلى رب أسرة في سن صغيرة، ولكنني لا أعلم بالفعل، ومن الصعب أن أكتشف ذلك: فبالرغم من قضائي لكثير من الوقت مع الأولاد الآن، إلا أننا لا نتحدث كثيراً عن ذلك الجانب من ماضينا.

ما زال هناك سؤال يطرح نفسه: مع وجود امرأة مثل بارب، وثلاثة أبناء رائعين في حياتي، لماذا لم أتمكن من ردع نفسي من ارتكاب شيء أدركت أنه كان هداما للنفس، وأنانيا؟

بالتأكيد لم يكن المال هو السبب؛ فلم أكن بحاجة إليه، و لم أنفق جزءا بسيطاً مما سلبته. وكذلك لم يكن الدافع هو الزوجة الملحة، المادية أيضاً: ففكرة بارب عن قضاء يوم حافل كانت في الذهاب إلى مجموعة من عروض الأغراض المستعملة، و لم تكن تشتري أي شيء يزيد عن دولارين، ثم الخروج للعشاء معي.

ليس هناك أدنى شك أيضاً أنني كنت قادراً على ضبط نفسي بدرجة كبيرة. فقد كان بإمكاني أن أصبر، وأقبع بلا حراك لساعات عندما تقتضي مهمة السلب ذلـــك. وكان نظام تدريبي قاسياً، وقد جعلت نفسي قوياً، وذا لياقة بدنية حتى إنه كـــان بإمكـــاني تسلق الأحبال دون استخدام قدماي، والتشبث بالاستعانة بأنامل أصابعي لفترات طويلة من الزمن.

كـــذلك فإنني لم أقضِ حياتي تحت رحمة مجموعة متنوعة من الرغبات الملحة المعـــروفة؛ فقـــد دخنت السجائر، واحتسيت المشروب المفضل، ومن وقت لآخر كنت أتناول بعض العقاقير المنشطة، ولكنني لم أكن في أي وقت من الأوقات قريباً حـــتى مـــن الـــتعلق بأحدها. عندما كنت بالسجن بدون المشروب المفضل، أو المخدرات، اشتقت إليهما بالتأكيد - في داخل السجن تفتقد كل شيء - بيد أن ذلك لم يكن بالأمر المهم.

ومـــع ذلـــك، وفيما يتعلق بإثارة عملية سطو كبرى، ذلك الشعور بالنشوة الهائلـــة الـــتي لا يمكـــن وصفها، والتي تصحب التنفيذ المتقن لخطة محكمة شديدة الخطورة، فقد كنت متعلقا بها حتى الثمالة كمدمن الهيروين. كان لا حول لي ولا قـــوة أمام إغراء الأدرينالين الذي يفيض من كل عملية سطو خطيرة، و لم يكن لي مـــن حـــيلة على الاطلاق أمام تحدي فعل ما يبدو مستحيلاً. كان الخروج بشكل عادي من مبنى، وأنا أحمل حقيبة ملأى بالأحجار البراقة بعد شهور من التخطيط، انـــدفاعاً لا مثيل له. أما الشيء الوحيد الذي كان يخيفني بشدة، وهو قضاء عقوبة بالـــسجن، فقـــد كانـــت لديّ سيطرة كاملة عليه - فكل ما كان عليَّ فعله هو الاستقامة - ومع ذلك فإن هذا الخوف لم يمنعني من انغماسي في تلك الشهوة.

أظـــن أنـــه مـــن الإنصاف أن أقول إنني بعيد كل البعد عن أن أكون عدواً للمجـــتمع؛ لسبب واحد، وهو أنني كونت العديد من العلاقات العاطفية العميقة

الدائمـــة. يمكنك أن تتهمني بإغواء سيدة محترمة تماماً، ضعيفة أمام الإغواء، وتعد شخصية بارزة في مجتمع وسط الغرب، لتترك زوجها، وتشاركني نمط الحياة الخطر، غـــير المحدود - وقد يكون لديك وجهة نظر منطقية، ولكن يمكنني على الرغم أن أثـــبت أنها أغوتني هي الأخرى - بيد أن علاقة الحب التي جمعتنا لا تزال مستمرة بعـــد ما يقرب من خمس وعشرين عاماً. كما أنني لم أنكر أبداً ما كنت أفعله، و لم أحاول أن أجد له التبرير بمنطق ملتوٍ. كنت مدركاً تماماً أن ما أفعله خطأ، ولكنني ببـــساطة افتقرت إلى الإرادة لمنع نفسي من فعله، وبمرور الوقت تعلمت ألا أشغل بـــالي بـــذلك الأمر كثيراً. في النهاية، على عكس عدو المجتمع، فإن لديّ ضميراً. وندمـــي علـــى الألم الذي سببته للقريبين مني ندمٌ حقيقيٌ وعميقٌ، وأبذل قصارى جهدي لأقدّم ترضية لهم.

جميعنا نعرف مدمني المخدرات، والمشروب المفضل، والقمار الذين يشاهدون حياتهم العائلية تنهار وهم عاجزون عن وقف ذلك، وبالتالي أفليس من المحتمل أن تكون هناك شخصية "مدمن الجريمة" كذلك؟

أود أن أتمكن من إثبات أن حياتي المارقة عن القانون كانت وليدة مجموعة مـــن القوى الفريدة، بيد أن تلك كانت القوى التي مكنتني من السرقة. ولكنها في الأســـاس كانـــت مجمـــوعة عادية من مواطن الضعف. ولكي أكون شديد الصراحة، فلو أتيحت لي تلك الخيارات لأختار منها مجددا مع معرفتي بما أعلمه الآن، لا يمكـــنني القول بأمانة إنني سأسلك منهاجا مختلفا، لأنني علمت بذلك وقتها أيضاً.

أمـــا ما لم استطع اكتشافه بعد، فهو من أي مصدر نشأت تلك الرغبة. أشير مازحـــا إلى كروموســـوم "النـــزعة واي"، كما لو كنت قد تسلمت شخصيتي الأساســـية عند الميلاد، ولكنه من المحتمل بشكل متساوٍ أنه كانت هناك عوامل في طفـــولتي قد دفعتني باتجاه خرق القانون. "الطبيعة ضد النشأة" هي بالطبع مناظرة جدلـــية قديمة بين العلماء والفلاسفة وعلماء النفس، ولست ذكيا بما يكفي لتذكر ذلك، ولكنني أظن أنه كان هناك مزيج فعال بين الاثنين. ربما لو لم يكن والدي قد قضى نحبه فجأة هكذا في مرحلة عصيبة من شبابي، لصرت مختلفاً. ربما لو كان قد

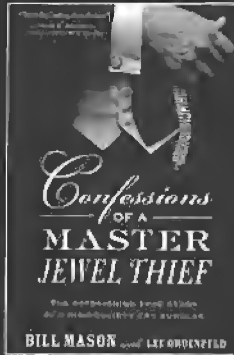
سيطر عليَّ ناصحون مستنيرون في المدرسة الثانوية بدلاً من تلك النخبة السرية، أو لـــو لم أشترِ سيارة، وأشرع في التسكع بها في متجر سيارات يحفل بمجموعة كاملة مـــن عـــتاة المجرمين، أو لو كان قد تم القبض عليَّ مرة ثانية عقب ذلك الاقتحام المفتقر إلى المهارة لمحطة الوقود...

ولكـــن مـــن يدري؟ كل ما أعرفه يقيناً هو ما حدث، وليس ما يمكن أن يحدث.

إعترافات
لِصُّ مُجَوهَراتٍ مُحتَرِف

تروي هذه الاعترافات المشوقة والآسرة لهذا اللص المحترف، قصته الحقيقية وحياته المزدوجة، كإنسان عادي مسالم نهاراً، ولص مجوهرات يقتحم منازل الأغنياء والمشاهير ليلاً.

لا شك أن بيل مايسون هو أبرع لصوص المجوهرات قاطبة. فخلال ثلاثين سنة في مهنته، استطاع التسلل إلى دوائر المجتمع المخملي الداخلية حيث سرق ما قيمته أكثر من 35 مليون دولار أمريكي من مجوهرات المشاهير، حتى أن أصابعه الرشيقة امتدت إلى خزائن المافيا. وعبر تاريخ مهنته هذه استطاع إغواء سيدة مجتمع للإنفصال عن زوجها الصناعي، وكاد يُقتل بعد إصابته خلال عملية سطو، كما استطاع إقناع مؤسستي كرستيز وسوبثي العالميتين باقتناء مجوهراته المسروقة، حتى أنه عاش طريد العدالة على كامل الأراضي الأمريكية لخمس سنوات. ولكن، ورغم جهود قوى الأمن في عدة ولايات إضافة إلى الحكومات الفدرالية، فإنه لم يقضِ سوى ما مجموعه ثلاث سنوات في السجن فقط.



ورغم أنه مراوغ، ومتكتم ويعيش في الظل، فإنه كان على صدر الصفحات الأولى في المجلات والصحف، ولكن أحداً لم يفلح في الحصول منه على كل الحقائق.

والآن، وعبر كلماته الخاصة وبدون أي عوائق، يكشف كل شيء، وتظهر القصة الحقيقية التي لم يستطع مطلق صحفي أو رجل مباحث أن يصل إليها أو حتى أن يحلم بها.

بيل ماسون يعيش اليوم كرجل أسرة عادي، ومدير عقارات، ومستثمر، وهو الذي كان في عتمة الليل أنجح لص مجوهرات عرفته هذه المدينة من قبل. إنه يقيم حاليا في مدينة نيويورك.





الدار العربية للعلوم . ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com

ص ب 5574-13 شوران 2050-1102 بيروت – لبنان
هاتف: 785107/8 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)
البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb

جميع كتبنا متوفرة على شبكة الإنترنت
نيل وفرات.كوم
www.neelwafurat.com

ISBN 9953-87-082-9


9789953870823